البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

تصدرها ندوة العلماء لكهنؤ

★ العدد الأول
★ المجلد الثامن والعشرون
★ رمضان ١٤٠٣هـ
★ يونيو ـ يوليو ١٩٨٣م

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

أخي المسلم

أخي في العقيدة و الدين لا في التراب و الطين ، أخي على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخي في النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخي في الحق و الصبر في الوطن و المهجر ، أخي في مهبط الوحي و منبع الصبح الصادق في ليل الانسانية الغاسق ، أخي في زهرة الصحراء و درة الخليج بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخي في اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخي في الله !

نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك في وجه الباطل ، زاداً لك في طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك في صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمي في مجلة ، أوزبون في محل تجارة !

[محمد الحسني - رحمه الله]

رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

المراسلات :

البعث الإسلامي
ندوة العلماء ص.ب ٩٣
لكهنؤ - الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Box No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

محتويات العدد

رأي القاري

« مجلتكم اسمها « البعث الاسلامى » هل تعبر المجلة عن مرحلة البعث الاسلامى » ؟

هـــذا السؤال بالضبط وجهـــه إلى كاتب إسلامى شهير ، و بالتـالى داعية و مفكر إسلامى !

فقلت له رداً على سؤاله :

إننى لا أدعى بأن المجـلة تعبر عن مرحلة البعث الاسلامى مأة فى المأة ، و لـكننى أقول بشئ من الاعتزاز : إن هذه المجلة سماهـا سماحة مربينا الجليل العلامة أبى الحسن على الحسنى النـدوى بهذا الاسم فى وقت لم يكن يدور فى خلد الناس مثل هذا التعبير الجميل . الذى يعنى العودة إلى الاسلام من جديد ، أو بمعنى الانتفاضة الاسلامية ، و إن تأسيس المجلة على أساس هذا المعنى و تسميتها بهذا الاسم يوفر دليلا على أنها التزمت بالهدف الذى توخته منـذ أول يومها ، و تابعت سيرهـــا عــــلى خط « البعث الاسلامى » بموادها الهادفة و بحوثها الموضوعية و دراساتها العلمية .

ومن هنالك نستطيع أن نتأكد تعبير المجلة عن البعث الاسلامى ، خاصـــة و هى مستمرة فى أداء رسالتها منذ ٢٨/ عاماً من غير انقطاع ، فانها ما دامت تواصل رحلتهـــا ستبلغ إلى الغـاية اليوم أو غداً باذن الله تعالى .

و لو لا أن المجلة نجحت إلى حد كبير فى التعبير عن معنى البعث الاسلامى لما كسبت لها قراء معجبين بها ، و أصدقاء من أصحاب الأقلام الرفيعة و الكتابات الهادفة البناءة .

سعيـــد الأعظمى

هذا عطاؤنا . . . يعم الناس جميعاً !

بجرد « الانسان » من غير تقيد بمذهب أو منهج ، مضمون المستقبل على أساس العمل الدائب والسعى المتواصل ، الذى يقوم به للتوصل إلى الهدف المنشود ، و لتحقيق غاية يخلص لها و يتفانى فى سبيلها ، و لقد سجل التاريخ قديماً و حديثاً ، تجارب البشر من الأمم والشعوب المختلفة ، ممن لم تكن لهم مكانة بين شعوب العالم ، و لكنهم أدركوا السر فى تقدم الأفراد و الجماعات ، و علموا أن الولاء العملى للهدف لكفيل بخروجهم من حزام الخمول و البطالة و الدخول فى مناعة العز و الكرامة ، هذه القاعدة الطبيعية تعم الانسان من كل مذهب وجنس ، ولاتتوقف على أيدولوجيات أو فلسفات أو خصائص و مميزات قومية و وطنية ، بل الواقع أن مجرد الانسان رغم اختلافه فى الموازين الخلقية و الأحجام العقلية ينال العطاء بقدر ما يطلبه و يسعى إليه .

ترون أن خالق البشر لم يفرق بينهم على أساس دينى أو التزام مادى ، فى هذا العطاء الربانى، ولكنه أعلن مدوياً بجلجلا أن كل إنسان متساو فى المنحة والمدد، فان ركز على الفوائد المادية و الأرباح العاجلة فحسب ، و انصرف عن معطيات الحياة الآخرة و مكاسبها الطيبة ، وجدها بحكم الانصاف فى حياته الدنيا ، و إن كان الشعور الدينى و الطبيعة الحقة يدعوان صاحبهما إلى الفوز بالعطاء الحقيق و التمسك بذيل الآخرة و السعى لها ، و لا شك فان الانسان المؤمن إنما يحن إلى عطاء الآخرة و يراه ماثلا أمام عينيه ، إلا أن نتائج السعى تتوقف على إنسانية الانسان فى الدنيا ، لا على نظرته الدينية أو المادية التى لها اعتبارها فى ميزان الحساب يوم الحساب « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً »

أمامنا اليوم أمثلة حية للشعوب التى لم يكن لها كبير وزن فى الميزان الحضارى

و الصناعي ، و لكنها اعتمدت على السعي و العمل و شمرت عن ساق الجد في مجالات التقدم المادي من غير يأس عن المستقبل المضمون و بكل ثقة في النجاح المعلوم ، فأحرزت انتصاراً كبيراً في عالم التصنيع وحققت معجزات في تكنولوجيا العلم والعقل الالكتروني ، و وصلت إلى القمة في الابداعات . وباستخدام العقول الالكترنية أدهشت علماء الطبيعة و دول العلم و الحضارة .

لقد تمكنت تلك الشعوب من إثارة الدهشة و الاستغراب في جميع الأوساط العالمية على أساس الاهتمام الكبير الذي بذلته و تبذله في التقدم العلمي و الصناعي ، و قامت بنشر هذا العطاء و بث فوائده في المجتمعات البشرية شرقاً و غرباً و في بلاد العالم و شعوبها كلها . وقد اعترف الناس في كل مكان بفضلها الابداعي وتقدمها العلمي و الصناعي ، و استفادوا من عطائها من غير تمييز بين أن يكون حامل ذلك العطاء و صاحبه مسلماً أو غير مسلم .

إن عطاء الاسلام يعم البشر كلهم سواء ، ليس هناك ما يجعل المسلم صاحب العطاء و غيره آخذاً له فحسب ، بل إن ذلك يتوقف على ركيزة السعي و العمل ، فأينما وجدت هذه الركيزة قامت عليها أسس النتائج في أشكال مختلفة و صور متعددة ، و الاسلام إذا كان قد خصص ذلك بأتباعه فحسب ، و منعه عن غيرهم لم يكن دين العدالة و لا شريعة العدل و المساواة ، ذلك أن المؤمن والكافر كليهما يأكلان من رفد الله تبارك و تعالى ، و قد يكون الكافر أكثر رفاهية و أنجح تجارة و أوسع رزقاً من المسلم ، إذا كان ذا سعي و جهد في حياته .

إن الاخلاص الكامل للهدف الذي يرضاه المرء و يسعى لتحقيقه بكل ما أوتي من قدرات وكفاءات ، و بكل ما يملكه من وسائل وإمكانات هو الميزان المقرر من عند الله تبارك و تعالى لعباده في الفوز بالنتائج التي تتفق و الهدف المتوخى ، لقد عاشت أوربا في ظلام و تخلف و خمول ما لم تدرك السر في خروجها عن حلكة الظلام و مرارة التخلف و الخمول ، و لكنها سرعان ما تيقظت أقبلت على تأسيس الحياة على ركيزة العمل والسعي ، و آلت على نفسها أنها لا تهدأ ما لم تحقق الخروج عن

ظلام الماضى والدخول فى عالم العلم والصناعة و الابداع ، وفعلا تحقق لها ما أرادت ، و شهد العالم ذلك النمو و التقدم اللذين كسبتهما ، و الزعامة العلمية و الحضارية التى امتلكتها ثم فرضتها على العالم البشرى المتخلف ، فى ألوان شتى .

لم تكن نظرة أوربا المضادة للدين والقيم العليا عائقة عن تقدمها المادى والصناعى فى أى مرحلة ، بل إنها جنت من مجهوداتها المخلصة وسعيها المستمر ثماراً يانعة وأكلت من رفد السماء رزقاً شهياً ، و تجاوزت تأثيراتها المادية و منافعها الصناعية والحضارية إلى شعوب العالم التى كانت تعيش عالة على غيرها فى كل شأن حتى فى الحاجات اللازمة .

و ظلت أوربا تتحكم فى الشعوب الشرقية بواسطة تقدمها العلمى و الحضارى ، و لم يكن يدور فى خلد أن سيطرتها الصناعية والعلمية تضعف يوماً ما ، وأن سلطان الغرب المادى يتراجع عن الشعوب والدول الشرقية يوم تتقلص قبضتها على الشرق ، الذى بدأ يعرف قيمته ويقف على أبواب العلم والتكنولوجيا ويدخلها ظافراً منتصراً .

و بالتالى يكتب للغرب أن يعود . يعود من مستعمراته و من مناطق نفوذه إلى أرضه و جزيرته و يتنازل عن الأراضى التى احتلها و ينزوى إلى قارته لكى يخلو المكان لأهله ، ويصفولهم الجو فى مجالات التقدم من كل نوع ، هنالك انكمش الغرب بجميع ما كان له جولة و صولة و من استعمار و احتلال ، و من علم و حضارة ، و اتسع الشرق و مد باعه إلى كل جهة ، و ركز على العلم و الصناعة و جند لذلك كل مواهبه و طاقاته ، و كرس له كل جهوده و مؤهلاته ، فاذا به يغزو العالم بابداعاته ومنتجاته وبصناعاته ومعطياته ، فى ظرف أقل من نصف قرن .

و قد حمل لواء الشرق اليابان و الصين و روسيا ، هاتيك الدول التى مثلت شرق العالم ، و إن كانت و لا تزال شعوب فى الشرق و دول لأهله لم تحقق من التقدم العلمى والصناعى ما حققته من معجزات علمية وتكنولوجية هذه الدول الكبرى التى تعتبر زعيمة الشرق فى التقدم العلمى و الحضارى و فى الثورة الصناعية ، ولكن الشرق اليوم تفوق على الغرب فى ميادين التكنولوجيا الصناعية أكثر من مرة ، وبلغ إلى درجة لاتكفيه فيها سواعد الانسان والعقول الطبيعية ، فالتجاه إلى استخدام العقول

الآلية و إنسان الكمبيوتر في إنتاجاته و صناعاته ، حتى ترك دول الغرب الكبرى في تخلف و حيرة من الأمر .

كيف تم كل ذلك للغرب أولا ، و الشرق ثانياً ؟ و كلاهما لا يعتمدان على الدين ولا يتقيدان بالعقائد الثابتة والمثل العليا ، ذاك أن العطاء علاقته بالعمل الدائب ، والاخلاص للهدف والاهتمام بالمسئولية والتفاني في سبيل الغاية التي يتبناها الانسان ، ولذلك فان المسلم إذا انصرف عن هذا المبدأ الأساسي ، وعاش في لهو عن المستقبل المادي الذي يتعلق بالحياة الدنيا و بالمعاش اللازم و لم يول للعمل و الجهد أي عناية و ظن أن إسلامه يكفيه في معاشه و معاده من غير أن يستخدم عقله وسواعده في ترفيه نفسه و توفير حاجاته فهو في خطأ عظيم ، إن الاسلام يدعو بعد الايمان بالله و رسوله و بالعقائد ، إلى العمل الصالح ، أما غير المسلم فلكي يعيش في هذه الدنيا ويقضي أيامه فيها لا يستطيع أن يستغني عن العمل ، فالعمل بالمعنى العام يعم المؤمن و الكافر كليهما ، و لذلك نرى أن تعاليم الاسلام لا تشجع البطالة و الاعتماد على القدر من غير عمل ، و فيما روته كتب الحديث عن ذم التسول و الاستجداء و الاكتفاء بالعبادة دون أداء لحقوق الأهل والأولاد و قيام بمسئولية المعاش ، حجة ناصعة على أن الجزاء متوقف على العمل ، فكيفما يكون العمل كذلك يكون جزاؤه ، و بقدر ما يكون السعي و الجهد يعقب العطاء بمثله ، لذلك كانت كلمة « الانسان » محور الحديث عن جزاء العمل و عطاء الجهد ، دون أي تقييد بالدين و العقيدة ، « وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى »

هنا نقف وقفة متأمل و نتساءل عما إذا كان الانسان العام يتمتع نتيجة لعمله و إخلاصه للهدف ، بدرجة عالية من القدرات و الكفاءات ، و يوفر بذلك على المجتمعات الانسانية جزءاً كبيراً من الوقت و الجهد ، و يعيش بذلك مكانة محترمة مرموقة ، فكيف بالانسان المؤمن الذي إذا جمع بين إيمانه و عمله ، وبين سواعده و ثقته بربه ، و بين جهده الدائب و عمله المتواصل ، و طاقاته الكامنة ، و بين إخلاصه للهدف و توجيه كفاءاته نحو الجهات السليمة الطبيعية .

ولكننا نستطيع أن نجرب متى شئنا « الانسان المسلم » اليوم فى حياته الفردية و الجماعية ، و فى حياته المعاشية و السياسية فنجده بكل وضوح راكنا إلى الدعة و إلى الرضا بالظروف ، و نجده مثالا فذاً للكسل و البطء و الاخلاد إلى البطالة والراحة ، مع الاعتماد الكلى على ما يصله من غير عناء فى مجالات الحياة العامة والخاصة .

هل كان الانسان المسلم أقل حظاً من الانسان اليابانى ، و أشق نصيباً من الانسان الأمريكى ، وهل كان الغرب أغنى من دول المسلمين وأوفر وسيلة وإمكانية من العالم العربى ، و لكن الانسان الذى أدرك سر التقدم و الرخاء منح للعالم بجهده العظيم ، و بعمله المتتابع ، و بسيره الحثيث ، و بتطوره السريع ثماراً من العلم و الحضارة . و الصناعة و الابداعات . و من كان يملك وفرة الوسائل والامكانيات والثروات الهائلة من كل نوع بازاء الانسان الذى عاش فى الدول الغنية فى الشرق! و لكنه لم يرض بوضع طاقاته فيما يعود عليه و على بنى جلدته من نتائج عظيمة ، ومن اكتفاء ذاتى على أقل تقدير، ولم‌تهنأ نفسه بتنشيط حركة الانتاج والتصنيع التى تشق له الطريق نحو التقدم الصناعى و إحداث ثورة فى عالم التكنولوجيا فيصدر إلى العالم منتوجاته الحيوية فضلا عن أن يستورد ، يبقى عائلا على غيره ، و كل من عاش و رضى مثل هذا الوضع المخزى خانه التوفيق و انسد عليه الطريق من كل جهة ، و لم يتمكن من مساعدة نفسه بله أن يثرى حضارته و يفرض وجوده على العالم .

لقد كان المسلمون أولى بالتقدم الصناعى والحضارى ، وتفجير طاقات الكون ، وإيجاد التكنولوجيا الحديثة ، كانوا أولى بذلك من غيرهم ، و أحق بأن يمدهم الله من عطائه ، و يجزيهم الجزاء الأوفى حيال كل عمل و لقاء كل سعى ، و لكنهم - مع الأسف - تناسوا هذا المعنى الكريم وأغفلوا نصيبهم العظيم فى كل اتجاه حضارى ودينى و صناعى ، واستغنوا عن عطاء ربهم فانقطع عنهم المدد واتجه العطاء إلى من سواهم .

« و لا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم »

سعيد الأعظمى
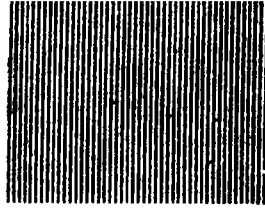
التوجيه الاسلامي
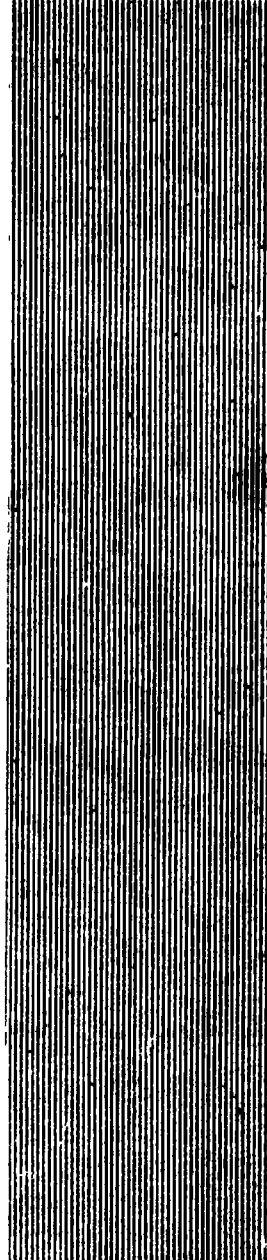
مصدر الشقاء والاضطراب

في العالم الإسلامي

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

إنه لحديث عامين أو ثلاثة أعوام ، كنت فى زيارة بيروت ، و كان هناك صديق لى من أهل العلم و الذكاء ، يجول بى فى أنحاء بيروت على سيارته لكى أشاهدها ، فقال لى خلال الجولة : أستميحكم السؤال عن قضية هامة ، وأريدك إجابة مقنعة . . إن ما يموج فى الدول الاسلامية من القلق الفكرى والاضطراب السياسى والصراع النفسى ، لماذا لا يوجد فى غيرها ، لماذا لا يوجد ـ مثلا ـ فى الهند ، و اليابان ، و سيلان ؟ لماذا لا يوجد فى الدول غير الاسلامية ما نعهده فى الدول الاسلامية من جبهتين متعارضتين : جبهة الحكام والقادة و أولى الحل و العقد ، وجبهة الشعب الساذج الذى لا يعرف المكر و الخداع ، مما يسبب الانقلابات المتكررة ، وتحول أزمة الحكومات من أيد إلى أيد ، و قد فقد الشعب ثقته بحكامه و قادته بتاتاً ، كما يعيش الحكام دائماً فى جو من سوء الظن و ذعر من الشعب . و الواقع أننى لم أستطع أن أعطى إجابة مشبعة على هذا السؤال الهام ، وشغلت صاحبى بحديث وبآخر فى الموضوع ، لكن هذا السؤال قد أثار فى نفسى تساؤلا عهد لى به : و رحت أتساءل فى نفسى : لماذا هذا الواقع المرير ، و ما هو السبب فى هذه الظاهرة المشئومة ؟ ما هو العامل الحقيق فى هذا الاصطراع النفسى والتبلبل الفكرى ، نسمع كل يوم عن ظاهرة الصراع و الصدام فى الدولة الفلانية ، و نتسامع بأن هناك تصارعاً فيما بين الحضارات ، و فلسفات الأخلاق ؟ .

و بعد تفكير هادىء توصلت إلى الاجابة ، وأريد بهذه المناسبة أن أعرضها عليكم لأنها قد تثير فى قلوبكم و فى قلوب المسئولين عن هذه الجامعات شعوراً بضخامة المسئولية التى تعود عليكم .

إن الفلسفات التعليمية والتربوية التى استوردتها هذه البلاد غير الاسلامية ما كانت تتصادم مع قيمها ومعتقداتها ، لأن هذه القيم أولا كانت باردة ميتة ، وثانياً أنها كانت مرنة جدا ، رقيقة مائعة جداً ، تستجيب لكل فلسفة ، وتخضع لكل نظرية ، فهاهو « جواهر لال نهرو » رئيس وزراء الهند الأسبق حينما سئل عن « الهندوكى » و تعريفه ، فقال بعدما أطال التفكير : « كل من ادعى أنه هندوكى فهو هندوكى » ، و قد حكى لى صديق لى ـ و كان أستاذا فى كلية حكومية ـ قال : كنا جالسين فى حجرة الأساتذة نتجاذب أطراف الأحاديث ، اذ تطرق الحديث إلى الديانة الهندوكية فقلت لصديق لى هندوكى - و كان بروفيسوراً - : لو طلب منا أحد أن نوجز له تعريف الاسلام ، لقلنا : إنه الايمان بـ « لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . و إذا ما سألكم أحد أن توجزوا له التعريف بالهندوكية فماذا تقولون ؟ - وقلت له لا أريد منك فلسفة متعمقة متعقدة ، فلدى مكتبة أستطيع أن أطالع فلسفات الديانات و أوسع دراستى لنظرياتها و معتقداتها ، و إنما أريد منك تعريفاً بالهندوكية بكلمة موجزة ـ فقال بعد ما أجهد الفكر ، يا أخى ! الواقع أن الذى لا يعتقد فى شئ فهو هندوكى ، و الذى يعتقد فى كل شئ هندوكى كذلك .

إلى هذا المبلغ يبلغ نظام عقائدهم من المرونة والميوعة ، تنسجم مع كل فلسفة و تقبل كل نظرية مستوردة ، و لا تتصارع معها فى قليل أو كثير ، و من هناك حينما غزا نظام التعليم الغربى الهند ، لم يحدث قلقاً ما فى المجتمع الهندوكى ، اللهم إلا

بعض المنادك المتزمتين الذين قد لا يعدو عددهم رؤوس الأصابع ، كانوا يرون فيه معارضة خفيفة لأمور تافهة من معتقداتهم . . وإنما حدث القلق فى المجتمع الاسلامى لأنه يؤمن بوحدانية الله جل و علا ، لديه مفهوم معلوم محدد للتوحيد ، لا يسمح بأن يخلص الانسان ولاءه فى وقت واحد لديانات شتى ، و يجمع بين الاشراك و التوحيد ثم لا يجمع بين الايمان بأن الغرب مرجع كل شئ ، و مصــدر كل تقدم و ازدهار ، وهى وحدها الجديرة بالامامة و السيادة و القيادة و الوصـاية ، و بين الايمان بأن النبى الأعظم محمداً ﷺ هو هادى السبل و خاتم الرسل ، وإمام الكل ، لكل الأجيال البشرية فى كل عصر . . نعم لا يمكن له أن يؤمن بكل ذلك ، و يؤمن - فى ذات الوقت - بأن الحضارة الغربية هى منبع كل سعادة و خير ، و أن العلم هو آخر ما وصل إليه الانسان من التقدم . و أنها نقطة الرقى الأخيرة التى يمكن أن يتعداها أحد .

النور و الظلام لا يجتمعان :

على كل فلم لم يقع اضطراب ما فى المجتمع الذى كان متميعاً سيالا ، رقيقــاً ناعماً يتفاعل مع كل نظرية ويتلاحم مع كل غريب مستورد من الأفكار والفلسفات و الآراء و الاتجاهات ، و القيم والحضارات ، ولم يحدث قلق فى الدول التى لا تحمل نظاماً إيمانياً أياً ، شامخاً مستقلا ، و لا تعرف طريق الرحمن من طريق الشيطان ، و لا تلتزم بمبدأ ، و لا تصر على حقيقة ، و لا تفرق بين الضلالة و الهــداية « و ماذا بعــد الحق إلا الضلال ، فأنى تصرفون » يرى الاسلام أن النور فرد و الظلمات لا حد لها و لا عد ، و يلح على أنه هو الحق وحده ، و ما سواه كفر و طغيان ، و بغى و عدوان ، و إلحاد و جاهلية ، و يحدد الايمان والكفر ،

و يعين الخط الفاصل بينهما ، و يصر على أنه يحمل حضارة خاصة ، و ليس هو مجرد عقائد معدودة و أحكام مرسومة .

فلما غزت الحضارة الغربية ، المجتمع الاسلامى بكل ما عندها من تصورات و قيم و أغراض و أهداف ، وقع بينها و بينه صدام و صراع شديد عنيف ، و كان هذا الصراع طبيعياً . . . ثم حدثت كارثة أخرى ، وهى أن الشباب الأذكياء من بيوتات الأغنياء و الأسرياء و الطبقة الارستقراطية فى هذه البلاد الاسلامية ، قد تثقفوا بالثقافة الغربية ، و بقى الشعب على حاله ، فنشأ من ذلك أن هذه الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية عادت لا تعرف ما يعيش فيه الشعب من عواطف وتصورات ، و أمان و آمال ، و مشاعر و أحاسيس ، كما يكون شأن أمة جديدة بأمة أخرى جديدة ليس بينهما سالف تعارف ولا سابق لقاء . . . ومما زاد الطين بلة و الطنبور طنة أن الطبقة العصرية شعرت شعوراً قوياً ملحاً ـ أو علمت بعد تجاربها « المريرة » ـ أنه لا بد - من أجل الابقاء على القيادة و الزعامة و حتى من أجل أن تستطيع أن تعيش عيشة هدوء و سلام - لا بد من القضـــاء على ما يتحلى به الشعب من العواطف الدينية و الغيرة الاسلامية ـ أو على الأقل - لا بد من توهينها إلى حد يجعلها لا تقف حجر عثرة فى طريق تحقيق أغراضهم الدينية .

فركزوا عنايتهم على القضاء على الحمية الدينية و الغيرة الاسلاميـــة و الوعى و الايمان ، والذكاء الدينى ، فى الشعب المسلم عن طريق الثقافة والصحافة و وسائل الإعلام ، و الشعر و الأدب ، و هنالك خاضت قيادات هذه البلاد و الأقطـار الاسلامية معركة حامية مع الشعب ، لأنها رأت سر حياتها و نموها ، و ازدهارها فى إماتة الوعى الدينى لدى الشعب ، لأنها أدركت أن الشعب قد يكون جبهة متحدة لمحاربتها و يشكل العقبات فى طريق مطامعها . . .

الوضع فى العالم الاسلامى وضع متناقض، شعوب تغمرها روح الفداء للاسلام و حكومات تؤمن بتفوق الغرب و عظمته :

أيها السادة ! إنى أحكى لكم قصة هذه البلاد الاسلامية قصة مصر و الشام، و قصة العراق و تركيا، و لا أقول إن هذه القصة قد حدثت فى كل بلد من البلاد الاسلامية، و لا قدر الله ذلك، ولا رماكم الله بهذه المصيبة، ولا تعرض فصولها على مسرح هذا البلد الكريم أبداً . . . لكنها على كل حال قصة الدول الاسلامية المتقدمة حيث نشأت طبقة لم تكن زاهدة فى الدين فحسب، بل تنكرت له، واستوحشت منه وكانت تنعى على الشعب تمسكه بالشريعة و عضه على جميع أجزائها و أحكامها بالنواجذ، و كانت ترى أنه إذا كان هناك أفراد فى المجتمع يعاقرون الخمر، و يشاهدون على الشاشة الصغيرة و الكبيرة و التلفاز كل غث و سمين، و يقع بعض التحول فى أخلاقهم و سلوكهم، أو يتأثر جانب من سيرة الصغار، فماذا يضرهم و أى شئ ينقصهم، و أى خسارة تلحقهم ؟ . . ! ما لهم و لهذه القضايا، لهم أن يأكلوا و يتمتعوا، و يعيشوا و ينعموا، و يكسبوا المعاش، و يحوزوا الثروة ويجربوا نصيبهم فى الحياة، وقد علم هذه الطبقة أساتذتها من الغرب الذين تلمذت عليهم والجامعات الأوروبية التى تخرجت منها، أن الدين قضية شخصية، و خير لهذا الدين ـ إذا أراد البقاء و الحياة - أن يظل على صفته هذه . . . قد تلقنت هذا الدرس من أساتذتها وأساغته إساغة كاملة و اقتنعت به، فلما عادت إلى بلادها هذه الشرقية وجدت أن أفراد الشعب يتدخلون فى شئون الحكومة، وينتقدون القيادات، و يؤاخذونها، و يحسبون لكل شئ حساباً دقيقا، و حين يرون شيئا لا يوافق ما يعتقدونه يستشيطون غضباً، و يتقدون حنقاً . . .

الطبقة الحاكمة ترصد كل امكانياتها لقهر شعوبها و كبت عواطفها :

لما شاهدت هذه الطبقة كل ذلك ، و رأت أن أحلامها ستتبعثر ، فتحت جبهة مستقلة لتوجيه الهجوم منها على الشعب ، قد كان ذلك فى مصر فى عهد جمال عبد الناصر ، فتوجهت القوى الرسمية بخيلها و رجلها و بكل أجهزتها و وسائلها و طاقاتها ، لتصب الويلات على الشعب المصرى البريئ ، و حلت القوات محل الشرطة و رصدت كل إمكانيات مصر و ثرواتها و خيراتها وقواها ، و ذكاء الطبقة الحاكمة لكبت عواطف الشعب التى كانت القيادة ترى أنها قد تكون كنار فى الهشيم لا تبقى ولا تذر ، فتأتى على اليابس و الأخضر من أمانيهم و أحلامهم . . وعلى ذلك فعاش العهد الناصرى فى مصر فى الجهاد فى غير عدو ، فى محاربة الشعب الهادىء الوادع و القضاء على الحركات الاسلامية و المؤسسات الدينية ، مكان محاربة الالحاد والشيوعية ، ومحاربة إسرائيل و القوى الصهيونية ، وإلى أى مدى تركت هذه « الحرب السلبية » مفعولها ، و إلى أى حد استطاع « ناصر » أن يحرز النجاح فى مقصده ، لا يمكن الحديث عنه بالتحديد و الضبط ، و لكن هذه الحرب هى التى استنفدت كل وقته و جهده و رصيد فكره .

و هـــذه الحرب نفسها قائمة اليوم فى كل من الشام ، و ليبيا ، و تونس ، و الجزائر ، و المغرب ، لا تختلف معركة اليوم عن معركة الأمس فى النوعيـــة ، نعم إنها حامية فى مكان و هادئة فى مكان آخر ، و لن أسمى لكم بلداً غير عربى ، فقد كفتنى فى ذلك البلاد العربية ، و ليكن ملحوظاً أن هذه المعركة « المصطنعة » هى من صنائع الفلسفتين المتنافستين المتقابلتين ، والنظامين المتمازين للتعليم و التربية ، فان التعليم الذى يتلقاه طلابنا و أفلاذ أكبادنا فى المدارس الدينية يمحوه - كحرف مكرر أو كلمة خاطئة ـ ذلك النظام الغربى للتعليم .

ما فات فرعون تداركه قادة التربية الغربيون :

و من هنالك لما اقتحم النظام الغربى التعليمى شبه القارة الهندية ، أثر نفوذ الانجليز و سيطرتهم السياسية على الهند غير المنقسمة ، قال السيد أكبر حسين الشاعر الأردى العظيم بيته الخالد السائر الذى لم يقل أحد بيتاً أدق منه فى التنديد بنظام التعليم الغربى الالحادى ، و الدلالة على فعله البعيد المدى ، لا أعرف نثراً أو نظماً يعبر هذا التعبير البليغ ، البارع الدقيق ، الرائع العميق عن نظام التعليم اللادينى ، بهذه الكلمات البسيطة الخفيفة ، يقول أكبر :

« لو فتح فرعون كلية فى مصر (أراد بها نظام التعليم الغربى) . . لم يكن هدف الملام و التهم من بنى إسرائيل ، فقد كان مستغنياً بذلك عن قتل أطفالهم جسدياً ، و لكن المسكين لم يتفطن لهذه النكتة » .

إن « أكبر » يشير إلى حقيقة كبيرة ، إنه يقول :

إن فرعون بغباوته و بلاهة ذهنه ، و قلة عقله ، جر عليه هذه اللعنات ، و خلق له هذه المشكلات ، و مهد الطريق لدعايات غير متناهية ضده ، حتى صار رمزاً للظلم و الوحشية و قساوة القلب وسجلت له الصحف السماوية صفحات سوداء من استكبار و إفساد و استعلاء ، و لو أنه غير نظام التعليم لكفاه عن التقتيل و التشريد و لكسب سمعة طيبة ، و لعد المربى الجليل الأكبر ، و ولى العلم والثقافة و لأسست باسمه جامعات و مجامع علمية .

يا سادة ! قد بدأ هذا الصراع - الذى نتحدث عنه - فى المملكة العربية السعودية أيضاً ، بفعل هذا النظام التعليمى الغربى اللادينى . . . و كل دولة تريد أن تخدم الاسلام ، و تعلى كلمته ، يجب عليها أولا أن تتجنب هذا الصراع النفسى الخبيث ، لأنه يستهلك كل القوى العقلية و الفكرية ، و كل نصيب من الذكاء

و القدرة ، ولا يدع هذه القوى و الطاقات ، و المواهب و القدرات ، تقبل على تعمير البلاد ، و تدعيمها و صيانتها من القلق و الاضطراب و اللاأمن ، و تعود كل طبقة تفكر أن تتغلب هي وحدها ، و أن يكون المسيطر على البلاد و المقبول المتداول في أرجائها ، ما لديها من فلسفة الأخلاق وفلسفة الحياة ، أو فلسفة ما بعد الطبيعة ليس إلا . . .

التعليم العصري حامض يذيب الشخصية ويكونها من جديد :

وإني أتوقع من هذه الجامعة الموقرة (١) أنها ستخطو هذه الخطوة الاصلاحية قبل أي جامعة أخرى ، لأنها تنتمي إلى ذلك المفكر الاسلامي العظيم الذي كان عظيم الكراهية لهذا النظام التعليمي الغربي العصري ، شديد المقت له ، كثير التندد به ، و كان كثير الخوف من تطبيقه في الأقطار الاسلامية ، و أعتقد أنه لو كان بقيد الحياة لركز أولا على تغيير النظام التعليمي الحالي ، لأنه كان يرى أن نظام التعليم الحديث هو « كحامض » يذيب شخصية الانسان ، يقول في أبياته :

إن التعليم هو « الحامض » الذي يذيب شخصية الكائن الحي ، ثم يكونها كما يشاء ، إن هذا « الحامض » هو أشد قوة و تأثيراً من أي مادة كيميائية ، هو الذي يستطيع أن يحول جبلا شامخاً إلى كومة تراب » .

الشخصية الاسلامية لن تكون إلا بنظام تعليمي يتطابق مع طبيعة الشعوب الاسلامية و عقيدتها :

انعقدت ندوة علمية في عمان في عام ١٩٧٣م كان يديرها الأستاذ محمد إبراهيم شقره ، و شاركها كاتب هذه السطور و سعادة الأستاذ أحمد محمد جمال ، و معالي الأستاذ كامل الشريف و كان الحوار الذي يجري في هذه النـــدوة تذيعه محطات الاذاعة ، وقد وجه إلى السؤال عن سبب الحيرة المردية التي يعيشها العالم الاسلامي كله بصفة عامة و الشباب المسلم بصفة خاصة .

(١) « جامعة محمد إقبال المفتوحة » في باكستان ، حيث ألقيت هذه المحاضرة .

قلت فيما بعـــد :

« من أعظم أسباب الحيرة التى يعانيها الشباب المسلم اليوم هو التناقض فى المجتمع الذى يعيش فيه، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقيناً و بين ما يطلبه علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذى سلط عليهم و منوا به ، هو السر فى هذه الحيرة المردية . . . هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد فى بيت إسلامى ، فى أسرة إسلامية ، و نشأ على كثير من العقائد و تلقاها بوعى أو بغير وعى ، ثم إنه نشأ فى بيئة دينية تؤمن بمبادىء الاسلام ، و قرأ التاريخ الاسلامى - إذا أكرمه الله بذلك، وتسنت له هذه الفرصة الكريمة - وكان سعيداً بوجوده فى بيئة واعية دينية، ثم سيق - و معذرتى على اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال فى سن مبكرة و ليس له خيار - إلى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلهم - كل ما ينقض ما أبرمته البيئة ، و كل ما غرسته فى قلبه وعقله من من التربية الاسلامية ، أو يقلل قيمته على الأقل فيقع فى تناقض عجيب ، و صراع فكرى عنيف و فى ارتباك نفسى ، (CONFUSION) .

إنه يتلقى هذا الصراع من مؤسسة الاعلام ، ومن التلفزيون ويسمع إذاعات وأحاديث و برامج تقضى على البقية الباقية من آثار التربية القديمة ، ومن الصحافة التى هى « صاحبة الجلالة » تقدم إليهم فى أول النهار الغذاء الفاسد العفن و المواد المثيرة المهيجة للعواطف... إنه يقع فى أيديهم كتب علمية من أناس آمنوا بفضلهم و عبقريتهم فيرون ما يشككهم فى الدين .

إن مثل ذلك أيها السادة كمثل عجلة أو مركبة ركب فيها فرس فى الامام و فرس فى الوراء ، و كلاهما قويان . فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها فى حيرة من أمرهم ، هذا يجرها إلى الامام ، و هذا يجرها إلى الوراء فكذلك الشباب يتأرجحون فى أرجوحة يميناً و شمالا » .

لا بد من تضييق الفجوة بين رغبات الشعوب
الاسلامية ، و أجهزة التربيــة و السيـاسة :

و حل هذه المشكلة هو إزالة هذا « التناقض » الذى يعبر عنه لسان الشريعة و لسان القرآن بكلمة « النفاق » وإن ذلك يحتاج إلى قلب نظام التربية والاعلام و مؤسسة الصحافة بالمعنى العام ، والتلفزيون - الذى جاء حديثاً - رأساً على عقب و يحتاج إلى ثورة عارمة دقيقة شاملة ، و إلى أناس عندهم الأصالة الفكرية ، وإلى الاجتهاد فى المواد الدراسية، ويحتاج إلى أن تتبنى هذه القضية الحكومات الاسلامية الكبيرة ، و إلى ملء الفجوة بين الكهول و الشباب ، و بين الدعاة إلى الدين و الشباب الجامعيين ، و يحتاج إلى مكتبة جديدة ، و أسلوب جديد فى الحـديث مع الشباب .

أيها السـادة !

أختم حديثى بهذه الكلمات ، و أوجه شكرى و تقديرى لصاحب السعـادة رئيس هذه الجامعة ، وصاحب السعادة رئيس القضاة أفضل جيمـه اللذين وفرا لى فرصة الحديث إلى هـذه المجموعة الكريمة . . . و إنى على يقين كامل بأنكم مهما تنسون كلمتى هذه ، فانكم لن تنسون رسالة « إقبال » و يحلو لى إن يكون بعض أبيات إقبال هو مسك الختام لحديثى هذا :

« حيا الله شيبتك يا مربى الجيل الجديد ! ألق عليهم درس التواضع و هضم النفس ، مع الاعتزاز بالنفس ، والاعتداد بالشخصية ، علمهم كيف يشقون الصخور ، و يدكون الجبال ، فان الغرب لم يعلمهم إلا صنع الزجاج ، إن عبودية قرنين متواليين قد كسرت خاطرهم و أوهنت قلوبهم ، فانظر كيف تعيد الثقة إلى نفوسهم وتحارب الفوضى الفكرية » .

تراثنا الحضارى والثقافى بحاجة إلى نظرة وأمانة

د/ توفيق محمد شاهين
مدير المركز الاسلامى «أتوا» كندا

كان الاسلام بحق عامل تطور كبير فى الحضارة منذ بدئه ، و بخاصة فى الحضارة الانسانية الرشيدة ، و دعا إلى التعلم و التعليم ، وحث على القراءة ، وذكر القلم ، و أوجب الكتابة :

فمن هديه أنه : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١) ، و كان مبدؤ الوحى : « إقرأ باسم ربك الذى خلق » (٢) ، و أقسم بالقلم : « ن ، و القلم و ما يسطرون » (٣) ، و على الكاتب أن يكتب الدين حفظاً للحقوق و تمكيناً للعدل : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، و ليكتب بينكم كاتب بالعدل ، و لا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ،فليكتب و ليملل الذى عليه الحق » (٤) ، و « لا يستوى الذين يعلمون و الذين لا يعلمون » .

و انتشر كل ذلك وذاع بانتشار الاسلام فى الأصقاع التى حل بها ، هادياً و مرشداً ، و مبشراً و نذيراً ، و صار كل شئ فى أول الاسلام عربى الوجه

---

(١) سورة فاطر ٢٨ .

(٢) أول سورة اقرأ (العلق) .

(٣) أول سورة (ن) والقلم .

(٤) سورة البقرة ٢٨٢ .

و اليد و اللسان ، حتى عرفت العرب علم اليونان و غيرهم من الأقدمين ، فعربتها و زادت عليها ، و نقتها من شوائبها و زادت عليها، حتى انتقلت مترجمة بعد ذلك إلى أوروبا، ملقحة بالفكر العربي و الاسلامى ، فلم نكن مقلدين فقط ، و لا ناقلى بريد . . و إنما لنا تأصيلنا الثقافى :

يقول الأستاذ الدكتور محمد البهى - رحمه الله رحمة واسعة - عن مجد من أمجادنا : (. . لبغداد منزلتها فى حفظ تراث الحضارة الانسانية العلميـة و الفكرية ، كذلك فى تنميتها ، بما كان له أثره الواضح فى تلك الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة ، و كانت أوروبا حتى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، لا تعرف شيئاً عن ذلك التراث . . . و بفضل بغداد على هذا التراث . . عرف الغرب حضارة العرب ، و حضارة الانسانية القديمة .

و لم يخط هذا الغرب فى سبيل التقدم الحضارى و الفكرى ، إلا بعد أن لقح ذهنه بذلك الفكر العربى . . و لم يتم الاصلاح الدينى فى أوروبا إلا بعد الوقوف على تعاليم الاسلام» (١) .

هذا من الناحية التاريخية ، و من ود مزيداً ، فليراجع الكتب التى أشارت إلى تراثنا الحضارى ، و قد أحصى منها الدكتور على عبد الله الدفاع قرابة السبعين كتاباً فى مراجعه (٢) .

أما الاشارة إلى الكم و الكيف ، للاضافات العربية و الاسلامية . . فتكفينا منها هذه الاشارات :

يقول جابر بن حيان (المتوفى ٢٠٠هـ) عن رسائله الصغيرة التى ألفها : « ألفت

---

(١) الاسلام فى حياة المسلم ٤٤٨ . للدكتور محمد البهى .

(٢) لمحات من تاريخ الحضارة العربية والاسلامية ، للدكتور على عبد الله الدفاع .

ثلاثمأة كتاب فى الفلسفة، وألفاً و ثلاثمائة كتاب فى الحيل، وألفاً و ثلاثمائة رسالة فى صنائع مجموعة و آلات الحرب، ثم ألفت بعد ذلك خمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة» (١) هذا إلى جانب كتبه فى المنطق، والزهد، والمواعظ. إلخ.

بينما خلف الواقدى، بعد وفاته فى سنة ٢٠٧هـ «ستمائة قمطر كتباً، كل قمطر منها حمل رجلين، و كان له غلامان مملوكان يكتبان له بالليل والنهار، وقبل ذلك بيع له كتب بألفى دينار» (٢) فكيف يدعى الغربيون أن عقليتهم أكثر استيعاباً، و أشد ذكاء من عقليتنا التى لا تعى، ولا تقوى على الابتكار والأصالة، كما يقولون-؟!

وعلى كل فقد كفانا المصنفون من علماء الغرب مؤونة الرد على هذا الزعم الفاسد، بما كتبوه عن أمجاد العرب و المسلمين و تأثير هذه الشموس على الغرب و حضارته و تقدمه. و أيضا كان إسحاق الموصلى، (١٥٠-٢٢٥هـ) كثير الكتب حتى قال أبو العباس ثعلب: «رأيت لاسحاق الموصلى ألف جزء من لغات العرب، (يقصد لهجاتها) و كلها بسماعه، و ما رأيت اللغة فى منزل أحد قط أكثر منها فى منزل إسحاق، ثم فى منزل ابن الاعرابى» (٣).

هذه الأمثلة القليلة تمثل لنا روح العصر و طبيعته، حتى أوائل القرن الثالث الهجرى. و لم يمض قليل حتى خرج العرب من «التكديس» العلمى إلى «التقنين» العلمى.

فمن واجب العرب و المسلمين أن يهتموا بتراثهم العلمى، حتى ترى الأجيال المعاصرة مدى إسهام أجدادهم فى الحضارة، و أن ما يتناولوه من فنون المعارف

(١) الفهرست، لابن النديم ٥٠٠، نقلا عن المخطوط العربى. د. عبد الستار الحلوجى ١٠٤.

(٢) السابق ١٠٥. (٣) السابق ١٠٥.

المتنوعة اليوم فى دنيا الغرب له جذور ثابتة فى الحضارة العربية الاسلامية ، وليس مصدره الحضارة اليونانية ، كما يقول بعض المغرضين و الشانئين للعرب و المسلمين: كما أنها ليست أثراً للعلمانية المؤامرة . . و بلفت النظر إلى تراثنا ندفع الشباب إلى الاهتمام بهذا الجانب ، ويرون أن فى تراثهم ما يفخرون به ، يقول (رام لاندو) فى كتابه (العرب و الاسلام) :

(لا يوجد سبب منطقى يبرر الفهم بأن العرب فقدوا الصفات التى مكنت أجدادهم من التفوق الحضارى ، فهم لا يزالون يملكون تلك القيمة و يستطيع أى إنسان عاش بين العرب أن يتأثر بانسانيتهم ، و مقدرتهم العلمية) (١) .

و يرى الدكتور إسحاق الحسينى ، أن العبرة ليست بتكديس الحضارة و إنما فى محاولة فهم روحها و سرها ، بغية بعثها و إبداعها ، يقول :

« لا عبرة فى تاريخ الشعوب بأن تدول الحضارات ، و لكن العبرة بتوفر الطاقات الخلاقة المبدعة سليمة ، حتّى تستعيد الشعوب ما فقدت . و نحن نعتقد أن هذه الطاقات ما تزال موجودة ، لأنها منسجمة مع أعماق كيان الأمة العربية ، و داخلة فى صلب عقيدتها الاسلامية : ذلك أن الاسلام أقام حياة المسلمين على أسس ثابتة دفعتهم نحو التفاعل والسيطرة على الحضارات الانسانية التى كانت موجودة حولها ، و الاستفادة من خير ما كان فيها ، مع التحكم بقدرة الاختيار ، و إيثار المصلحة العامة ، على نحو كان فذاً فى تاريخ تطور الشعوب (٢) » و واجبنا اليوم أن نمكن لفهم سر الثقافة و الحضارة ، و نؤيدها بالدفع القوى .

و حين قرب أمراء المسلمين (كالرشيد والمأمون) العلماء و الحكماء والأدباء

(١) لمحات من تاريخ الحضارة العربية و الاسلامية ٦١ .

(٢) السابق ٦٢ .

إلى مجالسهم ، من أمثال الكندى و الفارابى و ابن سينا و ابن الهيثم و حنين بن إسحاق و غيرهم ، يوم نشط الفكر العربى و الاسلامى ، و أضاف إضافات بناءة لحضارة إنسانية سليمة و سديدة .

و نكرر بأن النظرة المستقبلية للعرب و المسلمين اليوم تستلزم الدفع القوى لبعث الحماس لتراثنا ، على أسس مدروسة و منهجية ، حتى يحقق الدفع القوى استمرارية الحركة و الابداع ، و بذلك تؤسس نهضتنا على أسس واقعية ، مستندة إلى تاريخ لا إلى وهم و خيال . . . إن ظننا أن أوروبا مثلا ستعطينا معجزات الحضارة ، ومعها سرها ، فهيهات أن تسمح بمعرفة سر الحضارة ، إنما تسمح بجانب استهلاكى لنا كشعوب نهمة ، أو جانب على لا ينمى إلا بتجارب متتالية متأنية متدافعة .

إن أبناءنا الطلاب فى الغرب و الشرق ، يتعرضون لضغوط هائلة ، مباشرة أحياناً وغير مباشرة أحياناً أخرى من المستشرقين ، ليرسخ فى أذهانهم بأن الحضارة غربية أو شرقية فقط ، و لا حظ فيها للعرب و المسلمين على مدى التاريخ ، و أن العقلية العربية والاسلامية عقيمة ، وأن تاريخ المسلمين ملئ فقط بالمشاغبات والدماء و الحروب ، و يدلونهم على مراجع مشوشة أو مشبوهة أو كتبها أناس موتورون تتلمذوا على الغرب و الالحاد ، لبث الشك فى نفوسنا . . و الواقع أنه لا ينكر منصف أن علماء العرب و المسلمين أسهموا بجهد خلاق فى الثقافة الانسانية بعامة ، و تركوا بصمات على الحضارة العالمية بما خلد ذكرهم و آثارهم .

و لم يكونوا عالة على غيرهم ، أو نقلة فكر من قبلهم ، أو حملة بريد . . كما يرميهم بذلك شانئوهم ، و آية ذلك ، ما خلفوه من أثر و فكر ، و إضافاتهم البناءة ، و فضلهم غير المنكور على رقى و بعث نهضة أوروبا . . وما خبا الضوء ،

و أفل النجم إلا منذ قرابة أربعمائة عام تقريباً ، ليس هذا مجال ذكرها ، وتفصيل الحتوف السود التى تحيفتهم ، فزقتهم شر ممزق ، فاستكانوا للعاصفة ، و طاوعوا الركود ، و غلبهم النوم العميق . . و عسى أن تكون صحوتهم صحية و واعيــة ، لاستئناف المسيرة . والاستئناس بعراقة الماضى فى خدمة الحاضر ، والاعداد للمستقبل المنئى و الوضئ فى نفس الوقت ، تلبية لمتطلبات الحاضر ، و أشواق المستقبل .

حقيقة جد غيرنا ــ إبان غفوتنا ــ فاستفادوا من معارفنا ، و استبطنوا سر الحضارة و وائام جدهم بكدهم . . فأصبحوا قبلة للعلم تقصــــد ، و للخبرة تؤم ، و للدرجات العليا موئلا يؤهل للتصدير فى التوجيه . . . قد يؤمن إن كان علمياً ، و غالباً ما يجلب خطر التوجيه إن كان فى الجانب النظرى ، لما عساه أن يكون قد تأثر به من المستشرقين ذوى الميول السيئة كما أسلفنا .

والذى علمناه أنهم قد يمنحون طلابنا جانباً فى الخبرة و التكنولوجيا . . ولكن هيهات أن يعطوا سرهـا لان هذا الجانب يدرك بالمثابرة الجادة ، و التجربه المتأنية و الدائبة ، و التنمية المتوالية ، و إخلاص الأستاذ فى التوجيه ، و الرغبة الأكيدة منه فى إعطاء الخبرة متكاملة فى المجال الواحد . . . و من ثم لحاجتنــا ــ كعرب و مسلمين - أكيدة فى الاسراع بالاستقلال و الافادة الكاملة و المتكاملة ، وبذل الجهود فى هذا الصدد . . علنا نواكب الركب ، و نساير الجهود الراميــة إلى رقى الحياة و الأحياء . .

ألح و أقول : كان لعلمائنا القدامى - رحمة الله عليهم - إسهام طيب فى مختلف العلوم و الفنون ، و كان لزاماً على الاحفاد أن يشكروا صنيع الأجداد فى الاشادة بفضلهم ، و ذكر مآثرهم ، و التنويه بآثارهم ، و نفض غبار النسيان عما ورثنـاه من معارفهم : استشهاداً و ترجمة ، و بحثاً و تنقيباً و تحقيقاً ، و اقتباساً ، وربطاً

للحاضر بالماضى، و بعثاً للعزة و الكرامة فى نفوس شبابنا ، حتى لا نبتر الصلة ، و نسدل سجف النسيان على أمجادنا ، فنصاب بالدونية و الاحباط ، و ننظر لغيرنا فقط بعين الاكبار و الاجلال ، و من هنا لا يمكن للشعور بالوحدة الاسلامية والعربية أن يتم ، ولا أن ينصهر فى بوتقة العزة الموروثة ، و الشرف والكرامة التى يعليها ديننا و يدفع إليها العروبة ، و تحتاجها الانسانية ، فالملاحظ أن الجانب التنقيبى والبحثى فى تراثنا يسير ببطء ، و تراثنا نفسه يقبع فى زوايا كثيرة ، و تناهبه أيد كثيرة فى أرجاء الدنيا . ومن حقه أن يجمع و أن تيسر سبل دراسته و لفت النظر إليه . . لأن العقلية الغربيـــة كثيراً ما تختار ما يروق لها من انحراف فى الفهم ، أو خلط فى التأليف ، أو تحيز فى الكتابة ، أو معلومات مغلوطـــة . . ثم تذيع ذلك و تعنى بنشره بيننا ، فيصاب بعض مثقفينا بالاحباط ، و نصاب نحن بعامة بعقدة النقص ، و ننسى فى خلال ذلك أمجاد التاريخ ، و دورنا العظيم فى ماضيه .

ونقول ذلك ، حتى لا ننساق تماماً وراء التيار القائل والقائل من المنهزمين : إنه لا تقدم للشرق ، ولا نهوض له من كبوته إلا بالانسلاخ عن ماضية ، الذى أورثه التصنيف فى العالم الثالث بالوقوف على ما ورثه من ثقافة لا تغنى فى دنيا اليوم شيئاً . و لا نهوض له إلا باتباع حضـارة الغرب و تقدمه التقنى ، و يعيش هذه الفرية نفر عديد وهموا هذا الخيال حين فقدوا خصائصهم وصفاتهم فانبهروا ورددوا هذه الأكذوبة الضخمة ، ويزيدون : لاتقدم للمسلمين إلا بالعلمانية و الانسلاخ عن الاسلام .

و نحن لا ينقصنا اليوم للقيام بواجبنا إزاء تراثنا سوى التنقية و حسن العرض ، ثم الاستيعاب المتأنى ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة الابداع ، التى تنمو وتنبع كلما أمددناها بعوامل النمو ومسببات النجاح ، و يأتى ذلك بالمثابرة والجد ، ومواكبة

الأحداث و الاطلاع و التمكين من الابداع والعمل ، و متى أخذنا المنهجية العلمية دليلا استطعنا غربلة التراكات ، وعزل السلبيات ، وتثبيت الايجابيات فى ضوء مواريثنا الاسلامية : من قرآن و سنة ، وتسليط الضوء الكاشف على الفكر الماضى والحاضر ، بروح ذكية : يكون منطلقنا إلى بدء حضارى و ثقافى صحيح ومستقيم و شامل ، وهذا كله يستلزم تقديم الخبرة الواعية ، و الدفع القوى مادياً و معنوياً ، و بيان شرف الغاية و الهدف ، حتى لا نضل الطريق و لا تتشعب بنا ، مع إخلاص القصد و ابتغاء النهضة الانسانية .

قرأت فى شهر واحد « نماذج » لجهود فردية ، من كتابات المحدثين ، فتوزعت النفس لتشعب المسار ، أعرضها فى إيجاز . ليغضب معى القارىء الكريم غضب الحليم ، وعسى أن يصلح شيئاً : ـ

قرأت كتاباً فى الصوتيات » لعالم متخصص ، تشبع بروح الغرب ، فجعل رحلة كتابه كلها للغرب ، حتى كأنهم الصانعون لكل شئ ، و كأنما جهود علمائنا الأقدمين بدءاً بالخليل بن أحمد العبقرى ومروراً بابن جنى ، وانتهاء بجهود المحدثين من المعاصرين و كأنما كانت جهودهم هباء منثوراً !! فلا تنويه ، ولا إشارة ولا إحالة إلى مرجع لهم .

و خفف من هذا الغلو أو الاغفال قراءة أخرى ، للأستاذ أحمد مختار عمر ، فى مؤلف حديث له بعنوان : « دراسة الصوت اللغوى » (١) .. فكانت المتعة مزدوجة بما ذكر فيه من جديد فى هذا الفن ، مع تخصيص حيز كبير لما كان للعرب الأقدمين من أمجاد فى هذا الصدد ، شغلت أكثر من ربع مساحة كتابه الكبير (حوالى أربعمائة صفحة من الحجم الكبير) فأضاف بذلك إلى الفن جديداً ، يزيد من نضارة القديم و عظمته ، فسررت .

(١) دراسة الصوت اللغوى . د . أحمد مختار عمر ـ توزيع مكتبة عالم الكتب بالقاهرة .

و فى محاولة ذكية لربط حضارات منطقتنا تاريخياً ، قرأت محاضرة لرائد من رواد الثقافة فى عصرنا ، جاءت على قصرها مشوقة وممتعة : جاد بها قلم العلامة : محمد حسين زيدان : فشكر الله له حسن صنيعه .. وسرنى من جهود المحدثين فى التعريف بتراثنا ، صنيع الأستــاذ محمد حسن باكلا ، فى نقل معارف (ابن جنى) فى علم الصوتيات إلى اللغة الانجليزية ، و ذلك إعلام فذ بعلمائنا و تراثنا :

و لنقف قليلا مع هذه « النماذج » ، بغية إعطاء القارئ الكريم بعض الضوء عليها :

و قرأت سرقه ظريفة لعالم مشهور فى مؤلفه الحديث ، سطا فيها على كتاب قديم ، بدون إشارة إليه ! !

لقد سرنى أن أقرأ أفكاراً طيبة ، تذكر بالماضى وتحاول أن تربطه بالحاضر ، وتذكر بالمصير ، للأستاذ الفاضل : محمد حسين زيدان ، و قوله مثلا : (التدليل على أن شبه الجزيرة العربية هى الأرض الأم) : يقول : (... فالعروبة فى مصر من مفاخرنا (مفاخر عرب الجزيرة) و الأهرام فى مصر من مفاخرنا ، لأن الفراعين وصلوا مصر من قرية (بون) فى اليمن ، كما هو مسجل فى السجل الحجرى الجامد الناطق يقول : « نحن الفراعين و الفينيقيين و الكنعانيين ، قد رحلنا من قرية ، بون) فى اليمن . . . فالفراعين أعطوا مصر مجد السلطان و التاريخ و الفن ، مجد التاريخ كلـــه . . . الهكسوس — و هم قبيل عربى — أحدثوا لمصر تمسكا و وحــدة ؟ إذ كانوا بموقفهم السلبى — حين ذهبوا — بناة الموقف الايجابى (فى الوحدة والاتحاد) .

والفاتح المسلم — على يد عمرو بن العاص — رضى الله عنه — أعطى لمصر عظمتها فى حماية الاسلام ، و حفظ القرآن ، ومجد الأزهر ، و استمرار التاريخ عربياً ..

عربيا لا أكثر و لا أقل . . .

كما طبعت الهجرات الهلالية أرضنا العربية فى مصر ، و فى ليبيا ، و فى شمال

أفريقيا بالطابع العربي : عرقا ، و لغة . . . إلى أن يقول :

إن جزيرتكم العربية هي الجديرة بأن نسميها « الأرض الأم » ولعل الأمومة ستعلو عندما تأتي الكشوف تبين لنا وحدة الأثر : كان نحتا في الجبل في الحجر و البتراء ، فاستعاض عنه العربي الفرعوني عن الجبل - لا يجده في مصر - فصنع الأهرامات في مصر جبالا .

أحسب هذا دليلا على وحدة الأثر والمؤثر .. و أبو الهول عندكم في مصر شامخاً في ظل الأهرامات . ولدينا في وادي القرى تمثال لأبي الهول ، فأيهما كان الأقدم ؟؟

. . . إن وحدة الأثر ستعطينا البرهان على وحدة الأمة . . تعطينا القضاء على كل الشعوبية التي تريد الانسلاخ من العربية بدعوى الفرعونية ، أو الفينيقية أو الأشورية (١) »

أكبرت حديث الأستاذ زيدان ، لأنه يوحي بالثقة ، ويدفع إلى التأمل والبحث ، ويحث على الاعتزاز بالنفس ، و الشعور بالانتماء إلى الأصل الواحد : إلى العروبة و الاسلام . .

و لا ريب في أننا ـ بحاضرنا ـ بحاجة ملحة و أكيدة إلى مثل الضرب على هذه الأوتار الحساسة علها تثير شاكلة انتباه عندنا ، فنلتقي على هدف ، و نستأنف مسيرة الكرامة في دنيا العلم و العلماء ، و القوة و الأقوياء . .

و على فرض الرفض لما أبداه الأستاذ زيدان ، أو التشكك في ذلك تاريخياً أو جغرافياً أو عرقياً ، فحسبه أنه نفخ فينا من روح الاسلام ، و نفحة وعائه : العربية ، و أشعرنا بغابر مجدنا ، و مرارة حاضرنا . و واجبنا نحو مستقبلنا ، على حد قول الشاعر :

منى إن تكن حقا تكن أعذب المنى ‏ ‏ ‏ ‏ و إلا فقد عشنا بها زمنا رغدا

(١) محاضرات و ندوات في التاريخ والثقافة العربية للأستاذ محمد حسين زيدان ٢٦ - ٢٧ بتصرف .

و لعل الكشوف الحديثة تؤيد صدقه ، حتى يزيل جليد الحواجز التى تحجز الأمة الاسلامية ، و التى هى مصطنعة صنعتها السياسة و الأطماع و الخوف ، و حين يتحقق إزالة هذا الجليد يوم أن نكون فرحين بعزتنا و كرامتنا ، فى ظل نداء القرآن الكريم : « واعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا » .

و قرأت فى مجلة أكاديمية متخصصة (١٤) تعريفاً بكتاب من التراث ترجم إلى الانجليزية للأستاذ محمد حسن باكلا . عن عبقرى ، من عباقرتنا ، بعنوان : (ابن جنى عالم الصوتيات) : مقدمة للدراسات الصوتية واللسانية لدى العرب الأوائل .صدر الكتاب بالانجليزية فى لندن(عام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م) . تحدث فيه المترجم عن ابن جنى : عصره وبيئته وتحدث عن مؤلفاته ومكانته ، و وقف طويلا مع كتابه : (سرصناعة الاعراب) لابن جنى من بين كتبه العديدة والقيمة ، وعرض بعض الجوانب اللغوية له و الفرق بين الصوت و بين الحرف ، و الفرق بين الصوامت و الصوائت ، و معايير تقسيم الأصوات إلى صوامت و صوائت . ثم عرض للترتيب الألفبائى و الصوتى للحروف العربية ، و كيفية تصنيف الحروف حسب مخارجها ، ثم تحليل الأصوات الصوائت ، و تصنيف الأصوات بحسب الملامح المميزة ، وعنى بالحديث عن الأنماط الصوتية فى اللغة الفصحى ، مع جوانب من العمليات الصوتية الصرفية .. ثم وضع تصنيفات ابن جنى فى الميزان ، مع إبراز النتائج و سرد المصطلحات الصوتية عند ابن جنى بالعربية و الانجليزية ، مع فهارس تحليلية و كاشفة » .

جهد فائق فى دراسة إكاديمية قيمة ، تصنع أمجادنا تحت أنظار الغرب المتعالى ، حتى تخفف من غلوائه و تريه أن للعرب و المسلمين عقلية خلاقة تقف على قدم المساواة مع غيرها ، إن لم تفقها أحياناً ، إذا هى فكرت و قدرت - دراسة تغرى

(١٤) مجلة عالم الكتب (السعودية) عدد ١/ مجلد ٣/ ص ٨٦ .

طلابنا بالبحث ، و علماءنا بالتحقيق ، و بخاصة و يظن الغرب أنه ابن بجدة هذا العلم ـ و كذلك تلاميذهم يظنون ـ و مثل هذا الصنيع للأستاذ با كلا يردهم إلى الصواب ، و يذكرهم بما انتفع به علماؤهم من تراثنا القديم الحديث .

و قد كان المصنفون من علماء الغرب يحسدوننا على أعمال العبقرى : الخليل ابن أحمد ، و على تأصيله لكتاب الموسيقى ، على غير هواية منه و لا احتراف لهذا الفن . . و كذلك يحسدوننا على تأصيل العلماء العرب لفن التجويد ، على غير مثال سابق . فحفظ لنا نطق العرب الأقدمين للعربية الفصحى ، والعناية بنطق كتاب الله الخالد ، على غرار ما نزل به الروح الأمين على نبينا محمد ﷺ . منذ أكثر من ألف و أربعمائة عام .

و لعلنا لا نأبه للفنين مهملين أو متكاسلين ، و لهما فى مكان الدراسة الاكاديمية و العالية فى الغرب مكانة سامية و مرموقة ـ و فى ظنى أن هذا الاهمال و هذه اللا مبالاة ترجع فى الدرجة الأولى إلى الانهزامية التى عشناها زمناً نكداً طال ظلامه و أمده ، إبان الاستعمار و بعده ، وكانت النتيجة أن أصبح التالى المجيد لكتاب الله تعالى أندر من الكبريت الأحمر و الأصفر كما يقولون ، وفاتنا بالتالى فى دنيا تعلم العربيـــة الفصحى و تعليمها و الحفاظ عليها . . جهود ما كانت تضيع لو كانت قائمة على أسس مدروسة و مؤسسة على علمية أملاها علم الأصوات و اللغويات ، لتعبيد الطريق ، كما صنع الغرب المتقدم والمتحفز فى العناية بالحى من لغاته ، فغطت فى عالم اليوم مساحات شاسعة من كوكبنا المأهول بالحياة و الأحياء . . فمتى نحذو الحذو ؟ ! و متى نبذل الجهد ؟ ومتى يقوى الدفع لتحقيق النفع ؟ و متى تستطيع الاستفادة من الكشوف العالمية فى هذا الصدد - إن لم نقو - لسبب أو لغير سبب - اليوم أن نضيف شيئاً ؟ و نجيب على هذا السؤال إجابة راج مؤمل : قل عسى

أن يكون قريباً .

ونختم بهذا المثال ، كعينة أخرى من المتفمين بالتراث بلا حدود ولا قيود : من المألوف والمعروف ، أن الاقتباس أمانة ، وذكر المرجع عهد وذمة - وبخاصة مع الذين أصبحوا فى ذمة الله تعالى ، فليس فى مقدورهم التتبع ، فى الحاكم و لا اللوم و العتاب . . و متى تم الاقتباس و الاستشهاد على الأسس المعروفة ازدادت ثقة القارىء بالكاتب ، وربا الاحترام المتبادل .

و لكن للأسف قد تفتح الأقواس أحياناً للاقتباس و الاستشهاد فلا تقفل الأقواس بعد ذلك ؟ ! مما يوقع القارىء فى حيرة ، و لا يدرى أين المؤلف ، و أين المقتبس منه ، و لعل هـذا محتمل على مضض - و نلتمس لفاعله توارد خواطر ، أو (جل من لا يسهو) ، و إن كان لا يليق بمؤلفين فضلاء ، والمؤلم حقاً هو ما يتعرض له تراثنا من الاغفال المعيب ، أو السلب الجريئ ، و فى هذا ما فيه من عدم احترام متبادل ، لأن ما يخاله المؤلف يخفى على الناس سيعلم يوماً ما ، لدى بعض القراء قصداً أو عفواً ، ويبدو أن تراث العصور الوسطى هو الذى يتعرض لهذا اللون من السطو الجريئ أو المشين .

قرأت بالخط العريض اسماً على غلاف كتاب ، العبادات فى الاسلام ، وحين فرغت من قراءة المقدمة صدمت : لأن الكتاب لمؤلف مشهور فى العصور المظلمة كما نسميها ، فما كان من المحقق والناشر إلا أن جعل اسم المؤلف متواضعاً ضائعاً بين سطور المقدمة - و احتل اسمه هو غلاف الكتاب ، وما بعد الغلاف ! ! و بقى

أن نعرف أن التراث أمانة و ذمة ! !

و رحت أروح عن نفسى بقراءة كتاب خفيف فى الأخلاق الاسلامية ، لأستاذ شهير ، يتصدر التوجيه فى الدراسات العليا ، فوجدته ممتعاً : يعرض الفضائل

عرضاً مشوقاً ، بأسلوب سهل ويبوب الموضوعات مترابطة ، و يسوق الأدلة تخدم الفكرة و تستقر الأدلة فى أماكنها معبرة موحية - و يعرض الرذائل التى يجب أن يفر منها الانسان ، مع أدلتها و شواهدها ، فما تملك النفس إلا أن تنزجر لكلاحة وجه الرذيلة - ثم وقفت عند موضوع (الغيبة) و أثرها الوبيل فى حياة الفرد و الجماعة : و سألت الله أن يعيذنا منها - و طويت الكتاب بعد تصفح موضوعات كثيرة منه .

و عرضاً استهوانى كتاب وعظ ، نظم الفضائل نظماً ، و الرذائل شعراً ، ثم جاء من شرحها نثراً ، بعنوان (كتاب غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب) تأليف الشيخ الامام و الحبر البحر الهمام شيخنا و أستاذنا الشيخ محمد السفارينى الحنبلى . المولود سنة ١١١٤ هـ بقرية سفارين من قرى نابلس : و وقفت عند شرح هذا البيت :

ويحرم بهت و اغتياب ، نميمة و إفشاء سر ثم لعن وهقيد

فوجدت شرح الغيبة و الحديث عنها هو فى كتاب أستاذنا بقضه وقضيضه ، وشرحه ودليله ، وكذلك مواضيع أخرى كثيرة .

فقلت : ما هكذا يجب أن يعامل القراء ، و ما هكذا يعامل التراث ! !

التراث : تراثنا بحاجة إلى رعاية ونظرة ، و أمانة ودقة ، لأن ذلك داء لو استشرى خطره أكثر من سلبه ، و إثمه أكبر من نفعه ، و الله الهادى إلى سواء الصراط .

نماذج التوحيد من البيان القرآنى

الأستاذ عبد الله محمد الحسنى الندوى

مما لا شك فيه أن التوحيد نعمة إلهية و منحة ربانية ، لا تساويها نعمة و لا تقابلها منحة ، رحمة و عطفاً على الانسانية ، أمناً و سلامة على المجتمعات العالمية ، مساواة و مواساة على الأفراد البشرية ، فكلما تخلت أمة عن هذه النعمة انحطت عن منزلتها الرفيعة ، و سقطت عن مفخرتها العظيمة ، و لأجله بعث الرسل ، و لأجله نزلت الكتب حتى بعث خاتم الرسل ، منير السبل ، و مولى الكل محمد رسول الله صلى الله عليه و آله وسلم ، فأوضح المحجة البيضاء للتوحيد و مفاهيمه ، و الشرك وحبائله ، كى لا يتطرق إلى هذه الأمة الأخيرة التى أحيلت إليها مسئوليات العالم كله إلى يوم القيامة ـ الاشراك بالله بجميع معانيه ، فسد جميع المنافذ الشركية ، وحسم مواد الشرك بأقواله و أفعاله و هى موجودة فى كتب الأحاديث النبوية ، ثم قام الأئمة الأعلام بتفصيل جميع الألفاظ والمعانى التى وردت فى التوحيد و الشرك و بينوا مراتب التوحيد ، و مزالق الشرك ، نحن نستطيع أن نتعرف عليها فى كتب الامام ابن تيمية الحرانى ، و الامام ولى الله الدهلوى و من نحا نحوهما ، و لسنا بصدد ما كتبوا حولها بل نريد أن نشير بعض الاشارات التى وقعت فى القرآن الكريم حول أهمية التوحيد و منزلته .

التوحيد حاجة بشرية لازمة :

إن الركيزة الكبرى ، و حجر الزاوية العظيم إنما هو الاعتقاد بذات الله

سبحانه و تعالى و ربوبيته التى أو دعها الله عز وجل فى كل فرد من أفراد البشر عامة . و فطرهم عليها ، و لا يقوم بنيان الديانات و المذاهب إلا عليها ، لأن العقول الانسانية و الاستدلالات البشرية المنطقية ، و ذكاء الناس و حميتهم ، و شعورهم الدقيق الحساس ، و قلبهم الرقيق الفياض أو تجاربهم الواسعة الحكيمة لم تكن لتقوم بتقديم حلول ناجعة فى هذا المجال و قد ضلت فى أكثر الاحيان ـ فى متاهات الضلالة و خبطت خبط عشواء حين إعمال الفكر والروية فى هذا المضمار ، و هى حقيقة ثابتة لا ينكرها إلا من فسد ذوقه واعتل مزاجه لأجل أمراض و علل أصابته ، وهى من البديهيات التى قبلها الناس قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل و توارثوها ، و لم يطلب أحد دليلا على صحة هذا المعتقد و ثبوت هذه الحقيقة ، و أجمعت الانسانية منذ نشأتها على صفحة هذا الكون على أنها حقيقة ثابتة لامرية فيها ، و لم تزل الأغلبية الساحقة من الانسانية تعتقدها إلى يومنا هذا إلا أنها قد تسربت فيها الخرافات وأفعال شركية ، ما أنزل بها الله من سلطان ، بعارف شيطانية و مطامع دنيوية ، و رغبات و شهوات نفسية . و مطالب حيوية مادية .

الفطرة تدعو إلى التوحيد :

و قد أشار الله فى القرآن الكريم إشارة واضحة إليها حيث قال « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (١) » .

و قد أنشأ الله فى الانسان استعداد المعرفة يوم أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ من ثم لا يسع لمنكر أن ينكر ، ولا لجاحد أن يجحد ، ولا يتجرأ مشرك أن يحتج خلافه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، و قد ثبت أن الانسان ينسى عهوده

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٣

الدنيوية وعهده بها قريب ، فكيف لا ينسى ذلك العهد الذى اختفى فى حجب كثيرة زمانية و مكانية و لكنه يبقى فى النفس الانسانية مجملا كما أن كل العالم الذى تعلم العلوم المبدئية و تلقى الحروف الهجائية حتى بدأ يرتجل الكلام لايستطيع أن يستوعب أسماء جميع الأشخاص الذين تعلم منهم لكنه يكون على يقين كامل أنه لم يتلق هـذه العلوم طبيعياً من غير وسائط ، و كما هو معلوم لدى كل أديب مترسل أنه لم ينشأ فيه الذوق الأدبى و لم يملك ناصية الانشاء و الكتابة عفواً و مرتجلا من غير خلفيات و سوابق ، بل وجدت فيه هـذه الملكة الانشائية بتلقى الأدب من أساتذة بارعين فى الأدب و الانشاء أو بمطالعة كتبهم التى ألفوها ، إن كان هو لايستطيع أن يستوعب أسماءهم و احداً تلو الآخر ، ولا يقدر أن يبين بترتيب وإسهاب جميع النواحى التى تأثربها ، ويحيط بجميع الخلفيات و الأسباب التى وقعت فيه أيما وقع .

كذلك نستطيع أن نقول إن الله قد أودع فى كل إنسان هذا الاستعداد و الصلاحية لمعرفة الله و معرفة توحيده ، يقول الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى كتابه « الجواهر و اليواقيت » .

« إنما كنا لا نذكر لأن تلك البنية قد انقضت وتداولت الانسان تغير بمرور الدهور عليها فى اصلاب الآباء وأرحام الأمهات ، ثم زاد الله تعالى فى تلك البنية أجزاء كثيرة ، ثم استحالت بتصريفها فى الأطوار الواردة عليها من العلقة والمضغة واللحم والعظم ، وهذه كلها مما يوجب الوقوع فى النسيان ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ـ يقول : إنى لأذكر العهد الذى عهد إلى ربى و أعرف من كان هناك عن يمينى ومن كان عن شمالى ، وكذلك بلغنا نحو هذا القول عن سهل بن عبد الله التسترى أنه كان يقول : أعرف تلامذتى من يوم ألست بربكم » (١) .

(١) الجواهر و اليواقيت ج ١ ص ١٠٣ ، وقد كتب بحثاً لطيفاً فى هذا الموضوع الشيخ بدر عالم الميرتهى فى كتابه « ترجمان السنة » ج ١ باب التوحيد .

من ثم نرى أن الانسان كلما يتجرد عن هذه المؤثرات الخارجية ويخرج عن الاطار الضيق الذى يعيشه و يبتعد عن الأسباب التى يعتمد عليها فى صيانة الكيان و حفظ الامان الفردى ، تنبعث منه تلك النزعة الفطرية التى أو دعها الله فى نفسه منذ اراد خلقه ، فيبدو حينئذ موحداً خالصاً و ينسى ما حوله من المعبودات التى اخترعها لنفسه و نحتها بيده ، إن كان هو ممن يشركون بالله عز و جل و يجعلون له أنداداً ، كما تشير إليه الآية القرآنيـة الكريمة « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون » (العنكبوت الآية ٦٥).

و إن كان هو ممن ينكرون الله عزوجل و لا يؤمنون به البتة ، فهو كذلك يشعر فى قلبه إيماناً كان كامناً فبدأ يلمع ، و كان شيئاً مخفياً فبدأ يبرز ، فكأنه أتى إلى عروة - و كان فى حاجة ماسة إليها - فأخذها و استمسك بها و قد قرأت فى كتاب مقالة نشرت أيام الحرب ، لشاب من جنود المظلات (يوم كانت المظلات و الهبوط بها شيئاً جديداً) يروى قصتـــه فيقول : إنه نشأ فى بيت ليس فيــه من يذكر الله أو يصلى ، ودرس فى مدارس ليس فيها دروس للدين ولا مدرس متدين ، نشأ نشأة علمانية مادية ، أى مثل نشأة الحيوانات التى لا تعرف إلا الأكل و الشرب ، و لكنه لما هبط أول مرة و رأى نفسه ساقطاً فى الفضاء قبل أن تنفتح المظلة ، جعل يقول : يا رب يا الله و يدعو من قلبه ، و هو يتعجب من أين جاء هذا الايمان » (١) .

و لكن هذه الفطرة قد تغطيها الشهوات و الرغبات و المطامع و المطالب الحيوية المادية ، فاذا هزتها المخاوف والأخطار والشدائد ألقت عنها غطاءها فظهرت ، و لذلك سمى غير المؤمن (كافراً) و معنى الكافر فى لسان العرب « الساتر » .

(١) تعريف عام بدين الاسلام ص ٥٣ .

الدعوة إلى التوحيد غاية عظمى لبعثة الرسل :

إنه لم يبعث الرسل إلا لاخراج الناس من ظلمات الشرك و الضلالة إلى نور الايمان و التوحيد ، لأنه ضرورة حتمية و طبيعية . يقول الشيخ أبو الحسن على الندوى فى كتابه (النبوة و الأنبياء) « وكل من له صلة بالقرآن ـ وهو الكتاب المهيمن على الكتب السابقة - يعرف اضطراراً و بداهة أن القضاء على هذه الوثنية و الانكار عليها و محاربتها و إنقاذ الناس من براثنها كان هدف النبوة الأساسى و مقصد بعثة الأنبياء و أساس دعوتهم و منتهى أعمالهم و غاية جهادهم ، و قطب الرحى فى حياتهم و دعوتهم ، حولها يدندنون و فيها يصدرون ، و إليها يرجعون ، و فيها يبدأون و إليها ينتهون ، و القرآن تارة يقول بالاجمال « و ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » (١) .

و تارة يقول بالتفصيل فيسمى بنياً نبياً ، و يذكر إن افتتاح دعوته كان بهذه الدعوة إلى التوحيد ، فقال « و لقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إنى اخاف عليكم عذاب يوم أليم (٢) .

« و إلى عاد أخاهم هوداً قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون (٣) « وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض و استعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب » (٤) « و إلى مدين أخاهم شعيبا ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .
(٢) سورة هود الآية ٢٥-٢٦ .
(٣) سورة هود الآية ٥٠ .
(٤) سورة هود الآية ٦١ .

من إله غيره و لا تنقصوا المكيال و الميزان ، إنى أراكم بخير و إنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط (١) ،

أما إبراهيم فدعوته إلى توحيد الألوهية و نبذ الأصنام و الأوثان أوضح و أصرح ، ففى سورة الأنبياء « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنا به عالمين إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون ، قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين ، قال : لقد كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبين » (٢) و فى سورة الشعراء « و اتل عليهم نبأ إبراهيم ، إذ قال لأبيه و قومه : ما تعبدون ، قالوا : نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ، قال هل يسمعونكم إذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فانهم عدو لى إلا رب العالمين . الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى و يسقين و إذا مرضت فهو يشفين ، و الذى يميتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفرلى خطيئتى يوم الدين (٣) ، وفى سورة مريم « واذكر فى الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر و لا يغنى عنك شيئاً (٤) ، و فى سورة العنكبوت « و إبراهيم إذ قال لقومه : اعبدو الله واتقوه ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون إنما تعبدون من دون الله أوثانا و تخلقون إفكا ، و إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً ، فابتغوا عند الله الرزق و اعبدوه واشكروا له إليه ترجعون (٥) و فيها قال : إنما اتخذتم

(١) سورة هود الآية ٨٤ . (٢) سورة الأنبياء ص ٥١-٥٤

(٣) الشعراء الآية ٦٩-٨٢ .

(٤) مريم الآية ٤١-٤٢ .

(٥) العنكبوت الآية ١٦-١٧ .

من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضاً و مأواكم النار ، و ما لكم من ناصرين (١) .

و كذلك يوسف ، فقد جاء فى القرآن الكريم فى موعظته البليغة الحكيمة ، فى السجن ، قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذالكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى إبراهيم ، وإسحاق ، و يعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شئ ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم و لكن أكثر الناس لا يعلمون (٢) .

و قد كانت هذه دعوة موسى لفرعون الذى كان يدعى أنه مظهر للشمس (الاله الأكبر) عند قدماء المصريين ، فيقول : (إنا ربكم الأعلى) وقد قال : حين سمع دعوة موسى « يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى » (٣) و قال « لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين » (٤) .

قد سمى القرآن عبادة الأوثان الشرك الأكبر ، و الرجس ، و قول الزور ، وشنع عليها التشنيع الأعظم فقال فى سورة الحج « ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، و أحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس و اجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ، و من يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (٥) (٦) .

(١) سورة العنكبوت الآية ٢٥ . (٢) سورة يوسف الآية ٣٧ .
(٣) سورة القصص الآية ٣٨ . (٤) سورة الشعراء ٢٩ .
(٥) الحج آية ٣٠ - ٣١ . (٦) النبوة والأنبياء ص ٥٤-٥٥-٥٦ .

وهذه تصريحات واضحة تدل دلالة مبينة على أنه خلق الخلق للابتلاء والامتحان وأرسل رسله ليوضحوا لهم سبيل الرشد والهداية حتى يكونوا على بينة من أمرهم، فدعوا إلى التوحيد دعوة صريحة، وأكدوا عليه تأكيداً مزيداً، «وهو لم يكتف بالدعوة إليه فى وقت دون وقت وزمان دون زمان، و لم يقيده بأسباب انحرافية، و ظروف شركية طرأت على أقوام و أمم فى أزمنة مختلفة حتى صارت منحرفة عن الدين و القيم و الخط المستقيم، بل امتدت هذه الدعوة ساحة الزمان والمكان، و شملت الظروف و الأوضاع، كما نرى واضحة جلية أن القرآن يسهب فى سوره المكية حينما يخاطب المشركين فى الألوهية، و ليس سببه انحراف الجاهلية العربية و الجاهليات كلها فى تصورهـــا لله، فان السور المدنيـــة التى نزلت للمؤمنين ظلت تتحدث عن الألوهية باستفاضة و إسهاب و تلمس أوتار القلب البشرى بهذه القضية من كل جانب و فى كل مناسبة بحيث لا يعود لدينا شك فى أن القرآن يولى القضية الألوهية تلك الأهمية العظمى لا لذلك السبب العارض وهو انحراف الجاهلية العربية ولكن لسبب يتعلق بالانسان ذاته فى كل حالاته(١).

و قال ابن تيمية: «التوحيد الذى جاءت به الرسل إنما جاء يتضمن إثبات الالهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، ولا يعبد إلا إياه، و لا يتوكل إلا عليه، ولا يوالى إلا له، ولا يعادى إلا فيه و لايعمل إلا لأجله، و ذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء و الصفات قال تعالى «و اسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون» و أخبر عن كل نبى من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، و قال تعالى: «قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه، إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله» وقال عن المشركين «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» وهذا فى القرآن كثير (٢).

(١) دراسات قرآنية ص ٣٢-٣٣ (٢) فتاوى ابن تيمية ص١٤-١٥-٣٧٩-٣٨٠ج١٤٠

Accession Number.
84660

وجوب التوبة إلى الله والضراعة إليه عند نزول المصائب

بقلم : سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز
الرئيس العام لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد
(الرياض)

إن الله عز و جل بحكمته البالغة وحجته القاطعة و علمه المحيط بكل شئ يبتلى عباده بالسراء و الضراء و الشدة والرخاء و بالنعم و النقم ليمتحن صبرهم و شكرهم فمن صبر عند البلاء وشكر عند الرخاء و ضرع إلى الله سبحانه عند حصول المصائب يشكو إليه ذنوبه وتقصيره ويسأله رحمته وعفوه أفلح كل الفلاح وفاز بالعاقبة الحميدة قال الله جل وعلى فى كتابه العظيم : «ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ولا هم يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين» و المقصود بالفتنة فى هذه الآية الاختيار و الامتحان حتى يتبين الصادق من الكاذب و الصابر و الشاكر ، كما قال تعالى (و جعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون و كان ربك بصيراً) و قال عز و جل (و نبلوكم بالخير و الشر فتنة و إلينا ترجعون) و قال سبحانه (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) والحسنات هى النعم من الخصب والرخاء والصحة و العزة و النصر على الأعداء ونحو ذلك ، و السيئات هنا هى المصائب ، كالأمراض و تسليط الاعداء و الزلازل و الرياح العاصفة و السيول الجارفة المدمرة و نحو ذلك ، وقال عز و جل (ظهر الفساد فى البر و البحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) .

و المعنى أنه سبحانه قدر ما قدر من الحسنات و السيئات وما ظهر من الفساد ليرجع الناس إلى الحق و يبادروا بالتوبة مما حرم الله عليهم و يسارعوا إلى طاعة

الله و رسوله لأن الكفر والمعاصي هما سبب كل بلاء وشر في الدنيا و الآخرة ، و أما توحيد الله و الايمان به و برسله و طاعته و طاعة رسله و التمسك بشريعته و الدعوة إليها والانكار على من خالفها فذلك هو سبب كل خير في الدنيا والآخرة و في الثبات على ذلك و التواصي به و التعاون عليه عز الدنيا و الآخرة و النجاة من كل مكروه و العافية من كل فتنة كما قال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وقال سبحانه (ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة وأمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر و لله عاقبة الأمور) و قال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً و من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) و قال سبحانه (ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) .

و قد بين سبحانه في آيات كثيرات إن الذي أصاب الأمم السابقة من العذاب و النكال بالطوفان و الريح العقيم و الصيحة و الغرق و الخسف وغير ذلك كله بأسباب كفرهم وذنوبهم كما قال عز وجل (فكلا أخذناه بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً و منهم من أخذته الصيحة و منهم من خسفنا به الأرض و منهم من أغرقنا و ما كان الله ليظلمهم و لكن كانوا أنفسهم يظلمون) و قال سبحانه وتعالى (و ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير) و أمر عباده بالتوبة إليه و الضراعة إليه عند وقوع المصائب فقال سبحانه (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من

تحتها الأنهار) و قال سبحانه وتعالى (و توبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) وقال سبحانه و تعالى (ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا و لكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) وفى هذه الآية الكريمة حث من الله سبحانه لعباده و ترغيب لهم إذا حلت بهم المصائب من الأمراض و الجراح و القتال و الزلازل و الريح العاصفة وغير ذلك من المصائب، أن يتضرعوا إليه ويفتقروا إليه فيسألوه العون و هـذا هو معنى قوله سبحانه و تعالى (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا) و المعنى هلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ثم بين سبحـانه أن قسوة قلوبهم و تزيين الشيطان لهم أعمالهم السيئة كل ذلك صدهم عن التوبة و الضراعة و الاستغفار فقال عز و جل (و لكن قست قلوبهم و زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) .

و قد ثبت عن الخليفة الراشد رحمه الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أنه لما وقع الزلزال فى زمانه كتب إلى عماله فى البلدان و أمرهم أن يأمروا المسلمين بالتوبة إلى الله والضراعة إليه والاستغفار من ذنوبهم ، وقد علمتم أيها المسلمون ما وقع فى عصرنا هذا من أنواع الفتن و المصائب و من ذلك تسليط الكفار على المسلمين فى أفغانستان و الفلبين و الهند و فلسطين و لبنان و أثيوبيا و غيرها و من ذلك ما وقع من الزلازل فى اليمن وبلدان كثيرة ، ومن ذلك ما وقع من فيضانات مدمرة و الريح العاصفة المدمرة لكثير من الأموال و الأشجار و المراكب البحرية و غير ذلك و أنواع الثلوج التى حصل بها ما لا يحصى من الضرر ، و من ذلك المجاعة و الجدب و القحط فى كثير من البلدان ، و كل هذا و أشباهه من أنواع العقوبات *والمصائب التى ابتلى الله بها العباد بأسباب الكفر والمعاصي والانحراف عن طاعته*

سبحانه و الاقبال على الدنيا و شهواتها العاجلة و الاعراض عن الآخرة و عدم الاعداد لها إلا من رحم الله من عباده .

لا شك أن هذه المصائب و غيرها توجب على العباد البدار بالتوبة إلى الله سبحانه من جميع ما حرم عليهم و البدار إلى طاعته و تحكيم شريعته و التعاون على البر والتقوى و التواصى بالحق و الصبر عليه ، ومتى تاب العباد إلى ربهم وتضرعوا إليه و سارعوا إلى ما يرضيه و تعاونوا على البر و التقوى و تآمروا بالمعروف و تناهوا عن المنكر أصلح الله أحوالهم و كفاهم شر أعدائهم و مكن لهم فى الأرض و نصرهم على عدوهم و أسبغ عليهم نعمه و صرف عنهم نقمه كما قال سبحانه و هو أصدق القائلين (و كان حقاً علينا نصر المؤمنين) وقال عز و جل (ادعوا ربكم تضرعاً و خفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها و ادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين) وقال عز و جل (وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذى فضل فضله و إن تولوا فانى أخاف عليكم عذاب يوم كبير) و قال سبحانه و تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم و ليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) الآية . و قال عز و جل (و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة و يطيعون الله و رسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) .

أوضح عز و جل فى هذه الآيات أن رحمته و إحسانه و أمنه وسائر أنواع نعمه إنما تحصل على الكمال الموصول بنعيم الآخرة لمن اتقاه وآمن به وأطاع رسله

و استقام على شرعه و تاب إليه من ذنوبه . أما من أعرض عن طاعته و تكبر عن أداء حقه و أصر على كفره و عصيانه فقد توعده سبحانه بأنواع العقوبات فى الدنيا و الآخرة و عجل له من ذلك ما اقتضته حكمته ليكون عبرة و عظة لغيره كما قال سبحانه (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شئ حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين) .

فيا معشر المسلمين حاسبوا أنفسكم و توبوا إلى ربكم و استغفروه و بادروا إلى طاعته واحذروا معصيته و تعاونوا على البر و التقوى و أحسنوا إن الله يحب المحسنين واقسطوا إن الله يحب المقسطين ، و أعدوا العدة الصالحة قبل نزول الموت و ارحموا ضعفاءكم و واسوا فقراءكم و أكثروا من ذكر الله و استغفاره و تآمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر لعلكم ترحمون ، و اعتبروا بما أصاب غيركم من المصائب بأسباب الذنوب و المعاصى والله يتوب على التائبين ويرحم المحسنين و يحسن العاقبة للمتقين كما قال سبحانه و تعالى : (فاصبر إن العاقبة للمتقين) و قال تعالى : (إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون) و الله المسئول بأسمائه الحسنى و صفاته العلى أن يرحم عباده المسلمين وأن يفقههم فى الدين و ينصرهم على أعدائه وأعدائهم من الكفار والمنافقين، وأن ينزل بأسه بهم الذى لا يرد عن القوم المجرمين . إنه ولى ذلك و القادر عليه ، و صلى الله عليه وسلم على نبينا محمد و على آله وأصحابه و التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

من بحوث

الندوة العالمية للأدب الاسلامي

- الأدب الاسلامي في تراثنا التاريخي و الجغرافي
- الأدب الاسلامي وصلته بالحياة

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخى و الجغرافى

(٤)

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة «العربية» (Arabia)

الخصائص الاسلامية فى أدب التاريخ و التراجم :

نشأ أدب التاريخ و التراجم أصلا فى حجر الاسلام و لتلبية مقاصد دينية من تدوين سيرة رسول الله ﷺ ثم أخبار الفتوح الاسلامية إلى الترجمة لرواة الحديث لمعرفة من يؤخذ عنه و من يترك، فتمثلت فيه خصائص إسلامية أصيلة. و فى مقدمتها رواية الخبر بسنده و هى طريقة فذة للتدقيق التاريخى إلى جانب النظر فى المتن، كما أنها طريقة تربى الدارس والقارئ على الامانة فى القول والنقل. و قد كان علماء المسلمين يستجيبون للتوجيه القرآنى «يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا، أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (الحجرات / ٦). ولم يشهد تاريخ أمة من الأمم مثل هذا التدقيق فى الرواية و النقل، ومن المؤسف أن هذا النهج الأمثل لم يستمر فى القرون المتأخرة بالنسبة لكثير من المؤرخين، ومما يثير أسفاً أشد أن الافادة من هذا النهج فى تمحيص الروايات التاريخية التى التزمته لم يتمرس به المعاصرون من المتخصصين فى الدراسات التاريخية بالبلاد الاسلامية .

و كان الدين محورا للدراسة و معيارا للتقويم، و من ثم حرص المؤرخون على رواية ما ورد من آثار فى فضائل البلدان أو مناقب الأشخاص. وهذا وإن كانت

قد تخطلته مبالغة فى القول وآثار موضوعة مدخولة أحياناً ، إلا أنه يمثل احتكاماً إلى شهادة الدين فى كل أمر . روى ابن عبد الحكم فى كتابه (فتوح مصر و المغرب) فى سياق خطبة جمعة لعمرو بن العاص حاكم مصر : « حدثنى عمر أمير المؤمنين إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : (إن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لكم منهم صهراً وذمة) فعفوا أيديكم و فروجكم و غضوا أبصاركم . ولا اعلمن ما أتى رجل قد أسمن جسمه وأهزل فرسه ، و اعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال ، فمن أهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك ، و اعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الاعداد حولكم ، و تشوف قلوبهم إليكم و إلى داركم - معدن الزرع والمال والخير الواسع و البركة النامية و حدثنى عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول (إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير أجناد الأرض)فقال له أبو بكر : و لم يارسول الله ؟ قال : (لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة) فاحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم . . . . . . » (١) . وروى البلاذرى عن محمد بن سعد عن الواقدى أن ابن هرمز الأعرج القارىء كان يقول : « خير سواحلكم رباط الاسكندرية . فخرج إليها من المدينة مرابطاً ، فمات بها سنة سبع عشرة و مائة »(٢) ، و ذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى فى استفتاح كتابه (النجوم الزاهرة) ضمن بيانه نهجه : « واطلق عنان القلم فيما جاء فى فضلها وذكرها من الكتاب العزيز وما ورد فى حقها من الأحاديث وما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التميز» . ويقول

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر و المغرب ـ تحقيق عبد المنعم عامر ـ القاهرة ١٩٦١ - ص ١٩١ .

(٢) البلاذرى - : فتوح البلدان - مراجعة رضوان محمد رضوان - القاهرة ص ٢٢٤

الجغرافى المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) عن اقليم الشام « إقليم الشام جليل الشأن ، وديار النبيين ومركز الصالحين . . به القبلة الأولى ، و موضع الحشر والمسرى ، والأرض المقدسة ، و الرباطات الفاضلة والثغور الجليلة و الجبال الشريفة ، ومهاجرا إبراهيم و قبره ، وديار أيوب و بئره ، ومحراب داود وبابه ، و عجائب سليمان و مدنه ، و تربة اسحاق و أمه ، و مولد المسيح و مهده ، وقرية طالوت و نهره ، و مقتل جالوت و حصنه ، و جب أرميا و حسبه ، و مسجد أوريا و بيته ، و قبة محمد و بابه ، وصخرة موسى و ربوة عيسى و محراب زكريا و معترك يحيى ، و مشاهد الأنبياء و قرى أيوب و منازل يعقوب و المسجد الأقصى . . . . و مساجد عمر و وقف عثمان . . . . إلخ » (١) .

وقد استثمرت كتابة التاريخ و التراجم و السير تربوياً ، فاتجهت إلى دراسة تاريخ الأحداث للعبرة ، و دراسة سير الأفذاذ المبرزين للقدوة . . . . وقد سمى ابن خلدون (المتوفى ٨٠٨هـ) كتابه فى التاريخ (العبر وديوان المبتدأ و الخبر فى أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . و هو يقول فى صدر كتابه : « إعلم أن فن التاريخ فن غزير المذهب جم الفوائد شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم فى أخلاقهم والأنبياء فى سيرهم ، والملوك فى دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء فى ذلك لمن يرومه فى أحوال الدين و الدنيا » (٢) وقد وجه القرآن المسلمين إلى الاعتبار بأخبار النبيين و الأولين « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » (يوسف / ١١١) ، « أولئك الذين هدى

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٥١ .

(٢) ابن خلدون : المجلد الأول من تاريخه وهو المقدمة - دار الكتاب اللبنانى بيروت ط ٣ - ١٩٦٧ - ص ١٢ .

الله فبهداهم اقتده ، قل لا أسئلكم عليه أجراً إن هو إلا ذكر للعالمين » (الأنعام ٩٠) . وتتحقق العبرة بتدبر عاقبة الظالمين المسرفين مثلما تتحقق بتدبر عاقبة أهل الايمان و الحق المجاهدين « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (آل عمران ١٢٧) . « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لا يحب الظالمين . و ليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين » (آل عمران ١٤٠-١٤١) « كدأب آل فرعون و الذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب . ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم إن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا آيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم و أغرقنا آل فرعون و كل كانوا ظالمين » (الأنفال ٥٢ - ٥٤) ، « وكأين من قرية أمليت لها و هى ظالمة ثم أخذتها و إلى المصير » (الحج / ٤٨) ، « فكأين من قرية أهلكناها و هى ظالمة فهى خاوية على عروشها و بئر معطلة و قصر مشيد . أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار و لكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (الاسراء/١٦) ، « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة / ٢٥١) . و نجد فى ثنايا روايات المؤرخين إشارات بليغة إلى العبرة والموعظة الحسنة ، ولا تخلو منها كتابات المتأخرين مثل ابن تغرى بردى فى كتابه (النجوم الزاهرة فى أخبار مصر و القاهرة) .

و لقد درج الطبرى على أن يفرد جانباً لمناقب الخليفة وقسمات شخصيته بعقب خبر وفاته . وهو يبرز ما عرف من مآخذ أحياناً على الخلفاء الذين أتوا بعد الراشدين لتكون تبصرة للمعتبرين ، ، فيجتنبون الخطأ مثلما يتبعون الحسن والصواب . وقد ألف

ابن الجوزى فى مناقب الصالحين من الحكام و العلماء ليبصر الخلف بسيرة السلف و ينهجوا نهجهم . قال فى تقديم كتابه (مناقب الامام أحمد بن حنبل) : « . . . . فمن سبر حال نبينا عليه السلام علم فضله على جميع الأنبياء فى العلم و العدل ، و من نظر فى علوم أمتنا رأى من علوم علمائهم ما يعجز عنه الأحبار ، و من عبادة متعبديهم ما يقصر عنه الرهبان ، ولا نظر إلى صورة الترهبن فان التعبد بموافقة المشروع و مخالفة الهوى أشد و أعظم . فالعلم و العمل بحمد الله فى أمتنا فاش كثير ، غير أنى بحثت عن ماثلى مرتبة الكمال فى الأمرين - أعنى العلم والعمل - من التابعين ومن بعدهم فلم أجد من تم له الأمران على الغاية التى لا يخدش وجه كمالها نوع نقص سوى ثلاثة أشخاص : الحسن البصرى و سفيان الثورى و أحمد بن حنبل . . . . ثم رأيت أحمد جمع من العلوم ما لم يجمعا وحمل من الصبر ما لم يحملا . . . . فرأيت أن أصرف بعض زمنى إلى تهذيب كتاب يشتمل على مناقبه وآدابه ، ليعرف المقتدى قدر من اقتدى به » (١) .

و من الخصائص الاسلامية لأدب التاريخ و التراجم اعتبار وحدة أرض الاسلام مهما كانت التخوم و الحواجز الطبيعية و السياسية . . . يظهر هذا بطبيعة الحال فيمن أداروا مصنفاتهم على التاريخ الاسلامى العام ، لكنه يظهر جلياً ايضاً فيمن عالجوا تاريخ قطر أو دولة و مدينة ، فانهم لم يغفلوا أحداث سائر بلاد الاسلام ، و لا سيما وقت وحدة أرض الاسلام تحت سلطان الخلافة ، و إن كان لا ينقطع ذلك بصورة ما حين تجزأت ملك الأرض بين دول متعاصرة . و يظهر هذا مثلا فى كتاب ابن تغرى بردى عن تاريخ مصر .

و مما سبق إليه مؤرخو الاسلام تلك العلاقة الوثيقة الحميمة بين الانسان والأرض أو بين التاريخ و الجغرافيا فان مسرح الأحداث له أثره على مسيرة الحرب

---

(١) ابن الجوزى : مناقب الامام أحمد بن حنبل تحقيق د/ عبد الله التركى ص ٢٦ - ٢٧ .

و إدارة الدولة . و يتضح هذا الاهتمام بهذا الارتباط و الترابط عند المؤرخين والجغرافيين المسلمين على حد سواء . . . ونجده عند مؤرخي التاريخ الاسلامي العام أمثال المسعودي و ابن خلدون ، (ونجد هذا جليا في كتابي المسعودي (مروج الذهب) و (التنبيه و الاشراف) و في مقدمة ابن خلدون و تاريخه ، وعند من عنوا بالتاريخ المحدود بمكان أو زمان مثل المقريزي و ابن تغري بردي . وقد أورد ابن خلدون مثلا في (مقدمته) التي تكون المجلد الأول من تاريخه ما يلي : « اعلم أنه قد تبين في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كروي فانها محفوفة بعنصر الماء . فانحسر الماء عن بعض جانبها لما أراد الله تكوين الحيوانات فيه و عمرانها بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها. و قد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض و ليس بصحيح : وإنما التبحث الطبيعي قلب الأرض و وسط كرتها الذي هو مركزها ، و الكل يطلبه بما فيه من الثقل ، و ماعدا ذلك من جوانبها . و أما الماء فهو فوق الأرض » (١) . وقد لاحظ ابن خلدون أن الربع الشمالي من الأرض أكثر عمرانا من الربع الجنوبي و حاول تعليل ذلك ، كما عرض للمعتدل من الأقاليم و المنحرف و تناول تأثير المناخ في أحوال البشر . و عني المقريزي و ابن تغري بردي بوصف مصر قبل استعراض تاريخها » و استفادا من كتب البلدان والرحلات ، وأسهبا في الكلام عن نهر النيل و تسجيل تقلباته من النقص و الفيضان على مر السنين و ما ابتني من مقاييس لرصد مستوى المياه وما كان من نتائج اقتصادية و اجتماعية للنقصان و الزيادة في ماء النيل . وقد أفرد المقريزي كتاباً مركزاً قيماً لتاريخ المجاعات و الشدائد أو الأزمات الاقتصادية بمصر أول أسبابها و علاجها أسماه « اغاثة الأمة بكشف الغمة » .

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٧٤ .

الأدب الاسلامى وصلته بالحياة

(٣)

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى النــدوى
رئيس كلية اللغة العربية جامعة ندوة العلماء

لقد كانت الميزة الاساسية للادب الاسلامى كما ظهر من النماذج المــذكورة هو الالتزام بالطبيعة الاسلامية ، وهذه الطبيعة لم تكن محدودة فى أغراض أدبية خاصة، مثل طبائع أديان أخرى بحيث إنها تكون محدودة فى الأغراض الدينية وحــدها ، فآداب هذه الأديان لا تتصل بالحياة إلا فى هذه المجالات وحدها ، و أما المجالات الدنيوية من الحياة ، فهى إما تشطب شطباً من أن يمثلها الأدب فيهــا و إما تهمل إهمالا فتمارس كما تمارس فى الآداب الحرة الهاملة . و لذلك أصبح مفهوم الأدب المنسوب إلى دين هو مفهوم الأدب الدينى لا غير .

أما الأدب الاسلامى فهو واسع مع الالتزام ومقيد مع الشمول ، يتصل بجميع مجالات الحياة الدينية والدنيوية ولكنه ملتزم فى حدود الطبيعة الاسلامية ، والطبيعة الاسلامية هى الفطرة التى فطر خالق الناس الناس عليها ، ففيها سرور وحزن وفيها شعور الارتياح و الأسى ، وسرور الرضا و السخط ، وفيها العتاب و الاستعتاب ، و العفو و الانتقام ، و المباعدة و الوئام ، و ليس الأدب فى أى لغة من لغــات البشر إلا حديثاً عن كل ذلك ، ولا يفرض التوجيه الاسلامى على أدب المسلم إلا أن يتجنب السوء و الخبث ، و هذه هى الطبيعة التى فطر الناس عليهــا ، و الوحى المرسل من فاطر الفطرة إلى نبيه ﷺ أوضح لنا أبعاد الخير والشر فيها ، كما أودع فى الفطرة الانسانية أيضاً شعوراً بذلك ، فقــد ورد فى الحديث الصحيح ، البر حسن الخلق ، و الاثم ما حاك فى صدرك و كرهت أن يطلع عليها الناس (مسلم) .

ظهرت سعـــة الأدب الملتزم الاسلامى من نصوص كلام الرسول ﷺ و كلام صحابته و تنوعت إلى أنواع مختلفة ، وتجلت فى الأقسام الأدبية السائدة فى عصرهم و هى فى الكلام المنثور ، الخطبة و الحديث و الرسالة .

كانت هذه الأقسام الأدبية هى العماد التى اعتمد عليها أدب عصرهم و لكن تجلت القوة الأدبية فى الخطبة و الرسالة بصورة أكثر . لأنهما كانتا تنشئان باهتمام زائد ، و اشتـــدت حاجة الحياة الجديدة إليهما أكثر من غيرهمـــا ، لشيوع عمل الدعوة و التوجيه و الارشا ، و ظهور مهام الحكم و النظام .

أما الخطابة فقد اعتمدت على أسسها القديمة و زانت نفسها بصور فنية جديدة اقتبستها من البيان القرآنى المؤثر الرائع و أضفى هذا الاقتباس و الاستفادة عليهـا مزيداً من القوة و البراعة .

أما الرسائل فقـــد برزت بصورة أجلى و أقوى ، و ظهرت كقسم أدبى ملموس ، وذلك لأن العرب بانتقالهم من جاهليتهم الأمية إلى الاسلام المثقف خرجوا من انعزاليتهم البدوية إلى الجلوات الاسلامية الاجتماعية والسياسية ، وكانت الرسائل من أجدى وسائل الابلاغ و التوجيــه فى حيــاة الاجتماع الجديدة ، و لذلك مثل هذان القسمان الأدبيان أدب الصحـابة رضى الله عنهم بصورة خاصة ، و برزا فى أدب الصحابى الجليل الخليفة الراشد الرابع على بن أبى طالب بصورة أجلى وأقوى و قـــد تربى رضى الله عنه تحت إشراف ابن عمه الرسول ﷺ و تلقى المؤهلات البيانية منه لقربه منه و لتوفر فرص الاستفادة منه ، كما أن العهد الذى تولى فيه الحكم و إدارة النظام كان عهـــداً مضطرباً ، تستدعى إلى براعة القول و العمل كليهما ، لجأ على رضى الله عنه إلى اختيار وسائل البيان ، فقد ظهر ذلك جلياً فى خطبه و رسائله :

و توجــد خطبه و رسائله كثيره من الرجالات فی كتب التـاريخ و هی لا توخذ بعين الثقة الكاملة والاعتماد التام لأن المبالغين فی حبه رضی الله عنــه قـد بالغوا فی رواية كل كلام منسوب إليه ، مستحسن فی نظرهم ، ولذلك لايوخذ كلام سيدنا علی رضی الله عنه من كـتب التاريخ ومن نهج البلاغة إلا بعد النقد لمضمون هذا الكلام و ثبوت مستواه الخاص ، لأن الصحـابة رضی الله عنهم كانوا ملتزمين بالحيـاة الاسلامية ، فلابد أن يكون كلامهم أيضــاً على هــذا المستوى الرفيع من الالتزام الاسلامی .

أقدم هنا صورة مختــارة من أدب علی بن أبی طالب كرم الله وجهه مقتبسة من خطبه و رسائله :

خطب سيدنا علی بن أبی طالب أمام أنصاره مبدياً تحسره علی ذهاب أصحابه المثاليين المخلصين و بقاء قلة قليلة منهم ، مظهراً حنينه إلی هولآء السـابقين يقول :

هذا جزاء من ترك العقدة ، أما والله لو أنی حين أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذی يجعل الله فيه خيراً ، فإن استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتكم ، و إن أبيتم تداركـتكم ، لكانت الوثقی ، و لـكن بمن و إلی من ؟ أريد أن أداوی بكم و أنتم دائی كناقش الشوكة بالشوكة و هو يعلم أن ضلعهـا معهـا ، اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوی وكلت النزعة بأشطان الركی ، أين القوم الذين دعوا إلى الاسلام فقبلوه ، و قرأوا القرآن فأحكموه ، و هيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها ، وسلوا السيوف من أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً و صفاً صفـاً : بعض هلك ، و بعض نجـا ، لا يبشرن بالأحياء ، ولا يعزون بالموتی ، مره العيون من البكاء ، خمص البطون من الصيام ، ذبل الشفاه من الدعاء ، صفر الألوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين .

أولئك إخوانى الذاهبون ! فحق لنـا أن نظمـأ إليهم و نعض الأيدى على فراقهم .

عزاء على وفاة سيدنا أبى بكر :

لما قبض أبو بكر رضى الله عنه سجى بثوب فارتجت المدينة بالبكاء عليه ، و دهش القوم كيوم قبض رسول الله ﷺ وجاء على بن أبى طالب باكياً مسرعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب و هو يقول : « رحمك الله أبا بكر كنت والله أول القوم إسلاماً و أعظمهم غناء و أحفظهم على رسول الله ﷺ و أحربهم على الاسلام و أحنأهم على أهله ، و أشبههم برسول الله ﷺ خلقاً و فضلا و هدياً و سمتاً ، فجزاك الله عن الاسلام و عن رسول الله و عن المسلمين خيراً ، صـدقت رسول الله حين كذبه الناس ، و واسيته حين بخلوا ، و قمت معه حين قعدوا ، سماك الله فى كتابه صديقاً فقال : « و الذى جاء بالصدق و صدق به » يريد محمداً و يريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وعلى الكافرين عذاباً ، لم تفلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك ، كنت كالجبل لا تحركه العواصف و لا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً فى بدنك قوياً فى أمر الله ، متواضعاً فى نفسك عظيماً عند الله ، قليلا فى الأرض كثيراً عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك مطمع و لا لأحد عندك هوادة ، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه و الضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له ، فلا أحرمنـا الله أجرك و لا أضلنا بعدك (العقـد الفريدج ٣) » .

شرح و إيضاح للقضية :

و له رسالة يشرح فيها القضية التى كان وقع فيها كثير من الناس فى شبهة و التباس ، و هى قضية استشهاد عثمان بن عفان و ولايته لأمر المؤمنين .

« من عبدالله علی أمیر المؤمنین إلی أهل الکوفة جبهة الأنصار وسنام العرب .

أما بعد : فانی أخبرکم عن أمر عثمان حتی یکون سمعه کعیانه ، إن الناس طعنوا علیه فکنت رجلا من المهاجرین أکثر استعتابه و أقل عتابه ، وکان طلحة و الزبیر أهون سیرهما فیه الوجیف ، و أرفق حدائهما العنیف ، و کان من عائشة فیه فلتة غضب ، فأتیح له قوم فقتلوه ، و بایعنی الناس غیر مستکرهین ولامجبرین ، بل طائعین مخیرین .

و اعلموا أن دار الهجرة قد قلعت بأهلها وقلعوا بها ، و جاشت (جیش) المرجل ، و قامت الفتنة علی القطب ، فأسرعوا إلی أمیرکم ، و بادروا جهاد عدوکم ، إن شاء الله » . (نهج البلاغة)

کانت هذه طائفة من نماذج صدر الاسلام من الأدب المنثور ،کان أدب الرسول علیه السلام کله منثوراً ، أما أدب غالبیة الصحابة فکان منثوراً أیضاً لما رأوا من إیثار القرآن للکلام المنثور علی الکلام المنظوم ونعیه علی جانب کثیر من الکلام الشعری المنظوم ، ولکن عدداً من الصحابة لم یزالوا ممارسین للادب الشعری المنظوم و ذلک بسماح الرسول ﷺ و أمره بذلک و لاستحسانه للشعر الملتزم البناء ، و لقوله إن للشعر تأثیراً أشد علی الأعداء من تأثیر النبل ، و بذلک وجد الشعر لنفسه طریقاً مفتوحاً لأداء مسؤلیة التعبیر عما تجیش به النفوس من مشاعر وتأملات و بدأ یشارك النثر فی أداء الواجب ، و بقی الشعر ملتزماً بطبیعة الحیاة الاسلامیة فی عهد الرسول ﷺ و عهد صحابته و ما طال علیه الأمد إلا و بدأ یتبختر و یعربد ، فسد هذا الشعر أدباً غیر إسلامی لأنه لم یلتزم ، و إن کان مؤرخو الأدب یسمون کل شعر قیل إلی نهایة العهد الأموی شعراً إسلامیاً ، و هو اسم لتاریخه و لیس لتاریخه معنی و مضموناً .

أما شعر الصحابة رضى الله عنهم فقد كان ملتزما و هو مع تقيده بالطبيعة الاسلامية يتسع مع اتساع حياة عهده ، ففيه سرور و حزن و رضى و سخط و عتاب و استعتاب ، و وصف و حكمة .

نبغ من الشعراء والممثلين لهذا العهد سيدنا حسان بن ثابت الأنصارى بصورة خاصة ، و قد أمره الرسول ﷺ بقول الشعر و المنافحة عن الاسلام و وضع له منبراً فى مسجده الشريف و مدحه و فداه .

و شاركه من الشعراء سيدنا عبد الله بن رواحة و سيدنا كعب بن مالك ، هولاء الثلاثة من الشعراء الذين استخدموا الشعر للحياة الجديدة المتشرفة أما غيرهم فعددهم محترم و لبعضهم جلالة شعرية مثل لبيد بن ربيعة صاحب إحدى المعلقات والخنساء أكبر شواعر العربية جماء ، وعباس بن مرداس ، و النابغة الجعدى ، و لكنهم آثروا الحيطة و الزهد فى ممارسة الشعر . أو لم يبلغوا مبلغ الثلاثة المتقدمين ، و أقدم هنا بعض النماذج المختارة من الشعر الاسلامى :

نماذج من شعر الصحابة رضى الله عنهم

فى أغراض مختلفة

المديح :

يقول : شاعر الرسول ﷺ حسان بن ثابت رضى الله عنه فى مدحه و الدفاع عن الاسلام و ذلك عند مناقضته لشعر زبرقان بن بدر .

إن الذوائب من فهر و إخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الاله و بالأمر الذى شرعوا

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

سجيــة تلك منهم غير محدثة إن الخلائق ، فاعلم ، شرها البدع
لا يرقع الناس ما أوهت أكفهم عند الدفاع ، و لا يوهون ما رقعوا
إن كان فى النـاس سباقون بعدهم فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
و لا يضنون عن مولى بفضلهم و لا يصيبهم فى مطمع طبع
لا يجهلون ، و إن حاولت جهلهم فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفــة ذكرت فى الوحى عفتهم لا يطمعون ، و لا يرديهم الطمع
كم من صـديق لهم نالوا كرامتــه و من عدو عليهم جاهد جدعوا
أعطوا نبى الهدى و البر طاعتهم فما ونى نصرهم عنه و ما نزعوا
إن قال سيروا أجدوا السير جهدهم أو قال عوجوا علينا ساعة ، ربعوا
مازال سيرهم حتى استقـاد لهم أهل الصليب ، و من كانت له البيع
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا و لا يكن همك الأمر الذى منعوا
فان فى حربهم ، فاترك عـداوتهم شراً يخــاض عليه الصــاب و السلع
نسمو إذ الحرب نالتنـا مخالبهـا إذ الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم و إن أصيبوا فلا خور و لا جزع
كأنهم فى الوغى ، و الموت مكتنع أسد بيشة فى ارساغهـا فدع
إذا نصبنـا لقوم لا ندب لهم كما يدب إلى الوحشيــة الذرع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم إذا تفرقت الأهواء و الشيع
أهدى لهم مدحى قوم يوازره فيما يحب لسان حائك صنع
فانهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالنـاس جد القول أو شمعوا

شكوى و استعطاف :

يقول : حسان بن ثابت الأنصــارى رضى الله عنــه حينما وجد الأنصار

فى نفوسهم شيئاً من الشكوى على إعطاء الغنائم لسادة مكة و المؤلفة قلوبهم و عدم وصولها إلى الأنصار .

زادت هموم ، فماء العين ينحدر سحا إذا أغرقته عبرة درر
وجداً بشعثاء ، إذ شعثاء بهكنة هيفاء ، لا دنس فيها و لا خور
دع عنك شعثاء ، إذ كانت مودتها نزراً ، و شر وصال الواصل النزر
وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن للمؤمنين ، إذا ما عدل البشر
علام تدعى سليم ، و هى نازحة أمام قوم هم آووا ، و هم نصروا
سماهم الله أنصارا لنصرهم دين الهدى و عوان الحرب تستعر
و جاهدوا فى سبيل الله و اعترفوا للنائبات فما خاموا و لا ضجروا
و الناس ألب علينا ، ثم ليس لنا إلا السيوف و أطراف القنا ، وزر
و لا يهر جناب الحرب مجلسنا و نحن حين تلظى نارها سعر
و كم رددنا ببدر ، دون ما طلبوا أهل النفاق ، و فينا أنزل الظفر
و نحن جندك يوم النعف من أحد إذا حزبت بطراً أشياعها مضر
فما ونينا ، و ما خمنا و ما خبروا منا عثاراً ، و جل القوم قد عثروا

الهجاء :

و هجا حسان بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه هذيلا على غدرهم ذمة رسول الله ﷺ وقتلهم لوفده التعليمى الكريم غيلة فى موضع يسمى بالرجيع .

فلا والله ما تدرى هذيل أصاف ماء زمزم أم مشوب
و لا لهم إذا اعتمروا و حجوا من الحجرين و السعى نصيب
و لكن الرجيع لهم محل به اللؤم المبين و العيوب
كأنهم لدى الكنات أصلا تيوس بالحجاز لها نبيب

هم غروا بذمتهم خبيباً فبئس العهد عهدهم الكذوب

الاعتذار :

قال عبد الله بن الزبعرى رضى الله عنه حين أسلم متعذراً عن إبطائه فى قبول الاسلام .

منع الرقاد بلابل و هموم و الليل معتلج الرواق بهيم
مما أتانى أن أحمد لا منى فيه فبت كأننى محموم
يا خير من حملت على أوصالها عيرانة سرح اليدين غشوم
إنى لمعتذر إليك من الذى أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى خطة سهم و تأمرنى بها مخزوم
و أمد أسباب الردى و يقودنى أمر الغواة و أمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبى محمد قلبى و مخطئ هذه محروم
مضت العداوة و انقضت أسبابها و دعت أواصر بيننا و حلوم
فاغفر فدى لك والداى كلاهما زللى ، فانك راحم مرحوم
و عليك من علم المليك علامة نور أغر و خاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه شرفاً و برهان الاله عظيم
و لقد شهدت بأن دينك صادق حق و إنك فى العباد جسيم
و الله يشهد أن أحمد مصطفى مستقبل فى الصالحين كريم
قرم علا بنيانه من هاشم فرع تمكن فى الذرى و أروم

مدح و اعتذار :

قال حسان بن ثابت رضى الله عنه فى مدح أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وفى الاعتذار مما صدر منه من التكلم بالشائعات التى تكلم بها عدد من الناس فى قضية الافك .

حصان رزان ما تزن بريبة | و تصبح غرثى من لحوم الغوافل
حليلة خير الناس ديناً و منصباً | نبي الهدى ، و المكرمات الفواضل
عقيلة حي من لؤي بن غالب | كرام المساعي ، مجدها غير زائل
مهذبة قد طيب الله خيمها | و طهرها من كل سوء و باطل
فان كنت قد قلت الذي قد زعمتم | فلا رفعت سوطي إلى أناملي
و إن الذي قد قيل ليس بلائط | بها الدهر بل قول امرىء بي ماحل
فكيف و ودي ما حييت و نصرتي | لآل نبي الله زين المحافل
له رتب عال على الناس كلهم | تقاصر عنه سورة المتطاول
رأيتك ، و ليغفر الك الله حرة | من المحصنات غير ذات غوائل

حب في الشهادة في سبيل الله :

قال عبد الله بن رواحة (رضي الله عنه) في حب الشهادة في غزوة مؤتة .

إذا أديتني و حملت رحلي | مسيرة أربع بعد الحساء
فشأنك أنعم و خلاك ذم | و لا أرجع إلى أهلي ورائي
و جاء المسلمون و غادروني | بأرض الشام مشتهى الثواء
و ردك كل ذي نسب قريب | إلى الرحمن منقطع الاخاء
هنالك لا أبالي طلع بعل | و لا نخل أسافلها رواء

و قال و هو يحمل حملة شديدة :

أقسمت بالنفس لتنزلنه | لتنزلن أو لتكرهنه
إن أجلب الناس و شدوا الرنة | ما لي أراك تكرهين الجنة
قد طال ما قد كنت مطمئنة | هل أنت إلا نطفة في شنة

و قال :

يانفس إلا تقتلى تموتى … هـذا حمام الموت قد صليت

و ما تمنيت فقد أعطيت … إن تفعلى فعلهـا هديت

و قال جعفر بن أبى طالب :

يا حبذا الجنـة و اقترابهـا … طيبـة وباردا شرابهـا

و الروم روم قد دنا عذابها … كافرة بعيـدة أنسابهـا

على إذ لاقيتهـا ضرابهـا

الرثاء :

شعر كعب بن مالك فى رثاء قتلى موتة :

نام العيون و دمع عينك يهمل … سحا كما و كف الطباب المخضل

فى ليلة وردت على همومها … طوراً و تارة أتململ

و اعتادنى حزن فبت كأننى … ببنات نعش و السماك موكل

و كأنما بين الجوانح و الحشى … مما تأوبنى شهاب مدخل

وجداً على النفر الذين تتابعوا … يوماً بمؤتة أسندوا لم ينقلوا

صلى الاله عليهم من فتيـة … و سقى عظامهم الغمام المسبل

صبروا بمؤتة للاله نفوسهم … حذر الردى و مخافة أن ينكلوا

فمضوا أمام المسلمين كأنهم … فنق عليهن الحـديد المرفل

إذ يهتـدون بجعفر و لوائه … قـدام أولهم فنعم الأول

حتى تفرجت الصفوف و جعفر … حيث التقى وعث الصفوف مجدل

فتغير القمر المنير لفقـده … و الشمس قد كسفت و كادت تأفل

قرم علا بنيانه من هاشم … فرعاً أشم و سؤدداً ما ينقل

قوم بهم عصم الاله عباده — و عليهم نزل الكتاب المنزل

فضلوا المعاشر عزة و تكرماً — و تغمدت أحلامهم من يجهل

لا إلى يطلقون السفاه حبائهم — و يرى خطيبهم بحق يفصل

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم — تندى إذا اعتذر الزمان الممحل

و بهديهم رضى الاله لخلقه — و بجدهم نصر النبي المرسل

مذمة و تقبيح :

يقول حسان بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه ذاماً لبغى شرذمة من الناس و قتلهم للخليفة الثالث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

أتركتم غزو الدروب و جئتم — لقتال قوم عند قبر محمد

فلبئس هدى الصالحين هديتم — و لبئس فعل الجاهل المعتمد

إن تقبلوا نجعل قرى سرواتكم — حول المدينة كل لدن مذود

أو تدبروا ، فلبئس ما سافرتم — و لمثل أمر أمامكم لم يهتد

و كان أصحاب النبي ، عشية — بدن تنحر عند باب المسجد

فابك أبا عمرو لحسن بلائه — أمسى مقيماً فى بقيع الغرقد

و قال :

ماذا أردتم من أخى الخير باركت — يد الله فى ذاك الأديم المقدد

قتلتم ولى الله فى جوف داره — و جئتم بأمر جائر غير مهتدى

فهلا رعيتم ذمة الله وسطكم — و أوفيتم بالعهد عهد محمد

ألم يك فيكم ذا بلاء و مصدق — و أوفاكم عهدا لدى كل مشهد

فلا ظفرت ايمان قوم تظافرت — على قتل عثمان الرشيد المسدد

طريق (عملى) لوحدة المسلمين

الدكتور عبد الحليم عويس
أستاذ مشارك بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
(الرياض)

ليس بالعقيدة وحدها يستقيم أمر الاسلام و لا واقع المسلمين . فالعقيدة - كالروح - مع أهميتها - لاتستطيع أن تعيش فى واقع الحياة إلا بجسد . . وهذا الجسد هو الشريعة . . و بالتالى ، فلا عقيدة حية بدون شريعة قوية .

وإنما ارتبك المسلمون ما ارتبكوه فى واقعهم ، وقصروا ما قصروا فى الوصول إلى حلول عملية تلم شعثهم ، حين راحوا يركزون على العقيدة ، أو على تربية الوجدان فقط ، و كأنهم يعطون الشريعة أهمية ثانوية أو تكميلية .

و أنت إذا قلت لهم : وازنوا بين العقيدة و الشريعة ، و اجمعوهما فى سياق واحد متكامل متوازن - قالوا لك : إن العقيدة هى الأساس ، و هى الأهم ، و باصلاح العقيدة ستصلح الشريعة ، و سيستجيب الناس لأوامر ربهم و يخضعون لسلطانه و يحكمون شريعته فى حياتهم .

وهذا القول ظاهره صحيح ومقبول ، بيد أننا إذا وضعناه على محك التطبيق ظهر أنه ليس شرطاً أن تصح فى عقول الناس عملية الربط بين العقيدة والشريعة .

فكثير من الناس يبطنون إيماناً قوياً بالله ، و ينزهونه - سبحانه - عن كل مظاهر الشرك ، بل و تجد منهم - فى بعض المواقف - رسوخ إيمان و ثقة كاملة فى الله مع أنك تجدهم لا يلتزمون كثيراً بتطبيق كثير من جوانب شريعة الله على حياتهم

العائلية أو جوانب المعاملات - و هو تناقض غريب - لكنه يقع، و لا يستطيع امرؤ أن يفتى بتجريد هؤلاء الناس من الايمان بالله .

ولقد عاش المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عاماً، وكان جل اعتمادهم على جوانب العقيدة و التربية العقيدية و الأخلاقيـــة التى رباهم عليها رسول الله ﷺ - لكن هؤلاء المسلمين - مع ذلك - لم يبرز دورهم فى التاريخ ، و لم تظهر آثار التربية العقائدية و الأخلاقية التى رباهم عليها محمد ، ولم تنكشف جوانب عظمتهم كمثل عليا فى الحضارة ، وكتلامذة ممتازين لمدرسة النبوة الكريمة إلا يوم أتيح لهم أن يجدوا المكان الذى يطبقون فيه الشريعة ، و يصنعون فيه الحضارة ، لقد ظهرت بعد هذا مكانتهم فى التاريخ، ولقد استطاع الالتحام الجديد بين العقيدة والشريعة [و الأخلاق جزء من شريعة الاسلام] أن يبرز قدرة المبادىء الاسلامية، عامة، والعقيدة الاسلامية بخاصة ، على صناعة الرجال و صياغة الحضارة الملائمة لانسانية الانسان .

و من هنا يصح لنا أن نقول : إن (العقيدة) روح لا تستطيع أن تعيش وحدها فى الفضاء الخارجى ، بل لا بد لها من (جسد) تحل فيه ، و تحركه ، و تبث فيه جوانب الحركة ، و هذا الجسد هو الشريعة .

ومشكلة المشكلات فى تاريخ المسلمين ، ولا سيما فى عصور تخلفهم أنهم يركزون على جوانب ، على حساب جوانب أخرى ، فبعضهم يهب نفسه و حياته و جهوده كلها فى سبيل (تصحيح العقيدة) ونشرها نشراً صحيحاً و مقاومة البدع والخرافات ، و بعضهم لا يكاد يعطى العقيدة ما تستحق من اهتمام ، و يهتم بالجوانب الوجدانية و الشعورية ، أو ينظر إلى الاسلام على أنه (نظـام سياسى) أو (نظام اقتصادى) دون أن يدرك مدى عمق الصلة بين جوانب العقيدة و الروح و المادة و أن هذه الصلة العميقة الوثيقة التى لا تنفصم هى ميزة الاسلام ، وهى خصيصته

ـكبرى ، و هى عوده الأساسى ، و هى هدايته للتى هى أقوم و أعدل و أحكم .

و لقد جرت هذه النظرة التشقيقية للاسلام إلى خطأ كبير وقع فيه العاملون ﻹسلام أنفسهم . . . وهذا الخطأ قد امتدت أحقاباً طويلة فى تاريخنا ، وعمل عمله ، تجريد الاسلام من فاعليته فى الحياة ، و من إبعاده عن إمكانيات التأثير . .

. هذا الخطأ الكبير قد تركز فى ثلاث صور :

أولاها : الفصل بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، بحيث شاع بين المسلمين أن العلوم لعملية و المهن والحرف هى علوم (معاش لا علوم معاد) و أن العلوم المقربة إلى الله هى العلوم الأولى ، و أما الثانية فهى فى الدرجة الثانية ، مع أن الأمر (فرض كفاية فى الجميع) و فرض عين ، عند الضرورة فى الجميع .

ثانيتها : دراسة الاسلام على أنه فكر وتراث و نظريات و فنون و شروح ، ولم يؤخذ فى إعتبار دراسة الاسلام مدى سلوك الطالب ، ومدى تمثيله للاسلام ، وهل يستحق شهادة اسلامية أو لا يستحق . بل دعونى أقل : إن بعض الجامعات و الكليات الاسلامية قد خرجت قوميين و علمانيين (١) ولو كانت الضوابط متزنة و شاملة ، لما انتسب هؤلاء إليها و لما تاجروا ـ حتى اليوم ـ بشهاداتها .

ثالثتها : قصر وسائل دراسة الاسلام ، و الدعوة إليه ، على الوسائل التجريدية النظرية ، والتقصير الواضح فى مجالات التطبيق الميدانى وهو المجال الأهم والأخطر .

و سأقدم نموذجاً أوضح به الفرق بين العمل الاسلامى الميدانى ، و العمل الاسلامى النظرى حتى يتضح للدعاة الحقيقيين إلى الاسلام الخطأ الكبير الذى وقعنا فيه نحن المسلمين .

---

(١) لعل الكثيرين لا يعلمون أن الدكتور محمد عمارة (وهو قومى يسارى) تخرج من قسم الفلسفة الاسلامية بكلية دارالعلوم ـ جامعة القاهرة ، وحتى اليوم فهو يجند قلمه للفكرة القومية و حرب الفكرة الاسلامية .

إن الجامعات الاسلامية كلها بلا استثناء ـ بل و بلا تخصيص حتى تكون دعوتنا خالصة لله و لا تؤذى مشاعر أحد ـ قد عاشت طويلا تدرس كتب الفقه الاقتصادى الاسلامى ، والفقه المقارن الزاخر بالجوانب الاقتصادية . . . وهى حين درست هذه الكتب درستها بطريقة جزئية من جانب ، و درستها خالية الذهن من ربطها بالتطبيق من جانب ثان ، فبدت وكأنها كتب فى التاريخ الفقهى الاقتصادى ، و ليست فى الاقتصاد الواقعى الحى ، بل إننى لأرى ـ إلى حد كبير ـ أن الفقه كله يدرس من منظور تاريخى أكثر منه فقه حياة واقعية ، فكأنه تاريخ الفقه فى قرون الاجتهاد و المجتهدين ، و كأننا و نحن ندرسه نحكى هذا التاريخ الفقهى ، سادرين مسائله والخلافات حولها ، بأمانة شديدة ، محافظة منا على العنصر التاريخى فيه ، أكثر من محافظتنا على العنصر القياسى الابداعى الفاعل فى حياتنا المعاصرة و المضيء فى مجال حلول مشكلاتها من خلال فتح منافذ الاجتهاد .

و بين أيدينا ـ فى الفقه الاقتصادى الاسلامى - كنوز عظيمة ظلت تدرس بهذا المنظور (التراثى و التجريدى) مع شئ من الجزئية فى النظرة ، ومع بعض التعصب لاتجاه معين شق طريقه فى ظروف تاريخية سابقة ، فأصبح كأنه (حتمية تاريخية) مع أن أصحابه أنفسهم لم يروه كذلك ، و لم يريدوا له ذلك .

فى المغرب العربى حيث يسود مذهب الامام مالك رضى الله عنه و الأندلس أعادها الله للاسلام - درست المدونة الكبرى للامام مالك بن أنس (١٧٩هـ) و درست بداية المجتهد و نهاية المقتصد للامام أبى الوليد بن رشد الحفيد (٥٩٥هـ) و درس الجامع الكبير لأحكام القرآن للقرطبى (م٦٧١هـ) بأجزائه العشرين ، و درس الشرح الكبير للامام أحمد الدرديرى (م١٢٠١هـ) .

وفى مصر والشام وإندونيسيا وغيرها حيث يسود المذهب الشافعى رضى الله عنه

س المجموع للامام محي الدين بن شرف النووي (م٦٥٧) بأجزائه التسعة ،
درس الأشباه والنظائر للسيوطي جلال الدين (م٩١١هـ) ودرس نهاية المحتاج على شرح
نهاج لشمس الدين الرملي (م١٠٠٤هـ) و درس متن أبي شجاع ، و الاقناع في
ل ألفاظ أبي شجاع للشيخ محمد الشربيني الخطيب الشافعي ، وكفاية الأخيار في حل
ية الاختصار للامام تقي الدين أبي بكر بن محمد الحسيني الشافعي و غيرها ، و في
به القارة الهندية وباكستان بشطريها - وحدهما الله - حيث يسود مذهب أبي حنيفة
ضي الله عنه درس المبسوط للامام شمس الدين السرخسي (م٤٨٣هـ) كما درس
ه كتاب الكافي للحاكم الشهيد أبي الفضل بن محمد المروزي (م٣٣٤هـ) و المبسوط
هو معروف من أعظم و أكبر ما صنف في الفقه الحنفي والفقه المقارن على السواء .

كما درس أحكام القرآن للامام أبي بكر الرازي الجصاص (ت ٢٧٠هـ)
جزائه الثلاثة ، وتحفة الفقهاء للامام علاء الدين السمرقندي (ت ٥٤٠هـ) وبدائع
صنائع في ترتيب الشرائع ، للامام الطاساني المتوفى ٥٨٧هـ ، وهو شرح لتحفة
فقهاء و يقع في سبعة أجزاء .

و في الفقه الحنبلي في الجزيرة العربية درس المغني لابن قدامة (ت ٦٢٠هـ) ،
انتشرت الفتاوى الكبرى للامام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٥٢٨هـ)
. إعلام الموقعين عن رب العالمين للامام شمس الدين بن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)
. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن القيم أيضاً .

كما درست — كذلك على امتدد العالم الاسلامي بعض كتب الفقه المقارن
المحلى لابن حزم أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) ونيل الأوطار للشوكاني
قاضي قضاة اليمن (ت ٤٥٢هـ) ودرست كتب الخراج للامام أبي يوسف(ت ١٢٥هـ)

و ليحيي بن آدم القرشي (ت ٢٠٢هـ) وعلى قلة ، بل و بدون أناة كافية ، درست بعض الجوانب الاقتصادية ، فى كتب التاريخ و الحضارة ، و على رأسها مقدمة ابن خلدون .

فهذه الأمهات - على قيمتها العظيمة - درسها المسلمون أحقاباً دون أن يفكروا فى أن هذه الكتب ليست ترفاً فكرياً ، بل هى ترجمة (للمذهب الاسلامى الاقتصادى) . . ويجب أن تجمع هذه الكتب بطريقة مقارنة تجميعية و تنظيمية و بشئ من الفهرسة و التحليل لكى تساعد على بناء هيكل تطبيق اقتصادى إسلامى يقوم على كليات الاسلام الاقتصادية أو أسس نظرية الاسلام الاقتصادية ، فأصبح كل فريق مكتفياً بما لديه . مستغنياً عن غيره ، حتى أتت فترة من الفترات ظن الناس فيها ، حتى المتفائلون منهم ، أن إقامة بناء إقتصادى للأمة الاسلامية يقوم على المذهب الاقتصادى الاسلامى أمر متعذر إن لم يكن قريباً من المستحيل .

و لم تنبث الدعوة إلى تبنى الاقتصاد الاسلامى من داخل مؤسسات الدعوة ، ولا الجامعات الاسلاميه ، وكل ما صدر عنها هو بعض النداءات و الأمنيات . . . بل تبنى الدعوة أفراد مخلصون مغامرون غير (فقهاء) ، بل معظمهم ممن تربى فى جامعات غير إسلامية كالدكتور عيسى عبده (رحمه الله) الذى له فضل كبير فى هذا الباب مع أنه لم يدرس فى جامعة إسلامية و لا فى معهد دعوة أو كلية شريعة ولا يوماً واحداً ، بل المعروف أن أباه كان نصرانياً ، وأنه اعتنق الاسلام عن عقيدة ، وسمى ابنه (عيسى عبده) أى (عيسى عبد الله) و ليس (ابن الله) تعبيراً عن عقيدته الجديدة .

و قد لعب الدكتور (محمود أبو السعود) دوراً فى هذا المجال ، و هو - أيضاً - لم يتخرج من كلية شريعة أو جامعة إسلامية ، بل يعيش جل حياته فى

أوربا وأمريكا ، وثقافته معظمها من خارج هذه الدائرة الشرعية الرسمية ، و لم يكن سمو الأمير محمد الفيصل - جزاه الله عن المسلمين خيراً - و هو الرجل الذى كان له فضل كبير فى هذا المجال ، من خريجى الجامعات الاسلامية ، بل كان قبل تفرغه لهذا المجال الاقتصادى الاسلامى رئيساً لمؤسسة تحلية المياه بجدة .

والدكتور (إبراهيم كامل) مساعد الأمير محمد الفيصل دكتور فى المحاسبة (غير الاسلامية) و مثله الدكتور عبد العزيز حجازى — أستاذ المحاسبة الذى انضم أخيراً — و الحمد لله — لأصحاب الاتجاه الاقتصادى الاسلامى .

أما الدكتور جمال الدين عطية مدير بنك لوكسبورج الاسلامى ، فهو دكتور فى القانون ، و قد اتجه الاقتصاد اتجاهاً عمليـــــاً ، و لا تحمل خلفيته الاقتصادية النظرية إلا ما يحمله رجال القانون ، والمهتمون عموماً بالفكر الاسلامى ، وقد جند الرجل مجلته (المسلم المعاصر) لخدمة الاقتصاد الاسلامى . . . و النماذج كثيرة .

و هى - كلها - تجعلنا نتساءل بدهشة : كيف انحسرت مفاهيم الدعوة إلى الله فى الجامعات الاسلاميـــة بحيث أصبحت بعيدة عن التطبيق ، و ترك المجال لغيرهـا من هـــذا النحو ؟

و كيف أصبحت الدعوة مجرد كلام ؟ و مجرد تربية نظرية ، أو على الأكثر تربية سلوكية فردية ، غير مصحوبة بالعمل على تحويل الجوانب النظرية إلى جوانب عملية ؟ بل حتى فى معاهد الدعوة يدرس الاسلام على أنه فكر وثقافة وتراث ، ولم يدرس كناحية ميدانية ، و من الغريب أن كليـــات الطب تذهب بطلابهـــا إلى المشارح ، و كليات الزراعة تذهب بطلابهـا إلى الحقول ، و كليـــات العلوم تذهب بطلابها إلى المعامل ، و كليات التربية تذهب بطلابها إلى المدارس ، أما كليات الدعوة فليس فى معظمهـا مادة (الخطابة فى المساجد) - كمادة ميدانيـــة - و لا مادة (التقوى

العملية) من خلال مجالسة الاعلام الصالحين و مخالطتهم ، و هو ما يسمى فى حضارتنا بالمريدين أو التلامذة ، الذين كانوا يقومون مع شيخهم بالليل ، و يصومون معه بالنهار ، و يتزوجون بناته إذا لزمه الأمر ، كما تزوج أبووداعة ابنة (سعيد ابن المسيب) الذى أبى أن يعطيها لابن الخليفة ، و أعطاها لأبى وداعة الفقير .

و البنوك الاسلامية الآن تعانى من فقر إدارى ومحاسبى ومالى كبير ، بسبب أن الاقتصاد الاسلامى ظل قروناً يدرس فى كتب الفقه المذهبى أو الفقه المقارن ، وكان مادة فلسفية نظرية بحتة ، و قد اضطر اتحاد البنوك الاسلامية إلى إنشاء معهد للاقتصاد الاسلامى فى قبرص ، يدرب فيه بعض الخريجين المؤهلين ، ثم يلحقهم بالوظائف الملحة و الفارغة فى البنوك و المصارف الاسلامية .

و لم تستطع الجامعات حتى التى تعطى دكتوراهات فى الاقتصاد الاسلامى ، أن تقدم (الكادرات) أو الاطارات التى تحتاج إليها البنوك الاسلامية لدرجة أن الشيخ (محمد الغزالى) حث الشباب على العمل فى البنوك الربوية لأخذ الدربة و الخبرة .

و فى شبه القارة الهندية ، و فى العالم العربى ، و فى الأقطار الاسلامية الأخرى - توجد عشرات الجامعات والكليات و الجمعيات تدرس الاسلام وتنشره ، و تبشر به - وكلها تدعو إلى وحدة المسلمين و إلى البعث الاسلامى ، لكن معظمها لا يدرك أن هناك طريقاً عظيماً لم يلتفت إليه لتحقيق الوحدة الاسلامية ، و فرضها كأمر واقع ، حين تتشابك المصالح بين المسلمين كأفراد و جماعات و مؤسسات ، فنضرب عصفورين بحجر واحد ، نطبق فكرنا الاسلامى فى الحياة ونبعثه بعثاً عملياً وحقيقياً من جديد ، وفى الوقت نفسه يوجد دافع أو باعث - بعد باعث العقيدة ،

يجعلنا نحس إحساساً حقيقياً بأننا ندافع عن مصير مشترك و مصالح مشتركة ، و من حصاد الأمرين معاً تتوحد صفوفنا و اهتماماتنا ، و نتخلص من كثير من خلافاتنا النظرية ـ فلماذا - بدل أن يتصارع المسلمون ويختلفوا حول قضايا ثانوية ، لا يتحدون ـ مثلا ـ فى كل بلد على إنشاء بنك إسلامى أو شبكة بنوك إسلامية أو مشروعات تجارية مساهمة .

و هذا ينطبق على الأقليات الاسلامية المتصارعة ـ أيضاً ـ فيما بينها ، و لماذا لا ينشؤن مؤسسات مشتركة ، للنشر و التوزيع تستطيع أن تنشئ جريدة يومية ، وأن تستغل كل وسائل المواصلات الحديثة ؟ ـ و لماذا لا ينشون مجامع علمية تشترك فيها كل الهيئات ، فينجزون ـ مجتمعين ـ أو بتوزيع متناسب ـ دائرة معارف إسلامية بلغتهم ، أو بعض المعاجم التاريخية و الجغرافية والمهنية ؟

— و لماذا لا ينشؤن شركات تجارية على أسس الاقتصاد الاسلامى ، كشركات البلاستيك ، و اللحوم المذبوحة إسلامياً ، و الأقمشة ، و غيرها ، فيتيحون فرص الاستثمار للمواطنين المسلمين ، و يعود الخير على الجميع ؟ و لماذا لا ينشؤن (بدل الكلام و الكلام المضاد والرد على الرد) شركات للسمعيات و المرئيات ، تنتج قصصاً و أفلاماً - فى الاطار الاسلامى للفن - فضلا عن الأشرطة السمعية . . . ؟ .

— و الأفكار كثيرة ، و المشروعات متعددة ، و كلها تمثل الطريق العملى لوحدة المسلمين . . طريق الوحدة عن طريق الشعب المسلم . تلك الوحدة التى تزيل الخلافات ، و تقضى على الخصومات ، و تنهى ذلك العصر الكئيب . . عصر الحرب بالكلمات . . و الله الموفق .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فى
-١٠- تاريخ التشريع الاسلامى

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

وأحب أن أختم ذكر الامام البخارى بمقدمة الامام الدهلوى لرسالته في شرح تراجمه بتخليص و إختصار :

كانت المصنفات قبل الام البخارى فى علم الحديث مدونة فى أربعـة فنون :
١ـ فن الفقه ٢ـ فن التفسير ٣ـ فن السير ٤ـ فن الزهد و الرقاق ، لجمع الامام البخارى كل هذه الفنون و جرد لها الأحاديث الصحيحة ، و أراد أن يفرغ جهده فى الاستنباط من الحديث ، و يستنبط من كل حديث مسائل كثيرة جداً ، و هذا أمر لم يسبقه إليــه غيره ، غير أنه استحسن أن يفرق الأحاديث فى الأبواب ، و يودع فى تراجم الأبواب سر الاستنباط .

و جملة تراجم أبوابه تنقسم أقساما :

١ - إنه يترجم بحديث مرفوع ليس على شروطه و يذكر فى الباب حديثاً شاهداً له على شرطه .

٢- و قد يترجم بمسئلة ، استنباطها من الحديث بنحو من الاستنباط من نصه أو إشارته أو عمومه أو إيمائه .

٣ـ و قد يترجم بمذهب ذهب إليه قبل ، و يذكر فى الباب ما يدل عليـه بنحو من الدلالة شاهداً ، و يكون شاهداً له فى الجملة من غير قطع بترجيح ذلك المذهب ، فيقول « باب من قال كذا » .

٤- و يترجم بمسئلة اختلفت فيها الأحاديث ، فيأتى بتلك الأحاديث على اختلافها ليقرب إلى الفقيه من بعده أمرها ، مثاله : « باب خروج النساء إلى البراز جمع فيه حديثين مختلفين .

٥- و قد تتعارض الأدلة ، و يكون عند البخارى وجه التطبيق بينهما بحمل كل واحد على محمل ، فيترجم بذلك المحمل إشارة إلى وجه التطبيق .

٦- و قد يجمع فى باب أحاديث كثيرة ، كل واحد منها يدل على الترجمة ، ثم يظهر له فى حديث واحد فائدة أخرى سوى الفائدة المترجم عليها ، و يعلم على ذلك الحديث بعلامة الباب ، وليس غرضه إن الباب الأول قد انقضى بما فيه ، و جاء الباب الآخر برأسه ، و لكن قوله « باب » هنالك بمنزلة ما يكتب أهل العلم على الفائدة المهمة لفظ « تنبيه » أو لفظ « فائدة » أو لفظ « قف » .

٧- و قد يكتب لفظة « باب » مكان قول المحدثين « و بهذا الاسناد » و ذلك حيث جاء حديثان باسناد واحد كما يكتب « ح » حيث جاء حديث باسنادين .

٨- قد يترجم بمذهب بعض الناس و بما كاد يذهب إليه بعضهم أو بحديث لم يثبت عنده ثم يأتى بحديث يستدل به على خلاف ذلك المذهب و الحديث ، إما بعمومه أو غير ذلك .

٩- و يذهب فى كثير من التراجم إلى طريقة أهل السير فى استنباطهم خصوصيات الوقائع و الأحوال من اشارة طرق الحديث . و ربما يتعجب الفقيه من ذلك لعدم ممارسته لهذا الفن ، و لكن أهل السير لهم إعتناء شديد بمعرفة تلك الخصوصيات .

١٠ــ و قد يقصد التمرن على ذكر الحديث وفق المسئلة المطلوبة و يهدى طالب الحديث إلى هذا النوع .

١١ــ و قد فرق البخارى فى تراجم الأبواب علماً كثيراً من شرح غريب القرآن و ذكر آثار الصحابة و الآثار المعلقة .

١٢ــ و قد يذكر حديثاً لا يدل هو بنفسه على الترجمة أصلا ، لكن له طرق ، و بعض طرقه يدل عليها إشارة أو عموماً بذكر الحديث إلى أن له أصلا صحيحاً يتأكد به ذلك الطريق .

١٣ــ و كثير ما يترجم لأمر ظاهر ، قليل الجدوى ، و لكنه إذا تحقق المتأمل أجدى .

و أكثر ذلك تعقبات و تبكيتات على عبد الرزاق وابن أبى شيبة فى تراجم مصنفيهما ، و مثل هذا لا ينتفع به إلا من مارس الكتابين و اطلع على ما فيهما .

١٤ــ و كثيراً ما يستخرج الآداب المفهومة بالعقل من الكتاب والسنة بنحو من الاستدلال و العادات الكائنة فى زمانه ــ ﷺ ــ ومثل هذا لا يدرك حسنه إلا من مارس كتب الآداب وأجال عقله فى ميدان آداب قومه ، ثم طلب لها أصلا من السنة .

١٥ــ وكثيراً ما يأتى بشواهد الحديث من الآيات ، وبشواهد الآية من الأحاديث تظاهراً ، و لتعيين بعض المحتملات دون بعض ، و مثل هذا لا يدرك إلا بفهم ثاقب و قلب حاضر .

هذه خمسة عشر وجها ذكرها الامام الدهلوى ، استفاد بعضها من كتب شرح صحيح البخارى وزاد بعضها من بنات أفكاره ، ثم تحدث بتفصيل

عن محتويات التراجم من باب « كيف كان بدء الوحى » إلى « باب قول الله - تعالى ـ و الله خلقكم و ما تعملون ، و أنا كل شئ خلقناه بقدر » و جاءت الرسالة فى ١٢٩ - صفحة بالقطع المتوسط .

و لم يكن حديثه عن غيره من المحدثين بهـذا التفصيل . كما أنه لم يتعرض لأدوار الحديث و لمحدثين بعد عصر هؤلاء الأئمة المحدثين الأربعة ، فكان تناوله لعصور المحدثين مع إيضاح بعض مناهجهم إلى نهاية القرن الثالث تقريباً ، وبالاشارة إلى مناهج بعضهم إلى القرن الخامس كالخطيب وابن عبد البر ، و قد كان من المستحسن فى إستعراض تاريخ التشريع الاسلامى أن يذكر جميع أدوار المحـدثين إلى عصره و مناهج أهل الحديث و ما طرأ عليها من ضيق فى الآفق و فى فترات التاريخ التشريعى ، لا شك أنه أشار إليه فى تضاعيف عباراته . و طيات حديثه عن الفقهاء و المقلدين و لكن لم يكن حديثه عنهم كحديثه عن الفقهاء ، و ما طرأ عليهم من تغيرات ، و جمود و عصبية ، إذ كانت الأوضاع التى عاشها فى الهند تفرض عليه الاسهاب فى هذا الموضوع ، فلم تكن هناك طبقة أهل الحديث ، و لعله لم يدر بخلده أن بعض أتباع الحديث سيشكلون مذهباً آخر باسم « السلفية » فيناضلون دونه ، و يجتهدون قبل إستكمال أدوات الاجتهاد ، و أن الوضع سيؤدى بالفقهاء إلى الحد من شدة الظاهرية .

و قد انتقل الامام الدهلوى بعد ذكر هؤلاء المحدثين فى هذا الفصل إلى ذكر منشأ الفقه و الفقهاء و التخريج ، والأصول ، و ستكون موضوع حديثى فى الحلقة القادمة إن شاء الله ـ تعالى - فانه الموفق وهو الفتاح العليم .

« للبحث صلة »

فصل جديد فى مسلسل العدوان و التشريد

الدكتور غريب جمعة

ذكرت مجلة «المصور» المصرية فى عددها رقم ٣٠٣٢ الصادر فى ٣ من صفر ١٤٠٣هـ الموافق ١٩/ ١٢/ ١٩٨٢م أن بعثتها قامت لتسجل بالصورة و الكلمة على أرض طابا المصرية واحداً من أخطر الانتهاكات الاسرائيلية بافتتاح فندق أفياسونستا الذى تم تشغيله بالكامل فى أول نوفمبر ١٩٨٢م وافتتح بصورة غير رسمية وفى صمت كامل من الخارجية الاسرائيلية ، و النشرة الوسمية للفندق تقول :

« إنه واحد من أفخم الفنادق فى الشرق الأوسط وإنه مقام على منطقة الحدود المصرية الاسرائيلية المتنازع عليها ، و إن أصحاب الفندق أخذوا دعماً و تأييداً من المدعو افراهام شارير وزير السياحة الاسرائيلى ١٥/ مايو الماضى بالاستمرار فى العمل و استكمال الفندق ».

وقد صرح ذلك الوزير للجيروزاليم بوست وهو يكمل أكذوبته أن المصريين أعطوا هذه القضيـــة أبعاداً غير ملائمة و إننى (أى الوزير) لو رغبت فى منع افتتاح الفندق و أنا لا أنوى أن أفعل ذلك لا سلطة لدى لذلك ! ! ! (هكذا).

و لا تعجب أيها القارىء إذا قرأت مثل هذا الكلام فان لدى إسرائيل من المشروعات ما هو أكبر من افتتاح فندق ! إن مسلسل عدوانها على الوطن العربى وتشريد أبنائه متعدد الفصول طويل الأجل عريض الأمل حافل بالعمل وهل قرأت

هي قناة البحرين؟ إنه مشروع إسرائيلي يمثل فصلا من فصول هذا المسلسل الاجرامى ، فما هي قصة هذا المشروع ؟ و ما هي آثاره و أخطاره ؟ .

نبذة تاريخية :

إن لهذا المشروع جذوراً استعمارية تبدأ من منتصف القرن التاسع عشر حيث راودت الاستعمار الغربى فكرة ربط البحرين الأبيض المتوسط ، و البحر الميت ثم بالبحر الأحمر فالمحيط الهندى ، وذلك من أجل تأمين أقصر الطرق الاستعمارية إلى الهند و شرق آسيا ثم صرفت بريطانيا نظرها عن ذلك المشروع إلى مشروع قناة السويس ، وفى أواخر القرن التاسع عشر فكر مهندس سويسرى فى إمكانية الاستفادة من الفرق فى الارتفاع بين سطحى البحرين الأبيض و الميت ، حيث يرتفع الأبيض عن سطح الميت بحوالى ٤٠٠ مترا وعند ما اطلع يتودور هرتزل إبليس الصهيونية فى العصر الحديث لعنة الله على هذه الفكرة التقطها وتبناها لأنها تتفق مع مطامع الصهيونية العالمية فى الشرق العربى و أشار إلى ذلك فى كتابه أولد نيولاند سنة ١٩٠٢ .

وفى عام ١٩٣٧ قام بعض الزعماء الصهاينة و منهم بن جوريون بجولة ميدانية فى مناطق الأغوار الجنوبية كان من نتائجها بدء التفكير الجدى فى إنشاء القناة ولكن الظروف السياسية حالت دون ذلك فى وقتها ، و بعد هزيمة يونيو (حزيران) سنة ١٩٦٧ قامت مجموعة من الخبراء الاسرائيليين ورجال الحكم بجولة ميدانية فى منطقة الأغوار و بدأت بالدراسات الجادة لاقرار المشروع و تنفيذه .

وفى عام ١٩٧٨ تشكلت لجنة أخرى علية برئاسة أحد موسى حزب (هتحيا) أى النهضة ، و هو البروفسور يوفال نئمان عالم الطبيعة النووية و رئيس علماء الجيش الاسرائيلى ، و انتهت اللجنة إلى إقرار خط يمتد من شاطئ البحر المتوسط قرب تل القطيفة فى قطاع غزة ثم يمتد جنوباً نحو بئر السبع فعين بقيق على البحر الميت

و قد وافقت حكومــة سفاك الدماء بيجين على هذا الخط فى جلستها المنعقدة فى ٢٤ أغسطس (آب) ١٩٨٠م .

وصف القناة :

تبدأ القناة من شاطئ البحر المتوسط قرب تل القطيفة فى قطاع غزة بين خان يونس و دير البلح و تنتهى فى عين بقيق على البحر الميت بالقرب من مساد أعلى طريق عين جدى مروراً ببئر السبع ، و على البحر الميت ستنزل المياه من مسقط كبير ارتفاعه حوالى ٤٠٠ متر و تعمل فيه مولدات للطاقة الكهربائية ستقام هناك و يبلغ طول القناه ١١٠ كيلو مترا منها ٨٠ ك. م. داخل نفق فى الهضاب المشرفة على البحر الميت ، وتقول الحكومة الاسرائلية: إن مياه المشروع ستشغل فى إنشاء بحيرات للسياحة و تربية الأسماك و إقامة منشآت تبريد فى قلب النقب لمحطات الطاقة الكهربائية و النووية بالاضافة إلى إقامة مشروعات صناعية و كهربائية أيضاً .

أما إن المشروع سيؤدى إلى نهضة صناعية حقيقة فى إسرائيل فيساهم فى حل مشكلات المنطقة و تغيير وجه النقب .

أما تكاليف المشروع فهى حوالى ٨٠٠ مليون دولار ! و ليس أمام حكومة إسرائيل أى عقبات فى تمويل هذا المشروع حيث قال إسحاق موداعى وزير الطاقة الاسرائيلى :

إن قرشاً واحداً لن يأتى من ميزانية الحكومة لتمويل المشروع .

و بالفعل فقد أخذت هيئات الاستعمار الغربية التى تقع تحت النفوذ الصيهونى تتحرك فى اتجاه توظيف أموالها فى المشروع وقد عرضت مجموعة من المستثمرين من:

١- الولايات المتحدة الأمريكية .

٢- كندا . ٣- بريطانيا . ٤- إسرائيل .

(والذى تظلم هذه المجموعة هو المحامى الصهيونى الكندى روزنبرغ) عرضت المجموعة استعدادها لتمويل المشروع (هل يسمع المستثمرون العرب والمسلمون ؟) سوف يستغرق تنفيذ المشروع حوالى سبع سنوات ابتداء من سنة ١٩٨٢ و ذلك الندوة التى نظمتها الجامعة العبرية لمناقشة المدة الزمنية لمشروع قناة البحرين .

أما الأخطار المنتظرة لهذا المشروع على العالم العربى فهى تتمثل فيما يأتى .

ولا : أخطار عسكرية :

سوف تشكل القناة حاجزاً مائياً يصعب اجتيازه فى حالة حدوث مواجهة سكرية بين إسرائيل و الدول العربية حيث تسبب امتلاء منطقة البحر الميت بالمياه لذلك فان على القوات العربية أن تفكر جيداً فى عملية برمائية معقدة لاجتياز هذا انع المائى وحتى فى حالة عبورها ستكون مضطرة إلى أن تسلك الطريق التى يحددها العدو ، و ليس من المستحيل على إسرائيل أن تقوم بتطوير تلك القناه حتى تصبح اً مائياً دوليا لا يقل أهمية عن قناة السويس ، وعلى ذلك فان قناة السويس المصرية وف تفقد أهميتها سياسياً وعسكرياً و اقتصادياً و جغرافياً .

ثانياً : أخطار اقتصادية :

تقع هذه الأخطار على الأردن فى المقام الأول و هى عبارة عن :

١- خسارة حوالى ١٠٠ مليون جنيه سنوياً بسبب انخفاض انتاج البوتاس الذى يشكل عاملا هاماً يأتى فى المرتبة الثانية من حيث الأهمية الاقتصادية بعد الفوسفات .

٢- إغراق أجزاء كبيرة من وادى الأردن و عدد من المزارع و القرى والدور وعدد من الأماكن الأثرية و التاريخية كما سيزيد ملوحة تربة الأرض الزراعية وهذا سيؤثر بدوره على الزراعة وعلى الثروة الحيوانية التى تعتمد على الزراعة كما سيؤثر على خزانات المياه الجوفية و بالتالى على مياه الشرب مما يهدد حياة

السكان فى هذه المنطقة .

ثالثاً : أخطار سياسية :

١ـ يمثل المشروع تحدياً جديداً للامة العربية و الاسلامية و سوف يساعد على تدعيم إسرائيل بزيادة عدد المستعمرات و بالتالى سترتفع معدلات الهجرة إلى إسرائيل لسكنى هذه المستعمرات .

٢ـ سوف يعطى المشروع ذرائع جديدة لاسرائيل للاحتفاظ بقطاع غزة و الضفة الغربية (يهوذا و السامرا كما يطلق عليهما مجرمو الحرب اليهود) من خلال خلق واقع جديد لأن القناة ستمر فى قطاع غزة و محطة الضخ الرئيسية ستكون فيه .

٣ـ سيؤدى التطور الصناعى الناتج عن هذا المشروع إلى تحويل إسرائيل إلى دولة استعمارية جديدة بالمنطقة تكون مستقلة نسبياً ضمن دول المعسكر الاستعمارى

وبعد : فهذه عجالة عن هذا المشروع المشئوم وعن أخطاره و من يدرى ماذا تخفى الليالى ؟

و الليالى من الزمان حبالى
مثقلات يلدن كل عجيبة

و يبقى سؤال يفرضه الواقع المر على العرب و المسلمين حكاماً و محكومين : ما هو دوركم تجاه هذا المشروع ؟ هل سنظل ندور فى حلقه ندب الحظوظ و لطم الخدود وشق الجيوب وسط بحار السياسة التى تعربد حيتانها فى ضراوة و وحشية؟ إن القضية لن تحل فى موسكو أو لندن أو باريس أو واشنطن كما نريد ، وإنما تحل على أرض الاسلام و فى بلاد الاسلام و بأيد وقلوب و عقول مسلمة على مستوى سيف الدين قطز و صلاح الدين الايوبى رحمهما الله ، أما غير ذلك فلن يسلمنا إلا الى مزيد من الفصول فى مسلسل العدوان و التشريد . . . و اعتبروا بالتاريخ .

موازين مقلوبة لحرية الرأى

واضح رشيد الندوى

إن أكبر حرمان تعانيه أى أمة هو فقدان من يشعر بشقائها وآلامها، ومشاعرها الصادقة ، و يعبر عنها و يسعى إلى معالجتها ، أو على الأقل تخفف آلامها فكرياً باشعارها بأن أحساسيسها و شقاءها قد أبلغت إلى من يقدر على معالجتها ، كالمريض الذى يعانى ألماً يشعر بتخفيف فى ألمه فكرياً ويهدأ برهة من الزمن إذا علم أن هناك من يهتم بحالته ، و يسعى إلى إراحة باله فيها .

كان من شقاء الأمة الاسلامية وهى تختلف فى ذلك عن سائر الشعوب الأخرى أنها حرمت هذه الطبقة من الكتاب و الشعراء و العلماء و المفكرين . الطبقة التى تشعر بآلامها و أسقامها و تفحص أسبابها و تبحث عن جذورها ، و تكب على معالجتها حسب طبيعتها وبيئتها و العناصر التى ورثتها عن تاريخها السابق و كفاءاتها بدون إغفال مواطن الضعف .

فقدت هذه الطبقة لانقطاع الصلة بين عامة الأمة الاسلامية و الطبقة التى توصف بالطبقة المثقفة و أقيمت بينهما حواجز نفسية ، و فكرية و اجتماعية ، فقد كانت هذه الطبقة التى تملك قدرة التعبير ، وقدرة الشعور و الاحساس ، والانفعال و تملك قدرة تسخير القلوب وجذب النفوس، وغرس المعانى و الأفكار والتوجيه و الارشاد ، أول من استسلم للاستعمار الفكرى و آمن بتفوق الغرب فى سائر مجالات الحياة ، فى عهد الاستعمار الفعلى، وآثر أن يقطع صلته عن جماهير الشعب و رفض أن يفهم تطلعاتها ، و رغباتها .

وجدت فى عهد الانحطاط فى التاريخ طبيعة التملق و مجانبة الحكام فى العلماء و الأدباء لاستبداد بعض الحكام و لكن الجراءة على قول الحق ، و التعبير عن الضمير لم تكن مفقودة كلياً فى تلك العهود التى تعتبر العهود السوداء ، واعترضت مواقف البطولة لكثير من العلماء فى سبيل مطامع الحكام و منعوهم من التصرف المطلق فى شئون الرعية .

كان من مصلحة الاستعمار الغربى تشجيع الطبقة التى تروج أسطورة تفوق الغرب ، و علومه و نظمه ، فنشأت طبقة كتاب متملقين يطبلون لكل حاكم ثم يلعنونه بعد سقوطه ، أو موته ، وتتحول حسناته سيئات ، وقد كانت هذه الطبقة المرتزقة تلتمس كل خير فى الاستعمار تحبذه و تعتبره أحسن ثقافة ، و أرقى علماً وأنزه فكراً ، و وجوده مصدر خير ، وبركة ، وفضل ، ونفع عظيم ، و كأن الأمة الاسلامية بمثابة طفل صغير يحتاج إلى من يربيه و يثقفه ، أو يعلمه النظافة و الأدب وحسن السلوك .

كانت هذه الطبقه تؤمن بافلاس الأمة الاسلامية فى جميع مجالات الحياة فى الفكر ، و المعيشة و لذلك دعت إلى الانسلاخ عن الماضى ، و عن كل ما يحمل من خصائص وتصفها رواسب العهد الماضى المظلم .

ينتمى إلى هذه الطبقـة كثير من كتاب العصر الحاضر ، الذين آثروا أن يسيروا فى ركب المصفقين و المطبلين لكل من يتولى الحكم و هم يقتدون بالكتاب المسيحيين الذين استولوا على الاعلام و التعليم و التربيـة ، فى عهد الاستعمار و سخروا هذه الوسائل لمصلحة الاستعمار و لم يميز بينهم و بين الكتاب المسلمين للتشابه فى الأسماء و لاختلاطهم بالمسلمين ، ولم يعرف من هو صليبى حاقد يحمل ولاءه للاستعمار أكثر من ولائه لبلاده ، و مواطنيه المسلمين .

تسيطر هذه الطبقة التى ولاؤها لما وراء البحار ، على وسائل النفوذ الفكرى

والتعبير فى سائر أنحاء العالم الاسلامى ، وهى ثائرة على قيم هذه الأمة وخصائصها ، و منحرفة عن طبيعتها و ذوقها و مطالبها ، و هى التى تحيط بكل حاكم ، فتفصله عن الشعب و فكره و تظهر له كأن ما تكتبه و تعبر عنه هو دقات قلب الشعب ، فتكون بين الحكام و الشعوب حاجباً كثيفاً لا يشف منه شئ .

ينتقد الكتاب المعاصرون الحكام السابقين فى العصور الوسطى أنهم كانوا لايعرفون معاناة شعوبهم لوجود الحجاب ، ولكن العصور السابقة لم تكن تخلو فى الواقع من العلماء الذين كانت ضمائرهم حية ، فكانت السلاسل و الأطواق لا تمنعهم من قول الحق ، و لم تكن المحن تثنيهم عن عزيمتهم و يجد الباحث فى التاريخ أمثلة رائعة لهذه المواقف الجريئة منها ما رواه التاريخ أن السلطان سليمان العثمانى انزعج بدسائس و مؤامرات النصارى وإحداث اضطرابات فى المملكة العثمانية من الأرمن وغيرهم فأراد معاقبتهم ونفى من يتولى إثارة القلاقل كلياً لاقرار الأمن والنظام ، فاعترض سبيله كل مرة شيخ الاسلام وقال : إننا لانستطيع أن نفعل أكثر من فرض الجزية ، فامتنع عن إرادته ، وقد توسط العلماء فى مناسبات كثيرة فى عهد الحكم الاسلامى فى الأندلس ، و فى عهد المماليك فى القاهرة ، و العثمانيين ، و كانوا يملكون حق النقض لمعارضتهم التى لا تلين ، و لاستعدادهم لتحمل أى معاقبة على قول الحق ، و كانوا يقومون بواجبهم فى إرشاد الخليفة أو الحاكم ، و يبلغونه رأيهم .

أما العهد الحاضر فهو رغم الادعاء بحرية التعبير ، و احترام العلم و كرامة الايمان توجد فيه كل سلعة ، إلا الرأى الحر ، إن هناك حرية فى الرأى طبعاً ، ولكن هذه الحرية المطلقة تدور حول الدين والقيم ، يتمتع الكاتب فعلا بحرية الاستخفاف بالقيم والتجرؤ على الله ، والرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام البررة ، وتاليف كتب فى الكشف عن استبداد بنى أمية و بنى العباس ، و العثمانيين بل كل حادث

بسيط وتشهيره وطعن الاسلام و بث الشكوك فى المقدسات والاسلام بعقلية التخلف و الرجعية و الجمود و الوحشية ، و لكن لا يوجد قلم فضلا عن أقلام فى العالم بكامله ينتقد سياسة حاكم بلاده أو موظف تافه من موظفى الحكومة ، فاذا ملئت السجون بالأبرياء و أعدم عشرات من المفكرين و القادة ، فلا يتجرأ قلم واحد ليعبر عن صوت ضميره، إنه لا يرى إلا العدل و الانصاف، و التقدم فى عهده ، و لا يقدم إلا الحسنات ، لأن الكتاب اليوم تلامذة للجيل الذى تجرع مرارة الاستعمار فاستحلاها ، شوهدت هذه المواقف فى كل مرة تغيرت فيها شخصيات احتلت كراسى الحكم ، فيجرى الانتقال من حسنات إلى سيئات بتغير كل عهد .

إن الكتاب الأحرار فى البلاد لا يقل عددهم ، فكل كاتب حر بهذا المفهوم الضيق ، حر فى رأيه فى الدين و التاريخ الاسلامى ، و نقد الحكام السابقين ، والنظم السابقة ، ونقد جيرانه بأقسى ما يمكن من كلمات ، وأبذئها ، لكنه مكفوف البصر ، ومكمم الأفواه ، فيما يحدث حواليه ، فى حياته العامة والخاصة أمام عينيه ،

هذه الحرية مكفولة فى سائر البلاد الاشتراكية ، و هى من خصائصها ، فان الأدب يجب أن لا يكون ملتزماً بالدين و الأخلاق و القيم ، و خلفيــة التاريخ و البيئة ، لكن يجب أن يكون ملتزماً بعقلية الحكام فيكون خادماً له ، تشف منه طموحه ، ويدوى أنفاسه ، تجد الحرية بهـــذا المعنى فى أقلام توفيق الحكيم الذى يخونه التوفيق دائماً ، و نجيب محفوظ و هيكل ، و أمثالهم فتجد موازين مقلوبة تجدهم احراراً مكبلين ، كما قال شاعر أردى يستعرض العالم كله ويجهل نفسه .

إن فقدان الأصوات الحرة ، والمعارضة الايجابية الواعية بالمسئولية ، المسئولية أمام الله و المسئولية أمام العباد ، و مسئولية الضمير ، و فقدان الصدق فى القول ، و العمل مصدر كارثة هذه الأمة التى تتحكم فيها الحضارة الغربية و التربية الغربية

عقول أبنائها المثقفين .

لقد عزل عن الحياة من زمن بعيد العلماء و المصلحون الصادقون و وضعت م الأغلال الثقيلة ، و تم تركيبهم ، فلا يوجد منهم اليوم إلا من يضم صوته صوت المطبلين الآخرين فى صفوف المثقفين الجدد ، فكانت النتيجة أن الأمة سلامية يهان شرفها و قيمها فى بلادها بأيدى مواطنيها ، و على مرأى و مسمع حكامها الذين يدعون أنهم مسلمون .

وهو وضع لايوجد له مثيل فهل يمكن أن يتصور أن تصدر كلمة ضد الشيوعية بلاد الشيوعية . وعلى العكس يستطيع الكتاب أن ينتقدوا الاسلام و يطعنوه ، لد إسلامى و لا يستطيعون أن يكتبوا ضد الصهيونية و الشيوعية و النصرانية .

معاقبة العمال فى عيد العمال

أقيمت احتفالات فى سائر أنحاء العالم بعيد العمال فى أول مايو ١٩٨٣ كالعادة ة كل عام ، باعتبار ذلك اليوم ذكرى انتصار العمال و كسبهم لحقوقهم ، ويحتفل كعيد قومى فى الاتحاد السوفيتى والدول الشيوعية ، لأن الشيوعيين يعتبرون أنفسهم رين للعمال ، و رواد حقوق الطبقات الكادحة ، و لذلك تعقد الاحتفالات سية فى موسكو ، و تقام استعراضات عسكرية ، تعرض فيها أحدث الأسلحة كة التى صنعها العمال فى الاتحاد السوفيتى ويلتقى الرئيس وسكرتير الحزب الشيوعى ية من الجنود وتلقى كلمات للتنديد بالعالم الرأسمالى .

كانت احتفالات هذا العام مظهراً للتناقض فى واقع المجتمع الشيوعى فقد أقام مال فى بولندا مظاهرات لحقوقهم ضد الحكومة التى تفرض أنواع الكبت والاضطهاد العمال ، و تحرمهم حقهم المشروع فى تشكيل نقابات حرة و حق الاضراب ضغط على حقوقهم ، و هما حقاق مشروعان فى فلسفة الاشتراكية عن العمال . ستخدم البوليس القوة لتشتيتهم وضربهم بالعصى ، وأطلق النار ، و أحاط البوليس سلح بمقر منظمة التضامن للعمال التى يتزعمها وليسا عندما كان ينظم حشداً مضاداً

للحشد الحكومى بمناسبة عيد مايو ، كما سد البوليس سائر الطرق المؤدية إلى مقابر العمال الذين قتلوا فى حوادث عام ١٩٧٠ ، و تقع هذه المقبرة خارج باب ترسانة لينن . و قد بلغ عدد المتظاهرين عشرة آلاف فى أحد الأماكن الرئيسية .

وتشكل بولندا علامة لتذمر العمال فى النظام الاشتراكى الذى يقوم من أجل العمال ، فقد حلت الحكومة فى البلاد الاشتراكية محل المستخدمين ، و تتمتع بسائر حقوق المستخدمين بطريق لا تختلف عن الرأسمالية وتمنع العمال من الحقوق المشروعة فلا يستطيعون المطالبة برفع الأجور ، ولا يستطيعون أن يطالبوا بتحسين مستواهم فى السكن ،أو تحديد ساعات العمل ، أو تاليف نقابات حرة ، ويجرى من أجل ذلك الصراع فى بولندا منذ مدة طويلة . واتخذت الحكومة اجراءات قاسية ضدهم ، وقدشرد بسبب هذه الاجراءات آلاف من البولنديين ، و يعيشون الآن فى بلدان أخرى كلاجئين .

لقد ثبت الآن أن العمال فى الدول غير الاشتراكية ، أكثر حرية ، وأكثر كرامة من العمال فى البلاد الاشتراكية ويثبت ذلك من الواقع أن الباحثين عن العمل يفضلون الدول غير الاشتراكية للعمل ، ولا يفكرون دقيقة فى الذهاب إلى الدول الاشتراكية حيث يعامل العمال كحيوانات مدربة ، وإن مغامرة آلاف من العمال والمواطنين فى البلاد الشيوعية للخروج من بلادهم واللجوء إلى البلاد غير الشيوعية خير دليل على ذلك .

و مما يستغرب أكثر أن تعقد هذه الاحتفالات فى البلاد الاسلامية ، الأمر الذى يدل على جهالة القيادات أو نكرانها لذاتها ، فان الاسلام يضمن حقوق كل فرد مهما كانت طبيعته و موقفه فى الحياة ، فان كرامة العمل و العمال و حقوقهم التى يتكفلها الاسلام لا توجد فى أى دين أو مذهب جديد ، ولكن الذين لا يدرسون إلا تاريخ غيرهم يتنكرون لذاتهم ، و لتاريخهم و أخلاقهم ، فمثل يوم حقوق الانسان الذى يحتفل به العالم الاسلامى كل عام باعتبارها من معطيات الحضارة الحديثة يحتفل بعيد العمال كمعطيات الحضارة الحديثة ويعتبر الثورة الشيوعية ثورة لتحرير العمال ، والتاريخ و واقع الحياة يدلان على عكس هذا التصور ولكن من لا يعرف نفسه و لا يحمل الوعى لا يمكن أن يعلم .

الكاتب الاسلامى الكبير الشيخ عبد القدوس الأنصارى في ذمة الله

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
وكيل كلية اللغة العربية و آدابها

من الشخصيات الكبيرة التى توفيت أخيراً الأستاذ عبد القدوس الأنصارى صاحب مجلة المنهل الغراء الصادرة من جدة، ولد فى المدينة المنورة فى عام ١٣٢٤هـ، و درس فى المسجد النبوى الشريف، حتى برز فى المعرفة الأدبية و العلمية، وقضى زمنا فى التدريس فى مدرسة العلوم الشرعية، وكانت المدرسة الوحيدة فى منطقة المدينة المنورة فى ذلك العهد، ثم شغل مناصب فى إدارات الدولة و أحيل منها للمعاش أخيراً.
كان هذا الوجه من حياته الوجه السطحى العام ولكن الوجه الخاص لحياته والذى حاز المكانة الكبيرة فى الفترة التى عاش فيها من الزمن، و فى البلاد التى كان ينتمى إليها بوطنيته، هو وجه حياته الأدبى والثقافى الممتاز، فقد ساهم فى تكوين الجو الأدبى فى بلاده وعد بذلك من شيوخ الجيل الصاعد فى عصره، فى الوقت الذى لم تكن فى المملكة السعودية جامعات و كليات، و لم تكن من الثانويات كذلك إلا عدد أقل من أن تعد على الأنامل، و لم تكن تصدر من الصحف و الجرائد إلا صحيفة رسمية أسبوعية و هى أم القرى، من مكة المكرمة.

لقد بذل الأستاذ الشيخ عبد القدوس الأنصارى جهداً مستمراً لا نعاش الروح الأدبية و إنهاض الهمم فى المجالات الأدبية و الثقافية من منبر أدبى و صحفى عظيم مجلة المنهل الغراء.

كانت مجلة المنهل الغراء مجلة أدبية وحيدة تصدر فى منطقتها، و كانت تشتمل على المواد الأدبية والعلمية الدسمة، فعظم إقبال الشباب عليها وتغذوا بموادها المفيدة،

و استمرت المجلة فی الصدور حتی أصبحت لها أقران و أکفاء و لم تبق منفردة فی المضمار ، ولکن میزتها من بین شقیقاتها بقیت واستمرت تحت إشراف منشئها ورئاسة تحریر مجله الکریم نبیه عبد القدوس ، و عکف فضیلة المرحوم الشیخ عبد القدوس الأنصاری علی البحث و التحقیق فظهر له من الکتب (١) آثار المدینة المنورة (٢) بین التاریخ والآثار (٣) تاریخ مدینة جدة (٤) بنو سلیم (٥) مع ابن جبیر فی رحلته (٦) طریق الهجرة النبویة (٧) الطائف تاریخ و حضارة (٨) النخل و التمور فی بلاد العرب (٩) تحقیق أمکنة فی الحجاز و تهامة (١٠) السید أحمد الفیض آبادی ، وغیرها من البحوث ، و (١) التوءمان (روایة) (٢) الأنصاریات (دیوانه) (٣) إصلاحات فی لغة الکتابة و الأدب (٤) أربعة أیام مع شاعر العرب عبد المحسن الکاظمی (٥) من وحی المنهل (٦) رئاسة مجلة المنهل . وغیرها من الکتابات الأدبیة .

یمتاز تاریخ جدة من بین هذه الکتب بالاستیعاب العلمی و البحث الأمین الدقیق ، کما أن کتبه الأخری فی مجال الآثار ، کتب قیمة کلها ، لأن الموضوع کان متروکا إلی ذلک الوقت من الافاضة فیه ، وذلک لأن آثار المملکة العربیة السعودیة کانت تنال من الآثاریین الجفاء و الاهمال بسبب نسبتها إلی الدین الاسلامی الذی یبغضه أهل الکفر ویستحی منه أهل الاسلام ، و لقد نال من بین کتبه فی البحث کتاب آثار المدینة المنورة رواجاً فقد تلقاه الناس بالقبول العظیم واستفادوا منه کثیراً ، وإن من میزات الشیخ عبد القدوس الأنصاری هی إفاضته بالبحث فی هذا الموضوع و کشف الحقائق المستورة منها ، فکم أثلج من صدور وقرر من عیون ، جزاه الله تعالی أحسن الجزاء .

وقد سایر الشیخ المرحوم عبد القدوس الأنصاری فی هذا المضمار عالم للأدب آخر ، و هو الشیخ حمد الجاسر من الریاض ، فقد کانا کاتبین متسابقین فی هذا المجال فی المملکة .

لقد جمع المرحوم الشيخ عبد القدوس الأنصارى بين الذوق الأدبى و ذوق البحث و التحقيق ، وكان فى كليهما من فحول الحلبة ، فقد كان قلمه يجرى فى كتابة القصص ، و قول الشعر و تصوير خواطر النفس ، وقد تجلى كل ذلك فى صفحات مجلته الأدبية الرائعة « المنهل » ولقد تربى على هـذه المجلة جيل الأمس فى المملكة العربية السعودية فهو يحمل فى أطواء قرائحه الأدبية آثاراً منها .

لقد عرفت الشيخ عبد القدوس الأنصارى أولا من مجلته المنهل و من كتابه فى ترجمة مؤسس مدرسة العلوم الشرعية و مديرها الشيخ السيد أحمد الفيض آبادى ثم التقيت به فى مكة المكرمة مع شيخنا السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى .

و قد كانت بينهما معرفة تحولت فيما بعد إلى صـداقة ، و مودة أخوية وكسبت أنا من ذلك قرباً بعجبة من فضيلة المرحوم ، فقد كان يرحب بى و يبدى عطفه ، و لما صدرت صحيفتا « البعث الاسلامى و الرائد » و وصلت أعدادهما إليـه أحاطهما بالتشجيع و التقدير ، كان يخص الرائد بعطفه و تقديره بسبب معرفته لى معرفة أقرب من غيرى ، ولا أذكر أنى ما التقيت به بعد ذلك إلا وسمعت منه كلمة تقدير وثناء على صحيفة الرائد ، و هو أمر لا يمكننى أن أنساه فانه إن دل على شئ فيدل على كرم نفسه ، و لا بدع فى ذلك فقد كان أنصارياً تحمل نفسه تلك الرحابة العالية الكريمة التى امتاز بها سادتنا الأنصار ، أنصار رسول الله ﷺ .

تلقينا نبأ وفاته بحزن و أسف بالغين فقد سقط نجم من نجوم المملكة العربية السعودية للثقافة و الأدب و غادرتنا شخصيـة كريمة كبيرة فى ٦/ رجب ١٤٠٣هـ « فانا لله و إنا إليه راجعون » .

ندعو الله تعالى أن يغفر له زلاته ، و يتغمده برحمته و رضوانه ، و يكرم وفادته فى جناته . و هو على ذلك قدير و بالاجابة جدير .

أسبوعان فى ندوة العلماء

بقـــلم : الدكتور عبد الحليم عويس

ترتبط لكهنؤ فى ذهنى بندوة العلماء دار العلوم وترتبط ندوة العلماء فى ذهنى وفى وجدانى بشيخها و إمامها علامة الهند و راعى جماعاتها الاسلامية ، الشيخ السيد أبى الحسن الندوى أطال الله عمره .

و ندوة العلماء هى من الاسلام انطلقت ، و على الاسلام سارت ، و إلى غاياته اتجهت لم تتشعب بها المسالك ، و لم تنحرف بها المنطلقات ، ولم تأخذ بأسباب القائمين عليها الاغراءات ، ولم تنحرف عن غايتها أمام التهديدات والأزمات .

لم تشغل نفسها بالصراع مع مسلم ، بل فتحت صدرها و قلبها لكل مسلم ، و يؤلمها - أشد ما يؤلمها - أن الذين يؤذونها لا يزورونها ، و لا يقبلون ودها ، على الرغم من أنها لم تبادلهم إيذاء بايذاء ، فنهجها « ادفع بالتى هى أحسن السيئة » .

تصفح مجلتيها العربيتين الرائعتين : البعث الاسلامى ، و الرائد ، فهل وجدت فيهما مقالات (للتفنيد) أو (للدحض) أو (للرد) ، أو للرد على الرد) أو لغير ذلك من (مصطلحات) (الحقد) التى لا يمكن أن ينفذ من خلالها الايمان و لا اليقين ؟ .

كلا . . فانك لن تجد شيئاً من ذلك . . بل هى الفكرة الاسلامية الشاملة المتزنة الهادئة الجليلة الوقورة تتقدم إلى الجميع ، و تتحدث باسم الجميع ، و تدافع عن آلام جميع المسلمين ، و تدعو إلى (بعث كل المسلمين) لا تفرق بين مسلم و مسلم ، ما دام مسلماً ، و لا تشغل نفسها بهذه المنزلقات التى تفرق ولا تجمع ، و تفسد ولا تصلح ، و تجعل الأشقاء أعداء ؟ .

و لا غرو - مع هذه الروح - أن تكون ندوة العلماء مترجمة للجوانب الثلاثة التى نادى بها مؤسسوها (إصلاح التعليم و التربية وفق الكتاب و السنة و مقتضيات العصر- و تصحيح المفاهيم الدينية وتنقية الأفكار ، وجمع كلمة المسلمين و توحيد صفوفهم و إيجاد روح التسامح بينهم وإنشاء التضامن على جميع المستويات الفكرية و المذهبية) .

وهكذا عشت فى ندوة العلماء . . . وسط هذه الروح السمحة التى لا تعرف

إلا الحب و التواضع و إنفساح الروح ! ! عشت أسبوعين ، و كأنى خارج من زحمة هذه الدنيا وصخبها ، منعتق من مادياتها وصراعاتها .. لا يكاد يربط شعورى بخارج هذا العالم الجميل إلا صبية ثلاث زغب القطا تركتهم خلفى فى الرياض .. بكوا فراق ، و ينتظرون بلهف يوم التلاقى .

و كنت ألقى محاضراتى فى ندوة العلماء على حياء .. فيقدمنى الاخوان بما لست أهلا له .. و كم كان يخجلنى و يسعدنى فى الوقت نفسه ـ أن يصر مولانا أبو الحسن على الندوى ـ أدام الله عزه و شرفه وأطال عمره ـ على حضور بعض محاضراتى ، وأن يتولى تقديمى ، و أن يثنى على الجامعة الكريمة التى أوفدتنى (جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض) وعلى معالى مديرها الكبير ، الذى يمثل واجهة كريمة من واجهات العمل الاسلامى الرشيد ، الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركى ، سواء فى المملكة العربية السعودية ، حرسها الله للاسلام ، أم خارج المملكة ، ـ ثم يتولى ـ بعد ذلك ، التعليق على محاضراتى ، بل وتلخيص أهم جوانبها باللغة الأردية .

فيا لله ، كم هى سويعات جميلة ، عشتها صحبة هذه الجماعة السلفية المؤمنة ، التى تجمع بين عبق الماضى الرائع الأصيل ، وحداثة الحاضر بكل ما فيه من معنى جميل .

و قد حلت هنا المعادلة التى صعب حلها على الكثيرين ، فهنا لا صراع بين الماضى و الحاضر ، بل ينسكب الماضى فى الحاضر انسكاب الماء الزلال فى الأرض الخصبة المذلول .

فشكراً لله ، صاحب الفضل والمنة ، وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله .

و شكراً لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية و لمعالى مديرها ، ولفضيلتى وكيليها ، و للقائمين عليها ، و لعميد كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام ، و شكراً للعلامة المجاهد الشيخ أبى الحسن على الندوى ، ولندوة العلماء التى أعطتنى من روحها وحبها ، الكثير ، و التى علمتنى درساً يكافئ كل دروسى لطلابها .

علمتنى أنه بالحكمة والتسامح والحب ينتشر الاسلام و تصلح النفوس ، وأما الحقد والتشنج فليسا الطريق لصياغة حياة إسلامية ، و لا لصناعة حضارة إسلامية .

أخبار اجتماعية و ثقافية :

احتفال الأزهر بالعيد الألفى
هكذا يجب أن يستمر الأزهر

أخيراً : وبعد أن انتظر المسلمون كثيراً ، أقيمت احتفالات الأزهر الشريف، وسط حشد هائل من المدعوين من كل أقطار العالم، والأزهر عزيز على كل المسلمين.

هو عزيز بماضيه ، وعزيز بمستقبله الذى يؤمل أن يعبر إليه عشرات العقبات و أن يجتاز فى سبيله الصعاب .

وأما حاضر الأزهر ، فهو الأمر الذى يقف كالجملة الاعتراضية فى تاريخه الميمون .. إنه حاضر يحتاج إلى علاج كبير . . حتى يستطيع الأزهر إعادة ماضيه المجيد إلى الحياة . لقد أحب الناس الأزهر قلعة من قلاع الدفاع عن الاسلام . . . .

و هكذا يجب أن يستمر الأزهر ! !

و لقد أحب الناس شيخ الأزهر إماماً من أئمة المسلمين ، و ليس موظفاً يخضع لقرار ، يولى به ، و يعزل . .

و هكذا يجب أن يعود الأزهر . .

و لقد أحب الناس الأزهر .. لعلمائه العاملين ، و برجاله الذين لا يخشون فى سبيل كلمة الحق لومة لائم ، و لا يلوون أعناق النصوص القرآنية ليكيفوها مع أهواء الحاكمين ، و لا لكى يقضوا بهذا التكييف على عناصر الثبات فى الاسلام بشريعته الخالدة . . .

و هكذا يجب أن يستمر الأزهر

لقد كان الأزهر جامعاً و جامعة ، و كان رمز عقيدة و حضارة ، و كان مصنعاً لتخريج العظماء ، و الذين أحبوا الأزهر ، و الذين قدروه ، إنما أحبوه قدروه لهذه المعانى الكريمة العظيمة .

لقد حضر احتفالات الأزهر الرئيس محمد حسنى مبارك ، و الرئيس (عبد القيوم) رئيس جزيرة مالديف الذى تخرج من الأزهر ، و لم يحضر غيرهما فى مستوى الرؤساء .

و كنا نتمنى لو حضر جميع رؤساء المسلمين ، لأن الأزهر جدير بذلك ، فهو أفضل للمسلمين مع جامعات الشعوب الاسلامية و جامعات الشعوب العربية ، بل و الجامعة العربية نفسها ، فالأزهر وحد فكر المسلمين و ثقافتهم ، و هذه الجامعات مزقت المسلمين ، و لم ينجح أسلوبها فى الترقيع .

و يوماً ما - باذن الله - ستعود للازهر مكانته ، و سيحضر جميع رؤساء المسلمين للازهر ، و سيستأنف الأزهر دوره الريادى لحضارة المسلمين ، حافياً على كل العاملين للاسلام ، و عاملا على نهضتهم من كبوتهم . . « و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله » .

زيارة علمية و إسلامية

زار ندوة العلماء موفداً من جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، على دعوة من (ندوة العلماء) الدكتور عبد الحليم عويس الكاتب الاسلامى المعروف .

و قد عاش الدكتور نحو أسبوعين مع إدارة الجامعة و طلبتها حيث غطى برنامجاً من المحاضرات العامة ، فى الفترة من (٢١/ إبريل وحتى ٣/ مايو ١٩٧٣م) و من أبرز المحاضرات التى ألقاها المحاضرات التالية .

١- محاضرة حول (فلسفة التاريخ أهميته و آفاقه و منظوره الاسلامى) و أهمية ابتداع علم « فقه التاريخ » .

٢- محاضرة بعنوان : الدعوة الاسلامية ، تطلعاتها و مشكلاتها .

وقد قدم لهذه المحاضرة سماحة الشيخ أبى الحسن على الندوى ولخصها بالأردية.

٣- محاضرة بعنوان : ماذا يقدم الاسلام للحضارة الحديثة ؟ .

٤- محاضرة بعنوان : سقوط الأندلس : التجربة التاريخية و العبرة الحضارية .

٥-٦- محاضرتان حول : فقه السيرة النبوية بين الدلالات التاريخية والركائز الحضارية .

هذا و قد حضر الدكتور عبد الحليم عويس حفلات التخرج ، و حفلات التكريم التى أقامها الطلاب محبة سماحة الشيخ أبى الحسن الندوى كما حضر حفل تكريم خاص أقامه على شرفه سماحة الامام أبى الحسن الندوى ، كما تفقد الدكتور مرافق الندوة و قدم بعض الاقتراحات .

و زار الدكتور عويس - كذلك - تكية علم الله فى (راے بريلى) ، ليشكر سماحة الشيخ الندوى وندوة العلماء على الأيام الطيبة التى قضاها فيها ، و على الكريم الذى حظى به .

و فى كل ذلك كان الدكتور يحمل إلى المسئولين و إلى طلاب ندوة العلماء تحيات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية الفتية ، و تحية معالى مديرها الأستاذ الدكتور عبد الله التركى و فضيلة وكيليها الدكتور الشيخ محمد العجلان ، و الدكتور الشيخ عبد العزيز السعيد وتحية فضيلة عميد كلية العلوم الاجتماعية الدكتور محمد سالم العوفى .

و ندوة العلماء تشكر لجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية موافقتها الكريمة على إيفاد الدكتور عبد الحليم عويس وتتمنى دوام ازدهار العلاقات بين المؤسستين فى تحقيق رسالتهما السامية .

كتب حديثة

تلقينا منذ شهر تقريباً كتاباً قيماً حول الطب الاسلامى ، باسم « الطب فى ضوء الاسلام » لمؤلفه المؤمن الدكتور غريب جمعة من مصر العربية ، و الكتاب فى الواقع محاولة ناجحة فى وصف ما يتعرض له الانسان فى حياته من أمراض و انحرافات صحية ، فى ضوء تعاليم الاسلام ، و علاجها بالمواصفات التى تشير إليها الآيات الواردة فى كتاب الله والأحاديث المروية عن رسول الله ﷺ .

و الكتاب يقع فى ١٦٠ صفحة بالقطع المتوسط و يحتوى على موضوعات نستطيع أن نقدر منها قيمة الكتاب و هى كما يأتى :

★ الرحلة المشئومة فى جسم الانسان ★ حول فتوى البيرة ★ حرمان و لكنه عافية و علاج ★ نحو وعى صحى أفضل ★ و إن لكم فى الأنعام لعبرة ★ ولكم فيها منافع كثيرة ★ ومنها تأكلون ★ و للمسرفين أمراضهم ★ النوم آية من آيات الله ★ أكثر الأوجاع شيوعاً ★ الايمان بالله أساس الصحة النفسية .

● أهدى إلينا فضيلة الشيخ فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومى من الرياض كتابه القيم « منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير » .

تناول المؤلف فى هذا الكتاب « منهج المدرسة العقلية الحديثة فى التفسير » نظراً إلى خطورة هذا المنهج من بين المناهج العلمية والأدبية والاجتماعية ، ذلك أن المدرسة العقلية ترفع درجة العقل إلى مرتبة الوحى وتعتبر رجالها أرفع من كل شبهه .

تحدث المؤلف فى هذا الكتاب عن تلك الطائفة التى عاشت فى مصر واجتمعت على وحدة المنهج فى التفسير ، بجميع قواعده و أسسه ، و وحدة الهدف و وحدة اللغة و البيئة ، و حتى وحدة الظروف التى مرت بها و ألجأتها إلى سلوك المنهج العقلى فى القضايا القرآنية .

هذه المدرسة العقلية أسسها جمال الدين الأفغانى وتلميذه محمد عبده وتلاميذهما حتى رسخت فى الأذهان و انتشرت بين علماء الاسلام .

أسس المؤلف دراستـه هذه على بيان نشوء التفسير و تطوره ثم على نشأة المنهج العقلى القديم فى التفسير ، و بين مكانة العقل و وظيفته و درجته الرفيعة التى أحله الاسلام فيها ، و تحدث بشئ من التفصيل عن منهج المدرسة العقلية القديمة ، الذى انتهجه المعتزلة ، ذلك لكى تتضح أبعاد الصلة بين المدرستين القديمة والحديثة .

قسم المؤلف كتابه بين جزأين و فى ستة أبواب رئيسية ، ففى الباب الأول تحدث عن رجال المدرسة العقلية وفى الباب الثانى عن منهج المدرسة العقلية الحديثة بغاية من الايضاح و التفصيل ، وفى الباب الثالث عن بعض آراء هذه المدرسة فى بعض علوم القرآن ، و قسم هذا الباب إلى ثلاثة فصول ، الأول فى ترجمة القرآن الكريم ، و الثانى فى القصة فى القرآن ، و الثالث فى بيان إعجاز القرآن الكريم .

أما الباب الرابع فخصه بالحديث عن آراء المدرسة العقلية الحديثة فى بعض قضايا القرآن كالوحى ، والبعث و أمارات الساعة ، و القضاء و القدر ، والمعجزات و أصل الانسان ، و الملائكة ، و الجن ، و فى الباب الخامس أورد نماذج من تأويلات رجال هذه المدرسة لآيات من القرآن الكريم ، وفى الباب السادس الأخير تحدث عن أثر هـذه المدرسة فى الفكر الاسلامى الحديث .

وفى خاتمة البحث وجه المولف نداء إلى جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية لتتبنى الدعوة إلى عقد مؤتمر لتفسير القرآن الكريم على أساس منهج السلف الصالح من علماء و أئمة الاسلام .

والكتاب فى الواقع بحث علمى قيم يستحق أن ينال عناية العلماء ممن يشتغلون بدراسة القرآن الكريم وشرح معانيه كما أن هذا الكتاب يفتح آفاقاً للتفكير والنقاش فى هذه المدرسة العقلية الحديثة التى ظلت موضع بحث وجدال منذ وجودها .

ONES. 49747-42948 REGD. NO LW/NP 59

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA, LUCKNOW.(INDIA)

صدر حديثاً :

الطريق إلى السعادة والقيادة

للدول والمجتمعات الاسلامية الحرة

كتاب جديد صدر حديثاً لسماحة الشيخ العلامة أبي الحسن علي الندوي يخاطب فيه الدول والمجتمعات الاسلامية الحرة ، ويبين لها الطريق إلى السعادة و القيادة .

إن الكتاب مجموعة ۱۲/ محاضرة ألقاها سماحة المؤلف فى باكستان بمناسبة حضوره هناك فى المؤتمر الاسلامى الآسيوى الأول الذى عقدته رابطة العالم الاسلامى (بمكة المكرمة) فى يوليو ۱۹۷۸م فى كراتشى .

تحدث فيه إلى كل قطاع من الناس من رجالات القانون و العلم و الفكر و خبراء التعليم و التربية و أساتذة الجامعات و طلابها و رجال الحكم و المناصب الرسمية العليا إلى الجماهير العامة من المسلمين المخلصين .

وجه فيه نداء عاماً للانتفاضة الاسلامية التى تترقب يقظة المسلمين وصحوتهم .

و كل ذلك فى أسلوب خطابى جميل ، و تعبير مؤثر جذاب .

الناشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت

ويطلب : من مكتبة دار العلوم التجارية

بندوة العلماء ص . ب ۹۳ لكهنؤ (الهند)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوى فى مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمى

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

تصدرها ندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)

العدد الثالث

المجلد الثامن والعشرون

ذو القعدة ١٤٠٣هـ

أغسطس و سبتمبر ١٩٨٣م

أخي القارىء

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١— كتابة العنوان بالانجليزية و العربيــة كلتيهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا .

٢— ارسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم « البعث الاسلامى » مقابل عام واحد او أكثر :

٣— يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤— الاشتراكات السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٥ دولاراً بالبريد الجوى ،

فى باكستان بنغلاديس و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

Po. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

العدد الثالث
المجلد الثامن
و العشرون

ذو القعدة ١٤٠٣هـ
أغسطس و سبتمبر
١٩٨٣م

أخى المسلم

أخى فى العقيدة و الدين لا فى التراب و الطين ، أخى على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخى فى النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخى فى الحق و الصبر فى الوطن و المهجر ، أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق ، أخى فى زهرة الصحراء و درة الخليج بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخى فى اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخى فى الله !
نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك فى وجه الباطل ، زاداً لك فى طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك فى صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمى فى مجلة ، أو زبون فى محل تجارة !

[محمد الحسنى - رحمه الله]

المراسلات :
البعث الإسلامي
ندوة العلماء ص . ب ٩٣
لكهنؤ — الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Box No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

فى هـــــذا العـــــدد

الافتتـــاحية :

الذين يتابعون سير الدعوة الاسلامية فى العالم ، و يهتمون بالنشاط الدعوى فى مختلف البقاع ليطلعون على اتساع نطاق المجهودات التى تبذل فى هذا الحقل الواسع الكريم ، و قد تواجدت فى العالم المعاصر وسائل ملحوظة استفادت منها الجهات المعنية بالدعوة الاسلامية فى أداء مسئوليتها و نشر رسالتها ، و تبليغ كلمتها إلى المجتمعات الانسانية ، و ساعدتها مع ذلك أفكار إسلامية تولاها رجال من علماء الاسلام ودعاته ، و هم الذين استطاعوا أن يمدوا العمل الاسلامى بنقاء فكرهم و وضوح أسلوبه ، و وضعوا طاقاتهم الفكرية كلها فى خدمة الدعوة دون أن يطمعوا فى مقابل مادى حيال ذلك ، أو يفكروا فيما إذا كان لهم عائد عاجل لقاء عملهم ذاك .

و نتيجة لاخلاص هؤلاء المفكرين الاسلاميين لقيت الدعوة فى مساراتها قبولا و إيجاباً من كل جهة ، و تزايد إقبال الجماهير فى كل بلد على دراسة الاسلام كنهج للحياة والعمل ، و اقتنع عدد كبير من المثقفين غير المسلمين بأن المشكلات المتنوعة الكثيرة التى يمر بها الانسان الحديث لها حلول ناجعة فى تعاليم الاسلام ، وخاصة بعد ما فشلت الأنظمة الأخرى الكثيرة من وضع البشر ، فى إيجاد حل لها ، والرد عليها بحجة الاقتناع و الثقة ، و قد اهتدى عدد وجيه من غير المسلمين إلى الاسلام بفضل هذا الاقتناع ، كما حدث فى اليابان ، و فى بعض الربوع الأوروبية و الأفريقية ، حيث كانت الدعوة الاسلامية نشيطة تبعث الأمل فى قلوب التائهين ، و المنكوبين بالنظم الجائرة و العائشين تحت نير الظلم و العبودية .

أثمرت مجهودات الدعاة على جميع المستويات ، وعم فى المجتمعات كلها شعور بضرورة الدين ، وخاصة بعد ما فشا القلق و التذمر من

الحياة كنتيجة للغزو الحضارى المادى الذى سلب من الانسان ما يطمئن به القلب وكدس له من المرافق الصناعية والحضارية ما نما فى نفسه مقتاً وكراهية للحياة وتركه مجرد آلة صماء خاضعة أمام الزر الكهربائى . ولكن الدين فسر له قيمة الحياة وبين له طريق السعادة و الشقاء ، وأوضح له سبيل الجنة و النار ، « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

و لما كانت الدعوة الاسلامية طريقها مفروشة بالشوك و القتاد ، و كانت تتطلب تضحيات جساماً فى سبيلها ، و تحمل المتاعب فى مسيرتها ، تعرض أصحاب الدعوة دائماً لكل شدة و بلاء ، و كانو قد هيأوا نفوسهم لذلك من قبل ، وضحوا بكل ما أمكنهم من النفس والمال فى سبيل الله ، ففتح الله لهم القلوب ، وأعد لهم من الوسائل والامكانيات ما ساعدهم فى التوصل إلى الغاية المنشودة ، و إذا بصوتهم ينفذ إلى القلوب ، و يصل إلى أبعد الشعوب ، ويشق الصخور ، و يعبر البحار ، و القفار ، و يتجمع حولهم عالم من الملبين لدعوتهم و المنضوين إلى لوائهم ، ومن العاملين معهم فى إعلاء كلمة الله ، وتبليغ رسالة الاسلام إلى الناس ، وتتحقق نبوءة القرآن الكريم « و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر ، أولئك هم المفلحون » .

لا داعى إلى أن نتوغل فى تاريخ الدعوة الاسلامية القديم ، بل و إن لنا كفاية فى تاريخ الدعاة الحاضر ، الذى سجل لهم حكمة الدعوة وفقه الدين مع دافع التفانى والشهادة فى سبيل إعلاء كلمة الله ، لقد كانوا عاهدوا الله أن ينجحوا فى ذلك أو يموتوا دونه ، فلم يرضوا بأى قيمة مادية إزاء عملهم . و إنما عاشوا فى تطلع مستمر و مخلص نحو ما يكتب الله لهم من أجر حسن فى الآخرة ، و يكرمهم بالدرجات العالية فيها ، و فى مثل هذه الدوافع الطيبة تربى أتباعهم و أنصارهم ، فكان هدفهم من وراء ذلك العمل الدعوى الذى قاموا به أن يسعدوا برضا الله و يوفقوا إلى طاعة الله و طاعة الرسول ﷺ فيستحقوا الفوز العظيم الذى وعدهم

الله فقال « و من يطع الله و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » .

وعلى دربهم سار رجال الدعوة إلى الله ، فكانوا سعداء يوم آلوا على أنفسهم لا يالوا جهداً فى أداء مسئوليتهم نحو ما اختار الله لهم من منصب الدعوة وخدمة الاسلام ، والقيام بالعمل المخلص الذى يتولى السعادة والنجاح فى الدين و الدنيا على سواء « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لاتخافوا ولاتحزنوا و أبشروا بالجنة التى كنتم توعدون ، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » .

وقدر الله سبحانه أن تتسع رقعة الدعوة الاسلامية و يتزايد الاهتمام بها على مستوى الدول و الشعوب بل على المستوى العالمى حيث إن كل دولة قامت فيها مراكز لدراسة الاسلام ونشر الدعوة فى القطاعات الرسمية والشعبية ، وفى الجامعات و المؤسسات العلمية ، و قد تفردت أوربا وحدها بالنشاط الكبير فى هذا المجال ، و تأسست فيها جمعيات و مراكز و مؤسسات و مدارس إسلامية كثيرة لا يأتى عليها الحصر . و كذلك القارات الأفريقية و الأمريكية والآسيوية تميزت فى عالمنا الحاضر ، بوجود الوسائل و المرافق الواسعة لدراسة الاسلام و تبليغ رسالته ، و نشر دعوته فى المجتمعات التى تعيش فيها .

و لكن بدأت الدعوة الاسلامية مع اتساع نطاقها و عملها تواجه انتقاص روح الاخلاص والتفانى فى العاملين لها ، و جعلت تتقلص ظلال الاستقامة والطاعة فى قلوب أهلها وتحل محلها ظلال المطامع والأغراض التافهة ، وتسرب إلى صفوف الدعاة أفراد لم يتلقوا تربية الدعوة و لم ينالوا توجيهاً ناضجاً فى المجال العملى و فى واقع الحياة التى انضموا إليها ، و إنما كانوا قد درسوا الاسلام كنظام للحياة ، و كنظرية فكرية بازاء الأنظمة الوضعية و النظريات العلمية . فأنتج ذلك أن الدعوة الاسلامية توزعت بين علم و عمل ، و بين فكرة و واقع ، فاختار الجانب العلمى من شاء و اكتفى به و ركز كل طاقاته على دراسة الفكر الاسلامى و فلسفته دون أن يكون لديه اعتناء بالجانب العملى و الواقعى .

و طبعاً ليس ذلك مما ترضاه الدعوة أو تستسيغه طبيعة الدين فى أى حال ، ذلك الدين القيم الذى يقوم على أساس الايمان والعمل وعلى أولويات هذا الأساس العظيم ، من فقه وإيمان ، وعلم و عبادة ، و يقين و طاعة ، فكيف تستفيد الدعوة الاسلامية عن يكتفى بالعلم و اليقين و يرى أن الايمان بالعقائد الأساسية وحده يتولى الفوز العظيم الذى أشار إليه القرآن الكريم فى غير موضع من آياته و قرر أنه ثمرة الطاعة و الخضوع لأوامر الله و رسوله .

إذا كان ذلك هو تفسير الدعوة الاسلامية دون أن تكون هناك حاجة إلى عمل و عبادة و أمر و نهى ، و حب و بغض فى ذات الله ، فما معنى قول الله تعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله ، و ما معنى قول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح الذى رواه أصحاب الصحاح « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان » وقول الرسول الكريم ﷺ : والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف و لتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ، ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

و ليس هذا وحده ، و لكن تعاليم الكتاب و السنة كلها دعوة إلى العمل و الكفاح وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و هى تطالب بالايمان والعمل الصالح قبل كل شئ ، وتدعو إلى الجمع بين الناحيتين كلتيهما فى وقت واحد ، ومادام أهل الدعوة و التوجيه متمسكين بهذا المبدأ الكبير وخاضعين له فى جميع المناسبات و الشئون ، أثمرت مجهوداتهم ، وتعارف العامة والخاصة إلى صورة الدين المتمثلة فى حياتهم ، وتم ارتباط كل شئ بذلك المبدأ وإخضاع جميع الأهواء والشهوات لتعاليم الدين التى جاء بها الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به »

و ظلت الدعوة الاسلامية تشمل الآفاق، وتنفذ كلمة الاسلام إلى القلوب على

تعاقب الأزمان والأيام ، وظهرت أنواع و أساليب كثيرة للعمل فى مجال الدعوة ، و صارلها أنصار وأعوان اعتمدوا فى أداء المسئولية على كل ما تيسرلهم من المرافق المستحدثة و الأجهزة الاعلامية مما لاغناء عنه فى العصر الحديث ، و لكن دخلت مع ذلك أفكار و آراء جديدة لتفسير الدين و الاعتقاد به ، فى المجتمعات الدعوية ، وتبعها عناصر من رجال عاملين فى الحقل الاسلامى لم يكونوا ناضجين فى الفكر والتربية أو لم يظفروا بالوسط الذى يتلقون فيه التربية للقيام بهذه المسئولية و أداء واجب الدعوة على الوجه المطلوب ، فلم يكن عندهم علم بما يجب على الداعى من الانصباغ الكامل بصبغة الورع ، وماكانوا يعرفون للتعفف أهمية فى حياته ، فاذا بهم يستغلون موقفهم من العمل الاسلامى ، وينتهزون الفرص للتمتع بالأرباح المادية و المنافع الشخصية ، دون مبالاة بما إذا تضررت برامج الدعوة بهذا الاستغلال و خسرت الدعوة فرص العمل و النجاح فى مجتمع بأسره .

و لذلك فقد واجهت جماعات دينية وحركات إسلامية فى الوقت الحاضر أزمة الاستغلال من قبل عناصر لا يهمها العمل لخدمة الدعوة باخلاص كما يهمها اكتساب الفوائد المادية و الدعاية الرخيصة ، و لا يعنيها إعلاء كلمة الله كما يعنيها ترويج بضاعتها و العمل لتفخيم حجمها ، إن هذه العناصر تستغل كل فرصة للنفع الشخصى و كل مناسبة لتغطية الميزانية الخاصة ، و قد يكون بعض أفرادها فى منصب هام للجماعة ، و قد يكون عضواً أو عاملا أو موظفاً فى فرع من فروعها ، و منهم من يقوم بالاستغلال فى نطاق خاص ، ويستخدم لافتة الدعوة وأسماء علمائها لانجاز مشروع يختص به أو جلب نفع مادى حقير لا يتفق مع مصلحة الدعوة ، ذلك كالحصول على وظيفة فى مؤسسة وجيهة مثلا .

و قد اشتكى بعض العاملين المخلصين فى مجال الدعوة الاسلامية هذا الوضع الشائن داخل الصفوف ، و رأى أن عدد العناصر الذى يسبب هذا الوضع لايزال فى تزايد ، و لا تنقصه ثقة المسئولين عن العمل ، و لا عطف الجماهير المسلمة ،

ذاك أن الوضع الصحيح لايطلع عليه إلا قليل ممن ليس لديهم أى سلطة أو خيار فى نظام تلك الجمعية أو المؤسسة أو المركز ، و لا يملكون فيه حلا ولاعقداً .

هذا بالنسبة إلى الاستغلال المادى ، أما من وجهة التخلق بالأخلاق الاسلامية والتحلى بالفضائل فان هذه العناصر تكون أبعد منها بقدر ما يمكن أن يتصوره الانسان ، و التجارب العملية والتعايش معهم فى أجواء البيوت الداخلية و فى معاملاتهم الشخصية توفر دلائل ناصعة على تجردهم من الخلق العام فضلا عن المكارم التى بعث الرسول ﷺ لاتمامها وتعميمها بين الخلق كله .

ولعل هذه العناصر دخلت إلى صفوف الدعاة و تمكنت من ثقتهم على غفلة من الناس ، و هى لا تقصد من وراء ذلك إلا الاستغلال ما استطاعت إليه سبيلا ، و بالتالى توجيه ضربات خفية على أساس العمل الدينى الخالص الذى يتبناه الدعاة ، وتشويه سمعة العاملين فى الجماعات الدينيـــة و فى المراكز الاسلامية ، و قد تكون مدسوســـة تعمل على حساب الحركات الهدامة ، و المؤسسات السرية التى ترصـــد طاقاتها و تدبر مؤامراتها ، لهدم الاسلام ، وتخطط دائماً لتمزيق المسلمين فحسب .

إن القائمين على العمل الدعوى فى كل مكان لمسئولون عن إجراء تفتيش عادل عن مثل هذه العناصر التى تستغل الدعوة الاسلامية على مستويات مختلفة ، وتشوه سمعة الدعاة والعلماء وتخرج هيبة الدعوة من قلوب المسلمين ، بتطويع الاسلام لحاجاتها الشخصية ، واستغلال فرص الدعوة لخدمة مصالحها الخاصة التى لاتمت إلى الاسلام بصلة ما .

إنهم مسئولون عن تطهير صفوفهم من كل عنصر فاسد ، و عن بتر العضو المريض من جسم الجماعات الدينية تفادياً من سريان المرض إلى جميع أجزائه ، و حرصاً على الابقاء على صحة الجسم و السهر على سلامته .

فان وجود عناصر الاستغلال فى ساحـــة العمل للاسلام و الدعوة إلى الله واقع لا يكذب ، و إن تصفية هـــذه العناصر من صف الدعاة و العاملين واجب يتحتم على كل من له صلة بالدعوة الاسلامية ، و من له اهتمام بأمر الدين ؟ .

سعيـد الأعظمى

- غاية التعليم و التربيـــــة فى العـــالم الاسلامى و منـــاهجـــه
- محاولة جـــــديدة فى التشكيك فى صحة ما اتفق عليـــه الشيخان

غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و منهاجه

— ٢ —

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

مصير العلم مرتبط بالقلم :

أرى أن من واجبات الجامعات الاسلامية أن تحاول أن لا تقع فجوة بين العلم و الدين كما وقعت بينهما فى العالم المسيحى ، أو فى دنيا الديانات التى لم تكن فيها رابطة بين العلم والعقل ، بل إن نشوءها كان مديناً للجهل ، فقد تولدت وازدهرت بمعزل عن العلم و العقل بل على غفلة من العلم و العقل ، ففيها مجال لنشوء الفجوة و الجفوة بين العلم و الدين و بين العلم و العقل ، و لكن لا يتصور ذلك فى الدين الذى أعلن دعوته منذ اليوم الأول بل منذ اللحظة الأولى بما يلى :

(اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم » (١) .

الدين الذى لم ينس هذا القلم المتواضع حتى فى الحلقة الأولى من وحيه ، ولم ينسه لدى هبوب النفحة الأولى من النفحات الربانية ، لم ينس أن يؤكد أن مصير العلم مرتبط بالقلم ، لم ينسه فى خلوة غار حراء التى ارتادها نبى أمى يتلقى الرسالة الالهية لهداية البشرية ، ذلك النبى الذى لا عهد له بالقلم ، ولم يعرف من ذى قبل كيف يحرك القلم ، و لم يتعلم فن الكتابة و القراءة بتاتاً ، شئ لن يجد الانسان نظيره فى تاريخ العالم البشرى ، ولا يمكنه أن يتصور هذا المكان العالى ، لا يمكنه أن يتصور أن ينزل وحى على نبى أمى بين أمة أمية فى منطقة لم تعرف القراءة

(١) سورة العلق ـ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ .

و الكتابة معرفة تذكر ، فضلا عن المدارس و المعاهد و دور التعليم و الجامعات ، فى الوقت الذى لأول مرة تم فيه اتصال السماء بالأرض بعد مدة قرون ، ولا يبتدىء هذا الوحى بكلمة « أعبد » ولا بكلمة « صل » أو ما إليهما من الكلمات المتجانسة ، و إنما يبتدىء بكلمة « اقرأ » يخاطب المنزل عليه بالقراءة و لا عهد له بها ، لكى يقرر و يؤكد له أن الأمة التى يكلف بهدايتها و تربيتها و تعليمها هى أمة ليست ولوعاً بالعلم فحسب ، بل ستكون معلمة العالم ، و مولعة بنشره و تصعيده و ترقيته ، و العهد الذى يقوم فيه بوظيفة الهداية و التبليغ و التربية و التعليم ، إنه ليس عهد الأمية و الوحشة و الجهل ، و عهد الظلمة و الهدم و التخريب ، و إنما هو عهد العلم و العقل و التفكير ، و عهد النظر و الحكمة ، و عهد البناء و التعمير ، و عهد حب الانسانية ، و عهد الرقى و التقدم .

كانت التجربة الفريدة الطريفة ـ لو صح التعبير ـ فى تاريخ الديانات وتاريخ العالم أن الوحى الأول نزل على النبى الأمى بين الأمة الأمية كانت بدايته بكلمة « اقرأ » ، « اقرأ باسم ربك الذى خلق » كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب ، فحاد عن الصراط المستقيم ، فجاء الوحى الالهى الذى نزل على النبى الأمى يصله بافقه ، و يربطه بالرب تبارك و تعالى ، حيث جاء ذكر العلم مقروناً باسم الرب ، لكى يعلم البشر ضرورة بداية العلم و التعليم و القراءة باسم الرب ، الذى وهب هذه النعمة الغالية و من بها على عباده و هو الذى خلقه ، فلا يتقدم تقدماً متزناً إلا تحت توجيهه و هدايته ، إن الآية التى تتحدث عنها ! إنها ذات ثورة و انقلاب عظيم فى التفكير و العقلية و النفسية ، قرعت الآذان البشرية فى بداية الاسلام ، و كان ذلك شيئاً لم يخطر من أحد على بال ولم يتصوره فى حال من الأحوال ، لو سئل الأدباء و الحكماء و الفلاسفة و العلماء فى العالم البشرى عن

افتتاحية هذا الوحى الذى سينزل على النبى الأمى ، لم يكن أحد منهم - يعرف طبيعة تلك الأمة التى نزل بينها الوحى ، و يعرف عقليته - ليقول إنه سيبتدىء بكلمة « اقرأ » كان لهم أن يتنبأوا بكل شئ ولكن لم يكن لهم ليتكهنوا أن الوحى سيكون استهلاله بكلمة « اقرأ » ثم إنه لم يبتدىء بكلمة « العلم » و إنما بالقراءة، والقراءة تتضمن الكتابة والقلم والورق، بينما العلم قد يكون وهبياً لا يحتاج إلى القلم والقراءة والكتابة والورق، مما دل على أن هذا العلم سيكون وليد القلم، وليد الورق، وليد الكتابة، وليد المكتبات والكتب والمؤلفات والصحف، وليد التجارب، وليد الذكاء (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

هذا الدين لن يفارق العلم :

مما يجب الانتباه له أن الوحى الالهى أكد أن طبيعة هذا الدين أنه لن يفارق العلم لأن الرسالة الأولى التى وجهته إلى البشرية تأمر بالقراءة ، فكيف يسوغ أن يبقى المسلمون جاهلين لا يعرفون القراءة، المسلم الذى قطع صلته عن العلم ليس بمسلم حقيق ، و لا يجوز له أن يدعى أنه ممثل صحيح للاسلام ، ثم يجب الانتباه لهذه الدعوة الثورية (اقرأ باسم ربك الذى خلق) كيف ينبه الوحى الالهى على أن تكون هذه الرحلة ـ رحلة العلم - فى هداية هاد كامل و ليس هو إلا الله العليم الكريم ، لأن الرحلة طويلة شاقة معقدة خطرة، و الطريق وعرة ذات منعطفات تعترضها بحار و أنهار ذات عمق سحيق ، و تتخللها غابات كثيفة فيها سباع مخوفة ، و حيات و عقارب سامة ، و كل حيوان ضار .

لكنه ليس مجرد علم ، ليس عبارة عن معرفة بالدمى و اللعب، و ليس عباره عن التسلية ، و ليس مما يحرش فيما بين الانسان و الانسان و الأمة و الأمـة ، و ليس عبارة عن معرفة طرق ملء البطون ، و عبارة عن تحريك اللسان ولوك

الكلمات بل هو (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ و ربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) .

أفهل رفع من قيمة القلم أحـــد فى التاريخ البشرى أكثر من ذلك ، حيث يذكر بهذه الأهمية ، و بهذا التمهيد الكريم ، فى خلوة غار حراء ، و فى الوحى الأول الذى ينزل من السماء ، ذلك الذى ربما لم يكن بالامكان تواجده فى بيت من بيوت مكة ، لا أكاد أدرى لئن رحتم تبحثون عنه رجعتم بفـــائدة أم لا ، ربما وجدتموه فى بيت ورقة بن نوفل ، أو أى رجل تعلم الكتابة فى ديار العجم ، القلم الذى ربما لا تجدون ذكره فى دواوين الشعراء العرب الجاهليين المعاصرين مهما قلبتم الصفحات ، و أعدتم القراءة .

عصارة كل علم و ثقافـــة
« علم الانسان ما لم يعلم » :

ثم دل على حقيقة خالدة ذات انقلاب عظيم ، و هى أن العلم لا حـــد له و لا نهاية ، فقال : (علم الانسان ما لم يعلم) ، وليس العلم الحديث (Scince) إلا انعكاساً لـ (علم الانسان ما لم يعلم) و كذلك التكنولوجيا ليس إلا مظهراً لـ (علم الانسان ما لم يعلم) ، و ينزل الانسان على القمر ، ولا يعنى ذلك إلا (علم الانسان ما لم يعلم) ، ويغزو الفضاء ويقلص سعة العالم ، و يطوى أرجاءه طيا ، و يسخر أشعة الشمس — كما يقول الدكتور محمد إقبال — و يشق طريقه بين النجوم و الكواكب و يحلم بالنزول بين السماكين ، إن كل ذلك ليس إلا عبارة عن (علم الانسان ما لم يعلم) .

على كل فان الأمة التى كان أساسها الأول على القراءة ، و خاطبها الوحى الالهى الأول بذكر القلم ، إن تلك الأمة لن تفارق العلم و المعرفة لأنها تلازمه ملازمة الظل أو ملازمة الغريم .

ثم يجب أن يكون فى الاعتبار لدى إقامة كل مدرسة أو جامعـــة أو اتخاذ
نهج تعليمى لتعليم هذه الأمة ، أن يكون الهـــدف من كل ذلك ترسيخ الايمان
العقائد و الحقائق التى آمنت بها من ذى قبل ، وأن يتأتى هذا الترسيخ عن طريق
لقلب والعقل معاً ، ولا يكتفى اطمئنان القلب أو العقل فقط ، لأنه حينئذ سيحدث
صراع بينهما فى الحياة الفردية للانسان ، وسيتدرج هذا الصراع إلى الحياة الجماعية .
و على ذلك فيتخرج جيل يتصارع مع مجتمعه ، و يتصارع مع دينه و عقيدته ،
وتضيع كل القوى فى إزالة «الأنقاض» ، فقد رأى بعض قادة بعض الأمم الاسلامية
أنه يجب أولا إزالة الأنقاض ، وركزوا كل عنايتهم على إزالة الأنقاض من العقائد
والحقائق ، واستنفدت هذه العملية كل قواهم ، واستغرقت فرصة أعمارهم ، ولم يتمكنوا
من عرض دعوتهم ، و نشر رسالتهم ، و زرع أفكارهم التى كانوا بصدد نشرها .

فاذا كان هناك منهاج تعليمى يعمق إيمان الأمة بالعقائد و الحقـائق ، التى
تحتضنها فهو منهاج موفق ، و لا سيما بالنسبـــة إلى الانسان المسلم الذى جاء يحمل
رسالة و يحتضن دعوة ، فيجب أن يكون منهاجنـا التعليمى و الثقافى بحيث يرسخ
الايمان فى قلب المثقف ، و قلب الدارس ، و قلب الطالب الجـامعى ، و قلب
الفيلسوف وقلب المفكر ، ويجعلهم جميعا توفر لهم عقولهم دلائل لذلك ، ويستخدمون
الثروة العلمية القديمة والجديدة المنتشرة على ظهر البسيطة فى تحقيق هذا الغرض الأكبر
لتقرير هذه الدعوى الكريمة .. أيها السادة ! إذا استطاعت جامعة أن تصنع ذلك
فهى الجامعة التى تستحق أن تسمى جامعة ، وأعتقد أن ذلك خير تعريف بجامعة ما .

العناية بتربية السيرة :

و الوظيفة الثانية للجامعات هى تربية السلوك و السيرة ، فلتوجد الجامعـات
سيرة يربأ صاحبها عن أن يبيع ضميره بحفنة من شعيرة - كما يقول الدكتور محمد إقبال -

إن الفلسفات و النظم المضادة للاسلام ترى أن إنسان اليوم يمكن شراؤه فى السوق بقيمـــة أو بأخرى ، فان لم يرض بهذه الكمية من الثمن فسيرضى بكمية أكثر منها . . . وسر النجاح الحقيقى لجامعـــة ما أن تربى السيرة فتخرج رجالا من المثقفين لا يرضون أن يبيعوا ضمائرهم بأى قيمة مهما كانت رفيعة غالية ، ولا تستطيع فلسفة هادمة أو دعوة منحرفة ، أو حكومـــة ذات دهاء ، أن تشتريهم بأى ثمن غال ، ويقولون بملء أفواههم بلسان المقال أو بلسان الحال: « نرى العنقاء أكبر أن تصادا »
و يقول بلسان الدكتور محمد إقبال :

« إن حرية القلب هى سيادة وسلطان ، أما العناية الزائدة بالبطن فهى مدعاة للموت ، و الخيار بيديك ، فاما هذا و إما ذاك » ، « يا أيها الطائر اللاهوتى : (يخاطب الانسان المسلم) اعلم أن الموت خير من القوت الذى يقصر جناحك و يمنعك من التحليق » .

و المسئوليـــة الثانية للجامعة الاسلامية أن تخرج شباباً يقفون حياتهم لخدمة الأمة ، و يستعدون للتضحية و الفـــداء ، ينعمون بالجوع بما لا ينعمون بالشبع و الرى ، و التنعم و التمتع بالحياة ، و يطيبون نفساً بالحرمان ، ما لا يطيبون بالوجدان ، و يصرفون أوقاتهم و قواهم الخيرة ، و مؤهلاتهم الفكرية و العلمية ، و الرصيد العلمى و الفكرى الذى زودتهم به جامعاتهم فى رفع رأس الأمة عالياً ، و فى إعلاء كلمـــة الله ، و تعزيز البلد ، و انقاذ الوطن ، و فى صنع أمة ذات رسالة . و بناء بلد مسموع الكلمة مرهوب الجانب .

فهذان أمران لابد منهما ، الأمر الأول توفر الجامعات الاسلامية غذاءاً يشبع العقل و القلب معاً ، وضوءاً ينير لهما الطريق فى وقت واحد ، حتى يتجها جنبا إلى جنب و بتعاون متبادل (Co-operation) إلى تعزيز الايمان بالحقائق و العقائد التى آمنت بها الأمة .

و لابد أن يكون نصب أعينكم هو تخريج الرجال ذوى القدرات العالية ، و أريد أن أصارحكم بهذه المناسبة أن قيمة بلد من البلاد ليست فى كثرة جامعاتها و معاهدها ، إنها نظرية بالية قد تقادم عهدها ، و أصبح أصحابها يعرفون بالرجعية و قصر النظر ، بل القيمة فى كثرة أبنائه الذين يقفون حياتهم للبحث و الدراسة ، و نشر العلم و الثقافة ، و تثقيف الأمة و الشعب ، و رفع معنويات أمتهم ، وصنعها أمة ذات قلب وضمير أبى ، و فى كثرة الشباب الذين ينقطعون إلى خدمة الدين و العلم و الأمة و البلد ، ضاربين الشهرة الكاذبة ، ورقيهم الشخصى عرض الحائط ، و ذلك هو المقياس الحقيق الأصيل ، الذى يقاس به البلد و الأمة ، وليكن هذا هو المقياس الوحيد فى الشرق و الغرب ، فلا نقيم لبلد قيمة إلا نظراً إلى عدد الشباب الذين يتسامون عن لذائذ الحياة الرخيصة ، و المناصب و الجاه ، و التقدم الشخصى ، و يتوفرون على العمل الجاد البناء ، وعلى العمل العلمى الايجابى النافع ، على رفع مستوى الأمة عقلياً وفكرياً ، على التوصل إلى نظرية علمية ذات أهمية ، على بحث علمى مضن يتطلب الصبر والتحمل على تعزيز البلاد من جميع النواحى .

تلك هى أهداف حقيقية يجب أن نصبو إليها ، ونضعها فى اعتبارنا ، و نجعلها نصب أعيننا ، أما بجرد التعليم و التثقيف ، و التأهيل لشغل الوظائف و المناصب ، فليس مما يثنى به على جامعة ، و ليس أبداً مما يجلب الحمد ، و يستخرج الاعجاب ، و إنى على يقين كامل أن رئيس هذه الجامعة الاسلاميـــة و المشرفين عليها سوف لا يرضون بهذا الموقف ، و لا يقبلون أن يكون هدف الجامعة مجرد تخريج شباب مثقفين فى كية كبيرة ، يشغلون الوظائف الشاغرة فى الادارات و المصالح والقطاعات المختلفة و المصانع ، أو الدكاكين والمحال التجارية ، و يموتون وهم أحياء ، يفقدون شخصيتهم العلمية .

الغرض الأصيـــل من العـــلم
هو التوصل إلى الايمان واليقين:

يجب أن يكون هدف الجامعة ـ التى قامت فى هذا العهد العصيب ، وفى هذه البلاد المتأزمة ـ أن تعمل على إزالة الاضطراب و القلق الذى يسود جميع الدول الاسلامية منذ مائة عام تقريباً . . . تفككت عرى عقائدنا منذ بدأ الغزو الفكرى و الحضارى الغربى ، وحدث صراع نفسى وفكرى استنفدت مقاومته معظم القوى العقلية و الفكرية و العلمية لدى الدعاة . . . إن ذلك لوضع غير طبيعى يجب أن يزول فى أقرب وقت ، لكى تتوجه هذه القوى و القدرات إلى الأهداف البناءة و إلى إنقاذ البلد و دفع عجلاته إلى الامام .

الحقيقـــة أن الأدب و الشعر ، و الفنون الجميلة ، و الحكمة و الفلسفة ، و التأليف و التصنيف ، ليس من وراء كل ذلك إلا غرض واحد ، و هو أن تتولد فى صاحبه حياة جديدة ، و إيمان جديد ، و بالتالى فى الأمة التى هو عضو فيها و المجتمع الذى هو جزء منه ،

و أود أن أنشد لكم أبياتاً قالها الدكتور شاعر الاسلام محمد إقبال و هو يخاطب الأديب و الشاعر ، لأنه ينطبق على الوضع الذى نعيشه جميعاً .

« يا أهل الذوق و النظر العميق ! أنعم و أكرم بنظركم ، ولكن أى قيمة للنظر الذى لا يدرك الحقيقة ؟ لا خير فى نشيد شاعر و لا فى صوت مغن ، إذا لم يفيضا على المجتمع الحياة و الحماس ، لا بارك الله فى نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الفتور و الخمول و الذوى و الذبول » .

إن الأوضاع التى نمر بها نحتاج فيها إلى أن نأتى بأعجوبة ، و تلك الأعجوبة سوف لن تتحقق إلا عن طريق الرسالة الاسلامية ، لأنها وحدها التى تجعل حاملها

يصنع المعجزات و يأتى بخوارق العادات، ويبطل المقاييس، ويحطم المعايير التقليدية، ويسخر من كل الموازين التى آمن بها العالم الجاهلى، ويقول الدكتور محمد إقبال :

« أنا لا أعارض التذوق بالجمال و الشعور به ، فذلك أمر طبيعى و لكن أى فائدة للمجتمع من علم لم يكن تأثيره فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر و البحر ، و ذلك أن الأمم لا يرتفع شأنها و مكانها فى خريطة العالم حتى تقدر على صنع المعجزات » .

إن باكستان اليوم تحتاج إلى هذه القدرة على صنع الخوارق ، والتأثير فى المجتمع كتأثير عصا موسى فى الحجر أو البحر ، لان باكستان تعود عليها مسئولية بعث الدول الاسلامية كلها بعثاً جديداً ، إن عليها أن تنفخ روحاً جديدة فى البلاد الاسلامية ، و توجد لديها اعتماداً جديداً ، و إيماناً جديداً ، و نشاطاً جديداً ، و انتعاشاً جديداً ، و طموحاً جديداً ، و قلباً خفاقاً يتحرق على بؤس الانسانية و شقائها ، و شجاعة جديدة تبعث على المغامرة و الاقتحام ، و جرأة خلقية تستطيع بها أن تنفخ الحياة فى هذه الأمم و الأقوام المشرفة على الهلاك ، التى تزل أقدامها ، و ترتعش أعصابها ، و تخفق قلوبها و تتعثر عقولها .

و من هنالك فان مسئوليتكم مزدوجة ، إن مسلمى شبه القارة الهندية يبذون مسلمى العالم الاسلامى كله بالنسبة إلى عددهم ، فتقدموا إلى الأمام للقيادة الفكرية للعالم الاسلامى ، و اعملوا على إيجاد الثقة بالاسلام ، و أكدوا عملياً أن الاسلام يتمشى مع عهد العلم و التكنولوجيا ، و باكستان اليوم « معمل » سيقرر أن النظريات الاسلامية تستطيع بكل جدارة أن تساير الزمان .

وأخيراً أشكركم وأشكر رئيس الجامعة على استماعكم لحديثى فى جو من الهدوء والجد .

و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .

محاولة جديدة في التشكيك في صحة ما اتفق عليه الشيخان

الأستاذ عبد السلام عبد القادر منديلي

لقد اطلعت على هذه المحاولة فى صحيفة « أخبار اليوم » المصرية عدد ٢٠١٣ و تاريخ ١٥/ شعبان الجارى، وبالتحديد فى العمود الأول من الصفحة العاشرة، حيث تقول الصحيفة: إن الدكتور أحمد شلبى رئيس قسم التاريخ الاسلامى بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة يواصل انتقاده لبعض الروايات التى تحيط بالاسراء و المعراج.

و لقـد انتقد الدكتور فى الأسبوع الماضى ـ كما تقول الصحيفة ـ الرواية المتعلقة بركوب الرسول ﷺ البراق ـ و انتقد أيضاً الرواية التى أثبتت أن الرسول ﷺ أم الأنبيا فى صلاتهم بالمسجد الأقصى ليلة المعراج، ثم واصل الدكتور انتقاده الذى يحاول به التشكيك فى صحة ما اتفق عليه الشيخان: البخارى ومسلم فى صحيحيهما من قصة الاسراء و المعراج التى روياها عن الصحابى الجليل مالك بن صعصعة رضى الله عنه، و اعترض على صحة ما رواه البخارى ومسلم عن مالك بن صعصعة بأن رسول الله ﷺ قال: ثم فرض على الصلاة خمسين صلاة كل يوم فرجعت فمررت على موسى، فقال ـ أى موسى ـ : بماذا أمرت؟ فقلت أمرت بخمسين صلاة كل يوم، قال ـ أى موسى ـ إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم و إنى و الله قد جربت الناس قبلك، و عالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فارجع إلى ربك فسله

التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى ، فقال مثله ، إلى آخر الحديث الذى يقول فيه الرسول بأنه عمل بما أشار عليه موسى و عاد إلى ربه لطلب التخفيف عن عدد الصلوات حتى أصبحت خمس صلوات كل يوم بدلا من خمسين صلاة .
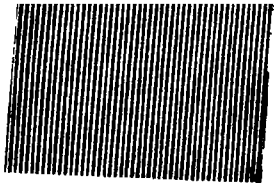
و يقول الدكتور أحمد شلبى فى اعتراضه ، أو بالأحرى فى محاولته نشر بذور الشك بين العامة فى صحة أحاديث الشيخين و قطعية نصوصها ثبوتاً و دلالة ، يقول الدكتور (هدانا الله و إياه إلى طريق الصواب) : و يستجيب الرسول الكريم ويعود إلى ربه أكثر من مرة بناء على توصية موسى حتى تقرر الصلوات بخمسة فروض ، ثم يقول : إنما تصور الله سبحانه وتعالى فى مكان محدد يمشى إليه رسولنا الكريم ثم يعود إلى موسى ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، فسبحانه عن أن يكون فى مكان محدد . . ثم يقول : إنها ترمى إلى وضع موسى فى موضع المعلم لمحمد خاتم الأنبياء و أفضلهم و إمامهم و معلم البشرية ، و تضع هذه الرواية موسى و كأنه يعرف أمة محمد أكثر من محمد ﷺ . . . هكذا :

ثم يستمر الدكتور فى انتقاده الهدام لحديث المعراج حيث يقول : تقول الرواية - يعنى رواية الاسراء و المعراج - إن الرسول عليه الصلاة و السلام صعد مع جبريل إلى السماء و وقف جبريل أمام كل سماء فيدق الباب ، فتسأل الملائكة : من الذى يستفتح الباب ؟ فأجاب : أنا جبريل ، و يأتيه سؤال آخر : و من معك ؟ فيجب : محمد ، فيسأل مرة ثالثة : و هل أذن له ؟ فيجيب : نعم ، وبعد سرد حديث المعراج على هذا الأسلوب يقول الدكتور معلقاً : هكذا يقف عند كل سماء ، ثم يبدأ الدكتور بعد ذلك محاولا إيهام القارىء بأن رواية المعراج هذه لاتتناسق مع منطقه هو ، فيقول : إنها تصور الحادث الجليل (المعراج) تصويراً
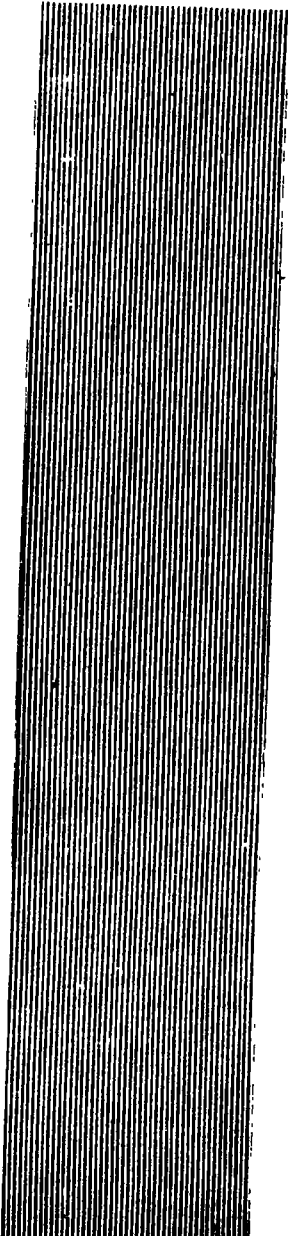
مادياً محضا ، و كأن السماء لها أبواب صلدة لا بد من دقها ، ثم كيف لا تعرف الملائكة جبريل و هو أشهرهم يروح و يغدو بالوحى منذ مطلع البشرية ، و كيف لا تعرف مقدماً أن محمداً سيكون ضيف السماء . . ؟ هكذا يقول فلاحظوه جيداً ، ثم يتعالم الدكتور و يتعالى على حديث الرسول ، فتراه يقول فى شئ يشبه عدم الاقتناع بمضمون حديث المعراج : إن أى ضيف أجنبى عندما ينزل فى ضيافة دولة أخرى مثلا تقدم له كل التسهيلات مقدماً و تفتح له كل الأبواب ولا يسأله أحد من أنت ، فما بالك بضيف الله . . . ، انتهى قوله .

و إنما أقول هنا ، بأن مثل هذا الاعتراض المشكك فى صحة ما نسب إلى سيد البشر ، وانتقاد نصوص الأحاديث المتفق عليها لهو سلاح جديد سوف يستغله المنادون و المخططون فى نبذ السنة و إنكار الحديث الصحيح كمصدر ثان للشريعـــة بعد كتاب الله ، فهم لا يزالون يتحرون الفرص ليعيدوا الكرة و يحيكوا الدسائس لهدم الدين و زعزعة العقيدة الاسلامية .

و إنى أضع هذا الأمر بين يدى علمائنا الأفاضل راجياً تفضلهم بالرد على ما جاء فى انتقادات الدكتور على رواية الاسراء والمعراج ، فلو لم تكن هذه الرواية منصوصة فى الصحيحين ، لهان الأمر ، و لكن هذه الانتقادات تمس أصح الصحيح وأعلاه الذى اتفق على تخريجه البخارى ومسلم ، لذا أرى أنه لا يحسن السكوت عليها ، ثم إن الانتقادات هذه تتناول حديثاً كريماً اعتمد المجتهدون عليه فى فرضية الصلوات الخمس ، و ثبوت معراجه عليه السلام إلى السماء ، و هو لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، جعلنا الله من المتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله العاضين عليهما بالنواجذ ، لنتجنب الضلالة و نستمر فى طريق الهدى .

الدعوة الإسلامية

- الاحـــداد على الملوك و الزعماء و حكم الشريعـــة فيـــه
- التكافل الاجتماعى فى الاســـلام

الاحداد على الملوك و الزعماء
و حكم الشريعـــة فيـــــه

سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز
الرئيس العام لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد
(الرياض)

الحمد لله و الصلاة والسلام على رسول الله و على آله وأصحابه و من اهتدى بهداه ، أما بعد :— فقد جرت عادة الكثير من الدول الاسلامية فى هذا العصر بالأمر بالاحداد على من يموت من الملوك والزعماء لمدة ثلاثة أيام أو أقل أو أكثر مع تعطيل الدوائر الحكومية و تنكيس الأعلام .

ولا شك أن هذا العمل مخالف للشريعة المحمدية وفيه تشبه بأعداء الاسلام ، و قد جاءت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ تنهى عن الاحداد ، و تحذر منه إلا فى حق الزوجة فانها تحد على زوجها أربعة أشهر و عشراً كما جاءت الرخصة عنه ﷺ للمرأة خاصة أن تحد على قريبها ثلاثة أيام فأقل ،أما ما سوى ذلك من الاحـــداد فهو ممنوع شرعـاً و ليس فى الشريعة الكاملة ما يجيزه على ملك أو زعيم أو غيرهما .

و قد مات فى حياة النبى ﷺ ابنه إبراهيم و بناته الثلاث و أعيان آخرون فلم يحد عليهم عليه الصلاة والسلام ، وقتل فى زمانه أمراء جيش مؤته زيد بن حارثة و جعفر بن أبى طالب و عبد الله بن رواحة رضى الله عنهم فلم يحد عليهم ، ثم توفى النبى ﷺ وهو أشرف الخلق و أفضل الأنبياء و سيد ولد آدم والمصيبة بموته أعظم المصايب و لم يحد عليه الصحابة رضى الله عنهم ، ثم مات أبوبكر الصـديق

رضى الله عنه و هو أفضل الصحابة و أشرف الخلق بعد الأنبياء فلم يحدوا عليه ، ثم قتل عمر وعثمان و على رضى الله عنهم وهم أفضل الخلق بعد الأنبياء و بعد أبى بكر الصديق فلم يحدوا عليهم ، و هكذا مات الصحابة جميعاً فلم يحد عليهم التابعون .

وهكذا مات أئمة الاسلام و أئمة الهدى من علماء التابعين و من بعدهم كسعيد ابن المسيب و على بن الحسين زين العابدين و ابنه محمد بن على وعمر بن عبد العزيز و الزهرى و الامام أبى حنيفة و صاحبيه و الامام مالك بن أنس و الأوزاعى و الثورى و الامام الشافعى و الامام أحمد بن حنبل و إسحاق بن راهويه و غيرهم من أئمة العلم و الهدى فلم يحد عليهم المسلمون ، ولو كان خيراً لكان السلف الصالح إليه أسبق والخير كله فى اتباعهم و الشر كله فى مخالفتهم .

و قد دلت سنة رسول الله ﷺ التى أسلفنا ذكرها على أن ما فعله سلفنا الصالح من ترك الاحداد على غير الأزواج هو الحق و الصوب و أن ما يفعله الناس اليوم من الاحداد على الملوك و الزعماء أمر مخالف للشريعة المطهرة مع ما يترتب عليه من الأضرار الكثيرة و تعطيل المصالح و التشبه بأعداء الاسلام .

و بذلك يعلم أن الواجب على قادة المسلمين و أعيانهم ترك هذا الاحداد و السير على نهج سلفنا الصالح من الصحابة و من سلك سبيلهم .

و الواجب على أهل العلم تنبيه الناس على ذلك و إعلامهم به أداءاً لواجب النصيحة وتعاوناً على البر و التقوى و لما أوجب الله سبحانه من النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ﷺ و لأئمة المسلمين و عامتهم .

رأيت تحرير هذه الكلمة الموجزة ، وأسأل الله عزوجل أن يوفق قادة المسلمين و عامتهم لكل ما فيه رضاه و التمسك بشريعته والحذر مما خالفهـا و أن يصلح قلوبنا و أعمالنا جميعاً إنه سميع الدعاء قريب الاجابة . وصلى الله وسلم على نبينا محمد و آله و أصحابه أجمعين ، ، ،

التكافل الاجتماعى فى الاسلام

الدكتور نور محمد غفارى
(الحلقة الثانية) الأستاذ المشارك (بمجمع البحوث الاسلامية)
(الجامعة الاسلامية) باسلام آباد ـ باكستان

مجال نظام الكفالة الاجتماعية فى الاسلام :

ما هو مدى نظام الكفالة الاجتماعية فى الاسلام ؟ نجيب عن هذا السوال تحت العناوين التاليـــة :

ألف— لمن هذه الكفالة ؟

ب— الكفالة لأى شئ ؟

ج— ما هو الحد الأقصى للكفالة الاجتماعية فى الاسلام ؟

نجيب عن هذه الأسئلة تباعاً :

ألف ـ لمن هذه الكفالة ؟ :

ليس هذا التكافل الاجتماعى فى القطاع الحكومى للسلمين فحسب ، بل إنه لكل مواطن سواء كان مسلماً أو كافراً أعنى ذمياً ، و هذا واضح عن نظام الكفـــالة الذى كان مروجاً فى عهد الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم و عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وفى سائر الزمان و الأقطار تحت رعاية الدولة الاسلامية حتى استولت عليها الاستعمار الشيوعى أو الرأسمالى .

و كان وصى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمين بيت المال لانجاز حاجات الفقراء والمساكين و العجزى ، بصرف النظر عن عقيدتهم وطبقتهم ، إنه رضى الله

عنه مر بمكان فرأى هنالك شيخاً ضريراً سائلا على عتبة باب وسأله من هو ؟ فأجاب « إنى يهودى » فقال عمر رضى الله عنه « لماذا تسأل الناس » ؟ قال : « يجبرنى دفع الجزية وضرورة المعاش و ضعف الشيخوخة على سؤال الناس » فلما سمع عمر رضى الله عنه هذا أخذه بيده وجاء به إلى بيته وأعطاه ماكان فى البيت ، ثم أمر أمين بيت المال « انظر هذا و ضرباءه فوالله ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم ، « إنما الصدقات للفقراء و المساكين » و الفقراء، هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب ، و وضع عنه الجزية وعن ضربائه (١) .

و هكذا أمر للنصارى الذين كانوا مجذومين و رآهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه خلال جولته للشام ، ووضع عنهم الجزية و أعطاهم الوظيفة من بيت مال المسلمين (٢) .

فلما فتح خالد بن الوليد رضى الله عنه الحيرة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، كتب لأهل الحيرة معاهدة صرح فيها « و جعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل وأصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر و صار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين هو و عياله ما أقام بدار هجرة و دارالسلام (٣) .

هذه الاقتباسات تشهد بأن النظام الاسلامى للتكافل الاجتماعى يحقق إعالة مواطن الدولة الاسلامية سواء كان مسلماً أم كافراً ، بل الاسلام ـ دين الشفقة والرحمة - يخطو خطوة إلى الامام حتى يصل إلى الحيوانات و يتضمنها تحت لواء

(١) بلاذرى رحمه الله ، فتوح البلدان ، ص ١٣٥ .

(٢) أبو يوسف رحمه الله ، المرجع السابق ص ١٧٢ .

(٣) محمد ابن سعد رحمه الله ، المرجع السابق ص ٣٠٥

الكفالة ، نستمع ماذا قال عمر الفاروق رضى الله عنه « لو مات جمل ضياعاً على شط الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنه (١) .

و قال مرة أخرى : لو ماتت شاة على شط الفرات ضائعة لظننت أن الله سائلى عنها يوم القيامة (٢) و كان يقول رضى الله عنه لو تركت عنزاً جرباء إلى جانب ساقية لم تدهن لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة (٣) .

وفى هذا الصدد قد أصدرت علماء الاسلام فتوى بأن إعالة الحيوان إجبارية على صاحبه و من أغفل عنـــه فهو خاطئ و مجرم فى نظر القـــانون الاسلامى المــدنى (٤) .

ب ـ الكفالة لأى شئ ؟ :

إن النظام الاسلامى للكفالة الاجتماعية لايشتمل على إنجاز ضروريات الانسان ـ أى طعاماً فى اليوم و الغطاء الملائم و المسكن المناسب و الاسعـــاف الأولى ـ فحسب ، بل هذا النظام الرحيم العادل ، بشرط توافر الموارد المالية ، يتضمن التعليم الضرورى ودفع الديون ونصب الزواج وبناء الخان لأبناء السبل و التسهيلات لخدمة المرضى و الشيوخ و العجزى ، و هكذا دواليك ، والتاريخ الاسلامى هو شاهد ناطق على هذه الحقيقة الواقعة .

يقول ابن الجوزى رحمه الله ، إن عمر بن الخطاب و عثمان بن عفان رضى

(١) ابن الجوزى رحمه الله سيرة عمر رضى الله عنه المرجع السابق ص ١٦١ .

(٢) الغزالى رحمه الله . التبر المسبوك ، القاهرة ، ص ٢٧ .

(٣) كتب الفقه على المذاهب الأربعة ، كتاب النفقات .

(٤) ابن الجوزى رحمـــه الله ، سيرة عمر رضى الله عنه ، المرجع السابق ص ١٦٥ .

الله عنهما كانا يرزقان المؤذنين و الأئمة و المعلمين ، (١) وعن الوضيف بن عطاء رضى الله عنه قال : ثلاثة كانوا بالمدينة المنورة يعلمون الصبيان و كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرزق كل واحد منهم خمسة عشر درهماً كل شهر (٢) ، و قال أبو عبيد قاسم بن سلام رحمه الله تعالى : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كتب إلى بعض عماله عن إعطاء الناس على تعليم القرآن (٣)

واستمرت هذه الطريقة الشاملة حتى جاء عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فنراه يبعث بيزيد بن أبى مالك رحمه الله الدمشقى و حارث بن يمجد الأشعرى رحمه الله يفقهان الناس فى البلد و أجرى عليهما رزقاً ، فأما يزيد فقبل و أما الحارث فأبى (٤) .

و إنه كتب إلى والى حمص : أنظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه و حبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابى ، و إن خير الخير أعجله ، و السلام عليك (٥) .

وهكذا فانه أعلن بجوائز لمن يدل على الخير ، وإنه كتب إلى أهل المواسم : أما بعد : فأيما رجل قدم علينا فى أمر مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصاً أو

---

(١) كنزل العمال ، الجزء الثانى نقلا من مسند ابن أبى شيبة .

(٢) أبو عبيد قاسم بن سلام رحمه الله ، كتاب الأموال ، ص ٢٦١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٢ .

(٤) ابن الجوزى رحمه الله ، سيرة عمر رضى الله عنه ، المرجع السابق ص ٩٥ .

(٥) ابن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص ١٣٧ .

عامـاً من أمر الدين فله ما بين مائة دينار إلى ثلاث مائة بقـدر ما يرى من الحسبـة (١) .

وبنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه خاناً بين مكة المكرمة و المدينة المنورة لأبناء السبيل الذين كانوا لايستطيعون أن يستمروا فى أسفارهم لبعض شأنهم (٢) ، و سار عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، على هذه الطريقة فى عهده الراشد (٣) ، كما أنه كان يؤدى ديونـاً عن الفقراء و المساكين من بيت مال المسلمين (٤) ، و إنه كتب إلى أبى بكر بن حزم رضى الله عنه : إن كل من هالك و عليه دين لم يكن دينه فى خرقه فاقض عنه دينه من بيت مال المسلمين (٥) .

و تويد بعض الآثار أن عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان يساعد من بيت المال - المساكين والفقراء ـ الذين كانوا غير متزوجين بل كانوا صالحوا للزواج ، إنه كتب إلى زيد بن عبـد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله إلى كوفة أن يساعد كهذه الأشخاص (٦) .

وأما التسهيلات لخدمة المرضى والضعفاء والشيوخ ، فالتاريخ الاسلامى الشامخ

---

(١) ابن سعد ، المرجع السابق ص ٢٨٣ و البلاذرى رحمـه الله ، المرجع السابق ص ٥٣ .

(٢) ابن الأثير رحمه الله ، المرجع السابق الجزء السادس ، ص ٢٢ .

(٣) أبو عبيد قاسم بن سلام رحمه الله ، المرجع السابق ، ص ٢٥١ .

(٤) ابن عبد الحكم . المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) أبو عبيد رحمه الله ، المرجع السابق ص ٢٥١ .

(٦) أمام محمد رحمه الله ، « كتاب الآثار » باب فضائل الصحابة رضى الله عنهم ، حديث رقم ٨٥٢ .

يشاهد أن الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين و الأمير معاوية رضى الله عنه وعمر بن عبدالعزيز رحمه الله كانوا يوظفون الخدام لخدمة هؤلاء الأفراد فى المجتمع الاسلامى ، و إن وقعة المجاعة فى عام ١٨هـ برهان واضح ناطق على التسهيلات التى قامت بها الدولة الاسلامية الماضية لخدمة المرضى و الشيوخ و العجزى .

« كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يطعم الناس بالمدينة المنورة و يطوف عليهم و بيده عصاً ، فمر برجل يأكل بشماله ، فقال : يا عبد الله كل بيمينك ، قال : يا عبد الله إنها مشغولة ـ ثلاث مرات ، قال : وما شغلها ؟ قال : أصيبت يوم موتة ، قال فجلس عمر بن الخطاب رضى الله عنه عنده يبكى ، فجعل يقول : من يوضئك من يغسل رأسك و ثيابك ، و من يصنع كذا و كذا ؟ فدعا له بخادم وأمر له براحلة وطعام وما يصلحه وما ينبغى له ، حتى رفع أصحاب محمد ﷺ أصواتهم يدعون الله لعمر رضى الله عنه مما رأوا دقته بالرجل و اهتمامه بأمر المسلمين (١) .

كما عين عمر بن عبد العزيز رحمه الله خداماً لخدمة المرضى والأيتام والضرائر من أهل الشام (٢) .

إن هذه الوقائع الصادقة تبرهن على أن النظام الاسلامى للتكافل الاجتماعى يشتمل على كل ضرورة من ضرورات الانسان .

ج- ما هو الحد الأقصى للكفالة الاجتماعية فى الاسلام ؟ :

فى الواقع أنه ليس له الحد الأدنى أو الأقصى من المقدار أو الكمية بل إنما

(١) ابن الجوزى رحمه الله ، سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، المرجع السابق ص ١٥٤ - ١٥٥ .

(٢) مختار الكونين (مخطوطة) ص ٤٤ .

هو يعتمد على الظروف و الوسائل ، لكن إعالة الاحتياجات الأصلية واجبة على الدولة الاسلامية ، بأنه لابد لأى إنسان من ثلاثة أمور ذكراً كان أو أنثى ، لايمكن حياته و تفرغه لعبادة ربه وبقاء نسله بدونها ، فيجب على الامام (رئيس الدولة) أن يقصد تيسير الأمور الثلاثة لكل فرد من أفراد الدولة ، حسب استعداده وحاله سواء كان غنياً أو فقيراً و ذكراً أو أنثى .

أولها : الطعام و الشراب وهو سبب الحياة التى لا تمكن إلا به ، والثانى : اللباس سواء كان من القطن أو الكتان أو الصوف أو غير ذلك ، الثالث : التزويج لأنه سبب لبقاء النسل (١) .

والامام أبو بكر الكاسانى رحمه الله تعالى يوسع مجال هذه الاحتياجات الأصلية و يقول : « و يجب عليه المـــأكل و المشرب و الملبس و السكنى ، و الرضاع إن كان رضعاً ، لأن وجوبها للكفالة متعلق بهذه الأشياء فان كان للنفق عليه خادم يحتاج إلى خدمته تفرض له أيضا لأن ذلك من جملة الكفالة (٢) .

علاوة على ذلك ، بشرط الامكانيات المالية تجتهد الدولة الاسلامية أن تغير فقراءها أغنياء و محتاجيها مؤسرين ، و قول عمر بن الخطاب رضى الله عنه حجة بارزة فى هذا النطاق ، قال عمر رضى الله عنه : أما والله لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعنهن لا يفتقرن إلى أمير بعدى (٣) .

كما أعلنا مالك بن أنس رضى الله عنه عن زيد بن أسلم رضى الله عنه عن أبيه رضى الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لئن بقيت إلى الحول لألحقن أسفل الناس بأعلاهم (٤) ، و عن أسود بن قيس رضى الله عنه

---

(١) أبو بكر الكاسانى رحمه الله ، بدائع الصنائع ، الجزء الرابع ، ص ٣٨ .

(٢) أبو يوسف رحمه الله ، المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣) ابن سعد رحمه الله ، المرجع السابق ، ج ٣ ، ص ٣٠٢ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ .

قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لئن عشت لأجعلن عطاء سفلة الناس ألفين (١) .

وعمر بن عبد العزيز كان أغنى الناس فى عهده حتى لم يجد فقيراً يقبل صدقات المسلمين ، قال يحى بن سعيد رحمه الله : بعثنى عمر بن عبد العزيز رحمه الله على صدقات أفريقية فاقتضيتها ، و طلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً و لم نجد من يأخذها منى ، قد أغنى الله على يد عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الناس ، فاشتريت بها رقاباً فأعتقتهم و ولاؤهم للمسلمين (٢) .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب رضى الله عنه : إنما ولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله سنتين و نصفاً ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون فى الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم فيما يجده ، فيرجع بماله ، قد أغنى الله على يد عمر بن عبد العزيز رحمه الله الناس (٣) .

رحم الله عمر بن عبد العزيز فانه كان رحيماً عادلا ورعاً تقياً ، الذى أعاد العدالة الاجتماعية الاسلامية إلى الدولة الاسلامية .

وقد كتب السيد على زاده الحنفى رحمه الله فى شرح مسئولية الدولة الاسلامية لتحقيق التكافل الاجتماعى فى المجتمع البشرى : ولا يدع فقيراً فى ولايته إلا أعطاه و لا مديوناً إلا قضى عنه دينه ، ولا ضعيفاً إلا أعانه ، ولا مظلوماً إلا نصره ، و لا ظالماً إلا منعه ، و لا عارياً إلا كساه كسوة (٤) .

---

(١) ابن عبد الحكم ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٢٤ ـ ١٢٥ .
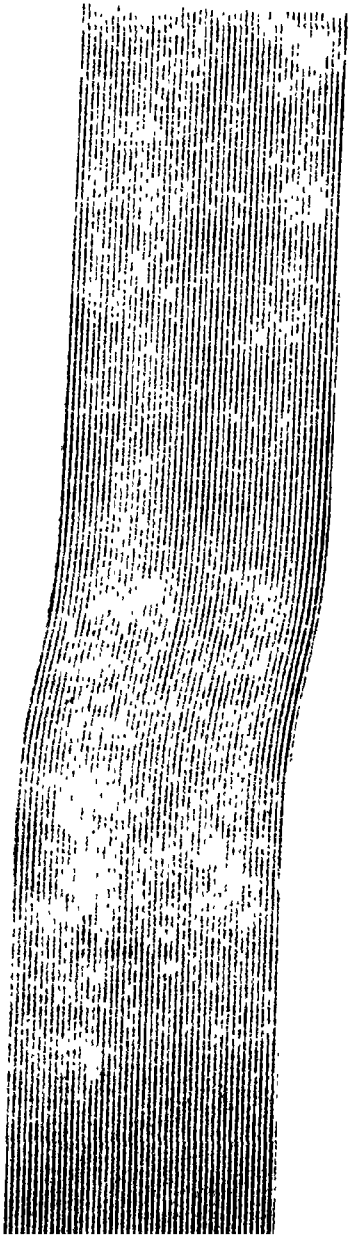
(٣) السيد على زاده الحنفى رحمه الله ، شرح شرعة الاسلام ، نقله مولانا حفظ الرحمن « اسلام كا اقتصادى نظام » ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٤) رواه أبو داؤد و ابن ماجة رحمهما الله ، باب كراهية المسألة .

دراسات وأبحاث

- مقــدمــة المصفى شرح الموطأ
- آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
  فى تاريخ التشريع الاسلامى

مقدمة المصفى شرح الموطأ

—(٢)—

الامام ولى الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
تعريب : محمد أكرم الندوى

الاجتهاد فرض كفاية :

و الذى قطعنا من أن الاجتهاد فرض بالكفاية فى كل عصر فلأن القضايا والحوادث كثيرة لاتعد ولاتحصى ، ومعرفة الأحكام الالهية فيها واجبة ، وما كتب و دون لا يكفى مع ما فيه من اختلافات شديدة ، لا يقطع فيها بحكم إلا بالرجوع إلى الأدلة .

كون الموطأ مسلكا للاجتهاد :

والذى قلنا من أن طريق الاجتهاد قد توقف إلا عن هذا الطريق ، فلأن الأحاديث لا تكفى سائر الأحكام ، فمست الحاجة إلى آثار الصحابة و التابعين .

وليس اليوم على وجه الأرض كتاب غير الموطأ اشتغل به العلماء واعتمدوا عليه فى اجتهادهم طبقة بعد طبقة ، و هذا الأمر لا يحتاج فى ثبوته إلى دليل لدى كل من عرف الكتب المأثورة التى هى من أصول الشرع ، و عرف فيها مناحى الاجتهاد و كلام العلماء .

و السذج من الناس فى عصرنا قد أهملوا هذه الناحية إهمالا كليا كالنوق المخطومة لا تعرف أين تقاد ، فهؤلاء لا يمكن أن يكلفوا هذا الأمر .

وخلق الله للحروب رجالا و رجالا للقصعة و الثريد

سبب هذا التأليف :

و بالجملة فالنظر إلى هذه الأمور بعث فى الشوق أولا إلى رواية الموطأ ، و شرحه ثانيا .

ميزات هذا الشرح :

و جاء شرحه و ترتيبه و تبويب مسائله حسب ترتيب الكتب الفقهية ، مع ذكر الآيات المتعلقة بكل باب وشرح الغريب وترجمة كل حديث ، وبيان اختلافات الفقهاء فى كل مسألة و تحديد الألفاظ الواردة فى النصوص ، و استخراج علة كل حكم ، و استنباط القواعد الكلية الجامعة المانعة و ذكر تعقبات الشافعى و غيره ، وما إلى ذلك من الأسرار الغامضة للاجتهاد ، و وصل الارسال وذكر مآخذ أقوال الصحابة و التابعين التى هى من الأسرار الغامضة فى علوم الحديث ،

و لا شكوى إذا لم يدرك أهل عصرنا هذه الأسرار و لم يغتنموها ، لأنهم قد أعرضوا و تغافلوا عنها ، و المرء عدو ما جهل .

أساس فقه الامام مالك :

و أعلم أن مالكا بنى فقهه على حديث النبى ﷺ المسند أو مرسل الثقات ، ثم قضايا عمر ثم فتاوى ابن عمر ، ثم فتاوى سائر الصحابة و فقهاء المدينة سعيد ابن المسيب ، و عروة بن الزبير و القاسم و سالم و سليمان بن يسار و أبى سلمة و أبى بكر بن عبد الرحمان بن الحارث بن هشام و أبى بكر عمرو بن حزم ، و عمر بن عبد العزيز و أمثالهم

سبب ميل مالك إلى عمر رضى الله عنه :

و أما اختياره لقضايا عمر رضى الله عنه فلأجل أن رأيه كان يوافق القرآن و السنة فى الغالب و قال النبى ﷺ بينا أنا نائم شربت يعنى اللبن حتى أنظر إلى الري يجرى فى ظفرى أو أظفارى ثم ناولت عمر قالوا : فما أولت قال: العلم (١) ، و رأى على عمر قميصاً يجره فأول بالعلم (٢) و كذلك كانت قضايا عمر فى الغالب مما أجمع عليه الصحابة .

---

(١) البخارى كتاب المناقب .

(٢) كتاب المناقب للبخارى بلفظ « قالوا فما أولته يا رسول الله قال : الدين » .

سبب اعتماده على أقوال ابن عمر رضى الله عنه :

وأما عمل ابن عمر رضى الله عنه فلأجل أن كبار الصحابة شهدوا باستقامته وتفضله على سائر الصحابة ، قال حذيفة : لقد تركنا رسول الله ﷺ يوم توفى ، و ما منا أحد إلا و غير عما كان عليه إلا عمر و عبد الله ابن عمر (١) ، قال مالك بن أنس قال ابن شهاب لا تعدلن عن رأى ابن عمر ، فانه قام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة فلم يخف عليه شئ من أمر رسول الله ﷺ و أصحابه (٢) ، و قالت عائشة: ما رأينا ألزم للامر الأول من عبد الله ابن عمر (٣) ، وقال محمد ابن الحنفة : كان ابن عمر خير هذه الأمة (٤) ، و قال سعيد بن جبير : رأيت ابن عمر وأبا هريرة وأبا سعيد و غيرهم كانوا يرون أنه ليس أحد منهم على الحال التى فارق عليها رسول الله ﷺ غير ابن عمر (٥) ، وقال جابر : « إذا سركم أن تنظروا إلى أصحاب محمد ﷺ لم يغيروا ولم يبدلوا ، فانظروا إلى عبد الله بن عمر ، ما منا أحد إلا غير (٦) » وقال أبو جعفر : لم يكن من أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمع من رسول الله ﷺ حديثاً أجدر أن لا يزيد و لا ينقص ولا ولا من ابن عمر (٧) ، وقال نافع : لو رأيت ابن عمر يتبع آثار رسول الله ﷺ لقلت هذا مجنون (٨) ، و روى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده على بن الحسين أنه كان يقول : إن ابن عمر أزهد القوم و أصوبهم رأياً (٩) ، و هذه الآثار كلها فى المستدرك للحاكم ، و من آثار استقامة ابن عمر أنه لم يدخل فى الفتن ، بايع علياً على أن لا يقاتل مسلماً ، وقال على ذلك ، فلأجل ذلك تخلف عن الحروب ،

(١) المستدرك ج / ٣ ص / ٥٥٧ . (٢) المصدر السابق ص / ٥٥٩ .
(٣) المصدر نفسه . (٤) المصدر نفسه ص / ٥٦٠ .
(٥) المستدرك للحاكم ج / ٣ ص / ٥٦٠ .
(٦) المصدر نفسه . (٧) نفس المصدر ص / ٥٦١ .
(٨) المصدر نفسه . (٩) نفس المصدر ص / ٥٦٠ .

وقال نافع : « دخل ابن عمر فى الكعبة فسمعته يقول فى سجدته : قد تعلم ما يمنعنى من مزاحمة قريش على هذه الدنيا إلا خوفك » (١) .

عمل أهل المدينة :

و أما اختياره أقوال تابعى المدينة فلأن المدينة روح البلاد و قلب الأمصار ارتحل إليها العلماء فى كل عصر ، يعرضون آراءهم على أهل المدينة ، فتهذبت العلوم لأهل المدينة .

شيوخ مالك من غير أهل المدينة :

و شيوخ مالك كلهم من المدينة إلا ستة ، وهم أبو الزبير من مكة ، و حميد الطويل و أيوب السختيانى من البصرة . وعطاء بن عبد الله من خراسان ، و عبد الكريم من الجزيرة ، و إبراهيم بن أبى عبلة من الشام .

غالب أسانيد الامام مالك :

و اعلم أن مالكا يروى غالباً أحاديث ابن عمر عن النبى ﷺ عن نافع عن ابن عمر ، و عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر ، و يروى ابن عمر تارة عن عمر عن النبى ﷺ و أحاديث عائشة عن النبى ﷺ عن ابن شهاب عن عروة أو عن قاسم عن عائشة ، وعن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، و عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة ، وعن يحى بن سعيد عن عمرة عن عائشة ، وعن أبى الرجال عن أمه عمرة عن عائشة ، و أحاديث أبو هريرة عن النبى ﷺ عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة ، و عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبى هريرة ، وعن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أو عن أبى سلمة أو عن أبى بكر ابن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن أبى هريرة ، وعن يحى بن سعيد عن

(١) المستدرك ج / ٣ ص / ٥٦٠ .

سعيد بن المسيب عن أبي هريرة ، وعن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة ، و أحاديث أنس ع، النبي ﷺ ، عن ابن شهاب عن أنس و عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن أنس ، و أحاديث جابر عن النبي ﷺ عن أبي الزبير عن جابر و عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وعن وهب بن كيسان عن جابر ، و عن محمد بن المنكدر عن جابر ، وأحاديث أبي سعيد الخدرى عن عمر بن يحيى المازنى عن ابيه عن أبي سعيد ، و عن محمد بن يحيى بن حبان عن أبي سعيد ، و أحاديث سهل بن سعد عن أبي حازم عن سهل ، روى مالك بهذه الأسانيد نحو خمسمأة حديث ، وهذه الأحاديث أصح ماروى عن النبي ﷺ وأقواه فى مشارق الأرض ومغاربها .

سبب قلة روايات مالك عن علي و ابن عباس :

و روايات مالك عن ابن عباس و على قليلة . سأله هارون الرشيد عن ذلك فقال : لم يكونا ببلدى ولم ألق رجالهما ، ومع ذلك فيروى أحاديثهما عن ابن شهاب عن عبد الله والحسن بن محمد بن على عن أبيهما عن على بن أبي طالب ، وعن ابن شهاب عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن ابن عباس ، وعن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عباس .

شيوخ مالك فى الأحاديث المرسلة :

و أما الأحاديث المرسلة فشيوخ مالك فيها كثيرون ، أجلهم ابن شهاب عن الفقهاء السبعة عن النبي ﷺ ، و ابن شهاب عن النبي ﷺ ، و زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن النبي ﷺ ، وزيد بن أسلم عن النبي ﷺ ، ويحيى بن سعيد عن سعيد ابن المسيب عن النبي ﷺ ، و يحيى بن سعيد عن النبي ﷺ ، و صفوان بن سليم عن النبي ﷺ ، و هشام بن عروة عن أبيه عن النبي ﷺ ، و جعفر عن أبيه عن النبي ﷺ .

بلاغات مالك :

وكأن مالكا طالع كتب جماعة يروى منها بقوله مالك بلغه أن النبي ﷺ ...

روایة لآثار الصحابة :

و یروی آثار عمر عن نافع عن ابن عمر عن عمر ، و عن زید بن أسلم عن أبيه عن عمر ، و عن زید بن أسلم عن عمر ، وعن نافع عن أسلم عن عمر ، و عن يحيى بن سعيد بن المسيب عن عمر ، و عن يحيى بن سعید عن عمر ، و عن إسحاق بن عبد الله عن أنس عن عمر ، و آثار عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر ، و عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر ، و آثار عائشة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، و عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة

رواية لأقوال فقهاء المدينة :

و أما أقوال فقهاء المدينة فيروى أقوال سعيد بن المسيب عن ابن شهاب و يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب ، و ابن شهاب عن سالم و أبي بكر و زید ابن أسلم عن عطاء بن يسار ، وعبد الرحمن بن القاسم عن أبيه ، و يحيى بن سعيد عن أبي سلمة .

الشيوخ الذين أقل عنهم الرواية :

و هناك ناس لم يرو عنهم بهذه الكثرة ، بل روى عشرة أو عشرون من أقوال التابعين مع أحاديثهم ، كسالم بن أبي النضر مولى عمر بن عبيد الله و داؤد ابن حصين ، وعبد الرحمن بن حرملة الأسلمي ، و يزيد بن رومان و حميد بن قيس المكي و أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن عن عروة وعلقمة بن أبي علقمة ، و زيد ابن الخصيفة ، و ثور بن زيد الديلمي ، ومحمد بن عمر بن حلحلة الديلي ، و موسى ابن عقبة ، و محمد بن أبي مريم .

نقله الفتاوى من غير شيوخه :

وهناك أناس روى عنهم نحو ما روى عن هؤلاء أو روى شيوخهم نحو ما

روى هؤلاء وأناس عرضت لهم حوادث فاستفتوا الفقهاء السبعة ، أخذ مالك منهم هذه الفتاوى من دون أن يعتبروا من مشيخة مالك .

معنى قول مالك « السنة عندنا كذا :

و يقرر مالك تارة مختاره أو مختار الفقهاء السبعة أو عمل أهل المدينة فيقول : السنة عندنا كذا وكذا ، قال الشافعى : إنه ليس باجماع بل هو مما اختاره مالك و شيوخه .

اعتماد المؤلف فى الشرح على ما يوافق رأى الجمهور :

فذكر المؤلف من هذا القسم فى شرحه ما وافق الجمهور ، و ما كان خاصاً بمالك أعرض عنه .

رجال مالك الذين أكثروا الرواية :

و أريد أن أذكر شيئاً عن رجال مالك ، و لكن أعرض عن الذين لم يرو عنهم إلا قليلا .

١ — عبد الله بن عمر : من المكثرين والفقهاء فى عصر الصحابة ، و شهد جمع من الصحابة باستقامته ، و لم يدخل فى الفتن ، و لم يقبل الخلافة حذراً من قتال المسلمين ، وفضائله أكثر من أن تحصى ، توفى سنة ثلاث وسبعين عن أربعة و ثمانين أو ستة و ثمانين .

٢ — سالم بن عبد الله بن عمر : أحد فقهاء المدينة ، كان ثقة ورعا ، روى عن أبيه كثيراً ، توفى سنة ست و مائة .

٣ — محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى : أحد فقهاء الاسلام ومحدثيه ، كان يشار إليه بالبنان فى سائر العلوم الشرعية ، وأول من كتب الحديث ، ولا يجمع على الأحاديث الطويلة بدونه ، وكان عمر بن عبد العزيز يقول : لا أعلم أحداً أعلم بسنة ماضية منه ، و هو حافظ الحديث فى الاسلام لا يحصى من روى عنهم ومن رووا عنه ، توفى

سنة أربع و عشرين و مائة عن اثنين و سبعين .

٤ — نافع بن سرجس مولى عبد الله بن عمر : أحد ثقات المحدثين ، تدور عليه أحاديث ابن عمر و آثاره ، و آثر مالك الرواية عنـــه ، قال مالك : إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي أن لا أسمعه من أحـد ، توفى سنة سبع عشرة و مائة و قيل سنة عشرين و مائة ، و سرجس بفتح السين المهملة و سكون الرأى و كسر الجيم

٥ — عبد الله بن دينار مولى ابن عمر : من ثقات تابعي المدينة ، توفى سنة سبع و عشرين و مائة أو سنة اثنتين و ثلاثين و مائة .

٦ — عائشة بنت أبي بكر الصديق رضى الله عنها : فقيهة حافظـــة كثيرة الحديث ، أحرزت السبق فى الشجاعة والجود والفصاحة و العلم و التقوى ، ماتت سنة سبع و خمسين و قيل سنة ثمان و خمسين .

٧ — عروة بن الزبير : أحد فقهاء المدينة ، كثير الحديث و الفتوى ، كان ثقة ورعاً ، مات سنة أربع و تسعين .

٨ — قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله : كان من ثقـات فقهـاء المدينة و تابعياً ورعاً مات سنة إحدى و مائة .

٩ — عمرة بنت عبد الرحمان الأنصارية ، ربتها عائشة ، لها فقه و حديث ، روى عنها ابنها أبو الرجال محمد بن عبد الرحمان ، ماتت سنة ثلاث و مائة .

١٠ — يحى بن سعيد بن قيس الأنصارى القاضى : ثقة ثبت روى مالك عنه كثيراً من المرفوعات و الموقوفات ، مات سنة أربع و أربعين و مائة .

١١ — هشام بن عروة بن الزبير : ثقة فقيـــه ، أكثر رواياته المرفوعـــة و الموقوفة عن أبيه ، مات سنة خمس و أربعين ومائة ، أو ست و أربعين ومائة عن سبع و ثمانين سنة .

١٢ — عبد الرحمان بن القاسم : ثقة جليل ، قال ابن عيينة : كان أفضل زمانه ، مات سنة ست و عشرين و مائة .

١٣ — أبو هريرة : اختلفوا فى اسمه و نسبه ، أكثر الصحابة رواية ، أتى النبي ﷺ بخيبر فلزمه ، مات سنة سبع وخمسين عن ثمانى وثمانين ، وقيل غير ذلك .

١٤ — سعيد بن المسيب القرشى المخزومى : سيد التابعين ، جمع بين الفقه والحديث والزهد و العبادة و الورع ، كان أعلم الناس بحديث أبى هريرة ، و قضايا عمر ، مات سنة ثلاث و تسعين

١٥ — أبو سلمة بن عبد الرحمان بن عوف : أحد فقهاء المدينة ومن الثقات و المفتين ، مات سنة أربع و تسعين .

١٦ — الأعرج عبد الرحمان بن هرمز : ثقة ثبت من حملة العلم بالمدينة المنورة ، أكثر رواياته عن أبى هريرة ، مات سنة سبع عشرة و مائة .

١٧ — أبو الزناد عبد الرحمان بن ذكوان : فقيه ثقة فى الحديث ، مات سنة ثلاثين و مائة .

١٨ — أبو صالح السمان ذكوان : ثقة ثبت ، كان يجلب الزيت ، فسمى الزيات و السمان مات سنة إحدى و مائة .

١٩ — سهيل بن أبى صالح : صدوق ، تغير حفظه فى آخر عمره ، ولأجل ذلك لا يروى البخارى عنه إلا المعلقات أو إذا تابعه غيره .

٢٠ — سمى مولى أبى بكر بن عبد الرحمان بن الحارث بن هشام: ثقة صدوق ، مات سنة ثلاثين و مائة .

٢١ — أبو سعيد المقبرى كيسان : ثقة ثبت مات سنة مائة ، من الموالى ، سكن بقرب من مقبرة المدينة فنسب إليها .

٢٢ — سعيد بن أبى سعيد : من المشهورين بالمدينة والثقات ، اختلط فى آخر عمره روى عنه الأئمة قبل الاختلاط ، مات سنة ثلاث و عشرين و مائة .

٢٣ — أنس بن مالك الأنصارى : من المكثرين ، خدم النبى ﷺ و هو ابن عشر سنوات ، ولما بلغ العشرين توفى النبى ﷺ ، كان النبى ﷺ يولى عنايته به ، و دعا له دعوات أجيبت ، مات وهو ابن تسع و تسعين سنة ، وروى عنه صغار التابعين لطول عمره .

٢٤ — اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة الأنصارى : من ثقات التابعين فى المدينة ، قال الواقدى «كان مالك لا يقدم عليه أحداً» مات سنة أربع وثلاثين ومائة .

٢٥ — ربيعة بن أبى عبد الرحمان المعروف بربيعة الرأى : أحد فقهاء المدينة ، غلب عليه الاستنباط و الخوض فى مسائل السلف فنسب إلى الرأى .

٢٦ — حميد بن أبى حميد الطويل : تابعى كثير الحديث ، مات سنة ثمانى وأربعين ومائة ، قال الأصمعى : «لم يكن طويلا ولكن كان طويل اليدين» (١) .

٢٧ — عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم الأنصارى المدنى القاضى : ثقة مات سنة خمس و ثلاثين و مائة .

٢٨ — أبو سعيد الخدرى سعيد بن مالك : شهد الغزوات كلها بعد أحد ، روى كثيراً من الأحاديث ، مات سنة ثلاث أو أربع و ستين .

٢٩ — عمرو بن يحيى بن عمارة المازنى : ثقة مات بعد ثلاثين و مائة .

٣٠ — محمد بن عبد الله بن عبد الرحمان بن أبى صعصعة الأنصارى المازنى ، ثقة من أهل المدينة .

٣١ — سهل بن سعد الساعدى : كان ابن خمس عشرة سنة لما توفى النبى ﷺ و هو آخر من مات من الصحابة فى المدينة سنة إحدى و تسعين .

(٣٢) أبو حازم سلمة بن دينار : ثقة عابد ، روى عن سهل بن سعد ، مات فى خلافة المنصور .

٣٣ — جابر بن عبد الله الأنصارى السلمى بفتحتين : صحابى بن صحابى ، شهد

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ج / ١ ص / ١٣٧ .

مع النبي ﷺ فى تسع عشرة غزوة ، مات سنة سبعين عن أربع و تسعين .

٣٤— أبو الزبير المكى محمد بن مسلم تدرس بفتح تاء مثناة و سكون دال مهملة و ضم الراء مولى الأسديين ، صدوق ، مات سنة ست وعشرين ومائة ، كان البخارى لا يروى عنه لتدليسه .

٣٥— على بن الحسين بن على بن أبى طالب الملقب بزين العابدين جمع بين السياده و العبادة و الفقـــه ، قال الزهرى : ما رأيت قرشياً أفضل منه ، مات سنة ثلاث و تسعين .

٣٦— محمد بن على بن الحسين أبو جعفر الملقب بالباقر : جمع كأبيه بين السياذة و العلم ، روى عن أبيه و عن جابر ، مات سنة بضع عشرة و مائة .

٣٧— جعفر بن محمد بن على بن الحسين أبو عبد الله الملقب بالصادق : الفقيه الامام الشريف صاحب المناقب الكثيرة ، مات سنة ثمانى و أربعين و مائة .

٣٨— وهب بن كيسان : مولى قريش ، من ثقات المدينة ، مات سنة سبع و عشرين و مائة .

٣٩— محمد بن المنكدر : تابعى جليل مات سنة ثلاث و مائة .

٤٠— الحسن البصرى : أحد الفقهاء و العباد من التابعين ، و مناقبه أشهر من أن تذكر ، مات سنة ست عشرة و مائة .

٤١— أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيـانى بفتح السين المهملة بعدها خاء معجمة ، ثم مثناة ثم تحتانية و بعد الألف نون ، نسبة إلى عمل الجلود ، ثقة من كبار الفقهاء و العباد ، مات سنة إحدى و ثلاثين و مائة .

٤٢— عطاء بن عبد الله الخراسانى : مولى المهلب ، ثقـــة مات سنة خمس و ثلاثين و مائة .

٤٣— عبد الكريم بن أبى المخارق بضم الميم و بالخـاء المعجمـة ، جزرى الأصل ، نزيل مكة ، ثقة ، مات سنة ست و عشرين و مائة .

٤٤ــ محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية : عالم ثقة ، له ابنان عبد الله و حسن يقرن الزهرى بينهما .

٤٥ ــ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود : فقه ثقة مدنى ، كثير الرواية عن ابن عباس ، مات سنة أربع و تسعين .

٤٦ــ عطاء بن يسار : الفاضل صاحب المواعظ و العبادة ، مات سنة أربع و تسعين .

٤٧ــ زيد بن أسلم مولى عمر : عالم ثقة ، كان مالك يبالغ فى تعظيمه ، مات سنة ست و ثلاثين و مائة .

٤٨ــ صفوان بن سليم مولى بنى زهرة : ثقة عا بد.

٤٩ــ سالم أبو النضر مولى عمر بن عبد الله القرشى : ثقة ثبت ، مات سنة سنة تسع و عشرين و مائة .

٥٠ ــ داؤد بن الحصين : ثقة مات سنة خمس و ثلاثين و مائة .

٥١ ــ محمد بن عبد الرحمان أبو الأسود : كان يتيماً رباه عتبة ، ثقة مات سنة بضع و ثلاثين و مائة .

٥٢ــ علقمة بن أبي علقمة بلال مولى عائشة ، ثقة مات سنة بضع و ثلاثين و مائة .

٥٣ــ ثور بن زيد الديلى بكسر الدال بعدها تحتانية ، ثقة مات سنة خمس ثلاثين و مائة .

٥٤ ــ محمد بن عمرو بن حلحلة الديلى بمهملتين بينهما ساكنة ، ثقة .

٥٥ ــ موسى بن عقبة بن أبي عياش بتحتانية ومعجمة ، مولى آل الزبير ، كان إماماً فى المغازى ، مات سنة إحدى و أربعين و مائة .

و من طبقة شيوخ يحى بن سعيد ، محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى ، ثقة ، تفرد بأحاديث ، مات سنة عشرين و مائة .

[يتبع]

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فى
—١٢— تاريخ التشريع الاسلامى

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

الحاجة إلى التخريج :

و لكن الجيل الذى تأخر عنهما كثر لديه التفريع و التخريج على أقوال الأئمة ، و لقد كان ذلك أولا للضرورة التى تقتضى كثرة التخريجات ، و إنماء الثروة الفقهية ، لمواجهة كل ما يجد من قضايا اجتماعية ، و اقتصادية و جنائية ، إذ كان العالم الاسلامى يخوض التجارب الجديدة فى تلك الآونة ، و تحدث التطورات فى الحياة الاجتماعية بصورة مستمرة سريعة ، هذا مع نزوع أتباع كل إمام إلى الاستفادة من ثروة فقهه ، وضبط أصوله و تدوين آرائه ، لأجل ذلك وغيره من الأسباب الصحيحة التى لا ينبغى التغاضى عن أهميتها نمت التخريجات نموا عظيماً .

القدرة على التخريج :

و كان هناك سبب آخر طبيعى له أهميته ، نبه إليه الامام الدهلوى فقال :

« وكان عندهم من الفطانة والحدس و سرعة انتقال الذهن من شئ إلى شئ ما يقدرون به على تخريج جواب المسائل على أقوال أصحابهم ، و كل ميسر لما خلق له ، و « كل حزب بما لديهم فرحون » (١) (٢) .

فكانت قدرتهم - لممارستهم الفقه و أصوله ـ على التفريع و التخريج قدرة فائقة متمكنة لا يمكنهم أن يتخلوا عنها ، ولو تخلوا عنها لكان الفقه أقوالا مبتورة مبثوثة ، تخدمتهم تذكر و تشكر ، و لكن البلية التى استجرت إليها هذه التخريجات هو نشوء المنزع التخريجى ، و استحكامه فى نفوس الفقهاء المتأخرين ، الذين بدأوا

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٥٣ .

(٢) الانصاف ص ٥٨ .

التخريج على التخريج ، و استنبطوا الأصول من الفروع المخرجة . و ستأتى قصتها فيما بعــد .

صور التخريج :

و لكى نعرف مدى هذا الفقه التخريجى و أبعاده ، لا بد أن نعرف ما هو التخريج ؟ و قد عرف الامام الدهلوى بعد أن صرح بأن هؤلاء الفقهاء « مهدوا الفقه على قاعدة التخريج » بوجوه الخريج ، صوره ، واذكرها فى النقاط التالية :

١— ينظر الفقيه الحافظ لأقوال إمامه و تصريحاته فى كلامه . فاذا سئل عن شئ و لم يجد جوابه فى تصريحاته ، نظر إلى عموم كلامهم و منه جواب المسألة .

٢— أو ينظر إلى إشارة ضمنية لكلام فيستنبط منهـا .

٣— و ربما كان لبعض الكلام إيماء أو اقتضاء يفهم المقصود ، فيأخذ به .

٤— و ربما كان للمسألة المصرح بها نظير يحمل عليها ، فيحمله عليها .

٥— و ربمـا نظر فى علة الحكم المصرح به ، بالتخريج ، أو بالسبر (١) و الحذف (٢) ، فيدير حكمه على غير المصرح به .

٦— و ربمـا كان له كلامان لو اجتمعا على هيئة القياس الاقترانى (٣) أو

---

(١) السبر معناه الاختبار ، و المراد به فى أصول الفقه هو اختبـار الأوصاف فى واقعة الحكم الشرعى ، للتعرف على الوصف المناسب ليكون علة للحكم .

(٢) و المراد بالحذف هو إبعاد الأوصاف التى لا تكون ملائمة لأن تكون علة للحكم ، (أنظر أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص / ٧٧ .

(٣) القياس الاقترانى ـ و يسمى : قياساً حملياً ، و قياساً جزمياً ، هو مركب من مقدمتين : صغرى و كبرى ، تستتبعان نتيجة ، مثل قولنا : كل جسم مؤلف ، و كل مؤلف محدث ، فيلزم منه أن كل جسم محدث ، فقولنا : (كل جسم مؤلف) مقدمة صغرى ، وقولنا : (وكل مؤلف محدث) ★

الشرطى (١) انتجا جواب المسألة .

★ مقدمة كبرى ، و اللازم عنهما وهو (كل جسم محدث) نتيجة .

ومثاله من الفقه قولنا : كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام ، فكل مسكر حرام ، و مثال آخر كل ضار مكروه شرعاً ، و كل مكروه منهى عنه ، فكل ضار منهى عنه .

(١) القياس الشرطى ـ مركب من مقدمتين أيضاً ، إحداهما مركبة من قضيتين قرن بها صيغة شرط ، والأخرى حملية واحدة ، هى المذكورة فى المقدمة الأولى بعينها أو نقيضها و يقرن بها كلمة استثناء ، و لذا يقال له القياس الاستثنائى أيضاً .

مثاله : إذا كان العالم حادثاً فله صانع ، لكنه حادث فاذن له صانع ، فقولنا (إذا كان العالم حادثاً فله صانع) مقدمة مركبة من قضيتين حمليتين ، قرن بهما حرف الشرط و هو قولنا (إن) و قولنا (لكن العالم حادث) قضية واحدة حملية ، قرن بها حرف الاستثناء (لكن) و قولنا (إذن فله صانع) نتيجة .

ومثاله من الفقه قولنا : (إن كان النكاح صحيحاً فهو مفيد للحل لكنه صحيح فاذن هو مفيد للحل) و مثال آخر : (إن كان الوتر يصلى على الراحلة فهو نفل ، لكنه يصلى على الراحلة ، فاذن هو نفل) .

و هناك صور أخرى للقياس الشرطى ينظرها من أرادها فى كتاب « معيار العلم » للامام الغزالى رحمه الله ص ـ ١٥١ - ١٥٩ (مقتبس من تعليق المحقق على الانصاف فضيلة الشيخ عبد الفتاح أبو غده ـ حفظه الله .

و ينبغى أن نعلم أن هذه الاقيسة أقيسة منطقية لم تكن عند أوائل الفقهاء و لكنها استعملت لدى المتأخرين عند ما أصبح للنطق جولة و صولة فى المناهج الدراسية ، و صبغت به الكتب الفقهية و الكلامية .

٧— وربما كان فى كلامهم ما هو معلوم بالمثال و القسمة غير معلوم بالحد الجامع المانع ، فيرجع المخرج إلى أهل اللسان ، ويتكلف تحصيل ذاتياته ، وترتيب حد جامع مانع له ، و ضبط مبهمه و تمييز مشكله .

٨— و ربما كان كلامهم محتملا لوجهين فينظر فى ترجيح أحد المحتملين .

٩— و ربما يكون تقريب الدلائل للمسائل خفياً فيبين ذلك

١٠— وربما استدل بعض المخرجين من فعل أئمتهم وسكوتهم ونحو ذلك (١) .

المخرجون هم المجتهدون فى المذهب :

« فهذا هو التخريج ، ويقال له : القول المخرج لفلان كذا ، و يقال : على مذهب فلان أو على أصل فلان أو على قول فلان ، جواب المسألة كذا وكذا ، ويقال لهؤلاء : المجتهدون فى المذهب ، وعنى هذا الاجتهاد ـ على هذا الأصل ـ من قال : من حفظ المبسوط (٢) « كان مجتهداً » أى و إن لم يكن له علم بالرواية أصلا و لا بحديث واحد » (٣) .

و التخريج كما قلت وقع للضرورة الفقهية ، و لم يكن ليستغنى عنه الفقهاء بعد ما دون الفقه ، و مهدت قواعده و أصوله ، و حققت كثير من المسائل ، و لذلك قال الامام الدهلوى :

التخريج أصل أصيل :

« و اعلم أن التخريج على كلام الفقهاء وتتبع لفظ الحديث ، لكل منهما أصل أصيل فى الدين ، و لم يزل المحققون من العلماء فى كل عصر يأخذون بهما ، فنهم من

(١) انظر الانصاف ص ٥٨ - ٦١ .

(٢) هو موسوعة فقهية ضخمة فى ثلاثين جزءاً للامام السرخسى الحنفى (ت ٤٨٣هـ) .

(٣) الانصاف ص ٦١

يقل من ذا ويكثر من ذاك ، ومنهم من يكثر من ذا ويقل من ذاك ، فلا ينبغى أن يهمل أمر واحد منهما بالمرة كما يفعله عامة الفريقين ، و إنما الحق البحت أن يطابق أحدهما بالآخر و أن يجبر خلل كل بالآخر (١) » .

و لو فرضنا أن جميع الكتب الفقهية أصبحت معدومة ، و لم تبق لدينا إلا الأحاديث المجردة ، أيكون بوسع أحد فى العصور المتأخرة أن يستقل بالفقه وجواب المسائل التى قد دونت فى المجاميع الفقهية ، الجواب الواقى لذلك بالنفى ليس غير .

خطر بناء التخريج على التخريج :

و لكن الذى ينبغى أن يعترف به أن ما استدركه الخطابى على المحدثين و ما نبههم إليه من خطر فى تحكيم أصولهم دائماً وبدون استثناء ، هو أشد وأضر على الفقهاء لو استمروا على تخريجاتهم ، يبنى المتأخر منهم على تخريج المتقدم . ويفرع المتأخر على أصل المتقدم ، وهكذا دواليك ، ولكان الخوف من البعد عن النصوص و ظاهر السنة السنية ، كبيراً عظيماً .

تكلف المخرجين :

و هناك أمور يقع الفقهاء و المخرجون بتكلفها فى أخطاء ، كان من غير اللازم أن يتكلفوها .

فتراهم مثلا يستدلون بنحو الواو والفاء وتقديم كلمة و تأخيرها ، و يتعمقون فى ذلك ، و يبنون عليها الخلافات ، مع أن الراوى يعبر عن تلك القصة أو ذلك الحكم بعبارات مختلفة ، و يأتى مكان حرف بحرف آخر ، و لا يتكلفون مراعاة هذه الحروف بتلك الدقة التى تعرف لدى المختصين بفقه اللغة و المتعمقين من أهل العربية ، فقد كان جمهور الرواة عند الرواية بالمعنى يهتمون برؤوس المعانى ، لا بالألفاظ و الحروف و التدقيق فيها ، يعرف ذلك كل من يراجع المصادر الحديثية فيجد فيها حديثاً واحداً بتعبيرات مختلفة (٢) .

(١) الانصاف ص ٦٢ .

(٢) انظر الانصاف ص ٦٣ .

بعض الضوابط للتخريج :

و مما ينبغي أن يراعيه المخرجون لدى تخريجهم من أقوال أئمتهم ما يلي :

١- «لا ينبغي لمخرج أن يخرج قولا لايفيده نفس كلام أصحابه ، ولا يفهمه منه أهل العرف والعلماء باللغة ، ويكون بناءاً على تخريج مناط أو حمل نظير المسألة عليها مما يختلف فيه أهل الوجوه ، وتتعارض الآراء ، ولو أن أصحابه سئلوا عن تلك المسألة ، ربما لم يحملوا النظير على النظير لمانع ، وربما ذكروا علة غير ما خرجه هو » .

٢- « ولا ينبغي أن يرد حديثاً أو أثراً تطابق عليه القوم لقاعدة استخرجها هو أو أصحابه كرد حديث المصراة (١) (مثلا) ، فان رعاية الحديث أوجب من رعاية تلك القاعدة المخرجة (٢) (٣) .

(١ - ٢) الحديث أخرجه البخارى وغيره ولفظه : لا تصروا الابل والغنم ، فمن ابتاعها بعد فهو بخير النظرين بعد أن يحتلبها إن شاء أمسك و إن شاء ردها وصاع تمر ، أنظر فتح البارى ج ٣ ص ٣٦١ ، و التصرية حبس اللبن فى الضرع ، حتى يظن المشترى أنها كثيرة اللبن ، و قد جاء فى الحديث أن اللبن إذا استعمل فان بدله صاع من تمر ، مع أن اللبن غير معروف القدر ، ففيه جهالة ، و لكن الحديث ورد هكذا ، و قاعدة الضمان وهى الخراج بالضمان ، أو قاعدة الغنم بالغرم تخالفه ، فهى تقتضى بدفع القيمة المساوية للبن ، و لكن القاعدة هنا تخالف النص الصحيح ، فترد ، هكذا قال جمهور الفقهاء غير الأحناف ، ولكن الأحناف يأخذون بتلك القاعدة والحقيقة أنها ليست مخرجة ، بل منصوصاً عليها فى حديث ، مع توارد كثير من الأحكام الشرعية عليه ، مع أنهم يرون الاضطراب فى متن الحديث ، ولم يسلموا عدم الاضطراب ، فيقولون لا تتعدى هذه ★

٣- كما أنه لا ينبغى له أن يتعمق فى التخريج و يبعد النجعة فيه ، و يبنى تخريجا على تخريج فى سلسلة تنأى به عن النصوص ، بل لابد عند كل تخريج من مراجعة النصوص الثابتة ، و عرض التخريجات عليها و نقدها على محكها ، وبذلك يمكن تجنب الأقوال المردودة و الشاذة و الضعيفة فى كتب الفقه و الفتاوى .

وكل دخيل فى الفقه الاسلامى كان سببه هذا التخريج و التفريع بغض النظر عن المصدرين الأساسيين ، ونتج عن ذلك ما عبر عنه الامام الخطابى و هو يذكر متأخرى الفقهاء ، فيقول :

وصف الخطابى للمخرجين المتأخرين :

« و أما الطبقة الأخرى و هم أهل الفقه والنظر ، فان أكثرهم لا يعرجون من الحديث إلا على أقله ، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيمه ، و لا يعرفون جيده من رديئه ، ولا يعبؤون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التى ينتحلونها ، ووافق آراءهم التى يعتقدونها ، وقد اصطلحوا على مواضعة بينهم فى قبول الخبر الضعيف و الحديث المنقطع ، إذا كان قد اشتهر عندهم و تعاورته الألسن فيما بينهم من غير ثبت فيه أو يقين علم به ، فكان ذلك ض من الرأى و غبنا فيه (١) .

★ القاعده موضع النص ، بل هو حكم خاص لشخص خاص .

و ينبغى أن ينظر فى المسألة أيضاً من حيث إنهـا تعبدية أو قياس و إنه إن لم يوجد التمر ألا تعطى قيمة صاع من تمر ؟ فكيف يتى ا بما ورد به النص ؟ ! و لذلك من المعقول أن نقول : إن هذا تـ تقريبى من الرسول ـ ﷺ ـ وليس الأمر تعبديا محضاً ، فلم نعهد الأ التعبدية المحضة فى البيوع و المعاملات .

(٣) الانصاف ص ٦٣ .

(١) نقل الامام الدهلوى هذه العبارة عن الامام الخطابى و لم يذكر الاسا كتاب ، و لم أجد مصدر هذه العبارة .

ثم ذكر أنهم يحتاطون فى قبول روايات بعض أصحاب أئمتهم ، و يعتمدون على بعض آخر فأصحاب مالك يأخذون برواية ابن القاسم و أشهب و غيرهما من قدماء أصحابه ، ولا يأخذون برواية عبد الله بن عبد الحكم ، كذلك أصحاب أبى حنيفة يأخذون برواية أبى يوسف و محمد ، فاذا جاء القول عن الحسن بن زياد بخلافهم لم يقبلوه ، وأصحاب الشافعى يعولون على رواية المزنى و الربيع المرادى فاذا جاءت رواية حرملة و الجيزى لم يلتفتوا إليها .

فاذا كان هذا موقفهم من أقوال الفقهاء ، فكيف بهم لا يميزون هذا التمييز فى الأحاديث النبوية الشريفة ، و لكنهم « اختصروا طريق العلم ، و اقتصروا على نتف و حروف منتزعة من معانى أصول الفقه ، سموها عللا و جعلوها شعارا لأنفسهم فى الترسم برسم العلم ، و اتخذوها جنة عند لقاء خصومهم ، و نصبوها دريئة للخوض و الجدال ، يتناظرون بها ، و يتلاطمون عليها ، و عند التصادم عنها قد حكم للغالب بالحذق و التبريز ، فهو الفقيه المذكور فى عصره و الرئيس المعظم فى بلده (١) (٢) .

هذا وقد استعانوا بالكلام ، و وصلوه بمقطعات منه ، و استظهروا بآراء المتكلمين ، و قواعد المنطقيين ، و خلطوا تلك الأصول الواضحة التى نراها « الفقه الأكبر » كلاماً ، و فى « الرسالة » أصول فقه ، بالقواعد العقلية التى تفقد المرونة و السعة ، و الخصب ، و قد كان ذلك فى عصر الامام ا... (ت ٣٨٨ھ) فكيف بالعصور التى تلت !.

و سيأتى تفصيل ذلك ، مع ذكر أصناف الناس و أنواع المجتهدين ، ... التقليد فى الحلقة القادمة _ إن شاء الله تعالى _ .

[يتبع]

---

(١) أيضاً .

(٢) الانصاف ص ٦٥ _ ٦٧ .

الأدب الاســــــلامى
فى
تراثنا التاريخى و الجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة «العربية» (Arbia)

—(الحلقة السادسة)—

وقد يغنى هنا أن نسوق مثلا رائعاً للأدب التاريخى ما ساقه المؤرخون المسلمون عن هجمات التتار الكاسحة لبلدان آسيا التى تهاوت دول المسلمين تحت مطارقها و وقع المسلمون بين فكى التتار و الصليبيين . . . يقول ابن الأثير : « لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارها لذكرها نأنا أقدم إليها رجلا و أوخر أخرى ، فمن الذى يسهل عليه أن يكتب عن الاسلام والمسلمين فياليت أمى لم تلدنى و ياليتنى مت قبل هذا أو كنت نسياً منسياً » ، « ولقد جرى لهؤلاء التتار مالم يسمع بمثله من قديم الزمان و حديثه . طائفة تخرج من حــدود بلاد الصين لا تنقضى عليهم سنــة حتى يصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية و يجاوزون العراق من ناحية همــذان . . . . يسر الله للسلمين و الاسلام من يحفظهم ويحوطهم . . . . ولم ينل المسلمين أذى وشدة منذ جاء النبى ﷺ إلى هذا الوقت مثلما دفعوا إليه الآن . وتعدث هذه الطائفة منهم النهر إلى خراسان فملكوها وفعلوا مثل ذلك » هذا العدد الكافر التتر قد وطئوا بلاد ماوراء النهر و ملكوها و خربوها ثم وصلوا إلى الرى و بلد الجبل . . . و قد اتصلوا بالكرج فغلبوهم على بلادهم. والعدو الآخر: الفرنج قد ظهروا من بلادهم فى أقصى بلاد الروم بين

الغرب و الشمال ، و وصلوا مصر فملكوا مثل دمياط و أقاموا فيها ، و لم يقدر المسلمون على ازعاجهم عنهـــا و لا إخراجهم منها . و باقى ديار مصر فى خطر . فانا لله و إنا إليـــه راجعون ، و لا حول و لا قوة إلا بالله العظيم » (١) . ولا يخلى ابن الأثير المسلمين من مسئولية إزاء تلك الداهية الدهياء . « فالله تعـالى ينصر الاسلام والمسلمين نصراً من عنده ، مما نرى من ملوك الاسلام من لا رغبة له فى الجهاد ولا فى نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته و هذا أخوف عندى من العدو . و قال تعالى (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » . و قد كان ياقوت الحموى (المتوفى ٦٢٦هـ) صاحب معجمى (الأدباء) و (البلدان) معاصراً لابن الأثير و لهجمات التتار ونجا بشق النفس من غاراتهم ، و كتب رسالة إلى القاضى القفطى وزير صاحب حلب ٦٠٧هـ نقلها ابن خلكان فى (وفيات الأعيان) و مما جاء فى تلك الرسالة : « فانا لله و إنا إليه راجعون من حادثة تقصم الظهر و تهدم العمر وتفت فى العضد و تشيب الوليد و تنخب لب الجليد ، و تسود القلب و تذهل اللب فحينئذ تقهقر المملوك (يعنى ياقوت نفسه) على عقبه ناكصـا ، و من الاوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيسا . . . . فتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل، بعد مقاساة أخطار وابتلاء واصطبار » (٢) . و كان فى مصنفات التراجم و السير مجال فسيح لتقديم صورة قلبية أدبية للشخصية المترجم لها بالاستناد إلى المصادر التاريخية الموثوق بها ، وكان على المصنفين أولا أن ينقلوا مما أثر عن الشخصية المترجم لهـا ما يفى بالقصد و يبرز قسمات الصورة ، ثم كان عليهم ثانياً أن يعرضوا المادة المنتقاة عرضاً طلياً مشوقاً حافزاً للاقتداء بهم

(١) ابن الأثير : الكامل - القاهرة - ج ١٢ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان - ترجمة (ياقوت الحموى) .

وانتهاج نهجهم وإنزالهم المنزلة التى يستحقونها من قلوبهم وعقولهم . روى ابن سعد فى (طبقاته) من سيرة عمر بن الخطاب أن الربيع بن زياد الحارثى وفد إلى الخليفة فشكا عمر طعاماً غليظاً أكله فقال له الربيع : يا أمير المؤمنين إن أحق الناس بطعام لين ومركب لين لأنت . فرفع عمر جريدة كانت معه فضرب بها رأس الربيع وقال : أما والله ما أراك أردت بها الله و ما أردت بها إلا مقاربتى ، إن كنت لأحسب أن فيك ، ويحك هل تدرى ما مثلى ومثل هؤلاء؟ مثل قوم سافروا فدفعوا نفقاتهم إلى رجل منهم فقالوا له : أنفق علينا ، فهل يحل له أن يستأثر منها بشئ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : فكذلك مثلى و مثلهم . ثم قال عمر : إنى لم استعمل عليكم عمالى ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم و يأخذوا أموالكم ، و لكنى استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم ، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا أذن له على ليرفعها إلى حتى أقصه منه . فقال عمرو بن العاص : يا أمير المؤمنين أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه ؟ فقال : و مالى لا أقصه منه و قد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه ؟ و كتب عمر إلى أمراء الأجناد « لا تضربوا المسلمين فتذلوهم و لا تحرموهم فتكفروهم و لا تجمروهم فتفتنوهم و لا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم .

و يروى ابن سعد طائفة من (أوليات عمر) فيقول : « . . . . دعى عمر أمير المؤمنين فهو أول من سمى بذلك ، وهو أول من كتب التاريخ فى شهر ربيع الأول سنة ست عشرة من هجرة النبى ، وهو أول من سن قيام شهر رمضان وجمع الناس على ذلك (أى سن الاجتماع على القيام) وكتب به إلى البلدان و ذلك فى شهر رمضان سنة أربع عشرة وجعل للناس بالمدينة قارئين : قارئاً يصلى بالرجال و قارئاً يصلى بالنساء ، وهو أول من ضرب فى الخمر ثمانين ، واشتد على أهل الريب والتهم . . . وهو أول من عس فى عمله بالمدينة وحمل الدرة وأدب بها ولقد قيل بعده :

لدرة عمر أهيب من سيوفكم ، وهو أول من فتح الفتوح وهى الأرضون والكور التى فيها الخراج و الفىء ..... ما خلا أجنادين فانها فتحت فى خلافة أبى بكر الصديق .... وهو أول من مسح السواد و أرض الجبل و وضع الخراج على الأرضين و الجزية على جماجم أهل الذمة فيما فتح من البلدان .... و هو أول من مصر الأمصار : الكوفة و البصرة و الشام و مصر و الموصل و أنزلها العرب وخطط فى الكوفة و البصرة خططاً للقبائل ، و هو أول من استقضى القضاة فى الأمصار ، و هو أول من دون الديوان و كتب الناس على قبائلهم و فرض لهم الاعطية من الفىء ، و قسم القسوم فى الناس وفرض للسلمين على أقدارهم و تقدمهم فى الاسلام ، و هو أول من حمل الطعام فى السفن من مصر فى البحر ثم حمل من البحار إلى المدينة . و كان عمر إذا بعث عاملا له على مدينة كتب ماله و قد قاسم غير واحد منهم ماله إذا عزله منهم سعد بن أبى وقاص وأبو هريرة . وكان يستعمل رجلا من أصحاب رسول الله عليه الصلاة و السلام مثل عمرو بن العاص و معاوية بن أبى سفيان و المغيرة بن شعبة و يدع من هو أفضل منهم مثل عثمان و على وطلحة و الزبير وعبد الرحمن بن عوف و نظرائهم لقوة أولئك على العمل و البصر به ولاشراف عمر عليهم وهيبتهم له ، وقيل له : مالك لا تولى الأكابر من أصحاب رسول الله عليه الصلاة و السلام ؟ فقال : أكره أن أدنسهم بالعمل . واتخذ عمر داراً للدقيق فجعل فيها الدقيق و السويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه، يعين به المنقطع و الضيف ينزل بعمر ، و وضع عمر السبل ما بين مكة و المدينة ما يصلح من ينقطع به ويحمل من ماء إلى ماء .... » (١) . وهذه (الأوليات) تركز على تطور الدولة الاسلامية ونظم حكمها و إدارتها زمن عمر ، كما تبرز معالم

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ـ دار صادر بيروت ج ٣ ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣ .

شخصية الخليفة نفسه ، رحمه الله .

ثم انظر كيف يختار ابن الجوزى لابن حنبل عند تأليفه مناقبه رواية جامعة لعقيدته السلفية فى أمهات مسائلها تشغل أقل من صفحة بما فيها سند الرواية :

« . . . قال لى أحمد بن حنبل إمام أهل السنة و الصابر لله عز وجل تحت المحنة : أجمع سبعون رجلا من التابعين و أئمة المسلمين وفقهاء الأمصار على أن السنة التى توفى عليها رسول الله ﷺ : أولها الرضا بقضاء الله و التسليم لأمره و الصبر تحت حكمه ، و الأخذ بما أمر الله به و النهى عما نهى عنه ، و إخلاص العمل لله ، و الايمان بالقدر خيره و شره ، وترك المراء و الجدل و الخصومات فى الدين والمسح على الخفين ، والجهاد مع كل خليفة بر وفاجر ، والصلاة على من مات من أهل القبلة ، والايمان قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ، والقرآن كلام الله منزل على قلب نبيه ﷺ غير مخلوق من حيث ماتلى ، والصبر تحت لواء السلطان على ما كان منه من عدل أو جور ، ولا يخرج على الأمراء بالسيف وإن جاروا ، ولا يكفروا أحداً من أهل التوحيد وإن عملوا بالكبائر ، و الكف عما شجر بين أصحاب رسول الله ، وأفضل الناس بعد رسول الله أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ابن عم رسول الله ، والترحم على جميع أزواج رسول الله وأولاده وأصهاره رضوان الله عليهم أجمعين . فهذه السنة ألزموها تسليماً ، أخذها بركة و تركها ضلالة » (١) . وهى رواية تشهد لصاحبها بالعلم و الأدب معاً ، إذ أجمل الكثير فى كلام قليل مبين ، كما أنها تشهد لمن اختار هذه الرواية المستوعبة المحكمة باصابة المحز . ويمضى ابن الجوزى رحمه الله فى اختيار مروياته ويوزعها على أبواب كتابه التى بلغت المائة ، وكان منها فى شأن إخلاص أهل العلم و تورعهم عن التظاهر

(١) ابن الجوزى : مناقب الامام أحمد بن حنبل ص ٢٢٨ .

بعلمهم قول ابن حنبل الموجز الحكيم « إظهار المحبة من الرياء » ، و فى الجواب لمن سأله الحب فى الله : « إن لا يحبه لطمع فى دنيا » و فى جواب من سأله عن الفتوة : « ترك ما تهوى لما تخشى » ، و فى وصيته لابنـه عبد الله « يا بنى أنو الخير ، فانك لا تزال بخير ما نويت الخير » . و كان من حكم ابن حنبل المختارة البليغة أيضاً : « يؤكل الطعام بثلاث : مع الاخوان بالسرور و مع الفقرا بالايثار ومع أبناء الدنيا بالمروءة » ، إذا مات أصـدقاء الرجل ذل » . و أخبر أبو بكر المروزى قلت لأبى عبد الله : الرجل يقال فى وجهه أحييت السنة ، قال : « هذا فساد لقلب الرجل » . و روى عن أحمد رحمه الله أنه كان يأتى العرس و الاملاك و الختان و يجيب و يأكل . و دعى هو و يحيى بن معين و جماعة فقدم الداعى لوزينجا أنفق عليه ثمانين درهماً ، فقال أبو خثيمة هذا إسراف ، فقال أحـمد : « لا ، لو أن الدنيا جمعت حتى تكون فى مقدار لقمة ثم أخذها امرؤ مسلم فوضعها فى فم أخيه المسلم لما كان اسرافا » ، فقال له يحيى : صدقت يا أبا عبد الله .

وكل هذه المختارات شاهد على أدب الامام المحدث الفقيه الصابر أحمد بن حنبل ، كما هى شهادة لابن الجوزى الفقيه المؤرخ الأديب . وكتب ابن الجوزى اختياره مذهب أحمد فقال : « اعلم وفقك الله أنه إنما يبين الصواب فى الأمور المشتبهة لمن أعرض الهوى وقصد الحق لطريقه و لم ينظر فى أسماء الرجال ولا فى صيتهم ، فذلك الذى ينجلى له غامض المشتبه فأما من مال به الهوى فعسير تقويمه . و اعلم أنا نظرنا فى أدلة الشرع و سبرنا أحوال الأعلام المجتهدين . . . » . ثم مضى ابن الجوزى يبين نصيب ابن حنبل من العلم بالقرآن و السنة و العلل و اللغة و القياس ، و عقب على ذلك بقوله : « ثم إنه ضم إلى العلوم ما عجز عنه القوم من الزهد فى الدنيـا وقوة الورع . . . . » و قد سبق فى كتابنا هذا من زهده فى المباحات ما يكفى

و يشقى ، ثم إنه ضم إلى ذلك الصبر على الامتحان و بذل المهجة فی نصرة الحق . . . . » ثم يقول : « فأما المجتهد من أصحابه فانه يتبع دليله من غير تقليد له ، و لهذا يميل إلى أحدى الروايتين عنه دون الأخرى ، و ربما اختار ما ليس فی المذهب أصلا لأنه تابع للدليل ، و إنما ينسب هذا إلى مذهب أحمد لميله إلى عموم أقواله » (١) . و أكرم بهذه الأخيرة منقبة للامام الجليل ، و شاهد على توفيقه فی تربية من تابعوه على اتباع السنة و الدليل لا مشايعة الرجال أو الائتمار بأمر أحد غير الله و رسوله صلوات و سلامه عليه .

و نختار من أدب السيرة الذاتية ، نموذجاً معبراً يصور واقعة معينة برواية صاحبها ، و هی أقرب إلى أن تدرج فی أدب المذكرات أو الاعترافات وقد وردت بلسان الصحابی الأنصاری كعب بن مالك رضی الله عنه و كان أحد الثلاثة الذين خلفوا فی غزوة تبوك و نزل فيهم قول الله تعالى يعلن قبول توبتهم من فوق سبع سموات على الملأ « لقد تاب الله على النبی و المهاجرين و الأنصار الذين اتبعوه فی ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رؤف رحيم . و على الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » (التوبة / ١١٧-١١٨) . يقول كعب بن مالك فی رواية صحيح البخاری : « لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فی غزوة غزاها إلا فی غزوة تبوك ، غير أنی كنت تخلفت فی غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها . إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم و بين عدوهم على غير ميعاد ، و لقد

(١) المرجع السابق ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٦٢ .

شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الاسلام و ما أحب أن لى مشهد بدر و إن كانت بدر أذكر فى الناس منها ، كان من خبرى إنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت فى تلك الغزوة و الله ما اجتمعت عندى قبله راحلتان قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد واستقبل سفراً بعيداً و مفازاً و عدداً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم و أخبرهم بوجهه الذى يريد . و المسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له مالم ينزل فيه وحى الله . و غزا رسول الله ﷺ حين طابت الثمار والظلال ، وتجهز والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع و لم أقض شيئاً فأقول فى نفسى أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد الناس الجد فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئاً ، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئاً . فلم يزل بى حتى أسرعوا و تفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتنى فعلت ، فلم يقدر لى ذلك . فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء . و لم يذكرنى رسول الله حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : ما فعل كعب؟ فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله حبسه برداه و نظره فى عطفه ، فقال معاذ ابن جبل : بئس ما قلت ، والله يارسول الله ماعلمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله ﷺ . فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى ، فطفقت أتذكر الكذب و أقول بماذا أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل إن رسول الله قد أظل قادماً زاح عنى الباطل و عرفت أنى لن أخرج

منه أبداً بشئ فيه كذب ، فأجمعت صدقه . و أصبح رسول الله قادماً ، و كان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع ركعتين ثم جلس للناس . فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه و يحلفون له و كانوا بضعة و ثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله علانيتهم و بايعهم و استغفر لهم و وكل سرائرهم إلى الله . فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال . فجئت أمشی حتی جلست بين يديه ، فقال لی : ما خلفك ، ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت : بلى ، إنی و الله يارسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، و الله لقد أعطيت جدلا . و لكنی و الله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب لترضی به عنی ليوشكن الله أن يسخطك علی ، و لئن حدثتك حديث صدق تجد علی فيه إنی لأرجو فيه عفو الله . لا و الله ، ما كان لی من عذر ، و الله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منی حين تخلفت عنك . فقال رسول الله : أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضی الله فيك . فقمت . وثار رجال من بنی سلمة فاتبعونی فقالوا لی: والله ما علمناك أذنبت ذنباً مثل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله ما اعتذر إليه المخلفون ؟ قد كان كافيك استغفار رسول الله ، فو الله ما زالوا يؤنبوننی حتی أردت أن أرجع فأكذب نفسی . ثم قلت لهم : هل لقی هذا معی أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمری وهلال بن أمية الواقفی ، فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً لی فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لی . ونهى رسول الله المسلمين عن كلامنا ، فاجتنبنا الناس و تغيروا لنا حتى تنكرت فی نفسی الأرض فما هی التی أعرف . فلبثنا علی ذلك خمسين ليلة . فأما صاحبای فاستكانا و قعدا فی بيوتهما يبكيان ، و أما أنا فكنت أشب القوم و أجلدهم فكنت أخرج فأشهد

الصلاة مع المسلمين و أطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، و آتى رسول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام على أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه فأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، و إذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ، فسلمت عليه فو الله ما رد على السلام . فقلت : يا أبا قتـــادة أنشدك الله هل تعلمنى أحب الله رسوله ؟ فسكت ، فعـــدت له فنشدته ، فقال : الله و رسوله أعـــلم . ففاضت عيناى ، فتوليت حتى تسورت الجدار فبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا بنبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعـام يبيعه بالمدينـــة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذ جاءنى دفع إلى كتاباً من ملك غســان فاذا فيه : أما بعد ، فانه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، و لم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله يأتينى فقال : إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربها ، وأرسل إلى صاحبى مثل ذلك ، فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . . . . حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة و أنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال الذى ذكر الله : قد ضاقت على نفسى و ضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجداً وقد عرفت أنه قد جاء فرج . و آذن رسول الله توبة الله علينا حين صلى

صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا و ذهب قبل صاحبى مبشرون ، و ركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما . و انطلقت إلى رسول الله فيتلقانى الناس فوجاً فوجاً يهنئونى بالتوبة يقولون ليهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله جالس حوله الناس ، فقام إلى طلحـــة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى و هنأنى و الله ما قام رجل من المهاجرين غيره و لا أنساها لطلحة . فلما سلمت على رسول الله وهو يبرق وجهه من السرور قال: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ؟ قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: بل من عند الله . و كان رسول الله استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، و كنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة . . . . قال رسول الله : أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك . قلت : فانى أمسك بسهمى الذى بخيبر. فقلت: يا رسول الله . إن الله إنما نجانى بالصدق و إن من توبتى أن لا أحدث إلا صـــدقاً ما بقيت ، فوالله ما اعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما أبلانى ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله إلى يومى هذا كذباً ، و إنى لأرجو أ[ن] يحفظنى الله فيما بقيت . . . . » .

فهل سمعت يا أخى أبلغ و أصدق من هذا الأدب العالى النبيل ؟

قد خلف السلف مكتبة ثرية و تراثاً متنوعاً فى التاريخ و التراجم و السير سبق بيان بعض فنونه و ألوانه ، و هى كلها تجمع عمق المعرفة إلى جمال التعبير و تراثنا التاريخى على تنوع مصنفاته تبرز فيه كله الخصائص الاسلامية الجامعة

سلف ذكرها ، مما يجعل تنوع هذا التراث التاريخي تنوعاً فى إطار من الوحدة الجامعة ، و بذلك تبرز فى مصنفات تواريخ الأقطار والدول والمدن وسير الشخصيات قسمات الطابع الفردى المميز . لكنه لا ينفصل أو ينعزل عن (الكل) فمصنفات مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادى أو تاريخ دمشق لابن عساكر أو ولاة مصر وقضاتها للكندى أو رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر العسقلانى ، و المصنفات التى تسجل سيرة صلاح الدين الأيوبى أو محمود الغزنوى ، حافلة بسمات الطابع المشترك لكتابات المسلمين ، من الاستناد إلى الكتاب والسنة ، وتأكيد (للوحدة) الاسلامية فى مختلف جوانبها و إماراتها : و وحدة الدين و وحدة دار الاسلام و وحدة الارتباط بخلافة الاسلام الراشدة و دولته الموحدة و عهود حضارته الزاهرة . و ذلك فضلا عن الطابع المشترك فى نهج التأليف و أسلوب العرض . ولا عجب فى هذا التنوع و التفرد فى إطار الوحدة الجامعة ، فهذه الخصيصة الفذة للاسلام و حضارته . فالاسلام لايهدر التميز الفردى فى داخل جماعة الاسلام ويجيز التنافس فى الخير و البر و الفضائل و إنما يهدر الاستعلاء و التكبر و الغطرسة و الصلف « و أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، و منهم سابق بالخيرات باذن الله » (فاطر / ٣٢) ، « و فى ذلك فليتنافس المتنافسون » (المطففين / ٢٦) . و حضارة الاسلام استوعبت أعراقا و شعوبا وبيئات ، تجلت فيها قسمات شخصيتها فى العادات المباحة ، و أطلقت طاقاتها المبدعة لتسهم فى دولة الاسلام و حضارتها و تتعاون على البر و التقوى و تتنافس فى الخير و المعروف . (— يتبع —)

دراسة خاصة بالشعر المخضرم :

أدب المخضرمين ، فى تاريخ آداب اللغة العربية

سعيد الأعظمى الندوى

هذا النوع من الأدب العربى له أهمية تاريخية وقيمة فنية كبيرة ، فقد عاش الحياة الجاهلية وصورها تصويراً دقيقاً ، ثم قدر له أن ينتقل من جاهلية الحياة إلى إسلاميتها ، ويعيشها كذلك ، فيصورها بأشكالها المختلفة وألوانها المتغيرة ، لذلك فان الشعر العربى الذى نشأ فى الجاهلية و مارس ألوان الحياة فيها و استطاع أن يمدها بأفكاره الأدبية واتجاهاته الشعرية فى تقوية أواصر الحياة القبلية و الاعتزاز بالتقاليد القومية و الافتخـــار بأمجاد الآباء ، و الدفاع عن شرف النسب ، و التغنى بفضل القبيلة ، نقله إسلامه إلى حياة تختلف عن حيـــاته السابقـــة كل الاختلاف ، فبينما كان الشاعر العربى فى الجاهلية يتغنى بأمجاده القبيلة ويدافع بشعره عن حوزة قومه ، ويرفع به ناساً ويخفض به آخرين ، و بينما كان يتخذ شعره ذريعة لتسلية العواطف و إشباع الغرائز و تحريك المشاعر و إيقاظ الشعور القوى و الرد على الأعداء ، إذا هو يرعوى عن غيه و يعود إلى رشده ، فيجعل أدبه الشعرى وسيلة للتربيـــة الدينية و خدمة الانسانية ، و الدعوة إلى الفضائل و المكارم الخلقيـــة ، و التوجيه إلى الايمان بالله ورسوله و الآخرة ، و التفكير فى غاية الحياة و رسالتها فى الحياة الفردية و الجماعية ، و فى الحب الطـــاهر الذى يقوم بدوره العظيم فى بناء الوحدة و بث روح التعاون و الأخوة الصادقة .

و يأتى المخضرمون فى الدرجة الثانية من الناحية الزمنية ، و أدب المخضرمين فى الطبقة الثانية من طبقات الشعر العربى الذى ينقسم على النحو التالى :

١ ـ الشعر الجاهلي .
٢ ـ « المخضرم .
٣ ـ « الاسلامى .
٤ ـ « المحدث .

الشعر الجاهلي :

أما الشعر الجاهلي فذلك هو الأدب الذى اعتمد عليه الجاهليون قبل الاسلام ، وتنافس فيه المتنافسون ، ولم يعتنوا بنوع آخر من آداب لغتهم وإنما ركزوا على الشعر و صبوا فيه كل طاقاتهم البيانية والأدبية حتى بلغوا به إلى ذروة البلاغة والتعبير ، ولم يتركوا أى منهج من المناهج البيانية إلا وقد اختاروه ولا أسلوباً من الأساليب البلاغيه إلا و انتهزوه ، فكان شعرهم نموذجاً عالياً من نماذج الأدب و روائع الكلام ، و نشأ فيهم الفحول من الشعراء الذين كانوا لا يقيمون أى قيمة لأدب أو شعر أو كلام . و كانوا يعتبرون الدنيا كلها عجماء بازاء شعرهم البليغ و كلامهم المعجز ، و لما بلغ بهم الاعجاب بالشعر الجاهلي إلى آخر المدى و لم يعد أى أمل لاعترافهم بأدب قوم أو شعر أمة ، نظراً إلى ما كانوا يتمتعون به من مؤهلات أدبية عظيمة و مزايا شعرية ضخمة ، جاء الاسلام بأدب القرآن و هم بين نشوة أدبية و سكر بيانى ، لا يصمد أمامهم أدب أو أسلوب من الكلام . وقد أعرضوا عنه بادى ذى بدء ، و لم يروه صالحاً للتفكير فيه و الالتفات إليه ، و لكن القرآن كان لابد من أن يغلب عليهم بأدبه و أسلوبه المعجز ، و قد انتهج القرآن فى عدة مواضع منهج الأسلوب الشعرى الذى كانوا قد ألفوه ، ذلك لكى لا يتهموه بالحيد عن الخط الذى كانوا يسلكونه ، وبأنه ليس مما عرفوه ، فكان ذلك ضمن معجزات القرآن الكريم التى احتاروا أمامها ، و لكنهم لم يظهروا عجزهم وضآلة شأنهم فيه

حيال التحديات القرآنية ، رغم أنهم كانوا مأخوذين بسحر الأسلوب القوى الحكيم و الاعجاز البيانى الذى لمسوه فيه ، و ظلوا رافضين كل دليل ، و متعنتين بازاء كل برهان ، ولم يطأطئوا رؤسهم إلا بعد ما خذلهم العون الأدبى ، وفضحهم الادعاء البيانى فى قارعة الطريق .

و لقد تناول الباحثون الشعر الجاهلى وأصحابه بشئ كثير من الدقة والبحث ، فى بيان مكانته و قيمته و تفصيل طبقات الفحول من شعرائه ، و عرض نماذجه و شرحها ، وإن كان هناك بعض النقاد ينكرون الأدب الجاهلى بتاتاً ، و يؤكدون أنه منحول مدسوس ، و لكن ذلك ليس إلا تكذيباً لأعظم واقع تاريخى و ادعاءاً كاذباً اختلقه بعض الأدعياء استكباراً منه وتظاهراً بحقده على الأدب القرآنى المعجز .

الشعر المخضرم :

ولكن الشعر المخضرم ، فهو الذى أدرك العهدين الجاهلى و الاسلامى وعاشهما على السواء و قد وجد عدد وجيه من الشعراء المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية و الاسلام ، و قرضوا فى كل عهد من الشعر ما يتحلى به تاريخ الأدب العربى ، و قد سجل مؤرخو الأدب العربى قيمته الأدبية و بحثوا فيه و تحدثوا عنه .

و قد قال بعض مؤرخى الأدب العربى عن الشعر المخضرم أنه جاهلى فى أصله حيث إنه يتحد معه فى الايجاز وقوة التعبير وطريقة النظم ، وتعدد الموضوعات و براعة الوصف ، و لكنه يمتاز بالروح الدينية التى أضفاها عليه الاسلام .

« فلا ترى فيه يأساً من الحياة و تبرماً بمصيرها ، شأن الشعر الجاهلى ، بل تلمس فيه ارتياحاً شديداً إلى نعيم الآخرة ، إلى الجنة التى وعد بها القرآن المتقين ، و اكتسب الشعر المخضرم خصوصاً و اللغة تعابير جديدة من القرآن ، و ألفاظاً لم تكن مألوفة من قبل ، كالجنة و النار و الكفر و الايمان ، و الصلاة و الزكاة

و الركوع و الوضوء ألخ . . . و هذه الألفاظ كانت معروفة فى الجاهلية ولكنها فى أكثرها لم تكن تدل على معانيها المستحدثة فى الاسلام ، و اكتسب الشعر أيضاً نوعاً جديداً وهو الهجاء السياسى ، هجاء مر مقذع أليم ، كان بين شعراء النبى ﷺ و شعراء قريش و الأحزاب » (١) .

المخضرم لغة و مصطلحاً :

و قبل أن نتحدث عن أدب المخضرمين و نخوض فى شرح حياتهم وآثارهم الشعرية نريد أن نلمح إلى معنى « المخضرم » فى ضوء اللغة والمصطلح ، فنى القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادى ، « المخضرم بفتح الراء ، من لم يختتن ، و الماضى نصف عمره فى الجاهلية و نصفه فى الاسلام ، أو من أدركهما ، أو شاعر أدركهما ، كلبيد ، وأسود أبوه أبيض ، والناقص الحسب ، والدعى ، ومن لا يعرف له أبوه ، أو ولدته السرارى ، و لحم لا يدرى أمن ذكر أم أنثى ، و الطعام التافه ، و الماء بين الثقيل و الخفيف » (٢) .

و جاء فى « خزانة الأدب » لعبد القادر بن عمر البغدادى :

« المخضرم بالخاء والضاد المعجمتين على صيغة اسم المفعول ، ونقل السيوطى فى شرح تقريب النووى عن بعض أهل اللغة كسر الراء أيضاً ، قال صاحب القاموس : هو الماضى نصف عمره فى الجاهلية و نصفه فى الاسلام ، و قيل من أدركهما ، و هذان القولان يعمان الشاعر و غيره ، و قيل : الشاعر الذى أدركهما ، و هذا هو المشهور و عليه اقتصر صاحب الصحاح ، ثم توسع حتى أطلق على من أدرك دولتين كرؤبة بن العجاج و حماد عجرد فانهما أدركا دولة بنى أمية و دولة

(١) أدباء العرب لبطرس البستانى ج ١ / ص ٢٦٥ .

(٢) القاموس المحيط ، للفيروزآبادى ، مادة خضرم .

بنى العبـــــاس ، و قال السيوطى فى شرح التقريب : المخضرم فى اصطلاح أهل الحديث هو الذى أدرك الجاهلية و زمن النبى ﷺ و لم يره ، وفى اصطلاح أهل اللغة هو الذى عاش نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الاسلام سواء أدرك الصحبة أم لا : فبين الاصطلاحين عموم و خصوص من وجه ، لحكيم بن حزام مخضرم باصطلاح اللغة لا الحديث ، و بشر بن عمرو مخضرم باصطلاح الحديث لا اللغة ، انتهى ، و فى تعريفه اصطلاح اللغـــة نظر و تأمل ، ثم قال : و المراد بادراك الجاهلية ماقبل البعثة كما قال النووى فى شرح مسلم ، قال العراقى : وفيه نظر ، والظاهر أدرك قومه أو غيرهم على الكفر قبل فتح مكة ، فان العرب بعـــده بادروا إلى الاسلام و زال أمر الجاهلية ، و خطب ﷺ فى الفتح بابطال أمرها ، و قد ذكر مسلم فى المخضرمين بشير بن عمرو و إنما ولد بعد الهجرة ، قال ابن رشيق فى العمدة قال أبو الحسن الأخفش : ماء خضرم كزبرج إذا تناهى فى الكثرة والسعة فنه سمى الرجل الذى شهد الجاهلية والاسلام مخضرماً كأنه استوفى الأمرين ، قال ويقال ، أذن مخضرمة إذا كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الاسلام ، و حكى ابن قتيبة عن عبد الرحمن عن عمه (١) ، قال : أسلم قوم فى الجاهلية على ابل قطعوا آذانها فسمى كل من أدرك الجاهلية والاسلام مخضرماً ، و أنه لايكون مخضرماً حتى يكون إسلامه بعد وفاة النبى ﷺ ، وهذا عندى خطأ ، لأن النابغة الجعدى و لبيداً قد وقع عليهما هذا الاسم ، و حكى على بن الحسن كراع : يقال شاعر محضرم بحاء غير معجمة مأخوذ من الحضرمة وهى الخلط لأنه خلط الجاهلية و الاسلام ، و حكى ابن خلكان مع الحاء المهملة كسر الراء أيضاً » (٢) .

---

(١) هو الأصمعى .

(٢) خزانة الأدب ، للبغدادى ج ١ / ص ٢٤٥ ـ ٢٤٦ .

و يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى حيث يذكر طبقات الشعراء :

« و أصل المخضرم عندهم من أدرك الجاهليـــة و الاسلام ، ثم أطلقوه على هذه الطبقة ، فقـالوا : شاعر مخضرم ، قال ابن برى : أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم ـ بكسر الراء ـ لأن أهل الجاهلية لما دخلوا فى الاسلام خضرموا آذان أبلهم : قطعوا أطرافها ، (و كان اهل الجاهلية يخضرمون نعمهم فلما جاء الاسلام أمروا أن يخضرموا من غير الموضع الذى يخضرم فيه أهل الجاهلية) لتكون علامة لاسلامهم إن أغير عليها أو حوربوا ، و يقال لمن أدرك الجاهلية و الاسلام مخضرم ـ بكسر الراء ـ و أما من قال : مخضرم ـ بفتح الراء ـ فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر إلى الاسلام (١) .

و جاء فى لسان العرب « لابن منظور » :

« و أصل الخضرمة أن يجعل الشق بين بين ، فاذا قطع بعض الأذن فهى بين الوافرة و الناقصة ، و قيل هى المنتوجة بين النجائب و المكاظيات ، و منـــه قيل لكل من أدرك الجاهلية والاسلام مخضرم (بفتح الراء) لأنه أدرك الخضرمتين . . قال ابراهيم الحربى : خضرم أهل الجاهلية نعمهم ، أى قطعوا من آذانها فى غير الموضع الذى خضرم فيه أهل الجاهلية ، فكانت خضرمـــة أهل الاسلام بائنة من خضرمة أهل الجاهلية ، وقد جاء فى حديث أن قوماً من بنى تميم بيتوا ليلا وسيق نعمهم فادعوا أنهم خضرموا خضرمـــة الاسلام ، و أنهم مسلمون فردوا أموالهم عليهم ، فقيل لهذا المعنى : لكل من أدرك الجاهلية والاسلام مخضرم ، لأنه أدرك الخضرمتين ، خضرمة الجاهلية وخضرمة الاسلام ، ورجل مخضرم لم يختتن ، ورجل

(١) تاج العروس ، ج٧ / ص ٢٨ / نقلا عن تاريخ آداب العرب ، للرافعى ج ٣ / ص ٦٢ .

مخضرم إذا كان نصف عمره فى الجاهلية ونصفه فى الاسلام ، وشاعر مخضرم أدرك الجاهلية و الاسلام ، مثل لبيد و غيره ممن أدركهما ، قال الشاعر :

إلى ابن حصان لم تخضرم جدوده
كثير الثنا و الخيم و الفرع و الأصل

و قال ابن خالويه : خضرم خلط ، و منه المخضرم [بكسر الراء] الذى أدرك الجاهليه و الاسلام ، و رجل مخضرم [بفتح الراء] أبوه أبيض و هو أسود ، و رجل مخضرم ، ناقص الحسب ، و قيل هو الذى ليس بكريم النسب ، و رجل مخضرم النسب ، أى دعى ، وقد يترك ذكر النسب فيقال : المخضرم الدعى ، و قيل المخضرم فى نسبه المختلط من أطرافه ، وقيل : هو الذى لا يعرف أبواه ، وقيل : هو الذى ولدته السرارى ، و قوله :

فقلت أذاك السهم أهون وقعة
على الخضر أم كف الهجين المخضرم

إنما هو أحد هذه الأشياء التى ذكرناها فى الحسب و النسب » (١) .

الشعر فى الاسلام :

لم يفقد الشعر رواءه وقوته فى الاسلام بل إنه دخل بعد ذلك مجالا شعرياً أوسع مما كان عليه فى الجاهلية ، ذاك أن قريشاً لما حاربت النبى ﷺ ودعوته بالسيف و باللسان كليهما و نهض فرسانها بقتال المسلمين و قام شعراؤها بمحاربتهم و تثبيط همهم بالهجاء ، أقبل شعراء المسلمين مع شجعانهم فى الحرب ، على الدفاع عن حوزة الدين و عن شخصية النبى ﷺ ، و قابلوا الهجاء بالهجاء و الكلام بالكلام ، بعد ما أذن لهم النبى ﷺ بذلك ، فاكتسب الشعر نهضة أدبية ، وغزرت مادته واتسع نطاقه ،

(١) لسان العرب ، لابن منظور ج ١٥ / مادة خضرم .

و تشعبت طرقه .

كان ذلك عطاء الثورة التى جاء بها الاسلام ، للشعر العربى ، فاكتسب بها الشعر تأثيراً أبلغ فى النفس ، و رقت معانيه الشعرية بعد ما استخدمه المسلمون بايعاز من نبيهم ﷺ فى صالح الدين ، و مصالح الحياة الجديدة التى عرفها الناس بفضل الدعوة إلى الدين الخالص . و من هناك نشأ نوع جديد من الشعر ، لم يكن جاهلياً فى معناه و فى الهدف الذى توخاه . و لكنه كان يمتاز عن الشعر الجاهلى فى رصانة السبك ، وجودة الأسلوب ، وبلاغة التعبير ، و عذوبة النغم ، كل ذلك جعل الشعر العربى يتطور و يتحسن ، و يخرج من ضيق الفضاء إلى الجو الواسع ، من نطاق القبائل الضيق إلى ساحة الحياة الواسعة بطريق أشمل و أجمل .

و تلك هى المرحلة الجديدة للشعر التى عرفها الشاعر المسلم و انتقل إليها بخطوات حثيثة وقد تذمر المرحلة الجاهلية للشعر و سئم منها ، وأطلق عنان الخيال فى هذا المجال الجديد ، و قرض فيه من الشعر ما تيسر له لخدمة أغراض دينية و خلقية ، و تمكن من الجمع بين الشعر الجاهلى و الشعر الاسلامى ، و هو الذى نعبر عنه بالشعر المخضرم .

ثلاثة من الشعراء المخضرمين :

ولقد أولى مؤرخو الأدب والمغازى عناية فائقة بثلاثة من الشعراء المخضرمين ، ممن كانوا فى الدرجة الأولى ، واختارهم النبى ﷺ للدفاع عن الاسلام بشعرهم ، وهم كعب بن مالك وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة ، اختارهم للرد على مهاجاة شعراء قريش الخمسة الذين كانوا يعارضون النبى ﷺ و يقاومون شعراءه ، و هم عبد الله الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، و عمرو بن العاصى ، وضرار ابن الخطاب (١) و هبيرة بن أبى وهب .

(١) مستفاد من « أدباء العرب » لبطرس البستانى .

إن هؤلاء الفئة الخمسة من قريش إنما كانوا من أشد مناوئى الرسول ﷺ ، وما كانوا يتركون فرصة إلا وينتهزونها لتوجيه ضربات كلامية قاسية نحو المسلمين .

أما عبد الله بن الزبعرى بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، فكان شديد الهجاء للمسلمين و الأنصار ، و قد قال فى يوم أحد قصيدة يقول فيها :

كل بؤس و نعيم زائل ‏ ‏ ‏ و بنات الدهر يلعبن بكل

و قد هجا المسلمين فى يوم أحد فقال :

يا غراب البين أسمعت فقل ‏ ‏ ‏ إنما تنطق شيئاً قد فعل

فرد عليه حسان بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه بقصيدة مماثلة بحراً وقافية ، و هذا مطلعها :

ذهبت بابن الزبعرى وقعة ‏ ‏ ‏ كان منا الفضل فيها لو عدل

كذلك له قصائد عدة قالها فى يوم أحد ، ورد عليها حسان بن ثابت الأنصارى و غيره من شعراء الاسلام ، ثم أسلم ابن الزبعرى و مدح النبى ﷺ بأبيات من الشعر ، و اعتذر إليه فأحسن ، فقال فيها :

يا رسول المليك إن لسانى ‏ ‏ ‏ راتق ما فتقت إذ أنا بور

و مدحه فى قصيدة مطلعها :

منع الرقاد بلابل و هموم ‏ ‏ ‏ و الليل معتلج الرواق بهيم (١)

و كذلك لا يجهل أحد هجاء أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب لرسوله الله ﷺ و رد حسان رضى الله عنه على هجائه ، كما يقول :

هجوت محمداً فأجبت عنه ‏ ‏ ‏ و عند الله فى ذاك الجزاء

أتهجوه و لست له بكفو ‏ ‏ ‏ فشركما لخيركما الفـــداء

و يقول :

ألا أبلغ أبا سفيــان عنى ‏ ‏ ‏ فأنت مجوف نخب هواء

---

(١) أنظر السيرة لابن هشام ، و طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى .

وجاء فى الخبر : أخبرنا محمد بن عثمان الجعفرى عن عبد الرحمن بن محمد عن الهيثم بن عدى عن مجالد عن الشعبى ، قال أتى حسان بن ثابت إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : إن أبا سفيان بن الحارث هجاك ، و أسعده على ذلك نوفل بن الحارث و كفار قريش ، أفتأذن لى أهجوهم يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ : فكيف تصنع بى ؟ فقال : أسلك منهم كما تسل الشعرة من العجين ، قال له : اهجهم و روح القدس معك ، و استعن بأبى بكر ، فانه علامة قريش بأنساب العرب ، فقال حسان يهجو نوفل بن الحارث :

و إن ولاة المجد من آل هاشم — بنو بنت مخزوم و والدك العبد
و ما ولدت أبناء زهرة منهم — صميماً و لم يلحق عجائزك المجد
فأنت لئيم نيط فى آل هاشم — كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

قال : فلما أسلم أبو سفيان بن الحارث قال له النبى ﷺ : أنت منى وأنا منك ، و لا سبيل إلى حسان (١) .

وكان أبو سفيان فى يوم أحد يرد على حسان بن ثابت ، وكان أصحاب رسول الله ﷺ أصابوا فى عقب بدر عيراً لقريش فيها فضة فكانوا تنكبوا [بعد] طريق الشام و أخذوا طريق العراق فقال حسان :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها — جلاد كأفواه المخاض الأوارك
بأيدى رجال هاجروا نحو ربهم — وأنصاره حقاً و أيدى الملائك
إذا سلكت حوران من أرض عالج
فقولا لها : إن الطريق هنالك (٢)

(١) جمهرة أشعار العرب ، لابن أبى الخطاب القرشى ص / ٣٠ - ٣١ طبع دار صادر بيروت .

(٢) فلجة : بفتحتين المزرعة أو ما يشق فى الأرض للديار ، وهى الأنهار الصغار ★

فلما كان يوم أحد قال أبو سفيان بن الحارث يرد عليه :

شقيتم بها ، وغيركم أهل ذكرها   فوارس من أبناء فهر بن مالك

حسبتم جلاد البيض حول بيوتكم   كأخذكم فى العير أرطال آنك (١)

فقال أبو سفيان بن حرب لأبى سفيان بن الحارث : يا ابن أخى ، لم جعلتها آنك ، ! ! إن كانت لفضة بيضاء جيدة » (٢) .

أما عمرو بن العاصى القرشى فكان من فرسان قريش وأبطالهم فى الجاهلية ، وكان شاعراً حسن الشعر ، و من شعره فى أبيات له يخاطب عمارة بن الوليد بن المغيرة عند النجاشى :

★ تفجر فى أرض الزرع كالقنوات .

الجلاد : التضارب بالسيوف فى القتال ، و لكن الشاعر يعنى هنا ضربات السيوف و طعنات الرماح .

المخاض : النوق الحوامل ، ليس لها واحد من لفظها .

الأوارك : جمع آركة ، الناقة التى ترعى شجر الأراك .

حوران : اسم جبل عن ميامن حرة ليلى القصوى ، وهو أدنى أعلام الشام .

عالج : رمل عالج فيما بين اليمامة و البصرة .

(١) شقيتم بها يعنى بالحرب ، يشير إلى هذه الهزيمة التى ابتلى بها الله المسلمين فى يوم أحد .

جلاد البيض : فيها إشارة إلى الفضة التى أصابوها فى عير قريش .

الآنك : الرصاص الأبيض ، على وزن أفعل بضم العين ، ما جاء على هذا الوزن مفرد غير هذا اللفظ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام الجمحى ص / ٢٠٨ .

إذ المرء لم يترك طعاماً يحبه ... و لم ينه قلباً غاوياً حيث يمما
قضى وطراً منه و غادر سبة ... إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما (١)

وله قصائد هجائية فى يوم أحد ، يقول وهو يهجو المسلمين والأنصار يوم أحد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا
مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق

تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع و الأمانى تصدق
فما راعهم بالشر إلا فجاءة ... كراديس خيل فى الأزقة تمرق

فرد عليه كعب بن مالك بقوله :

ألا أبلغا فهراً على نأى دارها ... و عندهم من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب ... صبرنا و رايات المنية تخفق
لنا حومة لا تستطاع يقودها ... نبى أتى بالحق عف مصدق

و له قصائد أخرى فى هجو المسلمين رد عليها كعب بن مالك ، و قد كان شديد العداء للاسلام و المسلمين قبل أن يسلم ، فلما أسلم قبل الفتح انعكست القضية و أصبح من أحب و أقرب أصحاب النبى ﷺ إليه .

وكان ضرار بن الخطاب بن مرداس من فرسان قريش و لم يكن فى قريش أشعر منه ، و له قصائد تناول فيها المسلمين بالهجاء اللاذع يوم أحد ، وله فى رثاء أبى جهل شعر كذلك رواه ابن هشام فى السيرة .

« و لقى ضرار بن الخطاب يوم أحد عمر بن الخطاب فى الجولة التى جالها المسلمون ، و كان قد آلى أن لا يقتل يومئذ قرشياً فضربه بعارضة سيفه و قال : أنج يا ابن الخطاب ، فضرب الدهر ما ضرب ، وولى عمر بن الخطاب ، فسمعت

(١) كتاب الاستيعاب للذهبى ج ٢ / ص ٤٣٦ .

أم غيلان بذكر ابن الخطاب فظلته ضراراً ، فقدمت عليه فقال لها قوم : قدمت و هو غائب ، فأتت عمر فأخبرته بالذى جاءت له فأثابها » (١) .

و مما قاله فى يوم أحد و هو يهجو المسلمين :

إنى وجدك لولا مقدمى فرسى — إذ جالت الخيل بين الجزع والقاع
ما زال منكم بجنب الجزع من أحد — أصوات هام تزاقى أمرها شاعى
وفارس قد أصاب السيف مفرقه — أفلاق هـامته كفروة الراعى (٢)

أما هبيرة بن أبى وهب بن عامر بن عائذ بن عمران بن مخزوم فكان من شعراء قريش كذلك ، وكان من أشد الناس عداوة لله و لرسوله فعاقبه الله بالطرد و الخمول ، و ذلك هو الذى يقول فى يوم أحد :

قدنا كنانة من أكناف ذى يمن — عرض البلاد على ما كان يزجيها
قالت كنـانة أنى تذهبون بنـا — قلنا النخيل فأموها و ما فيهـا (٣)

و مطلعها :

ما بال هم عميد بات يطرقنى — بالود من هند إذ تعدو عواديها

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

سقتم كنانة جهلا من سفـاهتكم — إلى الرسول فجند الله مخزيهـا
أوردتموها حياض الموت ضاحية — فالنار موعدها و القتل لاقيهـا

(١) طبقات فحول الشعراء ، لابن الجمحى ص / ٢١١ .

(٢) الجزع : منعطف الوادى — القـاع : المنخفض من الأرض — تزاقى : تصيح — شاعى : أراد بها شائع ، و لكنـه قلب — فروة : و يروى مكانها قروة : و هو إناء من خشب يحملها الراعى .

(٣) النخيل يريد بها مدينة الرسول ﷺ ، وزعم البعض أنها النخيل بالتصغير ، بئر قرب المدينة ، (أنظر طبقات فحول الشعراء) .

كما و قد رد عليه كعب بن مالك ، بقصيدته الطويلة التى بدأها بقوله :

ألا هل أتى غسان عنا و دونهم   من الأرض خرق سيره متنعنع
صحار و أعلام كأن قتامها   من البعد نقع هامد متقطع (١)

موقف الاسلام من الشعر :

و بعد أن مررنا بهذه اللمحات عن أحوال هؤلاء النفر من شعراء قريش ممن كانوا سبباً فى الواقع لوجود الشعر الاسلامى فى عهد النبى ﷺ ، و خاصة شعر الدفاع عن الاسلام و عن نبى الاسلام ﷺ الذى تولاه الشعراء الثلاثة بوجه عام ممن سبق ذكرهم ، كعب بن مالك ، حسان بن ثابت ، وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم ، وقبل الحديث عن الشعراء المخضرمين ، أحب أن أوضح موقف النبى ﷺ من الشعر ، وصلته به وعلمه له ، واستحسانه إياه ، فقد يظن بعض من أغفل هذا الجانب الأدبى المهم أن الاسلام لا يشجع الشعر ، و لا يراه ملائماً للاتجاه الدينى .

و لو لا أن النبى ﷺ أولى الشعر أهمية قصوى نظراً إلى ما كان له من جولة و صولة فى حياة العرب ، و إلى ما كان له من دور مهم فى حياتهم القبلية و الاجتماعية لما وجد فى الاسلام شعر ولا شاعر ، ولتوقف التاريخ عن تسجيل هذا الركن الأدبى المهم ، و الاحتفاظ بهذا التراث الشعرى الضخم ، و واجه تاريخ الأدب العربى نقصاً كبيراً يقطعه عن ماضيه الأدبى قطعاً باتاً ، و سقطت حلقة قيمة من الاستمرار التاريخى اللغوى و التسلسل الأدبى الشعرى .

لذلك كان اعتناء النبى ﷺ بالشعر مقتضياً له وراء حكمة دينية عظيمة فباعتنائه بالجانب الشعرى فى الاسلام تأكدت أهمية الشعر الجاهلى الذى كان منتهى العرب فى الفصاحة و البلاغة ، و كان قمة عظمتهم الأدبية ومفاخرهم البيانية ، و فى خلال

(١) ابن هشام (السيرة النبوية) ج ٣ / ص ١٣٦ — ١٣٩ ، (متنعنع) معناه مضطرب ، و المراد من (أعلام) الجبال المرتفعة .

هذا المرح الأدبي و العلو البلاغي الذى كانوا يعيشون و يتظاهرون به نزل القرآن الكريم الذى تحداهم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ، والنتيجة معلومة لا خفاء فيها .

فكيف يمكن رفض قيمة الشعر فى الاسلام ، وإنكار مكانة الشعر الجاهلي الأدبية والبيانية ، بصرف النظر عن قيمته المعنوية التى لاتهم المؤرخ المسلم حينما يؤرخ آداب اللغة العربية ويسجل ملاحظاته عن النواحي البلاغية والأدبية الخالصة للكلام العربي .

ثم إنه كان لابد مع ذلك من صرف عنايات الشعراء من سفسفة المعانى و ركاكة المفاهيم إلى نقاء المفاهيم و جودة المعانى ، و تجريد الشعر عما تعود عليه الجاهليون من وصف مذموم و هجو قبيح ، و تهجين و تقبيح و تعيير . و تركيز على سلبيات ، و مدح شائن ، وفخر و اعتزاز و استعلاء و مكابرة على الحقائق ، و رفض للقيم الخلقية ، و قول ما لا يفعلون ، و قد أشار إليه القرآن الكريم فقال « و الشعراء يتبعهم الغاون » .

كان لابد من التاكيد على أن الشعر ليس أداة للتسلية واللهو والفخر والمجون ، و ليس مجالا للتيه و الغواية ، و إنما هو أدب يربئ لم يخلق لمثل هذه الاغراض السافلة و الغايات الخسيسة ، و قد نال الشعر العربي طريقه الواضح المستقيم نحو الأغراض النبيلة بعد ما تناوله الاسلام بالنقد و وضعه على محك الامتحان .

أما إذا أهمل خطب الشعر العظيم ، و ختم عليه بالتحريم أو بالكراهية و المقت على أقل تقدير فليس معنى ذلك إلا رفض الأساس الذى بنى عليه القرآن الكريم تحديه ، ودعا من أجله العرب الجاهليين إلى النظر فى الاعجاز الذى ينطوى عليه ، و لذلك فقد كان الرسول ﷺ شديد الاعتناء بالشعر . يأمر أصحابه الشعراء بالرد على شعر المشركين من قريش ، و يطالبهم بالانشاد مع اطلاعه الواسع على ما فيه من حكم و سحر ، و ما فيه من تأثير كتأثير السلاح و سيطرة على النفس و نفوذ فى الأعماق ، فقد روى الخطيب و ابن عساكر عن حسان رضى الله عنه

أن النبى ﷺ قال له : « اهج المشركين وجبريل معك ، إذا حارب أصحابى بالسلاح فحارب أنت باللسان » وجاء فيما رواه ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن محمد بن مسلمة بلفظ « يا حسان أنشدنى من شعر الجاهلية ، فان الله قد وضع عنك آثامها فى شعرها وروايته » وقال لحسان رضى الله عنه « قل وروح القدس معك (١) » .

وإذا كان هناك نفر من المستشرقين يزعمون أن الاسلام انتشر بين العرب انتشاراً جغرافياً سياسياً دون أن يجد الاسلام الثقافى طريقاً إلى قلوب المسلمين ، إلا فى العصر العباسى فذاك زعم باطل لايستند إلى حجة ، لأن الأدب العربى قد انصبغ بالصبغة الاسلامية منذ عناية الرسول ﷺ و اهتمامه الكبير بالشعر .

وفيما يتصل بموضوع اهتمام النبى ﷺ بالشعر أمراً و علماً به ، و استحساناً وارتياحاً له ، فمجاله واسع ، سيتضمن بحثنا فى أدب المخضرمين و دراستنا لحياتهم و آثارهم كل هذه الجوانب باذن الله تعالى .

و سنتوسس هذا البحث (إن شاء الله تعالى) على ثلاثة أبواب رئيسية ، كل باب يشتمل على ذكر طائفة من الشعراء المخضرمين ودراسة شعرهم ، و تسجيل نماذج من كلامهم و بيان الأهمية التى يحملها من النواحى الأدبيـــة ، و التعبيرية ، مع الاشارة إلى الواقع الذى يقوم عليه و يفسره .

و سنبدأ الكلام فى الباب الأول حول الثلاثة من الشعراء المخضرمين الذين تقدم ذكرهم فى سياق البحث عن الشعر المخضرم ، و وقع عليهم اختيار النبى ﷺ للرد على المشركين ، بوجه عام ، و هم :

١ — كعب بن مالك — ٢ — حسان بن ثابت الأنصارى — ٣ — عبد الله بن رواحـة رضى الله عنهم ، و سيكون حديثنـا القـادم ـ باذن الله ـ حول الشاعر المخضرم كعب بن مالك رضى الله عنه .

---

(١) و لمزيد الاطلاع راجع مقدمة عبد القـاهر الجرجانى على كتـاب دلائل الاعجاز .

التضامن الاسلامى فى العصر الحـــديث
ضرورته و وسائله

[الحلقة الأولى]

الدكتورة نادية شريف العمرى

توطئــة :

إن التضـــامن الاسلامى مطلب كل فرد مسلم ، و أنشودة كل مؤمن ناضج الفكر متقد المشاعر متيقظ القلب ، و غاية كل مجتمع عاش فى ظل الاسلام و نعم بعدالته ورحمته و تسامحه ، و تمتع إخوانه برغد العيش ، و عرف فى حماه مدلول الأمن على النفس و الشرف و المـال ، و ذاق فى رحابه طعم الحرية فى أوسع معناها وفى شتى ميادينها : حرية الرأى والفكر و الكلمة ، حرية العقيدة و العبادة ، حرية التعلم و ممارسة العمل المشروع .

والتضامن فى واقع الأمر عنوان القوة و مفتاح المجد ، و مقدمة حصينة لكل فلاح و لكل نجاح فى الشئون العامة و الخاصة ، و الداخلية و الخارجيـة ، و هو قانون هام من قوانين المجتمعات المتحضرة الراقية ، و عنصر جوهرى من عنـاصر الحياة السعيدة الملائمة للفطرة الانسانية .

و التضامن الاسلامى لازم من لوازم عقيدة التوحيد ، ودعامة من دعائمها ، و إذا كانت الحاجة ماسة فى كل وقت لتضامن المسلمين و اجتماع كلمتهم و اتحـاد صفوفهم فهى أبرز ما تكون فى هـــذا الوقت المعـاصر ، الذى تجمعت فيـه قوى الشر و العدوان ضد المسلمين ، يشير إلى هذا الوضع ما صح فى دلائل النبوة عن النبى ﷺ (توشك الامم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها) فقـال

قائل : أومن قلة نحن يومئـــذ ؟ قال : (لا ، بل أنتم كثيرون و لكنكم غثاء كغثـاء السيل ، و لينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم و ليقذفن فى قلوبكم الوهن) ، قال قائل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : (حب الدنيا وكراهية الموت) (١) .

فالظروف الحالية المحيطة بالمسلمين تفرض عليهم حتمية التضـــامن الاسلامى و وحدة الصف وإزالة الخلافات الجانبية ، ذلك لأن العدو متربص بهم الدوائر ، و هو يتخذ من تفرق كلمتهم و من تمزق وحدتهم منفذاً لتحقيق أغراضه الدنيئة ، و أفكاره الاستعمارية الخبيثة .

لقد استطاعت الصهيونية أن تلم شعثها من عوالم مختلفة ، و آفاق متبـاعدة و أن تتفق مع الشيوعية الملحدة و مع الاستعمار الحاقد لتتخذ موطناً لها فى قلب البلاد العربية بعد أن اقتطعت هذا الجزء الغـالى من الديار الاسلامية ، و من هذا الموطن يبيتون مؤامراتهم و يضعون خططهم لتمزيق الفكر الاسلامى و للقضاء على الوحدة الاسلاميـــة ، و يعملون متآزرين لاثارة الفتن و الأزمات و الاضطرابات السياسية و الاقتصادية فى البلاد الاسلامية ، و لم يتوانوا لحظة واحدة عن إثارة أسباب العداء بين طبقات الشعب الواحد ، حتى أصبحت الجـاعة الواحدة و الشعب الواحد طبقـات متحاربة متبـاغضة ، ساحة المعركة من ميدانها الحقيق إلى داخل البلد الواحد ، فهذا يمنى و ذاك يسارى ، و هـــذا تقدمى و ذاك رجعى ، و هـــذا يقتل ذاك و بعضهم يأخذ برقاب بعض ، باسم هذه الشعـارات الجوفاء التى أثارها العدو المـاكر . .

والدعوة إلى التضامن الاسلامى لا تأتى تلبية للحاجة الملحة و للظروف المحيطة

---

(١) رواه أبو داود و أحمد بن حنبل ـ ٥ / ٢٢٥ .

بالأمة الاسلامية فقط و إنما هى استجابة لأمر إلهى ، و تحقيق لمطلب دينى ، قال الله تعالى : (و ألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) (١) و قال جل من قائل : (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم) (٢) وقال جل شأنه : (إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شئ) (٣) وقال سبحانه : (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) (٤) و قال : (و لا تكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات و أولئك لهم عذاب عظيم (٥) .

و قال رسول الله ﷺ : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) (٦) وقال : (المؤمن أخو المؤمن لا يخذله و لا يقتله ولا يسلمه ، بحسب امرئ من الاثم أن يحقر أخاه) وقال : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى و السهر) (٧) .

و التضامن الاسلامى ضرورة لازمة لحماية ديننا و دنيانا من الغزو الفكرى الهدام الذى يحمل راية الالحاد و الفوضوية و الاباحية و الشيوعية ، و يعتقد — افتراء و بهتاناً و ظلماً و عدواناً — أن الدين أفيون يخدر الشعوب .

والتضامن الاسلامى تعبير صادق عن المشاعر القوية التى تحملها قلوب الملايين

---

(١) الأنفال / ٦٣ . (٢) الحجرات / ١٠ .

(٣) الأنعام / ١٥٩ .

(٤) آل عمران / ١٠٣ . (٥) آل عمران / ١٠٥ .

(٦) رواه البخارى و الترمذى و النسائى و أحمد . (٧) البخارى .

من المسلمين الذين يحسون إحساساً حقيقياً بالروابط الثقافية و التاريخية و الجغرافية و الاجتماعية . . يؤكد هذا تزايد أعداد حجاج بيت الله الحرام عاماً بعد عام ، و اجتماع قادة الفكر ، والعلماء و أهل الحل و العقد ، و تبادلهم وجهات النظر فى القضايا الاسلامية المطروحة على بساط البحث .

يقول الأستاذ محى الدين القابسى فى كتابه التضامن الاسلامى : (. . . . . و التضامن الاسلامى ما هو إلا مبادرة طبيعية من الشعوب الاسلامية التى تعد بالملايين لارساء قواعد حياتها على أسس متينة فى عالم تتنازعه المطامع وتمزقه الأهواء و تشن فيه المبادىء الملحدة حرباً شرسة ضد التراث الحضارى الانسانى (١) .

أسباب انقسام الأمة الاسلامية :

لقد تكالبت قوى الشر و وقفت مجتمعة ، متحدة ، متماسكة الأيدى ، توجه للعالم الاسلامى ضربات قاسية وشديدة مريرة ، ضربات دامية مرهقة، ضربات حاقدة لئيمة خبيثة ، حتى كادت تذهب بالأنفاس وتخمد الحركة ، لولا أن من الله علينا من فضله فأبقى لنا بقية من حياة ، و شعلة تلتف حولها ، و مبادىء تجمع بيننا و أهدافاً نرنو إلى تحقيقها و قبلة نتوجه إليها و شعائر نؤديها مجتمعين ، و ركائز يقوم عليها كياننا الاسلامى الممتد عبر الدهور والأزمان ، منذ انبثاق فجر التوحيد إلى يومنا هذا .

أجل لقد تحالفت قوى الشر والضلال من صهيونية ماكرة شرسة ، و صليبية حاقدة مريعة و شيوعية خبيثة لئيمة لتطعن فى الجسم الاسلامى و الكيان المؤمن بالله المعتصم بحبله ، وكانت أولى تلك الضربات إبعاد الخلافة الاسلامية عن الوجود و الواقع الانسانى ، و الاطاحة بها وتحطيم دعائمها ، و بث الدعاية الباطلة ضدها ، و اتهامها بشتى الاتهامات الشنيعة كيلا يفكر المسلمون باعادتها مرة ثانية ، وألصقوا

(١) التضامن الاسلامى ص ٢٨ .

تهمة التخلف و الرجعية و التعارض مع النهضة و التقدم و الرقى ، و اتهموا الخلافة العثمانية بالرجل المريض الضعيف الذى يجب بتره و التخلص منه و إلا يبقى وصمة تخلف فى جبين البشرية ، دبروا المؤامرات الخبيثة للقضاء على الخلافة ، وصدرت المؤلفات الضخمة لتطرح مائة مشروع لتقسيم الممتلكات العثمانية بين الدول الأوروبية على أن يكون للصهيونية نصيب منها ، و خدعت بعض الأشخاص من الأتراك و العرب و غررت بهم و ضللتهم بادعاءاتها الباطلة و أمسكتهم معاول فاتكة حادة قوية لهدم الكيان الاسلامى و لتمزيق وحدته و تفتيت قوته ، فنادوا كالببغاوات بالقومية ودعوا إلى تتريك اللغة و أجهزة الحكم و الادارة ، والمكاتبات الرسمية ، و كان ما كان من مأساة القومية لسلخ تركيا عن الوطن الاسلامى . . و على الطرف الآخر . . العربى . ظهرت دعوة قومية ، تسير فى الاتجاه السابق نفسه .

الضربة الثانية :

استطاعت أن تمزق كيان الأمة الاسلامية إلى أجزاء متعددة و أن تجعل من الدولة القوية دويلات ضعيفة ، و من البلد الواحد المتعاضد بلدان متباعدة متعادية . . كل هذا بقصد أن تبسط الدول الأوروبية الاستعمارية سلطانها على هذه الأجزاء ، و فعلا أخضعتها إلى سلطتها الأوروبية ، لتستغل خيرات تربتها و أرضها ، و لتستخدم طاقاتها البشرية لتحقيق أطماعها العدوانية و الاقتصادية ، و لتبنى مجدها على أكتاف أناس عاملين بصمت ، مأخوذين بشدة الضربات المتتالية . . فسوريا و لبنان خضعتا لنفوذ فرنسا ، و مصر و السودان و العراق و الأردن خضعت لأطماع انجلترا ، و الشمال الأفريقى خضع لسيطرة فرنسا ، و الهند ـ لسلطان انجلترا ، وبذل الاستعمار ما بذل لابعاد الوسط الأفريقى عن التأثر بالدين الاسلامى .

الضربة الثالثة :

تمكنت من بذر بذور الاختلاف و الشقاق و التناصر و التصارع بين تلك الدويلات الاسلامية ، فلكل دولة اتجاهها السياسى المختلف عن اتجاه الدولة الأخرى ، و لكل منها أهدافها الخاصة ، فتلك تعمل لحساب الشيوعية الماركسية ، تنفق لها و تدعو لمبادئها ، و تحمل شعارها ، و تدور فى فلكها حيث دارت يمنة أو يسرة ، و أخرى تعمل وفق سياسة غربية استعمارية لا تستطيع حراكاً ، ولا تنفذ خطة إلا باذن من سيدتها و باشارة منها .

الضربة الرابعة :

إنها صنعت على عينها و بيدها رجالا من العرب المسلمين ينادون بفصل الدين عن الدنيا ، و إبعاد الدين عن الحياة ، و ترك ما لقيصر لقيصر وما للدين للدين ، هذه الدعوة الضالة المضلة هدفت أول ما هـدفت إلى إبعاد الاسلام عن مجالات الحياة لأن عدد المسلمين فى البلاد العربية يبلغ (٩٨ ٪) .

وأشد من هذا وذلك أنها أبعدت الرجال المخلصين الواعين عن سياسة الدول الاسلاميـة و إدارة دفة الحكم باتهامهم — زوراً و بهتـاناً — اتهـامات باطلة ، أو بقتلهم بأيد ماجورة حقيرة .. وقد لعبت دوراً مريعاً فى تبنى السياسة الانفرادية لكل دولة ، و إحداث اضطرابات داخلية لشل حركة التقدم و النمو و الازدهـار الحضـارى و العمرانى ، و لتوجـه الجهود الاسلاميـة نحو أمور جانبية تبعدهم عن التفكير فى أهمية لم الشمل و الوقوف على قدم واحـدة لايجاد حلول جذرية ناجعة لتفادى الأخطار المحدقة .

وكل هذه الضربات القاسية الشديدة كانت بمعاول العدو المشترك (الاستعمار و الصهيونية و الشيوعية) . . و قد أثرت هذه الضربات الشنيعة فى كيـان الأمة الاسلاميه فتمكنت من تفريق كلمتها و تمزيق وحدتها .

[يتبع]

صور و أوضاع :

ملهاة جديدة فى الحضارة المعاصرة

واضح رشيد الندوى

للحضارة المعاصرة محاسن كثيرة ، فقد فتحت مجالات واسعة لرفاهية الحياة و توسيع الفكر ، و سيرت التقارب و الالتقاء بين مجتمعات إنسانية مختلفة و سخرت الآلة و وضعتها فى تصرف الانسان ، و وضعت قاعدة متينة للعلم و البحث فخرج الانسان من مدار الأرض ، و حلق فى الفضاء ، و بتسخير السرعة و القوة ، تغيرت المقاييس ، والموازين وتغيرت الظروف الطبيعية ، و استرد الانسان الأرض من البحار ، و فجر الأنهار من الجبال ، و حول الصحارى إلى مسارح خضراء ذات خمائل ، و للانسان انتصارات كثيرة و هو يتقدم فيها و تظهر مجالات جديدة لتقدمه و اكتشافه ، و تسخيره للطاقات الكامنة .

و قد عدد القرآن الكريم عدد آيات الله و ما أعطى الانسان من صلاحية العمل ، و التسخير ، و ذكر أن الله تعالى أكرم عباده فى الأحقاب الماضية من التاريخ فنحتوا من الجبال بيوتاً ، وفجرت لهم الأنهار ، و فتحت لهم الأرض عن كنوزها و كانت لهم جنات و عيون لكنهم ظلموا أنفسهم و كانوا من المتعالين ، فطغوا فى الأرض ، و أكثروا فيها الفساد ، « فصب عليهم ربك سوط عذاب » و ذكر القرآن الكريم الانسان الذى يغتر بقوته « إن ربك لبالمرصاد » .

إن للحضارة المعاصرة محاسن كثيرة و لها انتصارات كثيرة ، و لكن دراسة القرآن تدل على أن الانسان كانت له جولات كثيرة فى التاريخ الطويل و قامت

حضارات عاشت مآت السنين ، ثم اندثرت هذه الحضارات فلم يبق لها أثر ، وصارت كما يقول القرآن الكريم « كأن لم يغنوا فيها » وكل من يدرس التاريخ يلتقى بهذه الحضارات المندثرة ، كما يعثر عليها الباحثون فى عمليات الحفريات فيجد آثارها مدفونة تحت الأرض . فنهم من خسفت به الأرض . ومنهم من أخذته الصيحة ، فدمرت تدميراً .

تسير الحضارة المعاصرة سيرها الحثيث إلى عاقبتها ، فقد أصيبت بأمراض بل بأوبئة تقضى عليها ، وتأكلها ، ونشأت مشاكل استعصت على المعالجين و إن كان عددهم قليلا ، فانها من سوء حظها لم تنجب علماء و باحثين يقومونها ، و يعالجونها بل من مصايبها أنها أنجبت مفتونين بها . لا يعرفون إلا محاسنها ، ويصرفون أنظارهم عن مساويها ، وأمراضها ، فينظرون إلى ارتفاع الانسان إلى الفضاء ويصفقون له ، و لا ينظرون إلى المتاهات و المزالق الكثيرة التى يتعثر فيها ملايين فى ظل هذه الحضارة .

كان من مساوىء الحضارة المعاصرة الجوهرية هبوط قيمة الانسان و ارتفاع قيمة غيره من الحيوانات ، و الآلات الصماء ، و الاهتمام الزايد بصيانة الآلات و جلائها و تربية الحيوانات و ترويضها ، والرفق بها ، حتى الأسود ، و النمور ، و الأفيال ، و الطيور ، و الذئاب لها حظائر ، و قوانين حمايتها ، لكيلا تتلاشى أجناس منها ، و تسن لها قوانين ، و يمنع الصيد فى كثير من الغابات ، و أكثر من ذلك ما يشاهد فى الهند من تحريم لصيد أصناف من الطيور ، و الوحوش ، وما يفرض على من يخرق هذه القيود من عقوبات مشددة ، و تعد عدة طيور ، قومية ، ومحترمة ، وطيور و بهائم مقدسة فهى ممنوعة من الصيد ، و الذبح ، و إذا تعدى أحد ثارت مشاعر ووقعت حوادث حتى على قتل بعض الحشرات ، وتسفك دماء الانسان .

صور و أوضاع :

ملهاة جديدة فى الحضارة المعاصرة

واضح رشيد النـــدوى

للحضارة المعاصرة محاسن كثيرة ، فقد فتحت مجالات واسعة لرفاهية الحيـاة و توسيع الفكر ، و سيرت التقارب و الالتقاء بين مجتمعات إنسانية مختلفة و سخرت الآلة و وضعتها فى تصرف الانسان ، و وضعت قاعدة متينة للعلم و البحث فخرج الانسان من مدار الأرض ، و حلق فى الفضـاء ، و بتسخير السرعـــة و القوة ، تغيرت المقاييس ، والموازين وتغيرت الظروف الطبيعية ، و استرد الانسان الأرض من البحار ، و فجر الأنهـــار من الجبال ، و حول الصحارى إلى مسارح خضراء ذات خمائل ، و للانسان انتصارات كثيرة و هو يتقدم فيها و تظهر مجالات جديدة لتقدمه و اكتشافه ، و تسخيره للطاقات الكامنة .

و قد عدد القرآن الكريم عدد آيات الله و ما أعطى الانسان من صلاحية العمل ، و التسخير ، و ذكر أن الله تعالى أكرم عبـاده فى الأحقاب الماضية من التاريخ فنحتوا من الجبال بيوتاً ، وفجرت لهم الأنهار ، و فتحت لهم الأرض عن كنوزها و كانت لهم جنات و عيون لكنهم ظلموا أنفسهم و كانوا من المتعـالين ، فطغوا فى الأرض ، و أكثروا فيها الفساد ، « فصب عليهم ربك سوط عذاب » و ذكر القرآن الكريم الانسان الذى يغتر بقوته « إن ربك لبالمرصاد » .

إن للحضارة المعاصرة محاسن كثيرة و لها انتصارات كثيرة ، و لكن دراسة القرآن تدل على أن الانسان كانت له جولات كثيرة فى التـاريخ الطويل و قامت

حضارات عاشت مآت السنين ، ثم اندثرت هذه الحضارات فلم يبق لها أثر ، وصارت كما يقول القرآن الكريم « كأن لم يغنوا فيها » وكل من يدرس التاريخ يلتقى بهذه الحضارات المندثرة ، كما يعثر عليها الباحثون فى عمليات الحفريات فيجد آثارها مدفونة تحت الأرض . فنهم من خسفت به الأرض . ومنهم من أخذته الصيحة ، فدمرت تدميراً .

تسير الحضارة المعاصرة سيرها الحثيث إلى عاقبتها ، فقد أصيبت بأمراض بل بأوبئة تقضى عليها ، وتأكلها ، ونشأت مشاكل استعصت على المعالجين و إن كان عددهم قليلا ، فانها من سوء حظها لم تنجب علماء و باحثين يقومونها . و يعالجونها بل من معايبها أنها أنجبت مفتونين بها ، لا يعرفون إلا محاسنها ، ويصرفون أنظارهم عن مساويها ، وأمراضها ، فينظرون إلى ارتفاع الانسان إلى الفضاء ويصفقون له ، و لا ينظرون إلى المتاهات و المزالق الكثيرة التى يتعثر فيها ملايين فى ظل هذه الحضارة .

كان من مساوىء الحضارة المعاصرة الجوهرية هبوط قيمة الانسان و ارتفاع قيمة غيره من الحيوانات ، و الآلات الصماء ، و الاهتمام الزايد بصيانة الآلات و جلائها و تربية الحيوانات و ترويضها ، والرفق بها ، حتى الأسود ، و النمور ، و الأفيال ، و الطيور ، و الذئاب لها حظائر ، و قوانين حمايتها ، لكيلا تتلاشى أجناس منها ، و تسن لها قوانين ، و يمنع الصيد فى كثير من الغابات ، و أكثر من ذلك ما يشاهد فى الهند من تحريم لصيد أصناف من الطيور ، و الوحوش ، وما يفرض على من يخرق هذه القيود من عقوبات مشددة ، و تعد عدة طيور ، قومية ، و محترمة ، وطيور و بهائم مقدسة فهى ممنوعة من الصيد ، و الذبح ، و إذا تعدى أحد ثارت مشاعر و وقعت حوادث حتى على قتل بعض الحشرات ، وتسفك دماء الانسان .

و لكنك فى أرقى المناطق الحضرية لا تسمع عن قوانين لصيانة الانسان ولا تسمع أن مشاعر الانسان ثارت على قتل مجموعة من الانسان ، أو على تجريح الانسان ، ولا تسمع أن جمعية قامت للرفق بالانسان ، أو لمؤاساة الانسان بمجرد كونه إنساناً . فهل كان الانسان أحط منزلة من الحيوانات ، و الآلات ، و الطيور و الحشرات ؟ .

إن هناك طبعاً ميثاقاً لحقوق الانسان ، و لكنه ميثاق لا غير ، و لا يعنى إلا التوقيع على معاهدة ، و هى معاهدة مبهمة غامضـــة يشرحها كل فريق حسب مصلحته ، ويكتفى العالم بالاحتفال بعيد التوقيع عليه ، وهناك منظمة العفو الدولى ، و هى تهدف فقط إلى جمع إحصائيات عن خرق حقوق الانسان ، فتذيع أسرارها و لكن قلب الانسان المتحضر قد أصبح آلياً أو حيوانياً بحيث إنه لا يتأثر بمأساة الانسان بل بلغت قساوته حداً يتسلى و يلهو بمأساة بنى جلدته .

لقد نشرت صور مأساة صبرا و شتيلا ، و آسام و أفغانستان ، صور القتلى والجرحى ، والذين أحرقوا بالقنابل ، صور الأطفال الصغار الذين وضعوا فى طوابير الموتى ، ومقابر جماعية ، و محارق ، ولكن لم يثر ذلك ضمير الانسان المتحضر .

و كيف يثور ضمير الانسان المتحضر ، فان الحضارة التى يتمجد بها الانسان هى حضارة المسئولين عن أنقاض هيروشيما و ناجاساكى ، وعلماء و مفكرين أنجبتهم ثورة فرنسا الاشتراكية و الثورة البلشفية التى أبادت أجناساً من البشر ، و القادة الذين أثاروا حربين كونيتين كلفتـــا ملايين من النـــاس الذين أبيدوا و شردوا ، وقتلوا ، وحضارة باحثين وفلاسفة أجروا تجاربهم على الحيوانات لدراسة الانسان ، و نظروا إلى الانسان فى مرئية الحيوانات ، فكيف ينشأ الضمير الانسانى ؟ .

أليس من علامات موت الضمير الانسانى أنه يشاهد صور المآسى الانسانية فى الصحف ، و على شاشات التلفزيون ، و الأفلام ، و يسمع أنينه ، وصرخاته ، يرى طوابير الموتى ، بل أكواماً من الموتى ، ويشاهد جرائم القتل الجماعى ومناظر

إراقة الدماء ، و التعذيب ، يسمع و يرى ولا يتحرك ، ولا يضطرب ، و تسير الحياة بمتعها و بهجتها و نعيمها بجراها الطبيعى .

كان الروم و الفرس فى الجاهلية يشعلون النار فى ثياب العبيد ، و الأسرى و يتنعمون فى محافلهم بمنظر حرقهم ، و كانت المصارعة بين الانسان و الوحوش الضارية متعة للروم وخاصة عند ما كان الانسان الجريح يلفظ أنفاسه الأخيرة فكان يعتبر منظراً خلاباً ، ساحراً ، و لكنه كان محدوداً ، و كان متعة لطبقة محدودة ، و لكن هذه المناظر ، مناظر شقاء الانسان الحية أصبحت ظاهرة عامة فى الحياة المعاصرة ، لا يدينها ولا يستنكرها أحد ، وإذا حدثت مأساة تنتقل فرق التصوير ، لاعداد برامج حية و تنقل إلى العالم ، و ليس للانذار ، و التحذير . أو لمعونة المنكوبين ، أو للاعلام بل كمادة للتسلية والترفيه ، ولا تحصل له نتيجة إلا ما يحصل بقراءة رواية دامية أو مسرحية و مأساة ، بل ملهاة

إن المآسى الانسانية التى يقتل فيها الانسان جماعياً ويعذب فيها آخرون ، لا تخفى على أحد اليوم ، ولا تخلو صحيفة عالمية من صور معاناة الانسان ، ولكن هل ألف أحد جمعية لصيانة الانسان ، أو جيشاً لمحاربة من يحارب الانسان ، و منع العالم من التدمير و الفساد .

و الغريب فى الأمر ، أن الذين يريقون دماء الانسان و يهدرون كرامته فى مختلف أنحاء العالم يحتمون بالكنيسة و هم أتباعها ، و منهم من يساهم مساهمة فعالة فى التنصير ، وجمعياتهم منتشرة فى العالم . ولكن الكنيسة لا تصدر بياناً تدين فيه هذه المآسى و تندد بالمسئولين عنها ، و هى على معرفة بها .

كان الدين آخر رادع و وازع ، و إن انسحابه عن الميدان أو مساهمته فى إبادة الانسان ، و تبريكه لها خطر كبير ، فمن يمنع الحضارة المعاصرة من عاقبتها المحتومة « فدمرناها تدميراً » ولكن لن تفنى هذه الحضارة وحدها بل و يفنى معها المتذيلون بها ، و من ربط مصيره بها .

تركيا بالاسلام ــ و تركيا بدون الاسلام

تجدد اعتقال الاسلاميين فى تركيا ، بعد أن كان يتوقع انهيار الكمالية فيها ، وكل من يتابع تاريخ تركيا لا يستطيع أن يخلص إلا إلى نتيجة واحدة ، وهى أن القيادة التركية لاتزال تسير على الخط القديم للقضاء على صلاحية تركيا الأصلية ، وقطع صلتها عن ماضيها المجيد ، وتقوم هذه النتيجة على دراسة التاريخ التركى الماضى ودراسة حاضر تركيا دراسة مقارنة ، ويصادف الدارس لتاريخ تركيا سلسلة متواصلة من الخيانة القومية من عهد مصطفى كمال الذى انتصر فى المعركة العسكرية و انهزم فى المعركة الفكرية والثقافية ، ففى الوقت الذى تمكنت فيه القيادة الكمالية التى لا تزال تسيطر على تركيا ، من إنقاذ تركيا عسكريا ، و منعها من أن تبتلعها القوى الغربية الصليبية بالسلاح ، استسلمت القيادة فكرياً و ثقافياً ، و قدمت تركيا هدية على صحن بكل احترام و تقدير إلى الصليبية العالمية الحاقدة و الصهيونية الماكرة .

و لم تقتصر هذه العملية عملية تسليم تركيا إلى الأعداء ، والقضاء على شخصيتها المتميزة ، وإبادة صلاحياتها الموروثة ومسخ طبيعتها ، على تركيا وحدها ، وإنما كانت تركيا تجربة طبقت على الدول الاسلامية الأخرى التى خضعت للاستعمار الغربى ، وأنشئت فى كل بلد إسلامى ذى نفوذ فكرى وقوة عسكرية ، وقيادات ذات مسئولية معنية .

و تستمر هذه العملية بقوة فى تركيا و تكب القوى الاستعمارية على تشويهها و سلخها كلياً من خصائص ماضيها التى صعدت تركيا بها إلى أوج المجد ، و صارت قوة عالمية كبرى قبل تمزقها بمؤامرة الصليبية و الصهيونية .

و قد انكشفت حقائق هذه المؤامرة و لم يعد ذلك فى الخفاء ، بعد أن نشرت مذكرات لقادة الخلافة العثمانية فى العهد الأخير ، و مذكرات قادة الدول الاوربية ، و ظهرت الأيدى الصهيونية و الصليبية التى قامت بدورها فى خرق هــذا الحصار العظيم الذى كان رادعاً أخيراً عن الغزو الاوربى .

و رغم انكشاف هذه الحقائق من الغريب للغاية أن تقع القيادة فى الدول الاسلامية و خاصة فى تركيا فى نفس الشبكة التى ينصبها الأعداء وتستسلم لدعايتهم وتقبل منطقهم عن الاسلام و المسلمين ، و تنفذ خططهم المدبرة ضد هذه البلاد .

إن أى تركى يستطيع أن يقارن بين ماضى بلاده و حاضره ، الماضى الذى وصلت فيه قوات بلاده إلى أوربا . توغلت فيها ، وبقيت فيها مدة من الزمن وأرعبت العالم كله بجراءتها وبسالتها ، و روح الشهادة فى جنودها ، و تغلغل العاطفة الدينية العميقة التى كانت تقلل قيمة كل غال ونفيس وكل متعة أمام وعد الآخرة ، وحب الرسول ﷺ ، وكانت المآذن لجنودها أكثر إثارة للعواطف ، وبعثا على خوض المعركة و احتمال المكروه فيها من الأناشيد الحربية ، و كان صوت الاذان أقوى و ألذ على سمعهم من النشيد .

انطلقت تركيا بهذه العاطفة إلى المجد فصارت قوة عالمية ، و سيطرت على العالم أكثر من قرنين ومثلت الاسلام والمسلمين ، وصارت رمزا لهما ، وامتزجت بطبيعة التركى ، الشهامة و الشوكة ، و الذكاء ، و الجمال ، و كان للتركى معنى يفهم ، و تفسير يقبل ، و وزن يلمس فى العالم .

تلك تركيا بالاسلام ، و بالانتماء إلى الرسول ﷺ وصحابته ، وكل من يلاحظ تركيا فى الخريطة ، قبل مائة سنة تقريباً يجدها ممتدة مترامية جامعة بين الشرق و الغرب ، تتوسط فى القضايا العالمية وترجح كفة الميزان ، تطلب الدول الأوربية معونتها ، وهى صاغرة أمامها ، ويدخل اليهود فى بلاط السلطان كالشحاذين المتسولين ويطاطئون رؤسهم أمامه ، وينتظر ممثلو الدول الأوربية أياماً ليسعدوا بلقاء الخليفة وأحيانا يعودون بدون اللقاء ، تلك تركيا بالاسلام ، و لم تكن تركيا مجموعة لأنقرة و استنبول ومدن صغيرة أخرى ، فان لواءها كان يرفرف على كثير من البلدان

الأوروبية التي تقف الآن في صف العواصم ، ولاتزال آثار الوجود التركي موجودة فيها .

أما تركيا اليوم ، بعد أن هجرت الاسلام وطغت عليه ، و انسلخت منه ، فهي عضو متواضع في حلف شمال الأطلنطي . اقتصادها محطم وقوتها العسكرية تتكون من صدقات الدول الأطلنطية ، نظام تعليمها مستورد و اقتصادها في أيدي المرابين الغربيين ، وشعبها مقيد مكبل ، يعيش بدون حريات أساسية ، لم تعقد فيها انتخابات حرة ، و لا يعرف العالم أن التركي له شخصيـــة وقيمة و وزن ، إنه ترك ترك كل مقوماته ، وطغى على ماضيه الذي يرعب العالم ، ونسي درسه بل نسي نفسه ، ليست له رسالة ، و ليست له سياسة حرة . و إنما أصبحت بلاده اقطاعاً من اقطاعات الدول الأوروبية ، أليست هذه مؤامرة ، مؤامرة خيانة ضد البلاد ، ارتكبها قادة تركيا ، و لا يزال يرتكبها كل من يتولى الحكم في تركيا ، ويعزل الاسلام عن البلاد ؟

لقد شقيت تركيا كثيراً بالانسلاخ عن الاسلام و خسرت كثيراً ، فانكمشت وتقلصت و هي غير قادرة على حل مشاكلها فضلا عن أن تحل مشاكل غيرها .

و كذا تستطيع الشعوب و القيادات في كل بـــلد إسلامي ، كان له تاريخ مجيد ، في عهـــده الاسلامي أن تقارن بين ما كسبتـــه و ماذا خسرته ، بالاسلام و بغير الاسلام .

و لا يصعب عـلى المهتمين بالتـــاريخ أن يقارنوا ، فليس ذلك لغزاً ، فان الحدود واضحة ، والأضواء لامعة ، و يجد كل دارس خطاً فاصلا بين العهدين ، ويجد فارقاً كبيراً في الحجم و الضخامـــة وفي القوة ، و العزة و الرعب ، بين مصر بالاسلام و مصر بغير الاسلام ، وبغداد بالاسلام و بغداد بغير الاسلام ، ودمشق بالاسلام ودمشق بغير الاسلام ، ولكن الذي لايميز بين الصبح و الظلام لايستطيع أن يعتبر و يميز بين كائنين ، إنه يحتـــاج إلى شعور ووعي وقوة تمييز ، و غيرة قومية ، ونمو عقلي ، أما الذهن الجامد فيظل دائماً تابعاً ويبقى في مؤخر الركب .

بيان سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى

على وفاة الأمين العام لرابطة العالم الاسلامى الشيخ محمد على الحركان

نعت وكالات الأنباء معالى الشيخ محمد على الحركان الأمين العام الثالث لرابطة العالم الاسلامى و هى أكبر جمعية عالمية إسلامية و أعظمها تعاوناً فى قضايا الاسلام و المسلمين على الصعيد العالمى ، توفى الشيخ رحمه الله تعالى فى يوم الجمعة السابع من رمضان بعد قضائه حياة حافلة بجلائل الأعمال و عظيم النشاطات لدعم الجهود المبذولة فى العالم الاسلامى للاسلام و المسلمين ، ولذلك تعد وقعة وفاته حادثاً عظيماً فى مجالات العمل الاسلامى الذى كانت رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة تقوم به ، فقد ساهم الشيخ رحمه الله فى نشاطات الرابطة الاسلامية إلى أقصى البقاع من قارات العالم وبالخصوص عن طريق المجلس الاسلامى العالمى للمساجد التابع لرابطة العالم الاسلامى فقد جندت الرابطة الكريمة إمكانياتها الواسعة لمساعدة المساجد المحتاجة إلى التعاون المادى فى بقاع العالم ، فى عدد يصعب عدها ، ونالت مساجد الأقطار التى لا تتمتع بالحكومات الاسلامية بمساعدات الرابطة بصورة خاصة ، وأنشأت الرابطة الكريمة المجالس القارية للمساجد فى مختلف أنحاء العالم التى تنشد خدمة رسالة المساجد وتسهر على حاجات الاسلام و المسلمين عن طريق المساجد ، كما قوى تمثيل الرابطة الكريمة ، وسمع لها صوت قوى فى النطاق الدولى ، وذلك كلما اقتضت حاجة الشعوب الاسلامية ، أو تعرقلتها قضايا للاسلام أو المسلمين .

هذا عدد من المنجزات الاسلامية للرابطة الكريمة كانت فى عهد الشيخ محمد على الحركان ، تقبل الله منه هذه الجهود ، وغفر له مزلاته ، ورزق رابطة العالم الاسلامى خلفاً يقوم بحمل مسئوليات هذه الجمعية الاسلامية الكبيرة خير قيام ، كما رزقها إياه

خلفاً للأمين العام السابق معالى الشيخ محمد صالح القزاز الذى كان له فى تثبت دعائم الرابطة ، وتوسيع نطاق عملها ، ورفع قيمتها وشهرتها سهم لا ينسى ولا يستهان به ، فقد كان عند ضخامة مسئولية منصبه الجليل كذلك ، ولقد تمتعت بالصداقة مع كليهما.

حصلت لى المعرفة مع المرحوم الشيخ محمد على الحركان منذ أن كان مدرساً للحديث الشريف فى المسجد النبوى الكريم و ذلك فى عام ١٣٦٦ هجرية عند ما سعدت بالحج والزيارة ، ثم تبادلنا الزيارات وتوثقت الصداقة بيننا حتى انتقل فضيلة المرحوم إلى جدة و أسند إليه منصب القاضى فى جدة ، و لما سعدت بالحجة الثانية حصلت لى لقاءات معه ، و اختير عضواً فى رابطة العالم الاسلامى بعد تأسيسها ، و كنت كذلك عضواً فيها ، فكنت أتمتع بالاجتماع معه فى جلسات الرابطة و قد أتبادل معه الآراء فى القضايا المطروحة فى الرابطة ، ثم انتقل فضيلته إلى منصب وزير العدل فى المملكة وأخيراً إلى منصب الأمين العام ، لرابطة العالم الاسلامى بعد استقالة معالى الشيخ محمد صالح القزاز عنه لأسباب صحية .

لقد وجدت فى فضيلة الشيخ محمد على الحركان عالماً كبيراً راسخاً فى العلم ضليعاً و كان انتقاله لقضاء جدة سبباً أيضاً لضخامة معرفته و تجربته العلمية فى الشريعة و الفقة ، وكان علمه الكبير يظهر فى القضايا الاسلامية المطروحة فى الرابطة ، ولولم تكن مسئوليته العملية فى وزارة العدل ثم فى الأمانة العامة لرابطة العالم الاسلامى التى شغلته عن التأليف و الكتابة لظهرت آثاره العلمية القيمة عن طريق الكتب و الرسائل و البحوث العلمية .

فحينما نعته وكالات الأنباء و صادقت برقية الأمين العام بالنيابة على صحة الخبر فقد نعت عالماً جليلا من علماء المسلمين وشخصية جليلة اسلامية كبيرة كذلك لامجرد رجل يشغل منصباً اسلامياً تنفيذياً كبيراً .

و إنى أقدم للأسباب التى ذكرتها أصدق مشاعر أسفى على هذا الحادث ، و أدعو الله تعالى له بالمغفرة و الرضوان ، ولذويه و آله بالصبر و السلوان .

الحركان، إلى رحمـــــة الله

الأستاذ محمـــــد محمود حافظ

انتقل إلى رحمة الله الواسعة صباح يوم الجمعة الموافق السابع من شهر رمضان لعام ١٤٠٣ هـ الشيخ محمد بن علي الحركان أمين عام رابطة العالم الاسلامي عن عمر يناهز السبعين عاماً غفر الله له و رحمه و أجزل له الثواب .

فقـد كان رحمه الله من العلماء الذين تربوا على جيل من المشايخ فى مسجـد رسول الله ﷺ وتتلمذ عليهم فى مختلف علوم الشريعة حيث حفظ القرآن الكريم و عمره سبع سنوات و تعلم فى مدرسة العلوم الشرعيـة بالمدينة المنورة حيث ولد على تلك الأرض الطاهرة و تلقى تعليمـه فى المسجد النبوى على يد الشيخ الطيب الأنصارى .. وأيضاً الشيخ توفيق والد معالى الشيخ محمد عمر توفيق الوزير السابق .. و من مشايخه أيضاً الشيخ محمد الشمبكتى حيث تفرغ لطلب العلم منذ عام ١٣٤٢هـ.

و يعتبر الشيخ الحركان من علماء هـذه البلاد المشهود لهم بالعلم و هو عضو هيئة كبار العلماء كما أنه أول وزير للعدل فى المملكة .

و شغل عدة وظائف رحمه الله .. منها الوظيفة الأخيرة كأمين عام لرابطة العالم الاسلامى و كان ذلك فى شهر ذى القعدة من عام ١٣٩٦هـ بعد استقالة معالى الشيخ الصالح محمد صالح القزاز أمده الله بالصحة و العافية .

وفى عهد الشيخ الحركان تحققت إقامة المجالس المحلية للمساجد فى العالم وكذلك المجالس القارية للمساجد وكان آخر مجلس افتتحه بنفسه فى مطلع هذا العام هو المجلس القارى للمساجد فى آسيا ومقره جاكرتا العاصمة الاندونيسية ، ورغم كبر سنه ومعاناته من بعض الأمراض إلا أنه رحمه الله كان حريصاً على أن يقوم بزيارة الجـاليـات

الاسلامية فى أوروبا وآسيا ويتفقد بنفسه مشاريعهم ويسهم فى مساعدتهم و لا شك أنه اعطى الكثير من صحته لعمله حتى إنه فى الأيام الأخيرة من عمره و رغم مرضه كان يحرص على أن يطلع إلى مكة المكرمة ليزاول أعماله بنفسه رغم الارهاق الذى يبدو على جسمه و المرض الجاثم على قلبه .

رحم الله الشيخ الحركان وعوض الرابطة و العمل الاسلامى رجالا يواصلون المسيرة لهذه المؤسسة الاسلامية العالمية حتى تواصل تقديم العطاء لهذه الدعوة .

و إنا لله و إنا إليه راجعون .

حزب التحرير ينعى الشهداء إلى الأمة

والله ما نقم بعض أعداء الله ورسوله والمسلمين ، من شباب حزب التحرير ، الا إنهم يؤمنون بالله العزيز الحميد ، ويعملون لاعادة حكم الله إلى الأرض ، وحمل الاسلام رسالة إلى العالم ، عن طريق إقامة الخلافة .

إن حزب التحرير فى هـــذا الشهر الفضيل — شهر رمضان المبارك ، شهر القرآن ، شهر التضحية و البذل و الفداء ، الشهر الذى سقط فيه أول الشهداء من الصحابة الكرام ، فى معركة بدر الكبرى — ينعى إلى الأمة الاسلامية ثلاثة عشر شهيداً من شبابه ، من ليبيا والأردن وفلسطين ، أعدمهم وقتلهم الظالمون ، المتعطشون لسفك الدماء ، فى بعض الدول العربية ، قال رسول الله ﷺ «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى أمام جائر فأمره ونهاه فقتله» وهؤلاء الشهداء هم : ناصر سريس ، وعلى أحمد عوض الله ، وبديع حسن بدر ، وعمر خالد خميس ، وعبد الله حموده ، و عبد الله المسلاتى ، و الكردى ، و صالح النوال و ابن أختـــه ، و محمد مهذب

حفاف ، و قد جرى إعدام هؤلاء فى المدارس و الجامعات ، أمام الأساتذة و التلاميذ ، و أمام أهليهم و أولادهم ، وقد أنزل أحدهم ، و فيه بقية من رمق بعد إعدامه ، فأعادوا تعليقه ثانية ، ثم أنزلوه و ربطوه بسيارة فأخذت تجره خلفها ، على مشهد من أهله و أولاده ، و على مشهد من الأساتذة و التلاميذ .

أما الثلاثة الآخرون و هم : ماجد القدسى الدويك ، و محمد بيومى ، و الفاقورى ، فقد قتلوا تعذيباً من قبل المخابرات فى طرابلس .

و كل جريمة هؤلاء الشباب الثلاثة عشر ، أنهم من حزب التحرير ، و أنهم يحملون الاسلام ، و يعملون لاقامة الخلافة الاسلامية ، فقد أصبح حمل الاسلام اليوم ، و العمل لاعادة حكم الله إلى الأرض جريمة عند حكام المسلمين ، الظالمين الفسقة الفجرة ، و عبد الله المسلاتى كان محكوماً بالسجن عشرين عاماً من سنة ٧٣ قضى منها فى السجن عشر سنوات ، فأحضروه من السجن إلى المحكمة ، بتهمة أنه حزب شخصاً فى حزب التحرير ، و هو فى السجن ، فحكمت عليه المحكمة بالاعدام مقابل ذلك .

و قدمهم الظالمون بتهمة العمل لقلب نظام الحكم .

و الذى دفع أعداء الله على ارتكاب هذه الجريمة النكراء ، و المجزرة الشنيعة هو حقدهم على حزب التحرير ، من جراء قيام حزب التحرير بارسال وفد من شبابه إلى أحد زعماء العرب ، يناقشونه فيما أعلنه من إنكاره لحجية أحاديث رسول الله ﷺ ، فجلسوا معه أربع ساعات ناقشوه فيها ، و بينوا له أن أحاديث رسول الله ﷺ مثل القرآن ، أدلة شرعية ، يجب الأخذ بها ، كما بينوا له أن منكر حجية أحاديث الرسول كافر ، و كان الحزب قد حمله مذكرة بذلك ، ثم أن الحزب قد طبع هذه المذكرة ، و وزعها على المسلمين ، فى العالم الاسلامى فاغتاظ عدو الله

و عدو رسوله من ذلك ، و جن جنونه ، لحقد على الحزب هذا الحقد اللئيم ، الذى دفعه على سفك الدماء الزكية لهؤلاء الشباب الأطهار البررة ، و الله نسأل أن يجعل دمهم دم شهادة ، و أن يجزيهم عن الاسلام و المسلمين خير الجزاء ، و أن يعلى منزلتهم و أن يجعلهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين ، و حسن أولئك رفيقاً ، و أن يعظم الله لنا و لأهلهم الأجر ، و أن يلهمنا و إياهم الصبر ، كما نسأله تعالى أن يجعل دمهم بشير خير للاسلام و المسلمين و أن يكون تباشير للنصر و إقامة الخلافة ، و لاشراق نور الاسلام و عودته إلى واقع الحياة .

و إننا شباب حزب التحرير نقول لأعداء الله و أعداء رسوله و أعداء المسلمين أن دم هؤلاء الأبرار لعنة أبدية عليكم ، وأن سفك هذه الدماء الزكية الطاهرة لن يزيدنا إلا عزماً و تصميماً ، و ان يزيدنا إلا إيماناً بالله و ثقة بقرب نصره ، و عند ذلك سيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .

و إلى الله نضرع أن ينزل لعنة تترى على أعدائه ، وأن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، أن ينتقم لنا منهم بنفسه ، و أن يجعل ذلك قريباً بقيام دولة الخلافة ، و الله غالب على أمره و لكن أكثر الناس لا يعلمون .

العـــدد الرابع

سيصدر باذن الله تعالى فى شهر ذى الحجة ١٤٠٣هـ ويبدأ به العام الهجرى الجديد إن شاء الله تعالى ، عام ١٤٠٤هـ ، فلا يترقب القراء عدد ذى الحجة ١٤٠٣هـ .

[التحرير]

PHONES. 49747-42948 REGD. NO. LW/NP 59

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA, LUCKNOW. (INDIA)

صدر حديثاً :

الطريق إلى

للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة

كتاب جديد صدر حديثاً لسماحة الشيخ العلامة أبي الحسن على الندوي يخاطب فيه الدول والمجتمعات الاسلامية الحرة . ويبين لها الطريق إلى السعادة و القيادة .

إن الكتاب مجموعة ١٢/ محاضرة ألقاها سماحة المؤلف في باكستان بمناسبة حضوره هناك في المؤتمر الاسلامي الآسيوي الأول الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي (بمكة المكرمة) في يوليو ١٩٧٨م في كراتشي .

تحدث فيه إلى كل قطاع من الناس من رجالات القانون و العلم و الفكر و خبراء التعليم و التربية و أساتذة الجامعات و طلابها و رجال الحكم و المناصب الرسمية العليا إلى الجماهير العامة من المسلمين المخلصين .

وجه فيه نداء عاماً للانتفاضة الاسلامية التي تترقب يقظة المسلمين وصحوتهم .

و كل ذلك في أسلوب خطابي جميل ، و تعبير مؤثر جذاب .

الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت

ويطلب : من مكتبة دار العلوم التجارية

بندوة العلماء ص . ب ٩ لكهنؤ (الهند)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوي في مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمي

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

تصدرها ندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)

★ العدد الثاني

★ المجلد الثامن والعشرون

★ شوال ١٤٠٣هـ

★ يوليو و سبتمبر ١٩٨٣م

أخي القارىء

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١- كتابة العنوان بالانجليزية و العربيــة كلتيهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا .

٢- ارسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم «البعث الاسلامى» مقابل عام واحد أو أكثر :

٣- يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤- الاشتراكات السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى ،

فى باكستان بنغلاديس و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

Po. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

أنشأها
فقيد الدعوة الإسلامية
الأستاذ محمد الحسني
(رحمه الله تعالى)
في عام ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م

العدد الثاني
المجلد الثامن
و العشرون

شوال ١٤٠٣هـ
يوليو و أغسطس
١٩٨٣م

رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

أخي المسلم

أخي في العقيدة و الدين لا في التراب و الطين، أخي على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخي في النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخي في الحق و الصبر في الوطن و المهجر ، أخي في مهبط الوحي و منبع الصبح الصادق في ليل الانسانية الغاسق ، أخي في زهرة الصحراء و درة الخليج بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخي في اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخي في الله !
نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك في وجه الباطل، زاداً لك في طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك في صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمي في مجلة ، أوزبون في محل تجارة !

[محمد الحسني - رحمه الله]

المراسلات:
البعث الإسلامي
ندوة العلماء . ص . ب ٩٣
لكهنؤ ــ الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Box No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

الافتتاحية :

لقد أثر الغزو الفكرى و الثقافى على أوساط المسلمين بوجه عام تأثيراً معاكساً ، له دلالات واضحة فى تصرفاتهم و تأويلاتهم للقضايا الحيوية التى تتصل بالعقائد الايمانية ، فكلما قام هذا الغزو بتصدير أفكار مضـــادة للحياة الاسلامية إلى المجتمعات الاسلامية سواء فى التشريع أو الحضارة أو فيما يتعلق بالقيم الثقافية والأخلاقية ، أسرعت العقول الفجة من أفراد المسلمين و أنصـــاف المثقفين إلى التمسك بها ، و وضعها موضع الاعتبار و التنفيـذ . دون مبالاة عـــا إذا كان ذلك نوع تقديم أو تأخير أو نقص أو زيادة فى الأحكام الشرعية أو تأويل فى النصوص المحكمة ، مثل ما حدث فى التاريخ لدى إيجاد التوفيق بين القانون الرومانى والقانون الاسلامى ، فقد تحمس كثير من خبراء التشريع و التقنين من المسلمين لتطبيق القانون الرومانى على الحياة الاسلامية ، وتأكيد أن القانون الاسلامى لا يعارض القانون الرومانى ، وأن كليهما ينبعان من أصل واحد ، و يقومان على أساس واحد .

هذا الاتجاه الايجابى فى قضية مهمة كالغزو الفكرى و الثقافى و النظر إليها من خلال التسامح الدينى و الدماثة الخلقية ، مصدر ذلك الزيغ الذى داخل النفوس ، وساير الركب العلمى والحضارى فى تاريخ المسلمين ، وهو الذى كدر شفافية الفهم الصحيح للاسلام وعكر صفو العقيدة ، وذر عليه الغبار ، فنشأت أنواع من النماذج العقلية تناولت الشريعة الاسلاميـــة بالشرح و التفسير من خلال رؤيتها الخاصة ، و فى ضوء مبلغها من العلم و الأصالة الفكرية ، و قد شهد التاريخ آثار تلك البلبلة الفكرية والنقائص العقلية وسجلها فى فترات متعـــددة ، ترجع إلى عهود الفرق و الطوائف الفكرية

التى ظهرت فى المساجلات الدينية و المنـاظرات العقـائدية للخوارج و المعتزلة و الباطنية ، وخلفت تأثيراتها فى المجتمعات الاسلامية كلها ، مما كان لها الأثر العميق فى جميع الأجيال من العلماء و المفكرين الذين استندوا إليها فى شرح الدين وتفسير مفهومه بشئ كثير من الحرية و الانطلاق .

ثم [illegible] الجماعة بعد العلماء و ممن لم يكونوا يتمتعون بحق الشرح و التفسير

الشريعة

الليونة

جامدة

دستوراً

[illegible] ، و كانوا [illegible] من عصر الى جيل ، و إنما صار للشريعة مفهوم ضيق فى نظرهم كسائر النظرات الدينية و الوضعية التى تختص بجانب أو بوقت خاص أو بحدث طارىء ، دون أن يؤمنوا بأن لها مفهوماً شاملا كاملا ، و دائماً مع دوام الانسان .

وجد مع كل عصر و جيل أناس بذلوا أقصى جهودهم لحصر هذا المفهوم الواسع العميق الشامل الكامل ، ذاك أن مصالح موقتة و محدودة ارتبطت بهؤلاء المغرضين ، وأوحى إليهم الشيطان أن الطريق المختصر ، والممهد للتوصل إلى مصالحهم هو الدين ، فاتخذوه مطية لما أرادوا من أهواء ومصالح مع التظاهر بأنهم لايهمهم إلا تجديد معالم الحياة الاسلامية التى أتى عليها الزمان ، وأنهم دعاة إلى تجديد دينى و انتفاضة إيمانية ، فى عصر ازدهار العقليات المادية والحضارات الزائفة التى تحاول إسدال الستار على وجه الاسلام النقى ، وإخفاء دور الشريعة فى رفع قيمة الانسان و حل المشكلات التى تعانى منها البشرية على المستويات المختلفة ،

ولكن الواقع كان يختلف دائماً عما زعمه هؤلاء الناس من بناء حصار قوى لشريعة الاسلام يحميها من كل غزو أو تحريف أو تبديل ، إنما كانوا يستهدفون دائماً من وراء هذه المحاولات إيجاد وضع يحدد مفهوم الحياة فى نظر الاسلام ،

و يحصرها فى إطار ضيق ، حيث تتطلب كل فترة من الازدهار العلمى و التقدم الحضارى تطوير ذلك المفهوم و التوفيق بينه و بين الواقع الذى يعيشه الانسان بادخال تغييرات فيه و إحداث أجزاء فى الهيكل الذى عرفه الانسان المسلم .

كل ذلك لتوفير الدليل على أن الشريعة التى جاء بها الاسلام ليست جامدة خشبية بل إنها متحركة متجددة ، تساير الزمان فى جميع أحداثه وتغييراته ، وثوراته و أفكاره ، وهى صالحة لقبول كل جديد يأتى به العلم الحديث وجديرة بالاستجابة لكل ما يفرضه التطور و الازدهار على الحياة و المجتمع ، و على هذا الأساس من القول استطاعوا التلاعب بالمقول ، ولم يقصروا فى أداء واجب التطوير والتحريف ، بكل ما أمكنهم من ممارسات ، و من هنالك أصبحت شريعة الاسلام مجالا خصباً وواسعاً لكل هدم باسم البناء ، وكل هجوم باسم الاصلاح ، وكل طمس باسم التجديد ، حتى ظهرت الشريعة غير الشريعـــة التى نزلت من السماء ، و وسعت كل جديد ، و كل تطور ، و تغير ، و برزفى ميدان العمل رجال نادوا بالتفكير و البحث فى الأحكام الشرعية من جديد ، و تطبيق المفاهيم الحديثة على المجتمعات الاسلامية ، و نبذ الخلافات المذهبية والنظرات الضيقة فى قبول التحديات التى يواجهها المسلمون من قبل الحضارات و الفلسفات الحديثة .

فكل ما وجد هناك من نظرات جديدة و ألوان حديثة للتفكير تطرقت إلى أوساط المسلمين الدينية و تزعمها رجال من ذوى الاهتمامات الاسلامية ، إنما كانت نتيجة تلك الجهود التى بذلت فى سبيل تطوير الشريعة وتطبيقها على الحاجات المتطورة ، و قد امتد تأثير ذلك إلى اجتهادات فى المسائل المتجددة من كل طبقة ، بل و قد تجرأ أناس عاديون للقيـــام بواجب الاجتهـاد من غير أن يستوفوا شروط ذلك ، و يكونوا صالحين لهذا العمل العظيم .

إننا لا ننكر أن الشريعة الاسلامية متحركة متطورة ، حافلة بالنمو و النشاط و الحياة ، ولا ننكر الحاجة إلى الاجتهاد فى المشكلات التى تتجدد و تتطلب البت السريع ، فى ضوء الكتاب و السنة ، و اجتهادات فقهاء الأمة و الأئمة الأعلام

—•—

من المسلمين ، ذلك أن الاسلام بطبيعته القانونيـــة لا يستطيع أن يضع حداً على الفقة و يغلق دونه أبواب الاجتهاد ، و لكنـــه لا يسمح بذلك لكل رجل عادى يدعى أنه فقيه و عالم و خبير ومفكر ، إنمـا يفوض الأمر إلى أولى النظر العميق و العلم الصحيح ، من أكرمهم الله بسلامة القلب و صفاء الباطن و إخلاص النية والاطلاع الواسع على الأحكام الشرعية وروحها الفقهية ، وعلى الأوضاع الحديثة ، ما يجرى

ـ الغربلة

و نادى

سلامى ،

و وضع حلول للمشكلات الحيوية التى لم تنل عناية علمـــاء الفقه و القانون ، كلمـا حدث ذلك تصدت الجهات العالمية المعارضة للاسلام و المناوئة للشريعة الاسلامية بالتأييد العظيم لانجاز هذا المشروع الفقهى البحت ، و قـد أبدت بعض المعسكرات الكبرى العالمية ارتياحا كبيراً بما قد تعرض بعض الزعماء الكبار للاهتمام بالموضوع و أولوه عناية خاصة .

ورغم أن الموضوع يدور فى إطار فقهى خالص ولا يتعدى حدود الكتاب والسنة والتشريع الاسلامى ، وأن علماء الأمة الموثوق بهم فى علمهم وفقههم وإخلاصهم ، هم الذين يقومون بالحكم فى القضايا الخاصة التى تحتاج إلى وضعهـــا على محك الفقه الاسلامى بالنقد و البحث ، رغماً من ذلك تتوقع المنظمات العالميـــة و المؤسسات السياسية التى لاعلاقة لها بالموضوع ، أنها تنجح فى كسر شوكة الاسلام و التشكيك فى خلود الشريعة الاسلامية وأحكامها بهذا الطريق ، إيماناً منها بأن ذلك هو الأساس الأول الذى يجب زعزعته ، لكى يتزعزع إيمـان المسلم ، و يتسرب إلى نفسه سوء ظن بشريعتـــه .

إلى هذا الحد من العداء المجنون يبلغ أعداء الاسلام فى الاكتياد لهدم بناء

الكيان الاسلامي الذي يرونه عائقاً كبيراً في طريق الهدم والدمار و الفساد ، وفي البلوغ إلى مرامهم من استعباد الشعوب و التحكم في رقابهم ، فيرون من واجب المسئوليات التي يتحملونها أن يضعف المسلمون بأي أسلوب ممكن ، وقد كان أسلوب التطوير أسهل طريق للتوصل إلى الهدف المشئوم ، فكيف لايحرصون أشد الحرص على بث هذه الفكرة في المجتمعات الاسلامية و كيف لا يحشرون جميع وسائلهم وإمكانياتهم في تأكيد وجوب تطوير الشريعة الاسلامية في أذهان المسلمين حتى تساير الزمان ، وتزامل الظروف الحضارية و العلمية ، ولكي لايكون المسلمون متخلفين عن غيرهم في مجالات الحياة والعمل ، و بالتالي لا يبقون عاجزين عن المعايشة في هذا العالم المتقدم بإزاء الأمم و الشعوب الأخرى ، كما يزعمون .

وبالمناسبة فاننا نرى من واجب الدين أن نصرح بالمغالطة الكبيرة التي ينطوي عليها منطق التطوير الذي يجاهره غير المسلمين ممن يهمهم إضعاف الثقة بالشريعة وأحكام الفقه ، وقد انخدع وينخدع بها كثير من المسلمين فاستجابوا لمنطق التطوير هذا ، وطالبوا - شأن الهدامين - بتطوير الفقه الاسلامي حتى يغطي المسائل المتجددة كلها ويقدم حلولا ناجعة للمشكلات الفقهية التي يمر بها المجتمع الاسلامي في كثير من البلدان والأقطار ، وقد اتهم بعض المتحمسين للتطوير ، علماء وفقهاء المسلمين بالعجز و قصر الباع في تحقيق المسائل الفقهية على ضوء الأحداث والأوضاع الراهنة .

إننا لم نقل ولا نقول أبداً أن الاجتهاد في المسائل المتجددة ممنوع ، وأن من تتوفر فيه شروط الاجتهاد بالوجه المطلوب لايسمح له بذلك فيما إذا مست الحاجة إليه ، و لكننا نقول بصراحة : إن الشريعة الاسلامية وحدة كاملة شاملة حافلة بالقوة والنشاط ، وقد أنزلها الله تعالى لصالح الحياة الانسانية الفردية والجماعية ورعاية مصالحها في كل زمان ومكان من غير أن يطرأ عليها أي نقص أو تغيير أو تحتاج إلى تحوير وتطوير ، فمهما تطورت الحياة وتبدلت المقاييس و تجددت الموازين و لكنها خلق الله الذي لاتبديل له « فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

من هنالك إذا نادت بعض الجهات المسئولة بفتح باب الاجتهاد و تطبيق القوانين الاسلامية على الحياة المتطورة فان ذلك لايعنى تطوير الشريعة و الأحكام الاسلامية ، بل إن معنى ذلك أن العالم المتطور فى حاجة ملحة إلى تطبيق الشريعة الاسلامية على نفسه ، وإن التطوير والتغيير ليسا من شأن الشريعة و الأحكام التى هى خالدة دائمة باقية نامية ، وإن الحياة رغم تطوراتها تسترشد الشريعة فى كل لحظة وفى جميع الشئون الدينية والدنيوية وجميع المجالات العلمية والعملية .

من أجل ذلك يتفاقم خطر المحاولات التى بذلت وتبذل فى تطوير مفاهيم الدين الاسلامى ، وتجريد القيم الاسلامية و المعايير الايمانية من تصور الطاعة لله تبارك وتعالى ولرسوله ﷺ ، و لايزال الذين يتربصون بالاسلام والمسلمين الدوائر ويريدون أن يطفئوا نور الله ، مركزين جهودهم و جهادهم على فصل الدين الصحيح عن الحياة ، وإثبات أن الدين لفى حاجة إلى التجديد فى عصر قد تجددت فيه المفاهيم كلها ، و تطورت فيه الأفكار و المقاييس بكاملها .

فاذا فرح الأعداء بما إذا طرق أسماعهم صوت يرتفع من جهة مسئولة لها أهميتها حول البحث والاجتهاد فى مسائل الفقه الاسلامى المتجددة والمشكلات المستحدثة ، فذاك أدل دليل على ما تختفى وراء فرحهم من نوايا سيئة لهدم الحياة و المجتمعات الاسلامية ، ودك صروح العقيدة والايمان التى يأوى إليها المسلم من سموم المتاعب الانسانية ، و يستظل بظلالها من شمس الكفر و الطغيان .

شريعة الاسلام غنية عن كل تطوير و تجـــديد ، و إن الشئ الذى يتطور و يتجدد هو الزمان الذى يعيشه الانسان ، و لذلك فينبغى أن نأخذ العصر المتطور و الحياة المتطورة و نخضعهما للشريعة الاسلاميـــة مأة فى المأة ، حتى تصبح مسيرة الحياة و تتخذ من طريقها ما يؤديها إلى غاية الأمن و الايمان فى سهولة و يسر ، أما أن يأتى أى شخص و يلوى الشريعة حسب أغراضه و يوظف الاسلام لمصالحه الخـــاصة و الموقتة فلن تسمح شريعة الله بذلك مهما كانت الظروف ، سنـــة الله و لن تجد لسنة الله تبديلا .

سعيـد الأعظمى

التوجيه الاسلامي

- غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و مناهجه
- مشكلة كبرى وحل أكبر

غاية التعليم و التربية فى العالم الاسلامى و مناهجه

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

(ألقيت هذه الخطبة فى جامعة كراتشى (باكستان) فى ١٣/ يوليو ١٩٧٨م ، و قد استمع إليها أساتذة الجامعة و طلابها ، و المسئولون عنها بالاضافة إلى عدد وجيه من خبراء التعليم و الثقافة و الاجتماع و السياسة و الصحافة ، و القادة و الزعماء ، و المسئولين عن المراكز التعليمية و الثقافية و قدم المحاضر الدكتور إحسان رشيد نائب رئيس الجامعة ، و ألقى الكلمة الختامية صاحب السعادة إسماعيل سعد أمين جامعة كراتشى)

العلم حقيقة :

صاحب السعادة رئيس الجامعة ، و أصحاب السعادة و الفضيلة أساتذة الجامعة ، و طلابها و طالباتها ، و إخوتى الاعزاء !

على الرغم من أنى لا أؤمن بتقسيم فى العلم ، و إننى أعتقد أن العلم وحدة لا تتجزأ و لا تقبل التوزيع و التصنيف ، و لا يصح تقسيمه بين قديم و جديد و شرق و غربى ، و عملى و نظرى ، إنى أرى - كما يرى الدكتور محمد إقبال - أن التوزيع بين القديم و الجديد لا يقول به إلا قاصرو النظر ، ضيقو الفكر ، بل إننى لا أؤمن بتقسيم العلم إلى دينى و دنيوى أيضاً ، إنى أرى أن العلم حقيقة أو تجربة لا يملكها بلد دون بلد أو أمة دون أمة ، ولا ينبغى أن يكون كذلك ، و لن يمكن ذلك ، كما أننى لا أؤمن بتحديد منابع أخرى فى الحياة تحديداً جغرافياً ، أو سياسياً أو عنصرياً ، أو قومياً .

على كل فانى أؤمن بأن العلم وحدة لا تتجزأ ، و ما يراه الناس كثرة أراه وحدة ، و وحدية العلم هى صدقه ، و واقعيته ، وكونه حقيقة ، و ولوعه بالحقيقة ، و نشدان الصدق و الواقعية .

على الرغم من ذلك كله أشكر صاحب السعادة رئيس الجامعة ، و المسئولين عنها إذ اختاروا للتحدث إلى هؤلاء الطلبة الأعزاء ، و إلى هذه الأزهار و البراعم الناعمة فى حديقة الاسلام ، رجلا ينمى - عن فهم ، و عن قصد أو خطأ - إلى منهاج التعليم القديم ، و من هنالك أرى لزاماً أن اعترف برحابة صدوركم وسعة أفقكم ، و انفتاح أنظاركم ، حيث أنكم ما أبجتم هذا الفرق بين القديم و الجديد الذى يراه قصار النظر من الناس .

إنى لا أؤمن ، لا فى العلم و لا فى الأدب ولا فى الشعر ، ولا فى الفلسفة و الحكمة ، بأنه من تزيا بزيه الخاص فهو العالم ، أو الأديب أو الشاعر أو الفيلسوف و الحكيم ، و إن من تخلى عن هذا الزى فليس يستحق الخطاب و لا يستحق الاهتمام و الالتفات ، فضلا عن الاستماع إليه ، ومن سوء الحظ إن ذلك قد راج رواجاً كبيراً فيما يتصل بالأدب و الشعر فيتهم بقلة الأدب من يحضر ندوة علمية أو أدبية أو شعرية و لا يحمل «لافتة الأدب» و لا يتزيأ بزيه الخاص و أصبح الناس لا يغتفرون جريمة من لم يرتدوا زى الأدب الشعر ولم يتمكنوا من الحصول عليه من « دكانه » من الأدباء و الشعراء الموهوبين الذين جبلوا على فطرة الأدب و سليقة الشعر .

على كل فانى أرى أنها خطوة جريئة منكم أن دعوتمونى لالقاء الكلمة فى هذه الجامعة - على الرغم من أننى أؤمن بآفاقية العلم وشموله و حيويته و لا أراه ملكا لأحد ، أو لجهة ، أو لبلد ، أو لأمة ، فخزائن الله زاخرة ، و هى مفتوحة لكل

من كان مخلصاً فى الطلب ، صادقاً فى العزم ـ إنها بادرة تستحق التقليد ، و أود أن تدعو مدارسنا القديمة رجال المدارس الجديدة و المثقفين المصريين ، وأن توجه جامعاتنا و مدارسنا العصرية الدعوة إلى أولئك العلماء و الأفاضل الذين اخلصوا فى طلب العلم ، ولم يقصروا فى الاستفادة من التجارب الانسانية العظيمة ، والاتجاهات البشريه العلمية و الأدبية .

الغاية الأولى و الأساسية من التعليم :

أيها السادة ! إن قلبي مفعم بعواطف الشكر ، حيث أتيح لى فرصة لالقاء كلمة أمام هذه المجموعة الطيبة التى تشتمل على كثير ممن قد يلعبون غداً دوراً خطيراً لا فيما يتعلق بهذا البلد وحده ، بل على مسرح العالم الاسلامى ، وقد يمسكون زمام إدارة البلاد ، أو يتاح لهم أن يوجهوا توجيهاً تربوياً تعليمياً على الأقل .

وفقنى الله أن اقرأ كثيراً و كثيراً فيما يتصل بالتعليم و التربية و غايتهما المنشودة ، و الفائدة التى يجب أن تجنى منهما ، لكنى اكتفى بهذه المناسبة بتقديم شهادة واحدة ، فيما يتعلق بتعريف العلم وتحديد غرضه لخبير تعليمى بريطانى معروف (Sir percy Neinn) من مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية :

« لقد سلك الناس مسالك مختلفة فى التعريف بالتربية ، ولكن الفكرة الأساسية التى تسيطر عليها جميعاً : أن التربية هى الجهد الذى يقوم به آباء شعب و مربوه لانشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة ، التى يؤمنون بها ، إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير فى التلميذ تلك القوى الروحية التى تتصل بنظرية الحياة ، و تربى التلميذ ، تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب ، و تمديدها إلى الامام (١) .

(١) دائرة المعارف البريطانية ، بند « التعليم » (Education) .

إن هذا التعريف بالتعليم و التربية هو أروع و أجمع و أكثر تواطئاً مع العمل والتطبيق من بين جميع المحاولات التى بذلت فى سبيل التعريف بالتعليم والثقافة.

ما هى غاية التربية ؟ و ماذا يراد من ورائها ، و لماذا تبذل المواهب الفنية على التعليم ، ولماذا تنفق قوى الأمة بسخاء وعلى طريقة منظمة ، ألكى يوجد التعليم فجوة بين الأمة و بين ما تعتز به و تتبناه من معتقدات و أغراض ، و تراث حضارى و علمى ، و تصورات ، و سواء أكان كل ذلك مما ينبغى الاعتزاز به أم لا ، لكن الشئ الذى تحبه ، و المعتقدات التى تعتز بها ، و التصورات و القيم و المثل (Values) و العقائد (Conceptions) و الأفكار (Ideas) التى تتفنى بها و التراث الذى توارثته من آبائها و أسلافها ، من وظيفة التعليم الأولى أن يربط بين الأمة و بين هذه الأشياء ، و ينقل هذا التراث إلى الأجيال القادمة و النشء الجديد ، ذلك التراث الذى أفرغ عليه سلفها خير قواهم و مواهبهم ، وبذلوا مدة طويلة من وقتهم ، وربما قاتلت تلك الأمة فى سبيله وحاربت وجاهدت ، و ضحت بعزها و شرفها ، و بمجدها التليد ، ومن الفضول أن نتعرض بهذه المناسبة لما إذا كانت القيم التى حاربت الأمة من أجلها قيما صالحة أم لا ، لكن مسئولية التعليم أن ينقل هذا التراث إلى الأجيال المتلاحقة و لا يقتصر على النقل والتصدير فحسب ، بل يعمقه فى القلوب و الأذهان ، ويجعل القلوب و العقول تسيغه وتتذوقه ، و لا يعود نابياً لديها أو أجنبياً عندها ، بل يعود مألوفاً لها و محبوباً عندها ويصير طبيعة لها .

أمة محمد ﷺ أمة ممتازة فى خصائصها ومزاياها، وصياغتها وعناصر تركيبها:

أرى أن هذا التعريف بالتربية بقلم خبير بريطانى تعريف جامع جداً ، لكن

إذا كان الأمر أمر أمة، عقائدها و قيمها ليست من عند نفسها، بل نابعة من الوحى الالهى، و الكلام الالهى، و النبوة و الرسالة، و العلم اليقينى الغيبى الأزلى الذى لا يحول ولا يزول ولا يتغير قليلا أو كثيراً، فهنالك تتضاعف المسئولية وتتضخم.

فاذا كان هناك تعليم يزعزع عقائد تلاميذه ـ من شعور أو من غير شعور، عن قصد أو عن غير قصد، عن خطأ أو عن خطة مدبرة - و يزعزع جذور قيمهم فى قلوبهم، و يفكك عراها و يمزقها: و يثير فى قلوبهم شكوكاً و شبهات لا تزول، وصراعاً نفسياً (Mental Conflict) و يتجاوز هذا الصراع الأفراد إلى الحياة الاجتماعية للامة، و يتحول الصراع إلى حرب دامية شعواء بين تلك القيم و المفاهيم و التصورات و المعتقدات، و الأفكار و العقائد، و بين ذلك الجيل المثقف بذلك التعليم وتلك الثقافة. فالأمر أدهى وأمر أيها السادة! إنى لا أؤمن بالاسلام كتراث (Legaci) ولا أراى ذلك تعريفاً رائعاً بالاسلام ولذلك فانى لست معجباً بالكتب التى وضعت بعنوان (Legacy of Islam) و (Heritage of Islam) إنى أرى الاسلام رسالة للحياة، لا أراه قادراً على مسايرة الزمان فحسب، بل أراه قائداً للزمان موجهاً له لا أراه رفيقاً للزمان فى رحلة الحياة بل أراه محاسباً للزمان ومراقباً له (Guardian) فاذا كان هناك مثقف بالتعليم العالى يقع فريسة الشك و الارتياب فى جميع قيمه و تصوراته و معتقداته، أو يعود يراها دمى يسلى بها الصبيان و الأطفال، أو أسطورة يتعلل بها السذج و الجهال، أو يصبح لا يتحمس لها، و لا يقاتل فى سبيلها، و لا يدافع عنها. ولا يغامر من أجلها إذا مست الحاجة إلى ذلك. إذا كان ذلك فان هذا التعليم عدو لدود لمن يحصله يجب أن يفر منه فرار الانسان من الاسد بل أكثر من ذلك.

قضية البلاد الاسلامية أهم و أكبر خطراً:

أيها السادة! و حين أتحدث إليكم فى هذا الحفل الكريم، و فى رحاب هذه الجامعة الكريمة، و على جزء من ربوع باكستان، فانى أخاطب العالم الاسلامى

كله ، أخاطب تركيا ، أخاطب مصر و الشام و العراق ، وأخاطب المملكة العربية السعودية التى انعقد فيها منذ شهور مؤتمر عالمى للتعليم الاسلامى (All world - Islmic education Conference) - حضره من باكستان الأستاذ إحسان رشيد ، و صاحب السعادة و المعالى اے. کے. بروهى (A. K. Barohi) ، و حضرته أنا من الهند ، و قــد صرحت عند ذاك ـ فى المحاضرة التى ألقيتها - أن الأمر يصبح ذا خطورة و حساسية و تعقيد إذا كان يتعلق ببلد إسلامى ، تعيش فيــه أمة ذات شخصية (Personality) و ذات خصائص و مميزات ، ذات دعوة و رسالة ، ومكلفة بقيام دور فريد فى العالم البشرى ، تنبع معتقداتها وقيمها ومثلها ، و تصوراتها و أفكارها ، و وجهات نظرهـا من الوحى الالهى ، فاذا كان التعليم يحدث صراعاً فى مثل هذا الجيل ، و يجعله يخلع معتقداته و تصوراته العريقة بعد ما يتخرج فى جامعة عصرية ، و يصبح و كأنه أمـة جديدة أو أمة أجنبية تبدو نابية قلقة فيما بين الشعب المسلم ، و يحصل من ذلك كله تعقيد جديد ، و تحدث مشكلة جديدة (Problem) ويحدث صراع مرير ـ و قد يكون صراعاً دموياً - بين هذا الجيل المثقف وبين عائلته الاسلامية و آبائه و أمهاته ، و بين المجتمع الذى هو عضو فيه ، و بين تاريخه و تراثه ، و قيمه و آثر أسلافـه ، و بين منصبه و مكانته التى حباها الله إياه ، و بين رسالة الاسلام و العمل الاسلامى ، و آمال الأمة الاسلامية ، و أحلامها ، إذا كان كل ذلك ، فانى لا أرى فى هـذا التعليم خيراً ، ولا أراه خدمة للانسانية (Service) بل إنه سوء خدمة (Disservice) .

المسئولية الأولية لجامعة إسلامية فى بلد إسلامى:

و معذرة إليكم فانى لا أشير إلى جامعة بعينها ، ولا إلى المسؤلين عن جامعة محددة ، و إنما أتعرض لأمر مبدئى ، و أريد أن أقرر أن المسئولية الأولى والأهم و الأقدم لجامعة تقوم فى بلد إسلامى ، هى أن تؤكد إيمان الأمة بالعقائد والأفكار التى تؤمن بها ، والحضارة التى تحتضنها ، والدعوة والرسالة التى تتبناها ، والخصائص

و المزايا التى تحملها ، حتى لا يعود هذا الايمان إيمان رجل عادى (Layman) أو إيمان رجل الشارع (Man of Street) بل يكون إيمان عالم ، إيمان مثقف ، إيمان دارس ، ويطمئن عقله كما يطمئن قلبه ، ولا يعود كما يقول الدكتور محمد إقبال قلبه مؤمن و عقله كافر » ، مشيراً إلى فيلسوف غربى . . . . و إذا كان الصراع لا يجوز بين الفرد و الجماعة ، فانه كذلك لا يجوز بين القلب و العقل فى حياة المرء الانفرادية ، فاذا كانت هناك جامعة تسبب هذا الصراع ، أو يسببه مناهجها التعليمى و منهجها العملى ، ونظامها الادارى ، و بيئتها العملية ، فذلك شؤم لاشؤم بعده للبلد الذى تقوم فيه الجامعة .

لا بد من اطمئنان القلب والعقل معاً :

أيها السادة طلبتم منى أن أتحدث حول موضوع منهاج الجامعات الاسلامية و غايتها . . إن الغاية الأساسية للجامعات الاسلامية ، أن توجد الايمان بتلك الأشياء التى أشرت إليها ، الايمان الذى يأتى عن طريق العلم و الثقافة و الدراسة ، و عن الشعور و التفكير ، و عن اقتناع العقل ، و عن الدراسة المقارنة ، و إذا كان هناك رجل إنما يؤمن قلبه و لا يطمئن عقله ، و هو يعلل عقله و يسليه ، و يحاول أن لا يستيقظ عقله ، كشأن الأمم غير المسلمة العديدة التى ترى بقاء دياناتها و رقيها فى عدم يقظة الشعور ، و تحاول أن يظل اتباعها سادرين فى سبات الغفلة ، مسدوداً عليهم منفذ النور و الهواء ، و من هنا وقع بين الكنيسة و العلم (Church & Science) ذلك الصراع الدموى الذى تقرؤن قصته المؤلمة المفجعة فى كتاب « الصراع بين الدين والعلم » ـ(Conflict between religion & Science) للعالم الأمريكى المعروف « درابر » (John william Draper) و إنما وقع هذا الصراع لأن الكنيسة كانت ترى إن الخير كل الخير فى تبلد الشعور الانسانى بل كانت تعمل فعلا على تجميده و إماتته ، و كانت تؤمن بأن من الخير و السعادة

أن يكون الانسان محدود العلم قاصر المعرفة ، بل عديم العلم جاهلا ، و ما دام الحال على هذا المنوال ، كان الايمان بالكتاب المقدس راسخاً قوياً ، و كانت المسيحية عميقة الجذور ، بعيدة الغور فى المجتمع ، ذلك أن العهد العتيق كان يشتمل على كثير مما لا يؤيده العلم الحديث ، بل ينفيه ويفنده ، فكانت الكنيسة رأت من المصلحة أن لا يتيقظ شعور المسيحى ، ولا يتفتح وعيه ، و لا يتسع أفقه ، ولا يتقدم العلم ، فحاولت أن تقف فى وجه العلم لأنها ظنته عدواً لها لدوداً ، وخصماً محارباً حانقاً ، ولكنها اضطرت أخيراً إلى أن تضع السلاح أمام مد العلم وسيله الجارف ، و تياره العنيف ، لأنه حاجة الانسانية ، و مقتضاها الطبيعى ، و عاطفة الانسان الداخلية ، و نعمــة الله الغالية ، و ضرورة العالم البشرى ، جعله الله لكى يخضر و ينمو ، و يورق و يثمر ، لا لكى يذوى و يذبل و يموت ، و هل تموت ، الحقـائق ؟ على كل فان العلم كسب المعركة ، و ذاقت الكنيسة هزيمة و عاراً و شناراً منقطع النظير ، أمام العلم و تطلع الانسان إليه و طلبه الجامح له .

و تلك هى قصة مشئومة وقعت فى العالم المسيحى ، و لكنها تركت آثارهـا على دنيا البشر كلها ، و على جميع الديانات تقريباً ، و قد جعلت الناس يفهمون أنه لا يمكن أن يتقدم العلم و العقل معاً ، و أن يساير الدين العـلم ، و لا بد هنا بصفتى دارساً للتاريخ ، أن أعترف – مع الأسف – أن هذا التصور الخاطئ قد نال بعض نصيبه من المفعول فى بعض الدول الاسلامية و لو لبعض الحين ، لكنه ما لبث أن لقى حتفه ، لانه يتنـافى مع روح الاسلام و طبيعته ، و لم يدم هذا الصراع المصطنع فى العالم الاسلامى طويلا ، و ذلك لأنه لم يكن وليــد خطأ فى داخل العالم الاسلامى ، وانما كان قد نشأ عن طريق أوربا المسيحية ، ولكنه غاب و انقشع كسحابة صيف ، أو بسرعة أكثر منهـا .   « يتبع »

مشكلة كبرى و حل أكبر

« هذه الكلمة كتبها الأستاذ محمــد الحسنى رحمه الله
منذ عشر سنوات و هى تصور مشكلة الزيت تصويراً
دقيقــاً كأنها مشكلة اليوم ، و يسرنا أن نهديها
لقرائنـا الكريم »   [التحرير]

هناك مشكلة كبيرة فى العالم العربى ، و إنها مشكلة الزيت !

كان المتوقع أن يكون هذا الزيت سلاحاً فى أيدى العرب ، وأن يجعل هذا الزيت من الأمة العربيــة الضعيفة الفقيرة ، أمة مرهوبة الجانب ، موفورة العزة ، مرفوعة الهامة ، مسموعة الكلمة ، ولـكنه بالعكس ـ مع الأسف الشديد ـ أضعف أمة العرب ، وكلما زادت البراميل كثرت العراقيل !

إن هذا الينبوع الفياض الثر من القوة المحركة للحياة ، الدافع بعجلة الصناعة إلى الامام ، صار اليوم سبباً كبيراً من أسباب الانهيار و الانحسار فى هذه المنطقة .

فكروا كيف صار الخير شراً و الحلو مراً و كيف انعكست الآية و انقلبت الحقائق رأساً على عقب .

هل إن الذنب فى ذلك يعود إلى ضغوط سياسية عالمية أو إلى صراع داخلى قيادى ، أو إلى ارتجالية وتهور ، أو إلى سياسة الاستسلام و الانهزام .

كلا ! إن أياً من هذه الأسباب لم تخلق هذه الأوضاع .

السبب الوحيد هو فقدان القناعة وفقدان الاستثمار ، القناعة فيما يتعلق بذواتنا و استثمار أموالنا فى مصالح الاسلام و المسلمين على نطاق أوسع و بتصميم أدق ،

لا تخافوا بأن القناعة أصبحت كلمة قديمة فنحن لا نستطيع أن نستغنى عنها رغم كل البلى و القــدم كما لا نستطيع أن نستغنى عن ضوء الشمس ، بل إن حاجتنا إليهـا فى هذه الأيام أشد .

الحل ليس فى توفير الأموال و كسبها وجمعها وادخارها ، فانه كماء البحر المالح لا يزيد الشارب إلا ظمأ و عطشاً ، إنما الحل فى القناعة فيها !

أما نحن فقد غيرنا المحل ، أصبحنا قانعين باليسير فى أمر الدين ، طامعين فى الكثير من الدنيا ، قانعين بالدون فيما يهم الاسلام و المسلمين ، طامعين فى التوفير لأنفسنا و أولادنا و كمالياتنا و زيناتنا .

و أصبح ميدان الاستثمار هو البيوت وأصبح ميدان القناعة مصلحة المسلمين ، و لو كان الاستثمار قائماً على الحق و الصواب ، ما ضاعت مصلحة من مصالح الأمة و وجدت حظها من العناية و الاهتمام ، ولو كانت القناعة موجودة إلى أقصر الحدود لما كان هذا الانحلال و التفسخ و الفوضى .

إن مصيبتنا فى هــذه الأوضاع لا تنكشف بكثرة القيل و القال أو بتوفير الأموال أو بالحياة الرتيبة المرسومة والمطامح المادية المعلومة إنما هى تنكشف بالطريقة الايمانية البناءة ، بالتطوير العام ، بتصحيح الأوضاع بحذافيرها ، و إصلاح ما فسد من غير رحمة و لا هوادة ، بالطريق الذى سار عليه الأولون ، وبالحياة التى عاشها المؤمنون الراشدون فى كل جيل ، فأكرمهم الله بالنصر و الغلبة و الازدهار و ألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب .

ويحلولى أن أنقل هنــا ما كتب شيخنا الندوى عن الهند فى عهد الانجليز ، وهو يتحدث عن جهاد السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) فى كتابه الجديد « إذا هبت ريح الايمان » فهو ينطبق تمام الانطباق على الوضع الراهن فى

العالم الاسلامى المعاصر .

« بدأ المسلمون فى الهند على مر الأيام يتجردون عن صفات الفروسية ، وأخلاق الأمم الفاتحة التى امتازوا بها فى الماضى ، وفتحوا بها هذه البلاد الواسعة بجيش قليل و عدد ضئيل ، فيهم الرخاوة و الرقة ، و أخلدوا إلى الراحة والتنعم ، و ضعفت فيهم الحمية الاسلامية ، و الغيرة الدينية ، فكان الثعبان الانجليزى يبتلع بلاد المسلمين بلداً بعد بلد ، وقطعة بعد قطعة ، وهم منغمسون فى شهواتهم ، عاكفون على لذاتهم ، لا يحرك ذلك منهم ساكنا ، و لا يقض مضجعاً ، وتفاقم هذا الداء ، حتى بدأوا ينظرون إلى حياة الفروسية ، وخلال الفتوة و إلى السلاح وعدة الحرب بعين الاحتقار و الازدراء ، و يعتبرونهما شعاراً للجهال و الأجلاف . و رعاع الناس و يعتقدون أن ذلك لا يجتمع مع العلم ، و العبادة و الوقار .

و كان السيد قد ملكته فكرة الجهاد فى سبيل الله ، وتحرير بلاد المسلمين من المغتصبين وإعلاء كلمة الله ، وإعادة مجد الاسلام ، واستولت على مشاعره وأعصابه ، و أصبحت له الشغل الشاغل ، و الهم الوحيد ، فكان أكثر حديثه عنه ، وأكبر اهتمامه به ، و أعظم اعتنائه بما يعينه على ذلك

وشغف بالتربية الحربية ، و الرياضات البدنية منذ ريعان الشباب ، كان أكثر لعبه و تسليته بالمعارك الحربية التى يقيمها مع أقرانه و أترابه من غلمان قريته ، وشباب عشيرته ، ودخل فى سنة ١٢٢٧هـ فى جيش القائد المسلم الشهير نواب مير خان مؤسس إمارة « تونك » الاسلامية ، وخاض معه فى حروب دامية ، ومعارك فاصلة ، و رافقه فى مغامراته ليتمرن على الحرب ، و على قيادة الجيوش ، وليحقق بها أمنيته اللذيذة العزيزة ، و هى إجلاء الغاصبين ، و إقامة حكومة إسلامية شرعية ، و لم يفارقه إلا حين صالح القائد الانجليز ، و قبل أن يكون أميراً

فى منطقة صغيرة .

و قد أثرت هذه الرغبة ، و هذا الذوق الذى غلب على كل ذوق فى أصحابه و رفاقه ، وسرى فيهم ، فتحولت القرية الهادئة — التى لم تعرف فى الأيام الماضية إلا العبادة ، و الذكر و التسبيح — إلى ثكنة ، و مركز تربية حربية ، فلا ترى فيها إلا التمرن على الرمى و إطلاق النار ، و المسابقة فى أنواع الفروسية وما ينفع فى الحرب ، يساهم فيهـا العلماء و الأساتذة الكبار ، و أبناء البيوتات الشريفة ، و كبار الأغنياء ، و الجهال و الأميون ، و الشباب و الكهول ، وكبر ذلك على بعض العلماء ، العباد الذين قصدوه من أنحاء بعيدة ، لينصرفوا إلى حيـاة الزهد و العبادة ، و الانزواء و التبتل ، و حنوا إلى العهد السابق حين كنت لا تسمع إلا دويا كدوى النحل ، وأزيزاً كأزيز المرجل ، و كلموه ولكنه لم يجب طلبهم ، و أفهمهم أن ذلك أفضل ، و أن المسلمين إلى ذلك أحوج ، و ذكر لهم ما ورد فى فضل الرباط فى سبيل الله ، و عين تحرس (١) و قدم تغبر فى الجهاد (٢) ، فاقتنعوا و رافقوا إخوانهم فى الاستعداد للجهاد (٣) .

و لما زار السيد « لكناؤ » فى سنة ١٢٣٤هـ و عليه سلاحه ، قال له أحد الضباط الكبار ، و هو عبد الباقى خان ، يا سيدى ! إن كل أمرك حسن جميل ،

(١) روى الترمذى عن ابن عباس مرفوعاً : عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، و عين باتت تحرس فى سبيل الله .

(٢) روى البخارى و الترمذى و النسائى عن أبى عبس مرفوعاً : ما اغبرت قدما عبد فى سبيل الله فتمسه النار .

(٣) إقرأ ما دار من حديث بين الامام السيد أحمد الشهيد ، و بين الشيخ محمد يوسف البهلتى من كبار علماء وعباد جماعته ، فى « سيرة سيد أحمد الشهيد »

إلا شيئاً واحداً تلازمه ، إن ذلك لم يفعله أحد من أجدادك الكرام ، وأنت من بيت دين وصلاح ، و مشيخة وعلماء ، و كان يجمل بك أن تقلدهم فى زيهم وشعارهم و أساليب حياتهم ، و لا تأتى بشئ جديد ، و لا تفعل ما لم يفعلوه .

قال السيد ما هو ذاك يا شيخ عبد الباقى خان ! ؟

قال الضابط ، هذا السلاح الذى تلازمه و تخرج فيه دائماً ، إنه شعار الجهال الأجلاف ، إنه لا يجمل بك ، و لا يليق .

و أحمر وجه السيد غضباً ، و رؤيت الكراهة فى وجهه ، و لكنه ملك نفسه و قال : سامحك الله أيها الضابط الكبير ، فما أصبت القول ، و ما هديت إلى الرشد ، و حسبك فى هذه الساعة ، أن هذه هى أسباب الخير التى أكرم الله بها أنبياءه ليقاتلوا بها الكفار و المشركين ، و كان لنبينا ﷺ منها النصيب الأكبر ، و القسط الأوفر ، و ظهر الاسلام على كل دين ، و انتصر الحق على الباطل ، والعدل على الظلم و أنت وآباؤك مدينون لهذا الجهاد أيضاً ، فمن يدرى فى أى دين كنت أنت و آباؤك ، لو لا قيام المسلمين فى القرون الأولى بالدعوة و الجهاد ، و ماذا كان مصيرك ؟ ! و سكت الضابط الكبير ، و أطرق رأسه حياءاً .

و كان كلما رأى شاباً قوى العضلات مفتول الذارعين تبدو على وجهه مخايل الفتوة و الشهامة ، فرح و استبشر ، و تلقاه بالترحيب . و أنزله منه منزلا خاصاً ، لأنه يرى فيه الغناء فى الجهاد .
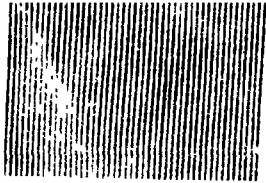
زاره أربعة فتيان من قرية قريبة ، ذوو قامات فارعة ، و أبدان قوية ، فهش لهم و بسط لهم وجهه ، و رفع منزلتهم ، و قال : هؤلاء أحب إلى من أبناء المشايخ ، و الشباب المتنعمين ، فغناؤهم قليل فى ميدان الجهاد ، و معترك الحرب ،

أما هؤلاء فيستطيعون أن ينصروا الاسلام و يكتووا بنار الحرب .

و تعجب هؤلاء ، و كانوا فى الجيش يتقاضون رواتب زهيدة ، ولم يكونوا على شئ من العلم و الثقافـــة ، و لم يكونوا يتوقعون هذه الحفاوة ، و الاكرام البالغ ، فأحبوا السيد ولزموه ، و رافقوه فى الهجرة والجهاد ، فمنهم من أكرمه الله بالشهادة ، ومنهم من طالت به الحياة ، فعاش على الدين والصلاح ، والنصح للاسلام والمسلمين و السعى لاعلاء كلمة الدين » .
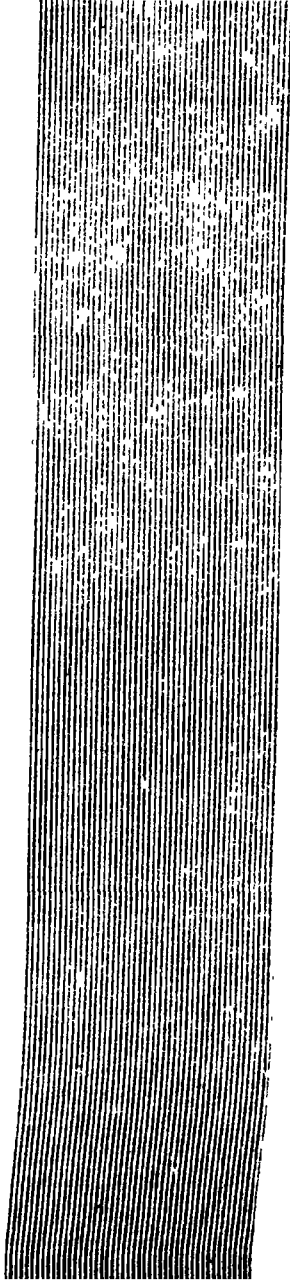
إن هذا الحل الذى قام به الامام و الذى شرحه المؤلف شرحاً وافياً جميلا فى كتابه الرائق الجديد هو الحل الوحيد لقضية المسلمين ، و هو مفتاح ذلك القفل الذى أعيافتحه الساســـة و القادة و الزعماء ، فخارت قواهم و انهارت أعصابهم ، و أصبحوا لا يملكون من السيطرة على نفوسهم و السيطرة على شعوبهم ما يؤهلهم للقيام بهذا الدور الكبير .

و بعد فان فى هذه القبسات من جهاد الامام ما يلقى الضوء على هذه المشكلة الكبرى و يقدم حلها الايجابى الصحيح ، و نحن بدورنا نزفها إلى شعوبنا المسلمة لتبصر فيها طريقها إلى النور و الحياة و الهداية و القيادة والله الموفق .

الدعوة الإسلامية

- نماذج التوحيد من البيان القرآنى
- دراسة القرآن الكريم فى الصين

نماذج التوحيد من البيان القرآنی

(۲)

الأستاذ عبد الله محمد الحسنی

الانسان محدود فی عقله و فعله :

إن الانسان لا يقدر أن يخرج من إطاره المحدود، و لا يستطيع أن يدرك كنه الأشياء إلا بالوسائل التی أنزلها الله عز وجل لأنه يخضع لعوامل نفسية داخلية و حوادث وقتية خارجية و لا يتجرد عن الثقافات الأجنبية و التأثيرات الخارجية و لا يخلو عما يهواه قلبه و تطمح إليه نفسه و لكنه - رغم هذه الأشياء التی تحول دون فهم صحيح و إدراك سليم - يغتر بنفسه و يختال فی مشيته فی إيجاد محدثات الأمور و نحت الأوثان و الأصنام ، فيتعدی الحدود الانسانية ، فتصيبه عثرات شديدة فی الطريق و يبرز عجزه و تقصيره فی هذا المجال ، فيبدأ يخضع أمام كل طاقة و قوة تعترض طريقه ، و أمام كل مخوف مهيب يعوق سيره ، و أمام كل نافع و ضار ، و أمام كل رغبة و هوی حسب التفاوت الموجود فی الطبقات الانسانية و حسب ما تقتضيه الظروف المدنية ، و الأوضاع البلدية . و الأحوال الاجتماعية و الدوافع النفسية ، و حسب ما يتطلب الأسرة، والقرابة ، والأواصر و الوشائج فتنتشر شبكات الآلهة و المعبودات الباطلة فی أقاصی الأرض و أدانيها فيرسل الله المنذرين و المبشرين و ينزل معهم الكتب لاحقاق الحق و إبطال الباطل ورد الاشراك به و دحض الشبهات التی تعتری التوحيد الخالص أثناء غيبتهم و ابتعاد القوم عنهم و لاغواء الشيطان حسب ما قال أمام ربه « لآتينهم من بين

أيديهم و من خلفهم و عن أيمانهم و عن شمائلهم و لا تجد أكثرهم شاكرين (١) قال :« رب بما أغويتنى لا زينن لهم فى الأرض و لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين (٢) » .

القرآن كتاب التوحيد :

و إن القرآن أنزل على رسولنا الكريم محمد النبى العظيم ﷺ فطفق يفرق بين الحق و الباطل ، و جعل رسول الله ﷺ يدعو إلى التوحيد الخالص ، و نبذ الأصنام و الأوثان - و هى غاية بعثة الرسل العظمى كما أشرت من قبل - فأجمل فى مواضع الاجمال وفصل فى موضع التفصيل و رد على المعتقدات الشركية المنتشرة فى أرجاء العالم بردود مقنعة تثلج منها الصدور و تطمئن إليها النفوس ، و ما قصر فيها ، و قد جاء فى القرآن « ما فرطنا فى الكتاب من شئى » لأنه كان خاتم الكتب المنزلة كما كان رسولنا الأعظم صلى الله عليه و آله وسلم خاتم النبين . و تناول موضوع التوحيد بتفصيل و إسهاب و قص علينا قصص الأمم السالفة التى تورطت فى الشرك و الأوثان فجاءها المرسلون و دعوها إلى التوحيد وشنعوا على معتقداتها الشركية تشنيعاً لاذعاً و ضربوا على وترها الحساس ، فنقدم بعض الأمثلة من القرآن الكريم ، وقد ذكر القرآن بلسان هود عليه السلام وأنه خاطب قومه عاداً و قال : « أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم و آباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » (٣) فيقول قومه : «قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا(٤)»

(١) سورة الأعراف الآية ١٧ .

(٢) سورة الحجر الآية ٣٩ ـ ٤٠ .

(٣) سورة الأعراف الآية ١٧ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٧٠ .

و تقول ثمود ، قوم صالح عليه السلام « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا » (١) فيقول صالح : «يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » وقد كتب العلامة السيد سليمان الندوى ، أنه حينما بدت فى الانسان آثار الحضارة والمدنية انصرفت أبصارهم تلقاء السماء والنجوم والكواكب ، فاستحقوها للعبادة و الألوهيــة أكثر من معبودات الأرض ، فأكبوا عليها يعبدونها ، و قد نشأت هذه العاطفة فى الأمم السامية البدوية فى بداية الأمر ، ثم صور بعض منهم هذه الكواكب والنجوم فى صور و أشكال مختلفة ، حتى يمكن لهم أن يرووا غليلهم بهذه المعبودات التى نحتوها بأيديهم فى الأوقات كلها ، فصارت هذه الصور والأشكال لهم أصناماً و أوثاناً يخضعون أمامها فى عباداتهم ، و كان يحكم بابل و مصر الأمم السامية حين ولد سيدنا إبراهيم عليه السلام فرأى عبادة الكواكب و عكوفهم الزائد عليها ، فشق على نفسه الخضوع أمام المعبودات الفانية لأجل فطرته السليمــة و نظرته العميقة .

نرى القرآن يحكى قصته بأسلوب جميل « و إذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك و قومك فى ضلال مبين ، و كذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات و الأرض و ليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى : فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى بريئ مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين(٢) » و قد يثبت من التوراة أنه سافر إلى مصر و كان الاستيلاء حينذاك لعاد فناظر

(١) سورة هود الآية ٦٢ .   (٢) سورة الانعام الآية ٧٦ ـ ٧٩ .

ملکا ادعی الالوهیة لنفسه و ألحم الخصوم یقول إن ربی کذلك هو رب الشمس ، یقول القرآن « ألم تر إلی الذی حاج إبراهیم فی ربه أن آتاه الله الملك ، إذ قال إبراهیم ربی الذی یحیی و یمیت ، قال أنا أحی وأمیت ، قال إبراهیم فان الله یأتی بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذی کفر (۱) .

و نجد کذلك أن قوم سبا کانوا یعبدون الشمس ، و قد جاء فی القرآن فی قصة ملکة سبا بلسان هد هد « وجدتها وقومها یسجدون للشمس ، من دون الله (۲) فالقرآن یشیر إلی الأمم السابقة و انحرافاتهم فی المعتقـــدات ثم یطلبها بوضوح و صراحة (۳) .

اليهودية : إن القرآن لم يتناول الأمة اليهودية بالرد و التقبيح و التشنيع فی معتقداتها إلا فی موضع واحد و هو « قالت الیهود عزیر بن الله وقالت النصاری المسیح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم یضاهئون قول الذین کفروا ، (٤) و لکنه وصفها بأوصاف قبیحة و أعمال رذیلة ، و صفات سخیفة فی مواضع شتی ، وبین الأمراض التی کانت الأمـــة الیهودیة مصابة بها ، و کانت تنخر کیانها و تتآکل جذورها حتی أصبحت منحطة فی الأخلاق ، متلطخة بدماء الأقوام ، فاقـــدة جمیع معانی الخیر و الرشد و الصلاح حیث صارت لاخلاق لهـا فی الدنیا و الآخرة ،

(۱) سورة البقرة الآیة ۲۵۸ .

(۲) سورة النمل الآیة ۲٤ .

(۳) و قد قام بکتابة بحث دقیق فی هذا الموضوع العلامة السید سلیمان الندوی فی کتابه أرض القرآن ج ۲ ، أدیان العرب قبل الاسلام ، القرآن وأدیان العرب قبل الاسلام .

(٤) سورة التوبة ۳۰ .

Dr. Zaki ... M. ... Jar

و قد دمرت جميع المؤامرات الموجودة فى العالم و تولت كبرها ، سواء كانت فى أمريكا أو فى روسيا .

المسيحية : فقد رد القرآن عقائدهم الباطلة فى أربعة مواضع .

١- « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم و روح منه فآمنوا بالله و رسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد ، سبحانه أن يكون له ولد (١) »

٢- « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم (٢) »

٣- « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد (٣) »

٤- « يعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله (٤) »

كلما نلقى نظرة عميقة على القرآن يبدو وضوح النهار أن موضوعه الأول و الآخر و ركيزته الأولى و اهتمامه البالغ للرد على الاشراك بالله وحده ، و هو قطب يدور حوله القرآن الكريم .

و هذا معلوم أنه رد على كل معتقد من معتقدات شركية ، تطرقت إلى أديان و مذاهب أخرى ، لا يجامل ولا يحابى فى هذه الناحية ، بل يفصل تفصيلا ويصرح تصريحاً فى هذا المجال ، و لو لم يكن المعتقد شائعاً فى الأمة كلها إلا فى نبذة قليلة من أمة كبيرة كما ترون فى الآيات التى وردت فى الرد على المسيحية و إن لم تكن المسيحية مجتمعة بأسرها على المعتقدات التى صرح بها القرآن الكريم بل كانت هذه المعتقدات منتشرة فى طوائف مختلفة من المسيحية .

(١) سورة المائدة الآية ٧٢ . (٢) سورة المائدة الآية ٧٣ .

(٣) سورة المائدة الآيه ١١٦ . (٤) سورة المائدة ١١٦ .

و كذلك ترونه يرد على جميع العقائد الشركية الباطلة فى العالم ، التى كانت موجودة فى زمنه ، ثم إنه بين أصولا ثابتة و قواعد متينة للرد على العقائد الباطلة التى ستنشأ فى ما بعد ، و أشار إلى دلائل و براهين لافحام الخصوم و دحض الأباطيل .

و قد جاء فى القرآن الكريم « قل لمن الأرض و من فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله . قل أفلا تذكرون ، قل من رب السماوات السبع و رب العرش العظيم ، سيقولون لله ، قل أفلا تتقون ، قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير و لا يجار عليه إن كنتم تعلمون ، سيقولون لله قل فأنى تسحرون . بل آتيهم بالحق و إنهم لكاذبون ، ما اتخذ الله من ولد ، و ما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (١) و قال « وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً (٢) إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة و إذا ذكر الذين من دونه إذاهم يستبشرون (٣) » وقال : « يعبدون من دون الله ما لا يضرهم و لا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (٤) » قال : ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ، إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان (٥) » « إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى (٦) » وقال : « و قالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون (٧) » « و إنه كان رجال من الانس

(١) المؤمنون الآية ٨٤ - ٩١ .
(٢) سورة الاسراء الآية ٤٦ .
(٣) سورة الزمر الآية ٤٥ .
(٤) سورة يونس الآية ١٨ .
(٥) سورة النجم الآية ٢٢ .
(٦) سورة النجم ٢٣ .
(٧) سورة الأنبياء الآية ٢٦ .

يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا(١)» «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً(٢)».

يرد القرآن على الالحاد و اللادينية فيقول: قالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت و نحيا و ما يهلكنا إلا الدهر (٣)» « ما هى إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين» (٤).

و يرد على ما شاع من أصنام و أوثان و أنصاب و نصب و تماثيل و هى أربعة ألفاظ استعملها القرآن للمعبودات المصنوعة من الطين و الحجر، و الخشب كما صرح به العلامة السيد سليمان الندوى، يقول القرآن: «أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون (٥) و الذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً و هم يخلقون، أموات غير أحياء» (٦) «أ يشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون، و لا يستطيعون لهم نصراً و لا أنفسهم ينصرون، و إن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم، سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون، إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين، ألهم أرجل يمشون بها، أم لهم أيد يبطشون بها، أم لهم أعين يبصرون بها، أم لهم آذان يسمعون بها، (٧) «إن الذين تدعون من دون الله ان يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه (٨)».

وقد حرم القرآن الذبح على النصب و الاستقسام بالأزلام فقال: «وما ذبح على النصب و أن تستقسموا بالأزلام» (٣) و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشيطان.

(١) سورة الجن الآية ٦. (٢) سورة الصافات الآية ١٥٨.
(٣) الجاثية الآية ٢٤. (٤) المؤمنون الآية ٣٧.
(٥) الأنبياء ٢١. (٦) النحل الآية ٢٠.
(٧) سورة الأعراف الآية ١٩١. (٨) سورة الحج الآية ٧٣.
(٩) سورة المائدة الآية ٣.

و ذكر القرآن أسماء بعض المعبودات المختصة بالقبائل و البطون المختلفة نذكر طرفاً منها .

« أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى » (١) « أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين » (٢) « ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً (٣).

و قد أعطى لنا القرآن فكرة واضحة حول التوحيد و مفاهيمه وهي موجودة و منبثة في القرآن كله ، و قد ضرب على أوتار الشرك الحساسة و فضحه على قارعة الطريق بأمثلة سهلة رائعة ، و أسلوب شيق لذيذ ، و قصص ممتعة جميلة ، و حكايات سائغة واقعية ، حتى سهل على كل قارئ للقرآن إدراكه و فهمه « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » و به يحصل على نقاء الفكرة التوحيدية ، و صفائها من أكدار الشرك و أدران البدعة ، و أدناس الضلالة ، و قد أمر كل فرد من أفراد البشر أن يوحد الله في ذاته وصفاته و لا يلحد في أسمائه « و ألزمهم كلمة التقوى (٤) لأن نجاة الانسانية معقودة بناصية التوحيد ، و أرسل رسله وأنزل كتبه لأجله ، وأعلن في كتابه الأخير « الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٥) أنه قد لا ينجو من يشرك بالله شيئاً ، فقال : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (٦) « ليس كمثله شيء و هو السميع البصير (٧) . »

---

(١) سورة النجم الآية ٢٠ . (٢) سورة الصافات الآية ١٢٥ .
(٣) سورة النوح الآية ٢٣ . (٤) سورة الفتح الآية ٢٦ .
(٥) سورة فصلت الآية ٤٢ . (٦) النساء الآية ٤٨ .
(٧) سورة الشورى ، الآية ١١ .

دراسة القرآن الـكريم فى الصين

الأستاذ عبد الرحمن ناجونغ
عضو الجمعية الاسلامية الصينية (بكين)

إن دعوة القرآن إلى النظر و التفكير و التزيد من العلم و العرفان لا تزال قائمة و ستبقى إلى الأبد ، فقد قال تعالى : « و قل رب زدنى علما » طه (١١٤) و قال رسول الله ﷺ : « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بهـا » و قال عليـه السلام : « أطلبوا العلم و لو بالصين » فان طلب العلم فريضة على كل مسلم

كل هذا يدل على أن العلم من أصول القرآن الـكريم ، و أن طلب العـلم أهم مبادىء الاسلام .

كان للسلمين فضل عظيم على الحضارة العالمية ، وقد أثبت المؤرخون الغربيون أنه لو لا العرب لضاع أكثر العلوم القديمة ، و لتأخرت نهضة أوربا الحديثة بسنين طويلة ، و كل هذا يرجع فضله إلى القرآن الـكريم .

كان استيعاب المسلمين الصينين للفكر الاسلامى يجرى عن طريق التلقين الشفوى ، و فى كل مسجد طلاب يتعلمون من إمامه القرآن ، و بتطور التعليم الدينى داخل المساجد على كر العصور تكونت للسلمين الصينيين مجموعة كاملة من النظام التعليمى ، و كان الطلاب يتلقون بصورة عامة علوم الصرف و النحو و البلاغـة و الكلام و تفاسير القرآن (تفسير الجلالين ، و تفسير البيضاوى ، و تفسير الحسين . .) و الحديث الشريف و الفقه إلخ . . و قد جمع بعض الأئمـة سوراً من القرآن تحت اسم (خاتمة القرآن) يضم السور التالية ، الفاتحة ، يس ، الملك ، الطارق ، الأعلى ، الضحى ، الانشراح ، القدر ، الزلزلة ، التكاثر ، العصر ، الفيل ، قريش ،

الماعون ، الكوثر ، الكافرون ، النصر ، المسد ، الاخلاص . الفلق ، الناس .

وكان ذلك يتم مع انتشار الاسلام فى أنحاء البلاد حتى انتشرت خاتمة القرآن فيما بين المسلمين الصينيين ، ثم ظهرت مجموعة أخرى من (خاتمة القرآن) تضم بعض الآيات من سورتى البقرة و آل عمران ، و سور الفتح . و يس و الملك ، والجزء الثلاثين من القرآن .

المخطوطات القرآنية :

كثرت الجوامع و المساجد مع تطور و انتشار الاسلام ، و احتاجت إلى كميات كبيرة من كتاب الله فأخذ الأئمة و العلماء ينسخون القرآن و كتبا إسلامية أخرى ، و كذلك فعل المتعلمون ، ينسخون و يتعلمون منها ، و كان بعضهم يقطع المسافات البعيدة حاملين زادهم و متاعهم للعثور على العلماء ينهلون على أيديهم من مناهل القرآن ، و تعاليم الدين ، و توجد مخطوطات قرآنية فى جامع دو نفس فى بيكين تمت كتابتها عام ١٣١٨م ، و كانت الجمعية الاسلامية الصينية قد طبعت خاتمة القرآن وفق أصل المخطوطة التى عمرها ٢٠٠ سنة . وجدير بالذكر أن سليمان دوون شيو (١٨٢٨ - ١٨٧٣) زعيم انتفاضة قومية هو فى مقطعة يونان لمقاومة ، حكم أسرة تشينغ الاقطاعى ، هو أول من قام بطبع القرآن الكريم فى الصين بطريقة النحت الخشبى فى سنة ١٨٦٢م و على إثر ذلك فقد قام الأستاذ العلامـــة نور الحق مليان يوان (١٨٤١ - ١٩٠٣) بطبع مختارات من القرآن الكريم مرفقة بالترجمات الصينية .

المختارات القرآنية المترجمة :

و قد اختار بعض الأئمة العلماء أجزاء من القرآن لترجمتها إلى اللغة الصينية فى النصف الأخير من القرن الثامن عشر و أوائل القرن العشرين .

و كانت كراسات (خاتمـــة القرآن) رائجة فيما بين المسلمين كما ذكرنا فى

السابق ، ثم بدأ بعض الأئمة والعلماء يترجمون القرآن باللغة الصينية حسب الصوت فأخرجوا (خاتمة القرآن) الصوتية سهلة للمسلمين الذين عرفوا اللغة الصينية ، قليلا لا العربية ، حتى أصبح بمقدور بعضهم أن يتلو الآيات القرآنية دون حاجة إلى المعلمين فشاعت آنذاك (خاتمة القرآن) و (خاتمة الكتاب الحقيق) الصينية ، وقد ظهر (كتاب الفرقان) باللغة الصينية هو أكمل طبعة مترجمة فى وقت مبكر ، صدر فى بيبينغ (بيكن حالياً) عام ١٩٢٧م ، و أتم ترجمته لى تيه شينغ (غير مسلم) الضليع فى اللغة اليابانية ، و أنجز ترجمة القرآن بالصينية وفقاً لطبعة القرآن اليابانية ، و كذلك راجعه على الترجمة الانجليزية ، فاعتبر كتاب الفرقان أكمل ترجمة للقرآن منذ دخول الاسلام فى الصين ، و لعب دوراً هاماً فى دفع بعض الأئمة و العلماء باللغة العربية إلى مزاولة ترجمة القرآن

جيى جيويه معى : نظم بعض العلماء و الأئمة فى ترجمة القرآن فى شنغاى فى أوائل الثلاثينات فأتم صدور طبعة القرآن باللغة الصينية عام ١٩٣١م ، أنجز الامام الحاج سعيد إلياس الصين وانغ جيغ تشاى صدور القرآن المترجم والمفسر فى بيبنغ (بكين حالياً) ثم انهمك فى عمليات ترجمة القرآن سنين طوالا حتى أتم صدور الطبعة المترجمة مرة ثانية عام ١٩٤٦م تحت نفس العنوان « القرآن المترجم و المفسر » فى شنيغ هاى اعتبرت طبعته الأخيرة أفضل من الطبعة الصادرة عام ١٩٣٢م ، سواء فى الترجمة أو التفاسير ، و أصبحت مرجعـــا هاماً يرجع إليها المسلمون فى الصين قبل إخراج طبعة محمد مكين ، ثم أكمل يوجين ليا و طبع (القرآن المترجم) باللغة الصينية و بعض الشروح عام ١٩٤٢م فى بيبننغ ، ظهرت طبعة معانى القرآن فى بيبننغ عام ١٩٤٧م على يد إمام صالح تشونغ مينغ أخرجت طبعة (القرآن المفسر و المترجم باللغة الصينية) بادارة المسلم شى سى تشو فى مقاطعة تاى وان

و قد تعددت المسودات المترجمة و لم تخرج إلى حيز النشر لأسباب عديدة، ظهرت طبعة القرآن المترجم باللغة الويغورية فى منطقة شينجانغ الويغورية الذاتية الحكم فأهتم الشيوخ والعلماء اليوغوريون بشرح وترجمة القرآن، مثل الامام الأكبر شمس الدين (١٨٨٢-١٩٣٦) أنجز طبعة (تفاسير القرآن) الويغورية وهى عمل سهل الفهم عميق، يقبل عليه المسلمون الويغوريون .

وقد صدرت فى بيكين الترجمة الصينية للقرآن الكريم، التى أعدها المرحوم الأستاذ محمد مكين غفر الله له، وهذا بشرى عظيمة للمسلمين كافة فى داخل الصين وخارجها، و سيكون بمقدور كل مسلم صينى أن يحصل على نسخـــة من المصحف الكريم، و كذلك كل راغب فى فهم دين الاسلام الحنيف، والتعاليم الدينية والعلمية والتاريخية التى تضمنها القرآن واضحة جلية فى غير غموض ولا إبهام، سافر الأستاذ محمد مكين مع البعثة الصينية الأولى إلى مصر لطلب العلم فى الأزهر عام ١٩٣١م و كنت أنا من أعضاء هذه البعثة أيضاً (١)، ثم عمل على تأليف وترجمة الكتب الاسلامية بعد عودته إلى الوطن . و قد بذل أكثر من عشر سنوات فى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الصينية . . وحتى عام ١٩٥٢م . . . كان قد انتهى من ترجمة ثمانية أجزاء، ثم و اصل ترجمة بقية الأجزاء إلى أن انتهى من هذا العمل الجبار قبل أن يوافيه الأجل . . وكان يعيد ويعيد فى الترجمة باذلا كل ما قدر عليه من براعة و دقة .

و ما زال القرآن كتاباً مقدساً لدى المسلمين الصينيين منذ دخوله للصين،

(١) إن إيفـاد البنين المسلمين إلى الجامع الأزهر و إلى خارج البلاد لاكمـال دراستهم الدينية قد تم فى الفترة ما بين سنة ١٩٣١ وسنة ١٩٤٥ فقد لعبوا بعد عودتهم إلى الصين دوراً إيجابياً فى نشر الفكر الاسلامى و الحضـارة الاسلامية و تنمية التبادل الثقافى بين الصين و الأقطار العربية .

نجده لدى كل عائلة ، زد على ذلك أن بعض الفتيات يحملن معهن القرآن إلى بيت الزوج ....../ .. فى ليلة الزفاف ، واتخذ بعض المسلمين من آى القرآن لوحات جميلة يزينون بها جدران الغرف ، والمسلمون الصينيون يلتزمون بقوله تعالى » (لا يمسه إلا المطهرون) » .

و بعد قيام جمهورية الصين الشعبية عام ١٩٤٩م ظلت الحكومة الشعبية تطبق سياسة حرية المعتقدات الدينية التى نص عليها فى (دستور جمهورية الصين الشعبية) و طبقاً لقرار المؤتمر الذى عقدته الجمعية الاسلامية الصينية افتتح المعهد الاسلامى الصينى فى بيكين عام ١٩٥٥م ، وقد أخذ المعهد على عاتقه إعداد أئمة أكفاء فى اللغتين العربية والصينية إلى حد ما . ومواده التعليمية هى القرآن الكريم ، والحديث الشريف واللغة العربية إلخ . و فى سنة ١٩٦٠م أنشئ قسم البحوث الاسلامية فى المعهد الاسلامى الصينى لدراسة علوم القرآن و الدين ، و قد نتج عن ذلك إعداد مجموعة من العلماء على مستوى عال نسبياً . غير أن المعهد قد واجه العقبات والعراقيل فى فترة العصابات الأربع .

و من بواعث الغبطة و السرور أن انسحار تلك العصابة الشريرة منذ ١٩٨١م ، و فقاً لقرار المؤتمر الاسلامى الصينى الرابع ، قامت الجمعية الاسلامية الصينية باعادة افتتاح المعهد الاسلامى الصينى و طبع و نشر القرآن الكريم ، و إعادة إصدار مجلة « المسلم الصينى » من أجل تقديم الخدمات الدينية للمسلمين . إن الجمعية الاسلامية الصينية عادت كما كانت عليها سابقاً فى تقديم مساهمة كبيرة من أجل تعزيز الاتصالات الودية و الصداقة بين المسلمين عن طريقة المشاركة فى سبيل القضية الاسلامية .
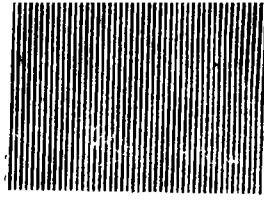
من بحوث

الندوة العالمية للأدب الإسلامي
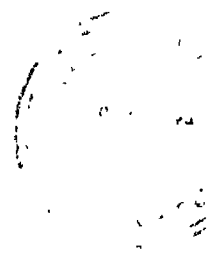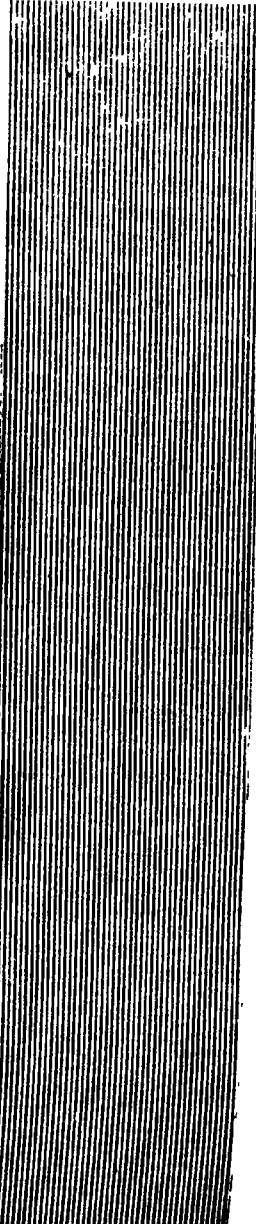
- الأدب الاسلامى فى تراثنا التاريخى و الجغرافى
- الأدب الاسلامى وصلته بالحياة

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخ و الجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة « العربية » (Arabia)

(الحلقة الخامسة)

و يسوقنا ذلك إلى النظرة الفلسفية للتاريخ عند المسلمين ، و هى مما تميز به تراثنا فكان سلفنا من الرواد فى مجال فلسفة التاريخ . ذلك أن القرآن قد وجه أنظار المسلمين إلى أن له سننا فى البشر مثل سننه فى الكون المادى « فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا . أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة ، و ما كان الله ليعجزه من شئ فى السموات ولا فى الأرض ، إنه كان عليماً قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى ، فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً » (فاطر / ٤٣ - ٤٥) ، « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض » (محمد / ٤) ، « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره ، إن الله قوى عزيز » (الحج / ٤٠) ، « ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، و لكن الله ذو فضل على العالمين » (البقرة / ٢٥١) ، « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ، كذلك يضرب الله الحق و الباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء و أما ما ينفع الناس فيمكث

فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » (الرعد / ١٧) ، « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ،و لكم الويل مما تصفون » (الأنبياء / ١٨) .

و قد أشار القرآن الكريم إلى بعض سنن الله الاجتماعية ، و من ذلك قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد / ١١) ، « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الأنفال / ٥٣) ، « ولو أن أهل القرى آمنوا و اتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء و الأرض ، و لكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون » (الأعراف / ٩٩) ، « و إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » (الاسراء / ١٦) ، « واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه و كانوا مجرمين » (هود / ١١٦) ، «و كذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون » (الزخرف / ٢٣) ، « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » (يونس / ٨١) ، « و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » (فاطر / ٢٣) ، « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا و كنا نحن الوارثين . و ما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلوا عليهم آياتنا وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » (القصص / ٥٨ ـ ٥٩) . «وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » (هود / ١١٧) . « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » (الأنفال / ٢٥) ، « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، و العاقبة للمتقين » (الأعراف / ١٢٨) ، « ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، و لتسئلن عما كنتم تعملون » (النحل / ٩٣) «وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما

فيه يختلفون » (يونس / ١٩) ، « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود / ١١٨ - ١١٩) ، « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » (هود / ١٥ - ١٦) « من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء ولمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً . ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا . كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا . انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض ، وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » (الاسراء / ١٨ - ٢١) .

واستلفت نظر المؤرخين تتابع الدول وتطور الواحدة منها من الضعف إلى القوة ومن القوة إلى الضعف ، وحاولوا النفاذ إلى السنن التى تحكم ذلك وشاءها الله الذى خلق كل شئ بقدر وقدره تقديراً : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (آل عمران / ١٤٠) ، « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك عن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شئ قدير . تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » (آل عمران / ٢٦ - ٢٧) . وقد ربطت الآيتان الأخيرتان بين سنن الله الكونية المادية والاجتماعية البشرية فى تتابع الظواهر والوقائع .

ووجه ابن خلدون قصارى جهده لمحاولة سبر تلك السنن الاجتماعية التى تحكم تعاقب الدول والحضارات . أنه يقول فى صدر مقدمته : « أما بعد ، فان فن

التاريخ من الفنون التى تتداولها الأمم و الأجيال .... إذ هو فى ظاهره لايزيد على أخبار عن الأيام و الدول ، و السوابق من القرون الأولى .... تؤدى إلينا شأن الخليقة كيف تقلبت بها الأحوال ، .... و عمروا الأرض حتى نادى بهم الارتحال .... و فى باطنه نظر وتحقيق ، و تعليل للكائنات ومباديها دقيق . وعلم بكيفيات الوقائع و أسبابها عميق » (١) .

ثم بعد أن يستعرض جهود من سبقه وعدم اهتمامهم بما اهتم هو به يقول : «... فأنشأت فى التاريخ كتاباً ، رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجاباً ، وفصلته فى الأخبار والاعتبار باباً باباً ، و أبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسباباً ، ..... وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما يعرض فى الاجتماع الانسانى من العوارض الذاتيه ما يمتعك بعلل الكوائن و أسبابها ، و يعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها ، حتى تنزع من التقليد يدك ، وتقف على أحوال ما قبلك من الأيام و الأجيال و ما بعدك » (٢) .

ثم يقول ابن خلدون فى ثنايا ما كتبه عن (فضل علم التاريخ و تحقيق مذاهبه) : « فهو (التاريخ) محتاج إلى مآخذ متعددة و معارف متنوعة وحسن نظر و تثبت .... لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل و لم تحكم أصول العادة و قواعد السياسة و طبيعة العمران و الأحوال فى الاجتماع الانسانى ، و لا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمن فيها العثار ومزلة القدم و الحيد عن جادة الصدق » (٣) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٢ .

(٢) المرجع السابق ص ٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢ .

ثم مضى ابن خلدون إلى تقديم أمثلة للمغالط فى بعض الروايات التى تناقلها المؤرخون ، ويفيض فى مناقشتها و إثبات سقوطها فى مضمونها وموضوعها و متنها : « فاذن يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة و طبـــائع الموجودات واختلاف الأمم والبقاع والأعصار فى السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب و سائر الأحوال ، و الاحاطة بالحاضر من ذلك ، و مماثلة ما بينه و بين الغائب من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف ، و تعليل المتفق منها و المختلف . والقيام على أصول الدول و الملل و مبادىء ظهورها و أسباب حدوثها ودواعى كونهـــا و أحوال القائمين بها وأخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لكل حادث واقفاً على أصول كل خبر . و حينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول ، فان وافقها و جرى على مقتضاها كان صحيحا ، و إلا زيفه و استغنى عنه » (١) .

ثم يزيد ابن خلدون مقصده بياناً و وضوحاً فيقول : « إن التاريخ إنما هو ذكر الأخبار الخاصة بعصر أو جيل ، فأما ذكر الأحوال العامة للآفاق و الأجيال و الأعصار فهواس للمؤرخ تنبى عليه أكثر مقاصده و تتبين به أخباره » (٢) .

وهو يجمل أسباب تناقل الأخبار الواهية ، فى التشيع للآراء و المذاهب والغفلة عن اتباع قواعد التعديل و التجريح و الذهول عن المقاصد و الجهل بتطبيق الأحوال على الوقائع لأجل ما يداخلها من التلبيس و التصنع و تقرب النـــاس فى الأكثر لأصحاب المراتب ، و لكن يقدم على هذه الأسباب كلها و يجعل سابقاً عليهـا سبباً أهم هو عنده الجهل بطبائع الأحوال فى العمران ، فان كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه فى ذاته و فيما يعرض له من أحواله ، فاذا

(١) المرجع السابق ص ٤٥ـ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٢ .

كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث و الأحوال فى الوجود و مقتضياتها أعانه ذلك فى تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، و هذا أبلغ فى التمحيص من كل وجه يعرض . . . . و القادح المحيل (للحكاية) من طريق الوجود أبين (من أى طريق آخر) . . . . . (و) معرفة طبائع العمران هو أحسن الوجوه و أوثقها فى تمحيص الاخبار و تمييز صدقها من كذبها ، و هو سابق على التمحيص بتعديل الرواة و لا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر فى نفسه ممكن أو ممتنع . و إذا كان مستحيلا فلا فائدة فى النظر فى التعديل و التجريح .

و لقد عد أهل النظر من المطاعن فى الخبر استحالة مدلول اللفظ و تأويله بما لا يقبله العقل . و إنما كان التعديل و التجريح هو المعتبر فى صحة الأخبار الشرعية لأن معظمها تكاليف انشائية (أى من « الانشاء» الذى اصطلح البلاغيون على شموله الأمر و النهى و ما إليهما فى مقابل « الخبر ») أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها ، وسبيل صحة الظن الثقة فى الرواة بالعدالة والضبط .

و أما الأخبار عن الواقعات فلا بد فى صدقها و صحتها من اعتبار المطابقة ، فلذلك وجب أن ينظر فى إمكان و قوعه ، و صار ذلك أهم من التعديل و مقدماً عليه . إذ فائدة الانشاء مقتبسة منه فقط ، و فائدة الخبر منه و من الخارج بالمطابقة . و إذا كان ذلك فالقانون فى تمييز الحق من الباطل فى الاخبار بالامكان و الاستحالة أن تنظر فى الاجتماع البشرى الذى هو العمران ، و نميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، و ما يكون عارضاً لا يعتد به ، و ما لا يمكن أن يعرض له . و إذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا فى تمييز الحق من الباطل فى الأخبار و الصدق من الكذب بوجه برهانى لا مدخل للشك فيه . . . . و كان ذلك لنا معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق الصدق و الصواب فيما ينقلونه . و هذا

هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا». ويقرر ابن خلدون أن هذا العلم الذى نبه إلى أهميته بالنسبة للتاريخ «كأنه علم مستقل بنفسه ، فانه ذو موضوع و هو العمران البشرى و الاجتماع الانسانى ، و ذو مسائل و هى بيان ما يلحقه من العوارض و الأحوال لذاته واحدة بعد أخرى . و هذا شأن كل علم من العلوم وضعياً كان أو عقلياً . و اعلم أن الكلام فى هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب النزعة غزير الفائدة . . . . و كأنه علم مستنبط النشأة » (١) .

ونشير إلى بعض ما ذكره ابن خلدون من سنن العمران والاجتماع الانسانى الذى ينبغى أعمالها فى تمحيص الأخبار ، و على رأس هذه السنن التى يؤدى الذهول عنها إلى مغالط الرواة و المؤرخين عنده « تبدل الأحوال فى الأمم و الأجيال بتبدل الأعصار و مرور الأيام . و هوداء دوى شديد الخفاء ، إذ لا يقع (التبدل) إلا بعد أحقاب متطاولة و لا يكاد يتفطن له إلا الآحاد من أهل الخليقة . و ذلك أن أحوال العالم و الأمم و عوائدهم و نحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة و منهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام و الأزمنة و انتقال من حال إلى حال ، وكما يكون ذلك فى الأشخاص و الأوقات و الأمصار فكذلك يقع فى الآفاق و الأزمنة و الدول (سنة الله التى قد خلت فى عباده) » .

ويبرر ابن خلدون أثر تغير الحكام على تغير عوائد المحكومين فى هذا الأمر و لا سيما إذا كان الحاكمون الجدد من أصل و بيئة و عادات و ثقافة مخالفة : « و السبب الشائع فى تبدل الأحوال و العوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه .. . و أهل الملك والسلطان إذا استولوا على الدولة والأمر فلا بد من أن يفزعوا إلى عوائد من قبلهم » و لا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك .. . فاذا جاءت

(١) المرجع السابق ص ٥٨ - ٦٣ .

دولة أخرى من بعـــدهم و مزجت من عوائدهم و عوائدهـــا خالفت أيضـــاً بعض الشئ . . .

ثم لا يزال التدريج فى المخالفة حتى ينتهى إلى المباينة بالجلة . فمادامت الأمم و الأجيال تتعاقب فى الملك والسلطان ، لاتزال المخالفة فى العوائد والأحوال واقعة. و القياس و المحاكاة للانسان طبيعة معروفة ، .. .. فربما يسمع السامع كثيراً من أخبار الماضين ،لا يتفطن لما وقع من تغير الأحوال وانقلابها ، فيجريها لأول وهلة على ما عرف ويقيسها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع فى مهواة من الغلط » (١) . «وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره و كأنه خلق جديد و نشأة مستأنفة و عالم محدث » (٢) ،

على أن التغير الذى أفاض ابن خلدون فى التنبيه إليه ، لا يعنى عنده افتقـاد سنن ثابتة مطردة فى الاجتماع الانسانى ، بل هو لا يفتأ إن يبرر أن ثمة ثوابت مطردة يسميها « أصول العادة و قواعد السياسة و طبيعـــة العمران و الأحوال فى الاجتماع الانسانى » ، وهكذا يمكن بل ينبغى أن يقاس « الغائب بالشاهد والحاضر بالذاهب » (٣) كما ذكر صاحب المقدمة .

و يمضى ابن خلدون فى سبيله ، يحاول التوصل إلى سنن العمران البشرى ، البدوى منه و الحضرى ، و سنن قيام الدول و سقوطها ، و تطور الصنائع والحياة الاقتصادية ثم تطور العلوم و التأليف فيها و تعليمها . و يضع على رأس قواعـــد العمران و الاجتماع الانسانى أن « الاجتماع الانســـانى ضرورى » و أن « هذا

(١) المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٢ .

الاجتماع إذا حصل للبشر وتم عمران العالم بهم فلابد من وازع يدفع بعضهم عن بعض لما فى طباعهم الحيوانية من العدوان و الظلم » (١) . و ابن خلدون يرى أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم مذهبة للنعة منهم ولكنه يستدرك فيقول : « و لا تستنكر ذلك بما وقع للصحابة من أخذهم بأحكام الدين و الشريعة و لم ينقص ذلك من بأسهم بل كانوا أشد الناس بأساً ، لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم لما تلا عليهم من الترغيب و الترهيب ، و لم يكن بتعليم صناعى و لا تأديب تعليمى .. ..

و لما تناقص الدين فى الناس ، أخذوا بالأحكام الوازعة ، ثم صار الشرع علماً و صناعة يؤخذ بالتعليم و التأديب و رجع الناس إلى الحضارة و خلق الانقياد إلى الأحكام فنقصت بذلك سورة البأس فيهم . فقد تبين أن الأحكام السلطانية و التعليمية مفسدة للبأس لأن الوازع فيها أجنبي ، و أما الشرعية فغير مفسدة لأن الوازع فيها ذاتى .. . و لهذا قال محمد بن أبى زيد فى كتابه (أحكام المعلمين و المتعلمين) : « إنه لا ينبغى أن يضرب أحد من الصبيان فى التعليم فوق ثلاثة أسواط ـ نقله عن شريح القاضى » (٢)

و قد أفاض ابن خلدون القول فى (العصبية) و هى عنده ما نعبر عنه فى أيامنا بالثقل الاجتماعى السياسى ، و قرر أن الغلبة للعصبية و أن غايتها هى الملك ، ومن طبيعته السعى إلى الانفراد بالسلطة و المجد ، كما أن من طبيعته الترف و الدعة و السكون ، فاذا استحكم ذلك أقبلت الدولة على الهرم ، ذلك أن للدولة أعمار كأعمار الأفراد وقد فصل ابن خلدون الحديث عن أنواع الملك و أطوار الدولة

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩ - ٧١ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٢١ - ٢٢٣ .

وانتقالها من البداوة إلى الحضارة. وقد ارتأى أن الملك الطبيعى هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة، و أن الملك السياسى هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلى فى جلب المصالح الدنيوية و دفع المضار و هو يستخدم سياسة عقلية قوانينها مفروضة من العقلاء و أكابر الدولة و نصبائها و يسلم الكافة لها وينقادون لأحكامها .

أما الخلافة و هى حكم المسلمين بشريعة الله فهى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية و الدنيوية الراجعة إليها ، و هى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين و سياسة الدنيا به . فجاءت أحكام الشريعة الالهية « تحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة و معاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الانسانى ، فاجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع » (١) .

ولما كان الله قد خلق السموات والأرض و ما بينهما بالحق ، و أنزل الكتاب الذى يحمل شريعته إلى الناس بالحق ، فان الحق الذى جاء به الشرع لا يتناقض مع سنن الله الكونية و الاجتماعية ، و هذا ما ينبه إليه ابن خلدون أكثر من مرة فى خلال كتابه ، يقول مثلا : « .. .. فاشترطنا فى القائم بأمور المسلمين أن يكون من أولى عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها ، ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية .. .. و إذا نظرت سر الله فى الخلافة لم تعد هذا ، لأنه سبحانه إنما جعل الخليفة نائباً عنه فى القيام بأمور عباده ليحملهم على مصالحهم و يردهم عن مضارهم ، و هو مخاطب بذلك و لا يخاطب بالأمر إلا من له قدرة عليه . . . ثم إن الوجود شاهد بذلك ، فانه لا يقوم بأمر أمة أو جيل إلا من غلب عليهم، وقل أن يكون الأمر الشرعى مخالفاً للأمر الوجودى والله أعلم» (٢)،

(١) المرجع السابق ص ٣٣٧ - ٣٣٨ . (٢) المرجع السابق ص ٣٤٧ .

و يقول أيضاً: « اعلم أن الملك غاية طبيعية للعصبية ، ليس و قوعه عنها باختيار ، إنما هو بضرورة الوجود و ترتيبه .. . و أن الشرائع و الديانات و كل أمر يحمل عليه الجمهور فلا بد فيه من العصبية » (١) .

لقد وجه القرآن المؤمنين إلى النظر فى سنن الوجود ، و استفاد علماء المسلمين فى مختلف مجالات علومهم من هذا التوجيه ، و كان منهم الذين خاضوا فى مجال (طبائع العمران و الاجتماع الانسانى و قواعد السياسة) وفى مقدمتهم ابن خلدون الذى كثيراً ما يضمن مباحثه شواهد من آيات القرآن تؤيد وجهته أو خواتم نشوق العبرة و يكون فيها فصل الخطاب . و قد استفاد من هذا الاتجاه الرائد بدرجة ما المقريزى و ابن تغرى بردى من مؤرخى مصر . و أفرد السخاوى (المتوفى ٩٠٢هـ) سفراً للتعريف بالتاريخ و مقاصده و خصائصه و مزاياه و مناهجه هو كتاب (الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ) .

و أخيراً : فان من الخصائص الاسلامية البارزة لتراثنا فى التاريخ والتراجم ، ذلك أن الأداء الأدبى الندى لوقائع التاريخ ، إذ تأثر المؤرخون المسلمون بالنهج القرآنى فى سوق الوقائع و السير ، و لكتاب الله المثل الأعلى الذى تقصر عن بلوغ كماله جهود البشر ، و إنما تحاول أن تقتدى و تهتدى و تتابع .. .. و فيما سلف من مقتطفات من أدب التاريخ و التراجم شاهد على ذلك ، حتى ما نقل ابن خلدون فى مقدمته الفذة الرائدة التى عالج فيها مباحث دقيقة عميقة و خلص فيها لآراء و نتائج لم تكن معروفة و لكن لم تتخل عنه قدرته البيانية و أسلوبه الأدبى و هو يغوص فى نظراته و نظرياته .

« يتبع »

(١) المرجع السابق ص ٣٥٨ .

الأدب الاسلامى وصلته بالحياة

[الحلقة الرابعة الأخيرة]

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
عميد كلية اللغة العربية جامعة ندوة العلماء

شعر جاهلى رضى به الرسول عليه السلام :

و من الشعر الذى سمعه الرسول ﷺ و رضى به مع إنه قرض بلسان غير إسلامى و بالسبك القديم شعر قتيلة بنت الحارث فى أخيها النضر بن الحارث الذى كان الرسول ﷺ قد أهدر دمه فقتل و لكن رسول الله ﷺ سمع قصيدة أخته فى الاستعتاب فقال لوسمعتها قبل قتله لعفوت عنه ، و هو أمر يدل على تفاعل نفسه ﷺ مع معانى هذه القصيدة وقبول نفسه الكريمة للمسات هذا الشعر العاطفية الانسانية ومع أن هذا الشعر لا يعد شعراً إسلامياً (بالاصطلاح المقرر) ولكنه يحمل روحاً مشابهة للروح الاسلامية و الطبيعة الاسلامية فهوشبه إسلامى .

تقول :

يار اكبا إن الأثيل مظنة	من صبح خامسة و انت موفق
أبلغ بها ميتا بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفق
منى إليك و عبرة مسفوحة	جادت بواكفها و أخرى تخنق
هل يسمعنى النضر إن ناديته	أم كيف ، ميت لا ينطق
أمحمد يا خير ضنء كريمة	فى قومها و الفحل فحل معرق
ما كان ضرك لو مننت و ربما	من الفتى و هو المغيض المحنق ،
أو كنت قابل فدية فلينفقن	باعز ما يغلوبه ما ينفق

—•—

فالنضر أقرب من أسرت قرابة ... و احقهم إن كان عتق يعتق

ظلت سيوف بنى أبيه تنوشه ... لله أرحام هناك تشقق ،

صبراً يقاد إلى المنية متعبا ... رسف المقيد وهو عان موثق ،

ذكره ابن هشام فى كتابه وقال إن رسول الله ﷺ لما بلغه هذا الشعر قال : لو بلغنى هـــذا قبل قتله لمننت عليه .

كذلك قصيدة بانت سعاد التى قرضهـــا صاحبها بالسبك القديم و لكن فى استعطاف رسول الاســـلام ﷺ و بروح الوفاء للاسلام و الخضوع له و الحب لما يتلائم معه فسمعها الرسول ﷺ واجاز عليها كما كان يجاز على الشعر العربى الجيد فى ذلك العهد ، فدخلت القصيدة فى نطاق الشعر الاسلامى و أصبحت خالدة لنيلها رضا رسول الله ﷺ و اجازته عليها .

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول

إلى أن يقول :

أنبئت أن رسول الله أوعدنى ... و العفو عند رسول الله مامول

فهلا هداك الذى أعطاك نافلة ... القرآن فيها مواعيظ و تنويل

كذلك قصيـــدة النابغة الجعدى الذى دخل فى الاسلام وانشد قصيدته أمام الرسول ﷺ ولم يعترض عليها سوى بيت منها ولكنه رضى به بعد الايضاح الذى قدمه صاحبه له و بذلك صارت القصيدة مرضية لدى رسول الاسلام فهى داخلة إذن فى نطاق الشعر الاسلامى .

إجادة الشعراء المخضرمين بعد إسلامهم :

لقد أثار الناس جدلا طويلا حول جودة الشعر فى ظل الاسلام بالمقارنة مع

مع الشعر الجاهلى، وأرادوا بذلك كلام المخضرمين من الشعراء، فقالوا إن شعر حسان بن ثابت الأنصارى قد ضعف بعد الاسلام، ولم يحمل من الروعة الأدبية ما حمله فى الجاهلية وقالوا ذلك عن الشعراء المخضرمين الآخرين الذين قرضوا الشعر فى الجاهلية ثم زهـــدوا فى قرضه فى الاسلام، فقد وصفهم هؤلاء بضعف الملكة الشعرية تحت ظل الاسلام.

هذا رأيهم و لكنه رأى زلا يستوى عند مقارنة أمينة محايدة لأن، الشعراء الذين لم يقولوا شعراً أو زهدوا فى قوله بعد ما أسلموا ما زهدوا فيه لعجزهم عن قول الشعر بل كان امتناعهم عن ذلك لسبب يتصل بهدفهم و غايتهم، و ليس اشلل فى قرائحهم، و يدل على دلك أن رسول الله ﷺ، لما رأى منهم امتناعهم عن الشعر قال ما يمنـــع القوم الذين نصروا رسول الله ﷺ بسلاحهـــم أن ينصروه بلسانهم، فقال حسان بن ثابت الأنصارى أنا لها يا رسول الله وأخذ بطرف لسانه و قال و الله ما يسرنى به مقول بين بصرى وصنعاء.

فقال رسول الله ﷺ كيف تهجوهم (يعنى قريشا) وأنا منهم وذلك لأن الهجاء كان أشد سلاح من الأسلحة الشعرية عند عرب ذلك العصر، وكان شعراء قريش يستخدمونه للايقاع بدعوة الرسول ﷺ ومكانته ولم يكن ايرد عليهم إلا بالسلاح نفسه فقـــال حسان: إنى أسلك كما تسل الشعرة من العجين، و حقا برز حسان أمام المعارضين بقوة دحضت حجاجهم الشعرى و ابكتهم، و من أمثلة ذلك أن وفداً أتى إلى رسول الله ﷺ كان يمثلهم شاعرهم زبرقان بن بدر فاستـــــدعى رسول الله ﷺ حسانا رضى الله عنه فنقض قصيدة زبرقان بشعره القوى الذى ابتدأه بقوله.

إن الذوائب من فهرو أخوتهم قد بينوا سنة للناس تتبع

و هى قصيدة مؤثرة رائعة سبق ذكرها قبل صفحات

فلم يكن سبب زهـادة المسلمين فى قول الشعر بعد دخولهم فى الاسلام إلا انحيازهم للصدق والجد و واقعية الحق ، وهو الذى تجلى فى شعر الشعراء المسلمين الأولين الذين قالوا الشعر فى العهد الجديد و قد سبقت بعض امثلتها فى الصفحات الماضية .

أما حسان بن ثابت الأنصارى و هو أعظم شعراء العهد النبوى الكريم و قد اعتمد عليه الرسول ﷺ فى قول الشعر ، « فقد كان فى جاهليتـه يضرب على الوتر التقليدى فى المدح والهجاء ولكنه لما لامس الايمان قلبه وغسل عنه ادران الجاهلية و أوضار الشرك تغير فاصبح لايهجو أحـداً إلا بالحق و لا يمدح إلا بالحق ، و يقول الشعر الرصين فقد اثبت براعته و روعته الشعرية بجدارة و قوة فى عهده الجديد .

ولم يعد يهيم فى كل واد شان غيره من الشعراء الجاهلين بل أخذ يكرس جهوده لتحقيق عالم تسوده المودة و الاطمئنان وسعى لتحقيق نظام أنزله الله تعالى للبشرية و ارسل به رسولا يهدى الناس سواء السبيل .

وقد مضى حسان يحدد لنا شعره ويضع ميزانا جديداً للنقد و التعريف حيث قال عن الشعر و كيف ينبغى أن يكون .

و إنما الشعر لب المرء يعرضه   على المجالس كيساً و إن حمقا
و إن أشعر بيت أنت قائله   بيت يقال إذا أنشدته صـدقا

و بذلك نقض المبدأ الجاهلى للشعر و هو «أبلغ الشعر أكذبه» و نادى بالمبدأ الجديد تحت شعار التربية النبوية الكريمة و التعليمات الهادفة » (١) .

فان كان ترك الكذب و الجوانب المنحرفة و الاباحية فى الشعر نقصـا فى الملكة الشعرية فنعترف بأن الشعر الاسلامى فى هذه الناحيـة ناقص ، و يستحسن

(١) شاعر الاسلام للأستاذ وليد الأعظمى .

الاسلام هذا النقص ، لأن طبيعة الاسلام هى الكرامة و السناء و هى تأبى معالجة الجوانب العفنة فى الكلام ، ثم إن طبيعة حب لجوانب و زهد فى جوانب أخرى فى الشعر ليست أمراً غريباً فى التراث الشعرى ، فقد وجدت وتوجد لهذه الطبيعة نمـاذج كثيره فى الشعر و الأدب ، فى كل فترة من فترات التاريخ باختلاف الأوضاع و الأحوال ، و اختلاف الظروف و الادوار .

التزام الشاعر لجوانب دون غيرها :

و ليس الأدب الاسلامى فى هذه الخصيصة وحيداً و ذلك لأن وجهات النظر و القيم السارية فى البيئات المختلفة تترك لمساتهـا على تأملات أصحابهـا و مشاعرهم و تضبطها ضبطاً لأطرها و مبادئها ثم إن قواعد الاستحسان و الاستهجان تختلف فى شعب و طائفة عن شعب آخر و طائفة أخرى ، فلم يكن كل ما افتخر العرب به لائقا فى نظر غيرهم للافتخار ، و العرب أنفسهم لمـا انقسموا بين أهل المدر و أهل الوبر انقسموا إلى نظرات و مبادىء معينة فى البداوة و الحضارة يعتز الواحد منهما بمـا لا يعتز به الآخر ، فحب البادية يبعث الشاعر على أن يقول

و من تكن الحضارة اعجبته فـأى رجال بادية ترانا
و من ربط الجحاش فان فينا قنا سلبا و افراسا حسانا

يعلن الشاعر البدوى بذلك التزامه بافكار البادية واستحسانه لها واستهانته بخواطر الحضارة و بتركها ، وحينما يقرض الشعر يزوده بمعانى المادية و ذكر مرافقها ، فيطيل مثلا فى وصف الناقة الحالة محلة جافية كما فعل طرفة بن العبد ، أما الشاعر الحضرى فيختار إطاراً آخر و يلتزم به ، كما نجده فى شعر إمرىء القيس فقد كان متحضرا إلى حد ما إن الالتزام بقيم و آراء فى النطاق الاجتماعى و القومى سواءا كان مدنيا أو ثقافيا أو كان دينيـاً يفرض سيطرته على أقوال الناس و على اتجاهاتهم كثيراً ، و الأدباء والشعراء - وهم جزء منهم - يعبرون عن هذه الاتجاهات والميول ، ولما جاء الاسلام تبدلت القيم و اصطبغت بصبغة دينية محافظة فاذا كان الأدب الجديد متكيفاً بالروح

الجديدة وملتزماً بالمحافظة على اتجاهات والزهد فى اتجاهات فليس أمراً غريباً ولاعيباً على الأدب الاسلامى ، و إن وجدنا فيه غرابة فـــاذا نقول عن الأدب الشيوعى و الاشتراكى الذى يلتزم و يتقيد بروح أكثر ما نجد فيها هو الجفاف و التجرد ، و الضرب على وتر واحد من الحياة لا يجاوزه ، فالأديب مهما كان حراً فى أدبه لايخلو من تقيد و التزام كان قليلا أو كثيراً ، أو كان واضحاً أو خفياً .

فتح أبواب جديدة فى الشعر :

ثم أن شعراء الاسلام قد استبدلوا من تلك الجوانب التى تركوها أو زهدوا فيها جوانب جـــديدة لم تكن فى الشعر السابق و هى جوانب الدعوة و جوانب الأمل فى خير الآخرة و جوانب حب الله ورسوله فالجانب الدنيوى من الشعر قد يكون مشتركا بين عهدين لكن جوانب الدعوة و جوانب الحب لله و الحب لرسوله و الحنين إلى لقاء الله والحذر من عقاب الآخرة أبواب جديدة فى الشعر الاسلامى حلت محل الاباحية و الشهوانية وحب المتاع الزائل والهوى السافل التى تركها وزهد فيهـا شعراء الاسلام انظروا الجانبين .

يقول القطامى و هو شاعر عربى غير مسلم يذكر الفلسفة الجاهلية للقتال .

و كن إذا أغرن على جناب — و اعوزهن نهب حيث كانا

أغرن من الضباب على حلول — وضبة إنه من حان حانا

و أحيـاناً على بكر أخينـا — إذا ما لم نجد إلا أخانا

و يقول الشاعر الاسلامى فى الحرب مع جيش مسيلمه :

أقول لنفسى حـــين خود رألهـا — مكانك لما تشفق حين مشفق

و مكانك حتى تنظرى عم تنجلى — عمـــاية هذا العارض المتألق

وكونى مع التـالى سبيل محمد — وإن كذبت نفس المقصر فاصدق

الأدب الاسلامی I.M.

إذا قال سیف الله کروا علیهم   کررنا ولم نحفل بقول المعوق

فنحن حینما نقارن بین الشعر الجاهلی و الشعر الاسلامی نتجاهل أن الشعر الاسلامی قد طرق ابوابا جدیدة و فتح آفاقاً جدیدة من الشعر و اجاد فی هذه الابواب الجدیدة من الشعر و نتهم شعراء الاسلام جزافا بانهم لم یقولوا الشعر الحسن کما قاله شعراء الجاهلیة .

مع إننا حینما نقارن بین شعر شاعر جاهلی و شعر شاعر أخر من بین فحول عهدهما ، لانقارن بینهما فی غرض واحد معین لأن قوتیهما ونبوغیهما لایترکزان فی أغراض واحدة ، فان الاجادة لدی شاعر تتجلی فی غرض من أغراض الشعر وهی لا تتجلی فی شعر الآخر، فهل نقارن بین النابغة وأمریء القیس فی اغراض واحدة ألیست لکل واحد منهما مجالات مختلفة عن مجالات الآخر فی القوة و البراعة فلماذا لا نقول أن أمری القیس ضعیف فی الشعر لأنه لم یحسن الاعتذار و الاستعطاف ، و أن النابغة ضعیف فی الشعر لأنه لم یحسن فی وصف الخیل والصید کامریء القیس فلماذا نقیس الشعر الاسلامی بما لا نقیس به الشعر غیر الاسلامی فان الشعر الاسلامی إن ترک بعض المجالات القدیمة لسبب له وزنه وقیمته فقد خص مجالات أخری باجادة أکثر و ظهرت براعته فیها بالعکس من الشعر غیر الاسلامی .

فان لکل شاعر مجالات فی القول ، ولکل عهد مجالات ، فن الانصاف أن نزن الشعر فی مجالات قائله وعهده ، و قد تبین من دراسة شعر سیدنا حسان بن ثابت الأنصاری أن الاثر الذی کان یترکه بشعره علی النفوس فی عهده الاسلامی کان أکثر مما کان ترکه فی عهده الجاهلی وأن کان شعره قد اشتمل فی العهد الجاهلی علی روائع عدیدة مما له سهم کبیر فی رفع مکانته بین الشعراء ولکن دوره الشعری فی العهد الاسلامی هو الذی بلغ به إلی مکانته الشعریة الخالدة التی بلغها ، ولو لم یکن ذلک لکان

واحداً من عشرات الشعراء الذين عرفوا بالاحسان الشعرى فى العهد الجاهلى . فالشعر الاسلامى هو الذى ميزه بين الاقران ور فع مكانته من بين معاصريه من الشعراء، ثم أن الاسلام هو الذى حمله على اعتصار قريحته فى مجالات جديدة و إستخراج اللآلى من الشعر الرقيق الرصين فى موضوعاته و كان ذلك اضافة مثرية إلى عدد من قصائده البديعة الرائعة التى قالها فى عهده الجاهلى فى مدائح ملوك غسان و الحيرة وبخاصة قصيدته اللامية التى نالت الاعجاب و التقدير العظيمين و قررت مكانته الشعرية بين الشعراء ، و لكن قصائده فى عهده الاسلامى و هى قصائد مصطبغة بالصبغة الاسلامية المحافظة وخاصة قصائدة فى مدح الرسول ﷺ فهى ممتازة بالروعة و الاجادة و بدقة وصف رغم تقيده بالاطار الاسلامى للشعر . وهناك فرق كبير بين أن يقول الشاعر ما يقوله بدون تقيد باطار و بالتقيد باطار ، فاذا لم تضمحل جودته مع التقيد كان ابلغ وابرع ممن يجيد و هو حر وغير متقيد ، و يدل على ذلك أنه هجا قريشا ولم يصب هذا الهجاء ابن قريش العظيم محمد بن عبدالله الهاشمى القرشى فهو يهجو ابن عم الرسول ﷺ أبا سفيان و كان كافرا فى ذلك الوقت .

رداً على هجاءه فيقول :

و قال الله ! قد أرسلت عبداً	يقول الحق إن نفع البلاد
شهدت به ، فقوموا صدقوه ،	فقلتم : لا نقوم و لا نشاء
لنا فى كل يوم من معد	سباب ، أو قتال ، أو هجاء
فنحكم بالقوافى من هجانا	و نضرب حين تختلط الدماء
الا أبلغ أبا سفيان عنى ،	فانت مجوف نخب هواء
فان سيوفنا تركتك عبدا	و عبد الدار سادتها الاماء
هجوت محمدا فاجبت عنه ،	و عند الله ، فى ذاك الجزاء

أتهجوه و لست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركا ، برا ، حنيفا ، ... أمين الله ، شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم ... و يمدحه و ينصره ، سواء

فان أبي و والده و عرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

لسانی صارم لا عيب فيه ... و بحرى لا تكدره الدلاء

و قد هز بشعره الاسلامی نفوساً أكثر عددا من النفوس التی هزها بشعره الجاهلی فقد كانت مدائحه فی الغساسنة من جيد شعره ، و قد حازبها الصيت و المكانة فی نظر الدارسين للشعر الجاهلی و لما أتی شعره الاسلامی كان تاثيره علی نفوس أكثر عددا واوسع نطاقا و أصبح به متميزاً فريداً دون أقرانه جميعا فی التاريخ .

و مراثيه فی رسول الله ﷺ من أقوى المراثی و أشدها تاثيراً على النفس مع حيطة كاملة للقيم الاسلامية التی تفيد بها فی البكاء علی الميت مهما يكن عزيزا و محبوبا و أنه يعبر عن كل ذلك فی لفظ جزل و عاطفة موثرة مصورة يقول .

ما بال عينك تنام كانما ... كحلت مآقيها بكحل الأرمد

جزعا على المهدى أصبح ثاويا ... يا خير من وطیء الحصی لاتبعد

نفسی تقيك الترب لهفی ليتنی ... غيبت قبلك فی بقيع الغرقد

بابی وامی من شهدت وفاته ... فی يوم الاثنين النبی المهتدی

فظللت بعد وفاته متبلداً ... يا لهف نفسی ليتنی لم أولد

أأقيم بعدك بالمدينة بينهم ... يا ليتنی صبحت سم الاسود

يا بكر آمنة المبارك ذكره ... و لدتك محصنة بسعد الاسعد

نوراً أضاء علی البرية كلها ... من يهد للنور المبارك يهتد

يا رب ! فاجمعنا معا و نبينا … فى جنة تثنى عيون الحسد

و الله اسمع ما لقيت بهالك … إلا بكيت على النبى محمد

صلى الاله و من يحف بعرشه … و الطيبون على المبارك أحمد

بطيبة رسم للرسول و معهد … منير ، وقد تعفو الرسوم وتهمد

ولا تنمحى الآيات من دار حرمة … بها منبر الهادى الذى كان يصعد

معالم لم تطمس على العهد آيها … أتاها البلى ، فالآى منها تجدد

عرفت بها رسم الرسول وعهده … وخيراً به واراه فى الترب ملحد

أطالت وقوفا تذرف العين جهدها … على طلل القبر الذى فيه أحمد

لقد غيبوا حلما و علما و رحمة … عشية علوه الثرى لا يوسد

و راحوا بحزن ليس فيهم نبيهم … و قد وهنت منهم ظهور واعضد

يبكون من تبكى السموات يومه … ومن قد بكته الأرض والناس أكمد

فاصبح محموداً إلى الله راجعاً … يبكيه جفن المرسلات و يحمد

وأمست بلاد الحرم وحشا بقاعها … لغيبة ما كانت من الوحى تعهد

قفارا سوى معمورة اللحد ضافها … فقيدا ، يبكيه بلاد وغر قد

و مسجده فالموحشات لفقده … خلاء له فيه مقام و مقعد

فبكى رسول الله ياعين عبرة … و لا اعرفنك الدهر دمعك يجمد

و مالك لا تبكين ذا النعمة التى … على الناس منها سابغ يتغمد

فجودى عليه بالدموع و اعولى … لفقد الذى لا مثله الدهر يوجد

و ما فقد الماضون مثل محمد … و لا مثله حتى القيامة يفقد

اعف و أوفى ذمة بعد ذمة … و أقرب منه نائلا ، لا ينكد

و أبذل منه للطريف و تالد … إذا ضن معطاء لما كان يتلد

وأكرم حيا فى البيوت إذا انتمى　　　و أكرم جداً أبطحيا يسود

رباه ،ليدأ فاستتم تمامـــه　　　على أكرم الخيرات رب ممجـــد

فتبين من الأمثلة أن شعره فى الاسلام لم يضعف و لم يذهب عنه رواءه ، وإن كانت بعض الاغراض الشعرية قد خفتت فى كلامه لعـــــدم موافقتها للقيم الاسلامية التى التزم بها المخضرمون من الشعراء و هذه الجوانب هى المبالغات الكاذبة و المهاترات الساقطة و التملق و الاطراء و الخواطر الآثمة .

و إن وصف الشعر الاسلامى بصفة الضعف و السقوط بالنسبة إلى الشعر الجاهلى وصف بدأه الحاقدون على الاسلام والناقمون على كل من ينتسب إلى الاسلام أما الذى يسبر الشعر الاسلامى على لآليه ودرره بالحياد والانصاف يجد منها مالايقل عما يجده فى الشعر الجاهلى ، بل و يجد أكثر منه ويجنب ما ابتكره الشعر الاسلامى من أبواب جديدة للشعر ونوع بعض أغراضه الرائعة تنويعاً . منه تنويعه للمديح ، و إبتكار نوع منه هو المديح النبوى الذى سار فى الناس على مر العصور والأزمان كنوع شعرى بذاته وسمى بالنبويات بالعربية و بالنعت بالفارسية و الأردية ونبغ فيه طائفة من الشعراء ونالوا تقديراً بالغا منهم فى هذا النوع ، و هذا النوع الشعرى الجديد من المديح امتاز بجمعه لخصائص النسيب الرقيق بالمديح البليغ واجتمع فيه التعظيم مع الحب ، تعظيم لا كالتقديس لأن التقديس لله وحده ، وحب لا كحب النساء لأنه مجال الغرائز الساقطة و الخواطر السافلة .

بدأ هــــذا النوع الشعرى من الشعراء المخضرمين و استمر بعده فى التاريخ ، فى الشعراء المسلمين و فى لغات الشعوب الاسلاميـة الأخرى كذلك و لا يزال إلى اليوم ومن نماذج هذا النوع من الشعر فى كلام سيدنا حسان بن ثابت الأنصارى :

و أحسن منك لم ترقـــط عينى　　　و أجمل منك لم تـــلد النســاء

خلقت مبرءاً من كل عيب   كأنك قد خلقت كما تشاء

و يقول :

أغر ، عليه للنبوة خاتم   من الله مشهود يلوح و يشهد
وضم الاله اسم النبي إلى اسمه   إذا قال فى الخمس المؤذن أشهد
و شق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود ، و هذا محمد
نبي أتانا بعد يأس و فترة من   الرسل ، والاوثان فى الأرض تعبد
فامسى سراجا مستنيراً و هاديا   يلوح كما لاح الصقيل المهند
و أنذرنا ناراً ، و بشر جنة   و علمنا الاسلام فالله نحمد

و تعتبر قصيدة كعب بن زهير فى مدح الرسول ﷺ عند قدومه إليه معتذرا عن اساءاته الماضية من أساسيات هذا النوع الشعرى أيضاً قلدها الشعراء بعده فى العهود الاسلامية و هى تسمى بقصيدة البردة و قصيدة بانت سعاد .
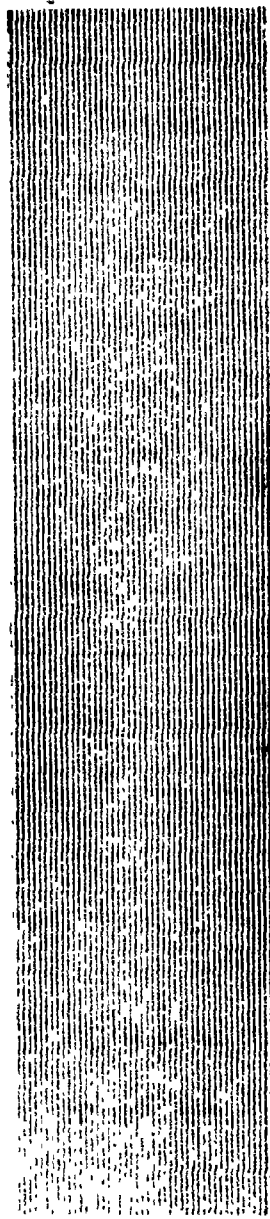
و لقد روى عن الخلفاء الراشدين أيضاً قول الشعر و لكنه لم يزد عن نتف شعرية و ابيات قلائل . و قد اختلف أيضاً فى نسبتها إليهم و يبدو من انصرافهم إلى المهام الدعوية و الدينية و صحبتهم القريبة مع رسول الله ﷺ أنهم قلما وجدوا فى نفوسهم حاجة إلى العكوف على الشعر والاشتغال به ، ولايمكن الاشتغال بالشعر وقوله إلا مع الفراغ ، أما الانصراف إلى شئون تملأ كل فراغ فى حياة الرجل فانما يصرفه أول ما يصرفه عن الشعر ، ألسنا نجد أمرأ القيس ملك الشعراء الجاهليين لما انصرف إلى جمع العدة و العتاد لاخذ الثأر من أعداء و الده المقتول تضاءل اهتمامه بالشعر و اضمحلت الروعة فى كلامه بالنسبة إلى كلامه السابق الذى كان قرضه فى فراغ و انطلاق .

فلم يكن عجباً فى أن الصحابة المنصرفين إلى أعمال الدعوة و الجهاد لم يكونوا يعكفون على الشعر ، أو إنهم صرفوا اهتمامهم عنه مع أن مشاركتهم فى الأدب المنثور معروفة و كبيرة و ذلك لأن مجالات عملهم فى الاسلام تلاءمت مع عــدد من موضوعات الأدب المنثور ، و لم يقرض الشعر فى الاسلام إلا الشعراء الممارسون لقول الشعر قديماً أما فى العهد الجديد فلم يقرضوا إلا عندما وجــدوا مجالا لائقاً لقرضه و مرضياً عند الله و رسوله و بوجه خاص الشعراء الذين أراد منهم رسول الله ﷺ أن يقرضوا الشعر دفاعاً عن الاسلام وهم شعراء الأنصار رضى الله عنهم ، و امتاز حسان بن ثابت الأنصارى من بينهم بلقب شاعر الاسلام ، و قد تبين أن رسول الله ﷺ كان يعد الشعر سلاحاً مؤثرا ضد العدو و هو لقوله فى فتح مكة حينما سمع أن عمر بن الخطاب انكر على قائل للشعر دعوه فانه أشد عليهم من النبل و قوله لحسان بن ثابت الانصارى فداك أبى و أمى .

فى هذا المضمار من هجر الشعر و الاقبال عليه درج الشعر الاسلامى فكان فى أول أمره حذرا آخذا بالحيطة الشديدة ، تاركا لمجالات كثيرة من الشعر و طارقا لمجالات معينة ثم مشى على درب اهتدى إليه بفهم تعليمات الاسلام ، فكان دربا إسلامياً للشعر ، ثم تطور فى هذا الدرب وظهرت ابتكارات استطاع بها أن يكون شعرا قوياً متماسكا ممتازاً بخصائصه ، وهى خصائص تتفق مع خصائص الشعر القديم مما تلاءمت مع الاسلام و تختلف عن خصائص الشعر الجاهلى التى تعارضت مع الاسلام .

دراسات وأبحاث

- مقدمة المصفى شرح الموطأ
- آراء الامام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوى
- القرآن كما يراه الغربيون

...akir Husain
...amia Nagar
New D...

مقدمة المصفى شرح الموطأ
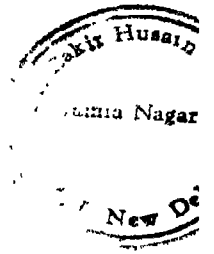
الامام ولى الله أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
تعريب : محمد أكرم الندوى

إن نعم الله سبحانه و تعالى على عباده كثيرة ، لا تعد ولا تحصى ، و أكبر ما أنعم به بعد الخلق و الرزق ، بعثة الأنبياء و الرسل عليهم الصلاة و التسليم ، الذين هدى بهم عباده الذين كانوا يتسكعون فى متاهات الضلالات والظلمات ، وبلغ بهم أحكامه التى نيطت بها مصالح العباد ليتقربوا إلى الله سبحانه و تعالى ، وينجوا من عذاب القبر و عذاب الحشر ، ولا سيما نبينا خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام ، الذى أرسل لاقامة الملة السمحة الواضحة البيضاء ، و شملت دعوته الحمر و السود ، و الشرق و الغرب ، و ألقى الله سبحانه وتعالى علوماً و معارف كثيرة إلى عباده عن طريق نبيه بعبارة النص أو إشارته أو دلالته ، و جعل أمته أفضل الأمم ، و سنته أكمل السنن ، و علومه أحسن العلوم ، و معارفه أوسع المعارف . فاذ شرفنا الله تعالى بمحض فضله بالايمان بهذه الرسالة العظمى ندعوه أن يوفقنا لاتباع شريعته ظاهرها وباطنها ، وإذ رفعنا بالتمسك بطرف من معارف هذا الجبل الأكبر و علومه ندعو أن يهدينا إلى فهم معانيه على وجه التحقيق دون التقليد ، و العمل به من غير إفراط ولا تفريط ، و يجعل المواهب التى لا تسع عقولنا ، ولا يعلمها إلا الله خصيصا بالنبى ﷺ و يحشرنا مع أتباعه و محبيه و يجزى عنا رواة العلم و حملة الدين الذين بلغوا إلينا علوم النبى ﷺ و مهدوا لنا طريق الفهم و الدراية ، خير الجزاء ، إنه قريب مجيب .

أما بعد ، فيقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ولى الله بن عبد الرحيم العمرى نسباً الدهلوى وطنا : إنه أتى على حين من الدهر اضطربت فيه لأجل اختلاف

مذاهب الفقهاء و كثرة أحزاب العلماء و تنازعهم فيما بينهم، لأنه لا بد من طريق معين للعمل و التعيين من غير ترجيح سفسطة ، و اختلف الناس فى تقرير وجوه الترجيح إجمالا و تفصيلا ، اختلافاً فاحشاً ، فاضطربت و اختلفت إلى كثير من العلماء ، و مددت إليهم يد الاستعانة ، و لكن من دون جدوى ، ثم تضرعت إلى الله سبحانه و تعالى و قلت : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات و الأرض حنيفا و ما أنا من المشركين.

مكانة الموطأ :

فأشير إلى بكتاب الموطأ للامام الهمام حجة الاسلام مالك بن أنس ، ثم ترسخت هذه الاشارة فى قلبى ، حتى علمت أنه ليس اليوم كتاب على أديم الأرض من كتب الفقه أقوى من كتاب مالك ، لأن نسبة الأفضلية إلى كتاب إما لفضل المؤلف أو لالتزامه الصحة ، أو لاستفاضة أحاديثه ، أو تلقيه الناس بالقبول ، أو جودة ترتيبه و استيعاب المقاصد المهمة ، و ما إلى ذلك من وجوه الترجيح ، فان هذه الوجوه كلها متوفرة فى كتاب مالك بالنسبة إلى سائر الكتب الموجودة على وجه الأرض .

ثناء الأئمة على الامام مالك :

أما فضل المؤلف فليس على وجه الأرض كتاب ألفه أحد أتباع التابعين إلا الموطأ وليس كتاب غير الموطأ أجمع المحدثون على جلالة مؤلفه، وكذلك ليس اليوم كتاب باشره إمام من أئمة الفقه بالتأليف إلا الموطأ ، قال الشافعى : « إذا ذكر العلماء فالك النجم ، و ما أحد أمن على فى علم الله من مالك (١) » و قال : «مالك وابن عيينة القرينان لو لا هما لذهب علم الحجاز (٢) » وقال : « العلم يدور

(١) تنوير الحوالك للسيوطى ج ١ ص ٣ . (٢) نفس المصدر .

على ثلاثة : مالك بن أنس و سفيان بن عيينة و ليث بن سعد » (١) و قال سفيان بن عيينة فى حديث « يوشك أن يضرب الناس أكباد الابل يطلبون العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدنية » : نرى أنه مالك بن أنس » (٢) وقال : رحم الله مالكا ما كان أشد انتقاد مالك للرجال (٣) ، و قال : « كان مالك لا يبلغ من الحديث إلا صحيحاً و لا يحدث إلا عن ثقات الناس ، و ما أرى المدينة إلا ستخرب بعد موت مالك » (٤) ، وقال عبد الرحمن بن مهدى : « ما بقى على وجه الأرض أحد أمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك بن أنس » (٥) وقال : « ما أقدم على مالك فى صحة الحديث أحداً » (٦) ، وقال أيضاً : « سفيان الثورى إمام فى الحديث و ليس بامام فى السنة ، و الأوزاعى إمام فى السنة و ليس بامام فى الحديث ، ومالك بن أنس إمام فيهما جميعا » (٧) ، سئل ابن الصلاح فى فتاويه عن معنى هذا الكلام فقال : « السنة هاهنا ضد البدعة فقد يكون الانسان عالماً بالحديث و لا يكون عالماً بالسنة » (٨) .

الفرق بين اصطلاح الحديث و السنة :

يقول المؤلف : إن تفسير هذا الكلام يتطلب البسط والتفصيل فاعلم أن السلف كان لهم منهاجان فى استنباط الأحكام ، أحدهما أنهم كانوا يجمعون القرآن و الحديث و آثار الصحابة ، ويستنبطون منها الأحكام ، و هذا أصل منهج المحدثين ، والآخر

(١) التمهيد لابن عبد البر ج ١ ص ٦٢

(٢) الترمذى باب عالم المدينة من كتاب العلم .

(٣) البداية و النهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٧٤ .

(٤) التنوير ج ١ ص ٣ .

(٥) المصدر نفسه .

(٦) التمهيد ج ١ ص ٦٥ .

(٧) و (٨) التنوير ج ١ ص ٣ .

أنهم كانوا يحفظون القواعد الكلية التى نقحها و هذبها جمع من الأئمة من غير نظر إلى مصادرها ، فاذا حدثت حادثة عرضوها على تلك الكليات واستنبطوا منها حكمها ، و هذا أصل منهج الفقهاء ، فغلب على بعض السلف المنهج الأول ، و على البعض الآخر المنهج الثانى ، و إلى هذا يشير ما قيل من أن حماد بن أبى سليمان كان أعلم الناس بمسائل إبراهيم النخعى أى بقواعده الكلية التى نقحها وهذبها ، ولما كان مالك يعبر فى كتابه عن القواعد التى قررها علماء المدينة بالسنة حيث يقول : « و السنة التى لا خلاف فيها عندنا كذا و كذا » تبنى عبد الرحمن بن مهدى اصطلاحه هذا و قال : كان سفيان الثورى إماما فى نقل الحديث و آثار الصحابة بأسانيد صحيحة ، و إقامة ألفاظ الحديث و تفريقه فى الأبواب الفقهية و استحضار أحاديث كل باب ، و كان الأوزاعى إماماً فى معرفة القواعد التى وضعها السلف فى كل باب من أبواب الفقه ، و كان مالك إماما فى كلا البابين ، وهذا المعنى لدى المحدثين فى ثبوته و ظهوره كالشمس فى رابعة النهار .

و قال أيضاً : « ما رأيت أعقل من مالك (١) » و قال يحيى بن سعيد القطان و يحيى بن معين : « مالك أمير المؤمنين فى الحديث (٢) » و قال ابن معين : كان مالك من حجج الله على خلقه (٣) » وقال ابن وهب : « لو لا مالك و الليث لضللنا (٤) » و قال ابن قدامة : « كان مالك أحفظ أهل زمانه (٥) » وسأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه : من أثبت أصحاب الزهرى ؟ قال : « مالك ابن أنس فى كل شئ (٦) » و قال البخارى : « أصح الأسانيد مالك عن نافع

---

(١) التنوير ج ١ ص ٣ . (٢) نفس المصدر .
(٣) نفس المصدر . (٤) التمهيد ج ١ ص ٦١ .
(٥) نفس المصدر ص ٨١ . (٦) التنوير ج ١ ص ٣ .

عن ابن عمر (١) » وفى الحلية لأبى نعيم عن مالك : إنى ما بت ليلة إلا ورأيت النبى ﷺ » (٢) .

نسب الامام مالك :

وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحى ، و أبو عامر صحابى جليل شهد مع النبى ﷺ الغزوات إلا غزوة بدر ، و مالك من كبار التابعين وعلمائهم و أحد الأربعة الذين حملوا عثمان ليلا إلى قبره » (٣) . يروى عن عمر و عثمان ، و أبو سهيل نافع بن عامر عم مالك من ثقات التابعين ، و لمالك عنه روايات كثيرة .

ولادته :

ولد مالك سنة ثلاث وتسعين وقيل : سنة تسعين . حملت به أمه ثلاث سنوات .

صفته :

كان مالك طويلا شديد البياض إلى الشقرة ، أشيب الرأس و اللحية .

شيوخه :

و أكثر رواياته عن أهل المدينة ، كان عمر أولا مرجع الفقهاء و المفتين ، ثم خلفه فقهاء الصحابة كابن عمر و عائشة و ابن عباس و أبى هريرة و أنس وجابر ، ثم قام بحمل هذا العبء الفقهاء السبعة كسعيد بن المسيب و عروة و سالم و قاسم ، و خلفهم الزهرى و يحيى بن سعيد و زيد بن أسلم و ربيعة و أبو الزناد ونافع ، وورثهم مالك ، و دون أحاديثهم و آثارهم و أودعها الكتب و أقبل عليه الناس من سائر الأمصار يأخذون عنه الحديث و الفقه ، و اشتهر وطارصيته فى الآفاق حتى لم يكن فى عصره من يساويه فى القبول و الشهرة ومكث فى المدينة روح العالم و قلب البلاد يحدث و يفتى .

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ج ١٠ ص ٦ .

(٢) التنوير ج ١ ص ٣ . (٣) نفس المصدر ص ٢ .

وفاته :

مرض مالك يوم الأحد فأقام مريضاً اثنين و عشرين يوماً ، و توفى إلى رحمة الله يوم الأحد لعشر خلون من ربيع الأول ، و قيل لأربع عشرة خلت من ربيع الأول سنة تسع و تسعين ومائة (١) . قال سحنون : « توفى مالك وهو ابن سبع و ثمانين سنة » (٢) و تولى منصب الاجتهاد و الافتاء بالمدينة إلى ستين سنة ، و كانت ترد إليه الأسئلة من أصقاع الأرض فيرد عليها رداً علياً صحيحاً .

هيبته :

قال سفيان الثورى :

يدع الجواب فلا يراجع هيبة — و السائلون نواكس الأذقان
أدب الوقار و عز سلطان التقى — فهو المهاب و ليس ذا سلطان (٣)

بعض ما قيل فى رثائه :

و رأى عمر بن سعد الأنصارى فى المنام ليلة توفى مالك أن قائلا يقول :

لقد أصبح الاسلام زعزع ركنه — غداة ثوى الهادى لدى ملحد القبر
إمام الهدى ما زال للعلم صائنا — عليه سلام الله فى آخر الدهر (٤)

الامام مالك ملتقى الحنفية و الشافعية :

و اعلم أن المدينة - كما قدمنا - كانت مرجع الفضلاء و محط رجال العلماء حتى آل الأمر إلى مالك و ورث سبعة من العلماء الأجلة ، و أدخل فى كتابه ما كان يحفظ من الأحاديث و الآثار ، و رجع الناس قاطبة إلى كتابه ، فليس مذهب الشافعى إلا تفصيلا لكتابه ، و كذلك فقه محمد فى المبسوط مقتبس من علم مالك ، واعلم أن الأئمة الأربعة : أبا حنيفة و مالكا والشافعى وأحمد ، هم الذين

(١) التنوير ج ١ ص ٣ . (٢) التمهيد ج ١ ص ٨٩ .
(٣) المدارك للقاضى عياض ج ٢ ص ٣٤ . (٤) التنوير ص ٤ .

سادت العالم علومهم ، و أخذ الآخران منهم من مالك و استمدا من علومه ، ولم يكن من هؤلاء من هو من أتباع التابعين إلا أبا حنيفة و مالكا ، أما أولهما فلم يذكر رواياته أئمة المحدثين كأحمد و البخارى و مسلم و الترمذى و أبي داؤد و النسائى وابن ماجة فى كتبهم ، ولم تتصل سلسلة الرواة الثقات به ، و أما الآخر فقد أجمع أهل الحديث على أنه إذا ثبت الحديث بسنده فقد بلغ ذروة الصحة .

أصحية الموطأ :

و أما التزام مالك للصحة فكان الشافعي يقول : «ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك (١) » و فى رواية : « ما فى الأرض بعد كتاب الله أكثر صوابا من موطأ مالك (٢)» وفى رواية» : ما وضع على الأرض كتاب هو أقرب إلى القرآن من كتاب مالك (٣) » و قال الحافظ المغلطائى : «أول من صنف الصحيح مالك (٤) » قال ابن حجر : « كتاب مالك صحيح عنده وعند من تقلده على ما اقتضاه نظره من الاحتجاج بالمرسل و المنقطع وغيرهما » (٥) .

حجية المرسل عند مالك :

إن العلماء قد إختلفوا فى العمل بالمرسل والمنقطع فذهب مالك و أبو حنيفة و أكثر العلماء من أتباع التابعين إلى صحة العمل به ، إنهم يحتجون بقول عمر وغيره من الصحابة وإجماع جمع من تابعى المدينة فتمسك مالك بما اقتضاه أصله من عدم قدح الارسال فى الصحة ، فصح كتابه لديه وأبي حنيفة وسائر أتباع التابعين ، وزاد السيوطى على ابن حجر فقال : قلت ما فيه من المراسيل فانها مع كونها حجة عنده وعند من وافقه من الأئمة على الاحتجاج بالمرسل فهى أيضاً حجة عندنا إذا اعتضد ، و ما من مرسل فى الموطأ إلا و له عاضد أو عواضد فالصواب إطلاق أن الموطأ

(١) التنوير ج ١ ص ٧ . (٢) التمهيد ص ٧٧ . (٣) التنوير ص ٨ .
(٤) التنوير ص ٨ . (٥) نفس المصدر ص ٩ .

صحيح لا يستثنى منه شئ (١) »

الكتب الستة و غيرها شروح للموطأ :

و يقول المؤلف : إن أصحاب الكتب الستة و الحاكم فى المستدرك بذلوا وسعهم فى وصل مراسيل مالك و رفع موقوفاته ، كأن هذه الكتب شروح للموطأ و متممات له ، و لا يوجد موقوف صحابى و لا أثر تابعى إلا و له مأخذ من الكتاب و السنة ، تجده فى شرحنا هذا ، و قد ألف الحافظ ابن عبد البر كتاب التمهيد فى وصل ما فى الموطأ من المراسيل ، و قال : « وجميع ما فى الموطأ من قوله بلغنى أو عن ثقة عندى وأمثال ذلك واحد وستون حديثاً ، كلها مسندة من غير طريق مالك إلا أربعة أحاديث لم نعرف مأخذها ، أحدها : إنى لا أنسى و لكن أنسى ، و الثانى : إن رسول الله ﷺ أرى أعمار الناس ، والثالث : قول معاذ : آخر ما أوصانى رسول الله ﷺ وقد وضعت رجلى فى الغرز أن قال حسن خلقك للناس ، والحديث الرابع : «إذا انشأت بحرية ثم تشأمت فتلك عين عذيقة» (٢).

يقول المؤلف : هذه الأحاديث و إن لم تثبت بهذه الألفاظ فمعناها صحيح ، وسوف أتكلم عنها فى مواضعها .

شهرة الموطأ :

أما شهرة الموطأ فقد رواه عنه جم غفير من الخلفاء و العلماء ، فمن الخلفاء الرشيد و ابناه الأمين و المامون ، و قيل الهادى و المهدى ، و من الأئمة الشافعى ومحمد بن الحسن ، و الامام أحمد بن حنبل عن عبد لرحمن بن مهدى وجماعة عنه ، و أبو يوسف عن رجل عنه ، و من المحدثين جماعات كثيرة ، و من أصحاب مالك يحيى بن يحيى المصمودى و ابن القاسم والأصبغ ، و من الصوفية ذوالنون المصرى ، و من المصريين و الشاميين و العراقيين و اليمنيين ، و الخراسانيين خلائق .

(١) نفس المصدر . (٢) التنوير ج ١ ص ٨ .

نسخ الموطأ :

و روايات الموطأ أكثر من ثلاثين ، و وضع الحافظ ابن عبد البر كتابيه التمهيد و الاستذكار على اثنتى عشرة رواية منها ، و هى أشهرها و أقواها .

عناية العلماء بالموطأ :

قال القاضى عياض : لم يعن بكتاب من كتب الحديث اعتناء الناس بالموطأ » (١) فقد شرحه من المتقدمين ابن عبد البر فى التمهيد و الاستذكار ، و أبو الوليد بن الصفار فى كتابه « الموعب » و سمى جماعة ، و ألف القاضى عياض كتاباً فى بيان التحريف و التصحيف سماه « المشارق » و ألف بعضهم مسنداً له ، و بحث بعضهم فى أسماء رجاله و وصل منقطعاته ، و لم يزل العلماء يخرجون أحاديثه و يشرحونه و يروونه . حتى رواه هذا الفقير عن بعض أهل مكة مسلسلا بقراءة الجميع أو سماعه إلى مالك بغير الانقطاع و لا يوجد اليوم على وجه الأرض كتاب ألفه من عاصر مالكاً . فضلا عن تسلسل السماع و الرواية فيه .

تلقى المسلمين للموطأ بالقبول :

و أما تلقى المسلمين له بالقبول ، فهو عمدة مذاهب مالك و أساسه ، و عمدة مذهب الشافعى و رأسه مهما تعقب فى بعض المواضع وخالفه فى ترجيح الروايات ، و أصل فقه محمد فى كتابه المبسوط و غيره ، فان الآثار التى يرويها عن أبى حنيفة لا تكفى سائر مسائل الفقه ، و ما أكثر ما يقول فى الموطأ : « و به أقول و به كان يقول أبو حنيفة » وأما تلقى أصحاب الكتب الستة له بالقبول فيظهر من أن البخارى إذا وجد حديثاً مسنداً عن طريق مالك لا يعدل عنه إلى رواية غيره ، إلا أن تتوفر فيه شروطه فيذكر له المتابعات و الشواهد ، و فى كثير من مواضع كتابه يستشهد لآثار الموطأ باشارات الحديث .

(١) التنوير ص ١٢

ترتيب الموطأ و تبويبه :

أما الترتيب والاستيعاب فاعلم أن آثار النبي ﷺ لم تكن مدونة فى عصر الصحابة و التابعين حتى استخلف عمر ، بن عبد العزيز و كتب إلى فقهاء عصره أن يدونوا سنن النبي ﷺ وآثار عمر ، فصنع ابن شهاب فى ذلك كتاباً من دون ترتيب و لا تبويب ، ثم اشتغل بالتأليف و التبويب كبار أهل الطبقة الثالثة ، فدون الربيع بن صبيح ، و سعيد بن أبى عروبة ، طرفا من العلم ، ثم دون مالك الأحكام و تكلم فى سائر أبواب الفقه ، و توخى القوى من حديث أهل الحجاز و شرحه بالمراسيل و البلاغيات ، و مزجـه بأقوال الصحابة و فتاوى التابعين ، وصنف ابن جريج بمكة ، و الأوزاعي بالشام ، و سفيان الثورى بالكوفة ، وحماد بن سلمة بالبصرة ، وهشيم بواسط ، ومعمر باليمن ، و ابن المبارك بخراسان ، و جرير بن عبد الحميد برى قريباً من اليمن ، وعمت طريقـة تأليف المسانيـد فى نحو المائتين ، و أفردوا حديث النبي ﷺ عن الآثار و غيرها .

انتقاء مالك للأحاديث :

و وضع الامام مالك الموطأ على عشرة آلاف حديث ، ثم لم يزل ينتقى حتى بقى هذا ، وقيل لأبى حاتم الرازى : بماذا سمى الموطأ موطأ ؟ قال : شئ قد صنفه و وطأه للناس حتى قيل موطأ مالك بن أنس (١) » و عمـل الناس فى عصره الموطآت فقيل له فى ذلك اشتغلت نفسك بهذا الكتاب و قد شركك فيه النـاس وعملوا أمثاله ، قال : « لا يبقى إلا ما يبتغى به وجه الله » فلم يبق لكتاب من هذه الكتب عين ولا أثر كأنها ألقيت فى البئر ، وسأل مالك يوماً مطرف بن عبد الله : ما يقول الناس فى موطأى ؟ قال فقلت له : «الناس رجلان محب مطر وحاسد مفتر» فقال له مالك « إن مد بك العمر فسترى ما يريد الله به » (٢) .

عدد الأحاديث فى الموطأ :

قال أبو بكر الأبهرى : جملة ما فى الموطأ من الآثار عن النبي ﷺ و عن

(١) التنوير ج ١ ص ٦ .   (٢) التمهيد ص ٨٥ .

الصحابة والتابعين ألف وسبع مائة وعشرون حديثاً، المسند منها ست مائة، والمرسل مائتان و اثنان وعشرون، والموقوف ست مائة وثلاثة عشر، و من قول التابعين مائتان و خمسة و سبعون (١) » و قال ابن حزم : أحصيت ما فى موطأ مالك فوجدت فيه من المسند خمسمائة ونيفاً، وفيه ثلاثمائة ونيف مرسل، والله أعلم بحقيقة الحال (٢) .

وبالجملة فقد بذل فى هذا الشرح و سعى فى ترتيبه ترتيباً فقهياً كما سترى.

قصيدة سعدون فى مدح الموطأ :

و لسعدون قصيدة فى مدح الموطأ أذكرها فيما يلى :

أقول لمن يروى الحديث و يكتب	و يسلك سبل الفقه فيه و يطلب
إن أحببت أن تدعى لدى الحق عالماً	فلا تعـد ما تحوى من العلم يثرب
أتترك داراً كان بين بيوتها	يروح و يغدو جبرئيل المقرب
ومات رسول الله فيها و بعـده	بسنته أصحـابه قـد تـأدبوا
و فرق شمل العلم فى تابعيهم	و كل امرىء منهم له فيه مذهب
فخلصه بالسبل للناس مالك	و منه صحيح فى المحبس و أجرب
فأبدى بتصحيح الرواية داءه	و تصحيحها فيـه دواء مجرب
و لو لم يلح نور الموطأ لمن سرى	بليل عماه ما درى أين يذهب
فبادر موطأ مالك قبل فوته	فما بعده إن فات للحق مطلب
و دع للموطأ كل علم تريده	فان الموطأ الشمس و العلم كوكب
هو الأصل طاب الفرع منه لطيبه	و لم لا يطيب الفرع والأصل طيب
هو العلم عند الله بعد كتابه	و فيه لسان الصدق بالحق معرب
لقد أعربت آثاره ببيانها	فليس لها فى العالمين مكـذب

(١) التنوير ج ١ ص ٩ .

(٢) نفس المصدر .

و مما به أهل الحجاز تفاخروا — بأن الموطأ بالعراق محبب
و من لم يكن كتب الموطأ ببيته — فذاك من التوفيق بيت مخيب
أتعجب منه إذ علا فى حياته — تعاليه من بعد المنية أعجب
جزى الله عنا فى موطاه مالكا — بأفضل ما يجزى اللبيب المهذب
لقد أحسن التخليص فى كل ما روى — كذا فعل من يخشى الاله و يرهب
لقد فاق أهل العلم حيا و ميتا — فأضحت به الأمثال للناس تضرب
و ما فاقهم إلا بتقوى و خشية — و إذ كان يرضى فى الاله و يغضب
فلا زال يسقى قبره كل عارض — بمنبثق ظلت عزاليه تسكب (١)

الموطأ قدوة فى طريق الفقه و الاجتهاد :

قد عرف بالضرورة أن طريق الاجتهاد و الفقه أى معرفة الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية مسدود إلا عن طريق ، و هو أن يجعل الموطأ قدوة له ، و يعرف وصل مراسيله و مأخذ أقوال الصحابة و التابعين و ينشئ فى نفسه القدرة على الاجتهاد ، أى تحديد معانى الألفاظ و تطبيق الدلائل ، و تبيين الأركان و الشروط و الآداب ، و استنباط القواعد الكلية الجامعة المانعة ، و معرفة علل الأحكام و عمومها و خصوصها حسب ما تقتضى العلل ، و يعرف المواضع التى تعقب فيها الشافعى و غيره من الأئمة الامام مالكا ثم يجتهد لمعرفة أحكام الله بصورة تفصيلية ، و يعمل باليقين أو غالب الرأى باقامة الدلائل على تلك المسائل .

معنى الاجتهاد المطلق :

و تفصيل هذا الاجمال أن الاجتهاد فرض كفاية فى كل عصر ، و أعنى بالاجتهاد ، الاجتهاد المطلق كاجتهاد الشافعى مثلا ، فلا يحتاج إلى شخص و يعتمد عليه فى معرفة الجرح و التعديل و معرفة اللغات و ما إلى ذلك ، و لا يقلد أحداً عن سبقه ، بل يتولى بنفسه استخراج الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية و التفريع و الترتيب ، و إن كان ذلك فى ضوء أقوال بعض الأئمة المتبوعين .

---

(١) المدارك ج ٢ ص ٧٨ ، مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ .

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فى
-١١- تاريخ التشريع الاسلامى

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

نقد أصول المحدثين :

لقد كان المحدثون الذين سبق ذكرهم و الحديث عنهم يأخذون بتلك القواعد التى استخرجها الامام الدهلوى من صنيعهم ، و قد أسلفت ذكرها ، من غير أن يتواضعوا على هذه القواعد كأصول محررة معروفة ، بل لأنها كانت تلائم ذوقهم ، و منهجهم فى العمل ، و طريقتهم فى البحث ، و كان أساس تلك القواعد اتباع الأثر المروى عن رسول الله - ﷺ - بسند متصل ثابت ، و لذلك كان جل بحثهم فى معرفة الأحاديث الصحيحة ، يجمعونها و يسافرون لها ، و يفتشون عن أسانيدها و رجالها ، ولا يمكننا أن نقول إن كل ما تصالحوا عليه أو تعاملوا عليه من أصول و ضوابط كانت منصوصاً عليها ، بل كانت هناك أصول مستخرجة من صنيع الأوائل ، و أصول تعتمد على الاجتهاد و القياس ، و لذلك فان الادعاء بأن هذه الأصول لا يدخلها الخلل و لا يؤتى من قبلها لا يقوم على أساس على متين ، وقد تفطن الامام الدهلوى إلى خطر الخوض فى مثل هذه الأصول والاعتماد عليها كلياً ، وما ينجم عن ذلك من تحجر أو افتيات فى الرأى ، ونبه الى ذلك قائلا :

« و لا ينبغى لمحدث أن يتعمق فى القواعد التى أحكمها أصحابه ، و ليست مما نص عليه الشارع ، فيرد به حديثاً ، أو قياساً صحيحاً كرد ما فيه أدنى شائبة الارسال والانقطاع كما فعله ابن حزم فى حديث تحريم المعازف (١) لشائبة الانقطاع

---

(١) و هو قوله (ﷺ) : « ليكونن فى أمتى أقوام يستحلون الحر والحرير و الخمر و المعازف » ، الحديث .

فى رواية البخارى (١) على أنه فى نفسه متصل صحيح (٢) ، فان مثله إنما يصار إليه عند التعارض (٣) .

و كقولهم : فلان أحفظ لحديث فلان من غيره ، فيرجحون حديثه على حديث غيره لذلك و إن كان فى الآخر ألف وجه من الرجحان (٤) (٥) .

---

(١) أخرجه البخارى فى الأشربة باب ما جاء فيمن يستحل الخمر و يسميه بغير اسمه ، وهو من تعليقاته ، و انظر الكلام على الحديث فى فتح البارى للحافظ ابن حجر ج ١٠ ص ٥٢ - ٥٣ ، طبع الرياض ، و قد صرح الحافظ ابن حجر بأنه يصلح للقبول ، و كل ما يذكره البخارى معلقا بصيغة الجزم فهو صحيح إلى من علق عنه ، وقد جاءت هذه الرواية موصولة فى (مستخرج الاسماعيلى) و فى المعجم الكبير للطبرانى ، و مستخرج أبى نعيم و صحيح ابن حبان .

(٢) و قال ابن الصلاح : « و لا التفات إلى أبى محمد ابن حزم الظاهرى فى رده ما أخرجه البخارى فزعم ابن حزم أنه منقطع فيما بين البخارى وهشام و أخطأ فى ذلك من وجوه ، و الحديث صحيح معروف الاتصال بشرط الصحيح - انظر مقدمة ابن الصلاح ص ٦١ - ٦٢ طبع المدينة المنورة بتحقيق الأستاذ نور الدين عتر

(٣) أى حيث يوجد حديث آخر يعارضه ، و ليس الأمر فى تحريم المعازف كذلك فلم يرد ما يعارضه ،

(٤) الترجيح يكون بأسباب كثيرة فالاعتماد على وجه واحد من الترجيح فى حديث و الاغضاء عن وجوه متعددة فى آخر ليس ترجيحا صحيحا .

(٥) الانصاف ص ٦٢ .

البعث الاسلامي

كذلك تناول الامام الخطابي - الذى انصف الفريقين: فريق المحدثين وفريق الفقهاء - طريقة المحدثين ومنهجهم بشئ من النقد وعاب عليهم - و ليس المراد بهم أئمة المحدثين ، بل أتباعهم و أتباع أتباعهم - وقوفهم على الألفاظ دون الغوص فى المعانى ، و عدم تفهم النصوص فى إطار الاسلام العام ، قال :

كلام الخطابى فى أهل الحديث :

« فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الحديث و الأثر فان الأكثرين إنما وكدهم (١) : الروايات و جمع الطرق ، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذى أكثره موضوع أو مقلوب لا يراعون المتون ولا يتفهمون المعانى ، ولا يستنبطون سرها ، و لا يستخرجون ركازها (٢) وفقهها ، و ربما عابوا الفقهاء ، و تناولوهم بالطعن و ادعوا عليهم مخالفة السنن ، و لا يعلمون أنهم عن مبلغ ما أوتوه من العلم قاصرون و بسوء القول فيهم آثمون » (٣) .

لا بد من تعاون الفريقين :

و على كل ، فان منهج المحدثين و أصولهم و قواعدهم التى يسيرون عليها ليست كلها مما نص عليها الشارع ، وهم فى ذلك يساوون الفقهاء ، و كل واحد من الفريقين فى اختصاصه لا يستغنى عن الفريق الآخر ، و هذا الذى أكده الامام الدهلوى فقال:

(١) الوكد بضم الواو هو الفعل و الدأب و القصد ، يقال : ما زال ذلك وكدى : أى دأبى و قصدى . أنظر لسان العرب (٣/ ٤٦٧) .

(٢) الركاز : قطع ذهب و فضة تخرج من الأرض أو المعدن (لسان العرب ٥/ ٣٥٦) .

(٣) الانصاف ص ٦٥ .

« فمن كان من أهل الحديث ينبغي أن يعرض ما اختاره وذهب إليه على رأى المجتهدين من التابعين و من بعدهم ، و من كان من أهل التخريج ينبغي له أن يحصل من السنن ما يحترز به من مخالفة التصريح الصحيح ، و من القول برأيه فما فيه حديث أو أثر بقدر الطاقة (١) » .

الفقه و الفقهاء :

الفقه هو الفهم و كمال العقل . قال ثعلب : يقال : فقه الرجل إذا كمل : وفقه : إذا شدا شيئاً من الفقه ، و قال ابن قتيبة الدينورى : الفقـه فى اللغة : الفهم ، يقال : فلان لا يفقه قولى ، قال الله - تعالى - « وإن من شئ إلا يسبح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم (٢) (٣) » و قد جاءت كلمة الفقه فى القرآن الكريم مراراً و تكراراً ، فتـارة قيل : لهم قلوب لا يفقهون بها (٤) » و نعى القرآن الكريم على المنافقين قلة إدراكهم لايمان المؤمنين ، وتفكيرهم السطحى السخيف و إنهم لا يعلمون أن لله خزائن السماوات و الأرض ، فقال: « و لكن المنافقين لا يفقهون » (٥) .

وحث المؤمنين على أن يكون منهم طوائف من طلاب العلم يجولون الآفاق، يطلبون العلم و يتفقهون فى الدين فقال تعالى : « فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » (٦)

(١) الانصاف ص ٦٢ .　　(٢) سورة الاسراء الآية ٤٤ .

(٣) أنظر « الفقيه و المتفقه » للخطيب البغـدادى ج ١ ص ٥٣ - ٥٤ باب بيان الفقـه .　　(٤) سورة الأعراف الآية ١٧٩ .

(٥) سورة المنافقين الآية ٧ .　　(٦) سورةالتوبة الآية ١٢٢ .

ومدح رسول الله - ﷺ - الفقه ، و أشاد به و دعا به لبعض أصحابه ، فقال : « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين » (١) و قال : « الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا » (٢) و قال : « فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه و رب حامل فقه ليس بفقيه » (٣) و دعا لابن عباس فقال : « أللهم فقهه فى الدين و علمه التأويل » (٤) .

تفقه الصحابة رضى الله عنهم :

لقد تقدم أن الصحابة - رضى الله عنهم - كان منهم من يأخذ بظاهر كلام الرسول - ﷺ - و كان منهم من يغوص فى معانيه ، و يفكر فى محتملاته ، و محتوياته ، و يستنبط مغزاه و روحه ، و قد كان مثل هؤلاء من الصحابة - رضى الله عنه - ممن وسد إليهم الافتاء كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن سعود ومعاذ ابن جبل وعبد الله بن عباس ، و قد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كما لا يخفى على دارس ذى بصيرة نافذة فى الدين ، يتفرس المصالح و الحكم التى راعتها الشريعة الاسلامية ، و يصيب لب الدين ، و جوهره ، و قد بشره رسول الله - ﷺ - بملازمة الحق معه ، و فرار الباطل منه (٥) ، و لم يكن

(١) أخرجه الترمذى فى العلم باب إذا أراد الله بعبد خيراً فقهه فى الدين .

(٢) أخرج الخطيب هذه الآثار و غيرها فى كتابه « الفقيه و المتفقه » .

(٣) أخرجه الترمذى فى العلم رقم الحديث ٢٦٥٨ و أبو داؤد فى العلم رقم ٣٦٦٠ .

(٤) ورد معنى هذا الحديث فى الصحيحين ، أما هذا اللفظ فقد أخرجه أحمد : ج ١ ص ٢٦٤ و رواه ابن حبان و الطبرانى أيضاً .

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول ★

هذا الفضل الذى حازه عمر - رضى الله عنه - لكثرة تحمله لأحاديث رسول الله - ﷺ - وكثرة حفظه، فلعله يفوقه فيه أبو هريرة - رضى الله عنه - وغيره، إنما يرجع الفضل فى هذه المكانة التى بلغها من النبى - ﷺ - و من الاسلام، ذلك الفهم العميق، والفقه الدقيق، والحكمة الراسخة، و البصيرة النافذة، التى كانت مواهب ربانية، لا تكسب و لا تتاق و لكن تصقل و تهذب و تنمى.

النظرة الفقهية قد
تخالف النظرة الحديثية.

و لا بد لفهم دور الفقهاء و مكانتهم فى الاسلام من فهم مراتب الصحابة - رضى الله عنهم - و التلمس لأسباب فضل بعضهم على بعض، و من هنا تظهر قيمة أقوال الصحابة، و أحاديثهم رفعاً و وقفاً، و ليست القواعد الحديثية فى الأحاديث المرفوعة والموقوفة مع وجود التعارض قواعد صلبة غير مرنة. بل الفقه فى الدين أحياناً كثيرة يرجح شيئاً على شئ وإن كانت قاعدة المحدثين تخالف ذلك، و ليس ذلك دون قيود أو ضوابط، و لكنها ضوابط المصالح والحكم الاسلامية.

أصول الأئمة الفقهاء:

ومن هنا فان موقف الباحث المنصف من الأئمة الفقهاء، ينبغى أن يكون إيجابياً، فأصولهم كأصول المحدثين من حيث هى أصول، و لكنها عند التطبيق و الحكم

★ الله - ﷺ - قال: «إن الله جعل الحق على لسان عمر و قلبه» و هو حديث حسن صحيح، و أخرج مثله أبو داؤد فى الخراج و الامارة، و أخرج البخارى و مسلم عن سعد بن أبى وقاص فى فضائل الصحابة، فى حديث طويل، أن رسول الله ﷺ قال لعمر: ما لقيك الشيطان سالكا فجاً إلا سلك فجاً غير فجك.

على جزئية من جزئيات المسائل ، قد تشتط أو تبعد عن الصواب ، فما كل قاعدة — و لو كانت مصيبة — تطبق على كل جزئية و لو كانت مستثناة .

اشتغال الفقهاء بالاستنباط :

لقد كان الفقهاء الأوائل من التابعين و أتباعهم من الأئمة الاربعة و غيرهم أوتوا هذا الفهم الغائص فى حقائق الدين - مع ما بينهم من تفاوت فى المراتب - و حال التفقه - و لذلك كانت لهم أصول لا تتفق جميعها مع أصول المحدثين ، و كانت لهم أقوال و فتاوى لايوافقهم عليها كثير من المحدثين إلا أن الشقة بينهما لم تكن بعيدة أللهم إلا أهل الرأى الذين سبقوا بما آل إليه أتباع جميع الفقهاء فيما بعد من كثرة التفريعات و الفروض و التقديرات ، و قد كان هذا الفهم يحملهم على استنباط المعانى واستخراج الأصول و إذ كانوا ممن أشارت إليهم الآية الكريمة « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » (١) ، كما أنهم لعدم تصديهم لاملاء الحديث ، ودروسه و اشتغالهم بالفقه و تحرير المسائل و إجابة المستفتين فى الجزئيـــات الكثيرة التى لم ينص عليها فى الكتـــاب و لا فى السنة ، و لم يجدوا فى أقوال الصحابة رضى الله عنهم ما يتمسكون به لم ترو عنهم أحاديث كثيرة ، وكان بعضهم لشدة احتياطه يذكر المسألة من الحديث وهو عالم به ، و لكنه لا يرفع الحديث ، و يكتفى بذكر المسألة التى اقتنع هو بثبوتها وقوة سندها ، و قد صرح الامام الدهلوى بهذا الموقف منهم قائلا :

سبب قلة الرواية عن الفقهاء :

« و كان بازاء هؤلاء (أى المحدثين الذين كانوا يكرهون الرأى) فى عصر مالك و سفيان و بعدهم قوم لا يكرهون المسائل ، ولا يهابون الفتيا ، و يقولون :

---

(١) سورة النساء الآية ٨٣ .

على الفقه بناء الدين ، فلا بد من إشاعته ، و يهابون رواية حديث رسول الله - ﷺ - و الرفع إليه ، حتى قال الشعبي : على من دون النبي - ﷺ - أحب إلينا ، فان كان فيه زيادة أو نقصان كان على من دون النبي -ﷺ- وقال إبراهيم : أقول قال عبد الله ، وقال علقمة أحب إلى ، وكان ابن مسعود إذا حدث عن رسول الله ﷺ تربد وجهه وقال : هكذا أو نحوه ، (١) (٢) » .

و لذلك نرى بعض الأجلة من الصحابة كالخلفاء الأربعة و الفقهاء المفتين منهم ابن مسعود وزيد بن ثابت - رضى الله عنهم - قلت الرواية عنهم رغم طول صحبتهم و ملازمتهم للرسول - ﷺ - و كثرت عنهم فتاواهم و أقوالهم فلا يمكن أن يكونوا فى أكثر ما يقولون مجتهدين بآرائهم ، بل إنما يكتفون بالقول المفهوم من الحديث من دون أن يسندوه و يرووه حديثاً ، (٣) .

و قد كانت هذه الظاهرة - فى قليل أو كثير - موجودة فى الأئمة الفقهاء لاسيما الامام أبا حنيفة ، فان ما يروى عنه من المسائل و الأقوال و الفتاوى لم تصـــدر آراء مجردة حاشاه من ذلك ، إنما كان يعتمد على الأحاديث المتوفرة لديه ، و لم تكن هى قليلة ، يجدها الباحث مبثوثة فى ثنايا كتب الفقه و الفتاوى ، و هكذا كان حال الامامين القدوتين أبى يوسف و محمد .

« يتبع »

---

(١) أخرج هذه الآثار الدارمى فى السنن .

(٢) الانصاف ص ٥٧ .

(٣) انظر البحث القيم النافع فى هذا الموضوع فى أعلام الموقعين : للامام ابن القيم ج ٤ ص ١٢٨ طبع منير الدمشقى ، فقــد أثبت أن آراء الصحابة - رضى الله عنهم - مأخوذة من مشكاة النبوة إما نصاً أو فهماً واستنباطاً .

القرآن كما يراه الغربيون

الأستاذ صدر الحسن الندوى

هنا عدة اعترافات للغربيين الذين تدبروا الآيات القرآنية و وصلوا إلى النتائج الايجابية تنقل هنا اعترافاتهم :

يقول السير وليم مور (Sir William Muir) فى كتابه . . . . . « حياة محمد » (Life of Mohamad) :

« لم يمض على وفاة محمد ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة ، و قامت طوائف ، و قد ذهب عثمان ضحية هذه الفتن ، و لا تزال هذه الخلافات قائمة ، و لكن القرآن ظل كتاب هذه الطوائف الوحيد ، إن اعتماد هذه الطوائف جميعاً على هذا الكتاب تلاوة ، برهان ساطع على أن الكتاب الذى بين أيدينا اليوم هى الصحيفة التى أمر الخليفة المظلوم بجمعها و كتابتها ، فاءنه هو الكتاب الوحيد فى الدنيا الذى بقى نصه محفوظاً من التحريف طيلة ألف و مائتى سنة (١) » .

و يقول البروفيسور وهيرى (Wherry) فى تفسيره للقرآن : « إن القرآن أبعد الصحف القديمة بالاطلاق عن الخلط و الالحاق وأكثرها صحة وأصالة (٢) .

و يقول الدكتور بامر (PALMER) فى كتابه الجدير بالقرأة (The Quran Introduction) « لم يزل النص القرآنى الذى رتبه عثمان هى الصحيفة

(1) Life of mohammad ed 1912 P' 22'23 .

(2) Wherry vol I P. 249

المتلقاة بالقبول المعتمد عليها عند المسلمين (١)

و يقول لين بول (Stanely Lane Poole) « نزل القرآن فى عصر خيم الدنيا جو من الجاهلية و الظلمات و قد تلاشت المثل الخلقية ، فقام القرآن بطمس هذه الضلالات التى سادت الدنيا منذ قرون ، إنه علم الانسانية المثل الخلقية العليا و الحقائق و العلوم ، و غير - بتربيته الفذة - الضلمة عادلين ، و الوحوش زهاداً عابدين ، لو لا القرآن لاضمحلت المثل الانسانية و لما بقى للانسانية إلا اسمه » .

ويقول : « إن أكبر ما يمتاز به القرآن ، أنه لم يتطرق شك إلى أصالته إن كل حرف نقرأه اليوم نستطيع أن نثق بأنه لم يقبل أى تغيير منذ ثلاثة عشر قرناً(٢) » .

و يقول البروفيسور هربرت وائل و هو يعبر عن انطباعاته حول كتاب الله العظيم .

« القرآن ملئ بالمعارف والحكم ، إنه قام بتغيير المجتمع البشرى إلى حد مدهش ، الذين تدبروا آياته و محتوياته ، شهدوا بأنه نظام كامل وقانون شامل للحياة ، ليست ثمة ناحية من نواحى الحياة إلا و فيها هداية للقرآن ، و أرى السعادة فى الدنيا و الفوز فى الآخرة لمن اهتدى بهديه و اقتبس من مشكاته .

يقول البروفيسور (Edward Gibon) عن القرآن الكريم :

« القرآن يدل على الوحدانية دلالة واضحة ، و كل رجل منصف مضطر إلى إظهار هذه الحقيقة ، إن القرآن هو قانون الهداية ، بحيث لا مثيل له ، تعاليمه تنسجم مع الطبيعة البشرية ، و هو يحتل مكانة مرموقة من حيث تأثيره . إنه قام بتغيير

(1) The Quran introduction P. 7 .

(٢) النبى الخاتم للأستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى ص ٤٣ - ٤٤ .

المجتمع العربي الذي بلغ في الهمجية غايتها، ملأ قلوبهم بعاطفة من الحب والمؤاساة، و فرض الحظر على القتل و النهب، و هذا هو دوره البارز الهام في هذا المضمار، إذا إراد أي فيلسوف عبقري احتضان أي ديانة فأشير عليه باعتناق الاسلام (١).

يقول الأديب الانجليزي (Gorge Bernhardt shaw) وهو يعترف بخلود التعاليم الاسلامية و يشيد بذكر القرآن :

« القرآن هو الكتاب الوحيد الذي يستطيع أن يساير الركب البشري في مقتضياته كلها في عصوره المختلفه بحكم شمول تعاليمه، وهو يستطيع أن يستلفت أنظار البشرية إليه في كل عصر و مصر. وأقول بصراحة إن القرآن - ليس غير - يستطيع أن يحل معضلات قضايا النوع البشري المعقدة، بحيث يتسير للانسانية أن تصل إلى غايتها المنشودة من الطمأنينة والهدوء اللذين تتسكع الانسانية في البحث عنهما منذ قرون (٢).

و يقول الأستاذ جورج تليا مؤلف « أيام في الشرق » طبع في لندن ١٩٥٦م « إن في صالحنا نحن الأوربيين أن نعتبر القرآن وحياً سماوياً و نتأمل في معانيه. بدلا أن تتيه بنا الافكار في مجاهل تحكمها الأوهام و العصبيات »

و تقول الأستاذة نبيأ أبوت أستاذة الدراسات السامية بجامعة الملكة كاليفورنيا في كتابها « الخط العربي ».

القرآن مهما كان محتواه، و لكنه ليس من صنع بشر، فاذا أنكرنا كونه من الله فمعناه أننا اعتبرنا محمداً هو الاله ».

ويقول الأستاذ جون رسك في كتابه « السمو البشري » نيو يورك عام ١٩٣٢م « القرآن كتاب وضعه محمد هذا هو إيماننا به، و لكنه عمل فوق مستوى البشر

(١) جريدة « تعمير حياة » ١٠ يونيو ١٩٧٩م الصادرة من ندوة العلماء.

(٢) نفس المصدر.

أن يأتى مثله ، هذا ما نرغم على الاعتراف به » .

و يقول الأستاذ دكسن روز مقدم ترجمـة جورج سيل طبع عام ١٩٣٢ نيويورك « القرآن لا يزال مصدر الاشعاع والكتاب المقدس عند المسلمين ، ومهما اختلف المسلمون فى تفسيره ولكنهم لم يختلفوا فى كونه وحياً من الله ، بل أجمعوا على أنه كلام الله لفظاً و معنى » .

و هل يستحق القرآن هذا الاعظام ؟ أقول نعم : ، هو كذلك (١) .

و يقول الدكتور كارل بروكلمان (Brockel mann) « و قد بلغ هــذا المصحف العثمانى فى مدة وجيزة مقام الوثوق و الاعتماد من قبل جميع المسلمين دون حاجة إلى قوة أو إكراه (٢) » .

و تقول الدكتوراه لورافيشيا فاغليرى :

« إن معجزة الاسلام العظمى هى القرآن الذى ينقل إلينا الراوية الراسخة غير المنقطعة من خلال أنباء تتصف بيقين مطلق : إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته . . إن آياته على مستوى واحد من البلاغة ، و هو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته ، إننا نقع هنا على العمق و العذوبة معاً ، و هما صفتـان لا تجتمعان عادة ، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد و هو العربى الأمى .

« و تقول : و لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الالهى فى هذه الحقيقة هو أن نصه ظل صافياً غير محرف طول القرون التى تراخت ما بين تنزيله

---

(١) ترجمات معانى القرآن الكريم و تطور فهمه عند الغرب ص ٨ للدكتور عبد الله عباس الندوى .

(٢) تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٤٠ الطبعة الثانية دار المعارف مصر .

و يوم الناس هذا ، و أن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء و عـــدم التحريف باذن الله ما دام الكون (١) » .

و يقول البروفيسور هتى (Hitti) « القرآن هو أحدث الكتب التى لها قيمة كبرى فى التاريخ البشرى كما أنه أكثر قراءة و تلاوة من جميع الكتب التى شهدها العالم البشرى (٢) .

لكن الحقيقة الكبرى التى لا يمكن أن نغض البصر عنها ، أن الغربيين مع هذه الاعترافات كلها يرون القرآن أكبر عائق فى سبيل السيطرة على العالم الاسلامى ، و يريدون إزالة هذه العرقلة بكل ما فى وسعهم من عـــدة و عتاد ، لأن القرآن يستمد منه المسلم تلك القوة الجبارة التى يقاوم بها روح الحضارة الغربية بجميع أنواعها و أشكالها .

كتب هنرى هملتين تامس (Henry Hamilton Thomas) أحـــد كبار الموظفين الانكليزى فى بنغال (فى الهند) فى كتابه « ثورة الهند الماضية و سياستنا المستقبلة » (Late Ribellion in India and our future policy) الذى ألفه فى سنة ١٨٥٨م يعنى بعد الثورة بسنة فقط ، و الكلمة تشرح عقيدة الانجليز و وجهة نظرهم عن المسلمين و القرآن ، يقول :

« أن المسلمين لا يستطيعون أن يكونوا رعية و فية لحكومة تدين بغير دين الاسلام ، لأن ذلك مستحيل فى ظل أحكام القرآن » .

و يشير إلى تلك الحقيقة الأستاذ المهتدى محمد أسد فى كتابه القيم (Islam on the cross Read) و ينقل رأى غلادستون وزير بريطانيا الاول ، إنه يقول :

---

(١) « الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين » تاليف الأستاذ نذير حمدان ص ٣٧ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٢٦ ط ١٩٣٧م .

« إن المدنية الأوربية قائمة فى أساسها على المدينة الرومانيـــة الوثنية ، و هى لم تأخذ من النصرانية ـ التى اعتنقتها لأسباب قاسية قاهرة سوى الطلاء الخارجى فحسب ، ثم إن المدنية الأوربية لا تزال فى واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة ، من أجل ذلك نرى فرقاً كبيراً بينها وبين الاسلام ، الذى بنى على الروح والأخلاق و المثل العليا ، تلك الأسس التى خلقت فى الاسلام ، مناعة ذاتية جبارة .

و لا ريب فى أن هـــذه الحقيقة الثمينة قد انكشفت « لغلا دستون » وزير البريطانيـــة الأول و أحد موطدى أركان الامبراطورية فى الشرق - حينما قال : « ما دام هـذا القرآن موجوداً فلن تستطيع أوربة السيطرة على الشرق و لا أن تكون هى نفسها فى أمان (١) .

و يقول جون تاكلى :

« يجب أن نستخدم كتابهم « القرآن الكريم » وهو أمضى سلاح فى الاسلام ضد الاسلام نفسه ، لنقضى عليه تماماً ، يجب أن نرى هؤلآء الناس أن الصحيح فى القرآن ليس جديداً و أن الجديد فيه ليس صحيحاً (٢) .

و قال وليم غيفورد بلغراف الانجليزى ، كلمته المشهورة ، و لخص فى هذه الكلمة عداء الغربيين للقرآن :

« متى توارى القرآن و مدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد و كتابه (٣) .

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٨٢ طبعة ثالثة .

(٢) أباطيل و أسمار محمود محمد شاكر ص ١٩٦ .

(٣) التبشير و الاستعمار ص ٤٠ .

نحو استراتيجية جديدة للعمل الاسلامى

واضح رشيد النـــدوى

الانفعال محمود و ممقوت فى وقت واحد ، و الانفعال المحمود يدفع الانسان إلى العمل ، و يثير فيه غيرة و أنفـــة يوطد العزم بها على تغيير ماتأباه طبيعته و الحصول على ما تهواه نفسه ، بحيث إنه لايستسلم للتهور ، و التسرع إلى أعمال بدون دراســـة العواقب و الملابسات ، بل يخطط و يناقش و يحكم رأيه و يسير على منهج مدروس لا يفضح نفسه ، و لا غيره و لا يتملكه التطرف أو التشنج الفكرى بسبب الانفعال الشديد كما يصيب الرجل الساخط الحانق الذى إذا ثارت حفيظتـــه فقد التوازن و طريق الحكمة و كانت عاقبته الخيبـــة و التراجع و الندم .

أما الانفعال الممقوت فهو ما ينتج عن الحساسية الزائدة التى تجعل الانسان مثل الكبريت الذى يشتعل بأى احتكاك و يشبه فى شدة التأثر القطن الذى يشتعل بأى شرارة ضعيفة .

المؤمن صابر ومثابر ومرابط يهتدى بالحكمة فى سائر أعماله و يبالى العواقب فى سلوكه و يختار الأفضل و الأدوم ، و الأضمن للنتائج الحسنة ، و قد كان صلح الحديبية أسوة فى تاريخ الاسلام ، تغلبت فيه الحكمة و التدبر و عدم الاستسلام للانفعال الزائد وقد شوهد قدر من الانفعال فى تصرف بعض المسلمين لكنهم قبلوا حكم القيادة الحكيمة و اطمئنوا إليها و لو كان للانفعال غلبـــة فى هذه المرحلة ، لكانت العواقب غير العواقب التى وصلت إليهـــا المسيرة الاسلاميـــة ، فكان فتح مكة تتويجاً للوقف الحكيم ، الذى اتخـــذه المسلمون فانقلبت المعاهدة التى وصفها

البعض بالدنيئة لغلبة الانفعال، إلى عنصر تغير به مجرى الأحداث التى كانت قمته فتح مكة ، و قد تجلت الحكمة بأروع مظاهرها في فتح مكة ، و يعطى هذا اليوم العظيم أيضاً فكرة أن سلوك المسلمين لابد أن يكون تابعاً للحكمة والروية وأن يكون متصفاً بالاتزان والاعتدال ، ويكون رائده وضوح الرؤية ورعاية المصلحة الكبرى والتمسك بالمبادىء وعدم التسرع إلى كسب النتائج ، ولذلك وصف طريق الدعوة بأنه طريق طويل و محفوف بالمكاره ، و يدعو القرآن الكريم إلى تحمل الأذى و إلى عدم الانفعال بسلوك الاعداء فيقول . « و لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، و اتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

إن الاعلام الاسلامى وعمل الدعوة فى العصر الحاضر يخشى أنه يسير طريق الانفعال الزائد نتيجة للخيبات المتواصلة و معاكسات الأصدقاء و معاداة الأعداء ، فيستسلم العاملون لوسائل تقلب الموازين أحياناً و تأتى بنتائج معكوسة ، و قد كان مثل هذا السلوك سبباً للقيود الجديدة التى فرضت على حرية العاملين للاسلام فى البلاد الاسلامية و كانت الثورة الايرانية و موقف زعمائها الانفعالى و استسلام العاملين للاسلام فى البلاد الأخرى للدعاية الايرانية مسئولا إلى حد كبير عن الاجراءات العنيفة التى اتخذت فى البلاد الاسلامية فاستغلت وسائل الدعاية العالمية المعادية للاسلام الفرصة لشن حملة مجددة ضد ما وصفته بالتطرف الاسلامى و عرضت الوكالات الأجنبية الأحداث فى مختلف البلاد الاسلامية كالبلبلة الفكرية ، و بررت الاجراءات التى اتخذتها الحكومات ، و لتصعد الانفعال فى بعض العاملين ، لاثبات أن الاسلام دين عنف و تطرف ، و صورت هذه الوكالات الأحداث الواقعة إيجابياً و سلبياً بطريق يحمل العالم على الاعتقاد بأن مصير الحضارة فى خطر إذا تغلبت هذه القوى التى تسعى إلى العودة إلى الاسلام و لا تتردد فى اتخاذ وسائل تسبب خسائر و تقلق التوازن .

و من جهة أخرى إذا ألقينا النظر على الصحف الاسلامية انكشف لنا أنها أيضاً خاضعة للانفعال الشديد فهى تحمس وتشعل وتثير عاطفة الانتقام وتحمل على التفاعل الشديد فلا يجد القارىء فيها إلا وصفاً للهدم و الكيد و التآمر ما يبعث أحياناً على خيبة الأمل و فقدان الأعصاب فى الاخوان الذين يجهدون للاسلام، فان عرض المساوىء فقط يثير الشكوك و يزيل الثقة و يخيب العاملين أو يحملهم على انتهاج طرق انتحارية .

إن هذا الموقف سواء كان فى خطب الجمعة أو فى أعمدة الصحف الاسلامية يثير البغضاء و الشحناء من جهة و يثبط الهمم من جهة أخرى و يعرض العاملين للاسلام للمقت و العداء و يبلغ هذا الموقف التنفير و التشديد أكثر مما يبلغ التبشير و التيسير .

فلنراجع استراتيجيتنا من حيث المجموع ونحاسب بين ما كسبنا وبين ما خسرنا .

إن العمل للاسلام يختلف فى طبيعته عن العمل السياسى أو العمل المادى الآخر ، الذى يوزن و يقاس فيه العمل بالنتائج ، فان سلوك المسلم مقيد و منظم من أوله إلى آخره بالمبادىء الاسلامية فما يبدو فيه دنيئة يثبت انتصاراً ، وفتحاً ، إذا كان بروح الاسلام ، و روح الانقياد للقيادة الحكيمة ، و الايمان بوعد الله ، و مسايراً لسنة رسوله ، وما يبدو الانتصار يثبت دنيئة حقيقة إذا تحقق الانتصار بسير طريق لا يتناسب مع طبيعة العمل الاسلامى .

كان من أكبر أخطاء العاملين للاسلام اليوم أنهم حولوا الدين سياسة ، وقد كان يلزمهم أن يحولوا السياسة ديناً ، فهو كجعل الصلاة رياضة ، و الحج مؤتمراً ، و الصوم حمية ، و قد كان من عادة السلف أن يحولوا أعمالهم الدنيوية دينا ، فكانت تجارتهم دينا ، و حكمهم ديناً ، و كسبهم للرزق دينا ، و حتى الحياة الزوجية دينا لتمسكهم بالمبادىء و الحقوق الاسلامية ، واقتدائهم بالسنة ، وقافين عند حدود الله ،

مستبشرين موفقين ، يجدون حلاوة قلبية و إن اعتبرهم الحمقاء الماديون أنهم خاسرون ، و العاقبة للمتقين .

الاتحاد بين الزعماء الأواحد

مشكلة المشاكل أن كل نكسة يواجهها العالم تؤدى إلى مزيد من الانشقاق و التمزق ، و التحارب بين الأشقاء فيقضى على البقية الباقية من القوة ، و الطاقة البشرية و العتاد الحربى ، و يعكر الجو بطريق تختفى فيه الطرق ، وتبرز متاهات جديدة ، و ترهات جديدة .

حدث ذلك فى عام ١٩٦٧ ، عندما تحطمت القوة الحربية الجماعية للعرب ، فبدأت مرحلة التلاوم و كشف فيها عن خيانات فى القيادات ، و انقسمت الدول العربية فيما بينها ، وتلا ذلك سفك دماء الفلسطينيين أنفسهم لأنهم بجراء شعورهم بالخذلان حاولوا تأنيب القيادات السياسية التى تركتهم فى العراء و واجهوا الطرد من كل بلد ، فكانوا ناقمين من كل قائد .

و اتسع هذا الخليج باكتشاف خيانة وزير الدفاع السورى حافظ الأسد ، و صرح أحد الزعماء العرب فى مؤتمر عقد لمعالجة المشكلة التى نشأت من الاحتلال الاسرائيلى ، بأن حافظ الأسد سلم الجولان بنفسه و تسلم بذلك ثمناً باهظاً ، و أن لديه وثائق تثبت ذلك ، وفى مؤتمر آخر كشف أحد الزعماء أن الرئيس عبد الناصر هو الذى أصدر أوامر بالقضاء على الفلسطينيين فى الأردن لتحطيم قوتهم ، و يقال إن النوبة القلبية التى أصابته كانت نتيجة لاكتشاف هذا السر المكتوم و كشف الغطاء عنه .

أما الرئيس القذافى فهو دائماً يتنصل من المسئولية و يلوم غيره و يساعد المنشقين ، و يفضل أن يعيش وحده ، فى برجه العاجى ، و كان ذلك موقفه فى حرب رمضان ١٩٧٣م التى خذل فيها مصر فى خضم المعركة الحاسمة بسحب قواته من مصر ، فبدأت المعركة الكلامية بين مصر و ليبيا فى الوقت الذى كانت القوات

المصرية تحارب فى السويس و أقامت أمريكا جسراً جوياً لدعم القوات الاسرائيلية و منعها من أن تلتهمها القوات المصرية المتقدمة ، لحوصر الجيش المصرى الثالث ، و أجبرت مصر على دخول المفاوضات ، و ثبتت الأحداث أن الأسد و القذاف و أمثالهما لم يكونوا إلا أسد الورق ، إذا لم نقل ما قاله الشاعر العربى عمرو بن معديكرب عن حلفائه الذين خذلوه .

فلم تغن جرم نهدها إذ تلاقيا — و لكن جرما فى اللقاء ابذعرت

ظللت كأنى للرماح دريئة — أقاتل عن أبناء جرم و فرت

كان الشعور بالخذلان من الأخوان و الأصدقاء الذين يسلكون سياسة « المهارشة » ثم ينسحبون من الميدان عند ما يحمى الوطيس هو الذى دفع أصحاب النوايا الحسنة ، و أصحاب جد على الابتعاد عن المغامرة و إلا فان العالم الاسلامى لا يخلو من أصحاب غيرة وحمية عربية بل أصحاب غيرة وحمية إسلامية .

إننا لا نستطيع أن نستسلم للرأى القائل بأن العالم الاسلامى كله خال من أكفاء للقيادات المخلصة القادرة على حل المسألة ، فان هناك قادة يحملون قلوباً متحمسة ، دافئة ، لكنهم يمتنعون عن الاقدام لموقف الخذلان من الأصدقاء و الأشقاء فلو كان أحد منهم واثقاً بأنه لن يترك فى الميدان وحده و سيكون معه العالم الاسلامى مرتفعاً عن المصلحة القومية والسياسية الذاتية و يقف صفاً واحداً وصوتاً واحداً ، باخلاص وثقة ، فان العالم يقدر على أن يقدم من يواجه المشكلة ، ويغير مجرى الأمور .

لقد تحققت هذه القيادة لصلاح الدين الأيوبى ، عند ما تغلبت عليه العاطفة الايمانية و كان فى موضع القيادة فتغلب على المشاكل الداخلية و تمكن من تصفية المعارضة و المعاكسة من الاخوان فملك قوة تتحدى أوروبا كلها ، ثم جعلها راكعة أمام قدميه .

تحقق ذلك عند ما أثبت صلاح الدين أنه ليس بزعيم مصرى ، و لا شامى ، و لا كردى ، و إنما هو زعيم إسلامى يحارب للاسلام و من أجل الاسلام ،

و يحارب أعداء الاسلام و أعداء المسلمين ، وأثبت أنه لا يحارب لنفسه ولا لقومه، و إنما يحارب للمسلمين و للعرب بأجمعهم ، فتلاشت أمامه القيادات المحلية التى كانت تقف فى طريقه و ذابت .

إن المسألة اليوم هى أن كل زعيم من الزعماء زعيم أوحد ، فى بلده ، فكيف يتم الاتحاد بين الزعماء الأواحد ، و إذا كان هذا الزعيم يمثل بلاده علـى الأقل كان يمكن الاتحاد ، و لـكن الواقـع عكس ذالك ، فان كل زعيم يمثل نفسه وذاته و يعبد نفسه و يريد غيره أن يركع أمامه ويؤلهه . و لذلك تفشل المؤتمرات ، و مجهودات الوساطه .

لقد احتلت إسرائيل ثلث لبنان . و احتل الصليبيون الثلث الآخر ، وجعلوه خالصاً لهم ، و الثلث الذى يخضع للمسلمين لا يزال مسرحـاً للاشتباكات بين فرق متحاربة للفلسطينيين أنفسهم من جهة و بين الفلسطينيين والسوريين من جهة أخرى ، و تفيد الأنباء الأخيرة أن ثورة داخلية اندلعت فى صفوف القيـادة الفلسطينية ، فهناك يسارى ، ويمينى ، ومتوسط ، و هناك سورى و عراقى ، و هناك عرفاتى ، وغير عرفاتى ، و كل فريق له زعيم يعتبر نفسه الزعيم الأوحد .

فهل يحتاج هؤلآء المتحاربون إلى درس أكبر من درس صبرا و شتيلا ، و احتلال إسرائيل ، و مطاردة الفلسطينيين

و الذين يؤيدون هذه الفرق إنما يلقون النفط على النار ، و التى لا تحرق بلداً ، و إنما تلتهم البلاد العربية كلها .

لقد جلب موقف هؤلآء المتلاعبين بمصير الفلسطينيين و العابثين بمصير بلادهم منذ عهد الثورة العربية الأولى خزياً وعاراً كبيراً للمسلمين فى العالم ونكس رؤوسهم أمام مواطنيهم من غير المسلمين ، و لا يعرف هؤلآء الزعماء المتفرعنون و أدعياء القيادة الذاتية الذين يعيشون فى البرج العاجى بعد أن سدوا سائر المنافذ كم يضحك عليهم العالم ، و يهزأ بهم ، ولكن كيف يبصر من وضع على عينيه غطاء ، وكيف يسمع من كان فى أذنيه وقر . ولـكن لكل شيئ عاقبـة ، ولا يفلح عمل المفسدين.

رحلة إلى « بتكل » أقصى جنوب الهند

سعيد الأعظمى الندوى

لأول مرة وصلت إلى مدينة « بتكل » فى ٩ / شعبان ١٤٠٣هـ المصادف ٢٣/ مايو ١٩٨٣م ، على دعوة من الجامعة الاسلامية و أمينها العام فضيلة الأستاذ الحاج محى الدين مقيرى للحضور خصيصاً فى الحفلة السنوية لنهاية العام الدراسى فيها ، و بذلك تحققت أمنية قديمة راودتنى منذ أن سمعت بأخبار هذه المدينة و أهلها المسلمين ، و خاصة بعد قيام الجامعة الاسلامية فيها التى أصبحت فرعاً من فروع ندوة العلماء فى هذه المنطقة ، و حظيت بعناية رجالها الكبار وباهتمام سماحة مولانا الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى أولاها من رعايته الخاصة بها ، حيث اعتنى بشئونها التعليمية و التربوية ، وبصرف أنظار المسئولين عن الجامعة والمسلمين فى هذه المدينة إلى أهمية التعليم الدينى وما له من نتائج طيبة فى تربية الجيل المسلم ، وما له من دور كبير فى تنمية روح الايمان و البطولة فى نفوس الشباب المسلم ، وما له من ضمان فى بقاء الايمان و رسوخ العقيدة فى القلوب .

وجدت المنطقة بكاملها أجل مما كنت أتخيلها ، ففى شرقها جبال خضراء ، و حدائق النارجيل بين الأودية التى تخللها بشكل طبيعى مثير جداً ، و فى الغرب المحيط العربى الذى يزخر بأمواجه الجميلة و يمثل منظراً خلاباً للغاية ، و يذكر بفترة التاريخ الأولى التى رست فيها سفن المسلمين العرب على هذا الساحل الممتد إلى مسافة طويلة ، فاتخذوه موطناً ومركزاً للدعوة ، و عن طريقهم انتشر الاسلام فى هذه المنطقة الجميلة ، و انبثت ذريتهم فيها فكانوا دعاة الاسلام فى سائر المناطق الجنوبية ، و بفضل مساعيهم الدعوية نالت دعوة الاسلام سبيلا إلى القلوب ، و دخل الناس فى دين الله أفواجاً ، ولذلك فان مسلمى الجنوب وخاصة مسلمى بتكل الذين ينتمون إلى قبيلة « نوائط » و يعرفون بهذا الاسم ، إنما هم سلالة العرب

الذين حطوا رحالهم فى هذا الساحل دعاة وتجاراً ، فنى حياتهم الفردية و الاجتماعية عادات تؤكد انتماءهم إلى الأسر العربية ، و لا تزال فيهم بقايا آثار الحياة العربية الخالصة من السخاء والأريحية والتدين ، والصلاح، والاقبال على الخير والفضيلة ، و كثرة القراءة للقرآن الكريم وتحفيظه ، والتمسك بالحجاب ، وما إلى ذلك من عادات إسلامية طيبة .

حظيت بتكرمة مسلمى بتكل بوجه عام و بحفاوة المسئولين عن الجامعة بوجه خاص ، و قد وضعوا لى برنامجاً خاصاً يغطى أيام إقامتى فيها ، من بين زيارات و مشاهدات و لقاءات محاضرات .

زرت المناطق الملحقة بهذه المدينة ورجعت عنها بمتعة نفسية ومعلومات تاريخية ، فنى صباح مبكر ليوم جمعة خرجنا إلى قرية « مانكى » التى هى موطن أخينا الشيخ القاضى محمد فاروق الندوى ، ومررنا فى الطريق إليها بقرية « هوناور » التى كانت قاعدة الملك المسلم العربى جمال الدين قبل نحو ثمانية قرون ، و قد أشار إلى ذلك ابن بطوطة فى رحلته إلى الهند ، ثم زرنا قرية « هوسبتن » التى كانت مقر المسلمين النوائط قديماً ، و لكن ملكة هندوسية غزت هذه المنطقة و شنت حرباً شعواء عليها ، حتى غادرها المسلمون و التجأوا إلى قرى ومناطق مجاورة ، وقد رأينا هناك آثار مسجد وقع ضحية الحملة المنكرة ، و لقينا فى قرية « مانكى » جماعة من أهلها المسلمين ، وقد تم فيها افتتاح منزل جديد لأحد الاخوة الكرام و إلقاء كلمة بهذه المناسبة ، كما تشرفت هناك بزيارة منزل الأخ القاضى الشيخ محمد فاروق وقضاء وقت فيه معه ، و زرنا منزل الأخ الأستاذ جعفر صادق و جلسنا مع والده الكريم وقد تبادلنا الفرح بهذا اللقاء ، و تناولنا عنده بعض المرطبات والفواكه ، فجزاه الله خيراً ، و هنا مدرسة إسلامية لاتزال فى دور البناء .

وزرنا قرية « شيرالى » على دعوة من الحاج محمد على والأخ ناصر الندوى

حيث تناولنا العشاء فى بيت الأخ ناصر و صلينا فى مسجد القرية ، و زرنا قرية « مرديشور » ومدرسة تنوير الاسلام فيها ، والتقينا أهلها المسلمين والمسئولين عن المدرسة الاخوة الكرام محمد على باشا ، و الفاضل محمد حسين الجامعى و الشيخ أبو محمد ، و قد تمشينا معهم فى المدرسة ، و هذه القرية معروفة باتجاه عدد من مسلميها إلى البدع و الخرافات ، و قد وفقنى الله لالقاء كلمة فى مسجدها بعد صلاة المغرب تناولت الموضوع بحكمة أحدثت تأثيراً فى القلوب .

و قد كانت أول كلمة عامة ألقيتها أمام جمع من المسلمين فى المسجد السلطانى الذى بناه السلطان « تيبو » فى القرن ١٨م ، و كانت مبعث ارتياح و سرور ، و التقيت بعد نهاية الحفل جمعاً من الناس ، و تشرفت برؤية و لقاء فضيلة قاضى البلد الشيخ محمد أحمد الخطيبى حفظه الله ، الذى شرفنا بالدعوة على الفطور فى اليوم التالى فى منزله العامر مع حشد كبير من وجهاء و أعيان البلد .

و تشرفت بالقاء خطبة الجمعة فى ١٤ / شعبان فى جامع حى النوائط الكبير ، و كانت بمناسبة ليلة النصف من شعبان ، و قد فتح الله لى فكانت الخطبة مستفيضة نالت آذاناً صاغية ، و قلوباً واعية ، و أرجو الله سبحانه أن يصفح عن زلاتى ، و يتقبل منى كلماتى المتواضعة .

و كذلك لا ننسى ما قد أقامه المسئولون عن الجامعة الاسلامية و المتصلون بها من مآدب سخية إكراماً للضيف ، فقد حضرنا مأدبة الفطور فى منزل الحاج الدكتور على ملبا أمين عام الجامعة الاسلامية سابقاً و طعام الغداء فى بيت الأخ الكريم محمد على ، ومأدبة الغداء السخية التى أقامها الأخ العزيز الأستاذ عبد العزيز الندوى فى منزله العامر دعا إليها جمعاً كبيراً من الأعيان ، و مأدبة غداء فى بيت الأخ أطهر الندوى ، كذلك مأدبة الغداء فى منزل الحاج الشيخ محى الدين منيرى أمين عام الجامعة ، ومأدبة العشاء التى ضمت جمعاً كبيراً من أعيان البلد فى بيت الأخ

العزيز طلحة ، و دعوة العشاء فى بيت الأخ الشيخ محمد رمضـــان الندوى أستـاذ الجامعة ومأدبة الشاى فى منزل معالى محمد يحى الوزير السابق لولاية كرناتك ، و فى منزل الأخ الكريم الحاج مختار أحمد جاويد ، وفى منزل الشيخ محمد إقبال ملا الندوى ، وفى مقر الأخ الأستاذ ارشاد على الندوى ، أستاذ الجامعة ، وكانت دعوة الأخوين العزيزين محمد أيوب الندوى ومحمد إقبال الندوى (نائب القاضى) فى منزلهما خارج المدينة مسك الختام ، فقد تناولانى بالاحتفاء البالغ الكريم ، جزاهما الله خيراً .

وقد نظم الأمين العام للجامعة الشيخ محى الدين منيرى عدة لقاءات ، مع أعضاء المجلس التنفيذى للجامعة ، وقد تحدثت إليهم بما فتح الله لى من كلام موضوعى حول المسئولية التى نيطت بالجميع كأعضاء أهم عمل تربوى لايتاح لكل شخص ، وقد تأثر الجميع و أحس بمسئوليته التى يتحملها ، و كذلك لقاء آخر مع أساتذة الجامعة ، و قد ألقيت إليهم كلاماً يثير الانتباه إلى الواجب الذى يحمله الجميع مع الاخلاص الكامل لله تعالى ، و دافع التضحية و الايثار فى سبيل الله تعالى .

و فى ١٥ / شعبان عقدت الحفلة السنوية للجـامعة فى صالة الطعـام الواسعة الكبيرة ، و ضمت عدداً كبيراً من أعيان البلد و وجهائه و أعضاء المجلس التنفيذى و المعنيين بشئون التعليم و التربية فى البلد و خارجه ، وطلبوا منى رئاسة الحفل . وإلقاء كلمة فى الأخير ، وقد وفقنى الله تعالى لأداء الواجب بشئ كثير من الاهتمام ، و انتهت الحفلة بنجاح كبير ، و الحمد لله .

كما قد تشرفت بلقاء العالم الجليل الشيخ بهاء الدين الندوى فى منزله وهو من أبناء الندوة القدامى و من زملاء الصف لسماحة الشيخ الندوى ، و قد احتفى بى ، و أهدى إلى بعض مؤلفـاته ، وخاصة ما ألفه حول تاريخ بتكل وجنوب الهند ، و زرنا رئيس الجامعة الاسلامية السيـد د - ا إسماعيل ، و هو رجل كبير السن أقعدته الشيخوخة فلا يكاد يخرج من بيته ، وقد استقبلنى بوجه باسم ، وفرح باللقاء .

★ إشارات هامة حول النشاط التعليمى والاجتماعى فى بتكل :

١ـ الجامعة الاسلامية . أسسها الشيخ المرحوم عبد الحميد الندوى و تلاميذه النجباء ـ فى عام ١٩٦٢م ـ ١٣٨٢هـ ، و افتتحها سماحة مولانا الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى ، وتحتوى على المراحل ، الابتدائية، والثانوية ، والعالية ، يبلغ عدد الطلاب إلى ٥٠٠ طالب ، وعدد المدرسين إلى ثلاثين مدرساً ، وعدد الموظفين إلى ١٥ ، موقعها واسع وجميل ، أما رئيسها الحالى فهو السيد د ـ ا ـ إسماعيل : و نائب الرئيس السيد محمد الصديق ، و السيد نثار أحمد ركن الدين ، و الأمين العام هو الحاج محى الدين منيرى ، و نائبه الحاج محمد على شيرالى .

لا تملك الجامعة عقاراً أو مورداً ثابتاً ، مصاريفها السنوية ثلاث مأة ألف روبية حالياً ، و تعتمد كلياً على تبرعات أصحاب الخير و عامة المسلمين .

٢ ـ جامعة الصالحات : لتعليم و تربية البنات المسلمات ، أسسها الحاج الشيخ محى الدين منيرى الذى يتولى إدارتها ، و نائبه الشيخ إقبال أحمد ملا الندوى ، و تشتغل بشئون التعليم و التربية فيها ١٢ مدرسة مسلمة ، منهاجها التعليمى ينقسم بين مرحلتين ، مرحلة تحتوى على ٥ سنوات ، وتلتحق إليها الطالبات بعد التخرج من المتوسطة ، ومرحلة ثلاث سنوات و تنتسب إليها الطالبات المتخرجات من الثانوية ، و تهتم الجامعة بتعليم اللغة العربية و العلوم الاسلامية و تركز على تفسير القرآن و شرح الحديث ، و يبلغ عدد الطالبات الآن إلى ٢٢٥ طالبة ، مصاريفها السنوية تتجاوز مأة و خمسين ألف روبية ، والجامعة تودى دوراً هاماً فى تربية العائلة المسلمة ، و إصلاح العقائد و العادات فى داخل البيوت المسلمة .

٣ ـ مجلس الاصلاح و التنظيم ، مضى على تأسيسه ستون سنة ، و يعتبر مؤسسة إصلاحية و اجتماعية ذات نشاط كبير ، و للمجلس مكتبة عامة يستفيد منها الناس ، اسمها مكتبة الصديق ، و قد وضع الحجر الأساسى لبناية المجلس الخاصة فى اليوم الأخير من زيارتى ١٦ / شعبان ، وحضرت المناسبة مع الحاج محى الدين

منيرى و معالى محمد يحى و السيد محى الدين المعروف بـ « مولانا » و قد ألقيت كلمات بالمناسبة ، و شاركتها مع أصحابها .

أما رئيس هذا المجلس فمعالى السيد محمد يحى ، والمجلس هدفه اجتماعى و دينى يهتم باسعاف المنكوبين و إمداد المحتاجين و الفقراء من المسلمين كذلك .

٤ ـ جمعية حامى المسلمين : جمعية تعليمية تهتم برفع مستوى المسلمين التعليمى فهى تشرف على كلية هندسة ممتازة جداً يدرس فيها أبناء المسلمين وغيرهم على السواء ، كما أنها تشرف على مدرستين للتعليم العالى وكلية للبنات وكليات للعلوم والفنون والتجارة .

رئيسها السيد محى الدين المعروف بـ « مولانا » ، ونائب الرئيس الأول السيد عبد الغنى المحتشم ، والنائب الثانى الحاج محى الدين منيرى ، والأمين العام معالى السيد محمد يحى ، و السكريتر المساعد د ـ هـ ـ شبير .

بتكل تشتهر بقراءة وتحفيظ القرآن الكريم فان أهلها يعتنون بتحفيظ القرآن الكريم رجالا و نساءاً ، و فى الجامعة الاسلامية مدرسة خاصـــة بتحفيظ القرآن الكريم ، ومدرسة أخرى فى حى النوائط يشرف عليها الحاج محى الدين منيرى ، ومدرسة ثالثة باسم (تعليم القرآن) فى قرية « تلغن غندى » المجاورة ، ويشرف عليها الأخ عبد القادر و إخوانه الذين يهتمون بتعليم و تحفيظ القرآن الكريم بين أبناء المسلمين فى هذه القرية .

هذه بعض انطباعاتى و مشاهداتى فى بتكل بايجاز ، و أرجو الله سبحانه أن أوفق إلى الاعتراف بالواقع على الدوام ، و الشكر لجميع المسلمين فى هذه المدينة التاريخية ، وخاصة للذين أتاحوا لى هذه الفرصة الغالية وأكرمونى بالحفاوة والتقدير ، و أشكر لمحب الجميع ، الرجل المجاهد الذى نذر نفسه لخدمة دين الله و نشر تعاليمه فى هذه المنطقة الشيخ محى الدين منيرى و إخوانه ومساعديه و للشيخ عبـــد العليم القاسمى ، كما أشكر جميع أساتذة الجامعة ، و خاصة الأخ الشيخ محمد خالد الندوى رئيس قسم الحديث فيها ، والأخ الشيخ فضل الرحمان عميد الجامعة ، وجميع طلاب الجامعة و أبنائها .

IONES. 49747-42948 REGD. NO. LW/NP 59

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA, LUCKNOW.(INDIA)

صدر حديثاً :

Jamia Nagar
New Delhi

كتاب جديد صدر حديثاً لسماحة الشيخ العلامة أبي الحسن علي الندوي يخاطب فيه الدول والمجتمعات الاسلامية الحرة، ويبين لها الطريق إلى السعادة و القيادة .

إن الكتاب مجموعة ١٢/ محاضرة ألقاها سماحة المؤلف في باكستان بمناسبة حضوره هناك في المؤتمر الاسلامي الآسيوي الأول الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي (بمكة المكرمة) في يوليو ١٩٧٨م في كراتشي .

تحدث فيه إلى كل قطاع من الناس من رجالات القانون و العلم و الفكر و خبراء التعليم و التربية و أساتذة الجامعات و طلابها و رجال الحكم و المناصب الرسمية العليا إلى الجماهير العامة من المسلمين المخلصين .

وجه فيه نداء عاماً للانتفاضة الاسلامية التي ترقب يقظة المسلمين وصحوتهم .

و كل ذلك في أسلوب خطابي جميل ، و تعبير مؤثر جذاب .

الناشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت

ويطلب : من مكتبة دار العلوم التجارية

بندوة العلماء ص . ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوي في مطبعة ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمي

أنشأها
فقيد الدعوة الإسلامية
الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى
فى عام ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

البعث الإسلامي
شهرية إسلامية جامعة

أخى المسلم

أخى فى العقيدة و الدين لا فى التراب و الطين ، أخى على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخى فى النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخى فى الحق و الصبر فى الوطن و المهجر ، أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق ، أخى فى زهرة الصحراء و درة الخليج بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخى فى اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخى فى الله !

نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك فى وجه الباطل، زاداً لك فى طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك فى صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمى فى مجلة ، أوزبون فى محل تجارة !

[محمد الحسنى - رحمه الله]

رئاسة التحرير :
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

العدد الخامس
المجلد الثامن والعشرون
صفر ١٤٠٤هـ
نوفمبر
١٩٨٣م

المراسلات :
البعث الإسلامي
ندوة العلماء ص.ب ٩٣
لكهنؤ ـــ الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Box No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

دروس من الحج

أودع الله سبحانه و تعالى فى جميع أركانه و شرائعه دروساً وعبراً يستطيع أن يستخلصها المسلم الواعي بالتفكير فيها وعن طريق العمل بها ، و فى ضوئها يسير على درب الحياة فى ثقة و اعتزاز . وتتجلى له من أسرار الحكمة الالهية ما يوثق صلته بربه ، وعلاقته بدينه ، و يزيد إخلاصه لعبادته ، و لذلك فانه مطالب بالتدبر فى معانى الشريعة الغراء و مقاصدها ، و مدعو إلى الخضوع للاوامر و النواهى التى تتضمنها ، ذلك أن الحياة فى الاسلام ليست أمراً جزافاً يعيشها الانسان كيف شاء و يضعها فى صلحة من أراد و لكنها أمانة مقدسة أودعها الله سبحانه لديه احتباراً لمدى الطاعة و الاخلاص فى متابعة أدائها بالوجه الصحيح من الفقه و البصيرة و الايمان و العلم .

ولقد أكرمنى الله تعالى بالحضور فى موسم الحج المنصرم على دعوة كريمة تلقيتها من سعادة الأمين العام لهيئه التوعية الاسلامية فى الحج ، التابعة لادارات البحوث العلمية و الافتاء و الدعوة والارشاد فى المملكة العربية السعودية ، وكانت فرصة غالية انتهزتها للمشاركة فى أعمال التوعية الاسلامية و الاستفادة من برامجها العملية التى تتركز على تربية الحجيج على جميع المستويات باستخدام جميع أساليب التربية و الدعوة و أجهزة الاعلام المسموعة و المقروءة و المرئية و المكتوبة ، بلغات عالمية ، و قد كان لى شرف الانتماء إلى اللجنة الاعلامية العربية التى تحملت مسئولية إعداد المواد الدينية مما يتعلق بالموضوع فى جرائد المملكة اليومية الثمانية ، ومع إشراق يوم

التروية توجهت الهيئة بكاملها إلى المشاعر لأداء مناسك الحج و القيام بأعمال التوعية فى منى و عرفات، والاتصال بالحجيج الوافدين، والاشراف على ما تيسر من سيرهم فى تأدية الأركان و الوقوف بعرفة، وما يلزم عليهم من تطبيق أحكام المشاعر فى ضوء الكتاب و السنة، و من خلال هذه النشاطات تمكنت من الاطلاع على جوانب متعددة من حياة الحجاج و منافع الحج، و كل ذلك كان بمثابة دروس و عبر يرجع بها من يدرس هذا الركن العظيم بروح الاستفادة، والاستنباط للنتائج التى لها دورها فى توجيه السعادة نحو الحياة و المجتمع.

إن هـذا الركن العظيم لم يكن كسائر أركان الاسلام فى اليسر و السهولة، لذلك فان الله سبحانه قد فرضه مرة واحدة فى الحياة على من استطاع إليه سبيلا، و لقد كان المسلم يتمنى أعواماً طوالا أن يكرم بهذا الشرف، فيعـد نفسه لتأدية فريضة الحج و يتدرب على الأحكام و الأركان و ما قد يواجهه أثناء القيام بها من مسـائل و مشكلات، و كان يتقن جميع دقائق و معلومات الحج بحيث إذا وصل إلى بيت الله الحرام استطاع أن يأتى المسائل كلها من أبوابها، و لا يفوته من ثمار هذه العبادة الظاهرة و الباطنة شئ يأسف عليه إذا علم ذلك بعد فوات الأوان، من أجل ذلك كان يحضر الحاج إلى البلد الأمين و هو متزود بزاد التقوى و العلم، و المعلومات الكافية مما يتصل بالموضوع، الواقع الذى وفر له فرصاً لحج مبرور، و وقاه من كل ذنب من رفث و فسوق و جدال، و مهد له الطريق نحو فعل الخيرات و اكتساب المنافع، و العودة فى ثوب قشيب من الطهر و الايمان إلى بلاده و بيته « من حج فلم يرفث و لم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ».

أما الناس فى يومنا هذا فلم يعد فيهم ذلك الحرص الشديد على إعداد النفوس و تربيتهـا قبل البدء فى رحلة الحج، و إن معظم الوافدين إلى بيت الله الحرام

لا يهتمون بأخذ العدة اللازمة و التزود بالزاد الايمانى المطلوب ، و إنما هى الارتجالية و اللامبالاة التى تتغلب عليهم فيتابعون السفر إلى أم القرى فى جو عادى لا يسوده التقوى و الايمان ، و ذكر الله والحمد له ، و يصلون إلى بيت الله دون أن يشعروا بتغير فى العادات و رقة فى القلوب ، و انصراف عن الحياة «الروتينية» وإنما الحياة متجهة نحو الوجهة السابقة من الغفلة والاهمال ، فلاسباق فى البر والتقوى ولا اهتمام بالحضور فى صلوات الحرم وبالطواف بالبيت ، ولا الاعتناء بالذكر والدعاء و تلاوة القرآن ، و لا المبادرة إلى انتهاز الفرص للطاعة و الاستسلام لله تعالى ، ثم لايصعب أن تتصور كل ما يمكن أن يمارسه الحاج - وهو فى أسعد أيام حياته - من منكرات ومعاصى تأتى على جميع لحظاته السعيدة ، و ساعاته الحانية ، وتحولها إلى أوقات تعسة و أيام شقية .

ليس الجميع بهذا الشأن ولكن أغلبية هؤلاء الحجيج تتميز بهذا اللون أو قريباً منه ، » وهى لا تتمكن من جنى ثمار الحج ومنافعه الحية المشهودة التى هى نتاج هذه العبادة ، رغم تحمل المشاق و إنفاق المال الوفير ، و المعاناة البالغة ، بل الحق أن نواحى العبادة و الانابة و الاتصال و التقرب إلى الله ، و المنافسة فى التحبب إليه و التودد له ، تذوب بجوار الجهل و الغفلة و التطاول الشائن ، و النسيان ، و قلة الأدب و الاساءة إلى بيت الله تعالى و عدم المراعاة للآداب و الأحكام ، و إن بعض تلك الخصال يكفى لهدم هذه العبادة و وضعها محل سخط الله تعالى فضلا عن كلها ، من هنالك نرى أن هذه المجموعة العظيمة من ضيوف الرحمن تشتمل على عدد لا بأس به من أولئك الأفراد الذين لا تهمهم العبادة كما يهمهم مجرد الحضور إلى مكة المكرمة ، و لا يعنيهم أداء أركان الحج و مناسكه فى جو من التقوى و الانابة إلى الله كما يعنيهم أن يدركوا أيام الحج بأى طريق و فى أى لون ، و ينتج ذلك أن كثرة كاثرة تقوم بتأدية المناسك من غير استحضار لما فيها من روح العبادة

و التقرب إلى الله و التزلف إليه و تقوية أواصر العبودية معه ، فأنى لهؤلاء الناس أن يسعوا لتحقيق الحج المبرور الذى ليس له جزاء إلا الجنة ، ولا شك فان ذلك ليس خسارة ركن واحد من أركان الاسلام و إنما هى خسارة الدين و التقوى .

و فى الحج من معانى الدعوة والتضامن و مظاهر المساواة و الامتثال الكامل ما لايوجد فى ركن آخر جملة واحدة . فكان له دور كبير فى توحيد وجهة الأمة الاسلامية وجمعها على أساس واحد من توحيد الله تبارك و تعالى وتقواه ، و هذا هو الأساس الأصيل المتين الذى يقوم عليه صرح الوحدة الاسلامية و يدرك منه المسلمون معنى التوحيد الخالص الذى جاء به إبراهيم عليه السلام و رفع رايته خاتم النبيين محمد ﷺ ، و آلت أمانته إلى أمة الاسلام الأخيرة « و لكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، فالهكم إله واحد فله أسلموا ، و بشر المخبتين ، الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم و الصابرين على ما أصابهم و المقيمى الصلاة ، و مما رزقناهم ينفقون » (١) .

فكان الحج من الركائز الكبرى لتوحيد الله تعالى ومن العوامل العظيمة لتوحيد صفوف المسلمين و جمعهم على وحدة الايمان و التقوى ، و لقد اكتسب المسلمون هذه الوحدة الايمانية من عبادة الحج على المستوى العالمى فى كل زمان و استطاعوا أن يفضوا خلافاتهم و يحلوا مشكلاتهم بفضل هذا الاجتماع الدينى العظيم و على صعيد هذه البقعة المباركة و ساحة البلد الأمين ، و قد كانوا يستهدفون هذه الغاية ضمن منافع الحج فى المواسم ، و لكن هذا الشعور ظل يختفى وراء سحب من الغفلة التى باتت تسود العقول وتسيطر على مجتمعات المسلمين فى الوقت الراهن ، وقد لمست فى جماهير الوافدين إلى هذا المهوى العظيم أنهم يتجردون بوجه عام عن مثل هذا الشعور ، إما لعدم توافر التربية لهم قبل بدء المسيرة نحو الحج أو تزايد الزحام

(١) سورة الحج الآية : ٣٤ - ٣٥ .

الخالق الذى يحول دون أى تفكير جدى ، أو لأى سبب آخر ، و لكن الشعور القوى بالتعارف الدينى و الاعتصام بحبل الله لايكاد يكون هو اللون الغالب على الحياة ، رغم أن ذلك هو من معطيات هذا الركن المهمة و ثماره الأولية .

تعود المسلمون اليوم فى معظم أقطارهم بالارتجالية الشائنة ، حتى فى أمور دينهم و عباداتهم ، فلا غرابة فيما إذا تجمعت غالبية الناس على أرض مكة فى أيام الحج و هى لا تعرف للحج معنى سوى الوصول إلى الأرض المقدسة و العودة منها بعد ممارسة المناسك ، دون أن يكون لديهـا علم بما قد أودع الله سبحانه فى الحج من معانى الطهر و الوحدة و التوحيد و التزكية و الاهتمام بشئون المسلمين و إثارة روح الأخوة والتعاون والحب و الايمان ، إلى غير ذلك من منافع ومعانى لا يأتى عليها الحصر ، و كم من أناس يعودون و قد ساء وضعهم الدينى وضعفت صلتهم بالأعمال الصالحة ، ذلك أنهم لاينوون من أداء هذه الفريضة إلا رحلة بدنية أو سياحة دينية ، أو متعة روحية ، يرددون النغمة العلوية حينما يلقنون بها من غير فقه أو فهـم لمعناها ، « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد و النعمة لك و الملك ، لا شريك لك » و لو أنهم حاولوا أن يدركوا المعانى التى تتضمنها من إعلان العبودية الخالصة مع الاعتراف الكامل بالرب الواحد والايمان العميق بتوحيده و تأكيد النفى لكل شريك أو ند ، لو أنهم فهموا ما يقولون فى هذا الكلام الجليل لمـا تمالكوا أنفسهم ، و صعب عليهم أن يتجاوزوه من غير أداء لضريبة الولاء والوفاء ، و الابتهال والبكاء ، ولكنه كلام كسائر كلامهم ، و واجب يمارسونه ضمن الأعمال و الواجبات .

و هنا تتجسد أهمية التربية التى يجب أن يتلقاها الحجيج قبل البـدء فى رحلتهم ، و يجب أن يفهموا قيمة العمل الذى يخرجون من أجله و يغادرون بلادهم و أوطانهم و أهليهم و أولادهم لأدائه ، و الحج بمناسكه و أحكامه ، و بأعماله

و أدواره ليس هيناً يستطيع أن يوديه المرء من غير إتقان أو تدريب عملى ، على وجهـه الصحيح و طريقته المشروعة ، ففى كل خطوة تواجهه مشكلات شرعية و تساؤلات فقهية . تفرض عليه أن يقضى وقتاً فى تعلم الأحكام و المناسك أولا ، ثم إذا وثق بأنه يتمكن الآن من أداء هـذه الفريضة بالطريق المطلوب فى ضوء الكتاب و السنة يعزم على المسير .

لابد من تركيز روح الحج ومعانيه العميقة فى نفس الحاج . وتأكيد مفهوم العبادة الذى يتوفر فيه ، لكل من فرض الحج على نفسه ، و إن علماء الاسلام فى كل بلد تعود عليهم مسئولية تربية الحجاج و تدريبهم العملى سواء عن طريق منهج خاص بالتربية أو بطريق المحاضرات و تعميق المعانى الكريمة لهذا الركن المهم فى عقولهم ، بحيث إذا سافروا لهـذا الغرض لم يواجهوا هناك مشكلة و لا فاتتهم منافع الحج و معانيه مع التمكن من أداء أركانه و شعائره و الاهتمام الكبير بمشاعره و مناسكه بالشكل المرضى على ما يطلبه الدين .

وانطلاقاً من خلال هذا المبدء أنشئت منذ فترة طويلة هيئة التوعية الاسلامية فى مكة المكرمة ، التى تقوم بدور رائع فى تربية الحجاج الوافدين إلى البلد الأمين على جميع المستويات وفى جميع القطاعات ، و ذلك عن طريق الدعاة و العلماء الذين يشاركون أعمال التوعية فى الحج على أساس مخطط واضح يشمل توعية وتربية الحجيج من جميع النواحى و فى كل المشاعر و الأمكنة ، و حبذا لوقلدت الدول الاسلامية هذه الهيئة فى توعية الحجاج فى حدودها لكان لها تأثير ملموس فى تفجير هذه الطاقة الاسلامية التى يتولاها الحج ، و استخدامها فى صالح الاسلام و المسلمين .

و ما أحوجهما إلى هذه الطاقة اليوم ! .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله و المؤمنون » ؟ .

سعيـــد الأعظمى

- الاجتهاد و نشأة المـــذاهب الفقهية
- نبوة محمد ﷺ و دلائلها من القرآن

الاجتهاد و نشأة المذاهب الفقهية

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

[لقد كتب سماحة الأستاذ الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى هذا البحث للملتقى السابع عشر للفكر الاسلامى على موضوع « الاجتهاد » المنعقد فى مدينة قسنطينة بالجزائر و كان من المقرر أن يحضر سماحته هذا الملتقى ويلقى هذا البحث بنفسه و لكنه لم يتمكن من الحضور فى الملتقى فقرىء مقاله فى الملتقى ، و تكرم فضيلته فأعطانا صورة من هذا البحث لنشره فى البعث الاسلامى فننشره مع الشكر له] « التحرير »

الحمد لله وحده و الصلاة و السلام على من لانبى بعده .

سادتى الأفاضل ! يحلو لى أن أبدأ مقالتى هذه بما سطره قلمى فى مقدمة مجموع محاضرات « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » .

الحيوية الكامنة فى وضع الاسلام
وجدارته لقيادة الركب البشرى :

« من الحقائق الأولية أن الحياة متحركة و متطورة ، دائمة الشباب ، مستمرة النمو ، تنتقل من طور إلى طور ، و من لون إلى لون ، لا تعرف الوقوف ولا الركود ولا تصاب بالهرم و التعطل . فلا يسايرها فى رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دين حافل بالحركة و النشاط ، لا يتخلف عن ركب الحيـــاة و لا يعجز عن مسايرته و زمالته و لا تقصر عنه خطواته . و لا تنفد حيويته و نشاطه .

و ذلك شأن الاسلام ، فانه ـ و إن كان مؤسساً على عقائد ثابتة و حقائق خالدة ـ زاخر بالحياة ، حافل بالنشاط ، له من الحيوية معين لا ينضب ، و مادة لا تنفد ، صالح لكل زمان و مكان و عنده لكل طور جديد من أطوار الحياة ، و لكل جديد من أجيال البشرية ، و لكل عهد مستأنف من عهود التاريخ ، و لكل مجتمع عصرى من مجتمعات البشر ، مدد لا يقصر عن الحاجة ولا يتأخر عن الأوان.

إن الاسلام ـ بخلاف ما يعتقده كثير من المسلمين وبعكس ما يصوره أكثر المستشرقين و المؤرخين الغربيين ـ ليس حضارة عهد خاص ، و لا فى فترة من فترات التاريخ يمثله آثار ذلك العهد و مبانيه ، و يعيش فى الأحجار و الرسوم و الصور ، لا فى واقع الحياة ، و قد فقد صلاحية للحياة و أدى رسالته ، كالذى نتحدث عن الحضارة اليونانية و الرومية أو الفن التركى و المغولى . إنه دين حى و رسالة خالدة ، إنه حى كالحياة نفسها ، و خالد كخلود الحقائق الطبيعية و نواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم « صنع الله الذى أتقن كل شىء » و قد ظهر فى شكله النهائى و طوره الكامل و أعلن يوم عرفة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا » فهو يجمع بين الكمال الذى لا انتظار بعده لدين آخر ، ، و لا حاجة معه إلى رسالة جديدة ، و بين الحيوية التى لانفاد لها و النشاط الذى لا آخر له ، و لذلك استطاع أن يساير الحياة و يراقبها فى وقت واحد ، و يتابعها فى صلاحها و استقامتها ، و ينكر عليها فى انحرافها وزيغها ، فلا هو مساير مائع ككثير من الأديان المحرفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ، و ذلك مثل الدين الكامل و مثل الدين الحى للانسان الحى ، الذى يشعر بشعوره و يعترف بحاجاته ، و يرشده فى مشاكله و يعارضه فى اتجاهاته الفاسدة .

كيف استطاعت الأمة أن تساير الحياة و تقودها بالشريعة :

وقد استطاعت الأمة الاسلامية أن تواجه التقلبات التى لا تكاد تنتهى والقضايا التى لا يأتى عليها الحصر ، ولا يحدها قياس ، واختلاف الزمان و المكان ، وتنوع البيئات و الملابسات ، و قد أمكن ذلك بقوتين : .

القوة الأولى : هى الحيوية الكامنة فى وضع الاسلام نفسه و صلاحيته للحياة و الارشاد فى كل بيئة و فى كل محيط ، وفى كل عهد من عهود التاريخ ، فقد خص الله محمداً ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للانسان ، صالحة لكل زمان و مكان ، وتستطيع أن تواجه ما يتجدد من الشئون و أطوار الحياة ، وتحل كل ما يعترى من المشكلات و لمعضلات ، و الدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم و الحديث النبوى الصحيح و مصادر الاسلام ، كافلة بالاقتناع بما أقول .

و القوة الثانية : هو إن الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمة التى قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء فى كل عصر ، ينقلون هذه التعاليم الاسلامية إلى الحياة ، و يطبقونها على العصر ، و يحلون فى ضوء الأصول و النصوص التى و هبتهم إياها الشريعة الاسلامية ، وفى ضوء مقاصد الشريعة و روحها ، المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة ، و القضايا المتجددة ، فلم تعدم هذه الأمة فى عصر من عصورها أئمة فى العلم و عباقرة فى الفكر لا يوجد نظيرهم – لا فى الكمية و لا فى الكيفية – فى أمة من الأمم .

الاجتهاد و المجتهدون فى القرنين الثانى والثالث :

خرج الاسلام من الجزيرة العربية – حيث الحياة بسيطة و المدنية محدودة –

إلى بلاد مخصبة واسعة ، ذات المدنيات القديمة ، و الآفاق الواسعة ، كالشام والعراق ، و مصر و إيران ، و قد توسعت الحياة الاجتماعية وتعقد نظام التجارة و الادارة ، و الزراعة و الرى و الجباة و المحاصل ، و كانت مهمة تطبيق أصول الاسلام على هذه المسائل و الحوادث ، و اخضاع الحياة المدنية لروح الاسلام و أسسه ، يطلب ذكاءاً فائقاً و فهماً دقيقا ، و اطلا اً واسعاً على المجتمع العصرى الذى كان المسلمون يعيشون فيه ، وإلماما كافياً بعلم النفس ، والطبيعة البشرية ، و خبرة واسعة بطبقات الأمة و نواحى الحياه العامة ، يضاف إلى ذلك الاطلاع الواسع على الثروة الدينية الفقهية فى الكتاب والسنة، و الوقوف على مصادر العلم الأولى وأصول التشريع الاسلامى الأساسية ، مع الرسوخ والتضلع فى اللغة العربية التى نزل بها القرآن و نطق بها الرسول ﷺ .

لقد كان من لطف الله بهذه الأمة و كان من التيسير ، أن قيض لهذه المهمة الجليلة رجالا يعدون من الأفذاذ و النوابغ الذين أنجبتهم الانسانية ، فقها و أمانة ، وإخلاصاً و كفاية ، وكان منهم هؤلاء الأربعة (أبو حنيفة م١٥٠هـ ، و مالك م١٧٩هـ ، و الشافعى م ٢٠٤هـ ، و أحمد بن حنبل م ٢٤١هـ) الذى قدر لفقههم أن يعيش إلى هذا اليوم و يخضع له العالم الاسلامى ، و قد فاق هؤلاء فى فهمهم الدقيق الواسع ، ووقفوا حياتهم واستعملوا مواهبهم بسخاء ، فى تكوين هذه الثروة الفقهية والقانونية ، التى لا تعادلها ذخيرة فقهية فى العالم . والتى لا تزال مرجعاً و مادة واسعة للتشريع لهذا العصر ، و قد توفر هؤلاء على هذه الخدمة التى تدين لها الأمة ، و يدين لها العالم ، و آثروها على كل راحة و لذة ، و جاه و منصب فى الحياة ، وقد أنتج كل واحد منهم ثروة علمية و خلف تراثاً فقهياً ينوه بالمجامع العلمية و المؤسسات الكبيرة فى

هذا العصر (١) ، و قد رزق الله هؤلاء الأئمة الفقهاء تلاميذ نجباء و قاموا بعلمهم و زادوا فى ثروته ، وظلوا يشتغلون بتنقيحه وتهذيبه ، حتى استطاع أن يساير العصور بعد عصرهم و البلاد غير بلادهم (٢) .

فضل الاجتهاد فى حياة
الأمة الاسلامية :

لقد كان وجود هؤلاء الأئمة المجتهدين و الفقهاء المشرعين فى قرون الاسلام الأولى برهاناً ساطعاً على صلاحية هذه الأمة للبقاء و الانتشار ، وقد أوجدت بفضل مساعيهم و نبوغهم وحدة الأمة العملية ، فى اجتماعها و معاملاتها و سياستها العالية ، و فى عباداتها و فى نظامها الأسرى و فى الأحوال الشخصية ، و هذه الوحدة عامل مهم من عوامل الوحدة الدينية والفكرية ، وبذلك أمنت هذه الأمة من تلك الفوضى الاجتماعية و التشريعية التى أصيبت بها الأمم و الديانات فى عهدها الأول ، و التى تدرجت بها إلى حياة لا دينية تسير فيها على النظم اللادينية ، أو تقتبس التشريع الأجنبى الثائر على روح دينها و مبادئه و ألجأتها إلى التمسك بمبدأ « فصل الدين عن السياسة » الذى تمسك بها أوربا المسيحية لظروفها الخاصة وتاريخها الخاص ، ولوضع الديانة المسيحية المختص بها .

فاذا كان العلماء الأقدمون تكاسلوا فى الاجتهاد والاستنباط فى العصور الأولى ، و آثروا الراحه على العمل والكدح ، أو ضعف انتاجهم و جمدت قريحتهم التجأت

(١) راجع لمعرفه حجم هذا الانتاج و عدد المسائل الاجتهادية التى توصلوا إليها خلال حياتهم كتاب « رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام » ج ١ ص١١٢ ، أو « ضحى الاسلام » ج ٢ ص ٢١٥ .

(٢) رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام ، ج ١ ص ١١٢ ـ ١١٣ .

الحكومة ـ تحت وطأة حاجات الحياة العملية و مطالبها ـ إلى أن تقتبس النظم الرومية و الفارسية ، و تطبق القانون الرومانى و الايرانى على المملكة الاسلامية ، لأن الجهاز الادارى لا يمكن إيقافه عن السير وتعطيله عن الحركة فى انتظار التشريع ، و كذلك لا يمكن تأجيل المعاملات التجارية و الفرائض الدينية فى انتظار تأملات العلماء و الوصول إلى نتيجة قطعية ، فكان ذلك يجر على هذه الأمة شقاءاً طويلا ، لأنها تحرم سعادة القانون الاسلامى ، و بركات المجتمع الاسلامى ، و السير فى ضوء الشريعة الاسلامية و السنة النبوية ، و يكتب عليها أن تعيش مسلمة متدينة فى مساجدها لوقت قصير ، و جاهلية أو لا دينية فى بيوتها و أسواقها و محاكمها مدة طويلة ، كما هو الواقع فى البلاد و الدول التى ديانتها الرسمية النصرانية و ليس عندها تشريع مسيحى ، و كما هو واقع ـ مع الأسف و الخجل ـ فى البلاد و الدول التى تدين بالاسلام فى العقيدة و العباده ، و لا تدين به فى التشريع و القانون ، و إذا ساغ ذلك فى النصرانية التى لا تملك الثروة الدستورية ، و لا تلح على تطبيق الدين على الحياة ، فانه لا يسوغ فى الاسلام الذى هو دين و دولة ، و عقيدة و سياسة ، و عبادة و اجتماع ، فكانت الأمة تجتاز مرحلة خطيرة دقيقة فى حياتها ، قد وقفت على مفترق الطرق ، و كانت الغلطة الواحدة ، أو العثرة الخفيفة كافية لقطع صلتها عن الحياة الاسلامية ، و الاجتماع و النظم الاسلامية ، و تفرض على الأجيال القادمة أن تعيش حياة ليس للدين فيها إلا نصيب ضئيل

و كذلك الأحكام التفصيلية فى العبادات و ما يتخللها من قضايا و نوازل ، و أخطاء و نقائص ، بحكم الفطرة البشرية ، وما جبلت عليه من سهوونسيان وغفلة أو ما يعترى المتلبسين بها ، المباشرين لها ، من جهل بالشريعة ، و ما يتفاوتون فيه من علم و ثقافة دينية و تربية إسلامية ، وحدوث عهد بالاسلام أو قدمه ، وبيئات

عريقة فى الاسلام و بيئات حديثة العهد به أو بيئات مخضرمة ، و كل ذلك يطلب الجواب الحاسم و الحل السريع . فذلك انصرف عن الصلاة و قد سها فيها ، وهذا صائم قد احتار فى أمره ، و هذا يطلب فتيا فيما تفرض عليها الزكاة و مقدارها و مصارفها ، و شأن الحج الفريضة الطويلة الواسعة التى تستغرق الوقت الطويل و المساحة الواسعة و الانتقال من نسك إلى نسك ، ومكان إلى مكان ، أكثر دقة و أعظم تعقداً ، و أحوج إلى الارشاد و الحكم الشرعى و السنة المأثورة والأسوة النبوية ، و لا شئ من ذلك يحتمل التأجيل أو الإحالة على مصادر التشريع الأولى بطريق مباشر لكل من يواجه هذه المشكلة . و يتورط فى غلطة ، فكان لا بد من وجود أحكام و جزئيات و ثروة فقهية ميسورة ميسرة ، و وجود علماء متضلعين من علوم الشريعة متهيئين للارشاد و التوجيه ، و بذلك أمن المجتمع الاسلامى من أن يكون فى عباداته متحفاً ، فيه كل أنواع العبادات و ألوان التصرفات والحركات ، كما هو الشأن فى معابد ديانات كثيرة ، و مناسبات دينية شهرية أو سنوية ، لا تربط بين المشتركين فيها ـ من أتباع ديانة واحدة ـ وحدة عملية ، و لا تغشاها غاشية من سكينة أو صبغة الهية ، بخلاف مساجد المسلمين و مراكز الحج والمناسك التى تنخرط فى سلك واحد من الوحدة و الانسجام ، والتشابه والالتحام ، و تتجلى فيها وحدة العقيدة و العبادة ، و الخضوع لشريعة واحدة ، و يرجع الفضل فى ذلك إلى أصالة التعاليم الدينية ووحدتها ، ثم إلى جهود المحدثين والفقهاء الذين حفظوا على هذه الأمة الثروة التشريعية و ربطوها بالمنبع الأصيل . و النظام الدينى الموحد .

و قد جاء هذا الاجتهاد و تدوين الفقه و استنباط الأحكام الشرعية فى أوانه و مكانه ، لم يكن سابقاً للزمن ، و لا متأخراً عنه ، و ذلك ما كان تقتضيه طبائع الأشياء وسنة الكون ، وطبعة هذا الدين الانسانى العالمى العام للازمنة و الأمكنة ،

فكان شيئاً طبيعياً منطقياً كما هو الشأن فى نشؤ علم الصرف و النحو ، و قواعد اللغة العربية ، و علوم البلاغة و البيان ، مؤسساً كل ذلك على كلام العرب الأولين و استقراء القرآن العربى المبين ، و شعر العرب ، بل كان تدوين الفقـه ألزم من تدوين العلوم العربية لشموله للعرب والعجم . وكل مكلف فى الاسلام ، ولاحتوائه على حياة المسلم كلها ، ولصلته الوثيقة بالعقيدة والعبادة ، ولأثره فى الحياة الأخروية و ما يترتب عليه من ثواب و عقاب . و سعادة و شقا . و نجاة و هلاك .

كيف كان حال الناس

قبـل القرن الرابع ؟

و لكن لا يفهم من ذلك أن الناس المعاصرين لنشوء هـذه المذاهب المتميزة والمناهج العملية المدونة ، انخرطوا فى سلك واحد من هذه المذاهب الفقهية وارتبطوا ارتباطاً وثيقاً بأحد المذاهب . لا يعدلون عنه قيد شعرة . وقد أصبح المجتمع المسلم المعاصر موزعاً بين هذه المذاهب ، كان كل عنصر منه واقفاً تحت لواء واحد ، فذلك لا يشهد به تاريخ الفقه و العلم ولا يتفق مع الطبيعة البشرية و واقع حياة المسلمين فى ذلك العصر ، وإنما حدث ذلك فى زمن متأخر بعض التأخر ، إذا أردنا تحديده بالتقويم الاسلامى ، نستطيع أن نقول إنه وقع فى القرن الرابع بعد ما بلغت هذه المذاهب نضجها و اكتمالها ، و تنشرت فى مناطق خاصة ، و ساعدت على ذلك عوامل سياسية و ادارية و تربوية ، و اقتضى ذلك واقع حياة المسلمين فى هذه الأصقاع .

ولندع علما من أعلام الاسلام فى القرون المتأخرة قد رزق الانصاف والاتزان الفكرى وسعة آفاق النظر و رحابة الصدر والغوص فى أعماق الحديث والفقه ، وهو حكيم الاسلام الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى (م ١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولى الله الدهلوى ، صاحب الكتاب الفريد « حجة الله البالغة » يتحدث عن الوضع

فى الزمن السابق على القرن الرابع ، و كيف كان الناس يعملون فيما يعرض لهم من مسائل و مشاكل فى حياتهم الدينية ، يقول فى باب « حكاية حال الناس قبل المأة الرابعة و بعدها » :

« اعلم أن الناس كانوا قبل المائة الرابعة غير مجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكى فى « قوت القلوب » إن الكتب و المجموعات محدثة ، والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له من كل شئ و التفقه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك فى القرنين الأول و الثانى « انتهى » .

أقول : و بعد القرنين حدث فيهم شئ من التخريج غير أن أهل المائة الرابعة لم يكونوا مجمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد و التفقه له و الحكاية لقوله كما يظهر من التتبع ، بل كان فيهم العلماء و العامة .

و كان من خبر العامة أنهم كانوا فى المسائل الاجماعية التى لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع ، كانوا يتعلمون صفة الوضوء ، و الغسل ، و الصلاة ، و الزكاة ، و نحو ذلك من آبائهم أو معلمى بلدانهم ، فيمشون حسب ذلك ، وإذا وقعت لهم واقعة استفتوا فيها أى مفت وجدوا من غير تعيين مذهب .

و كان من خبر الخاصة أنه كان أهل الحديث منهم يشتغلون بالحديث فيخلص إليهم من أحاديث النبى ﷺ و آثار الصحابة ما لا يحتاجون معه إلى شئ آخر فى المسألة من حديث مستفيض أو صحيح قد عمل به بعض الفقهاء ولا عذر لتارك العمل به ، أو أقوال متظاهرة لجمهور الصحابة و التابعين مما لا يحسن مخالفتها ، فان لم يجد أحدهم فى المسألة ما يطمئن به قلبه لتعارض النقل و عدم وضوح الترجيح و نحو

ذلك ، رجع إلى كلام بعض من مضى من الفقهاء ، فان وجد قولين اختار أوثقهما ، سواء كان من أهل المدينة أو من أهل الكوفة ، و كان أهل التخريج منهم يخرجون فيما لا يجدونه مصرحاً ويجتهدون فى المذهب ، و كان هؤلاء ينسبون إلى مذهب أصحابهم ، فيقال : فلان شافعى ، وفلان حنفى ، و كان أصحاب الحديث أيضاً قد ينسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنسائى و البيهقى ينسبان إلى الشافعى . فكان لا يتولى القضاء و لا الافتاء إلا مجتهد ، و لا يسمى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعد هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً و شمالا (١) » .

القول العادل الوسط فى المقلد الذى
يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلا :

وينصف الامام أحمد بن عبد الرحيم القول فى مقلد أى مذهب إذا كان يقصد اتباع الرسول ﷺ أصلا ، ولكنه لا يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الشرعى والثابت من الكتاب والسنة بطريق مباشر لعاميته أو لانشغاله بأمور أخرى ، أو عدم توفر وسائل الاهتداء إلى النصوص ، أو القدرة على الاستنباط منها ، فقال بعد ما نقل كلام العلامة ابن حزم فى الرد على التقليد مطلقاً ، فقال : « التقليد حرام و لا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله ﷺ بلا برهان » .

« ليس محل قول ابن حزم فيمن لا يدين إلا بقول النبى ﷺ ، و لا يعتقد حلالا إلا ما أحله الله و رسوله ، ولا حراماً إلا ما حرمه الله و رسوله ، لكن لما لم يكن له علم بما قاله النبى ﷺ و لا بطريق الجمع بين المختلفات من كلامه ، و لا بطريق الاستنباط من كلامه . اتبع عالماً راشداً على أنه مصيب فيما يقول ويفتى ظاهراً ، متبع سنة رسول الله ﷺ . فان ظهر خلاف ما يظنه ، أقلع من ساعته من غير جدال و لا اصرار ، فهذا كيف ينكره أحد مع أن الاستفتاء و الافتاء

---

(١) حجة الله البالغة ص ١٥٢، ١٥٣ .

لم يزل بين المسلمين من عهد النبي ﷺ ، ولا فرق بين أن يستفتي هذا دائماً أو يستفتي هذا حيناً و ذلك حيناً ، بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا و لم نومن بفقيه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفقه و فرض علينا طاعته ، و أنه معصوم ، فان اقتدينا بواحد منهم فذلك لعلمنا بأنه عالم بكتاب الله و سنة رسوله ، فلا يخلو قوله إما أن يكون من صريح الكتاب و السنة أو مستنبطاً عنهما بنحو من الاستنباط ، أو عرف بالقرائن أن الحكم فى صورة ما منوط بعلة كذا و اطمأن قلبه بتلك المعرفة ، فقاس غير المنصوص على المنصوص ، فكأنه يقول : ظننت أن رسول الله ﷺ قال : كلما وجدت هذه العلة فالحكم ثمة هكذا — و المقيس مندرج فى هذا العموم ، فهذا أيضاً معزو إلى النبي ﷺ ، و لكن فى طريقه ظنون ، و لو لا ذلك لما قلد مؤمن لمجتهد ، فان بلغنا حديث من الرسول المعصوم الذى فرض الله علينا طاعته بسند صالح يدل على خلاف مذهبه وتركنا حديثه واتبعنا ذلك التخمين ، فمن أظلم منا و ما عذرنا يوم يقوم الناس لرب العالمين » (١) .

مزية المذاهب الأربعة :

و يقول الامام فى المذاهب الأربعة فى رسالته الصغيرة قامة و الكبيرة قيمة أسماها « عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد و التقليد » :

« اعلم أن فى الأخذ بهذه المذاهب الأربعة مصلحة عظيمة وفى الاعراض عنها كلها مفسدة كبيرة ، نحن نبين ذلك بوجوه : أحدها أن الأمة اجتمعت على أن يعتمدوا على السلف فى معرفة الشريعة ، فالتابعون اعتمدوا فى ذلك على الصحابة ، وتبع التابعين اعتمدوا على التابعين ، و هكذا فى كل طبقة اعتمد العلماء على من قبلهم ، و العقل يدل على حسن ذلك لأن الشريعة لا تعرف إلا بالنقل و الاستنباط ، و النقل لا يستقيم إلا

(١) حجة الله البالغة ، ص ١٥٥ ، ١٦٥ .

بأن يأخذ كل طبقة عمن قبلها بالاتصال ، ولابد فى الاستنباط أن يعرف مذاهب المتقدمين لئلا يخرج من أقوالهم فيخرق الاجماع و يبنى عليها و يستعين فى ذلك بمن يسبقه ، لأن جميع الصناعات كالصرف والنحو ، والطب ، و الشعر ، والحدادة . و النجارة ، و الصياغة . لم يتيسر لأحد إلا بملازمة أهلها ، و غير ذلك نادر بعيد لم يقع و إن كان جائزاً فى العقل ، و إذا تعين الاعتماد على أقاويل السلف فلابد من أن يكون أقوالهم التى يعتمد عليها مروية بالاسناد الصحيح أو مدونة فى كتب مشهورة ، و أن تكون مخدومة بأن يبين الراجح من محتملاتها و تخصص عمومها فى بعض المواضع ، وتقيد مطلقها فى بعض المواضع ، ويجمع المختلف منها ، ويبين علل أحكامها ، و إلا لم يصح الاعتماد عليها ، و ليس مذهب فى هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهب الأربعة » (١) .

الحاجة إلى الاجتهاد الفقهى و تقصير
الجيل الجديد فى القيام بواجبه :

و قد كثر الحديث فى هذا الزمان عن الحاجة إلى الاجتهاد حتى أصبح هتافاً وشعاراً للتقدمية ، ولا شك أنه حاجة العصر ومن ضرورات هذا الدين الذى يواكب الحياة و يقودها ، لاسيما و قد تقدمت المدنية و الصناعة و التجارة تقدماً لم يكن يخطر بالبال ، و حدثت أساليب جديدة ، و معاملات تجارية و عقود تطلب حكماً فقهياً مبنياً على الأصول الاسلامية و أصول الفقه ، و فى ضوء مقاصد الشريعة الاسلامية .

و لكن هؤلاء الذين ينادون بالاجتهاد فى المسائل الشرعية و المستحدثات العصرية ، من قادة الفكر ورجال الادارة والسياسة فى الأقطار الاسلامية والمتخرجين من الجامعات الأجنبية فى الغرب ، و الجامعات المدنية فى البلاد ، لم تثبت براعتهم

(١) عقد الجيد ، ص ٣٦ — ٣٨ .

و ذكاؤهم و قوة إرادتهم فى مواجهة الحضارة الغربية بشجاعـــة و إيمـان و ذكاء ، و شق الطريق بين مناهجها و مذاهبها ، وبين فضائلها و رذائلها ، ومعاملتها كمواد خام يصوغون منها حضارة تتفق مع تعاليم الدين وحاجة العصر و طبيعة الشعوب المسلمة الشرقية ، ويركبون منها جهازاً يخدم الغايات التى بعثت لها هذه الأمة . وينير السبيل للشعوب التى وقعت فريسة مادية رعناء ، و ينفضون عن كل ما يأخذونه من الغرب غبـاراً لصق به فى القرون المظلمـــة ، و فى حالة توتر أعصـــاب و قلق نفوس ، و لا لزوم له فى الاستفادة من هذه العلوم فى هذا العصر ، إنهم لم يقوموا فى مجال اختصاصهم بالدور الذى نيط بهم ، و فى صياغة النظام التربوى صياغة إسلامية حرة — و هو عمل يشبه « الاجتهاد » — بدورهم القيـــادى و الفكرى ، و لكن من طبيعة الانسان القديمة التخلى عن تبعته ، و مطالبة الآخر بالقيام بواجبه و دوره .

رغماً عن هذه الملاحظة السريعة التى أرجو عدم المؤاخذة عليها فان الحاجة إلى الاجتهـــاد فى المسائل الشرعية و المستحدثات العصرية حقيقة لا غبار عليهـــا ، و لا مجال للجدال فيها ، و على أصحاب الاختصـــاص فى علوم الشريعة أن يقوموا بدورهم التوجيهى و القيادى فى هذا المجال ، و يستخدموا هذا الكنز الثمين — الذى يسمى أصول الفقه ، و ليس له نظير فى ثروات الأمم و الشعوب العلميـــة — فى استنباط الأحكام واستخراج المسائل ، فقد أصبح من زمان تاريخاً فحسب ، يعرف منه طرق المجتهدين الأوائل فى استنبـــاط المسائل لا أقل و لا أكثر ، ومعلوم أن ساعة الزمان لا يمكن ايقافهـا و لا تعطيلها ولا إرجاعهـــا إلى الماضى ، و الاسلام الآن دين شعوب و مجتمعات تعاصر هذه القضايا و تواجهها وجهاً لوجه .

سبب تعطيل الاجتهـــــــاد
فى بعض المناطق و الأدوار :

وقد درجت على الاجتهاد الأمة و عمل به العلماء فى عصور مختلفة ، وأمصار

مختلفة ، و أمثلته ونماذجه تطفح به كتب الفقه فى المذاهب الأربعة ، إلا ما اعترى هذه المؤسسة (بمعناها العصرى) شئ من الذبول و الضعف بعد الهجوم التتارى الذى جفف منابع الذكاء و الثقة بالنفس ، و الصمود أمام الزحف المسلح و غير المسلح فى نفس الشعوب التى وقعت تحت نفوذ الحكم التتارى المغولى ، فرأى علماء المسلمين (خصوصاً فى القسم الشرقى من العالم الاسلامى) الحد من نشاط الاجتهاد فى هذه الحقبة من الزمن ، مخافة أن يكون فى صالح الحكام ، خاضعاً لمصالح سياسية و فردية ، فيضر أكثر مما ينفع ، و قد يكون سبباً لتحريف فى الدين أو انحراف جماعى فى سير هذه الأمة . و قد كان ذلك مؤقتاً و مؤسساً على مبدأ تقديم « دفع الضرر على جلب المنفعة »

و قد لزم الآن فتح هذا الباب ، و لكن بشروطه المبينة فى كتب أصول الفقه و يستحسن أن لا يكون فردياً (إلا إذا اقتضت الضرورة) و أن يكون جماعياً و عملا مجمعياً « أكاديمياً » و عن تبادل الرأى فى أهل الاختصاص و التأمل الطويل ونخل القضية و غربلتها فى ضوء الكتاب و السنة و استعراض الثروة الفقهية و الأصولية استعراضاً كاملا حتى لا يكون فى ذلك أفتيات أو مؤامرة ، أو خضوع لقوة سياسية أو حكومة أنانية .

حدود الاجتهاد و مجالها :

و قد يبدو من كلام بعض المنادين بضرورة الاجتهاد فى الطبقة المثقفة الثقافة الحديثة ، والمتحمسين من الشباب الجامعى أو بعض ولاة الأمور فى البلاد الاسلامية . الدعوة إلى الاجتهاد المطلق فى كل قضية ، والأخذ بالقيم الغربية والمقائيس العصرية برمتها ، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الاسلام ، و انقلب المجتمع البشرى رأساً على عقب ، و فقد كل ما وصل إليه المجتهدون و الفقهاء فى العصر الماضى ،

من آراء و حصيلة دراسة ، قيمته و غناءه ، ولا يتفق وطبيعة هذا العصر و واقع الحياه . و هذه وجهة نظر تغلب عليها السطحية ، و التهور و الخضوع الزائد لما نشره الأدب العصرى من الدعاية للتطور و التقدمية ، و تصوير الزمان تصويراً يخيل للشباب كأنه ولد من جديد ، و ليس شئ فيه يشبه ما كان بالأمس و هو تصوير مؤسس على التخيل أكثر من الواقع ، وعلى تجسيم القضية و تفخيمها بأسلوب عاطفى أكثر من منطق واقعى .

الاسلام فى عالم متغير :

و يطيب لى أخيراً أن أنقل هنا ما قلتــه فى كلمتى التى افتتحت بها ندوة انعقدت فى جامعـــة عليكره الاسلاميــة بعنوان « الاسلام فى عالم متغير » :

islam in a changing world .

« يفترض عموماً أنه ليس للزمن ثبات أو دوام . بل أنه اسم آخر للتغير والتحول ، و لكن ليس الأمر كذلك ، إن الزمن مركب من الاثنين - التغير و الاستمرار ، و إذا اختل هــذا التوازن كــأن يتحكم الاستمرار بالتغير ، أو يتسلط التغير على الاستمرار ،فان ذلك سينتج آ ثاراً خطيرة تنعكس على المجتمع والحضارة ، و أن التوازن بحاجة إلى التناسب حتى أكثر من أى مركب كيميائى .

إن الزمن له القدرة على التغير ، ويجب أن يغير . و ذلك ليس علامة ضعف أو نقص . إنما هو قانون الحياة . و كما قال « اقبال » :

« إن الحياة دائمة الحركة ، دائمة الانسياب ، دائمة الشباب و إن الحياة الخالية من القدرة على النمو و التطور يمكن أن تكون أى شئ آخر إلا الحياة » .

إلى جانب ذلك فان مقاومة التغير هى — أيضاً — صفة متأصلة فى الزمن ، و أن مظاهر التغير تبدو لنا بوضوح . . و كلنــا نشعركم تحول الزمن بشكل كبير ، إننا فى مجريات الأمور العادية لا نوفق فى الادراك إدراكاً تاماً للصراع الذى يقوم

به الزمن ليحافظ على خواصه الجيدة و السليمة و طبيعته و صفته الحقيقية ، و إن ذلك يتطلب مجهوداً خاصاً .

خذ النهر الذى يمثل نموذجاً مثاليـاً للحركة . . ما من موجتين من أمواجه متماثلتان على الاطلاق . وبالرغم من أمواجه العابرة فانه موجود مكانه منذ آلاف السنين ، محتفظاً بكل خصائصه ، وإسمه واتجاهه . فأنهار دجلة وفرات والـكنج Ganga و جمنا (١) كلها هى نفسها منذ أن كانت فى العصور الغابرة .

إن الزمن ساكن بالاضافة إلى كونه متحركاً . . . كلا هاتين الصفتين جوهريتان بالنسبة له ، فهو ـ بدون أى منهما ـ لا يستطيع الاحتفاظ بفائدته بنفس الطريقة ، لأن القوى السالبة و الموجبة تعمل عملها فى الأشياء الحية و غير الحية . الموجودة فى العالم ، و عن طريق أفعالها و ردود فعلها تحقق هذه الأشياء قدرها » .

الدين هو حارس الحياة :

باعتبارى مؤمناً وتابعاً للدين الاسلامى لا يمكننى ـ أبداً ـ أن أقبل وضعاً يستجيب فيه هذا الدين لكل تغير ، و لا يمكن أن توافقوا أنتم على ذلك أيضاً ، لأن الدين ليس مقياس حرارة يقتصر عمله على تسجيل درجة الحرارة ، و لا هو بالاداة التى ترصد اتجاه هبوب الرياح . لا يمكن تعريف الدين بهذه العبارات و لا يمكن أن يصير إلى أداة آليـة غريبة ، و ليس بيننا واحد يريد من الدين أن يعمل كسجل لتغيرات الأزمنة . و إن ديناً وضعياً مزعوماً لا يمكن أن يتحمل هذا الوضع فكيف بدين منزل من السماء ؟ !

إن الدين يقر التغير كحقيقة واقعة ويعطى أكمل مجال لسير الأمور من أجل تحول صحيح سليم .

الدين يتقدم مع الحياة يداً بيد و لا يواكبها فقط كتابع لها . . و وظيفته هو

(١) نهران عظيمان من أنهار الهند .

أيضاً أن يميز بين تغير سليم و آخر غير سليم ، وبين نزعة هدامة و أخرى بناءة . .
ويجب أن يقرر الدين فيما إذا كان التحول نافعاً أو ضاراً بالبشرية أو بأتباعه على الأقل

و بينما يتمشى الدين مع الحياة الديناميكية جنباً إلى جنب من جهة فانه يعمل حارساً و حامياً لها من جهة أخرى ، و تجب عليه مهمة المراقبة و الضبط أيضاً .

و ليس من مهمة الوصى أن يدعم كل ما يفعله القاصر الموضوع تحت وصايته و يؤيد كل ميوله الجيدة منها و السيئة ، أو أن يصادق بختم الموافقة على كل شئ يسعى وراءه . . بل إن الدين يمتلك ختماً واحداً وحبراً واحداً ويداً واحدة فقط . .
و ليس من شأنه أن يلصق طابعه على أى وثيقة أو صك .

بل يجب عليه أن يميز و يختار ، أجل إنه يفحص (الوثيقة) أولا ثم يصدر حكمه . . فان وجد فيها خطأ أو ضرراً حاول الدين أن يتركها برفق - إذا أمكن - أو بقوة إذا اقتضى الأمر ذلك ، و إذا عرضت عليه وثيقة واعتبرها ضارة بالجنس البشرى فهو لا يمتنع عن تصديقها و ختمها فقط ، بل يكافح لمقاومتها ، و هنا يكمن الفرق بين الدين والأخلاق ، فالدين يرى من واجبه ومسئوليته ضبط النزعة الخاطئة وردها ، بينما تكتفى الأخلاق بالاشارة إليها و إظهارها .

و بهذه الدقه و العمق ، و الشعور بالأمانة و المسئولية ، و الاطلاع على طبيعة هذا الدين و رسالته ، وطبيعة العصر الذى نعيش فيه ، وتركيبه الدقيق وجمعه بين النمو و التطور و الاختلاف و التغير ، وبين الثبات و الصمود ، و الاحتفاظ بالقديم الصالح ، يمكننا أن نفى بحاجة الفقه الاسلامى - بمعناه الواسع العام - إلى التطوير والتوسيع - لا إلى التخطيط و التمزيق - و نفى حاجة المجتمع الاسلامى إلى العمل بأحكام الاسلام و تعاليم الدين ، فى عصر حضارى منظم متوسع كهذا العصر وحياة تتطور بسرعة وتتقدم بسرعة كهذه الحياة ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر .

نبوة محمد ﷺ . دلائلها من القرآن

(الحلقة الثانية)

الدكتور التهامي نقرة
أستاذ محاضر فى القرآن و السنة
بكلية الشريعة و أصول الدين / تونس

إيمان الرسول بصدق رسالته :

و لقد استطاع الرسول بما غرس فى القلوب من ايمان فى الحياة من قيم ، أن يقاوم كل التيارات التى وقفت فى وجه الاسلام ، و أن يغير مجرى التاريخ ، و أن يحول المقلدين و الراكدين إلى بركان فوار يغلى بالحياة فى أسمى مظاهرها ، و يقذف بالنور و النار ضد الباطل و الفساد و الضلال .

و ثباته فى الشدائد و المحن و مصابرته على مغالبة الكبر و العناد ، أول برهان قدمه للانسانية على مدار التاريخ ، يشهد بصحة نبوته ، و صدق رسالته .

و هل سادت دعوات الكذابين و المشعوذين و الدجالين الذين ادعوا النبوة لأنفسهم ؟ وهل نجحوا رغم محاولاتهم أن يحملوا الناس بشتى الأساليب على الاذعان لهم و اتباع تعاليمهم .

فلو صدق الناس كل من يدعى أنه تلقى وحياً من ربه ، و أنه قد جاءهم بما ينفى عقائدهم ، لما استقرت عقيدة و لا شريعة ، و لانقلب المجتمع إلى فوضى لا حد لها و لا نهاية ، و لكن محمداً ﷺ صدق بالرسالة التى بعث بها و آمن بأنه رسول رب العالمين قبل أن يدعو غيره إلى التصديق و الايمان ، و ردد قبل أن يردد غيره عند كل تشهد فى الصلاة :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده و رسوله » و قد أخبر عن هذه الحقيقة عالم الغيب سبحانه فى قوله « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه » (سورة البقرة — ٢٨٤) .

فما هو الطريق الذى كشف له عن الحق المبين ، و قاده إلى نور اليقين ؟ أنه نبي مرسل ، والمرسلون عاشوا تجربة روحية فى مستوى أعلى لاتتاح لكل الناس ، وعاينوا حقيقة الايمان ، وكلمهم الله وحياً أو من وراء حجاب أو بواسطة ، فشاهدوا و ذاقوا و عرفوا ، و أتوا بما يعجز عنه غيرهم ، فهل من حق الناس أن يرفضوا تصديقهم . و ينتظروا حتى يروا ما رأى الأنبياء أو يتحدث الله إليهم مثلما تحدث لرسله ؟ فالناس لم يروا الأشعة (تحت الحمراء) ، و لكنهم يؤمنون بوجودها ، لأن أفراداً منهم اكتشفوها بأنفسهم . و أخبروهم بوجودها .

و هم لم يفجروا الذرة . و لكنهم عرفوا الكثير من أخبارها ، لأن طائفة من العلماء فجروها و أطلقوا طاقتها .

و هم لا يحسون أن الأرض تدور ، و مع ذلك أيقنوا بدورانها ، لأن العلم قرر ذلك ، فلماذا يصدقون كل هذا و نحوه ، و هم لم يكتشفوه بأنفسهم ؟ .

قد يقال إن الأمر مختلف ، لأنك تستطيع التأكد من صحة هذه الأشياء إذا أخذت مكانك فى مخبر أو معمل ، لكن ليس فى الأمر اختلاف ، فأنت أيضاً تستطيع أن تتأكد من صدق الذين حدثوك عن الله ، إذا أخذت مكانك فى مخابرهم و معاملهم ، رغم أنها من نوع آخر يستطيع كل انسان أن يمتلكه إذا أيقظ قلبه ، وألقى سمعه ، وجمع قوى روحه المكنونة ، و اكتشف المناطق المخبوءة من عقله و بصيرته (١) .

(١) خالد محمد خالد — الوصايا العشر — الوصية التاسعة .

لقد كان يقينه ﷺ كاملا ، و اعتقاده راسخاً بأن ما يوحى به إليه هو خارج عن ذاته ، ولا صلة له بما علم أو عرف من تجاربه الشخصية ، وفى حياته اليومية ، إنما صلته بعالم الغيب ، ولعل هذا الذى يشبه المقياس هو الذى مكنه أن يفصل ما هو شخصى بالنسبة إليه كأفكاره و مكاشفاته العادية ، عما هو صادر عن الوحى ، و لا يتصل بذاته ، كما توضح ذلك هذه المشاهد الغيبية التى يسوقها القرآن لاحتياج النبى ﷺ إليها اعتقاداً و تربية و تعليماً . . فما كان الرسول ليعرف مثلا كيف اختصم الملأ الأعلى من الملائكة فى أمر آدم و استخلافه ، و سؤالهم لما اختفت حكمة الله عنهم (أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء) لو لا أن الله أخبره عن طريق الوحى بذلك :

« قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون . ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون ، إن يوحى إلى إلا أنما أنا نذير مبين » (سورة ص ـ ٦٧ ـ ٧٠) .

وما كان عليه السلام حاضراً فى الجبل الغربى الذى كلم الله فيه موسى ، ولا قريباً من جبل الطور ، إذ ناداه و قربه ، و عهد إليه بالرسالة ، و لا مشاهداً لما جرى من أمره فى ميقاته ، و لا مقيماً فى أهل مدين ، و لكنه الوحى ، هو الذى عرفه بهذه الأسرار و الأخبار فضلا من الله ورحمة للبشرية ببعثه هذا الرسول إليهم بعد أن مروا بأجيال متعاقبة ، وأزمان طويلة اختل فيها النظام ، و فشا الشر بين البشر « و ما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر ، وما كنت من الشاهدين ، و لكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر ، و ما كنت ثاوياً فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، و لكنا كنا مرسلين ، و ما كنت بجانب الطور إذ نادينا و لكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » (القصص، ٤٤ ـ ٤٦) ، لقد عانى النبى ﷺ فى بدء الوحى ما عانى من الشك فى نفسه ،

فكان بحاجة إلى مقياس صحيح يثبت قلبه ويدعمه ، ويؤكد له أن ما يتلقاه هو وحى إلهى ، و ليس من هواجس النفس و لا من وساوس الشيطان .

و الانتقال من الشك إلى اليقين يحتاج إلى وعى كامل ، و بحث دقيق ، واستبطان عميق ، و إدراك الرسول للحقيقة العلوية فى الوحى هو ثمرة الفكرة الناضجة المستغرقة ، و ثمرة الدرس الباطنى القرآنى الذى قام على منهجين مختلفين ، أولهما ذاتى محض يقتصر على ملاحظته وجود الوحى خارج الاطار الشخصى ، كما سنوضحه بأمثلة من القرآن ، ليكون صادقاً مع نفسه ، وثانيهما موضوعى يقوم على المقارنة الواقعية بين الوحى المنزل ، و ما ورد من التفاصيل فى كتب اليهود و النصارى (١) ، و لاسيما عند ما يجادلهم فى العقيدة و فى الحق الذى بدلوه و حرفوه و كتموا منه ما شاء هواهم .

فاذا افترض الوحى شكه فيما أنزل الله عليه و خاطبه صراحة :

« فان كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك ، لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » (يونس — ٩٤) أجاب ﷺ موضحاً موقفه و معقباً على نزول الآية (و لا أشك و لا أسأل ، بل أشهد أنه الحق) (٢) .

و قد أدرك رسول الله ﷺ أن الوحى الذى يتنزل عليه ليس أفكاراً نابعة من داخل نفسه ، و لا مما سبق الحديث عنه ، و لا هو مما يعكس شخصيته ، ففى أكثر الأوقات لا يذكر شيئاً عنه ، بل هو يتجرد من الاشارة إليه .

و إذا تعلق الموضوع بسلوك أخلاقى ، نرى التعارض جلياً بين السلطة

(١) مالك بن نبى ـ الظاهرة القرآنية ص ٨٧ (ط بيروت) .

(٢) انظر تفسير النسفى لهذه الآية .

التشريعية العليا ، و النفس الخاضعة المستسلمة . فيتعارض التشدد مع التساهل ، و الصراحة القصوى مع الحياء ، و الحلم و طول الأناة مع نفاذ الصبر .

و ليس من النادر أن يتضمن الدرس اللوم الشديد لأقل مخالفة منه للمثل الأعلى المنشود .

و طالما لم تكن لديه تعاليم صريحة من الوحي في أمر ما ، نراه ﷺ ذا طبيعة خجولة وديعة ، حساساً لما قد يقال عنه ، و لا يقطع دون أصحابه برأى ، يمتنع عن اتخاذ أى موقف عند الشك ، معترفاً بعدم علمه بمصيره الشخصي و مصير غيره (١) .

و الآيات فى ذلك كثيرة و متنوعة ، مثل قوله تعالى :

(إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيى منكم . . .) (الأحزاب - ٥٣) .

(قل إن أدرى أقريب ما تعدون أم يجعل له ربى أمداً) (الجن - ٢٥) .

و لما شج ﷺ يوم أحد قال : كيف يفلح قوم شجوا نبيهم (٢) فنزلت « ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » (سورة آل عمران — ١٢٨) .

ثم إن ملاحظة الرسول بأن مصدر الوحى خارج عن ذاته يؤكد لديه صدقه و صحته و يظهر ذلك واضحاً فى التعارض الذى قد يبدو بين الفكرة المحمدية قبل الوحى و الفكرة القرآنية بعده ، كما نجد فى الآيات التى عاتب الله فيها نبيه على بعض مواقفه الناجمة عن اجتهاده الشخصى ، و ليس فى هذا تناقض مع ما يجب له من العصمة ، و لكنه مخالف لما هو الأولى فى علم الله المغيب عنه ، حتى يتجلى الفارق بين المخلوق و الخالق .

---

(١) محمد عبد الله دراز - مدخل إلى القرآن الكريم ص ١٧٠ (ط بيروت ١٩٧١) .

(٢) صحيح البخارى — ج — ح « غزوة أحد » .

و لو أنا تأملنا فيما عوتب عليه الرسول فى آيات قبول الفداء من أسرى بدر بدل قتلهم ، لكان موقفه نحوهم أقرب إلى نفسه الرحيمة ، و لو أنهم كانوا أشبه بمجرى الحرب منهم بالأسرى ، وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح فى ميزان الحكمة الالهية فهل ترون فى ذلك ذنباً يستوجب عند العقل هذا التأنيب و التثريب ؟ أو هو مقام الربوبية و مقام العبودية ، و سنة العروج بالحبيب فى معارج التعليم و التأديب ؟ (١) .

(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا و الله يريد الآخرة ، و الله عزيز حكيم ، لو لا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (سورة الأنفال - ٦٧ - ٦٩) .

و عوتب ﷺ لما أذن للمنافقين الذين استأذنوه للتخلف عن غزوة تبوك عتاباً رقيقاً ، و يتجلى لطف هذا العتاب فى التصدير بعبارة العفو قبل الخطاب ، و فى ذلك فضل الله على نبيه .

« عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » ؟ (التوبة - ٤٣) .

كما عاتبه ربه على موقفه من ابن أم مكتوم و كان كفيفاً ، إذ تقطب وجهه عليه السلام ، لما قاطعه مكرراً عليه القول يا رسول الله ، علمنى مما علمك الله ، و كان مع جماعة من سادة قريش يدعوهم إلى الاسلام ، و هو حريص كل الحرص على اقناعهم رجاء أن يتعزز بهم فأنزل الله عليه (عبس و تولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك الا يزكى ، و أما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه

(١) محمد عبد الله دراز - النبأ العظيم - ١٩ (ط الكويت ١٩٧٦) .

تلهى) (سورة عبس ١ ـ ١٠) .

و لقد دأب القرآن يذكره بفضل الله العظيم عليه فى اصطفائه ، و تعليمه بالوحى ما لم يكن يعلم ، و هو أمى ليس لديه من معارف سوى ما يمكن أن يمنحه له وسطه القروسى الوثنى البدوى ليوقن بأن الله سبحانه هو الذى بعثه بالحق رسولا ، و لم يكن قبل ذلك يعرف الكتاب و الايمان (و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ؟ و لكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، و إنك لتهدى إلى صراط مستقيم (الشورى ـ ٤٩) وإذا ما ضاق صدره بعناد قومه و إصرارهم على الكفر يذكره ربه (فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم) (الزخرف ـ ٤٢) .

و إذا استحكمت الأزمات و اشتد الأذى ذكره بأن نزول الكتاب عليه رحمة من لدنه (و ما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك ، فلا تكونن ظهيراً للكافرين) (القصص ـ ٨٧) و كم فى القرآن الكريم من آيات تدعم فى قلبه الايمان بصدق رسالته ، و الاقتناع الكلى بحقية دعوته مثل قوله تعالى « فتوكل على الله ، إنك على الحق المبين » (النمل ـ ٨١) .

أسباب تأثير الدعوة الاسلامية

فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
عميد كلية اللغة العربية جامعة ندوة العلماء

إن من آداب الداعى المسلم أن يتميز بالمحبة والرفق فى دعوته و يتحاشى العنف والعداء بقدر ما يسعه ، فان هذا المنهج للداعى من أقوى أسباب تأثير دعوته ونجاحها .

أما ظهور الداعى المسلم أمام غير المسلمين فى صورة مخاصم أو معاد فيطمس صورته الفاضلة الحقيقية ، ويكون حاجباً عن نظر المدعوين فى دعوته ، و اهتمامهم بفهمه و إساغته ، و بذلك تبتعد النفوس عن الاقبال على الدعوة الاسلامية والاستجابة لها بصورة عامة ، والأسوة الكاملة للدعاة المسلمين فى ذلك هى السنة النبوية الشريفة ، فقد حافظ الرسول ﷺ على سلمية الدعوة مدة كبيرة ، ولم يختر سياسة العنف والاصطدام إلا بعد أن أثبت صورة الاسلام السلمية و وجهه المتسم بالفضيلة و الخير ، و لقد صبر خلال ذلك صبراً شديداً ، ومر المسلمون معه من خلال كظم وكبت واضطهاد ، حتى ذكر ذلك بعض الصحابة للرسول ﷺ ،كما رواه أبو عبد الله خباب بن الأرت رضى الله عنه قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة ، وقد لقينا من المشركين شدة ، فقلنا : ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا ؟ فقال : قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ، و يمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه و عظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، و الله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله و الذئب على غنمه ، و لكنكم تستعجلون . [رواه البخارى]

و مثال آخر لمنهج الرسول ﷺ فى هذا المجال هو ما قام به من عقد الصلح

يوم الحديبية ، فقد توقفت بذلك إلى يوم فتح مكة المصادمات التى كانت تحدث من بعد هجرته ﷺ بين المسلمين و الكفار ، و حال بينهما سلم هيأ للمسلمين أن يقدموا صورة الاسلام الطبيعية إلى غير المؤمنين بها ، و هيأ للكفار أن يطلعوا على الاسلام ، بعيداً عن العنف التى تستلزمه سياسة المخاصمة والحروب ، فدخل الكفار فى الاسلام فى عدد فاق بكثير على العدد الذى أسلم فى غير هذا العهد .

و هذا المنهج السلمى الرفيق من حياة الرسول ﷺ خير مثل لعمل الدعوة فى العصر الحاضر الذى يشبه فى بعده عن الاسلام الحقيق العهد الجاهلى الذى دعا فيه الرسول ﷺ العرب إلى الاسلام .

لقد احتمل الرسول ﷺ و الدعاة المسلمون معه فى عهده الأول و هو مدة ثلاث عشرة سنة منذ بعثته ألواناً من الأذى و الاضطهاد ، و لكنهم حافظوا على سلمية الدعوة الاسلامية ، و لم يجعلوا القضية قضية سياسة و سلطان أو قضية ثأر أو قتال ، فان منهج السياسة المقاومة منهج يقتضى لنجاحه مكراً و حيلة ، أو استخدام سلاح ، و إذا اختارته و أقبلت عليه دعوة من الدعوات منذ بدايتها فلا تظهر هذه الدعوة فى الجاهلين عنها و الغافلين عن حقيقتها إلا كحركة سياسية تستهدف الوصول إلى الغلبة والحكم ، وذلك بسبب الطموح إلى الغلبة والحكم الذى ينشأ فى نفوس أصحابها ، أو لطلب الجاه والمال والسلطان ، و هذا أمر قد جبلت عليه طبائع البشر بصورة عامة ، وهو الذى يتبادر الظن به إلى أذهان الناس فى عامة الأحوال ، وقد وقع لرسول الله ﷺ ذلك فقد قال عتبة بن ربيعة يوماً ، وكان سيداً ، وهو جالس فى نادى قريش و رسول الله ﷺ جالس فى المسجد وحده ، يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه و أعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ، و يكف عنا ؟ و ذلك حين أسلم حمزة و رأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون و يكثرون ، فقالوا :

بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلمه فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة و المكان فى النسب، و إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم و سفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال رسول الله ﷺ قل يا أبا الوليد، اسمع، قال: يا ابن أخى، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، و إن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، و إن كان هذا الذى يأتيك رئياً تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا، حتى نبرئك منه فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له! حتى إذا فرغ عتبة و رسول الله ﷺ يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى، قال: أفعل، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لعلكم تعقلون، الآيات.

(السيرة النبوية لابن هشام المجلد الأول)

و يشك الناس بصورة خاصة إذا كانت الحركات تنهج منهج السياسة العملية أو العنف و قلما يثقون بها، و قد وجدنا كثيراً من الدعوات التى اختارت من أول يومها سياسة الاصطدام والعنف أنها اخفقت فى إقناع الناس بأنها دعوات فاضلة، و أنها تريد الحق و الفضيلة و البر بالناس، إلا أن يكون قد سبق فى تاريخ هذه الدعوات دور اشتغل فيها أصحابها بالأعمال الخيرية والخدمات الانسانية المخلصة، وبنشر الفضيلة زمناً لا بأس به، إلى أن أصبح لديهم رصيد من حسن الصيت بصلاح نياتهم و نصيحتهم لعامة الناس.

ولكن الحركات التى تبدأ عملها من منهج السياسة العملية والمكر أو الاصطدام فقلما يدخل عنها فى نفوس الناس إلا صورة من حب الجاه و السلطان و لا يأخذ الناس عنها فكرة نشدانها للفضيلة و البر و الصلاح .

و نجد أمثلة كثيرة من التاريخ الاسلامى تشهد بذلك فالبلاد التى غزاها المسلمون بالمنهج الحربى الخالص لم تخضع لهم البلاد خضوعاً مخلصاً و انقلب عليهم الوضع يوماً من الأيام مهما تأخر ذلك، وذلك عندما ضعفت قوتهم المادية والحربية اللهم إلا أن يساند حكمهم دعاة مخلصون من أهل الصلاح والتقوى، يعملون لتقريب الفضائل الاسلامية إلى القلوب و النفوس، بمحبتهم للناس و بسيرتهم الرقيقة الطيبة، وبطلبهم لخير الجميع . باذلين جهوداً مخلصة لاستمالة القلوب إلى فهم الفضيلة الاسلامية والاقبال عليها مثبتين ذلك بحياتهم المثالية المتسمة بالمحبة والنصيحة والاحسان . فهؤلاء هم الذين يحفظون الحكم الاسلامى من كراهة المفتوحين له . وإذا عاصر هؤلاء الحكم الاسلامى على امتداده التاريخى لفتحوا القلوب والنفوس للاسلام، مع وجود مخالفات اسلامية من الحكام المسلمين ، فقد يتحول شعب البلاد كله بجهود هؤلاء المخلصين الأبرار إلى شعب إسلامى جديد، فيزول البعد بين دين الحاكم و دين المحكوم، و يصير الحكم حكماً ذاتياً ، فلا حاكم و لا محكوم .

و قد نقص هذا المنهج المهم فى التاريخ الاسلامى فى أسبانيا فقد حكمها المسلمون قروناً و لكنهم لم يتمكنوا من تحويل شعب البلاد . ولم يجدوا من يفعل لهم ذلك، فبقى أكثر أهلها بعيدين عن الاسلام ، و لذلك لما قويت الجبهة العسكرية لأعدائهم أعادوا البلاد إلى ما كانت عليه من الدين المسيحى و طردت المسلمين من البلاد .

و لكن الوضع فى شبه القارة الهندية قد اختلف عنه فى الأندلس إلى حد كبير، فلم يبدأ فيها حكم المسلمين إلا و بدأ الدعاة والمصلحون الذين رافقوا جيوش

الاسلام أو توافدوا بعدها بفترات ، يتسربون إلى المجتمعات الهندية الضالة المغزوة سياسياً ، واختلطوا بها ممثلين للحياة الاسلامية الرحيمة الرقيقة ، فأحالوا بصورة تدريجية أعداداً كبيرة من أبناء البلاد إلى الاسلام بتأثير سلوكهم وسيرتهم الاسلامية الرحيمة ، فكانوا السبب الأول و الأكبر لتضخيم عدد أبناء الاسلام فى الهند ، حتى تحولت مناطق من شبه القارة الهندية إلى بلاد إسلامية خالصة ، مثل مناطق بنجاب و السند و بلوجستان ومناطق غربية من باكستان ، ومثل كشمير فى الهند و مثل بنجلاديش ، فانما يشكل المسلمون أغلبية ساحقة من هذه المناطق ، يناهز عددهم فيها نحو ثلاثمأية مليون مسلم ، و إذا أردنا الدقة و التفصيل لاسلام هؤلاء فعلينا دراسة تاريخ هذه المناطق عند تحولها إلى الاسلام ، فسنجده مليئاً بجهود الدعاة و العلماء الربانيين لا السلاطين و الحكام المسلمين .

و ليس معنى ذلك أن المواجهة الحربية أو الغزو السياسى و الحكم لا يملك أهمية ولا قيمة فى الاسلام، لا بل إن لها قيمة و أهمية لا يستعاض منهما و لكنهما يأتيان كوسيلة ردع و سند للجهود الاسلامية المبذولة خلقياً و أدبياً لاصلاح النفوس و نشر الفضيلة ، و لذلك لا يسمح فى عمليات الجهاد الاسلامى إلا بأن تعرض الدعوة الدينية على الأعداء أولا ، فان قبلوها فيحرم دماؤهم و أموالهم و يصبحون مستحقين لبقاء حكمهم الذاتى ، و إذا أنكروا ذلك فيطالبون بالدخول فى ذمة الاسلام و عهد المسلمين ، فتبقى بذلك للدعاة المسلمين فرصة القيام بعمل الدعوة الدينية فيهم بدون إكراه أو إجبار و لا ظلم ، و إذا أنكروا ذلك أيضاً فيأتى حكم الجهاد فيقاتلون إلى أن يسلموا أو يستسلموا ، هذا هو المنهج الاسلامى .

إن الغرب المسيحى اليوم قد ضجر من حياته المادية الملحدة بسبب رتابتها و خلوها من العواطف الانسانية الرقيقة ، و قد بعدت صلتها بالدين المسيحى لعدم

استطاعته بملأ كل فراغ دينى فى حياته، فهو هائم فى طلب دين يمسكه من السقوط و التخبط فى مهام الحياة ، و لا يسعفه فى ذلك إلا الدين الاسلامى .

و لكن الدين الاسلامى الذى يقدمه بعضنا إليه اليوم هو دين القتل و الحرب أكثر من أن يكون دين الفضيلة والسلم ، وما دمنا نظهر للغرب وجه العنف و القتل للاسلام فلن نجد من الغرب رداً إلا بالاعراض و المقت .

إنه يجب أن نعرض الاسلام على الغرب كدين منقذ من الويلات الخلقيــة و الاجتماعية للحياة المعاصرة ، التى ضجت نفوس الغربيـــين عنها و أرادوا الهروب منها ، و اللجوء إلى حلول ممكنة تبدو لأقطار الغرب فى الشرق و الغرب ، ففى هذه الحالة إذا لم يظهر أمام الغرب وجه الاسلام الصافى المواسى الرفيق ، فلن يجذب الاسلام نفوسهم و قلوبهم ، و هم سيستمرون فى اللجوء إلى كل ملجأ و مغارة يظنون فيها شفاء لاسقامهم ، مثل الرهبانية البرهمية أو البوبهمية الهاملة ، و نجد لها أمثلة كثيرة فى كل مكان، وتقع المسئولية على الدعاة المسلمين لأنهم لا يختارون الطريقة الصحيحة اللائقة للدعوة إلى الاسلام، مع أن مسئولية الدعوة خاصة بهم، لقوله سبحانه وتعالى « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله » .

لقد انقسم العاملون للاسلام اليوم إلى اقسام ، فمنهم من يتزعم إعطــاء فكرة الضرب و الحرب للاسلام ، و لا يكتفى فى ذلك بالاظهار العملى وحده ، بل يجعله من أساسيات الاسلام ، يفعل ذلك بدون أن يرى سيرة الرسول عليــه السلام ، و منهاجه فى ذلك ، فلقد احترز ﷺ من قتل المنافقين مع علمه ، بأنهم أشد عداء من الكفار . و ذلك لئلا يقال أن محمداً يقتل أصحابه ، و بذلك كان يصون الاسلام

من شهرة غير حسنة ، وكان يقبل من الرجل قوله لا إله إلا الله ، فقد قال فى حالة مخالفة لذلك : هلا شققت عن قلبه .

وقسم من العاملين للاسلام يعكفون على شرح الاسلام نظرياً وحده ، ويعكفون على تنظير الاسلام بشكل يجعله شبيهاً بالنظريات الغربية فى الحياة ، مع أن الغربيين أتخموا من النظريات ، و كادوا يضربونها عرض الحائط ، لأنها لا تسعفهم فى إدخال الراحة و الطمانينة إلى قلوبهم ، و لذلك يهجرون حياة بنيت على هذه النظريات ، و قد يلجأون إلى الحياة الهاملة ، تاركين كل شئ حتى حاجيات الحياة

لقد تقدم الغرب و بلغ أوج رقيه فى النظم السياسية و الاقتصادية ، و القوى العسكرية ، و وسائل المعيشة ، و ازدهار المدنية ، و حاول بكل ذلك حل مشكلاته الانسانية ، و إزالة همومه النفسية ، ولكنه لم يعد من محاولته هذه بطائل ، و أصبح شباب الغرب يهيمون فى كل مجال يظنون فيه حلا لعقدهم ، و ذلك لأن الاضطراب الخلق و الفراغ النفسى الذى يعانى منه أبناء الغرب اليوم ، إنما هو نتيجة حضارتهم هذه المتحررة من الالتزامات الخلقية و الدينية ، و هى سبب اضطراب ميزان السعادة النفسية لحياتهم ، و هو سبب مرضهم و سقامهم ، و لا ينفع فيه إلا العودة إلى تعاليم الأنبياء و خاصة تعاليم خاتم الرسل محمد ﷺ ، الذى دعا إلى تحقيق الصلة بالخالق ، و إلى الاعتدال فى الاستفادة بوسائل الراحة ، فلا تكالب على اللذات ، ولا الاستمتاع بكل وسائل المتعة و الراحة ، و لا حاجة إلى اختيار الرهبانية ، و التخلى من حاجيات الحياة ، فقد قال الله تعالى « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده و الطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (١) .
إنما النظر الصحيح إلى الحياة الدنيا هو أنه نعيم محدود و زائل ، و أنه متاع الغرور

(١) سورة الأعراف ٣٢ .

فلا يوخذ إلا بالاعتدال و لا يربط به القلب حتى يصعب تركه .

فالغرب لا يفتقر اليوم إلى نظام اقتصادى جديد ، بدلا من نظامه الاقتصادى الذى توصل إليه ، و لا إلى نظام سياسى جديد ، بدلا من نظامه السياسى الذى اختاره ، لأنه جرب أنواعاً راقية من الأنظمة ، و وصل إلى أقصى ما بلغ به علمه ودراسته و فهمه ، فهو غير راغب إلى مزيد جديد منها ، لأنه لا يجد حلا لمشاكله فيها . إنما يفتقر الغرب إلى السكينة القلبية و الراحة النفسية ، التى لا يتكفل بها نظامه للاقتصاد و نظامه للسياسة لديه ، إنما يتكفل بها تلك الفضائل و الآداب السماوية التى دل عليها و هدى إليها رسل الله سبحانه و تعالى و خاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ ، و هى التى تعوز بيئات العالم الانسانى اليوم .

و على الداعى إلى الفضيلة و الحق أن يكون حياته مثالا للنهج المعتدل الجامع للاستفادة من وسائل الحياة ، و اتخاذ نظرة صحيحة لتقييم هذه الوسائل ، و ذلك يحصل بالأمثلة العملية أكثر من الشرح العلمى ، مع أن الشرح العلمى له مكانة لا يستهان بها فى دعم هذه النظرة و مساندتها .

فهل يسعنا أن نعرض الاسلام على الناس بطريقة موافقة لسنة رسول الله ﷺ و سنة صحابته الأولين ، فليس فى غيرهما علاج .

التكافل الاجتماعى فى الاسلام

الدكتور نور محمد غفارى
الأستاذ المشارك (بمجمع البحوث الاسلامية)
الجامعة الاسلامية - باسلام آباد - باكستان

(الحلقة الثالثة)

كيف تحقق الدولة الاسلامية مسئوليتها لاقامة التكافل الاجتماعى فى العصر الحديث ؟

لم يطلب الاسلام من أى دولة إسلامية أن تعطى كل واحد من مواطنيها احتياجاتهم بصفة كاملة أو تقدم لهم مقدار النقود الذى يكفيهم و هم يجلسون ى بيوتهم سالمين غانمين« لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، بل إنه يؤكدها أن تنجز الوظائف التالية :

(١) لا تدع تفاوتاً بين الأغنياء والفقراء يتسع إلى حد غير طبيعى، فينقسم المجتمع الاسلامى بين الموسر المفرط و الفقير الحاسد، و يتعرض المجتمع إلى الصراع الطبقى، لأن الغنى و الحرمان (من الاحتياجات الأصلية) لا يمكنان أن يوجدا فى دولة إسلامية فى حين واحد و على صعيد واحد

(٢) لا تترك أى فرد من أفراد المجتمع يمتلك ويستغل الموارد الاقتصادية الأساسية بطريق يمنع أفراد المجتمع الآخرين عن اكتساب أرزاقهم، و الحصول على حاجاتهم، لأن كل الناس سواء مسلماً كان أم كافراً فى الدولة الاسلامية فى حق استغلال الموارد الاقتصادية الأساسية لابتغاء أرزاقهم .

(٣) توفر فرصاً مناسبة للمواطنين الذين يصلحون للعمل للشغل وفقاً لمؤهلاتهم العلمية و مواهبهم طبقاً لاحتياجاتهم البشرية ، و هذه المسئولية تتحدد فى ضوء عمل نبينا الكريم ﷺ ، إنه ﷺ أوصى أحد أصحابه من الأنصار رضى الله عنه — الذى سأله — بأن يبيع ما فى يده ثم يشترى ببعض ثمنه فأساً و حبلا ثم يذهب فيحتطب و يبيع ، و هو خير له من أن يسأل الناس .

(٤) تتحمل مسئولية كفالة الأيتام حتى يبلغوا الحلم و يبتغوا أقواتهم ، والأرامل و الضعفاء و العاطلين عن العمل حتى يكتسبوا أرزاقهم ، و حديث النبى ﷺ يصدق على هذه المسئوليـــة ، إنه ﷺ قال : كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته ، الامام راع و مسئول عن رعيته (١) ، و هكذا دواليك .

مخطط نظام الكفالة الاجتماعية فى القطاع الحكومى :

إن العصر الحديث الذى نعيش فيه هو عصر التنظيم والتخطيط ، و الازدهار و التطور ، و قد زاد فيه عدد السكان فى كل قطر من الأقطار الاسلامية ، و قد تكاثرت مشاكل حول التكافل الاجتماعى التى تدعو علماءنا الاقتصاديين و زعماءنا السياسيين إلى أن ينظموا هذا النظام من جديد على خطوط جديدة ، نقدم فى السطور التالية الخطط التمهيدية لمشروع بحثنا إلى الاقتصاديين والمتخصصين للتفهيم و الدراسة .

وزارة التكافل الاجتماعى :

تقيم كل دولة إسلاميـــة و زارة كاملة لتحقيق التكافل الاجتماعى فى المركز و تكون فروعها فى كل بلد كبير ، و تباشر هـــذه الوزارة أعمالها تحت رعاية الوزير الذى يكون متخصصاً فى الاقتصاد الاسلامى خبيراً فى الاقتصاد الجديد و علم

(١) صحيح الامام البخارى رحمه الله ، كتاب الزكاة .

الاجتماع مع الخبرات الواسعة فى الخدمات الاجتماعية ، و الموظفون فى هذه الوزارة يكونون متخصصين و خبراء فى إجباء الزكاة و الضرائب الاسلامية و توزيعها وفقاً للتعليمات الاسلامية فى هذا المجال .

هذه الوزارة تنظم و تدير المؤسسات التالية للتكافل الاجتماعى :

ا — مراكز كفالة الايتام و تربيتهم .

ب — دور المرضى و العجزى .

ج — المستوصفات الخيرية المجانية لعلاج الفقراء و المساكين و ابن السبيل .

د — مراكز المساعدات المالية لتوزيع رواتب العاملين للوزارة .

ه — مراكز تجهيز و تكفين الموتى من الفقراء و المساكين .

و — دائرة الزواج .

ز — المدارس الخيرية ، و هكذا دواليك .

صندوق التكافل الاجتماعى :

تؤسس وزارة التكافل الاجتماعى هذا الصندوق للدعم المالى لاقامة هذا النظام فى دولة إسلامية فى العاصمة مع فروعه فى كل منطقة ، و تقبل و تؤخذ من الاغنياء *الزكاة و الضرائب من فضول أموالهم و توزع على فقراء المسلمين .*

أما الموارد المالية لهذا الصندوق فهى كالتالى :

(١) الزكاة ، العشر .

(٢) الصدقات النافلة و الواجبة (كصدقة الفطر) .

(٣) الأوقاف .

(٤) خمس المعدن و الغنائم .

(٥) اللقطة و الهبة .

(٦) ضرائب النوائب و غيرها .

و نظراً لأهميـــة الدور الذى تؤديه الزكاة و الضرائب فى تحقيق الكفالة الاجتماعية ، نود أن نعرض بعض التفاصيل .

الزكاة :

الزكاة فريضة على كل مسلم يمتلك مالا يوافى نصاب الزكاة وهو الركن الثالث من الأركان التى أسس عليها الاسلام ، وهى الركن المالى البارز ، و أما فلسفتها فهى « كى لا تكون دولة بين الأغنياء منكم » و تؤخذ من أغنيائهم و ترد إلى فقرائهم ، و بهذا الطريق السليم يوزع الاسلام الثروة — التى هى فى الأصل ثروة الله جلت عظمته فى أيدى الأغنياء الذين هم أمناء فحسب — بين أفراد المجتمع البشرى ، وإنها ليست مجرد الاحسان المتروك لاختيار الموسرين .

و يوجب الله عز وجل على رئيس الدولة الاسلامية أو عاملها جمعها وتوزيعها حسب تعليمات إسلامية ، قال جلت قدرته : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم و تزكيهم بها » (١) ، و يؤيده قول الرسول العظيم ﷺ لمعاذ بن جبل رضى الله عنه حين بعثه إلى اليمن : فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيـــائهم و ترد على فقرائهم (٢) ، و كان رسول الله ﷺ يرسل ولاته إلى البلدان ، فكانوا يأخذون الزكاة من الأغنياء لتوزيعها على مستفيديها .

و طبقها أصحاب النبى ﷺ بعد وفاته ، قاتل الخليفة الأول سيدنا أبو بكر

(١) القرآن العظيم ، سورة التوبة ، آية رقم ١٠٣ .

(٢) صحيح الامام البخارى رحمة الله عليه ، كتاب الزكاة .

الصديق رضى الله عنه أولئك الذين امتنعو عن تأدية الزكاة ، وارتضوا بالصلاة دون الزكاة فقال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، ولو منعونى عقالا أعطوه لرسول الله ﷺ لاقاتلتهم عليه (١) ، و حين عارضه عمر رضى الله عنه غضب أبو بكر رضى الله عنه وأخذ بلحية عمر رضى الله عنه و هو يقول : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجبار فى الجاهلية خوار فى الاسلام ، و قاتلهم حتى يؤدوا الزكاة . و سار سلف هذه الأمة الكريمة فى خير القرون على هذا الهدى و استقر العمل و الاجماع على ذلك .

و الزكاة على الأموال الفاضلة عن الحوائج الأصلية ، خالية من الدين ، معدة للنماء بعد مرور سنة كاملة على ملكها ، إذا بلغت النصاب ، أى الحد الأدنى للغنى فى الاسلام ، و تفصيل هذه الأموال : النقود ، و الذهب ، والفضة ، و المواشى ، و الزروع ، و الثمار ، و السلعة التجارية ، على اختلاف الفقهاء رحمهم الله .

مصارف الزكاة :

إنها تصرف إلى الاصناف الثمانية التى قد حصرت فى الآية الكريمة التالية « إنما الصدقات للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفة قلوبهم و فى الرقاب و الغارمين و فى سبيل الله و ابن السبيل ، فريضة من الله و الله عليم حكيم (٢)

تعرض هذه الآية المصارف الآتية :

١- الفقراء الذين لا يملكون شيئاً .

٢- المساكين الذين لا تكفيهم ممتلكاتهم .

(١) صحيح البخارى .

(٢) سورة التوبة ، الآية رقم ٦٠ .

٣— العاملون عليها و لو كانوا أغنياء .

٤— المؤلفة قلوبهم على اختلاف الفقهاء رحمهم الله .

٥— فى الرقاب أى العبيد

٦— الغارمون الذين فدحهم الدين للناس .

٧— فى سبيل الله على اختلاف الفقهاء رحمهم الله .

٨— ابن السبيل : المسافر الذى قد انقطع عن وطنه و ليس لديه المال الذى يعينه على وصوله إلى بلده .

وبفضل هذه المصارف الثمانية ، الزكاة تمحو الفقر والحرمان و تؤسس العدالة الاجتماعية فى المجتمع الاسلامى لأنها تقلل من التفاوت الطبقى و تصون الأمن العام فى الدولة ، و للزكاة آثار بارزة فى المجال الاقتصادى و الاجتماعى التى نبحث عنها فى بحث مستقل إن شاء الله عز و جل .

الضرائب :

هى الضرائب الطارئة التى تضربها الدولة الاسلامية لاقامة التكافل الاجتماعى فى حدودها ، و الاسلام يمنح الدولة الاسلامية حقاً لفرضها ، وفقهاء الاسلام رحمهم الله يعولون فى مواقفهم على هذه الضرائب على الآيات القرآنية و الأحاديث التالية .

« وآت ذا القربى حقه و المسكين و ابن السبيل » (١) .

« و بالوالدين إحسانا و بذى القربى و اليتامى و المساكين والجار ذى القربى و الجار الجنب والصاحب بالجنب و ابن السبيل و ما ملكت أيمانكم (٢) » .

(١) سورة الاسراء ، الآية رقم ٢٦ .

(٢) سورة النساء الآية رقم ٣٦ .

« و يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو » (١) .

عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، فى مالك حق سوى الزكاة (٢) ، و قال ابن حزم رحمه الله « و فرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يهتموا بفقرائهم و يجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكاة بهم » (٣) وهذه غاية الضرائب أى ضريبتهـــا إن لم تقم الزكاة بتحقيق التكافل الاجتماعى فى الدولة الاسلامية ، حتى يرتفع مستوى أهلها مادياً تمنع عنهم الفقر و التسول و الحاجة ، و هـذا هو المخطط التمهيدى لنظام التكافل الاجتماعى الذى أردنا أن نبحث عنـــه فى هذا الموجز المرتجل ، و نقول بكل وثوقنا و يقيننا إن نظام التكافل الاجتماعى الذى يقدمه الاسلام هو الأكمل و الأمثل و الأعظم و هو منارة النور و طريق الكرامة و الفلاح للعالم أجمع ، و إنه صالح لكل زمان و مكان و بين كل أمة من الأمم على وجه الأرض لا مثيل له بين الوضعيين و يبقى مثالا فريداً فى هذه البسيطة ، وهنا يجد الاشتراكيون ضالتهم والرأسماليون رفاهيتهم المفقودة إن شاء الله .

و الله من وراء القصد و هو يهدى إلى سواء السبيل .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٩ .

(٢) رواه البخارى رحمه الله ، ج٧ ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(٣) نقله ابن حزم رحمة الله عليه ، المحلى ج٦ ، ص ١٥٨ ، ١٥٩

آراء الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى
فى
تاريخ التشريع الاسلامى

ـ ١٤ ـ

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

لقد كان القرن الثالث الهجرى — بالجملة — قرن الانتماءات العلمية إلى الأئمة ، و قد دونت فيه أهم كتب المذاهب الأربعة ، وقام أصحابها بمجهودات علمية كبيرة . فألف الامام محمد بن الحسن الشيبانى (١٨٩) المبسوط ، و الجامع الصغير ، و الجامع الكبير ، والسير الصغير ، و السير الكبير ، والزيادات ، وهى التى تسمى كتب ظاهر الرواية ، و أصبحت هى المعول عليها فى المذهب الحنفى ، ولا شك أن تدوين المذهب بهذه الصورة الجامعة ، مع جلالة المؤلف و ثقته و سعة علمه ، و مكانته الاجتهادية و انتمائه — رغم مخالفاته الكثيرة و اختياراته التى تبلغ ثلثى المذهب كما صرح به الامام الغزالى (١) ـ يدعو أتباع صاحب المذهب ، والمتأثرين به ، و السائرين على نهجه ، إلى العناية بهذه الكتب و الأخذ بها ، مع نزوعهم إلى ترجيح أقوال الامام على أقوال صاحبه و تلميذه ، لا لأجل دليل على يرجح شيئاً على شئ ، إنما هى طبيعة الموازنة العفوية ، التى لا تؤخر النظر فى الدليل عن النظار فى مكانة القائل و جلالته ، و سبقه و إمامته .

(١) المنخول للامام الغزالى . و انظر مقدمة شرح الوقاية ـ ص ٨ مطبعه انوار محمدى — و مقدمة الجامع الصغير مطبعة دبدبة أحمدى ، للعلامة عبد الحى اللكنوى .

و نجد بعد ذلك كتباً أخرى تنسب إلى الامام محمد و لكنها ليست فى قوة الاستناد كتلك التى سبقت ، وهى التى تعرف ، بالرقيات ، والهارونيات ، والكيسانيات ، و الجرجانيات ، كما أن هناك كتباً لتلامـــذة آخرين من تلاميذ الامام أبى حنيفة ، و يوجد فيها الخلاف مع أستاذهم أيضاً كثيراً .

ويأتى بعد ذلك دور كتب النوادر كنوادر ابن سماعة (١٣٠ ـ ٢٣٣) ونوادر هشام (م٢٠١) و نوادر ابن رستم (م٢١١) وهؤلاء من تلامذة الامام محمد ، و كتبهم لا تعد من ظاهر الرواية ، ثم تأتى مرحلة كتب الشروح ، فيقوم تلاميذ الامام محمد و تلاميذ تلاميذه بشرح كتبه ، و تظهر كتب الفتاوى و الواقعات ، و هى المسائل التى استنبطها المتأخرون من أصحاب محمد و أصحـــاب أصحاب محمد فمن بعدهم فى الوقائع التى لم توجد فيها رواية عن الأئمة الثلاثة ، وقد كان هذا الاستنباط بناءاً على الأصول الممهدة و تخريجاً على الفروع فى المذهب ، وأول كتاب جمع فى ذلك فيما يعلم هو « النوازل » للفقيه أبى الليث نصر بن محمد بن ابراهيم السمرقندى (م ٣٧٣) الذى جمع فتاوى المتأخرين المجتهدين من مشايخه و شيوخ مشايخه كمحمد بن مقـاتل الرازى (... ؟) ومحمد بن سلمة (١٩٢ ـ ٢٧٨) و نصير بن يحيى (م٢٦٨) و ذكر فيهـا اختياراته أيضاً ، و تسلسلت كتب الفتاوى ، و ادمجت هذه الكتب المذكورة فيها ، ولم يزل العلماء يستنبطون لكل عصر حلول ما يجد من قضايا وبحوث ، و لكنهم فى استنبـــاطهم لا يخرجون عن أصول الامام ، و يبنون على فروعـــه و مسائله ، و يخرجون على تخريجات المتقدمين منهم ، وكل ذلك واضح لمن يراجع الكتب الفقهية و يدرسها دراسة تاريخية مع ملاحظة التطورات التى طرأت عليها .

و معلوم أن من طبيعة العكوف على كتب إمام من الأئمة أو مجتهد من المجتهدين ، و البناء عليهـــا . التأثر به نفسياً و فكرياً . و تقبل نظراته و أفكاره ،

و تأويل ما قد يوجد من آرائه مخالفاً لظاهر الدليل ، و حمله على المحمل المستساغ ، وهذه الطبيعة فى نفسها غير ممقوتة ، ولكنها تتجه كلما بعد العهد ، و ترأس المذهب علماء لم يبلغوا منزلة الاجتهاد ، ورأوا فى أنفسهم القصور مع الاندهاش بامامة الأئمة الماضين ، و ملاحظة كثرة أدعياء العلم فى عصرهم إلى التصريحات بأنه لابد من العض على كتب المذهب أصلا وفرعاً ، و أن الخروج عنها خروج عن الدين ، و تنقل هذه التصريحات فى كتب الفتاوى ، كأنها مسائل فقهية ، ينظر فيها ويستدل عليها ، و الحقيقة أن هذه آراء شخصيـــة مؤقتة ، هى وحى بيئتهم و ظروفهم ، و أوضاع مجتمعهم ، و لعل بعض علمائنا المعاصرين عند ما يذهب إلى ذلك يعبر عن الظروف المماثلة أو أشد احتياجاً إلى مثل هذه الفتاوى .

هذا و إن تدوين أصول الفقه لكل مذهب من المذاهب ، و العض عليهـــا ، و اعتمادها أساساً ومحوراً تدور عليه المسائل ، والتقعر و التشقيق فيها ، وإحكامها ، وتوارثها ، كل ذلك جعل الشقة بين المذاهب بعيدة ، و دعا إلى التمسك بأقوال إمام المذهب و التخريج عليها فى النوازل أمراً شبه اللازم .

و قد كانت هذه الأصول مفهومة لدى الفقهاء المجتهدين الأوائل . و يقـال إن الامام أبا يوسف ألف رسالة فيهـا ، كما صرح به ابن النديم فى الفهرست ، ثم ألف الامام الشافعى « رسالته » ، و كانت هناك خلافات أصوليـــة بين الامامين ، انتقلت إلى أتباع كل منهما ، مع الشروح و الدلائل ، و إثبـات كل فريق — عن طريق الجدل والمناظرة العلمية — أن أصوله أحق بالاتباع ، وقد كان لهذه الأصول دور كبير فى توجيه العلماء إلى العكوف على أى من المذاهب ، و المناضلة دونهـا ، و التفريع عليها ، و ظهر ذلك جلياً بعـــد القرن الرابع إذ ألف أبو زيد الدبوسى (م ٤٣٠) و فخر الاسلام البزدوى (م ٤٨٢) و غيرهما رسائلهم الأصولية ،

و قد أشار الامام الدهلوى إلى ذلك و ذكر ما حدث بعد القرن الرابع ، و ما هى التطورات التى طرأت فى تاريخ التشريع الاسلامى ، و ها هى خلاصته :

« ثم بعد هذه القرون (الأربعة) كان ناس آخرون ذهبوا يميناً و شمالا و حدث فيهم أمور ، منها :

١— الجدل و الخلاف فى علم الفقه ، و قد أبان الامام الغزالى شيئاً من أسباب ذلك فقال : « و قد كان من قبلهم قد صنف ناس فى علم الكلام وأكثروا القيل والقال و الايراد و الجواب ، وتمهيد طرق الجدل . فوقع ذلك منهم بموقع ، من قبل أن كان من الصدور والملوك من مالت نفسه إلى المناظرة فى الفقه ، و بيان الأولى من مذهب الشافعى و أبى حنيفة ـ رحمهما الله ـ فترك الناس الكلام ، و فنون العلم ، و أقبلوا على المسائل الخلافية بين الشافعى و أبى حنيفة ، ـ رحمهما الله ـ على الخصوص . و تساهلوا فى الخلاف مع مالك و سفيان وأحمد بن حنبل و غيرهم ، و زعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، و تقرير علل المذاهب ، و تمهيد أصول الفتاوى ، و أكثروا فيها التصانيف و الاستنباطات ، و رتبوا فيها أنواع المجادلات و التصنيفات و هم مستمرون عليه إلى الآن » (١) .

هذا حال العلماء فى عصر ما قبل الامام الغزالى (م ٥٠٥) و استمر إلى عصره و هو آخر القرن الخامس الهجرى ، فهذا تصوير واضح للقرن الخامس مع ما قد سبق فى القرن الرابع من مثل هذه الاتجاهات .

٢— إن علماء المذاهب بدأوا يعتقدون أن ما ذكر فى كتب الأصول عندهم مما ألفه المتأخرون ، هو الذى يدور عليه الخلاف بين أبى حنيفة و الشافعى ،

(١) الانصاف ص ٨٨ ، و انظر إحياء علوم الدين للامام الغزالى ص ٢٧ ـ ٢٨ طبع المطبع المجتبائى ـ دهلى ـ الهند .

فظن الحنفية مثلا أن ما جاء فى أصول البزدوى ، هى أصول الامام أبى حنيفة مثل .

١— أن الخاص مبين و لا يلحقه البيان .

٢— و أن الزيادة نسخ .

٣— و أن العام قطعى كالخاص .

٤— و أن لا ترجيح بكثرة الرواة .

٥— و أنه لا يجب العمل بحديث غير الفقيه إذا انسد به باب الرأى .

٦— و أن لا عبرة بمفهوم الشرط و الوصف أصلا .

٧— و أن موجب الأمر هو الوجوب البتة و أمثال ذلك :

و الحقيقة أنها لا تصح بها رواية عن الامام أبى حنيفة و لا عن صاحبيه ، إنما هى أصول خرجها المتأخرون من كلامهم ، و ليست المحافظة عليها و التكلف فى جواب ما يرد عليها من صنائع المتقدمين (١) .

٣— بدأ بعض العلماء يزعمون أن جميع ما يوجد فى كتب الشروح الطويلة و كتب الفتاوى الضخمة هو قول أبى حنيفة و صاحبيه ، و لا يفرقون بين القول الأصل ، و بين الأقوال المخرجة .

٤— بدأ بعض العلماء يزعم أن بناء المذهب على تلك المحاورات الجدلية المبسوطة فى مبسوط السرخسى (م٤٨٣) و الهداية للرغينانى (م٥٩٣) و التبيين للزيلعى (م٧٤٣) ولا يعلم أن أول من أظهر ذلك المعتزلة ، ثم استطاب المتأخرون ذلك ، توسعاً و تشحيذاً لأذهان الطالبين (٢) .

٥— و يزعم بعض العلماء أن هناك فرقتين لا ثالث لهما : الظاهرية و أهل

---

(١) انظر الانصاف ص ٨٨ ـ ٩١ .

(٢) انظر الانصاف ص ٩٢ .

الرأى ، و ليس الأمر كذلك ، بل بينهما المحققون من أهل السنة كأحمد و إسحاق (١) .

٦ — و من الأسباب المهمة أنهم اطمأنوا بالتقليد ، ودب التقليد فى صدورهم دبيب النمل و هم لا يشعرون (٢) . . و كان من الدوافع إلى ذلك .

(أ) أن الفقهاء لما تزاحموا و تجادلوا ، لم ينقطع بينهم الكلام إلا بأن يرجعوا إلى تصريح أحد المتقدمين .

(ب) بدأ القضاة يجورون فى أحكامهم ، ولم يعتمد على آرائهم ، فكان من اللازم لأن يقبل قولهم أن يذكروا ما لا يريب فيه العامة من قول قد صرح به امام صاحب مذهب أو أصحابه و أتباعه المشهورون .

(ج) عكوف رؤوس الناس على الفقه و كتبه . وقلة معرفتهم بالأحاديث ، و قلة إلمامهم بطرق الاستنباط و التخريج ، و أخذهم من كتب الفتاوى والاكتفاء بها فحسب (٣)

٧ — و من الأسباب المساعدة على التقليد و المغالاة فيه ، إقبال أكثر العلماء على التعمقات فى كل فن ، والجمع منه لكل نقير وقطمير . الأمر الذى أدى بالفقهاء أن يكون كل تعمقهم فى الفقه ، لايعرفون من الحديث إلا قليلا . وذلك ظاهر لمن يراجع

(١) الانصاف ص ٩٣ .

(٢) و هكذا حال التقليد لا يستولى رأساً ، و لكنه ترسخ جذوره يبطء حتى تستحكم ، ويصبح أمره كأمور الدين القطعية . وإذا أردت معرفة ذلك بالمشاهدة فانظر إلى الجماعات والحركات الدينية كيف يتحول أصحابها المتأخرون إلى متحمسين متعصبين يعرفون الحق بالانتماء لا بالدليل و الفهم .

(٣) انظر الانصاف ص ٩٣ ـ ٩٤ .

الكتب الفقهية وينظر فى أحاديثها نظر المحدث ، فيجد كثيراً من الرطب واليابس .

و على كل حال فان من يدرس تاريخ التشريع الاسلامى ، أو تاريخ المذاهب الأربعة ، يجد هذه الأسباب الطبيعية والمصطنعة لنشوء التقليد ، ثم انتشاره واستحكامه ، ثم تحوله إلى قضية فقهيه يفتى فيها بوجوبه ، و تصنف طبقات الناس ، فلا يوجد فيها إلا طبقات المقلدين ، و رغم اعتراف هؤلاء المصنفين بأن التقدم والتأخر الزمنى ليس هو السبب فى انحطاط الكفاءات أو رقيها ، و قوة الاستعدادات أو ضعفها ، و لكنك عند ما تستعرض تصنيفهم للطبقات ، يبدو لك بجلاء أن المتأخرين زمناً لابد و أن يكونوا متأخرين رتبة .

و بالرغم من ادعاء بعضهم الاجتهاد ، و وصف بعض العلماء بعضهم بالاجتهاد لا تجد ذكرهم عند البحث فى الاجتهاد و التقليد و طبقات الناس حسبهما ، إلا فى جماعة المقلدين ، ومن عدهم بعض العلماء من أصحاب الاجتهاد المطلق المستقل ـ الذى قيل إنه انقطع من منتصف القرن الرابع (١) أو من رأس الأربعمائة (٢) أبو ثور البغدادى (م٢٤٠) و داؤد الظاهرى (م٢٧٠) و محمد بن اسماعيل البخارى (م٢٥٦) و ابن جرير الطبرى (م٣١٠) و غيرهم . و ممن عدوا من أصحاب الاجتهاد المطلق المنتسب ـ الذى صرح الامام النووى باستمراره إلى أن تأتى أشراط الساعة و لا يجوز انقطاعه شرعاً لأنه فرض كفاية (٣) ابن الصباغ

(١) انظر قول ابن الصلاح وابن حجر فى النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير للعلامة عبد الحى اللكنوى ص ١٤ .

(٢) انظر قول الامام النووى فى شرح المهذب ، و فى الانصاف ص ٧٤ .

(٣) انظر شرح المهذب للامام النووى وقد ألف الامام السيوطى فى ذلك رسالة أسماها « الرد على من أخلد إلى الأرض و جهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض » .

و صاحب الوقاية (١) ، و صاحب المجمع (٢) ، و شأنهم أن لا ينقلوا فى كتبهم الأقوال المردودة و الروايات الضعيفة ، و هذه الطبقة أدنى طبقات المتفقهين .

٦ — و أما الذين هو دون ذلك ، فانهم كانوا ناقصين عامين يلزمهم تقليد علماء عصرهم لا يحل لهم أن يفتوا إلا بطريق الحكاية .

عند ما تنظر فى هذا التقسيم نجده قد رتبت مراتب العلماء فيه ـ إلى حد كبير ـ على الترتيب الزمنى . وكأنه لم يبق بعد عصر أصحاب المتون إلا الناقصون العاميون . كما أن هذا التقسيم قد تعقبه كثير من العلماء فعد الامامين أبى يوسف و محمد من المجتهدين فى المذهب ، و هما قد خالفا إمامهما فى الأصول و الفروع . و بلغت مخالفتهما ثلثى المذهب ، وليسا هما إلا تلامذة لأبى حنيفة لا غير ، و ليس اجتهادهما أو اتباعهما للامام مقيداً به مثلما هو عند المتأخرين ، كذلك ما قيل فى الخصاف ، و الطحاوى ، و الكرخى ، و الرازى ، لا يصح . كذلك عد القدورى و المرغينانى فى الطبقة الرابعة ليس مما يصح ، فالقدورى أجل من قاضيخان والمرغينانى إن لم يكن أجل منه فليس هو دونه (٣) .

لقد كانت القرون التى تلت القرن الرابع، قرون الانتماء التقليدى إلى الأئمة الأربعة ، و قد تمكن من نفوس الناس أن الاجتهاد قد ولى دوره ، و أنه لابد من الاعتماد على الكتب المذهبية ، و الاحالة عليها ، و قد انتصر بعض العلماء للمذاهب و حاموا عنها بحيث تعسر على من توسع فى العلم و طمحت نفسه إلى الاجتهاد أن يتظاهر به ، و إلا سيكون عرضة للناس ، و مما يدل على ذلك ، ما قاله الولى أبو زرعة ، قال :

(١) هو « وقاية الرواية فى مسائل الهداية » لبرهان الشريعة .
(٢) هو «مجمع البحرين وملتقى النهرين» فى فروع الحنفية للامام مظفر الدين أحمد ابن على الساعاتى (م ٦٩٤) .
(٣) انظر مقدمة شرح الوقاية للعلامة اللكهنوى ص ٧ ـ ٩ .

« قلت مرة لشيخنـــا الامام البلقيني : ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهـاد و قد استكمل إليه ؟ و كيف يقلد ؟ قال : و لم أذكره هو (أي شيخه البلقيني) استحياءاً منه ، لما أردت أن أرتب على ذلك ، فسكت فقلت . فما عندي أن الامتناع من ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة ، و أن من خرج عن ذلك و اجتهد لم ينله شئ من ذلك ، و حرم ولاية القضـاء و امتنع الناس من استفتائه و نسب إليه البدعة ، فتبسم و وافقني على ذلك (١) .

و ليس معنى ذلك أنهم حرصاً على الوظائف تنازلوا عن مكانتهم ، كلا إنمـا هي المصلحة الدينيـــة اضطرتهم إلى ذلك ، حتى لا ينسبوا إلى البدع ، و يكلموهم على قدر عقولهم .

و بالرغم مما كان في هذه القرون التالية للقرن الرابع ، من مذهبية ، واستبعاد للخروج عنها ، فقد ظهرت في فترات من التاريخ شخصيات نابغة في كل من المذاهب الأربعة فكت هذه الأغلال ، و أعادت حرية التفقه و الاستنبـاط ، مع الانتساب إلى أحد الأئمه أو إلى اثنين منهم أو إلى الأربعة كلهم ، أو بدون الانتساب ، وقد كان رائد هذه الشخصيات في القرون الأخيرة الامام الدهلوي نفسه الذي أراد الجمع بين المذاهب الأربعـــة و وضع لذلك أسساً و ضوابط ، و بحث في تاريخ الفقـــه الاسلامي ، و استعرض تطوراته ، و أدلى بآرائه الفذة في الموضوع ، كما بحث في حقيقة الاجتهاد و التقليد الذي سيكون موضوعي - إن شاء الله - بعد هذه الحلقة الأخيرة من آرائه في تاريخ التشريع الاسلامي ، و كان لكتاباته و لجهوده العلمية والفكرية تأثير عالمي ، لاسيما في الهند التي تنتمي إليه المدارس الفقهية كلها . ولاتزال مدرسته الفقهية و الفكرية بحاجة إلى التعريف في العالم العربي ، فانه أحوج ما يكون اليوم إلى منهجه المعتدل الرصين ، و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب ، و صلى الله وسلم على محمد و آله و صحبه أجمعين .

---

(١) انظر الانصاف ص ٧٣ .

المستشرقون و السنة النبوية

ـ الحلقة الأولى ـ　　　　　محمد صدر الحسن الندوى

أثيرت الشبهات حول السنة و قالوا إنها لم تكتب فى عهد النبى ﷺ بل بدأت
ابتها بعد القرن الأول من الهجرة بل بعد القرن الثانى من الهجرة ، لأن
، ﷺ منع الصحابة عن كتابة الحديث ، و استدلوا بالأحاديث التى وردت
كتب الحديث (١)

و هذه أيضاً حقيقة لا تنسى بأن معظم الصحابة رضى الله عنهم كانوا
رجون فى كتابة الأحاديث للنبى ﷺ ، و كان بعضهم يمنع الذين كانوا يسجلون
اديث الرسول ﷺ ، فلابد لنا أن نقف وقفة فى هذه القضية ، و نتأمل لماذا
الصحابة رضى الله عنهم يتحرجون فى كتابتها ، و ما هو السبب الذى دعاهم
عدم كتابة الأحاديث ، و ما هى الظروف و الملابسات التى ألجأتهم إلى عدم
يد المصدر الثانى للشريعة الاسلامية ، الذى هو حاجة كل مسلم فى كل عصر

) عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : لا تكتبوا عنى و من
كتب عنى غير القرآن فليمحه ، وحدثوا عنى ولا حرج ، و من كذب على
متعمداً فليتبوأ مقعده من النار (رواه مسلم فى صحيحه) وعن أبى سعيد الخدرى
أن النبى ﷺ قال : لا تكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن فمن كتب عنى شيئاً
غير القرآن فليمحه (سنن الدارمى ص ٩٨) و عن أبى سعيد الخدرى
أنهم استأذنوا النبى ﷺ فى أن يكتبوا عنه فلم يأذن لهم (سنن الدارمى ص٩٨)

و مصر ، و لا يمكن بدونه العثور الكامل على محتويات المصدر الأول .

نجد هنا ثلاثة أمور دعت الصحابة إلى أن لا يقيدوا الأحاديث بالكتابة .

١- أولها أن رسول ﷺ نهاهم فى بداية الأمر عن أن يكتبوا عنه غير القرآن ، لكى لا يلتبس القرآن بغيره ، فلما حفظ القرآن فصار معروفاً ، و لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، أذن للصحابة بأن يكتبوا مايسمعون منه ، ومع ذلك بقى الصحابة يحتاطون فى ذلك احتياطاً شديداً ، و كان معظمهم يتحرجون فى كتابة الحديث .

٢- ثانيها أن الصحابة كانوا يخشون أن يعتمد الناس فى الحديث على الكتابة فيقصرون فى حفظها و تدبرها ، مرتكنين على أنها مكتوبة عندهم و يمكن الرجوع إليها عند الحاجة .. وكذلك كان الصحابة يخشون أن يدعى كل من تكون الأحاديث المكتوبة فى متناول يده بأنه عالم .

٣- و ثالثها أن العرب كانوا يعدون الاعتماد على الكتابة اعترافاً بنقص مواهبهم وضعف حفظهم ، وفى ذلك غض من شرفهم ، فكانوا يعتمدون على حفظهم و إذا كتبوا شيئاً مما يحفظون كتموا أمره . (١)

فلما زالت خشية التباس القرآن بغيره أذن رسول الله ﷺ بكتابة الحديث ، وكتب الصحابة أحاديث رسول الله ﷺ فى عصره ، وجرت هذه الكتابة فى عهد الصحابة و عهد التابعين حتى دونت الأحاديث بصورة رسمية .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شئ أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتنى قريش عن ذلك و قالوا تكتب و رسول ﷺ يقول فى الغضب و الرضا ! فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ . فقال :

(١) الرسالة المحمدية ص ٧٦ - ٧٧ - للعلامة السيد سليمان الندوى .

اكتب ، فوالذى نفسى بيده ماخرج منه إلا حق ، و أومأ بأصبعه إلى فيه حين قال ذلك . (١)

قال رسول الله ﷺ : إن الله حبس عن مكة القتل أو الفيل ـ شك أبو عبد الله ـ وسلط عليهم رسول الله ﷺ و المؤمنين ، ألا و إنها لم تحل لأحد قبلى ولا تحل لأحد بعدى ، ألا و إنها حلت لى ساعة من نهار ، ألا و إنها ساعتى هذه حرام ، لا يختلى شوكها ولا يعضد شجرها ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد ، فمن قتل فهو بخير النظارين ، إما أن يعقل و إما أن يقاد أهل القتيل ، فجاء رجل من أهل اليمن ، قال : اكتب لى يا رسول الله فقال : اكتبوا لأبى فلان . (٢)

ويقول أبوهريرة رضى الله عنه : ما من أصحاب النبى ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو ، فانه كان يكتب و لا أكتب (٣) .

و كان لعبد الله عمرو بن العاص مجموعة تسمى « الصادقة » و أثر عنه أنه كان يقول : ما يرغبنى فى الحياة إلا خصلتان « الصادقة » و « الوهط » أما الصادقة فصحيفة كتبتها عن رسول الله ﷺ ، أما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم بها . (٤)

عن أبى جحيفة قال قلت لعلى : هل عندكم كتاب؟ قال : لا إلا كتاب الله أوفهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة ، قال : قلت و ما فى هذه الصحيفة ،

(١) سنن أبى داؤد ج ٢ ص ٢٢ .

(٢) صحيح البخارى باب كتابة العلم .

(٣) صحيح البخارى باب كتابة العلم .

(٤) جامع بيان العلم لابن عبد البر ج ١ ص ٧٢ .

قال : العقل ، و فكاك الأسير ولا يقتل مسلم بكافر . (١)

كتب رسول ﷺ لأمير السرية كتابا وقال : لا تقرأه حتى تبلغ مكان كذا و كذا فلما بلغ ذلك المكان قرأه على الناس و أخبرهم بأمر النبى ﷺ . (٢)

ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع إلى بلاده حضرموت ناوله رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة و الصوم و الربا و الخمر و ما إلى ذلك . (٣)

عن عبد الملك بن عبد الله بن أبى سفيان عن عمه عمر بن أبى سفيان ،أنه سمع عمر بن الخطاب يقول : قيدوا العلم بالكتاب . (٤)

عن المبارك بن سعيد قال : كان سفيان يكتب الحديث بالليل فى الحائط فاذا أصبح نسخه كله (٥)

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن حزم : انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، فاكتبه فانى خفت دروس العلم و ذهاب العلماء ، ولا تقبل إلا حديث النبى ﷺ و ليفشوا العلم ، وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلم فان العلم لا يهلك حتى يكون سراً . (٦)

عن عبد الله بن دينار قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم أن اكتب إلى بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ

(١) صحيح البخارى باب كتابة العلم .

(٢) صحيح البخارى باب ما يذكر فى المناولة .

(٣) الطبرانى فى الصغير ص ٢٤٢ .

(٤) سنن الدارمى ج ١ ص ١٠٥ .

(٥) نفس المصدر ص ١٠٦ .

(٦) صحيح البخارى باب كيف يقبض العلم .

و بحديث عمر فانى خشيت دروس العلم و ذهابه . (١)

عن سليمان بن موسى : أنه رأى نافعاً مولى ابن عمر يملى علمه و يكتب بين يديه(٢)

ثبت بالتفاصيل المذكورة أنه لم يخل أى عصر من عصر النبى ﷺ و عصر الصحابة من كتابة الأحاديث ، فقد سجل الحديث فى حياة النبى ﷺ بأمر منه وفى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وكانت هناك صحائف عند الصحابة رضى الله عنهم ، مع ذلك شاع فى الناس أن الحديث لم يسجل و لم يدون رأساً فى عصر النبى ﷺ وفى عصر الصحابة ، إن دل هذا فقد يدل على غض البصر عن تلك المحاولات التى بذلها الصحابة و التابعون فى تدوين الحديث ، متجاهلا عنها أو تعاملا عليها أوعدم تضلعهم من تاريخ تدوين الحديث ، أو تساورهم الشكوك و الشبهات فى عـــدد الأحاديث الضخم الهائل الذى يروى جمعه فى تلك الجاميع الصغيرة .

إن المجموع الكبير الأكبر من الأحاديث سبق تدوينه و تسجيله ـ من غير نظام و ترتيب - فى عصر الرسول ﷺ و فى عصر الصحابة رضى الله عنهم ، وقد شاع فى الناس ـ حتى المثقفين و المؤلفين ـ أن الحديث لم يكتب و لم يسجل إلا فى القرن الثالث الهجرى ، و أحسنهم حالا من يرى أنه قد كتب و دون فى القرن الثانى ، ومانشأ ذلك الغلط إلا عن طريقين : الأولى أن عامة المؤرخين يقتصرون على ذكر مدونى الحديث فى القرن الثانى ، ولا يعنون بذكر الصحف و الجاميع التى كتبت فى القرن الأول ، لأن عامتها فقدت و ضاعت ، مع أنها اندمجت و ذابت فى المؤلفات المتأخرة ، الثانية أن المحدثين يذكرون عدد الأحاديث الضخم الهائل الذى لا يتصور أن يكون قد جاء فى هذه الجاميع الصغيرة التى كتبت

(١) سنن الدارمى ج ١ ص ١٠٤.

(٢) نفس المصدر ص ١٠٦ .

فى القرن الأول مع أن الأحاديث غير المتكررة المتجردة من المتابعات و الشواهد لا يزال قليلا (١)

و قد نبه على ذلك العلامة مناظر أحسن الكيلانى رئيس القسم الدينى سابقاً فى الجامعة العثمانية بحيدر آباد فى كتابه العظيم « تدوين الحديث » .

« و قد يتعجب الانسان من ضخامة عدد الأحاديث المروية ، فيقال إن أحمد ابن حنبل كان يحفظ أكثر من سبعمائة ألف حديث ، وكذلك يقال عن أبى زرعة ، و يروى عن الامام البخارى أنه كان يحفظ مائتى ألف من الأحاديث الضعيفة ، ومائة ألف من الأحاديث الصحيحة ، و يروى عن مسلم أنه قال : جمعت كتابى من ثلاثمائة ألف حديث .

ولا يعرف كثير من المتعلمين - فضلا عن العامة - أن الذى يكون هذا العدد الضخم هو كثرة المتابعات و الشواهد التى عنى بها المحدثون ، فحديث « إنما الأعمال بالنيات » مثلا يروى من سبعمائة طريق ، فلو جردنا مجاميع الحديث من هذه المتابعات و الشواهد ، لبقى عدد قليل من الأحاديث ، فالجامع الصحيح للبخارى لا يزيد الأحاديث التى رويت بالسند الصحيح فيه على ألفين و ستمائة و حديثين ، وأحاديث مسلم يبلغ عددها إلى أربعة آلاف حديث ، وهكذا يبلغ عدد الأحاديث المروية فى الصحاح الستة و مسند أحمد و كتب أخرى خمسين ألف حديث ، منها الصحيح و منها السقيم ، و منها المتفق عليه و منها المتكلم فيه ، وقد صرح الحاكم أبو عبد الله - الذى يعد من المتساهلين المتوسعين - أن الأحاديث التى فى الدرجة الأولى .

---

(١) رجال الفكر و الدعوة فى الاسلام ص ١٠٠ الطبعة الرابعة للاستاذ أبى الحسن على الحسنى الندوى .

لا تبلغ عشرة آلاف .

ومعظم هذه الثروة الحديثية قد كتب و دون بأقلام رواة فى العصر الأول ، و قد يزيد ما حفظ فى الكتب و الدفاتر كتابة و تحريراً فى العصر النبوى و فى عصر الصحابة رضى الله عنهم على عشرة آلاف حديث ، إذا جمعت صحف ومجاميع أبى هريرة ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وأنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وعلى ، وابن عباس رضى الله عنهم فيمكن أن يقال إن ما ثبت من الأحاديث الصحاح و احتوت عليه مجاميعها ومسانيدها قد كتب و دون فى عصر النبوة وعصر الصحابة قبل أن يدون الموطأ و الصحاح بكثير (١) .

لكن الذى لا مراء فيه أن كتابة الأحاديث لم تكن سائدة فى عصر النبى ﷺ و عصر الصحابة رضى الله عنهم مع أنهم كانوا مأذونين فى كتابة الأحاديث ، و ما كان هناك أى حظر فى كتابة الأحاديث من قبل النبى ﷺ ، بل أذن رسول الله ﷺ فى كتابة الأحاديث .

يقول الدكتور كارل بروكلمن (Dr. Carl Brockelmann) و هو يدحض آراء الذين يرون أنه كان هناك مانع دينى فى كتابة الحديث فى عصر النبى ﷺ و هو يبحث عن تدوين الأحاديث .

« و على الرغم من أنه لم يكن هناك من الموانع الدينية فى القرنين الأول والثانى ما يمنع المسلمين من تدوين الأحاديث ، كما كان مظنونا من قبل ، فان الأسلوب السائد فى الرواية كان هو طريق التلقى شفاهاً عن رجال الحديث ، ولم يبطل اتباع هذا الأسلوب من الرواية الشفوية ، حتى بعد أن نشأ أدب كتابى غزير المادة والحديث (٢) .

(١) تدوين الحديث ص ١٠١-١٠٢ (نقلا عن رجال الفكر و الدعوة) .

(٢) تاريخ الأدب العربى كارل بروكلمان ج ٣ ص ١٥٢ الطبعة الثانية دار المعارف مصر .

وصلنا إلى أنه لم يخل أى عصر من العصور إلا و دونت فيه أحاديث النبى ﷺ لكن الذى دون الحديث لأول مرة بصورة رسمية هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهرى (٥٠-١٢٤ هـ) بأمر عمر بن عبد العزيز، وابن شهاب الزهرى هو المدنى و أحد الأئمة الأعلام و عالم أهل الحجاز و الشام من طبقة صغار الصحابة و كبار التابعين .

ثم شاع التدوين فى الطبقة التى تلى الزهرى ، و كان أول من جمعه بمكة ابن جريج (١٥٠هـ) وابن إسحاق (١٥١هـ) وبالمدينة سعيد بن أبى عروبة (١٥٦هـ) و الربيع بن صبيح (١٦٠هـ) و الامام مالك (١٧٩هـ) و بالبصرة حماد بن سلمة (١٧٦هـ) و بالكوفة سفيان الثورى (١٦١هـ) و بالشام أبو عمرو الأوزاعى (١٥٦هـ) و بواسط هيثم (١٨٨هـ) و بخراسان عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) و باليمن معمر (١٥٣هـ) و بالرى جرير بن عبد الحميد (١٨٨هـ) و كذلك فعل سفيان بن عيينة (١٩٨هـ) و الليث بن سعد (١٧٥هـ) وشعبة بن الحجاج (١٦٠هـ) و كان هؤلاء فى عصر واحد ، و لا يدرى أيهم سبق (١) .

و بعد ذلك صنف عبيد الله بن موسى العبسى الكوفى مسنداً ، و صنف مسدد البصرى مسنداً ، و صنف أسد بن موسى مسنداً ، و صنف نعيم بن حماد الخزاعى مسنداً ، ثم اقتفى الحفاظ آثارهم فصنف الامام أحمد مسنداً ، و كذلك إسحاق بن راهويه و عثمان بن أبى شيبة .

و بعد ذلك جاء العصر الذهبى للسنة النبوية على صاحبها ألف ألف تحيـــة

(١) توجيه النظر إلى أصول الأثر ص ٧ ـ ٨ للعلامه طاهر الجزائرى الدمشقى المكتبة العلمية بالمدينة المنورة .

و سلام ، يقول الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه القيم « السنة و مكانتها فى التشريع الاسلامى » :

« هذه هو درة السنة فى عصره محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦هـ) نحى فى التأليف منحى جديداً ، و هو الاقتصار على الحديث الصحيح فقط ، فألف كتابه الجامع الصحيح المشهور وتبعه فى طريقته معاصروه وتلميذه الامام مسلم بن الحجاج القشيرى (١٦١هـ) فألف صحيحه المشهور وكان لهما فضل تمهيد الطرق أمام طالب الحديث ليصل إلى الصحيح من غير بحث و سؤال ، و تبعهما فى ذلك كثيرون ، فألفت بعدهما كتب كثيرة من أهمها سنن أبى داؤد (٢٧٥هـ) و النسائى (٣٠٣هـ) و جامع الترمذى (٢٧٩هـ) و سنن ابن ماجه ، و قد جمع هؤلاء الأئمة فى مصنفاتهم كل مصنفات الأئمة السابقين ، إذ كانوا يروونها عنهم كما هى عادة المحدثين .

ثم جاء القرن الرابع فلم يزد رجاله على رجال القرن الثالث شيئاً جديداً إلا قليلا مما استدركوه عليهم ، وكل صنيعهم جمع ما جمعه من سبقهم ، والاعتماد على نقدهم والاكثار من طرق الحديث ، ومن أشهر الأئمة فى هذا العصر الامام سليمان بن أحمد الطبرانى (٣٦٠هـ) ألف معاجمه الثلاثة : الكبير ، و رتب فيه الصحابة على الحروف وهو مشتمل على خمسمائة و خمسة وعشرين ألف حديث و الأوسط و الأصغر ، رتب فيهما شيوخه على الحروف أيضاً ، و منهم الدارقطنى (٣٨٥هـ) ألف سننه المشهورة وابن حبان البستى (٣٥٤هـ) وابن خزيمة (٣١١هـ) والطحاوى (٣٢١هـ) .

و بهذا تم تدوين الحديث و جمعه و تمييز صحيحه من غيره ، و لم يكن لعلماء القرون التالية إلا بعض الاستدراكات على كتب الصحاح كمستدرك أبى عبد الله الحاكم النيسابورى الذى استدرك فيه على البخارى و مسلم أحاديث يرى أنها من الصحاح متفقة مع شرطيهما مع أنهما لم يخرجاها فى صحيحيهما ، وقد سلم العلماء قسما منها

و خالفوه فى قسم آخر (١) .

و لم يكتف علماء الحديث بتدوين الأحاديث فقط بل وضعوا مصطلحات الحديث و وضعوا قواعد للجرح و التعديل ، و دونت كتب مستقلة فى هذه الفنون ، جاءت فيها ملامح شخصيات الرواة من ولادتهم إلى أن وافتهم المنية ولم يتركوا شيئاً منها ، و على هذا الأساس حكموا على أى راو بالجرح و التعديل ، و اشتهر هذا الفن بفن « أسماء الرجال » .

و قد نوه بهذا الفن المستشرق الألمانى « ألف سبرنجر » (A . Sprenger) وقال فى مقدمته بالانجليزية على كتاب الاصابة المطبوع فى كلكته سنة ١٨٥٣-١٨٦٤م

« لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفه . كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة ، أتت فى علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون فى هـــذا العلم العظيم الخطير الذى يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل و شئونهم (٢) .

و يقول المستشرق الفرنسى « موريس بوكائى » و هو ينوه هذا الفن و يشير إلى تلك الدقة التى تحراها المحدثون فى مدوناتهم :

« كان همهم الأول فى عملهم العسير فى مدوناتهم منصباً أولا على دقة الضبط لهذه المعلومات الخاصـــة بكل حادثة فى حياة محمد ﷺ و بكل قول من أقواله ، و للتدليل على ذلك الاهتمام بالدقة و الضبط لمجموعات الأحاديث المعتمـدة ، فانهم قد نصوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبى ﷺ وأفعاله ، وذلك بالصعود فى الاسناد إلى الأول من أسرة النبى ﷺ و من صحابته ممن قد تلقوا هذه المعلومات مباشرة

(١) السنة و مكانتها فى التشريع الاسلامى ص ١٢٤ — ١٢٥ الطبعة الأولى ١٣٨٠ — ١٩٦١ مكتبة دار العروبة القاهرة .

(٢) الرسالة المحمدية ص ٧١ .

من محمد ﷺ نفسه ، و ذلك بغية الكشف عن حال الراوى فى جمع سلسلة الرواية ، و الابتعاد عن الرواة غير المشهود لهم بحسن السيرة و صدق الرواية ، ونحو ذلك من دلائل ضعف الراوى الموجبة لعدم الاعتماد على الحديث الذى روى عن طريقه ، و هذا ما قد انفرد به علماء الاسلام فى كل ما روى عن نبيهم ﷺ » (١) .

و لذلك اضطر نابغة الشرق و المؤرخ العبقرى الشهير عبد الرحمن بن خلدون أن يقول فى مقدمته بكل وضوح :

« اعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح و حسن وضعيف و معلول و غيرها ، تنزلها أئمة الحديث و جهابذته و عرفوها ، و لم يبق طريق فى تصحيح ما يصح من قبل ، و لقد كان الأئمة فى الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها و أسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده و طريقه يفطنون إلى أنه قد قلب عن وضعه (٢) .

و لم يكن اهتمامهم منطوياً على جمع الأحاديث فحسب ، بل كانوا يتحملون المشاق المضنية فى سبيلها و يتجشمون أعباء الأسفار البعيدة فى الحر و القر طمعاً فى أسناد عالية و القراءة على شيوخ كثيرة ، لأن القراءة على شيوخ كثيرة و التلق من الأساتذة الكبار فى مختلف الأقطار يزيد فى طالب رسوخاً و ثباتاً ، فكانوا يسافرون إلى أنحاء بعيدة فى بعض الأحيان لحديث واحد فقط ، و ما كان هذا إلا باعتنائهم الزائد و الحرص الشديد على صيانة الحديث و ذبه عن تحريف الغالين و تأويل الجاهلين و انتحال المبطلين .

يقول العلامة ابن خلدون و هو يبحث عن أهمية الرحلة فى طلب العلم :

(١) دراسات الكتب المقدسة فى ضوء المعارف الحديثة ص ٢٧٥ موريس بوكاى .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٠ .

« إن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارة علماً و تارة محاكات و تلقينا بالمباشرة ، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة و التلقين أشد استحكاماً و أقوى رسوخاً ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات و رسوخها ، و الاصطلاحات أيضاً فى تعليم العلوم مخاطة على المتعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين ، فلقاء أهل العلوم و تعدد المشايخ يفيده تميز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ، فيجرد العلم عنها ، و يعلم أنها أنحاء تعليم وطرق توصيل ، و تنهض قواه إلى الرسوخ و الاستحكام فى الملكات و يصحح معارفه و يميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة و التلقين و كثرتهما من المشيخة عند تعددهم و تنوعهم ، و هذا لمن يسر الله عليه طرق العلم و الهداية .

« فالرحلة لا بد منها فى طلب العلم لاكتساب الفوائد و الكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال ، و الله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » (١) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ المطبعة البهية المصرية .

التضامن الاسلامى فى العصر الحديث
ضرورته و وسائله

—(الحلقة الثانية)—

دكتورة نادية شريف العمرى

تاريخ الدعوة إلى التضامن الاسلامى :

ليست دعوة التضامن دعوة حديثة برزت فى القرنين الأخيرين وليست وليدة لأوضاع معينة ، و إنما هى دعوة عريقة قديمة ، رافقت بزوغ فجر الاسلام ، و عاشت مع المسلمين فى كل وقت تجتمع فيه كلمتهم ، و تتحد فيه قوام .

و قد ظهر هذه الدعوة حديثاً بصدق و حرارة فى بداية النهضة الاسلامية على يد السيد جمال الدين الأفغانى ـ رحمه الله ـ حينما نادى بأهمية جمع المسلمين فى هيئة واحدة تحمل اسم (الجامعة الاسلامية) ودعا إلى ضرورة إقامة حياة نيابية أساسها الشورى وعمادها كفالة حقوق الانسان، وركيزتها المساواة بين أفراد البشرية (١) .

و لكن هذه الدعوة النبيلة لم تلق مناصرة و لا عونا من المسلمين لأسباب عدة ، فى مقدمتها :

١ـ الاستعمار البغيض الذى حط ثقله وبث سمومه فى المجتمعات الاسلامية .

٢ـ نظرة العرب و المسلمين إلى الغرب نظرة إكبار و إجلال بسبب ما أحرز من تقدم صناعى و علمى .

٣ـ كثرة الثورات و الانقلابات الداخلية التى أضعفت كيان الأمة الاسلامية

---

(١) التضامن الاسلامى للأستاذ علال الفاسى ، من مجلة « التضامن » العدد ٢ السنة الأولى ذى الحجة ١٣٩٣هـ .

وعاقت دون نهضتها و دون تجمع صفها و وحدة كلمتها .

و قد اختفت دعوة الجامعة الاسلامية حينما ذهبت الخلافة الاسلامية أوقل حينما قضى عليها ، و توزعت البلاد الاسلامية إلى وحدات مستقلة ، و نشأت أوطان و حدود و ملوك و طوائف و شعوب .. و لكن تلك الأوضاع السيئة التى هزت كيان المسلمين هزاً عنيفاً لم تستطع أن تقضى قضاء مبرما على الدعوة إلى التضامن الاسلامى فى كل ظرف يظهر فيه مخلصون و مصلحون و دعاة .

أول مجتمع قام على أساس التضامن :

لقد كان أول مجتمع يرتفع بنيانه على أسس متينة من التضامن الاسلامى مجتمع المدينة المنورة ، حينما هاجر إليها رسول الله - ﷺ - مع الفئة المؤمنة التى تركت ديارها و أموالها إرضاء لله و لرسوله ، و فى المدينة آنذاك ثلاث طوائف لا تعرف الوئام ولا الانسجام ، و هى الأوس و الخزرج و اليهود . و كان أول ما فعله رسول الله ﷺ أن بذر بذور الحب فى قلوب الجماعة المؤمنة نحو الله تعالى ، ونحو المؤمنين بعضهم بعضا ، و إذا ما خالط الحب شغاف القلوب فانه يطبعها على الرقة و الليونة و الاخلاص لله تبارك و تعالى ، عند ذلك يتنازل المؤمن عن كثير من مصالحه الشخصية و أغراضه القريبة فى سبيل الغاية المثلى و الدعوة العظيمة ، و عندها تتحول الأثرة و الأنانية وحب الذات إلى الايثار و البذل و التضحية من أجل الآخرين ، و يمحى الحقد و الحسد و الضغينة ، و ينمو التسامح و التواد و التراحم و التعاطف .

و على هذا الحب أقام ﷺ دعائم الأخوة الاسلامية ، فآخى بين الأوس و الخزرج ، و بين الأنصار و المهاجرين ، حتى أصبح مجتمع المدينة المنورة متحد الأهداف و المشاعر ، يتحرك نحو اتجاه واحد ، و يحقق أعمالا متكاملة منسجمة ،

و إلى هذه الروح الطيبة و المشاعر النبيلة أشار القرآن الكريم بقوله : (إن الذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فی سبيل الله ، و الذين آووا و نصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » (١) .

و قوله : « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم و أموالهم يبتغون فضلا من الله و رضوانا ، وينصرون الله و رسوله ، أولئك هم الصادقون والذين تبوؤا الدار و الايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم و لا يجدون فی صدورهم حاجة مما أوتوا و يؤثرن على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » (٢) .

و بعد ذلك سمح رسول الله ﷺ للسلمين أن يهادنوا اليهود ، و أن يعايشوهم معايشة سلمية ، ولما تظهر عليهم بوادر عداوة للسلمين و للدعوة الاسلامية ، فعوملوا على الظاهر من أمرهم ، و كفل لهم الاسلام حرية العقيدة و العبادة على أن يخضعوا حكماً و نظاما و قانونا للشريعة الاسلامية . و من ثم وقع رسول الله ﷺ معهم معاهدة الصلح ، و يذكر ابن قيم الجوزية فی كتابه زاد المعاد نص المعاهدة و هو : « هذا كتاب من محمد النبی بين المؤمنين و المسلمين من قريش و أهل يثرب و من تبعهم فلحق بهم و جاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس ، و أن من تبعنا من يهود ، فان له النصر و الأسوة غير مظلومين و لا تتناصر عليهم ، و أن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن ، و أن يهود بنی عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم و للسلمين دينهم إلا من ظلم أو أثم .. » (٣) .

(١) سورة الأنفال : ٧٢ . (٢) الحشر : ٨-٩ .
(٣) زاد المعاد ٢ / ٨٨ .

و هكذا أقرت هذه المعاهدة التعايش السلمى مع غير المسلمين فى ظل الحكم الاسلامى ، ولم يسبق أن عرف التاريخ كفالة الحريات العقيدية و العبادية قبل أن يأتى الاسلام بتقريرها . قال الله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم و تقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين . إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين و أخرجوكم من دياركم ، و ظاهروا على إخراجكم أن تولوهم . و من يتولهم فأولئك هم الظالمون » (١) .

و قال تعالى : « و لا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، و قولوا آمنا بالذى أنزل إلينا و أنزل إليكم و إلهنا و إلهكم واحد و نحن له مسلمون » (٢) .

أسس التضامن الاسلامى

إن للتضامن الاسلامى أسسا هامة يقوم بها وينهض عليها ، أشير إليها فيما يأتى :

١ـ الأخوة الايمانية :

لم يعتبر الاسلام رابطة الجنس أو اللون أو اللغة أو الوطن سببا قويا و دعامة ثابتة و دعوة حقيقية فى تكوين الأمة ، ذلك لأن هذه العوامل التى تقوم عليها مجتمعات اليوم قاصرة عن تحقيق وحدة إنسانية عامة ، و عاجزة عن الجمع بين مختلف الأجناس و الألوان و الأوطان ، و إنها دعوة للتفريق لا للجمع ، و للاختلاف لا للائتلاف ، و لاثارة الفتن و العداوات ، و لهذا فان الاسلام سما على كل هذه الاعتبارات و ربط قيام الأمة و إنشاء الدولة بالمبادىء و القيم التى تليق بكونه دعوة للناس كافة ، و للبشرية جمعاء ، لجعل عقيدة التوحيد أنبل و أقدس و أعظم رباط يوحد بين قلوب المسلمين على اختلاف الديار و القوميات

(١) سورة الممتحنة : ٨ ـ ٩ . (٢) سورة العنكبوت : ٤٦ .

و اللغات ، و قد كانت الأخوة الايمانية أصدق تعبير عن هذه الوحدة المشتركة . قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة » (١) .

و قال الله تبارك و تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته و لا تموتن إلا و أنتم مسلمون . و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (٢) و بين سبحانه أن من أهم أواصر الأخوة الدعاء لهم بظهر الغيب ، فقال : « ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا » (٣).

وقال ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه و لا يسلمه و لا يخذله » (٤) .

إن آصرة هذه الأخوة تعلو كل آصرة وتفوق كل رابطة ، بل إن رابطة النسب تهوى منهارة لا شأن لها و لا حول و لا قوة أمام هذه الرابطة الشامخة ، قال تعالى : « لا تجد قوماً يؤمنون بالله و اليوم الآخر يوادون من حاد الله و رسوله و لو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » (٥) .

و من القواعد الفقهية المستنبطة من وحى القرآن و السنة المطهرة أن المسلم لا يرث الكافر ، و أن الكافر لا يرث المسلم ، و لو كان أباه أو أخاه أو ابنه ، فهل بعد الأخوة الايمانية من صلة أو قرابة ؟ إن الأخوة الايمانية رابطة قوية جديرة أن توحد بين النفوس و أن تؤلف بين القلوب ، و كانت هذه الرابطة الجامع الوحيد الذى يجمع أبناء المسلمين فى عهد النبوة الخالد ، وكان المجتمع آنذاك

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .
(٢) سورة آل عمران : ١٠٢ - ١٠٣ .
(٣) سورة الحشر : ١٠ .
(٤) رواه مسلم .
(٥) سورة المجادلة الآية : ٢٢ .

يشعر بحرارة هذه الرابطة و بقوتها و أثرها على النفس الانسانية و على المجتمع ، فكان المجتمع كله رجاله و نساؤه و شبابه و شيوخه جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى و السهر .

٢- التكافل الاجتماعي :

التكافل الاجتماعي أساس قوى من أسس بقاء الأمة كريمة عزيزة، وهو قانون هام يدل على رقى التجمع الانسانى وسمو غاياته ، و رفعة أهدافه ، ونبل مقاصده .

و للتكافل جانبان : جانب مادى و آخر معنوى .

أما الجانب المادى فيتمثل بالمعونة المالية التى تقدم إلى الفقراء و ذوى الحاجة و الغارمين ، كما تتمثل باغاثة الملهوف و تفريج كربة المكروب ، و إطعام الجائع ، و العطف على البائس ، و إقالة ذوى العثرات ، و إعانة صاحب العيال ، وجعل الانفاق على الفقراء و المساكين فريضة مقارنة للصلاة ، و ركنا من أركان الاسلام وحقا للفقير فى مال الغنى ، كما حض على بذل الزيادة عن الزكاة و سماها الصدقة ، و هو فضلا عن هذا و ذاك حث على السخاء و الجود و إقراء الضيف و بذل الفضل لذى الحاجة ، و إكرام القريب و الجار ذى القربى و الجار البعيد ، و أن يعود من له فضل من الملبس و المأكل و المركب على من لا فضل عنده .

و قد أطلق القرآن الكريم على الانفاق فى وجوه البر أسماء متعددة : « الزكاة ، الانفاق ، الصدقة ، الاحسان ، الحق ، فى سبيل الله » وجعل من أجل ثمار الانفاق توطيد أواصر المحبة بين الغنى و الفقير ، و إشاعة الأمن فى المجتمع ، فالغنى آمن على ما له ، و الفقير لا يعدم قوته وقوت عياله ، و من ثمار الانفاق أيضاً أن الفقير يتطلع إلى تحسين وضعه وحاله فيسعى جاهداً فى مواطن الكسب لرفع مستواه المالى وليصبح فى مصاف الأغنياء لينعم على غيره ، ويشعر بحلاوة اليد

العليا و بلذة البذل و السخاء (١) .

الجانب المعنوى من التكافل الاجتماعى يتمثل فى تعاون المسلمين لاحقاق الحق و إقامة العدل و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، كما يتمثل بالارشاد و التوجيه وتمحيض النصح ، و المشاركة الوجدانية بين فئات المسلمين ، و باختصار فانه عبارة عن الشعور بالمسؤولية الجماعية ، و أن كل فرد يمكن أن يتحمل مع الآخرين تبعاتهم و أن يعينهم على أداء واجباتهم .

و قد جعل الاسلام هذا النوع من التكافل فريضة على كل مسلم فقال جل من قائل : « و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون » (٢) وقال سبحانه : « و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر » (٣) وقال أشرف المرسلين و أكرم الخلق ﷺ : « الدين النصيحة ، قالوا لمن يا رسول ، قال : « لله و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم » (٤) و قال عليه الصلاة و السلام : « المؤمن مرآة المومن » (٥) .

و قد كان المسلمون يتكافلون فيما بينهم ، فيعلم عالمهم جاهلهم ، و يرشد كبيرهم صغيرهم ، و يوجه ذو الخبرة قليل الدربة و الدراية ، و يجل الصغير الشيخ المسن ، وينصح المحكوم الحاكم ، والجندى القائد ، والمغمور المشهور ، والمرؤوس الرئيس .. ويتقبلها الحاكم والقائد والرئيس بنفس طيبة راضية ، لا يرى فى ذلك غضاضة أو إنقاصاً من قدره ، بل يراه نصحاً وتوجيها وإعانة على إقامة العدل و إقراراً للحق . .

و ما زال المسلمون بهذا التكافل الذى يشعر بوحدة صفهم و جمع كلمتهم ، حتى دب الخلاف فيما بينهم ، و تبدلت المفاهيم فى أذهان كثير منهم . و أقبلوا

---

(١) الاسلام عقيدة و شريعة للشيخ شلتوت ص ٤٥٦ .

(٢) سورة آل عمران : ١٠٤ . (٣) سورة التوبة : ٧١

(٤) رواه البخارى والترمذى والنسائى والدارمى . (٥) رواه أبو داؤد .

على الدنيا و متاعها ، وشغلوا عن واجبهم فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، خوفاً على مركزهم الوظيفى أو الاجتماعى ، وهكذا اتخلى كثير من المسلمين عن وجوب التعاون على إحقاق الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ونظرت كل جماعة منهم على أنها وحدة مستقلة عن الأخرى لا ينظامهم عقـــد و لا يجمعهم رابطة ، وهذه هى الآفة الكبرى فى تبعثر وحد المسلمين وتشتيت شملهم ، وتمزيق كيانهم .

و الله سبحانه وتعالى يقول فى كتابه العزيز : « فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا عن أنجينا منهم و اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه و كانوا مجرمين » (١) .

و جاء على لسان المصطفى ﷺ : لما وقعت بنو إسرائيل فى المعاصى و دخل النقص عليهم فى دينهم نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم و و اكلوهم و شاربوهم ولم يمنعهم العصيان عن مخالطتهم ، فلما فعلوا ذالك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ففرق كلمتهم وأذلهم وشتت شملهم ، ثم قرأ : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا كانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (٢) .

٣ ــ الشورى :

الشورى دليل على رقى التجمع الانسانى ، و ركيزة من ركائز الدولة الناهضة المتقدمة ، و عنوان على تماسك الأمة وتعاون أفرادها و تآزرهم للوصول إلى معرفة الطريق السوى و الرأى السديد و الفكر الناضج ، و فى الشورى تتلاقح الآراء ، و تظهر المواهب ، و تسمو الأفكار ، و لذلك فقد لفت القرآن الكريم أنظار المسلمين إلى أهمية الشورى ، ففيه سورة كاملة تعرف باسم سورة الشورى ، يقول سبحانه فيها : « و ما عند الله خير و أبقى للذين آمنوا و على ربهم يتوكلون . و الذين يجتنبون كبائر الاثم و الفواحش و إذا ما غضبوا هم يغفرون ، و الذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون » (٣) .

(١) سورة هود : ١١٦ (٢) سورة المائدة : ٧٨-٧٩ (٣) سورة الشورى : ٣٦-٣٩ .

وقد أمر سبحانه نبيه الكريم باستشارة الصحابة فقال فى محكم تنزيله : « فبما رحمة من الله لنت لهم و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم و استغفر لهم و شاورهم فى الأمر ، فاذا عزمت فتوكل على الله (١) .

و ثبت أن النبى ﷺ كان يستشير الصحابة فى سياسة الدولة الداخليـــة و الخارجية ، و فى توقيع المعاهدات مع أهل الكتاب . وفى كافة الأمور التى لم ينزل بها وحى . ومن أبرز استشارات الرسول ﷺ التى تتحدث عنها السنة النبوية ، استشارته فى شأن أسرى بدر ، فأشار عمر بن الخطاب بضرب أعناق الأسرى ، و أشار أبو بكر بالمن عليهم و أخـــذ الفداء منهم ، و كانت نفس الرسول ﷺ الرحيمة الرقيقة تميل إلى التلطف فى المعاملة حتى مع الأعداء ، فأخذ برأى أبى بكر دون رأى عمر ، فنزلت آيات شديدة العتب ، لأن الموقف يتطلب إظهار قوة المسلمين و إعزاز شوكتهم ، و إبراز منعتهم و سؤددهم ، قال سبحانه : « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا و الله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »(٢)

و الأساس الذى يقوم عليه مبدأ الشورى فى الاسلام كفـالة حرية الآراء و الأفكار ما لم تمس أصلا من أصول العقيدة أو العبادة ٣) .

و كيفيـــة انعقاد مجلس الشورى و الادلاء بالآراء من الوسائل التى تختلف باختلاف الأزمان و البيئات ، و لذا لم يحدد القرآن الكريم والسنة المطهرة نظاماً خاصاً أو هيئة معينة لها ، رحمة بالناس وتوسعة عليهم ، ليترك تحدده بما يتناسب مع الظروف و الأحوال ، و نظام الدولة و سياسية الحكم و الادارة العامة .

وللشورى أصول هامة ينبغى أن تعتمد عليها و هى كتاب الله و سنة رسوله ﷺ ، قال جل من قائل : « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم » (٤) و طاعة الله تعالى تتمثل بتطبيق أوامره و اجتنـاب

(١) آل عمران : ١٥٩ . (٢) سورة الأنفال : ٦٧ ـ ٦٨ .
(٣) الاسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص٤٦٠ (٤) سورة النساء : ٥٩ .

نواهيه ، و تحكيم كتاب الله فى أنظمة الدولة الداخلية منها و الخارجية ، و طاعة رسوله ﷺ تتمثل بتطبيق سنته المطهرة ، و أولو الأمر هم أهل النظر فيما علموا من أمور مما يدخل تحت تخصصهم و فهمهم و إدراكهم .

ويترجح العمل برأى واحد من الآراء بأحد الاعتبارات التالية :

١— قوة الدليل و البرهان .

٢— إجماع أغلبية الأعضاء على هذا الرأى .

٣— ما يتلاءم مع صالح العقيدة و الدين أو بما يحقق مصلحة الجماعة الاسلامية .

٤— العدل .

العدل شعار الأبرار ، وعنوان تقدم المجتمع ، وأساس الحكم الصالح ، و سمة الدولة الناهضة ، فى ظله يطمئن الناس على أموالهم وأعراضهم وأنفسهم ، و يسعدون بحياة تتيح الفرص لذوى المواهب والقدرات والكفاءات ، والعدل قوة يهب الأمة القدرة ، لأن تكون مهيبة الجانب عزيزة السلطان أمام الدول الصديقة و المعادية .

وقد حث القرآن الكريم على إقامة العدل فى الأمور جميعها لتبقى للأمة عزتها و منعتها ، ولتحفظ بكيانها وشخصيتها النقية التقية الطاهرة ، فأمر المسلم أن يلتزم بالعدل بقوله و فعله ، و أن يلتزم به مع قريبه و أمه و أخيه ، و مع البعيد : الصاحب أو الجار ، مع المحب و مع العدو ، مع الغنى و مع الفقير ، فى شؤونه الخاصة و العامة ، و أمر بالعدل فى العهود و المواثيق وفى أداء الأمانة والادلاء بالشهادة .

قال الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل و الاحسان » (١) .

و قال جل من قائل : « و لا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا ، هو أقرب للتقوى » (٢) .

و قال سبحانه : (فلذلك فادع و استقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب و أمرت لأعدل بينكم الله ربنا و ربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا و بينكم الله يجمع بيننا و إليه المصير » (٣) .

(١) سورة النحل الآية ٩٠ . (٢) المائدة : ٨ . (٣) سورة الشورى : ١٥ .

الإسلام والمستشرقون

البروفيسور السيد حبيب الحق الندوى
جامعـــة دربن إفريقيـــا الجنوبيـــة

إن القرآن هو القانون الأزلى الالهى و قد أنزل الله تعالى فيه أحكاماً كثيرة لهداية الأمة المسلمة . وأصيب الحكام المسلمون والمثقفون بالضرر الفادح كلما أعرضوا عن هذه الأحكام القرآنية . فقد أنزل الله تعالى فى القرآن الكريم : « و لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى و لئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ما لك من الله من ولى و لا نصير (١) و قال الله تعالى فى موضع آخر : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود و النصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » (٢) .

و تاريخ المستشرقين كله من القرن الثامن الميلادى إلى القرن العشرين الميلادى هو تعبير دقيق للآية القرآنيه السالفة . بل نقول بصراحة إن التاريخ الاسلامى الممتد على أربعة عشر قرناً هو ـ كذلك ـ التعبير الدقيق لتلك الآيات القرآنية .

كان عداء اليهود و النصارى ظاهراً ملموساً منذ بعثة النبى ﷺ إلى عصر الخلفاء الراشدين و هذا ليس بخاف على أحد من طالبى التاريخ الاسلامى ، لكنى لا أريد أن أطيل الكلام فى هذه القضية بل أريد أن أبحث عن الميول النفسيـــة و الفكرية و العلمية لليهود و المسيحيين

يرجع نسب الاستشراق الجديد إلى « جان » من أهل دمشق (١٧٠٠ ـ ١٧٤٩) الذى قام باشعال نار الحقد والعداء و الكراهية الشديدة ضد الاسلام و رسوله ﷺ لأول مرة ، إنه قام بانشاء حركة ضد الاسلام تحت خطة مدبرة ، وأثبت الاسلام

(١) البقرة : ١٢٠ (٢) المائدة : ٥١ .

ديناً وثنياً ، وعبر عن الكعبة ـ بيت الله ـ بالوثن . وجعل يهجم على شخصية النبي ﷺ ليمهد الطريق لتشويه صورة الاسلام . فأنكر نبوة محمد ﷺ أولا ، واختلق القصص الوثنية المضحكة ثانياً . و جعلها جزءاً للتاريخ الاسلامي في تاريخ الكنيسة و المصدر الحقيق لتحقيقات المستشرقين . إنه قرر النبي ﷺ ملحداً و الاسلام ديناً فاسداً . إنه اتهم النبي ﷺ بأنه قام بانشاء دين جديد مع قسيس مسيحي بتشويه الانجيل وأن محمداً يعبد في الاسلام ، كذلك أثار قصـــة زينب بنت جحش و زيد بن حارثة وقضية الطلاق و تعدد الزواج . وهذه القضايا هي من أهم موعاضوت كتابه المسمى « De Haere Sibus » .

في القرن الثامن المسيحي ألف متبعو جان كتباً ضد الاسلام على تلك الأسس التي قررها أستاذه الأول جان المسيحي . و صارت هذه الكتب مصدراً للمستشرقين من القرون الوسطى إلى النشأة الثانية و منها إلى أواخر القرن العشرين . و في تلك الاثارة العدائية الأدبية توجد رسالة ذات أهمية كبرى لعبد المسيح بن إسحاق الكندي و قد تم طبعهـــا باهتمام الباحثين الغربيين . و في سنة ١٨٨٧م قام وليم ميور بطبع الترجمة الملخصة لها تحت عنوان « The Apolosgy Of Al _ Kindi » والموضوعات الرئيسية لهذه الرسالة تشمل إنكار النبوة و الاستهزاء بالقرآن و إثارة الشكوك حول السيرة النبوية و الحروب الاسلامية .

و في نهاية القرن الثامن و بداية القرن التـــاسع كتب المستشرق تيوسوفين (٧٥٨ ـ ٨١٨ م) كتاباً يسمى «كرانكل» وجعله أساسيس جزء التـاريخ الكنيسه ، و صار هذان الكتابان مصدراً من مصادر المستشرقين ، وهذا الكتـاب هو مجموعة الخرافات المطبوعة في القرون الوسطى ، وقد بحث المؤلف في هذا الكتاب عن ثقافة النبي ﷺ وأثبت أن محمداً كان مثقفاً و دعوى الأمية عليه كذب و افتراء، وأراد المؤلف بهذا أن يثبت أن محمداً طالع كتب اليهود والمسيحيين مطالعة فاحصة والصور

المشوهة لتلك المعلومات هى الاسلام ، والاسلام فى الحقيقة صورة ثانية للدين المسيحى أو اليهودى ، وهذا هو الموضوع المحبب لدى الجامعات الأمريكية فى العصر الراهن .

و فى القرن التاسع المسيحى ألف مؤلف بيزنطى كتاباً ضد الاسلام بايعاز الملك بيسل (٨٦٧ - ٨٨٦ م) باسم Rafutatio Mohammad ، أثبت فيه المؤلف أن محمداً كان كاذباً و إبناً لابليس ، و القرآن هو مجموعة القصص الكاذبة ، و استهزأ بالعقيدة الاسلامية التى بينها القرآن فى قوله « لم يلد و لم يولد » استهزاء شديداً ، و اتهم المسلمين بأنهم بعيدون عن عبادة المعبود الحقيق ، إذ أن الاسلام يقرر بنوة عيسى بن مريم ويرد على عقيدة عيسى بن الله رداً عنيفاً ، وبق صدى تلك الروايات إلى القرن العاشر و الحادى عشر

الجماعة التى نشأت فى أسبانيا من المستشرقين كانت وليدة تلك المصادر ، كانت الثقافة الاسلامية على قدم و ساق فى أسبانيا نحو تسعة قرون ، مع ذلك لم يعر المستشرقون الأسبانيون اهتمامهم إلى دراسة الحضارة الاسلامية فى أسبانيا ، بل ما زالت المصادر البيزنطية هى المصادر الاسلامية فى دراستهم ، إنهم بنوا أساس دراستهم على قصص كرانكل و حسبك أن نقدم إليك مثالين ، قسيس قرطبة (Sfeulogius) الذى درس الحضارة الاسلامية إلى زمن طويل و صحب العلماء المسلمين الأفاضل فى هذه المدة بنى أساس كتابه (Liber Apologeticus Marlirum) على قصص كرانكل وأبدى فيه الكراهية الشديدة ضد الاسلام والمسلمين بل استخدم فيه ألفاظاً بذيئة ، كذلك ألف مؤلف أسبانى آخر كتاباً ، وهذا الكتاب صورة ثانية لرسالة الكندى ، كان قلب هذين المؤلفين يشتعل بنار الحقد والعداوة ، وكانا يعتبران الحكومة الاسلامية فى أسبانيا عذاباً إلهياً ، و لما جاء « ونست دى بيوس » جمع هذه المؤلفات كلها فى كتابه « Spcau Distoricale » و أثبت النبى ﷺ وثنياً و ادعى أن النبى ﷺ أحرز القوة بالسيف .

الكراهية الشديدة التى حاول المستشرقون بثها ضد الاسلام و المسلمين ظهرت فى صورة الحروب الصليبية و جرت زهاء خمسمائة سنة ، و كانت هذه الحروب الصليبية سيفاً معلقاً بتاراً فى أعناق الاسلام والمسلمين فى فترات مختلفة ، كانت الحرب الصليبية الدامية الأولى فى سنة ١٠٩٩ م و الثانية فى سنة ١١٤٧ م و وقعت الحرب الصليبية الثالثة المشهورة فى الفترة ما بين ١١٨٩ م - ١١٩٣م بين السلطان صلاح الدين الأيوبى و رتشارد ملك انجلترا ، وجرت الحرب الصليبية الرابعة فى الفترة ما بين ١٢٠٣ - ١٢٠٤ م و وقعت الحرب الصليبية الخامسة والسادسة فى سنة ١٢١٧ م ، و ١٢٢٨ م ، و لما فشلوا فى هذه المحاولات كلها انضموا مع المنغول فى الفترة ما بين ١٢٤٩ م و ١٢٥٠ م و كونوا قوة عسكرية فائقة ، و أسفر هذا الاتحاد العسكرى عن سقوط بغداد فى سنة ١٢٥٨ م ، و وقعت الحروب الصليبية الثامنة و التاسعة و العاشرة الأخيرة فى سنة ١٢٧١ م ، و ١٣٦٥ م و ١٤٦٤ م على الترتيب .

و لهذه الحروب الصليبية الدامية علاقات عميقة مع المستشرقين ، لأن المؤلفين الغربيين و الشعراء و المفكرين أشعلوا نار العداوة ضد الاسلام زهاء خمسمائة سنة و حثوا أبناء جلدتهم على إبادة الاسلام و المسلمين ، و بثوا فيهم روح التضحية فى سبيل إنقاذ المسيحية .

و كانت من إحدى زيجات هلاكو امرأة مسيحية ، و كانت تحث القوات و العسكريين على إبادة الاسلام و المسلمين ، و كانت موجودة مع هلاكو فى ميدان المعركة عند الهجوم على بغداد ، و الضابط المعتمد عند هلاكو كان مسيحياً نسطورياً و كان شريكاً فى حرب بغداد ، و لما سقطت بغداد ذهب ضحيتها ثمانون ألف قتيلا (١) ،

---

(١) راجع للاستزادة : فلسطين والسياسة الدولية لصاحب المقال ص ١٧٦ - ٢٨٣ .

التاريخ الممتد على خمسمائة سنة للحروب الصليبية من القرن الحادى عشر إلى القرن الخامس عشر الميلادى و ما ألف فى هذه المدة من الكتب ضد الاسلام لابد من استعراضه ـ كما أسلفنا ـ لشرح قوله تعالى : لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى .

أدى إفلاس القوة العسكرية المتحدة لأوربا فى الحروب الصليبية كلها إلى العداوة و البغضاء ضد الاسلام و نبيه ﷺ ، فجعل الشعراء و النثار يبذلون قواهم الكامنة وجهودهم المكثفة فى الرتع فى عرض الاسلام و النيل منه والحط من شأنه ، لكن الذى فاق أقرانه فى هذا الميدان هو دانتى . و بعد ذلك قامت حركات مستقلة لتشويه التاريخ الاسلامى و السيرة النبوية على صاحبها ألف ألف تحية و سلام .

و فى سنة ١١٤١م ترجمت عدة كتب عربية إلى اللغة اللاتينية بأمر المستشرق بيتر (Peter) كذلك ترجم رابرت (Robert) و هرمن (Herman) أربعة كتب عربية ، ثم ألف و التر (Walter Of Sens) فى اللغة اللاتينية والاسكنور (Abxauder Dupont) فى اللغة الفرنسية مؤلفات عديدة ضد النبى ﷺ ، ثم ألفت مجموعة الرثاء الشعرى الكائن من ١١٤٢ بيت تحت عنوان (Avila Muhamiti) و نسبت إلى الشاعر الشهير امبرى كو (Embricoof Maine) و بعضهم عزا هذه المجموعة إلى الشاعر هائلد برت (Hildebert Of Tours) ، وكانت هذه المجموعة مجموعة شعرية شاملة سيرة محمد ﷺ .

و كذلك ألف المؤلف المعروف جلبرت (Guilbert) كتاباً باسم جيستا (Giesta Dei Der Frahceo) و أتمها قبل سنة ١١١٢م . و أفرد باباً خاصاً لسيرة النبى ﷺ وهو ملئ بشطحات العصور الوسطى ، حاول فيه المؤلف أن يشوه اسم النبى ﷺ و أسماه ماتومس (Mathomus) مكان محمد ، و فيه قصة طريفة أدرجها المؤلف و هو يبحث عن نشأة الدين الاسلامى ، هو يقول : كان موعد انتخاب بيتر بارك (Patriorch) للاسكندرية (Alexandria) قريباً جداً و قد

يئس القسيس من نتيجة هـــذا الانتخـــاب ، فصمم العزم على تبييت مؤامرة ضـــد الكنيسة و اصطلح مع محمد لهذا العمل ، و ربى محمداً تربية حسنة لايقاع الخليج فى المسيحية ، وزوجه بامرأة غنية تسمى خديجة ، ثم رافقه القسيس فى هذا المضمار وأعلن نبوته - ﷺ - ليلحق المسيحية ضرراً فادحاً ، كذلك صار محمد نبي الاسلام وجعل يدعو الناس إلى دين الاسلام ، كذلك وقع الخلاف فى المسيحية و لا يزال يوجد إلى يومنا هذا .

و إليك قصة طريفة أخرى ، قالوا : إن محمداً كان قسيساً (Cardinal) وكان من أحد المرشحين لمصب البابا لكنه لما شعر بعدم نجاحه التحق بالجزيرة العربية فاراً من الروم و ادعى النبوءة هناك ، و تقول رواية أخرى : أن قسيس سرجيس (Sergius) حث محمداً على إدعاء النبوءة و ألف له كتاباً باسم القرآن .

لكننا مع ذلك نجد بعض المؤلفين فى القرن الثانى عشر الذين لم يسلكوا منهاج المؤلفين القدامى و المعـــاصرين فى تاليف الكتب ضد الاسلام و إختلاق القصص و الروايات الكاذبة ، منهم وليم (William Of Maimesbu Ry) الذى فرق بين الاسلام و الوثنية و كتب أن الاسلام يدعى وحدانية الله فلا يمكن أن يكون ديناً وثنياً ، و كتب فى سنة ١١٢٠م أن المسلمين لا يعبدون محمداً و لا يعتبرونه إلهاً ، و نجـــد فيهم مؤلفاً آخر يسمى ألفونسو (Alfonso) إنه أبدى رأياً صحيحاً فى الاسلام ، و فى سنة ١٢٧١م ألف وليم (William Of Tripoli) كتاباً حول سيرة النبي ﷺ لتستخدمـــه الارساليات لأجل التبشير ، ادعى المؤلف فى الكتاب أن القرآن جمع بعد وفاة النبي ﷺ بخمسة عشر عاماً ، و فوض أمر تدوين القرآن إلى لجنة ، لكنه لما رأى أعضاء اللجنة أن تدوين هذا الكتاب المشتمل على تعليمات النبي ﷺ لا يسمن ولا يغنى من جوع ألفوا بأنفسهم كتاباً باسم القرآن ، و ادعى

أن النبي ﷺ كسب النجاح بالسحر و الخديعة ، و انتشر الاسلام بالسيف وأن محمداً لم يكن نبياً .

الشاعر الايطالي المعروف دانتي يعتبر بمثابة جسر بين العصور الوسطى والنهضة الحديثة في أوربا ، إنه ألف كتاباً منظوماً باسم « The Divine Comedy » و استمد في تأليفه بأحاديث المعراج للنبي ﷺ ، و أثبت الأستاذ بلاسيوس (Placious) أن دانتي لم يستفد من أحاديث المعراج فحسب بل استفاد من « الفتوحات المكية » لابن عربي و « رسالة الغفران » لأبي العلا المعرى ، لكن هذا الشاعر الذي كان له باع طويل في العلوم الاسلامية سلك مسلك المستشرقين القدامى في النيل من شخصية النبي ﷺ ، و صور النبي ﷺ مصاباً بالعذاب في نار جهنم متملا بجريرة أنه شن الخلاف في الدين ، إنه تأثر بالهزيمة المنكرة في الحروب الصليبية إلى حد بحيث أفرغ قوته الشعرية في إثارة النخوة و الألفة في أوربا و هزها هزة عنيفة ، إنه صور البطل الفاتح صلاح الدين الأيوبي مصاباً بالعذاب في نار جهنم بينما صور الفرسان الصليبيين و الشهداء مستبشرين مسرورين .

بعد ذلك قامت حركة قوية في أوربا وهي الحركة الرومانية (١٧٥٠ - ١٨٣٠م) التي تحدت العادات التقليدية لأوربا وأثرت على كل ناحية من نواحي الحياة ، لكنه مع ذلك لم تتغير اتجاهاتهم إزاء الاسلام في قليل ولا كثير ، وما زالت المصادر الصليبية و البيزنطية هي المصدر الحقيق لدراسة الاسلام في عصر النهضة كله .

و لما جاء القرن السابع عشر واجه المستشرقون قضايا أخرى لم تكن من قبل ، لأن العالم الاسلامي كان يحكمه الانجليز و الفرنسيون و الهولنديون ، فشاهدوا المسلمين والحضارة الاسلامية عن كثب ، و كذلك قام المستشرقون بسياحة البلدان الاسلامية ودرسوا الاسلام و تعاليمه ، فوجدوها تختلف كل الاختلاف عما درسوها في الوثائق اللاتينية و البيزنطية .

الأدب الاســـــلامى
فى تراثنا التاريخى والجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة «العربية» (Arabia)

— الحلقة الثامنة —

الخصائص الاسلامية لأدب البلدان والرحلات فى تراثنا :

و فى مقدمة الخصائص الاسلامية لأدب البلدان و الرحلات فى تراثنا تأكيد وحدة أرض الاسلام أيا كانت تقسيماتها الطبيعية أو السياسية، والمقدسى الذى ذكر أنه أنهى كتابه (أحسن التقاسيم) عام ٣٧٥هـ ، وذكر وقت خلافتى الطائع لله العباسى والعزيز بالله الفاطمى ـ فضلا عن خلافة ثالثة أموية بالأندلس لم يذكرها ، وهو الذى أسمى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ، هو الذى يستهل كتابه (بذكر مملكة الاسلام) ويقول : « اعلم أن مملكة الاسلام حرسها الله تعالى ليست بمستوية فيمكن أن توصف بتربيع أو طول وعرض ، وإنما هى متشعبة ، يعرف ذلك من تأمل مطالع الشمس و مغاربها و دوخ البلدان و عرف المسالك . . . » وقد حدد أقصى طول لأرض الاسلام فقال : « وطول المملكة على ما قدمنا ألفان و ستمائة فرسخ كل مائة فرسخ ألف ألف ومائتا ألف ذراع ، فالفرسخ اثنا عشر ألف ذراع ، والذراع أربعة و عشرون اصبعا . . » (١) . و ذكر الاصطخرى فى تقديم كتابه « ففصلت بلاد الاسلام عشرين إقليما . . » (٢) و نظراً لتجوال المقدسى و كثرة ترحاله ذكر فى صدر كتابه ضمن ما عاين من الأسباب فى تصنيف كتابه : ولقد سميت بستة وثلاثين

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٦٢ ، ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢) الاصطخرى : المسالك و الممالك ـ تحقيق محمد جابر الحينى ـ القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م ص ١٥ .

اسماً دعيت و خوطبت بها مثل مقدسى ، و فلسطينى ، ومصرى ، و مغربى ، وخراسانى ، و سلمى . . . . » (١) . و كثيراً ما كان الرجل ينسب إلى موطنه الأصيل وداره التى يقيم فيها فى الوقت نفسه . وقد تتعدد هجراته فتتعدد نسبته إلى محال هجرته وإقامته .

وتبدو وحدة دار الاسلام جلية فى المعلومات التى تسوقها كتب البلدان والرحلات ، فالاصطخرى مثلا يقول عن مدينة طرسوس فى شمالى الشام و كانت من ثغور دولة الاسلام على الحدود بينها و بين دولة الروم البيزنطيين : « وطرسوس مدينة كبيرة عليها سوران من حجارة ، تشتمل على خيل و رجال و عدة ، و هى فى غاية العمارة و الخصب . و بينها و بين حد الروم جبال هى الحاجز بين المسلمين و الروم ، و يقال إنه كان بها زهاء مائة ألف فارس فيما يزعم أهلها ، وليس من مدينة عظيمة من حد سجستان إلى كرمان و فارس و الجبال و خوزستان و سائر العراق و الحجاز و اليمن و الشامات و مصر الا وبها لأهلها دار أو أكثر ، ينزلها أهلها إذا وردوها » (٢) و قد يحوى أن الاحتفال بالعيدين كان غاية فى الروعة فى طرسوس ، إذ يشترك فيه أولئك المجاهدون الوافدون من مختلف أنحاء أرض الاسلام ، و ترد إليهم صلات أهل الخير والبر من المسلمين فى سائر الارجاء » (٣) و يذكر الاصطخرى فى شأن ما وراء النهر : « ما وراء النهر من أخصب أقاليم الاسلام وأنزهها وأكثرها خيراً ، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير واستجابة لمن دعاهم إليه ، مع قلة غائلة وسلامة ناحية وسماحة بما ملكت أيديهم ، مع شدة شوكة و منعة و بأس و عدة و آلة و كراع وسلاح ، و أما سماحتهم فان الناس فى أكثر ما وراء النهر كأنهم فى دار واحدة ، ما ينزل أحد بأحد إلا كأنه رجل دخل نفسه ، لا يجد المضيف من طارق فى نفسه كراهة ، بل يستفرغ مجهوده فى إقامة أوده من غير معرفة تقدمت ولا توقع مكافأة

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٤٣ .

(٢) الاصطخرى : المسالك و الممالك ص ٤٧ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام ـ ط٧ القاهرة ١٩٦٤ ـ ج٢ ص٣٤٥

بل اعتقاداً للسماحة فى أموالهم ، و همة كل امرىء منهم على قدره فيما ملكت يده من القيام على نفسه و من يطرقه ، و بحسبك أنك لا تجد فيهم صاحب ضيعة إلا كانت همته ابتناء قصر فسيح و منزل للأضياف . . . فاذا حل بنهم طارق تنافسوا فيه و تنازعوه ، فليس أحد يتصرف بما وراء النهر فى مكان به ناس يخاف الضياع فى ليل أو نهار ، فهم فيما بينهم يتبارون فى مثل هذا . . . و لقد شهدت منزلا بالسغد ضربت الأوتاد على باب داره فبلغنى أن بابها لم يرد منذ مائة سنة و أكثر لا يمنع من نزولها طارق ، و ربما ينزل بالليل بغتة من غير استعداد المائة و المائتان و الأكثر بدوابهم و حشمهم فيجدون من علف دوابهم و طعامهم و دثارهم ما يعمهم ، من غير أن يتكلف صاحب المنزل أمراً كذلك . . . وأعد ما يحتاج إليه على دوام الأوقات بحيث لا يحتاج معه إلى تجديد أمر عند طرقهم . و صاحب المنزل من البشاشة والاقبال والمساواة لأضيافه بحيث يعلم كل من شاهده سروره بذلك وسماحته (١).

و من الخصائص الاسلامية لأدب البلدان و الرحلات فى تراثنا الاعتماد على المشاهدة و المعاينة ، فالله تعالى يوجه المؤمنين فى كتابه الكريم بقوله عز من قائل: « و لا تقف ما ليس لك به علم ، إن السمع و البصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (٢) ، و إذا كانت الأمانة العلمية عند المؤرخين المسلمين قد ساقت إلى ضبط أسناد الروايات لتمحيصها و الفحص عن رواتها ، بعد الاستيثاق من سلامة متنها و اتساقه مع (قواعد العمران و الاجتماع الانسانى) على ما قرر ابن خلدون ، فان الأمانة العلمية قد ساقت الجغرافيين المسلمين إلى الاعتماد على المشاهدة و المصادر الشخصية المباشرة ، يقول اليعقوبى فى إفتتاح كتابه (البلدان) : « سافرت حديث السن و اتصلت أسفارى و دام تغربى ، فكنت متى لقيت رجلا من تلك البلدان سألته عن وطنه و مصره ، فاذا ذكر لى محل داره و موضع قراره سألته عن بلده ذلك: زرعه ما هو ، و ساكنيه من هم من عرب أو عجم ، وشرب أهله . حتى أسأل عن لباسهم . . و دياناتهم و مقالاتهم ، و الغالبين عليه . . .

(١) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٦١ ، ٦٢ (٢) الاسراء/ ٣٦

و مسافة ذلك البلد و ما يقرب منه من البلدان . . . ثم أثبت كل مايخبرنى به من أثق بصدقه . و أستظهر مسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً و عالماً من الناس فى الموسم و غير الموسم ، و كتبت أخبارهم و رويت أحاديثهم . . فلم أزل أكتب هذه الأخبار و أؤلف هذا الكتاب و هو طويل ، و أضيف كل خبر إلى بلده ، و كل ما أسمع به من ثقات أهل الامصار إلى ما تقدمت عندى معرفته ، و علمت أنه لا يحيط المخلوق بالغاية » (١) ، و يوضح المقدسى مصادر معلوماته فيقول فى تقديم كتابه (أحسن التقاسيم) : « و ما تم لى جمعه إلا بعد جولانى فى البلدان و دخول أقاليم الاسلام ، ولقائى العلماء وخدمتى الملوك ومجالستى القضاة ، و درسى على الفقهاء واختلافى على الأدباء والقراء و كتبة الحديث ، و مخالطتى الزهاد و المتصوفين و حضور مجالس القصاص و المذكرين ، مع لزوم التجارة فى كل بلد و المعاشرة مع كل أحد ، والتغطية فى هذه الأسباب بفهم قوى حتى فهمتها ، ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها ، و دورانى على التخوم حتى حررتها ، وتنقلى إلى الأجناد حتى عرفتها ، وتفتيشى على المذاهب حتى علمتها ، وتفطنى فى الألسن والألوان حتى رتبتها ، و تدبرى فى الكور حتى فصلتها ، و بحثى عن الأخرجة حتى أحصيتها ، مع ذوق الهواء و وزن الماء و شدة العناء ، و بذل المال و طلب الحلال و ترك المعصية و لزوم النصح للسلمين بالحسبة . . . بعد ما رغبت نفسى فى الأجر و طمعتها فى حسن الذكر و خوفتها من الاثم و تجنب الكذب و الطغيان . . . و لم أودعه المجاز و المحال . و لا سمعت إلا قول الثقات من الرجال » (٢) ، و قد جاء كتاب المقدسى شاملا لوصف الظروف الطبيعية و الاقتصادية و الاجتماعية و الدينية و الثقافية للأقاليم ، مع ذكر المدن و التقسيم الادارى و المسافات ، و يقول المقدسى أيضاً : و اعلم أنى مع هذه الوثائق و الشروط لم أطهره حتى بلغت الأربعين ، و وطئت جميع الأقاليم

(١) اليعقوبى : (كتاب البلدان) ملحق بكتاب (الأعلاق النفسية) لابن رستة ليدن ١٨٩١ ص ٢٣٢-٢٣٣

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢-٣ .

و خذمت أهل العلم و الدين» (١)، ثم يذكر بعد ذلك : فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ما عايناه ، و الثانى ما سمعناه من الثقات ، و الثالث ما وجدناه فى الكتب المصنفة فى هذا الباب و فى غيره ، وما بقيت خزانة ملك إلا و قد لزمتها ، ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ، ولا مذاهب قوم إلا و قد عرفتها ، ولا أهل زهد إلا و قد خالطتهم ، و لا مذكرو بلد إلا و قد شهدتهم ، حتى استقام لى ما ابتغيته فى هذا الباب » (٢) .

و يبدو الاعتماد على المشاهدة والمعاينة واضحاً فى كتاب البيرونى (تحقيق ما للهند من مقولة) و كتاب البغدادى عن (الأمور المشاهدة و الحوادث المعاينة بأرض مصر) .

و تقرأ لابن خلدون فى مقدمته مثل هذه الملاحظة الدقيقة : « و قد توهم بعض النسابين ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها فى لونه و فيما جعل الله من الرق فى عقبه و ينقلون فى ذلك حكاية من خرافات القصاص ، ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع فى التوراة و ليس فيه ذكر السواد ، و إنما دعا عليه بأن يكون ولده عبيداً لولد إخوانه لا غير ، و من القول بنسبة السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحر و البرد و أثرهما فى الهواء و فيما يتكون فيه من الحيوانات ، و ذلك أن هذا اللون شمل أهل الاقليم الأول و الثانى من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب ، فان الشمس تسامت رؤسهم مرتين فى كل سنة ، قريبة إحداهما من الأخرى ، فتطول المسامتة عامة الفصول . . و تسود جلودهم لافراط الحر . و نظير هذين الاقليمين مما يقابلهما من الشمال ، الاقليم السابع والسادس شمل سكانهما أيضاً البياض من خراج هوائهم للبرد المفرط بالشمال إذا الشمس لا تزال بأفقهم فى دائرة مرئى

(١) المقدسى أحسن التقاسيم ص ٨-٩ . (٢) المرجع السابق ص ٤٣ .

العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب فيها، فيضعف الحر فيها و يشتد البرد عامة الفصول فتبيض ألوان أهلها . . . و يتبع ذلك ما يقتضيه خراج البرد المفرط من زرقة العيون و برش الجلود و صهوبة الشعور . و توسطت بينها الأقاليم الثلاثة الخامس و الرابع و الثالث فكان لها فى الاعتدال الذى هو مزاج المتوسط حظ وافر ، و الرابع أبلغها فى الاعتدال لنهايته فى التوسط » ، و يقول ابن خلدون أيضاً : « و لما رأى النسابون اختلاف الأمم بسماتها و شعارها حسبوا ذلك لأجل الانساب . فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام و تكلفوا نقل تلك الحكاية الواهية ، و جعلوا أهل الشمال كلهم أو أكثرهم من ولد يافث ، وأكثر الأمم المعتدلة و أهل الوسط المنحلين للعلوم و الصنائع و الملل و الشرائع والسياسة و الملك من ولد سام ، و هذا الزعم و إن صادف الحق فى انتساب هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد ، إنما هو إخبار عن واقع ، لا أن تسمية أهل الجنوب بالسودان والحبشان من أجل انتسابهم إلى حام الأسود ، وما أداهم إلى هذا الغلط إلا اعتقادهم أن التمييز بين الأمم إنما يقع بالانساب فقط و ليس كذلك ، فان التمييز للجيل أو الأمة يكون بالنسب فى بعضهم كما للعرب و بنى إسرائيل و الفرس ، و يكون بالجهة و السمة كما للزنج و الحبشة و الصقالبة والسودان . و يكون بالعوائد والشعار و النسب كما للعرب ، و يكون بغير ذلك من أحوال الأمم و خواصهم و مميزاتهم فتعميم القول فى أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نحلة أو لون أو سمة وجدت لذلك الأب إنما هو من الأغاليط التى وقع فيها الغفلة عن طبائع الأكوان و الجهات ، و إن هذه كلها تتبدل فى الاعقاب و لا يجب استمرارها ، سنة الله فى عباده ، و لن تجد لسنه الله تبديلا ، و الله و رسوله أعلم بغيبه و أحكم » (١) .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ١٤٣-١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ .

فتنة العقلاء و المثقفين

واضح رشيد الندوى

من التعبيرات المعاصرة التى يساء فهمها ويساء استخدامها كلمة الثقافة، والمثقفين ، التى طرأ الانحراف على مفهومهـا عن أصلها الذى كان يدور حول الاستقامه والفطنة و الذكاء ، و تهذيب السلوك فى ضوء العلم و التجربة ، انحرفت الكلمـــة من هذا المفهوم النزيه ، الذى كان يتمسك به المثقفون الذين كانت حياتهم تتصف بنوع من التوازن بين القيم الثابتة ، والمتغيرات ، والمصلحة الذاتية ومصلحة الضمير، والمجتمع .

وبهذا الاعتبار كان من الطبعى أن يعتبر عمل العلماء و سلوكهم و تصريحاتهم ، و نتائج بحوثهم التى يتوصلون إليها بعد جهد جهيد ، ودراسة عميقة متطـابقاً لروح البحث و صادراً عن ذكاء و فطنة ، تشف منها النزاهة و الترفع ، بعيداً عن التهور و الانفعال ، و التحوير على أساس مصلحة الذات ، لأن سلوكهم و علمهم قدوة للجماهير ، و نبراس لهم .

ولكن الثقافة اليوم مثل الأدب أصبحت سلعة تباع و تشترى ولم تعد متمسكة بثوابت ، و لا تعتمد على قيم ، و إنما تدور حول المكسب المادى الذى كان آخر أغراض الثقافة و الأدب و العلم .

وبسبب هذا الانحراف عن المدار الحقيق، والابتعاد عن المنطلق ، يتيه المثقفون و العقلاء (Intellectuals) فى هذا العصر و يتخبطون .

و كان السبب الأكبر الذى وقع به هؤلاء العقلاء المزعومون فى المتاهات فى هذا العصر ، الاعتماد على مواد الثقافة والعلم المستوردة، و الانسلاخ من العقل الذاتى

إلى العقل الخارجي ، و الميل إلى جمال المظهر و التأنق الخادع .

و حيث أن الغرب يعتقد أن كسب المال و القوة غاية ، و العلم وسيلة ، أصبح كسب المال و تحقيق النفع المادى محور كل عمل ، وصار المتعلمون فى هذا العصر فريسة لهذا التفكير ، و مظهراً لهذا السلوك أكثر من غير المتعلمين و المثقفين .

ليس العالم ، والأديب و المثقف فى هذا العصر ، من يعلم ، و من كان ذا سلوك حسن ، و كلام رائع جميل مؤثر ، بل هو الرجل الذى يعرف سبل تحقيق مصالحه الذاتية بلباقة و ذكاء ، فلا يختلف المثقفون عن ساسة هذا العصر فى تقلباتهم و تغير ولا ئهم ، وقلب الحقائق و الخداع .

و من ثم كانت الفتنة لهذا العصر تأرجح العقلاء و المثقفين ، و كانت نتيجة هذا التأرجح شقاء الشعوب .

لعل أبرز مزايا هذا العصر أن كل شئ فيه مشوب بل مشبوه لاختلاط العناصر المضادة ، فلا تجد لبناً خالصاً ، ولا صوفاً خالصاً ، ولا سمناً خالصاً ، و لا دواء خالصاً ، لأن كل شئ مدسوس ، و ممزوج .

كذلك الفكر ، و العقل المعاصر مدسوس فيه ، و مختلط ، و الفكر الخالص و العقل المحض عنقاء هذا العصر كما يندر وجود بضائع خالصة ، و مواد الأكل و الشرب الخالصة .

كان المفكرون والعقلاء فى هذا العصر أكثر إصابة لوباء العصر وهو الاختلاط لأنهم يمثلون طبيعة العصر وهم عند ما يدلون بتصريح ، أو بيان أو يأتون ببحث يدعون أنه نتيجة تفكير خالص ، ومظهر عقل محض ، إلا أن كلامهم فى الحقيقة لا يختلف عن دعوى بائع الحليب و الصوف الذى يدعى أنه خالص ، وهو مشوب و ممزوج .

كانت الثورة على الدين والاخلاق ، باسم العقل ، ولكن هذه الثورة فى الواقع

كانت ثورة على العقل نفسه والعلم الخالص ، لأن الغرب أراد بذلك ازالة كل حاجز فى سبيل المصلحة الذاتية ، و فى سبيل تحقيق المطامع و الأغراض المادية لخرج كل عمل من سلطان العقل و من سلطان الدين و الأخلاق و الضمير معاً .

إن هذه الطبقة من المثقفين الأدعياء التى تسيطر على الحياة المعاصرة هى مصدر شقاء الشعوب اليوم ، وقد كان نصيب الشرق من الشقاء بسبب هؤلاء المثقفين أكبر ، لأن المثقفين فى الغرب لم يكونوا منقطعى الصلة عن شعوبهم ، وطبيعة حياة بلادهم ، و إنما كانوا منسجمين مع المناخ فى تلك البلاد ، أما المثقفون فى الشرق فهم مصدر شقاء الشرق ، لأنهم تلامذة معلميهم و مثقفيهم فى الغرب . يستمدون منهم و يسيرون على خطاهم .

إن هذه الطبقة المحترفة ، المتعاملة مع أقطاب الفكر الغربى ، التى تقوم بعملية خلط الفكر ، و مزج العقل بشوائب وعناصر خارجية غربية ، تسيطر على كل مرفق من مرافق الحياة ، و هى التى تربى العقول الناشئة و تسيطر على جهاز الحكم ، من السياسة إلى الادارة و الرياضة ، و تسيطر على و سائل التعبير ، و هى أقلية لا تمثل الشعوب ، و لا تعكس رغبات و طموح الأغلبية ، لكنها مسؤلة عن سائر الوسائل ، فتلقى بمكرها وفطنتها و صلاحيتها لقلب الحقائق ستائر غليظة على واقع الحياة ، و تمنع من لا يملك هذه الوسائل من النطق و البيان فيعيش العالم اليوم تحت ستار حديدى فرضه العقلاء المحترفون الذين نشأوا فى ظل الاستعمار الغربى .

بذل المصلحون فى عهد الاستعمار الغربى ، و العهد الذى تلا عهد الاستعمار جهودهم لاصلاح الحكام أو بتغيير الحكام لكن قصتهم فى هذا الكفاح كانت قصة من قال رحم الله « النباش الأول » فكل حاكم جديد يأتى بعد تضحيات جسيمة يفوق الحاكم السابق فى القسوة و الاستبداد ، و المكر و الخديعة ، لأنه يستمد قوته من المثقفين

و العقلاء المزعومين فى بلاده الذين يتولون زمام الأمور ، فيسودون صوراً ويبيضون أخرى ، و يحيطون به ، و يأخذون بيده ، ويفسرون كلامه و يزينونه ، و هى طبقة فاقدة الضمير ، عقلها مشوب . و فهمها مشبوه ، تعتبر شعوبها كالرعاع ، فيتغير الحكام و لكن هذه الطبقة المحترفه لا تتغير ، بل تتمتع و تزدهر فى ظل كل حاكم ، و تتحول إلى مذهب كل حاكم .

و أى تغير صالح يمكن أن يحدث ما عاشت هذه الطبقة المحترفة المزورة ، طبقة المثقفين و العقلاء المزعومين التى لا تؤمن بمبدأ و ليس لها مذهب معين إلا المكاسب المادية ، ولا تؤمن بالقرابة ولا القومية ، ولا العقيدة ، ولا تميز بين الحق والباطل .

قضايا العالم الاسلامى و الأقلام التقدمية

يبدو لمن يطالع كتابات المفكرين ، و الأدباء و الصحفيين المعاصرين فى العالم الاسلامى أنهم كتاب وطنيون باعتبار أنهم يكتبون بلغة وطنهم ، لأنها لغة التفاهم العامة ، ولا يمكن الاستغناء عنها ، و هى الوسيلة الوحيدة للاعلام ، أما الموضوع و المسائل التى يتناولونها فانها غريبة عن الوطن ، و ذوق المواطنين ، و للتغلب على الوحشة التى قد يجدها القارئ لهذه الصحف و المجلات ، أو الكتابات ، يدخل هؤلاء الكتاب ، والمحررون بين صفحات الصحف مواد التسلية والاغراء والقصص الماجنة ، و يزينون الصحف بالصور المثيرة ، و المواد الملهية باسم الفن .

تلاقى الصحف من هذا النوع القبول العام فى الشباب ، وغيرهم ممن لا يميز بين ما هو نافع وما هو غير نافع ، و تطبع بالملايين ، و توزع على العالم و تعتبر ناطقة باسم العالم الاسلامى ، و يعتبر كتابها كتاب العالم الاسلامى ، و لكن العالم الاسلامى فى هذه الصحف لا يعدو جزيرة خيالية ، لاوجودلها ، أو منطقة ذات مشاكل مستعصية مهجورة لا دورلها فى التاريخ المعاصر ، أو كسفينة غارقة يحاول بعض الضعاف إنتشالها .

أما ٩٩ ./. فى المائة من صفحات الصحف التى تعتبر راقية و متقدمة و تصدر بأقلام الكتاب البارعين ، والمحللين اللبقين فهى حافلة بمواد لا تمت إلى العالم الاسلامى بصلة من قصص، لأبطال ، و قادة ، و مفكرين من الخارج ، و منـاظر خلابة ، و صور من الحياة الصارخة المتحركة من الخارج ، ليتصور القارئ أن الحياة والعمل ، و الكفاح ، والعقل بضاعة أجنبية تتوفر فى الأسواق الأوربية ، و ليس لدى المسلمين إلا أحاديث العهد الماضى ، أو أطلال الحضارة المندثرة ، أو صراعات وحوادث .

و كثير من الصحف الصادرة من الدول الاسلامية المتقدمة فى عالم الصحافة ، ترتب موادهـا بطريق يتعذر على القارئ أن يعرف أنها صحف بلد أغلبية سكانه من المسلمين ، كان الكتاب فيها يتأكدون قبل كل شئ أن يخفى أنهـم مسلمون . و أن صحافتهم صحافة المسلمين ، وهم ينسون أو يتناسون أن معظم قراء كتاباتهم مسلمون ، ويبلغ بهم الجهل أو الغى أحياناً حد مخالفة رغبات قرائهم بصورة سافرة ، تحدث المقت و الاشمئزاز .

هذه هى طبيعة معظم الصحف الصادرة من العالم الاسلامى باستثناء "الصحف الاسلاميـــة التى تضحى فى سبيل الدفاع عن الاسلام و المسلمين ، بل عن العروبة كذلك ، لأن كثيراً من الكتاب بالعربية ، الذين يتزعمون أنهم تقدميون ، يحاربون تلك اللغة و ثقافتها و أفكارها .

إن صحافة معظم البلاد الاسلامية مثقلة بموضوعات أجنبية، فتجد فى تراجم الشخصيات ، تراجم قادة و مفكرين من العالم الغربى ، ورجال الفن والأدب . استعراضات مطولة لحياتهم و أفكارهم ، و رغباتهم وتصورهم عن الحياة و مساهماتهم ، و فى تاريخ الحركات و الكفاح القوى تجد وصفاً طويلا للمنظمات الخارجية ، من التاريخ القديم والتاريخ المعاصر ، ولقاءات مع أبطالها ، وفى الاستطلاعات السياحية ، تجد وصفاً رائعاً

ومبدعاً للناطق الغربية ، حتى القصص و الروايات ، لا يستثنى من ظاهرة التغريب .

ولا يعالج هؤلاء الكتاب والمحللون مسائل أوطانهم ، و شعوبهم ، ولا يقومون بتعريف أبطالهم وحركاتهم ، ولا يصورون الحياة اليومية ، ولا يعكسون طموح مواطنيهم ورغباتهم ، فتصبح هذه الصحف صورة حقيقية للبلاد التي تصدر فيها ، و تبعث على التفاؤل ، و تنمي الوعي في المسلمين ، و تشركهم في عمل البناء و تجعلهم يشعرون أنهم أعضاء أسرة واحدة تعيش في مختلف أنحاء العالم و أنهم أغنياء في المواهب و الكفاءات ، و أنهم بدأوا يفيقون من غفوتهم ، و يعرفون كذلك الدسائس والمؤامرات التي تحاك ضدهم بأسماء مختلفة وهتافات مختلفة ومذاهب مختلفة ، ويعرفون أصدقائهم و أعداءهم .

إن العالم الاسلامي في الواقع يعيش بدون صحافة بهذا الاعتبار ، أما الصحافة التي تمثله في الواقع فهي محدودة ، غير مدعمة ، بل تواجه هذه الصحافة حرباً من الحكومة وأعيان الحكومة ، وتقاطعها الأقلام القومية ، وتواجه أزمات مالية وفكرية ، ولا تصل إلا إلى أيد قلية ، وتصدر بمظهر غير لائق وفي مقابلها صحف تصدر بالملايين ، ولكنها تمثل العالم الغربي ، ولا تمثل الحياة القومية إلا ما يأتي في باب الفن والرياضة ، و بيانات مطولة للزعماء المتفيهقين وأصدق صفحة فيها هي صفحة الوفيات .

كانت الصحافة جزءاً لازماً من الحياة المعاصرة ، ووسيلة فعالة للتغذية الفكرية ، و الاعلام القومي ، و تحرص سائر الحكومات على تقوية هذا القطاع ، و تساهم في إنعاشها ، بالاعلانات التجارية ، و المشاركة في النفقات ، بطرق مختلفة ، و في كل بلد توجد صحافة قومية واعية ، تسير مع متطلبات الحياة ، و ترشد القيادة و الشعب معاً ، و لكن العالم الاسلامي يفتقر إلى هذا القطاع الهام وهو حلقة مفقودة في كل بلد إسلامي .

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

★ العدد السادس ... درها ندوة العلماء، لكهنؤ (الهند)

★ المجلد الثامن والعشرون

★ ربيع الأول ١٤٠٤هـ

★ ديسمبر ١٩٨٣م

شعارنا الوحيد

أخى القارىء

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١— كتابة العنوان بالانجليزية و العربية كلتيهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا .

٢— ارسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم « البعث الاسلامى » مقابل عام واحد أو أكثر :

٣— يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤— الاشتراك السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى .

فى باكستان ، بنغلاديش و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

P. O. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

أخي المسلم

أخي في العقيدة و الدين لا في التراب و الطين، أخي على درب الايمان و الجهاد، و طريق الشوك و القتاد، أخي في النضال و الكفاح و التضحية و الفداء، أخي في الحق و الصبر في الوطن و المهجر، أخي في مهبط الوحي و منبع الصبح الصادق في ليل الانسانية الغاسق. أخي في زهرة الصحراء و درة الخليج، بين الرياح العاتية والأمواج الثائرة، أخي في اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء، أخي في الله ! نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك في وجه الباطل، زاداً لك في طريق الايمان. عوناً لك على نوائب الحق. نصراً لك في صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر، حارس للأمانة، أكثر من دور مشترك رسمي في مجلة، أوزبون في محل تجارة !

[محمد الحسني ـ رحمه الله]

العدد السادس
المجلد الثامن والعشرون
ربيع الأول ١٤٠٤هـ
ديسمبر
١٩٨٣م

رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

المراسلات:
البعث الإسلامي
ندوة العلماء. ص. ب ٩٣
لكنؤ ـ الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Bex No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

لم يعد رجال الغرب المثقفون وحدهم يخافون اليوم من واقع الاسلام وحضارته بل و قد اتسع هذا الخوف و شمل جمع شعوب العالم و قطاعاتها المختلفة . و خاصة منذ أن تزايد الاهتمام بتعريف الاسلام فى أوساط الناس على المستويات المتعددة ، و تضافرت نشاطات الدعاة فى عرض صورته وتأكيد ضرورته فى المجتمعات الانسانية كلها ، على اختلاف الزمان والمكان ، ولقد تصدى دعاة الاسلام وعلماؤه فى العصر الحديث لأداء هذه المسئولية مع الاستفادة من الوسائل المعاصره و المراعاة للظروف الحضارية والعلمية التى يعيشها الانسان فى جميع الأوساط و البيئات اليوم . و قد وجد الباحثون عن السعادة ضالتهم فى الاسلام ، و أدرك زعماء الحضارات و المفكرون الماديون روح المنهج الذى يؤسس الاسلام عليه حياة الانسان و حضارته و ضمن له السعادة و الهناء بكل ما فيهما من معنى . و من ثم وجدوا أنفسهم أمام شبح مخيف للاسلام ، و ظنوا أن ذلك يقضى على نسيج الأوهام والتخيلات الذى اتخذوه ذريعة للتصيد فى الماء العكر ، ولكن الذين تابعوا البحث عن الحقيقة . لكى يلجأوا إليها عن متاعب النفس و الحياة ويتنفسوا فى ظلها بعد عناء طويل ، وشقاء دام بهم حقبة من الزمان ، توصلوا إلى الاسلام و آووا إلى تعاليمه التى أنقذتهم عن المخاوف النفسية و حدبت عليهم بحياة مطمئنة يتصل فيها العبد بربه مباشرة ، فيمن عليه بالأمن و العزة و السعادة و الايمان ، بعد الخوف

و الحزن و الجوع و التيه « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

و ظلت المجموعات البشرية التى ذاقت مرارة الحضارات المادية و رجعت منها منهوكة بائسة تقبل على المنهج الاسلامى للحياة و ترى فيها منجاة من كل ما تعانى منه من عذاب نفسى و تعيش فيه من خوف و خطر ، وقد آثرت بعض هذه المجموعات أن تقبل الاسلام على العيش فى ضنك و شقاء . و لا تزال المجهودات الدعوية التى تبذل على جميع المستويات وفى كل الطبقات تثمر فى مجال الاعتراف بأن هذا الدين منحة سماوية ورسالة طبعية تساعد الانسان على النهوض و الاكتمال ، و تحمل أعباء القيادة و الخلافة . و سواء أخذه الناس كـدين و تمسكوا به كشريعة أو اكتفوا بمجرد الاعتراف بأفضليته و شموله ومسايرته مع الحياة بصفة دائمة ، ولكن الخائفين على مصير زعامتهم وحضاراتهم لم يهمـلوا شأنه ، و أكبوا عـلى إعدادات ضخمة من كل نوع لقمع شوكة الاسلام و تهوين شأنه ، إنهـم اخترعوا أساليب كثيرة من الترغيبات و الترهيبـات ، لطمس معالمه و إطفاء نوره ، و لو لا أن الله سبحانه و تعالى قد تكفل إبقاء دينه و توهج نوره ، على امتـداد العصر لكان أدنى جهد من جهودهم العظيمة قد أتى على هذا الدين « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم و الله متم نوره و لو كره الكافرون » .

لقد درس هؤلآء المناوؤن المنهج الاسلامى للحياة ،ونواياهم تتضمن شيئاً كثيراً من الحقد و العداوة ، فلا تزيدهم هذه الدراسة إلا خوفاً و نقمة ، و تدبيراً لهدمه و تقويض أركانه ، و مؤامرة على سلامته و القضاء على أتباعه و دعاته ، و الضرب على مراكزه و وسائله . و لم يستحيوا فى تحقيق مآربهم الرخيصة هذه من استخدام وسائل القهر و التعذيب ، و حشر طاقات الحديد و النار ، و وضع قوانين عمياء تنص على تحريم الاعتناق بالدين ، و القيـام بالأنشطة الدينية و الخلقية فى الأوساط

السياسية والهيئات المادية، و « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر »
و لما حدث فى بعض بلدان العالم أن مجموعة من البشر اهتدت إلى الاسلام و وفقت إلى الدخول فى دين الله أفواجاً ، ثارت الثائرة و بدأت الدنيا تقوم و تقعد ، و تصدى الخائفون من مصيرهم و ما كانوا يدعون إليه من طقوس بالية و عادات و تقاليد عتيقة ، فاعتمدوا كل وسيلة للتهديد و توجيه الانذار إلى من يريد أن يترك دينه و يدخل ضمن المسلمين فى دينهم ، و لما رأوا أن هذه الانذارات و التهديدات و أن وسائل القهر و الضرب لا تؤثر فيهم و لا تمنعهم عن متابعة مسيرة الاسلام والاصرار على ما وفقوا إليه من هداية وسعادة ، لما رأوا كل ذلك أقبلوا على تركيز أساليب جديدة للحد على هذه الموجة وسد الطريق فى وجه هذه اليقظة الدينية .

و إن أعظم شئ بعث الخوف و الكراهية ضد الاسلام فى نفوس رجال الغرب فى الوقت الحاضر هو ما يسمى بالصحوة الاسلامية التى ظهرت آثارها و دلائلها فى كل جزء من أجزاء العالم ، و حتى إن إقبال الشباب المسلم فى العالم الاسلامى على الالتزام بتعاليم الاسلام أقض مضجعهم و أقلق بالهم أكثر من أى حدث آخر ، ذلك أنهم توجسوا خيفة من مستقبلهم فى هذه الدول التى استيقظ فيها الشباب المسلم و بدأ يحسب للاسلام كل حساب . و لقد كان ذلك أخطر فى عيونهم من أى تيقظ دينى فى الغرب و بلدانه ، حيث لا يصيبهم ضرر بما إذا عم هذا الوعى هنالك ، لذلك فانهم لا يالون بالمجهودات الدعوية التى تبذل فى عواصم الغرب والمدن الغربية كما أنهم يقلقون للعودة الدينية فى دول العالم الاسلامى ، نظراً إلى ما يرتبط بها من مصالحهم السياسية والاقتصادية ، والحضارية كذلك ، و اعتقاداً فى أن أرض الغرب قد نبت بتلك المصالح و لم تعد صالحة للنمو و الازدهار بحكم الطبيعة الفكرية السائدة ، و لا بديل لها أحسن من أرض العرب الخصبة و الدول العربية الغنية .

من هنالك كانت للغرب وأعوانه جولات وصولات فى العالم الاسلامى بكامله ، إنه ظهر فى جميع أجزائه و بلدانه بوجه كالح يزرع بذور الخلاف و الحقد فى نفوس

الناس ، و يثير الفتن و المشاغبات بين طبقات من المسلمين و خاصة بين الخاصة منهم و من بأيدهم زمام القيادة الدينية ، ذلك لأن الفرقة و الانشقاق هما الطريق الوحيد للتوصل إلى الغرض المطلوب ، و هو أن لا يستطيع الدين من القيام بدوره فى المجتمعات الاسلامية وغيرها ، و أن لا يتجاوز تأثيره عن محراب العبادة إلى المجالات الانسانية الأخرى ، و لا يتعدى نفعه إلى الحياة العامة و لا تجد توجيهاته طريقاً إلى القطاع الاجتماعى العام . و لم يقصروا فى حسر طاقة الدين و أثره فى نطاق ضيق محدود بكل ما أمكنهم من قوة الوسائل السريعة النفوذ ، بل الواقع أنهم حشروا جميع طاقاتهم و إمكانياتهم الواسعة لتغيير مفاهيم الدين و تحديد أثره ، و بالتالى إثارة الشكوك فى أصالته و زرع الشبهات فى نفوس أفراده حول صلاحيته للبقاء و العمل فى هذا العصر الحديث الذى فاق جميع التنظيمات الدينية والقيم الخلقية بعلومه التجريبية و صناعاته المدهشة ، و تقنيته السريعة العملاقة التى غطت الحياة من جميع النواحى ، وأسدلت الستار على الروح الدينية الخالصة — هكذا أراد منها الغرب وأعوانه — رغم أن الله تعالى قد أودع فيها دلائل على قدرته و وحدته ، وجعلها ذريعة لتفجير طاقات الكون ، وفيها من الدلالات الواضحة البينة على النظام الكونى الدقيق ما لا يوجد فى غيره من الكائنات الأخرى « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » .

إن أهل الغرب ومن على شاكلتهم من زعماء دول الشرق الكبرى شغلوا المسلمين فى كل بلد بمشكلات سياسية و اجتماعية كثيرة ، و جعلوهم من العجز و التخلف بحيث لا يستطيعون فيه أن يرفعوا رؤسهم إلى عمل بناء فضلا عن تطلعهم إلى مكانة القيادة العالمية ، ولقد ركز هؤلاء الدهاة جهودهم على كبت الشخصية الاسلامية ، و طمس معالم الدين البارزة و خصائصه و سماته البينة أكثر من كل شئ آخر ، لأنهم يعلمون عن تجارب عملية أن أخصر طريق للقضاء على أمة هو قطع علاقتها عن تاريخها و ماضيها ، و فصلها عن خصائصها و سماتها ، و تهوين شأن العقائد و القيم الايمانية التى يقوم عليها بناؤها الخلقى و الاجتماعى .

و لكن العودة الملحوظة نحو الدين و صحوة الشباب المسلم فى معظم دول المسلمين و خارجها بعثت يأساً كبيراً فى نفوس زعماء الهدم و الفساد ، و قد جن جنونهم فى الأخير فالتجأوا إلى إشعال نار الحروب بين الدول الشقيقة المسلمة ، كما هو المشاهد فى الحرب العراقية الايرانية التى دمرت الحرث و النسل و أبادت الأجيال . وكالعدوان الصارخ على أفغانستان وشعبها المسلم ، و ما قصة صبرا و شتيلا الغارقة فى الدماء والأشلاء ببعيدة ، وما خبر حمامات الدم البرىء فى المخيمات بخاف ، وما قدسنا المحتلة بغريبة عنا ، و هل جفت دموع المسلمين الغزار عليها ! و من الذى يجهل ما حدث و لا يزال يحدث فى كل يوم و ليلة فى البلدان المسلمة من مناوشات و اشتباكات بين الاخوان و الأشقاء ، و من لا يدرى ما يجرى الآن فى بيروت ، و ما يدور فى الجبهات السورية و الفلسطينية من قبل هذه الدول الكبرى ، وزعمائها المخططين ، من إبادات إنسانية على أوسع نطاق .

هذه حقائق صارخة يشاهدها كل من له عينان ، و لا يصعب عليه أن يدرك النوايا التى تختفى وراءها ، و الاجراءات الانتقامية التى تكمن فى خفاياها ، وما ذاك كله إلا لأن الاسلام طفق يخرج من زاوية الخمول إلى منصة القيادة العالمية ، ويتحدى القيادات المادية والفلسفات العلمية العالمية ، أن تأتى بمواصفات السعادة الحقيقة للانسان فى هذا العالم الحديث ، و ليست هذه المخططات الارهابية و الاجراءات العدوانية نهاية المطاف لابداء نقمتهم و مدى تخوفهم من منهج الاسلام للحياة . ولكن هنالك مسلسلات من الدسائس و المؤامرات التى يواجهها المسلمون على اختلاف بلدانهم و جنسياتهم . و يمرون من خلالها .

هنا تأتى المرحلة الحاسمة للتفكير ، و تتطلب منا أن ندرس هذا الواقع الخطير بشئ من الجدية و الاهتمام لكى ندرك أبعاده و نتبصر جذوره الذاهبة إلى الأعماق . و نعرف أن ما نواجهه من أعدائنا ليس بمجرد صدفة ، إنما هو تدبير من الله العليم الحكيم ، ذاك أن العدو إذا كان باذلا اهتمامه الكبير بجمع العدة و العتاد و مكباً

على الاعدادات من كل نوع ، و كان الجانب الثاني في غفلة عن كل مقاومة أو رد عدوان ، أو دفاع عن النفس و النفيس ، فالنتيجة معلومة ، و لقد أمر الله سبحانه و تعالى في مثل هذا الوضع بالاعداد الكامل و التأهب التام بالقوة و الرباط « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله ، عدوكم و آخرين من دونهم ، لا تعلمونهم ، الله يعلمهم » .
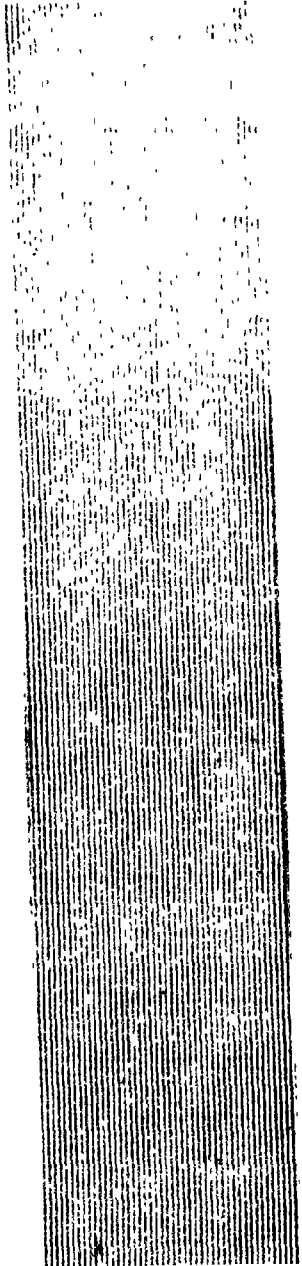
فكانت المسئولية علينا مزدوجة ، مسئولية الدعوة إلى الله مع استخدام وسائلها المشروعة لذلك ، و مسئولية الاعداد المادى من القوة و الرباط ، مع الاستعداد الروحى ، فاذا كنا لا نستطيع أن نحسن القيام بهذه المسئولية الثانية نظراً إلى الظروف التى نعيشها ، والعجز الذى يفرض علينا فهلا نستطيع أن نستخدم سلاح الايمان والسيرة الاسلامية القوية الذى طالما قام مقام السلاح المادى ، إذا استعصى علينا الموقف ، وحالت الظروف ، إن فى التاريخ الاسلامى شواهد كثيرة على دور السلوك الايمانى أمام القوى الرهيبة ، و هو دور مستمر مع الزمان و هو الذى لا نستغنى عنه فى أى حال من الأحوال .

إذا كنا نترقب الفرصة السانحة التى نتمكن فيها من مواجهة الوضع الخطير بالاعداد المادى الواسع ، و لم ننصرف إلى بناء سيرتنا الاسلامية و إشعال جذوة الايمان الخالص و الطاعة الصادقة فى القلوب فربما لا نقدر على إتمام أى جانب من هذين الجانبين ، و إننى لا أرى أن الاعداد المادى يغنى عن السيرة الاسلامية و السلوك الايمانى و لا أعتقد أن بينهما تناقضاً ، بل الحق أن الاعداد المادى تابع لحياة الايمان و الاخلاص ، وسلوك الحب والطاعة ، والله سبحانه وتعالى يقول :

إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله و رسوله ثم لم يرتابوا ، و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون » .

سعيد الأعظمى

التوجيه الاسلامي

- مظهر الانسانية الحساسة الضعيفة و النبوة الكريمة القوية
- ما هي الأخطار التي تواجه الفكر الاسلامى بعد تهويد الفكر الاسلامى

آيات من سورة مريم :

مظهر الانسانية الحساسة الضعيفة و النبوة الكريمة القوية

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

قصة تجلت فيها معاني الاعجاز و البلاغة القرآنية وجمال البيان و التعبير و دقة الوصف والتصوير في أروع مظاهرها، قصة تجلت فيها رقة العاطفة الانسانية وخلجات النفس البشرية التي تشفق على الحياة وتحرص على بقاء الذكر و وجود الوارث واستمرار النسل - الذي لا يستغرب من الانسان ولا يلام عليه - حتى كأنك تسمع في هذه الآيات دقات القلب و هواجس الضمير ، قصة تجلت فيها الانسانية الحساسة الضعيفة و النبوة الكريمة القوية جواراً بجوار وجنباً بجنب ، فجاءت تصويراً صادقاً ناطقاً لنبي إنسان ، أو إنسان نبي ، و أصبحت قطعة أدبية لا نظير لها في آداب الأمم ، وفيما عرفه الانسان من بلاغة و بيان لأنه «تنزيل من حكيم حميد» وجاءت حلاوة الجرس وجمال النغمة ورقة الألفاظ فزادت جمالا إلى جمال وطابقت روح القصة وموضوعها.

انسان أكرمه الله بالنبوة وحمله أمانة الحياة أمانة الشرف الذي ورثه كابراً عن كابر وأمانة الرسالة الكريمة، وابتلي بجفاء الأقران وظلم الاخوان، ولم يزل يتحمل كل ذلك في قوة وجلد وصرامة حتى طعن في السن ودخل في المرحلة التي لا يطمع فيها الانسان في حياة طويلة و يلتجئ فيها إلى مؤنس و رفيق و إلى خليفة يبقى به ذكره و تعيش به رسالته ، وقد شاهد النبي زكريا - الذي نقرأ قصته في هذه الآيات - في حياته ما ينذره بقرب الرحيل و انقطاع العمر وهو نذير الشيب الذي أوهن العظم وبيض الشعر، هناك هاجت العاطفة الانسانية التي يقودها الاشفاق على الرسالة و الخوف من ضياع ، وهو رجل وحيد فريد ليس له ولد يأنس إليه و لا خليفة يعتمد عليه - وكم ضاعت الأمانة بموت أصحابها و فقدان من يقوم بها و يحدب عليها - فدعا ربه أن يرزقه ولداً يقرعينه ويحمل رسالته ، و لكنه - لما أراد أن يدعو - خاف ، أن

يسخر منه أقاربه و من حوله ممن لا يخافون الله و لا يعرفون قدرته و لا يعرفون سمو عاطفته وشرف غرضه ، يضحكون لأنه يدعو للولد فى هذه السن العالية التى لا يولد فيها عادة ، إنه خاف السفاهة والشماتة وقديماً خافها الأنبياء الكرام و الرجال العظام ، وقد قال النبى هارون « فلا تشمت بى الأعداء » فدعا ربه فى احتراس و إسرار ، ولكن فى جد وإصرار : « إذ نادى ربه نداءا خفياً » ، إنه كان يشعر أنه تقدم فى السن و دلت القرائن والآثار على أنه سيغادر الدنيا من غير عقب و خليفة ، ولكنه واثق بقدرة الله ، مؤمن بأن الله على كل شئ قدير . إنه قرأ قصة إبراهيم فى التوراة و كيف رزق الولد فى سن أعلى من سنه و كيف قال لما بشر بالولد « أبشرتمونى على أن مسنى الكبر فبم تبشرون » و هكذا قال زكريا « رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، ولم أكن بدعائك رب شقياً » لقد تجلت فيها العاطفة مع العقل والعلم ، والحب مع الايمان و اليقين ، فكان خير دعاء يدعوبه عبد يؤمن بقدرة ربه .

و لم يكن مجرد دعاء رجل لاهم له إلا فى الولد ، بل هو دعاء نبى يحب أن يكون له ولد يحمل أعباء دعوته و وراثة آبائه الصالحين « يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا »

ولما بشر باجابة الدعاء هاجت فيه الانسانية وتجاربها « قال رب أنى يكون لى ولد و كانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتياً » .

و طلب على هذا الحادث الغريب آية يعرف بها قرب وقوعه و يزداد بها إيماناً ، فمنح آية عدم القدرة على الكلام ثلاثة أيام ، و من قدر على سلب قوة يملكها الانسان قدر على منح قوة لا يملكها الانسان .

و هكذا كان حتى احتاج إلى الحديث إلى قومه بالاشارة .

وجاء يحيى الولد البار الرشيد الذى أكرمه الله بالعلم و الحكم فى الصبا ، والحنان و الزكاة و التقوى و البر فى الكبر .

و هكذا تنتهى هذه القصة الجميلة البليغة لتبتدىء قصة أخرى و ليؤمن الانسان بقدر الله و فضله .

ما هى الأخطار التى تواجه الفكر الاسلامى
بعـــــد تهويد الفكر الاسلامى
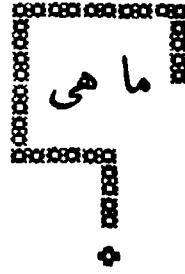
الأستاذ أنور الجندى

تنقل الفكر الغربى فى مراحل متعددة :

أولا : كان فكراً يونانياً روحانياً إغريقياً قائماً على المفاهيم الوثنية الاباحية وعبادة الأجسام و استعباد البشر فى نطاق نظرية السيادة للحكام و العبودية للجتمع كله .

يظهر ذلك واضحاً فى أفكار سقراط و أرسطو و فى جمهورية أفلاطون ، وهى مفاهيم تقوم على : إعلاء الرق ، و التمييز بين خلق الله ، وقصر الاستعباد على جماعات الشعب و إعطاء السادة مكان النفوذ ، و تلك سمة تجمع بين الثلاثة الكبار ، أما سقراط فينحو نحو الاتحاد من الأخلاق سبيلا لتقييد حرية الفرد و إخضاعه للدولة الحاكمة فى المجتمع اليونانى ، أما أفلاطون فانه يفترض السوء فى طبيعـــة المجتمع و يدعو إلى عبادة الجسد و عبادة القيصر الحاكم .

ثانياً : ثم أصبح الفكر الغربى فكراً مسيحياً تحرر من أشياء كثيرة ، من هذه الوثنيات ، و لكنه وقع فى أخطاء أخرى ، وقع فى الحلول و الاتحاد ، و فكرة الخطيئة الأولى وفكرة التثليث و الصلب ، وانحراف المسيحية إلى الرهبانية على ذلك اللون البشع الذى عرف فى الغرب و الشرق ، و لقد حاربت الكنيسة العلم و قتلت جاليلو .

ثالثاً : ثم حاولت مفاهيم الاسلام أن تحرر الفكر الغربى من هذه الأسواء غير أن قوى اليهودية الغادرة ردته مرة أخرى إلى وثنية اليونان و جرته فى طريق المادية و الاباحيـــة و العلمانية على طريق الرأسمالية و الديموقراطية و مفاهيم دارون فى حيوانية الانسان و مفاهيم فرويد .

رابعاً : ثم تفجر الفكر الغربي عن رد فعل شديد بالنظرية الماركسية التي قدمها اليهودي « ماركس » و التي قسمت المجتمع الغربي ، قسمين ، و كانت الماركسية فكراً يهودياً تلموديا واضحاً .

و بقى الفكر الغربي يدافع بما بقي لديه من مفاهيم المسيحية و مثالياتها ، ردحاً من الزمن ، غير أن الفكر التلمودي ما لبث أن سيطر على الفكر الغربي فأصبح تلمودياً على نحو من الأنحاء في مواجهة الفكر الماركسي الذي هو تلمودي أصلا ، وجاءت فكرة التفسير المادي للتاريخ و استعلاء النظرية المادية أساساً لاشتقاقات الفكر الغربي الرأسمالي كله ، و بذلك سيطرت اليهودية التلمودية على جناحي هذا الفكر و تددت بذلك كله « الفكر الاسلامي » الذي كان خلال أهله خلال قرن ونصف قرن خاضعين للنفوذ الغربي و تتموج فيه نظرياته ثم جاء الفكر الماركسي أيضاً ليؤدي دوراً

و من ثم لم يكن في الامكان للعالم من نجاة إلا عن طريق فكر واحد ليس بشرياً على الأصلح هو الفكر الاسلامي المستمد من منهج القرآن المنزل بالاسلام دين الانسانية الخاتم على محمد ﷺ .

و لذلك فان من مسئولية الفكر الاسلامي الرباني المصدر أن يكشف هذا الانحراف ويدفع هذا الخطر ، فالفكر البشري اليوم الذي يسود العالم هو فكر « مسيحي يهودي » مما صاغته الفلسفات الوثنية الاغريقية الرومانية التي أخذت تسود مرة أخرى منذ انهارت الفلسفة المسيحية المدرسية و الفلسفة المثالية وغلبت الفلسفة المادية .

ويمكن القول أن الفكر الغربي اليوم معارض تماماً لمفهوم التوحيد الخالص ومجاف لمعطيات الدين الحق الذي جاء به كل الأنبياء والذي تبلور بصورة أساسية في الاسلام إذ تغلب عليه معارضات كثيرة للدين الحق .

أولا : عبادة الفرد و عبادة الجسد الجميل (أساس الفن الاغريقي) .

ثانياً : عبادة الحياة و المادة ، و إعلاء الجمالى على الأخلاق ، و نظرية الفن للفن و تأجيج الشهوات و إثارة النشوة و استثارة الشهوة و العرى و دفع العواطف إلى أعلى مراحل الهياج . ثالثاً : النظر إلى الانسان كمادة و جسد و حيوان رابعاً : إحياء الوثنية بالتماثيل و تغليب الأهواء و النزوات و الجنس و القيم وتجميل القبح و ادعاء تحسين الطبيعة و التفوق عليها بالفن ، و هذه كلها من علامات سقوط الحضارة ، و هى نفس العلامات التى شهدتها المجتمعات قبل انهيار الحضارات الفارسية و الرومانية و الفرعونية ، و ما يزال العالم الغربى (و قد نقل ذلك إلى المجتمعات الاسلامية) مشغولا بتجديد المنكرات و الخرافات القديمة و صياغتها فى صور جديدة .

وما يزال الفكر البشرى كله غارقاً فى صراعه القديم حول نظرية أرسطو العقلية و نظرية أفلاطون المثالية ، وما يزال العالم إلى اليوم فى صراع حول ثبات ارسطو و جدل هيجل ، مع أن الفكر الاسلامى يضع احسن قاعدة لذلك وهى نظام الثوابت و المتغيرات .

و الناس فى الغرب اليوم بعد أن أفرزت المسيحية الغربية (وهى غير المسيحية المنزلة) الرأسمالية و أفرزت الرأسمالية المادية و الاشتراكية ، و هم اليوم يبحثون عن نظام جديد بعد أن فشل النظامان ، و هم يحاولون أن يأخذوا المسلمين ليكونوا رديفاً للمسيحية فى محاربة الشيوعية ، وعداؤهم للاسلام قديم ، وما محاولة الحوار إلى محاولة للاستفادة من الاسلام إلا لخدمة الرأسمالية .

والمجتمع الغربى يواجه اليوم حالة من الاضطراب بعد تناقص المواليد ، وتمزق الأسرة و تزايد نسبة متعاطى المخدرات و ازدياد عدد اللقطاء و المجانين و المرضى بالسرطان ، وهناك من ناحية أخرى تلك الحقائق التى تكشفت عن طريق مجافاة الكتب المقدسة بحقائق العلم الحديث والشكوك المثارة حول بشرية هذه الكتب ، فقد كشف

العلماء خطأ الكنيسة فى القول بأن الأرض مركز الكون، وكشف تقدم علم الفلك و آلات الرصد و الحساب عن أن الكون يزخر بأعداد لا حصر لها من الأجرام مختلفة الأحجام و الأبعاد ، كذلك كشف تطور العلم عن فساد نظريات المادة التى تدعى أزلية الكون والمادة والطاقة وانتفاء الخلق. وقد أصبح ذلك كله هباء وكذباً .

و لقد كشفت الأبحاث أن هـذا الكون كانت له بداية فى الخلق وأنه خلق منذ خمسة آلاف مليون عام ، و أن مصير هـذا الكون هو البرود المطلق بعد أن يستنفذ طاقته وما كان أغناهم عن البحث وقد قدم القرآن ذلك كله فضلا عن فساد نسبة كل شئ إلى الطبيعة أو رد الخلق إلى العشوائية و الصدفة ، فتلك كلها أضاليل الفكر الغربى الذى تحطمها الكشوف وتحقق آيات الله فى الآفاق وصدق رسالات السماء .

و لقد كان من أخطر ما قدمته نظريات الفلسفة المادية والوجودية و الاقتصاد الماركسية و الرأسمالية أنها تحاول أن تستغنى عن مبدع الكون و خالقه ، و هى إذ تفعل ذلك تتصدع و تضطرب و تنهـار ، كما تبين فساد نظرية ديوى و فرويد فى التربية التى تقول : افعل ما تشاء، والتى تطلق حرية الأبناء فى التعرف إلى الأخطار دون توجيه وإرشاد، كما تحطمت نظريات فرويد فى القول بترك الأبناء دون توجيه ، و تبين خطر مقررات علم النفس المادى و النظرية الماركسية و نظريات الأدب فى فهم الشخصية الانسانية على أنها مادة و حيوان و جسد .

و لقد كان من دعائم الفكر المادى اليوم عدم الايمان بالغيب و أن كل ما فى الكون فهو مادى حتى قيل إن القيم التى يتعامل بها الناس ما هى إلا صورة منعكسة من غرائزنا الداخلية النابغة من بعض التفاعلات فى أجزاء معينة من الجسم أو بعض التوافقـات فى بعض خلايا المخ ، و كشفت الحفريات عن فساد نظرية دارون التى أفسدت الفكر الاجتماعى والنفسى والتربوى منذ مائة عام بالقول بأن الأجناس صدرت

عن أصل واحد، و أن الانسان الذى مضى عليه خمسة ملايين سنة كان مستقيم القامة وقد خلق مستقلا عن أى نوع من الأنواع وأن كل نوع من الأنواع خلق مستقلا .

ونحن نرى الحضارة الغربية اليوم تنتكس و تعود إلى الخرافة و الأساطير بعد أن أعلت شأن النظرة العلمية المادية التى لا تؤمن بالمحسوس ، و نرى اليوم سقوط النزعة العقلية و العلمية حين نرى أربعين ألفاً يعملون بالتنجيم فى ألمانيا الغربية ، و محاولة إضفاء صفة علمية على التنجيم و تغليفه بشئ من المنطق ، و لا ريب أن التلمودية الصهيونية هى التى تدخل حضارة الغرب الآن فى مرحلة المحاق : الوجودية ، و الهيبة ، والعرى ، و التنجيم و الخمر و كراهية الأم للولادة ، و الانتحار فى قمة الثراء، والخوف من المستقبل والفراغ، واستباق الأحداث والترف والتحلل والتمزق .

و يرى البعض أن هذا دليل على أن العقل الأورى أصابه الهرم فعاد فريسة الوهم ، و أن الأزمات المتلاحقة جعلت الفكر المستنير عاجزاً عن التصدى للحلول ، فلجأ الانسان إلى منهج الأسطورة من جديد وأصبحت الحضارة شخصية المجتمع المستشعر بالخوف بالعزيزه فيبحث عن التنبوءات التى تسمح له بالتبين والعقيدة ، و قد برزت فى الغرب فئة من الكتاب الثائرين على قيم مجتمعهم المتمردين على أوضاعهم ، ودوافع الثورة عندهم ومصدرها إيمانهم بأن الحضارة الغربية قد أدت إلى سحق انسانية الانسان لسبب الحربين العالميتين .

و بسبب تعبد الغرب للمادة و الآلة و الغلو فى تقدير المال ، و منهم من آمن بالتشرد و أرخوا العنان لملذاتهم و تحدوا جميع المقدسات و هم يعتقدون أن كل منجزات الحضارة ليست قشرة سميكة من الجليد تغطى مياه المحيط و لكن هذه المياه سرعان ما تسحقه و تبدده .

إن هناك ثورة صريحة على القيم السائدة فى المجتمع الغربى الذى أصبح العنف

أخلاقيته و القلق جزء لا يتجزأ منه .

و قد تداعت الصيحات من أهل الفكر الغربي داعية إلى التشكيك في النظريات و الآراء المطروحة و التي تقوم عليها دعائم الاعتقاد و النفس و الأخلاق والاجتماع و ما كانت في يوم من الأيام موضع الشك ، و كان يظن أنها خالدة ، تقول هذا كله ليتيقظ مفكرونا و ليحذروا من صيحات الأغيار و دعاة التغريب الذين يدعوننا إلى السقوط في هذا الماخور القذر ، بينما أن هذه الأمور التي وصلت إلى هذا الحد من الامتياز تكشف عن مسئوليتنا أمام البشرية في تقديم الاسلام كمخرج وحيد لها من الأزمة ، فيجب أن يكون هداة دعاة للخروج من الظلمات إلى النور ، لا أن ندعى إلى الظلمات و إلى حضارة غارقة بائدة متحللة .

إن الاسلام اليوم هو أمل البشرية المنكوبة ؟ خروجاً إلى الانسانية الربانية حيث يمتاز الاسلام بالنظرة الجامعة (الماضي و الحاضر و المستقبل) و إلى (النفس و الروح و الجسد) و إلى (الدنيا و الآخرة) و النظرة الانسانية التي تخاطب الناس أجمعين ، فهو دين ونظام اجتماعي يقوم على أساس العقيده والتشريع والأخلاق ، و القرآن هو كتاب الله الوحيد الباقي على الأرض اليوم دون تحريف حيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي قدم سنن المجتمعات والأمم والحضارات و قدم منهج العلم ، و منهج المعرفة ذي الجناحين .

إن علينا أن نحذر الخطر الذي يريد احتواء الفكر الاسلامي بعد تهويد الفكر البشري ، لأن المطروحات عن طريق النظريات الماركسيــة و الفرويدية و المادية و العلمانية و الوثنية قد تغلغل في فكرنا الأصيل القائم ، فعلينا أن نبقي صفحة التوحيد الخالص و نعيدها إلى طابعها القرآني الرباني و أن نحافظ على ذاتيتنا التي أعطاها لنا الاسلام من أن ننصهر في بوتقة الأممية و العالمية حتى نستطيع أن نقوم بمسئوليتنا في تبليغ الاسلام إلى العالمين في هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ البشرية .

المرأة فى الاسلام

القاضى المستشار عامر الخطيب
(عضو مجلس الدولة ـ دمشق)

ما أجدر العالم اليوم أن يدرك ما فعل الاسلام بالمرأة ما مدحها وأعطاها، ما كرمها و عزز مكانتها، ما أولاها من اعتبار و تقدير، لأنها الأم و الزوجة و الأخت و الابنة و الحبيبة، لأنها نصف المجتمع تقع عليها مسئولية عظمى هى إعداد أجيال المستقبل فبصلاحها يصلحون و بفسادها يفسدون :

الأم مدرسة إذا أعددتها   أعددت شعباً طيب الأعراق

و قبل أن تشرق أنوار الاسلام كان المجتمع الجاهلى يعامل المرأة معاملة مهينة غير إنسانية فهى محتقرة مستضعفة إلا ما ندر .

و إن الحديث عن المرأة العربية فى الجاهلية يكشف لنا عظمة الاسلام و روعته بما رفع عنها من حيف و ظلم من جهة و بما أعطاها من حقوق من جهة أخرى .
يقول الدكتور أياد القزاز ملخصاً لحالها هذا :

(يبلغنا المؤرخون بأن نساء شبه الجزيرة العربية ـ قبل الاسلام ـ كن يعتبرن من قبل الرجال من قبيل الكماليات والممتلكات التى يمكن أن تشترى وتباع وتورث، أما الاسلام من الناحية الأخرى فانه سمح للمرأة بأن تمتلك ثروة و أن تتخلص منها وفقاً لمشيئتها و أن تحتفظ باسمها بعد الزواج، و أن تصبح وصية على القاصرين، و أن تتخذ من التجارة مهنة و أن تقيم الدعوى على الآخرين فى المحاكم دون أن تحصل على موافقة زوجها) .

و هكذا حينما جاء الاسلام، قلب المجتمع الجاهلى رأساً على عقب، فبدأ أول

ما بدأ بتكريم المرأة و إعطائها ما تستحقه من رعاية و تكريم .

فقد كان (. . إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً و هو كظيم ، يتوارى عن الناس من سوء ما بشر به . .) و لم تعد هذه الأنثى تدفن وهي حية ابنة شهور خوفاً من العار ، و في ذلك يشير كتاب الله معاتباً في تساؤل مر : (و إذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ؟) .

و لا خشية الفقر : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقكم و إياهم و إن قتلهم كان خطئاً كبيراً) ، بل غدت المرأة شريكاً للرجل في كافة مجالات الحياة :

١— فهي مساوية للرجل في الوجود الانساني :

قال الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، و خلق منها زوجها و بث منهما رجالا كثيراً و نساءاً) .

٢ — مساوية للرجل في التكاليف الشرعية و الثواب و الجزاء : قال تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة) وقال أيضاً : (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) .

٣— وهي مساوية للرجل في أهلية التملك : فلها أن تتملك ما تشاء من المال الحلال ، و لها حق التصرف بما لها بيعاً و شراء و صدقة و إهداء .

٤— للمرأة حق إبداء الرأي في الشؤون العامة و الخاصة كالرجل : فلقد جاء في القرآن الكريم قصة المرأة التي أخذت تجادل الرسول في أمر زوجها ، قال تعالى : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله ، والله يسمع تحاوركما) .

و لقد بايعت النساء رسول الله و سجل القرآن ذلك في قوله تعالى : (يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولايزنين

و لا يقتلن أولادهن و لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن و أرجلهن و لا يعصينك فى معروف فبايعهن و استغفرلهن الله إن الله غفور رحيم) .

٥ — أعطى الاسلام المرأة حق التعلم بل أوجبه عليها : فقد ورد فى الحديث أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت : يا رسول الله غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا من نفسك يوماً نأتى إليك فيه تعلمنا مما علمك الله ، فقال : اجتمعن يوم كذا و كذا ، فاجتمعن فجاء النبى ﷺ فعلمهن مما علمه الله) ، و قد جاء عنه قول : (طلب العلم فريضة على كل مسلم و مسلمة) و قد روت أم المؤمنين (عائشة) عليها السلام كثيراً من الأحاديث الصحيحة و بينت من سننه عليه السلام ، و كم كان المسلمون يسألونها عن فعله فى كذا من الأمر أو موافقته على كذا من الفعل .

٦ — منح الاسلام المرأة حق تولى القضاء : حيث أجاز لها القضاء بين الناس ضمن شروط القضاء المعروفة ، وإن ننسى لاننسى قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لامرأة (أخطأ عمر و أصابت امرأة) فى تصحيح حكم شرعى له ، وكانت هناك نساء متعلمات متفقهات يجلسن للقضاء بين الناس فى احتشام و وقار .

٧ — فى الجهاد : حيث كانت المرأة المسلمة رديفة المؤمن المجاهد فى المعارك و الحروب تقاتل معه ، و تقف إلى جانبه ، تحمسه ، وتداوى جراح الجرحى ، كما تقوم بالسقاية و الاسعاف ، و مازال حتى اليوم فى جزيرة قبرص ضريح تلك الصحابية الجليلة التى رافقت جيش الفتح الأول حينما افتتحت الجزيرة و كان رسول الله قد بشرها بذلك بعد ما سألته أن تكون فى أوائل المجاهدين الفاتحين ، و الشاعرة الخنساء التى قالت لمن جاء يبلغها نبأ استشهاد أبنائها الأربعة الذين قدمتهم للمعركة ، و ماذا عن رسول الله ؟ فلما علمت أنه بخير قالت : الحمد لله الذى شرفنى بموتهم و أرجو أن يجمعنى معهم فى مستقر رحمته ، وما أطول الحديث عن النساء المجاهدات

فى الاسلام منذ عصر رسول الله إلى يومنا هذا .

٨ — فى الارث : أصبحت المرأة فى الاسلام ترث و تورث بعد أن كانت لا شئ فى الجاهلية ، و باتت تمتلك و تبيع دون وصاية أحد و حسب مشيئتها .

و إن كان الاسلام قد جعل (للذكر مثل حظ الأنثيين) فى الارث ، فان هذا الوجه الشرعى غاية فى العدل و الانصاف .

١— فالمرأة إذا كانت أماً أو زوجة أو ابنة فان على زوجها أو ابنها أو أبيها أمر إعالتها و هو حق فرضه و أوجبه الاسلام ، فالقضاء يحكم للأم و الأخت و الابنة بقدر معلوم من دخل الرجل أكان أباً أم زوجاً (الذى هو مطالب أساساً بالانفاق فى بيته) أم إبناً أم أخاً و هذا لا ينطبق على المرأة ، فهى غير مطالبة بأى نفقة .

٢ — المرأة التى تتزوج تنتقل إلى بيت زوجها و تعيش فى كنفه ، أما الرجل فهو الذى يؤسس بيتاً و يسأل عن دين أبيه و يتكفل بما التزم به قبل مماته ، و هذا لا يعنى أن المرأة لا يصيبها شئ من هذه الديون ، بل إن الديون تقع على التركة قبل توزيعها ، ومع ذلك فان هذه التزامات مادية ومعنوية يتحمل أمرها على العموم الابن دون أخته .

كما أن الأب يستطيع أن يهب ما يشاء لبناته فى حياته أسوة بالذكور .

و الحقيقة أن حرمان الابنة أو محاولة منعها من الارث ليس من الاسلام فى شئ ، و هو مخالف لأحكام شريعة الله .

٩ — فى الزواج : للمرأة فى الاسلام الحق بأن تتزوج و أن يكون لها أولاد كالرجل تماماً سواء بسواء ، و كما أن للرجل الحق فى الانتقاء فكذلك للمرأة ، و قد أكدت ذلك أحاديث رسول الله و سننه .

فقد قال رسول الله ﷺ : يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر و أحصن للفرج ، و من لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء (أى غطاء) و لم يكتف الرسول بذلك بل ذلل كل ما يمكن أن يكون عقبة بين الشاب ومن يريد أن يتزوج كعقبة غلاء المهور مثلا ، فنراه فى أكثر من حديث يحث على تيسير المهور و ينهى عن المغالاة فيها ، و يقول فيما يقول : أبركهن أيسرهن مهراً .

و قوله أيضاً : من يمن المرأة تسهيل أمرها و قلة صداقها .

و قد ثبت عنه ﷺ أنه قد زوج من لم يجد مالا يمهر به من اختارها لنفسه بآيات من القرآن الكريم يحفظها لتصبح مهراً يستحل به من وقع عليها اختياره .

و نراه فى مواضع أخرى يحث أولياء النساء والبنات على عدم اشتراط شروط مادية أو معنوية من شأنها أن تحول بين الرجل و تكوينه لأسرة فيكفى فى نظره أن يكون الرجل متديناً أميناً كى يصبح كذلك أهلا للزواج ممن تقدم إليها فيقول فى ذلك : (إذا أتاكم من ترضون دينه و خلقه فزوجوه ، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض و فساد كبير) ، ما أعظم هذا و ما أروعه ، كما أحل الاسلام للخاطب أن ينظر إلى خطبته ، و قد روى فى هذا أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة فقال النبى ﷺ : (أنظر إليها فانه أحرى أن يؤدم بينكما) ، ويذهب الاسلام إلى أكثر من ذلك ، فيبيح للخاطب أن يراها فى أى مكان مادام يقصد بذلك أن يتزوجها ، و قد روى عن جابر بن عبد الله عن امرأته أنه قال : كنت أتخبأ لها تحت شجرة لأراها .

و لم يمنع الاسلام أن تقوم المرأة بخطبة الرجل الذى تراه مناسباً لها .

وأكبر شاهد خطبة أم المؤمنين السيدة (خديجة) رسول الله محمد بن عبد الله ،

حين أرسلت من يسأله أن يكون زوجاً لها ، و هى المرأة الشريفة ذات الحسب و النسب و الغنى ، و كان رسول الله يعمل عندها .

كما سمح الاسلام للمرأة أن تشترط فى أن تكون (العصمة) بيدها (فى بعض المذاهب) ، (أى أن يكون أمر طلاقها بيدها) ، و ذلك أسوة بالرجل ، وهو ما لم يكن قد جاء فى تشريع من قبل ، و يستتبع هذا أن تعلن المرأة موافقتها على من يخطبها و يؤخذ رأيها .

١٠— المرأة هى أم الولد و حاضنته و مربيته و هى بالتالى مربية الجيل و بانية الأمة فيجب أن تكون بمكان الصون والاحترام والعفة و الابتعاد عن مواطن الريبة ، ومن هنا فرض عليها الحجاب الذى هو ستر ماعدا الوجه والكفين والابتعاد عن التبرج و إظهار الزينة ولبس ما يجذب الأنظار وليس هو شل لحركتها أوالحيلولة بينها و بين ما تتطلبه الحياة الشريفة و التضييق عليها فى الشؤون الأساسية ، و من هنا شرع عقوبة قاسية على من يريد النيل من سمعتها و كرامتها ، قال الله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً أولئك هم الفاسقون) .

١١— و إذا كان الاسلام قد جعل للرجل حق الاشراف على المرأة فهو إشراف مسئولية لا إشراف ترفع ، و قد قال الله تعالى فى كتابه الكريم فى ذلك (الرجال قوامون على النساء) .

موقف الاسلام من عمل المرأة :

من خلال نظرة الاسلام الشاملة إلى المرأة نستطيع أن نتبين موقفه من ممارستها العمل و يتلخص موقفه هذا فى الأمور التالية :

١— إن الاسلام يبيح للمرأة العمل بل يوجبه عليها فى الأمور التى تختص

بشئون المرأة : كالقبالة و الطبابة و التمريض و التدريس و تربية الأطفال .

٢- إن الاسلام و إن كان قد فرض نفقة المرأة على زوجها أو قريبها فلا يمانع فى ممارستها العمل لاسيما إذا كان المجتمع بحاجة لجهودها أو لم يكن هناك من يعملها .

٣- إن المهمة الأساسية للمرأة هى قيامها بشؤون بيتها و إشرافها على تنشئة أولادها تنشئة صالحة ، فلا يحق لها أن تعمل إذا كان عملها يخل بهذا الواجب المقدس .

٤- يشترط مراعاة الآداب الاسلامية عند مزاولة المرأة عملها خارج المنزل كعدم التبرج و الخلوة لأن التهاون بهذه الآداب هو إساءة فى استعمال هذا الحق .

٥- كما يشترط أيضاً عدم تكليفها القيام بالأعمال الشاقة التى لا تتناسب مع طبيعتها و وظيفتها الأساسية كالعمل فى مناجم الفحم أو آبار البترول أو تنظيف الشوارع .

٦- هناك أعمال لا يحق للمرأة أن تمارسها لأنها لا تتلاءم مع وظيفتها الاجتماعية ، كرئاسة الدولة و رئاسة الجيش لأن رئاسة الدولة فى الاسلام ليست رمزية أو صورية بل عمل شاق إذ تشمل النظر فى جميع مصالح الأمة ، من الناحية السياسية و الاجتماعية و العسكرية كاعلان الحرب و قيادة الجيش و تقرير الحرب و الصلح ، و الاجتهاد التشريعى و غير ذلك ، بل كانت تشمل فى صدر الاسلام القضاء فى الخصومات و الخطابة فى المسجد يوم الجمعة و العيدين و ذلك كله لا يتفق مع استعداد المرأة الطبيعى ، ولا مع حالتها النفسية و الجسمية فى كثير من الأحوال ، و لا مع مهمتها الاساسية كأم للأطفال ، و راعية الأسرة ، لكن ذلك أيضاً لا علاقة له بأهليتها و إنسانيتها أو حقوقها الأخرى التى قررها لها الاسلام .

أخيراً . . إن الحديث عن تكريم الاسلام للمرأة و وضعها فى أسمى مكانة

د

يطول و يطول و لا يستوفيه حقه كتاب .

فقد دعا الاسلام المرأة كالرجل إلى الحياء فقال فى ذلك رسول الله (الحياء من الايمان) كما قال : (البذاء من الجفاء ، و الجفاء فى النار) ، و قال : (إن لكل دين خلقاً ، و خلق الاسلام الحياء) .

كما قال رسول الله فى صدد معاملة الزوج للزوجة (يغلبن كريم و يغلبهن لئيم) أى تكريم و أى تقدير للمرأة بعد هذا ؟

وفى تكريم المرأة كأم نورد الواقعة التالية : (جاء أحدهم إلى رسول الله قائلا : من أحق الناس فى صحبتى يا رسول الله ؟ قال : أمك ، قال ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك ، قال : ثم من ؟ قال : أبوك) .

كما جاء فى كتاب الله فى معنى (الجنة تحت أقدام الأمهات) (ولا تقل لهما أف و لا تنهرهما و قل لهما قولا كريماً) .

كما نهى الاسلام عن الايذاء ، و يقول فى ذلك الرسول الكريم : اتقو الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله و استحللتم فروجهن بكلمة الله و لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فان فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، و حتى هذا كرهه رسول الله فقال عليه الصلاة و السلام : لن يضرب خياركم ، و كذلك نفوره هو من هذه الاساءة كما ورد فى حديث أم المؤمنين السيدة عائشة قولها : ما ضرب رسول الله امرأة ولا خادماً قط ، و هكذا نرى أن الاسلام كان و مازال و سيبقى أفضل تشريع عرفته الانسانية و البشرية قاطبة على وجه الأرض ، كرم المرأة حق التكريم ، و أعطاها المكانة الرفيعة التى تستحقها ، وصانها و حصنها من كل ما يشوبها و يؤذيها و يضر بها ، فهى نصف المجتمع و هى أم الأجيال و هى سيدة البيت

و ربته و هى وراء كل عظيم زوجاً أم ابناً أم أخـــاً تدفعه و تشجعـــه و تكون له سنداً و عوناً .

لقد أدى رسول الله أعظم رسالة فى الأرض يوم أكمل بدينه المجتمع الانسانى و بلغ الذروة يوم طبق الأوائل سنته الشريفة فبلغت رأياتهم الآفاق و كانت المدنيـة الفاضلة التى تحدث عنها أفلاطون حقيقة واقعـة ممثلة فى دار الاسلام لا حلـــاً من أحلام الفلاسفة و المتصورين .

المراجـــع :

(١) حضارة العرب — للدكتور غوستاف لوبون — ترجمة عادل زعيتر .

(٢) العدالة الاجتماعية فى الاسلام ـ سيد قطب .

(٣) المرأة بين الفقه و القانون ـ للدكتور مصطفى السباعى .

(٤) مقال (الأسرة فى الاسلام) للدكتور سمير البلدى ، مجلة الثقـــافة العدد الخامس لعام / ١٩٧٥ .

(٥) مقـــال (صورة الانسان العربى لدى الأمريكيين) للدكتور أياد القزاز ، مجلة دراسات عربية عدد (٨) لعام ١٩٧٥ .

حول حديث الذباب :

قضية السنة النبوية مع خصومها

الدكتور : الأستاذ غريب جمعة

لا تزال طائفة من الناس تثير الغبار حول السنة النبوية ، حتى تأتى الاسلام من قاعدته الثانية بعد القرآن الكريم لعل بنيانه يتداعى ، و لكن هيهات هيهات ، و هى تفعل ذلك باسم التجديد تارة و باسم البحث العلمى تارة أخرى .

و الحق أن صنيع تلك الطائفة أشبه بصنيع طائفة من الكناسين ، تريد أن تظهر بمظهر النشاط فى عملها ، فتثير غبار الأرض فى جو السماء ، لتعكر صفاءها وتحجب أشباحها عن الناظرين ، فلا يلبث الغبار أن يرتد على وجوهها وتبقى السماء على صفائها ، و يرى الناس تلك الوجوه المغبرة ، فلا يزدادون لها إلا مقتاً و لا يزدادون منها إلا نفوراً .

تولى كبره مبطل :

و لقد كان أبو جهل ـ لعنه الله ـ يرى فى رسول الله ﷺ يتيم أبى طالب يدعى النبوة ، وجاء تلاميذ أبى جهل من بعده ، الذين لا يرون فى سنة رسول الله ﷺ إلا كلاماً عادياً ، لا يصح أن يكون من كنوز الحكمة و روائع البيان و مصادر التشريع الحق ، الذى تسعد به الأفراد و المجتمعات فى معاشهم و معادهم ، وتولى واحد منهم كبر هذه القولة المنكرة « القرآن و كفى » .

و قد حذرنا رسول الله ﷺ من هذا الصنف فى حديثه الشريف بقوله :
« لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يأتيه الأمر من بعدى مما أمرت به ونهيت عنه

فيقول : لا أدرى ما وجدناه فى كتاب الله اتبعناه » (١) .

وفى رواية أخرى يقول : « ألا وإنى أوتيت الكتاب و مثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه و ما وجدتم فيه من حرام فحرموه ألا و إن ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله » (٢) .

عود على بدء :

و كنا قد كتبنا بتوفيق الله على صفحات إحدى المجلات منذ خمس سنوات حول حديث الذباب (٣) و الحديث هو : عن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فامقلوه (اغمسوه) فان فى أحد جناحيه داء و فى الآخر شفاء (٤) .

و فى سنن ابن ماجة عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال : « أحد جناحى الذباب سم والآخر شفاء فاذا وقع فى الطعام فامقلوه فانه يقدم السم و يؤخر الشفاء » .

مقرون و رافضون :

و من القراء من رضى عن ذلك المقال و تقبله بقبول حسن ، و منهم من لم يقبله و لم يرفضه ، و منهم من تورم أنفه و أرغى و أزبد ، و راح يتندر ثم

(١) أخرجه أبو داوٴد و الحاكم .

(٢) رواه أبو داود و الترمذى .

(٣) المقال بعنوان : لا تقعوا على سنة خاتم الأنبياء كما يقع الذباب فى الاناء ، السنة ٣ عدد المحرم ١٣٩٨هـ و هى مجلة « منار الاسلام » .

(٤) رواه البخارى و مسلم (متفق عليه) .

يسأل : أنى لطبيب أن يكتب مثل هذا الكلام؟ وأين هى المراجع ؟ خصوصاً ونحن لم نقرأ فى تاريخ الطب أن أحد الأطباء استخدم الذباب فى العلاج لبعض الأمراض ؟ ؟ إلى آخر ما أثير من تساؤلات و اعتراضات ظاهرها التعالم الواضح ، وباطنها الجهل الفاضح ، و كان لابد من مواصلة البحث و التنقيب و سؤال أهل الذكر من أعلام الأطباء المسلمين ، المشهود لهم بالتقوى و العلم معـاً . و هـا نحن نعود إلى ما بدأ الحديث عنه مرة أخرى ، والعود أحمد إن شاء الله ، ونضع أمام القارىء الكريم ، ما هدانا الله إليه و أعاننا عليه ، تاركين الحكم له و على الله قصد السبيل .

و قد يقول قائل : و هل فرغنا من الفصل فى كافة القضايا الاسلامية و حل مشكلات المسلمين ، و لم يعد أمامنا إلا قضية حديث الذباب لتشغلنا بها ؟ ألا ترى أن الدم الاسلامى من أرخص الدماء فى العالم ، فى الفلبين و أفغانستان و لبنـان ؟ و أحب أن أقول لصاحب هذا القول : رويدك يا أخى . .

إن القضية ليست قضية حديث واحد هو حديث الذباب ، ولكنها فى الأصل هى قضية السنة النبوية مع خصومها ، إنها قضية الحق والباطل ، وما حديث الذباب إلا بداية المعركة التى تهدأ حيناً و تشتعل أحياناً ، حتى لقـد تجرأ واحد من جنود هذه المعركة و هاجم صحيح البخارى ، فى جريدة قاهرية تولت كبر النفخ فيه ، بل لقد كتب واحد منهم كتاباً (أو كتب له بضم الـكاف) و وضع له عنواناً هو :
« الأضواء القرآنية فى اكتساح الأحاديث الاسرائلية فى صحيح البخارى » . .

لهذا عدنا :

فهل عرفت أخى القارىء لماذا نعود إلى الحديث عن هذا الحديث . .

و لقد كان ممن اتصلت بهم بتيسير الله فى هذا الشأن طبيبان مسلمان أحسبهما من الصالحين ، من غير أن أزكى على الله أحداً .

أما أحدهما : فهو الأستاذ الدكتور أمين رضا ، رئيس قسم جراحة العظام و التقويم بجامعة الاسكندرية .

و أما الآخر : فهو الأستاذ الدكتور أبو الفتوح عيد ، أستاذ جراحة العظام بجامعة الاسكندرية أيضاً ، وتفضل الأول وأمدنا بالمعلومات التالية من مراجعها وبعضها مصور كما سترى ، أخي القارىء ، حتى لا تكون معلومات بغير مرجع أو تعليل ، و لا دعوى بغير برهان أو دليل .

أولا :

صورة من بعض صفحات كتاب مطبوع سنة ١٧٤٣ م (١) ميلادية و فيه صفحة ، لعمل لبخة من الذباب لوضعها على الجفون ، و هى الصفحة المائة من هذا الكتاب ، و الفقرة الخاصة بذلك هى الفقرة الثامنة ، من هـذه الصفحة ، و إليك ترجمتها .

« يجب أن تكون الأهـداب طويلة و كثيفة ، و إلا أصبحت أقل جمالا ، فاذا كانت قصيرة أو قليلة الكثافة ، و أريد جعلها تطول أو تكثف فيجب دهانها عدة مرات بزيت الدفران (المرعر) ، و زيت العنبر مخلوطين سوياً . أو تؤخذ ثلاثون ذبابة عادية ، و تسحق ثم يضاف إليها صفار بيضة مذاباً فى قليل من زيت التربنتينة ، و تصنع منها لبخة توضع على الجفن و هذه اللبخة ممتازة فى تعزيز نمو الأهداب » .

ثانيـاً :

صورة صفحة من كتاب ماتيريا ميديكا ، الذى كان يدرس بكلية الطب فى مصر فى الثلاثينـات و فيه ذكر للذباب الاسبانى الأخضر (كانثريدس) و إنه

(1) L , orthopedie . Par M . Andrt . Conceller .

يستخرج منه دواء للعنة (١) « العجز الجنسى فى الرجل » .

ثالثاً :

صورة لبعض الصفحات ، تتحدث عن تاريخ الالتهاب العظمى المزمن ، من رسالة الدكتور أبو الفتوح عيد ، وهو يعتبر حجة فى هذا المرض وخلاصتها (٢) .

لقد كانت الحرب العالمية حقلا خصيباً تطور خلالها علاج هذا المرض (التهاب العظام المزمن) ففيها استنتجت طريقة العلامة « أور » ١٩٢٧ م و طريقة العلاج باليرقات الذبابية للأستاذ « بير » سنة ١٩٣١ م ، و كانت هاتان الطريقتان نتيجة لملاحظات عابرة من ميدان المعركة و لهذه الصفحات مراجعها .

رابعاً :

صفحات من كتاب ادجار بيك ، و هو يشرح فقط تاريخ جراحة العظام ، و قد تعرض لهذا الموضوع فى صفحة ٢٢٦ (٣) .

خامساً :

مقال أرش فاين و هوراد الكسندر عام ١٩٣٤م ، مجلد ١٦ ، عدد ٣ ، من مجلة جراحة العظام الأمريكية وهى تشرح من صفحة ٥٧٢ إلى صفحة ٥٨٢ ،

---

(1) Materla Medica By : William Hal White . Churchili . London 1939

(2) Cliuic l And Bacteriological Studies On Staphylococal Osteomyelitis By Abul Fotoh Eid , Alexandri University 1968 .

(دراسات أكلينكية و بكتريولوجية فى التهابات العظام الناتجة عن الميكروب العنقودى) أبو الفتوح مصطفى عيد جامعة الاسكندرية ١٩٦٨م .

(3) Source Book Of Orthopaedics . By : Edgar Bick . Baltimore . Newyork U . S . A . 1948

علاج التهابات العظمية المزمنة بالذباب ، بشئ من التفصيل مع شرح كيفية تربية الذباب لهذا الغرض (١) .

سادساً :

صفحة إعلان فى مجلة جراحة العظام الأمريكية فى العدد ٣ من المجلد الثالث عشر ١٩٣١م وهى ص ١١ من الاعلانات ، وهو إعلان عن شركة « لديرل » المشهورة ، عن بيعها يرقات الذباب لاستعمالها للعلاج ، مما يدل على أن فى هذه الحقبة من الزمن انتشر هذا العلاج بدرجة وجدت تلك الشركة فيه مجالات لفتح سوق تجارية لها ، و قد ظهر ذلك الاعلان فى أعداد متوالية .

و قد نشرت مقالة وليام باير فى نفس العدد ص ٤٣٨ إلى ٤٧٨ و هى أيضاً مقالة مهمة و تعطى تفاصيل كثيرة عن هذا النوع من العلاج (٢) .

سابعـــاً :

مقال وليام روبنسون من صفحة ٢٦٧ إلى ٢٧١ من المجلد ١٧ عدد أبريل ١٩٣٥م ، من مجلة جراحة العظام الأمريكية ، وهو ليس جراحاً بل عالماً فى الحشرات ، و كتب مقالته ليشرح دراسته عن أسباب نجاح العلاج بالذباب .

و هو كما شرحه « بيك » فى كتابه ، تدرج من التفكير فى أن يرقات الذباب تتغذى على الانسجة الميتة والافرازات إلى التفكير فى أن إنتاج أيضها (التمثيل الغذائى) و فضلاتها هى السبب ، ثم إلى وجود تكبتر يوفاج (أكلة الجراثيم) و هذه الفكرة

(1) The Jourual Of Bone & Jointe Surgery Vol : Kvi No. 3 July 1934 Boston U. S. A.

(2) The Journal Of Bone & Jointe Surgery, Vol, x111 No. 3 July 1931 Boston U. S. A.

الأخيرة ظهرت فى الأبحاث فى النصف الثانى من الثلاثينات (١) .

و عاد الحق أبلج :

و كذلك مقالة هايمان جولد ستاين ص ٤٧٦ من نفس العـــدد ، ثم يعلق الأستاذ الدكتور أمين رضا على كل ذلك بقوله فى رسالته :

من كل هذا يتضح :

إن هذه الأبحاث التى ظهرت فى هذه الحقبة من التاريخ ، و لم يقم بها أناس مسلمون ، ولم يفكر فى القيام بها علماء فى الحديث النبوى يريدون إثبات صحة حديث الذبابة زوراً ، و بتطويع العلم لأغراضهم ، ولكنها كلها أبحاث بنيت على ملاحظات الجراحين القدامى ، « امبرو ازبارى فى القرن السادس عشر ، و بيروجوف فى القرن التاسع عشر » و جراحى الحرب العالمية الثانية . .

و كان يمكن أن « يتقزز » هؤلاء الجراحون من وجود الذباب و يرقاته فى جروح الحروب و فى الكسور المضاعفة لمظهرها البعيد عن النظافة كل البعد .

وكان يمكن أن يحكم هؤلاء الجراحون على هذه الجروح بأنها غير سليمة ، بسبب ميلهم فى عملهم إلى التعقيم و التنظيف و استعمال المطهرات .

ولكن بالرغم من هذا لاحظوا أن هذه الجروح التى كانت تتطور فى علاجها تطوراً متجهاً إلى الشفـــاء السريع و الأحسن هى من الجروح التى كانت تظل غير نظيفة « ملوثة » بالذباب .

و هذه الملاحظات دعتهم كما نرى فى هذه الأبحاث إلى تربية الذباب و إلى إنتاجه على المستوى التجارى ، و تسويقه بهدف علاج الجروح المتقيحة ، و علاج

(1) The Jurnal Of Bone & Joint Surgery , Nol . x V111 No .
2 April 1935 .

تقيحات العظام ، لأنها كانت علاجاً ناجحاً .

و لكن ظهور مركبات السلفا فى نفس الوقت ، و ظهور المضادات الحيوية الذى بدأ فى الحرب العالمية الثانية حول أنظار العلماء إلى هذه الطرق التى كانت جديدة فى زمانها و لكل جديد بهجة . أ . هـ .

آية من كتاب الله :

أما الأستاذ الدكتور أبو الفتوح عيد فانه يضيف معنى جديداً فى تفسير قوله تعالى : « و إن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » الحج ، حيث يرى بعضهم أن الله أثبت خاصية السلب للذباب و هو سلب الصحة ، يقول سيادته : « أما عن الآية الكريمة « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه . . . » فهى على عكس ما يقول العوام ، هى دليل صارخ على احتواء القرآن الكريم لمادة علميــة متطورة غابت عن عقولنا قروناً من الزمن ، وبالتأكيد يوجد الكثير بين دفتى هذا الكتاب العظيم ، إنه ليس صحيحاً ما يقولون : إن السلب فى معنى الآية الكريمــة هو سلب الصحة . . لا . .

استدلال تجريبى :

لقد أثبت علماء الحيوان : إن الذباب إذا أخذ شيئاً فانه للتو و اللحظة يفرز عليها إفرازات من الفم و الزوائد الأخرى فتتغير طبيعة الشىء بهذه الافرازات ، و عليه فانه أصبح فى حكم المستحيل « استنقاذ » ما سلبه الذباب ، لأن هذا الذى سلبه الذباب قد تغير كيميائياً (تركيبيا) أى أصبح شيئاً آخر ، و لك و لأى مسلم « مستنير » أن يتصور مدى الدقة فى التعبير القرآنى .

نور النبوة يخترق حجب الغيب :

هذه خلاصة المعلومات التى أرسلها الطبيبان العالمان المسلمان . .

و من كل هذا نرى : أن الحديث النبوى قد اخترق حجب الغيب و بدد ظلماته ، بنور النبوة المنبعث من مشكاتها الصافية وكشف عن وجود شئ على الذباب مضاد للميكروبات التى يحملها ، و هذا الشئ لم يعرفه العلماء إلا فى العصر الحديث .

و أود أن أذكر بما سبق قوله منذ خمس سنوات ألا و هو :

إن هذا الحديث لم يدع أحداً إلى صيد الذباب و وضعه عنوة فى الاناء ، و لم يشجع على ترك الآنية مكشوفة و لا على الاهمال فى نظافة البيوت و الشوارع و لا يتعارض مع الحماية من أخطار انتشار الذباب بأية صورة ، ولم يجبر من وقع الذباب فى انائه و اشمأز من ذلك على تناول ما فيه ، « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » البقرة :

و هذا الحديث لا يمنع أحداً من القائمين على صحة الناس و لا من الأطباء ، من التصدى للذباب فى مواطنه و محاربته و إبادته ، ولا يمكن أن يتبادر إلى الذهن (ذهن علماء الاسلام) أن هذا الحديث يدعو الناس إلى إقامة مزارع أو مفارخ للذباب و من صنع هذا أو اعتقده فقد وقع فى خطأ كبير .

و بعد :

فاننا نضع ذلك كله أمام الباحثين عن الحق و المحبين له من عباد الله « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب » .

أما الذين يشغبون على السنة ، والذين فى صدورهم كبر ما هم ببالغيه ، والذين يلوون ألسنتهم بالحديث عنها هؤلاء جميعاً نقول لهم :

آمنوا به أو لا تؤمنوا ، فان الحق أبلج و الباطل لجلج .

ألا هل بلغت ، اللهم فاشهد .

نبوة محمد ﷺ و دلائلها من القرآن

(الحلقة الثالثة الأخيرة)

الدكتور التهامى نقرة
أستاذ محاضر فى القرآن و السنة
بكلية الشريعة و أصول الدين/تونس

القرآن و أعداء الرسول :

و لقد ظل القرآن يقود الرسول بالوحى المتجدد ، و يرشده و يعلمه ، ويشد أزره ، و ينافح عنه و يلقنه فى الصراع الجدلى مع خصومه الوثنيين و بعض أهل الكتاب حول قضايا العقيدة كالتوحيد والنبوة والبعث ببالغ الحجة وفصل الخطاب.

جحد المشركون نبوته ، بدعوى أنه بشر مثلهم . و لم تكن فوق البشرية قدرة على فعل الخوارق . و تسخير الأكوان و الخلود ، و الصعود إلى السماء واستنزال الملائكة ، (و قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشى فى الأسواق . لو لا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ،) (الفرقان ـ ٧ ـ ٨) فأنزل الله عليه ما يؤكد نبوته ، و نبوة الانسان رغم تعرضه للمرض و الضرر و للموت و سائر الأعراض البشرية ، و ليس محمد بدعا من الرسل .

(و ما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، و ما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ، و ما كانوا خالدين) (الأنبياء ٧ ـ ٩) . و ادعوا فى إنكارهم لنبوته أنه لم يكن من جنس الملائكة و المخلوقات العلوية (قالوا أبعث الله بشراً رسولا ؟) (الاسراء ٩٤) .

فأوحى الله إليه (قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ، قل كفى بالله شهيداً بينى و بينكم ، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً (الاسراء ٩٤ - ٩٦) وإنما حصلت لهم هذه الشبهة لجهلهم حقيقة الانسان و كرامته عند الله ، و جهلهم كذلك لطبيعة الملائكة التى لو قدر لها أن تعيش فى الأرض لصاغها الله فى صورة آدمية، لأنها هى الصورة التى تلائم طبيعة الأرض (١) مصداقاً لقوله جل و علا (و لو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، و للبسنا عليهم ما يلبسون (الأنعام ٩) .

و هكذا اتخذ أعداء النبى من بشريته ذريعة لنقض دعوته ، و التشكيك فى صدق نبوته ، فرد القرآن على دعواهم الباطلة بما يثبت مقام الانسان النبى (و قال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً و كذلك جعلنا لكل نبى عدواً من المجرمين ، و كفى بربك هادياً و نصيراً (الفرقان ٨١) .

و الشبهة الثانية التى أبعدتهم عن الايمان برسالته ، أنه كان فقيراً يتيماً ، ثم راعياً صغيراً ، ثم تاجراً أجيراً ، و لم يكن من الرجال الأقوياء الأشداء و لا من الفرسان الشعراء ، و لا من أصحاب الوظائف الدينية الذين يستشفعون عند الآلهة للخطاة و المذنبين .

وكانت قيادة البادية فى هذا العصر من اختيار القبائل الذين يبلغون من العمر سناً متقدمة ، و قد حنكتهم التجارب ، و لهم فى حسن التدبير مقام رفيع ، و فى القبيلة منزلة اجتماعية مرموقة ، لما يملكون من ثروات ، و ما يقدمون لها من خدمات ، كما كانت قيادة الحضر فى المجتمع المكى بين التجار الكبار و أصحاب القوافل و رؤوس الأموال و لم يكن الرسول من أولئك و لا من هؤلاء .

---

(١) التهامى نقرة سيكلوجية القصة فى القرآن ٢١٦ (ط : تونس ١٩٧٤) .

إنهم لا يخفون تعجبهم و إنكارهم أن يكون محمد هو النبيء الذى أظله هذا الزمان ، و فيهم الزعماء المطاعون إن أمروا ، و المستجابون إذا دعوا ، و هم يحسبون أن اختصاص النبي بهذا الفضل الالهي يخضع لمقاييسهم المادية المخالفة لمؤهلات الرسالة ، ولمنطق الاصطفاء للنبوة و ما دروا أن الله سبحانه لا يروج عنده خداع المظاهر الزائفة ، و الأعراض الدنيوية الزائلة ، و أن الذين تنطبع فى نفوسهم الحقيقة كاملة ، هم الذين يؤمنون بالقيم الخالدة ، و يدعون إليها . و إن زهد فيها الناس و أعرضوا عنها .

و قيمة الرسول إنما هى فى ذلك الايمان العميق المستولى على كل مشاعره ، و الذى يجعله يفنى فى الله ، و يرتفع إلى ذرى العظمة و القوة الروحية ، فيستوى عنده الغنى و الفقر و الشبع و الجوع ، و اللذة و الألم ، و الراحة و التعب ، و ينتفى من نفسه كل خوف فى غير الله ، و كل حساب لغير الله ، و كل تردد فى سبيل الله ، و تتضاءل عنده عظمة العظماء وهيبة الكبراء ، وقوة أهل الثراء، ألم يقل رسول الله فى مناجاته لربه ضارعاً ، و كان قد ارتحل إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، و يدعوهم إلى الله ، و لكنهم أغروا به سفهاءهم و صبيانهم يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبيه (إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى ، لك العتبى حتى ترضى ، و لا حول و لا قوة إلا بك) و قيمة الرسول إنما ترتبط بمدى صلاحية عقله للحكم الصحيح و النظرة السليمة ، و استعداد قلبه لحب الانسانية و الاخلاص لله ، فلا يحبس قلبه و عقله على فرد أو أسرة أو قبيلة ، بل يسخرها فى شؤون الدنيا و الآخرة للخلق أجمعين .

فهو لا ينشد الرئاسة من وراء الرسالة ، و لا المنافع الخاصة من وراء الدين ، ولا ينكص عن التضحية من أجل الحياة ، و إنما هو صورة حية لرسالته الخاتمة الشاملة .

و قد أبدع القرآن فى تشيخص ما يعتلق فى نفوس المبطلين من عصبية و أنانية ، و فيما أوحى إلى نبيه من أجوبة حاسمة رداً على اعتراض الماكرين ، و افتراء الجاحدين ، و تساؤل الحائرين .

و إنا لنجد فى سورة الأعراف ، إحدى السور المكية التى نزلت فى أوائل الدعوة ما يؤكد أن فريقاً من اليهود و النصارى فى مكة ، وجدوا صفات النبى المنتظر مطابقة لما جاء فى التوراة و الانجيل ، فآمنوا به و صدقوه ، و نصروه فاستحقوا تنويه الله فى قوله (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث ، و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به و عزروه و نصروه و اتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون (الأعراف ١٥٧) .

و قد ذكرت السيرة أسماء الذين أسلموا وهم قليلون بالنسبة إلى اليهود الذين كانوا فى الجبهة المعادية من وثنيين و منافقين ، يوقظون الفتنة . يستعملون أسلحة الحرب النفسية بالدسائس و المكائد الخفية ، ونشر الأخبار المزيفة و إعانة أعداء الاسلام بالحيلة و المال ، و إعداد المخططات لهزيمة المسلمين و فتنهم عن دينهم وبث التفرقة بين الأوس و الخزرج ، وهم فى حصونهم آمنون ، يشهدون الصراع ، و يضعون الخطط على ضوء النتائج ، ذلك أن طبيعة التعارض العقائدى بين الاسلام الذى يقوم على المساواة بين الناس جمياً ، و الفتح على الانسان ، و العالم ، وبين اليهودية التى تقوم على أسطورة (شعب الله المختار) وعصبية العرق ، و الانغلاق الكامل يجعل الفرق بعيداً .

ولم يكن أحبار اليهود يتوقعون أن النبى المنتظر سيجئ من سلالة غير السلالة اليهودية ، التى يعتقدون أن النبوة لا تخرج عنها .

ففضح القرآن هذه المزاعم الدينية المحرفة التى مارسوها طويلا ، و اتضح لهم أن محمداً ﷺ يدعو إلى توحيد غير الذى يؤمنون به على أساس قومى استعلائى مغلق ، وهو أن الله الواحد هو إله إسرائيل الذى اختارهم لنفسه و ميزهم من دون الناس والدين الجديد جاء بما يعم الناس جميعاً ، ونبى الاسلام ليس مجرد زعيم يحترف السياسة ويعتمد أى أسلوب لبلوغ أهدافه ، إنما هو صاحب رسالة عظمى للعالم كله ، رسالة تتجاوز تعاليمها و متطلباتها الحدود الاقليمية ليثرب و للجزيرة العربية (١) و ذلك يعنى الحد من نشاطهم الدينى والاقتصادى ، و من نفوذهم المادى و الأدبى ، و قد كشف القرآن فى كثير من آياته عما يضمرون و من ذلك مثلا قوله تعالى .

(أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقاً كذبتم و فريقاً تقتلون) و قالوا قلوبنا غلف ، بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا » فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ، بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على ما يشاء من عباده ، فباؤا بغضب على غضب و للكافرين عذاب مهين (البقرة ٨٦ ـ ٨٩) .

ولقد جعل اليهود الدين رابطة عرقيه قومية ، ولم يجعلوه هداية ربانية . و أى منطق ينفذ إلى بصيرة طمس الحسد نورها ، وأغلقت عصبية الجنس أبوابها ونوافذها .

جاء فى سفر التثنية أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام (. . . أقيم لهم نبياً من اخوتهم مثلك ، و أجعل كلامى فى فمه ، فيكلمهم بما أوصيه به) (الأصحاح ١٨ فقرة ١٨) .

وعبارة « أقيم لهم نبياً من اخوتهم » مجملة ، فسروها لمجئ رسول منهم ، لا من ولد إسماعيل ، و كأن الله سبحانه أراد أن تكون هذه العبارة مجملة حفظاً لهذه

(١) عماد الدين خليل دراسة فى السيرة ٣٢٦ .

البشارة ، لأنهم لو عرفوا الحقيقة لأخفوها ومحوها ! وكانوا إذا أقدموا على حرب أو على أمر عظيم سألوا الله أن ينصرهم ، و توسلوا إليه بالنبي الموعود كما تدل الآية (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، و قد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟ (البقرة ٧٤-٧٥) . فقد كان بينهم وبين الرسول حجاج و جدال بلغ من جانبهم حد التحدى و العناد ، و دفعهم عداؤهم الشديد إلى التورط فى تفضيل عبادة الأوثان على التوحيد (١) .

و لما أعيتهم كل حيلة ، و ضاقوا بالرسول ذرعاً ، حاولوا أن يقنعوه بالخروج من المدينة كما أخرجته قريش من مكة بحجة أن من سبقه من إخوانه الرسل ارتحلوا إلى بيت المقدس و أقاموا به ، و بأن القبلة فى الصلاة نحوه .

ولكن رسول الله عرف مكرهم و نواياهم ، فأوحى الله إليه بما كان يتمناه فى نفسه ، وهو أن يحول قبلة الاسلام و المسلمين إلى المسجد الحرام ، أول بيت وضع للناس ورفع قواعده إبراهيم و إسماعيل عليهما السلام (قد نرى تقلب و جهك فى السماء ، فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ،و إن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم ، و ما الله بغافل عما يعملون) (البقرة ١٤٨) .

و هكذا فان ما أثبته القرآن الكريم من أدلة قاطعة على نبوة محمد ﷺ و على صدق رسالته، وعلى أن ما أوحى الله به إليه هو الحق الذى لا مراء فيه، ليكشف عن جانب هام من السيرة النبوية يتمثل فى هذا الصراع العنيف ، و فى هذا الجهاد

(١) أحمد إبراهيم الشريف مكة و المدينة فى الجاهلية وعصر الرسول ٤١٥ (ط القاهرة ١٩٦٥) .

القاسى الذى خاضه الرسول وصحبه ضد الوثنية العنيدة ، و اليهودية الماكرة ، و ضد قوى الشر والبغى على إختلاف أغراضها و أسلحتها و مكائدها .

فقد تآمروا على قتله و قاطعوه ، وأصيب فى بدنه ، و أتهم فى عقله ، و أوذى فى أهله ، و عذب فى صحبه ، فصبر على البلاء ، و تجرع الأسى .

حسدوا فقالوا شاعر أو ساحر ... و من الحسود يكون- الاستهزاء
أبوا الخروج إليه من أوهامهم ... و الناس فى أوهامهم سجناء
و من العقول جداول و جلامد ... و من النفوس حرائر و أماء
الحق عرض الله كل أبية ... بين النفوس حمى له و وقاء
و لمثل هذا ذاق فى الدنيا الطوى ... و انشق من خلق عليه رداء

ألم يقل ربنا تعالى فى معرض التنويه بخلقه الكريم ، و الامتنان عليه بفضله العظيم (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم) (سورة التوبة — ١٢٩) فكان بحق النعمة المهداة ، و الرحمة المسداة .

ألم يصبح هذا الدين الحنيف الذى بعث به ، يتألق تألق الشمس فى كبد السماء ، ويمتد نوره فى الآفاق مشرقاً ومغرباً ؟ و فضله على سائر الأديان أنه عقيدة و شريعة ونظام ، يتجاوب مع فطرة الانسان ، و يستجيب لسمو أهدافه ومطامحه ، لأنه لا يفصل بين المادة و الروح ، و لا بين العمل للدنيا و العمل الآخرة ، و لا بين العبادات ، و المعاملات ، و لا يفرق بين تعبئة الطاقات المادية والطاقات الروحية ، و لا بين ما يصلح الناس فى معاشهم ، و ما يزكيهم فى معادهم ولا بين بناء الحياة على الفضائل و الكمالات الخلقية ، و بين بناء الحضارة العمرانية والصناعية و العملية ، إذ هو قد بنى أمة ، و أنشأ دولة و أسس حضارة ، و دعا إلى العمل و الوحدة و النظام و حث على التحابب و التآلف و السلام .

كان المسيحيون يرددون فى الكنائس أيام الحرب فى ليلة ميلاد المسيح عليه السلام « المجد لله فى الأعالى ، و على الأرض السلام

فاذا أصبحوا انقلبوا سراعاً إلى آلات الدمار و الفناء ، يرسلون منها الحمم و الموت على إخوانهم الذين هتفوا معهم و صلوا ناراً ، و سحقوهم و أبادوهم إبادة الحشرات .

و نحن اليوم – رغم ضعفنا و قوتهم ، و تخلفنا و تقدمهم – لا يجوز لنا أن نستهين بقيم ديننا و تعاليم نبينا ، فتنقلب القيم فى حياتنا و يصبح الدين كفراً ، والسلام خصاماً ، والأخوة عداء ، والعهد غدراً ، والوعد خلفاً ، والوحدة انقساماً .

فمن حق رسول الله علينا ـ و قد أخرجنا من الظلمات إلى النور ـ أن نهتدى بسيرته و نقتدى بأخلاقه ، وأن نكون كما يحب أن تكون أمته عزيزة منيعة ، و هو الذى علمنا بجهاده الدائب أن الجمود فى الوقوف ، و الهوان فى القعود ، و الذل فى ترك الجهاد و حب الدنيا .

و لم يتخلف العالم الاسلامى عن مسيرة الحياة الزاحفة إلا بتوقفه عن النشاط و الحركة و التجديد قروناً طوالا فقد فيها عزة السيادة ، و حرم فضل الريادة ، و شرف القيادة ، و افتقر إلى مقومات الحضارة .

إن حبنا لرسول الله ﷺ الذى شرح الله صدره ، و رفع ذكره ، و أعلى قدره ، و اختصه بالشفاعة العظمى ، و أضفى عليه حلل المجد الذى لا يبلى ، ليفرض علينا طاعته و العمل بسنته و ترسم خطاه عملا بقول الله جل جلاله :

(و ما أرسلنا من رسول إلا ليطاع باذن الله ، و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤك فاستغفروا الله ، و استغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ، فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت و يسلموا تسليماً) (سورة النساء ٦٣ ـ ٦٥) .

مواقف و رجال فى القضاء الاسلامى
محمد بن الحسن الشيبانى

دكتور فواد عبد المنعم أحمد (قطر)

يعد محمد بن الحسن بن فرقد الشيبانى من أشهر تلاميذ الامام أبى حنيفة ، و كان له أثر كبير فى نشر مذهبه ، و قد ولد محمد سنة اثنتين و ثلاثين و مائة بواسط ، من أب كان يشتغل جندياً و كان ثرياً ، حريصاً على تعليم ولده ، فقد انتقل به إلى الكوفة ، و كانت الكوفة وقتها زاخرة بكبار الفقهاء كأبى حنيفة ، و العلماء و الحفاظ و الأدباء و قد تلمذ محمد فى الفقه على أبى حنيفة و قد أثنى عليه الامام فى مجالسه الأول عند ما لمس منه أن يشفع العلم بالعمل به و قال فيه: إن هذا الصبى يفلح إن شاء الله. وقد كان، ثم بعد وفاة الامام أبى حنيفة تلمذ على أبى يوسف، وقد استظهر محمد بن الحسن القرآن الكريم وعمره أربعة عشر عاماً وقيل إنه حفظه فى أيام معدودات و يعلل ذلك بأنه كان يتمتع بعقلية حافظة و ذكاء حاد و عقل تام .

و قد خلف له والده مبلغاً كبيراً أنفق جله فى طلب العلم و الرحلة إليه، فقد رحل إلى الأوزاعى عالم أهل الشام، وسفيان بن عيينه فى مكة ، وعبد الله بن المبارك فى خراسان ، و الامام مالك بن أنس فى المدينة و سمع منه الموطأ و لازمه ثلاث سنوات ، كما درس تفسير القرآن و وعى أحكامه، وحفظ الكثير من سنن رسول الله ﷺ ،و تجلت فى مصنفاته استفادته من طريقة أهل الرأى و طريقة الأوزاعى و الامام مالك .

و قد اشتغل محمد بن الحسن بالتدريس و نبغ فيه و أقبل عليه طلبة العلم من

المشرق والمغرب ينهلون من ثقافته ، وتخرج على يده أئمة كبار منهم: الامام الشافعي، و الامام أبو عبيد القاسم و أسد بن الفرات المغربي فاتح صقلية ، و صاحب المدونة الأولى في تاريخ الفقه المالكي لأن مدونته هي أصل مدونة سحنون الشهيرة . و كان محمد بن الحسن باراً بتلاميذه يتعهدهم بالرعاية المادية و المعنوية وخاصة الغرباء منهم: يروى لنا أسد بن الفرات قال : كنت يوماً جالساً في حلقة محمد بن الحسن ، حتى صاح صائح الماء للسبيل ، فقمت مبادراً فشربت من الماء ثم رجعت إلى الحلقة فقال لي محمد بن الحسن: يا مغربي شربت ماء السبيل ؟ فقلت : أصلحك الله . وانا ابن سبيل قال ثم انصرفت ، فلما كان الليل إذ بانسان يدق الباب فخرجت فاذا خادم محمد بن الحسن فقال : مولاى يقرأ عليك السلام ، و يقول لك ما علمت انك ابن سبيل إلا في يومي هذا ، فخذ هذه النفقه فاستعن بها على حاجتك ثم رفع إلى صرة ثقيلة ، فقلت في نفسي هــذه كلها دراهم ففرحت بها ، فلما دخلت منزلي فتحتها فاذا فيها ثمانون ديناراً .

و قد كلف محمد بن الحسن بقضاء الكوفة و هو كاره له غير راغب فيــه ، و بعد وفاة أبي يوسف تولى قضاء القضاة ، ولكنه كان يتحين الفرص دائماً للهروب منه مقبلا على ما يرغب فيه من الاشتغال بالفقه و رواية الموطأ للامام مالك لأن روايته من الروايات العالية للصحبة والملازمة .

و من المواقف التي تذكر للشيباني و التي تدل على ورعه و تمسكه بالسنة وإنه لا يهاب أحداً فيما يراه حقاً ، فقد ذكر أحد معاصريه قال: كنا مع محمد بن الحسن إذ أقبل الرشيد فقام إليه الناس كلهم إلا محمد بن الحسن .

فسأله الرشيد: مالك لم تقم مع الناس .

قال : كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها ، إنك أهلتني للعلم فكرهت

أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة و ابن عمك ﷺ قال : « من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فليتبوأ معقـــده من النار » و إنه إنما أراد بذلك العلماء فمن قام بحق الخدمة و إعزاز الملك فهو هيبة للعدو ، و من قعد و اتبع السنة التى عنكم أخذت فهو زين لكم .

فقال الرشيد : صدقت يا محمد .

و قد خلف محمـــد بن الحسن آثاراً علمية كثيرة من أهمها : كتاب الجامع الكبير ، ضمنه أهم المسائل فى الفقه و قيل : إنه لم يؤلف فى الاسلام مثله .

و كتاب السير الكبير و هو يتضمن أحكام القـانون الدولى فى الاسلام فى السلم و الحرب ، فيعرض لأحكام الأسارى و إسلام المشركين ، والأمان ، والرسل الذين يفــدون إلى دار الاسلام من دار الحرب و الحصانات التى لهم ، و الغنائم و الصلح و التحكيم ، و المعاهدات و نقضها ، و جرائم الحرب ، و قد عد هارون الرشيد هذا الكتاب من مفـاخر أيامه ، و قد حظى بعدة شروح من أهمها شرح السرخسى .

و إذ كان الغرب ينسب القانون الدولى العام إلى «بروسيوسى الهولنـــدى المتوفى ١٦٤٥م و يطلقون عليه أبا القانون الدولى فهو جهل منهم و ودأ للحقيقة التى يعلمها كل باحث منصف من سبق الاسلام و فقهائه بأحكام القانون الدولى ، و من أجل ذلك أسست فى غوتنجن بألمانيا جمعية للحقوق الدولية ضمت علماء القانون الدولى والمشتغلين به فى مختلف البلاد ، يهدف التعريف بالشيبانى وإظهار آرائه فى هذا الباب و نشر مؤلفاته المتعلقة بذلك ، و قد توفى محمد بن الحسن الشيبانى ـ رحمه الله ـ فى سنة تسع و ثمانين و مائة تاركا من بعده علماً ينتفع به وعملا صالحاً دائماً يذكر له .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

نظام العــدل فى الاسلام

أعد هذا البحث للؤتمر الفقهى الاسلامى المنعقد – قبل أعوام – بالرياض (عاصمة المملكة السعودية) .

فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى
رئيس قسم التفسير بكلية الشريعة دار العلوم ندوة العلماء

الحمــد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على أفضل الأنبياء و المرسلين محمد و آله و أصحابه أجمعين .

إن جميع الشعوب المتحضرة و الديانات المعروفة تدعى أنها تأمر بالعــدل و القسط و النصفة ، و تؤكد عليها ، و تعطى لها الأهمية البالغة ، و لكن عند ما تمتحن هذه الدعاوى العريضة على المحك التاريخى الأصيل الذى لا يجامل و لا يحابى فانها تسفر عن منظر عجيب يلعب فيه بهذه الدعاوى والكلمات والمصطلحات ، و الحقيقة تبقى وراء الستار ، فينشر الجور بدل العدل ، و يشاد بالظلم بدل الانصاف ، و لا يسع هذا الوقت المحدود لضرب الأمثلة و عرض التفاصيل التى هى معروفة ومعلومة لدى العلماء و أهل الخبرة و المعرفة ، فيحسن أن نقصر بحثنا على التعاليم الاسلامية فيما يتعلق بالعدل و العدالة الاجتماعية ، و القسط و الانصـاف ، و نذكر أمثـلة واقعية ، و شواهد تاريخية عـلى أهمية العدل فى الاسلام ، و رجحانه فى ميزان تشريعه و قانونه ، فانه مقتضى موضوعنا اليوم .

إننا نجد فى كتاب الله الحكيم – الذى هو أساس الشريعة الاسلامية الغراء – آيات عديدة تؤكد على قضاء متطلبات العدل ، والاهتمام بمقتضيات العدالة الاجتماعية ، تأكيداً أولياً صارماً ، فان آية سورة النحل التى أمر الله فيهـا بأعمال مهمة عديدة – ايجابية و سلبية – و التى تعتبر من أجمـع آيات القرآن الحكيم و أشملهـا معنى

و محتوى ، كما جاء فى تفسير « روح المعانى » المعروف (١) : « قال غير واحد من العلماء لو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية لكفت » .

و نقل الحافظ عماد الدين ابن كثير قول فقيه الأمة عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — ، « إن أجمع آية القرآن فى سورة النحل « إن الله يأمر بالعدل و الاحسان الخ » (٢) .

و قد كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز جعل هذه الآية — لجامعيتها و شمولها — فى خطبة الجمعة كجزء مستقل من أجزاء الخطبة (٣) .

كما نقل علامة الشام محمد جمال الدين القاسمى فى تفسيره للقرآن الحكيم — أمر الله عز و جل فى هذه الآية بالعدل (٤) .

أولا حيث قال : « إن الله يأمر بالعدل و الاحسان و إيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر و البغى يعظكم لعلكم تذكرون » فليست هذه الآية بمثابة المشورة التى يخير الانسان فى قبولها و ردها ، بل أمر فيها بالعدل ، أمراً مؤكداً فقيل : « إن الله يأمر بالعدل » و نسب إصدار هذا الأمر الصارم المؤكد إلى الله رب العزة و الجلال ، الأمر الذى يصرح بأن هذا المأمور أو المطالبة ، ليس من المأمورات الاختيارية ، أو من المسئوليات الخلقية المحضة ، كما يظهر لكل من تصفح تاريخ الشعوب و الديانات الأخرى التى لم تكن إقامة العدل عندها إلا مسئولية خلقية ، و لكنه فى الاسلام فريضة قانونية ، وبند مؤكد من بنود الدستور ، فلابد من إقامته و تمثيله ، و تقوية دعائمه ، و يستلزم الزيغ و الانحراف عنه ، عقاباً

(١) روح المعانى ج ١٤ ص ٢٢٠ (المطبوع بادارة الطباعة المصطفائية بديوبند ، الهند) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٨٢) مطبوع دار احياء الكتب العربية بمصر

(٣) تفسير القاسمى (١٠/٣٨٥١) . (٤) سورة النحل آية : ٩٠ .

و تعزيزاً شديداً ، فقد ذكر فى آية سورة المائدة أنه مفتاح التقوى ، و أوعد على تركه ، يقول الله : « اعدلوا هو أقرب للتقوى ، و اتقوا الله ، إن الله خبير بما تعملون » (المائدة : ٨) ، و قد لوح قبل ذلك فى أسلوب جميل ـ تعبير لطيف إلى باعث هام من بواعث العدوان و الظلم و ترك العدل و القسط ما ينتصب دليلا من الدلائل الكثيرة المتنوعة على أن منزل هذا الكتاب الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، و مرسل هذا الدين القويم . هو واهب نعمة الوجود الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم ، فقال : « يأيها الذين آمنوا لا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا » ، و أشار القرآن الحكيم فى آية كريمة أخرى ، إلى بعض الأسباب النفسية التى تحمل الانسان على غمط الحق ، و دوس كرامة العدل و نشر الظلم « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله و لو على أنفسكم أو الوالدين و الأقربين » (النساء : ١٣٥) . لأن الانسان ربما ينحرف عن جادة الحق و العدل ، و يتبع طريق الظلم و الجور ، للأثرة . و القرابة وصلة الرحم و إيثار الأصدقاء و أصحاب الزلفى على الأجانب و الأباعد ، فنبه القرآن الحكيم إلى هذين المنبعين أو السببين الأصليين الهامين — الحب و العداوة — اللذين يدفعان الرجل — بصفة عامة — إلى تناسى مقتضيات العدالة الاجتماعية ، و السير فى طريق لا يبالى فيه بحق لأحد على الآخر . فكأنه بذلك وضع الاصبع على الداء الحقيق و المرض الكامن ، فاذا عرف المرض سهل العلاج ، و أصبح اجتثاث جذوره واقتلاع جراثيمه ميسوراً لكل إنسان ، وهناك فى كثير من آيات الكتاب الحكيم غير هاتين الآيتين ، أوامر كثيرة مؤكدة على إقامة الانصاف و إرساء دعائم العدل فى المجتمع الانسانى ، و فى هذا التكرير و إعادة الأمر مرة بعد مرة و تأكيده بأساليب مختلفة ، وكلمات قوية ، تبرز أهمية العدل وخطورته ، واعتباره

و سیادته علی کل حکم من الأحکام الاسلامیة ، لأن القرآن الحکیم دستور الاسلام و الأساس المتین للشریعة الاسلامیــة السمحة البیضاء ، الذی یبحث فی المبــادئ و الکلیات و الأصول و الحقائق ، و یقرر القواعد المحکمة ، و الضوابط المبدئیة ، فی ألفاظ محکمة متراصة ، و تعبیر موجز أخاذ و لا یفیض هذا الدستور الاسلامی الأساسی فی التفاصیل و استیعاب الجزئیات . و الاحاطة بجمیع نواحی الأمر — و بالنظر إلی هذه الحقیقة وجود تکرار الأمر بالعدل و القسط فی هذا الکتاب الحکیم . یفید تاکیداً بالغاً ، و أهمیة قصوی ، فاقرؤا هذه الآیات الکریمة :

« إن الله یأمرکم أن تؤدوا الأمانات إلی أهلها وإذا حکمتم بین الناس أن تحکموا بالعدل (۱) » .

« وأوفو الکیل والمیزان بالقسط لانکلف نفساً إلا وسعها، وإذا قلتم فاعدلوا و لوکان ذا قربی ، و بعهد الله أوفوا ، ذلکم وصاکم به لعلکم تذکرون (۲) » .

« و استقم کما أمرت و لا تتبع أهواءهم ، و قل آمنت بما أنزل من کتاب ، و أمرت لا عدل بینکم (۳) » .

. و قد استفاضت الأحادیث النبویة فی التاکیــد علی الأخذ بالعدل و التمسک بمقتضاه ، و وجهت أتباعها بمختلف الطرق و التعابیر ، إلی أن یتخذوا العدل عماداً و عمدة فی حیاتهــم و یسیروا وفق المنهج العادل ، و قد کان یقتضی کل ذلک أن تحل الأمة المؤمنة بالقرآن الحکیم و بالرسول الأمین ﷺ دین العدل و الانصاف الذی نبع من المنبعین الأصیلین — الکتاب و السنة — محلا لائقاً هاماً فی حیاتهم لا یوازیه شئ آخر فی أهمیته و مکانته ، و قد کان ذلک فعلا . غیر أنه لا یمکن

(۱) سورة النساء : ۵۸ . (۲) سورة الانعام : ۱۵۲ .

(۳) سورة الشوری : ۱۵ .

أن يكون كل فرد من أفراد الجماعة ، في كل عصر من العصور يشعر ذلك الشعور الصحيح نحو العدل ، و ينفذه في حياته حق التنفيذ ، ثم إن كل جماعة أو أمة تكون في عصورها الأولى أشد تمسكا بمبادئها و أكثر تصلباً في العمل وفقها ، ثم يضعف هذا التمسك و يلين التصلب شيئاً فشيئاً . و ذلك أمر طبعي لم يشذ عنه أى دين أو أى جماعة و أمة ، و لكن الأمة المسلمة — بعد قرونها الأولى المشهود لها بالخير التى لم تضاهها نظائر فى التاريخ الانسانى — دامت محافظة على مبادئها متمسكة بتعاليم دينها فى القرون المتأخرة إلى حد لم تبلغ إليه الأمم و الشعوب الأخرى ، رغم دعاويها العريضة ، و لم تستطع أن تقدم مثلا يضاهى ما قدمه المسلمون من الأمثلة الرائعة ، و إن كل قانون — و لو كان مؤسساً على القوانين الراقية المسايرة للحياة لهذا العصر الراقى المتنور المدعى للعدالة — لم يستطع أن يراعى فى وضعه معانى العدالة الشاملة مثل ما راعاها ذلك القانون الذى لا يتغير أساسه و لا تتبدل مبادؤه فى أى عصر من العصور ، والذى نفذ قبل أربعة عشر قرناً من الزمان ، وما أحسن ما قاله المجاهد الشهيد عبد القادر عودة ، فى كتابه « التشريع الجنائى » و قد صور امتياز القانون الاسلامى و رجحانه على جميع القوانين المتبعة فى العالم ، يقول : « لن أقارن بين القانون فى القرن السابع الميلادى و بين الشريعة التى أنزلت على محمد ﷺ . . . إنما أقارن بين قانون متغير متطور ، يسير حثيثاً نحو الكمال حتى يكاد يبلغه كما قال . . . و بين شريعة نزلت من ثلاثة عشر قرناً ، لم تتغير و لا تتبدل ، فيما مضى و لن تتغير ، أو تتبدل فى المستقبل » — ثم يقول بعد سطور — « فنحن إذن حين نقارن ، إنما نقارن بين أحدث الآراء و النظريات فى القانون ، و بين أقدمها فى الشريعة ... و سنرى و نلمس من هذه المقارنة أن القديم الثابت خير من الحديث المتغير » ، ثم يقول المؤلف فى صرامة المؤمن وجده ،

ولكن الحديث لن يتهيأ له أن يصل إلى مستوى القديم ، إذا قورن ما يضعه الناس بما صنعه رب الناس (١) .

و يحسن بنا — قبل أن نتعرض لذكر الأمثلة و الشواهد على تلك القوانين العادلة التى حققت العدل ، عملا ، و تطبيقاً ، و نماذج من عمل الأمة المسلمة و سيرها فى ضوء العدل ، و القسط و اتباعها للانصاف — أن نلم بتعريف العدل و ما تحتوى عليه هذه الكلمة لغة و معنى ، (و ليس ذلك زيادة إلى علم سادتنا و علمائنا الكبار ، بل إكمالا للبحث و إتماماً لنواحى الموضوع) .

يقول العالم المحقق أبو الحسن بن محمد بن الفضل الشهير بالراغب الأصفهانى فى كتابه « مفردات القرآن » (١) و هو يعرف معنى العدل « العدالة و المعادلة ، لفظ يقتضى معنى المساواة ، و يستعمل باعتبار المضايقة ، و العدل ، و العدل ، يتقاربان ، و لكن العدل يستعمل فيما يدرك بالبصيرة ، كالأحكام و على ذلك قوله « أو عدل ذلك صياماً ، و العدل ، و العديل ، فيما يدرك بالحاسة ، كالموزونات ، و المعدودات ، و المكيلات ، فالعدل هو التقسيط على سواء ، وعلى هذا روى « بالعدل ، قامت السموات و الأرض » — ثم يقول المؤلف عن نوع من أنواع العدل ! مطلق (أى عدل مطلق) يقتضى العقل حسنه ، لا يكون فى شئ من الأزمنة منسوخاً ، ولا يوصف بالاعتداء بوجه ، نحو الاحسان إلى من أحسن إليك ، و كف الأذى عمن كف أذاه عنك ، » يذكر نوعاً آخر من العدل فيقول :

« و عدل يعرف كونه عدلا بالشرع » ثم يمثل له بقوله « كالقصاص و أروش الجنايات » ثم يقول ، « العدل هو المساواة فى المكافاة . « يتبع »

---

(١) التشريع الجنائى (١/٥٠٤) .

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٣٢٧ — ٣٢٨ (المطبوعة بالمطبعة الميمنة بمصر

المستشرقون و السنة النبوية

- الحلقة الثانية -

محمد صدر الحسن الندوى

نبذة من رحلات المحدثين فى طلب العلم و قصة ذاكرتهم النادرة :

و هنا نسوق برضا من عد لرحلات المحدثين فى طلب الحديث النبوى ، ليعلم القراء الكرام بأنهم كانوا يبذلون أيما جهد فى طلب الحديث ، و إلى أى حد بلغ بهم الاعتناء بالحديث والشغف به ، حتى لم يبالوا فى سبيله بنفوسهم ونفائسهم ، وتحملوا العناء إلى حد لا يمكن أن تتصوره فضلا عن أن نخوض غماره ، و ضحوا فى سبيله بالراحة و الدعة و آثروا عليها التشتت و المصائب ، لكنهم تجرعوا مرارة الأسفار و الرحلات و عبروا العقبات الكاداء التى عرضت لهم أثناء السفر و ذللوا المشاكل و تغلبوا عليها بإيمانهم القوى و جرأتهم النادرة و شجاعتهم الفريدة و حبهم البريئ - الذى لا يشوبه شئ من الرياء و النفاق - للنبى ﷺ .

قال مالك : بلغنى أن سعيد بن المسيب قال : إن كنت لأسير الأيام و الليالى فى طلب الحديث الواحد (١) .

عن ابن المدينى قال : قيل للشعبى : من أين الك هذا العلم كله ؟ قال بنفى الاعتماد . و السير فى البلاد ، و صبر كصبر الجماد ، و بكور كبكور الغراب (٢) .

و يقول أبو حاتم الرازى :

---

(١) تذكرة الحفاظ للذهبى ج١/ص ٥٥ - ٥٦ دار أحياء التراث العربى ١٣٧٤ بيروت .

(٢) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٨١ .

« أول ما رحلت أقمت سبع سنين، و مشيت على قدمى زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العـــدد ، و خرجت من البحرين إلى مصر ماشياً ثم إلى الرملة ماشياً ، ثم إلى طرطوس، ولى عشرون سنة » وقال: بقيت بالبصرة سنة أربع عشرة فبعت ثيابى حتى نفدت، وجعت يومين فأعلمت رفيقى فقال: معى دينار ، فأعطانى نصفه ، و طلعنا مرة من البحر و قد فرغ زادنا فمشينا ثلاثة أيام لا ناكل شيئاً ، فألفينا بأنفسنا وفينا شيخ فسقط مغشياً عليه فجئنا نحركه و هو لا يعقل فتركناه ومشينا فرسخاً فسقطت مغشياً على ، و مضى صاحبى فرأى على بعد سفينة ، فنزلوا الساحل فلوح بثوبه فجاؤه فسقوه، فقال أدركوا رفيقين لى فما شعرت إلا برجل يرش على وجهى ثم سقانى ثم أتوا بالشيخ فبقينا أياماً حتى رجعت إلينا أنفسنا (١) .

ورحل الحافظ جمال الدين إلى العراق و نيسابور و الموصل و اربل والحرمين و كتب بخطه شيئاً كثيراً ، يقول عنه الحافظ الضياء : إنه مشى على رجليه كثيراً و صار قدوة و انتفع الناس بمجالسه التى لم يسبق إلى مثلها (٢) .

و رحل الحافظ ابن خليل الدمشقى من دمشق إلى بغداد و أصبهان و مصر ، يقول عنه الحافظ الضياء : هو صاحب رحلة وتطواف ، وقال عنه عمر بن الحاجب الحافظ : هو أحد الرحالين بل أوحدهم فضلا و أوسعهم رحلة نقل بخطـــه المليح ما لا يدخل تحت الحصر (٣) .

الحافظ أبو الربيع سليمان الكلاعى قال عنه الحافظ المنذرى : إنه سمع بيلنسية و أشبيلية و غرناطة و شاطبة و مالقة و سبتة و دانية، و جمع المجاميع (٤) .

(١) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٥٦٨ . (٢) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤٠٩ .

(٣) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤١١ .

(٤) تذكرة الحفاظ ج ٤ ص ١٤١٩ .

و نكتفى هنا على إيراد قصة واحدة تدل على قوة ذاكرة المحدثين و مواهبهم التى أتحفهم الله تعالى بها لهذا العمل الجليل ، وأنها لم تكن الأحاديث مدونة فى كتبهم و أسفارهم و دفاترهم بل كانت محفوظـــة فى صدورهم أيضاً ، كانوا يتمتعون بقوة الذاكرة النادرة التى يبعث على الاستعجاب و الدهشة ، لكن الذين قيضهم الله لهذه الوظيفة الضخمة الجليلة أودع فيهم تلك المواهب التى توهلهم للقيام بأعباء هذا المنصب الجليل الخطير .

« روى أبو أحمد بن عدى الحافظ عن الامام محمد بن إسماعيل البخارى ، قال سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخارى قدم بغـــداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا و أرادوا امتحان حفظـــه ، فعمدوا إلى مائة حديث ، فقلبوا متونها و أحاديثها ، وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد آخر ، واسناد هذا المتن لمتن آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكل رجل عشرة أحاديث وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى . و أخذوا عليه الموعـــد للمجلس ، فحضروا و حضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان و غيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله ، انتدب رجل من العشرة ، فسأله عن حديث من تلك الأحاديث فقال : « لا أعرفه » فلم يزل يلقى عليه واحداً واحداً حتى فرغ و البخارى يقول « لا أعرفه » وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون : « فهم الرجل » و من كان لم يدر القصة ، يقضى على البخارى بالعجز و التقصير و قلة الحفظ ، ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : « لا أعرفه » فسأله عن آخر فقال : « لا أعرفه » ثم انتـــدب الثالث و الرابع إلى تمـــام العشرة ، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، و البخارى لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه » فلما علم أنهم قد فرغوا التفت

إلى الأول فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، و صوابه ، كذا ، و حديثك الثانى كذا و صوابه كذا ، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فرد كل متن إلى اسناده و كل اسناد إلى متنه ، و فعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ و أذعنوا له بالفضل » (١) .

يقول الأستاذ محمد أسد النمساوى فى كتابه القيم « الاسلام على مفترق الطرق » و هو يبحث عن افتراءات الشرقيين و الغربيين حول الحديث و أدلتهم الواهيـــة فى رفض صحته مبدئياً .

« لقد أصبح من قبيل الزى فى أيامنا هذه أن ينكر المرء مبدئياً صحة الحديث ثم هو من أجل ذلك ينكر نظام السنة كله .

هل هنالك أساس علمى لهذا الاتجاه ؟ أم هل هنالك مبرر علمى لرفض الحديث على أنه مصدر يستند إليه الشرع الاسلامى ؟ .

إننا نظن أن خصوم الرأى الصحيح ـ مذهب أهل السنة فيما يتعلق بالحديث ـ يمكن أن يأتوا بأدلة مقنعة فعلا تثبت مرة واحدة عدم الثقة بالأحاديث المنسوبة إلى الرسول ، و لكن ليس هذا موضوعنا ، إنه على الرغم من جميع الجهود التى بذلت فى سبيل تحدى الحديث على أنه نظام ما ، فان أولئك النقاد العصريين من الشرقيين و الغربيين لم يستطيعوا أن يدعموا انتقادهم العاطفى الخالص بنتائج من البحث العلمى ، وإنه من الصعب أن يفعل أحد ذلك ، لأن الجامعين لكتب الحديث الأولى وخصوصاً الامامين البخارى و مسلماً ، قد قاموا بكل ما فى طاقة البشر عنـــد عرض صحة كل حديث على قواعد التحديث عرضاً أشد بكثير من ذلك الذى يلجأ إليـه المؤرخون الأوربيون عادة عند النظر فى مصادر التاريخ القديم .

(١) مقدمة فتح البارى ص ٤٨٧ .

إننا نتخطى نطاق هذا الكتاب إذا نحن أسهبنا فى الكلام على وجه التفصيل ، فى الأسلوب الدقيق الذى كان المحدثون - علماء الحديث - الأولون يستعملونه للتثبيت من صحة كل حديث (١) ، و يكفى - من أجل ما نحن هنا بصدده - أن نقول إنه نشأ من ذلك علم تام الفروع ، غايته الوحيدة البحث فى معانى أحاديث الرسول و شكلها و طريقة روايتها ، و لقد استطاع هذا العلم فى الناحية التاريخية أن يوجد سلسلة متماسكة لتراجم مفصلة لجميع الأشخاص الذين ذكروا على أنهم رواة أو محدثون ، إن تراجم هؤلاء الرجال و النساء قد خضعت لبحث دقيق من كل ناحية ، و لم يعد منهم فى الثقات إلا أولئك الذين كانت حياتهم و طريقة روايتهم للحديث تتفق تماماً مع القواعد التى وضعها المحدثون ، تلك القواعد التى تعتبر على أشد ما يمكن أن يكون من الدقة . فاذا اعترض أحد اليوم من أجل ذلك على صحة حديث بعينه أو على الحديث جملة فان عليه هو وحده أن يثبت ذلك ، و ليس ثمة من مبرر مطلقاً من الناحية العلمية أن يجرح أحد صحة مصدر تاريخى ما ، ما لم يكن باستطاعته أن يبرهن على أن هذا المصدر منقوص ، فاذا لم تقم حجة معقولة ، أى علمية على الشك فى المصدر نفسه . أو فى أحد رواته المتأخرين ، و إذا لم يكن ثمة من الناحية الثانية خبر آخر يناقضه ، كان حتما علينا حينئذ أن نقبل الحديث على أنه صحيح (٢) .

ثم إنه يضرب لذلك مثلا و يقول :

« لنفرض مثلا أن رجلا ما . يتكلم عن حروب محمود الغزنوى فى الهند ، ثم نهضت أنت و قلت له « لا اعتقد أن محمود الغزنوى كان يوماً ما فى الهنـد ،

(١) أشرنا إليها فى السطور السالفة بايجاز .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق ص ٨٩ - ٩٠ - ٩١ دار العلم للملايين الطبعة الثالثة ١٩٥١م .

و إن ما تذكره خرافة لا أساس تاريخياً لها » فماذا يمكن أن يحدث فى مثل هذه الحال ؟ سينهض فى الحال قوم متضلعون من التاريخ و يحاولون إصلاح خطئك فيستشهدون بكتب الأخبار و التاريخ المبنية على أخبار رواها معاصرو ذاك السلطان المشهور و يعتبرونها هم أدلة قاطعة تثبت أن محموداً ذهب إلى الهند ، فى تلك الحال يجب عليك أن تذعن للبرهان و إلا عدوك فريسة للاوهام ، تنكر الحقائق التاريخية الثابتة من غير سبب واضح ، فاذا كان ذلك كذلك فعلى الانسان بأن يتساءل عما يمنع النقاد العصريين من أن يشملوا مشكلة الحديث أيضاً بهذه النظرية المنطقية الواسعة (١) .

ثم يستطرد قائلا :

« إن السبب الأول لوجود حديث مكذوب إنما هو كذبة متعمدة ترجع إلى مصدره الأول ، أى إلى الصحابى أو إلى أحد الرواة المتأخرين (٢) . أما فيما يتعلق بالصحابى فيمكن صرف التهمة ابتداءاً ، وإننا لن نتكلف سوى شئ من النظر الثاقب فى الناحية النفسانية لنرد هذه المزاعم إلى نطاق الوهم الخالص، إن الأثر العظيم الذى

(١) نفس المصدر ص ٩١ .

(٢) أما الصحابة فلم يعرف فيهم ـ و لله الحمد ـ من تعمد الكذب على النبى ﷺ كما لم يعرف فيهم من كان من أهل البدع المعروفة كبدع الخوارج والرافضة و القدرية و المرجئة ، فلم يعرف فيهم من هؤلاء الفرقة ، و أما التابعون فلم يعرف تعمد الكذب فى التابعين من أهل مكة و المدينة و الشام و البصرة بخلاف الشيعة فان الكذب معروف فيهم . وقد عرف الكذب بعد هؤلاء فى طوائف (فتاوى ابن تيمية ج ١ ص ٢٤٩ ، طبع ١٢٨١هـ المؤلف .

تركته شخصية الرسول فى أولئك الرجال إنما هى حقيقــة من أبرز حقائق التاريخ الانسانى ، ثم هى فوق ذلك ثابتة بالوثائق التاريخية ، فهل يمر فى خيالنا أن أولئك الرجال الذين كانو على استعداد لأن يضحوا أنفسهم وما يملكون فى سبيل رسول الله ، كانوا يتلاعبون بكلماته : « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » عرف الصحابة ذلك ، و لقد اعتقدوا ضمناً بكلام الرسول الذى كانوا ينظرون إليه على أنه ينطق عن الله أفمن المحتمل من وجهة النظر النفسانية إذن ، أن يغفلو هــذا النهى الصريح نفسه » .

ثم يستفيض فى سرد الكلام و يقول :

« ثم إن هنالك احتجاجاً آخر يمكن أن يتحدى الناس على أساسه صحة الحديث فقد يقال إن الصحابى الذى سمع الحديث من شفتى الرسول أو أحد الرواة المتأخرين قد أخطأ ـ مع أنه فى اعتقاد نفسه صادق ـ خطأ حمله عليه سوء فهم أو نسيان أو سبب آخر من الأسباب النفسانية . و لكن الايقان الداخلى أى النفسانى يشهد على بطلان إمكان وقوع هذا الخطأ ، إلى حد كبير ، و على الأقل من الصحــابة ، ذلك لأن الذين عاشوا فى صحبة الرسول رأوا جميعهم فى أقوال الرسول وأعماله أعظم الأهمية ، لا لأن شخصية الرسول أثرت فيهم فخلبت ألبابهم فقط بل لأنهم كانوا أيضاً على اعتقاد جازم بأن ذلك كان أمراً من الله لتنظيم حياتهم حتى فى أدق تفاصيلهــا ، كل ذلك اهتداءاً بالرسول و اقتداءاً به ، من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يتناولوا الأحاديث بلا اكتراث ، بل جربوا أن يتعلموها و أن يحفظوها عن ظهر قلب ، و لو أدى ذلك إلى شئ من الازعاج الشخصى لهم ، و مما يروى أن الصحــابة الذين كانوا يلازمون الرسول انقسموا رجلين رجلين ، فكان أحد الرجلين يلازم الرسول مرة بينما يسعى الآخر وراء رزقه أو يقوم على أموره ثم يلازم الرجل الآخر الرسول

ليتمكن الأول من السعي وراء رزقه هو، وكان كلما سمع أحدهما شيئاً عن الرسول أو رأى عملا من أعماله نقله إلى صاحبه، و لقد كانوا جميعهم شديدى الحرص على أن لا يفوتهم شئ من أقواله أو أفعاله، و من المرجح أنهم فى مثل هذه المواقف قد أهملوا لفظ الحديث كما قاله الرسول تماماً، و لكن إذا كانت مئات الصحابة قد حفظوا جميع القرآن غيباً بلفظه و بما فيه من فروق ضئيلة فى الرسم (التهجئة) فلا ريب فى أنه كان ممكناً لهم وللتابعين من بعدهم أن يحفظوا أقوال الرسول متفرقة كما حفظوا القرآن سواء بسواء، و لكن من غير أن يزيدوا على الأحاديث أو أن ينقصوا منها شيئاً.

ثم إن الأحاديث الموضوعة «المكذوبة» لم تخف قط على المحدثين كما يزعم بعض النقاد الأوربيين عن سذاجة، بل إننا نرى عكس ذلك الزعم. إن علم الحديث بدأ لما مست الضرورة إلى تمييز الحديث الصحيح من الحديث الموضوع، و إن صحيحى الامامين البخارى و مسلم ليسا سوى نتيجة مباشرة لهذا التمييز، فوجود الأحاديث الموضوعة إذن لا يمكن أن يكون دليلا على ضعف نظام الحديث فى مجموعة كما أنه لا ينتظر من قصص ألف ليلة و ليلة أن تبرهن على شئ يتعلق بالاثبات أو بالطعن فى صحة الأخبار التاريخية المروية عن عصر تلك القصص (١).

وهذا هو السبب الوحيد لأجله كان النقاد من أصحاب الحديث يقولون ـ وعلى ثقتهم يقول كل واحد ممن له إلمام بصناعتهم ـ من غير مبالاة لوضاع الحديث أن الأمة فى مأمن من أحاديثك الموضوعة، وقد قال هارون الرشيد لواضع حديث فى قولته *النادرة المشهورة: أين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزارى وعبد الله بن المبارك ينخلانها فيخرجانها حرفاً حرفاً* (١).

(١) الاسلام على مفترق ص ٩٢ ٩٣ ٩٤ . (١) ابن عساكر ج ٢ ص ٢٥٤

بعد هذه الاستعراضات كلها لا يمكن رجلا متزناً سليم العقل ، دقيق النظر ، صاحب طريقة موضوعية فى البحث أن يجترىء على انكار الأحاديث على أساس أنها لا تتوفر فيها تلك الشروط التى لا بد منها للاعتماد عليها ، لأن التدقيق والتمعير الذى قام به المحدثون فى نقد الأسانيد والرواة لا يمكن أن يزيد عليه أحد فى أى عصر .

لكن الذين ينظرون إلى الأحاديث بعين المؤرخ فقط ، يجترؤن على انكار الحديث على أساس يعتبرونه الأساس ، والحقيقة أن هذا الأساس ليس له أى أساس ، و لم يكتف هؤلاء الناس بل خطوا خطوة أخرى جرئيــة و أنكروا أحاديث صحيحى البخارى و مسلم ، و ما تأملوا فى مكانتهما الخاصة عند علماء هذا الفن .

فعلى سبيل المثال ننقل هنا عبارة مؤلف فجر الاسلام وهو يبحث عن قواعد الجرح و التعديل التى وضعها علماء المسلمين ، يقول :

« قد وضع العلماء للجرح و التعديل قواعد ليس هذا محل ذكرها ، و لكنهم ـ و الحق يقال ـ عنوا بنقد الاسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية أن ما نسب إلى النبى ﷺ لا يتفق و الظروف التى قيلت فيه أو أن الحوادث التاريخية الثابته تناقضه ، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفى يخالف المألوف فى تعبير النبى ، أو أن الحديث أشبه فى شروطه وقيوده بمتون الفقه ، و هكذا ، و لم تظفر منهم فى هذا الباب بعشر معشار مع عنوانه من جرح الرجال وتعديلهم ، حتى نرى البخارى نفسه على جليل قدره ودقيق بحثه يثبت أحاديث دلت الحوادث الزمنية و المشاهدة التجريبية على أنها غير صحيحة لاقتصاره على نقد الرجال كحديث « لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسة » و حديث « من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم ولا سحر ذلك اليوم إلى الليل »(١)

(١) فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

التضامن الاسلامى فى العصر الحديث
ضرورته و وسائله

– الحلقة الثالثة –

الدكتورة نادية شريف العمرى

الخلافة و أثرها على وحدة الأمة الاسلامية :

انتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى و قد ترك فى الأمة شيئين ما إن تمسكت بهما لن تضل بعده ، وهما كتاب الله تبارك و تعالى وسنة رسوله ﷺ ، و تولى شئون المسلمين بعد الرسول الكريم ﷺ أبو بكر الصديق رضى الله عنه خليفة رسول الله ﷺ ، و نعم الناس فى ظل الخلافة بالسعادة الدنيوية و الراحة النفسية ، و لو وازنا بين أوضاع المسلمين فى حكم الخلافة الاسلامية و أوضاعهم بعد زوال الخلافة لوجدنا الفرق شاسعاً و البون واسعاً ، من حيث الرفاه و الأمن و العزة و السيادة و وحدة الصف و اتفاق الكلمة ، و احترام العالم و إجلال المفكر و الأخذ برأى الفقيه ، و تقدير الناس و إكرام الضيف و تقبل النصح و الارشاد ، و القيام على حدود الله ، و عقد رأية الجهاد ، و التقدم الحضارى فى المجال الاقتصادى و العمرانى و التعليمى والمدنى و السياسى . . فى ظل الخلافة نعم الناس برغد العيش و التكافل الاجتماعى و الأدبى و المالى ، و جمع الكلمة و اتخاذ الموقف الموحد إزاء الأخطار الخارجية .

(. . . حكام مسلمون ، آمنوا بالله و اليوم الآخر و حافظوا على كتاب الله وسنة رسوله ، و وقفوا عند حدودهما و التزموا بأحكامهما ، حضروا المساجد مع الرعية ، و فتحوا لهم الأبواب . . . يتقبلون المحاسبة و الانكار ، كان الجهاد فى سبيل الله رائدهم ، لم يتخلوا عنه فى أحلك الظروف التى مرت بهم ، لأنهم آمنوا

يقول الصديق — رضى الله عنه — (ما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا) لذلك كثرت الفتوحات الاسلامية فى زمانهم و كانوا قادة الفتح الاسلامى . .) (١) .

تعريف الخلافة :

الخلافة فى اللغة مصدر (خلف) ، يقال : (خلفه خلافة ، أى كان خليفته و بقى بعده ، و الخليفة السلطان الأعظم ، و الجمع خلائف و خلفاء) (٢) فالخلافة موضوعة فى الأصل لكون الشخص خلفاً لغيره ، و من ثم سمى من يخلف رسول الله ﷺ فى تنفيذ الأحكام الشرعية و إدارة الحكم و قيادة الجيش خليفة ، و يسمى أيضاً (إماماً) تشبيهاً بامام الصلاة فى الاقتداء به و اتباعه ، و لهذا يقال (الامامة الكبرى)

و على هذا فالخليفة من يخلف رسول الله ﷺ فى الأمة الاسلامية ، و يقال له (خليفة) باطلاق اللفظ ، من غير قيد ، و يقال له : (خليفة رسول الله) و اختلف فى صحة تسميته خليفة الله ، فأجازه بعض علماء الفقه اقتباساً من الخلافة العامة التى هى للآدميين المشار إليها بقوله تعالى : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » (٣) و قوله سبحانه : « و هو الذى جعلكم خلائف الأرض و رفع بعضكم فوق بعض درجات » (٤) و منع الجمهور منه ، و قد نهى أبو بكر صديق — رضى الله عنه _ لما دعى به ، و قال : (لست خليفة الله و لكنى خليفة رسول الله ﷺ) و الاستخلاف إنما هو فى حق الغائب ، و ليس فى حق الحاضر (٥) .

أما الخلافة فى الاصطلاح : فهى رياسة عامة فى أمور الدين و الدنيا نيابة عن رسول الله ﷺ ، و فى ذلك يقول ابن خلدون : (و الخلافة هى حمل الكافة

(١) الاسلام بين العلماء و الحكام للأستاذ عبد العزيز البدرى ص ١٥ .

(٢) لسان العرب . (٣) الآية (٣٠) من سورة البقرة .

(٤) الآية (١٦٥) من سورة الأنعام وانظر الآية (٣٩) من سورة فاطر

(٥) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦

على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين و الدنيا (١).

وذهب السلف الصالح إلى أن أساس كل حكم فى الاسلام الخلافة، وأن منزلة الخليفة من الأمة كمنزلة رسول الله ﷺ من المؤمنين، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة، و له حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده و ينفذ زمام الأمة، و كل ولاية مستمدة منه، و كل خطة دنيوية متفرعة عن منصبه، فهو الحاكم الزمنى و الروحى للسلمين (٢).

و على هذا فالخليفة هو الذى يتولى شئون المسلمين و يحكم بشريعة الله و يطبق أنظمة الاسلام فى كافة مجالات الحياة الدنيا، اجتماعية كانت أو اقتصادية، أو تعليمية أو سياسية داخلية أو خارجية، و ليس معنى قولنا (بيده زمام الأمة) أنه يحكم فى الأمة حسبما يمليه عليه هواه أو تأمره به نفسه، كلا! بل إنه ملزم بتطبيق الدستور الاسلامى و هو مسئول أمام الناس عن مدى تطبيق النظام الاسلامى.

و الخلافة صورة أصيلة و تعبير صادق لجمع كلمة المسلمين و توحيد أنظمتهم الدنيوية و سياستهم الخارجية، و هى عنوان على اتحاد وضعهم و قوتهم المعنوية و المادية، و هناك أدلة كثيرة تدعو إلى جمع المسلمين فى كافة بلادهم و جميع أقطارهم تحت قيادة موحدة، من هذه الأدلة قوله صلى الله عليه وسلم (يد الله مع الجماعة) (من فارق الجماعة فاقتلوه) قول الله تعالى : (و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٦٦ .

(٢) تاريخ الاسلام، د. حسن ابراهيم، ص ٦٣ .

إلى أمر الله فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين (١) .

واجب المسلمين لتحقيق التضامن الاسلامى :

لقد أدرك العالم الاسلامى أن السبب فى تخلفه عن ركب التقدم الحضارى ، و العلم (التكنولوجى) . إنما يرجع إلى الاستعمار الذى امتص القوى الوطنية ، و الأنشطة العقلية ، و الطاقات الجسمية التى كانت تعمل بدأب و إخلاص فى سبيل استقلال البلاد ، هذا الاستعمار الذى خيم بثقله و قسوته و جبروته على الوطن الاسلامى أمداً طويلا ، استغل فيها خيرات البلاد واستخدمها فى سبيل نهضته الحديثة و تقدمه الصناعى و عمرانه الشاهق و مصانعه المشادة و إذا كان المستعمر قد أدخل بعض التحسينات على الجوانب العمرانية فى البلاد المستعمرة فقد قصرها على المدن التى يسكنها هو نفسه .

و إذا أدرك العالم الاسلامى أيضاً الجهود الشيوعية المكثفة التى عملت منذ ظهور ثورتها على إقامة دولة إسرائيل فى فلسطين (قلب الوطن الاسلامى) فنى أكتوبر عام ١٩١٧ م أى فى نفس الشهر الذى وقع فيه الانقلاب الشيوعى أعلنت الحكومة السوفيتية تأييدها لاقامة ما سموه (حق اليهود فى فلسطين) و قد سبق وعدهم هذا وعد بلفور (٢) ، و هناك منافع متبادلة بين السوفييت و الصهيونية تظهر بوضع الخطط و فى تنفيذها رويداً رويداً ضد فلسطين و العرب و المسلمين ، و فى تقدير السوفييت أن انتشار الماركسية فى البلاد العربية معناه زوال (سوء التفاهم) بين اليهود و العرب ، و هم يضعون مسئولية سوء التفاهم هذا على عاتق

(١) الآية / ٩ من سورة الحجرات .

(٢) التضامن الاسلامى للأستاذ محى الدين القابسى ص (١١٠) .

(الرجعية) العربية التى ترفض أنصاف الحلول فيما يتعلق بالحق الاسلامى و العربى فى فلسطين و غيرها .

(فالرجعية العربية تحول دون وحدة (القوى التقدمية) فى منطقة الشرق الأوسط ، والقوى التقدمية فى تعريف السوفييت هى القوى الماركسية بصرف النظر عن قوميتها (عربية أو يهودية) و الدعوة القومية هى — فى نظرها — دعوة بورجوازية تغذيها الامبريالية ، والدعوة الدينية هى دعوة رجعية ، و متى زالت هذه (الأفكار) أمكن لليهود كما يصرح السوفييت علناً أن يعيشوا بسلام على الأرض المغتصبة فى ظل الوطن الأم للاشتراكية العالمية الماركسية اللينينية) (١) .

و إزاء هذا الواقع الذى لا يخفى على أحد لا بد من توحيد كلمة المسلمين و جمع أفكارهم و قلوبهم على الدين ، ففيه وحده نستطيع أن نرجع كما كنا أمة عزيزة بدينها قوية بتأييد الله لها ، مستبشرة بنصر الله .

و المسلمون أفراداً وشعوباً مدعوون لا يجاد الأسباب التى من شأنها أن تحق التضامن الاسلامى ، و لعل هذه الأسباب تنحصر فى دائرتين ، الدائرة الأولى : عمل من داخل الجماعات الاسلامية ليبث الوعى الدينى و يوقد جذوة الايمان فى القلوب و يبعث القوة فى العزائم .

الدائرة الثانية : عمل من قادة المسلمين لاستقطاب وحدة الصف الاسلامى وتعزيز قوة ترهب عدو الله و تقف فى وجه البغى و العدوان .

أما العمل الداخلى فيتجلى فى الدعوة إلى الاصلاح ، إصلاح نفسى ذاتى من داخل الفرد و أعماقه ، و إبعاده عن كل ما يورث الخمول و الدعة و الركون إلى متاع الحياة الدنيا و زينتها ، و إصلاح فى علاقة المؤمن مع أخيه المؤمن ليشاركه

---

(١) التضامن الاسلامى للأستاذ محى الدين القابسى ص ١١٢—١١٣ .

أفراحه و آماله و أتراحه و آلامه و قد تصحح مفهومه نحو العبادة التى كادت تتحول إلى عادات خيالية من معنى الخشوع و الخضوع لله تعالى . و العمل على توسيع مدلولها . لتشمل كل نشاط إنسانى ، مهما كانت صيغة هذا النشاط ، و مهما كان شأنه .

قول الأستاذ سيد قطب : (جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا مسلمين إذا هم أعدوا نشاط العبادات وفق أحكام الاسلام بينما هم يزاولون كل نشاط من أنشطة المعاملات وفق منهج آخر لا يتلقونه من الله ، و لكن من إله آخر . هو الذى يشرع لهم فى شؤن الحياة ما لم يأذن به الله ، وهذا وهم كبير . فالاسلام وحدة لا تنفصم و كل من يفصمه إلى شطرين على هذا النحو ، فانما يخرج من هذه الوحدة أو بتعبير آخر يخرج من هذا الدين ، و هذه هى الحقيقة الكبيرة التى يجب أن يلقى باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه و يريد فى الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الانسانى) (١) .

و من الملاحظ أن هناك فئة من المسلمين فصلت الدين عن الدنيا فظنت ـ خطأ أو غباء — أنها إذا أدت بعض الشعائر الدينية أصبحت مسلمة ، و لو تعاملت بالربا و لو انتهكت أعراض المسلمين و لو استولت على أموالهم غصباً و زوراً وعدواناً ، و هناك فئة أخرى تعتبر نفسها مسلمة إذا صلت أو صامت ، و قد تبيح لنفسها أن تخرج عن آداب الاسلام و أخلاقه و عاداته الاجتماعية ، فلا تحظر من اختلاط الرجال بالنساء ، و لا تحترس من ميوعة الشباب ، و لا من ارتكاب بعض المعاصى التى قد تخرجها من ربقة الاسلام و عهده .

و هناك أناس كثيرون و أسر إسلامية فهمت أن العبادة عبارة عن أداء

(١) فقه الدعوة ٦٠—٦٧ .

ـ ركعات محدودة فى أوقات معينة ، فاذا أدتها ، و خرجت من محرابها نسيت الغاية المثلى التى شرعت من أجلها العبادة ، و نسيت أن الحياة بأسرها محراب للعبادة و أن الانسان فى عبادة حتى و لو كان فى حالة بيع أو شراء أو زراعة أو عمارة أوتطبيب أو مداواة للأدواء ...

هذه الجماعات كلها لم تفهم معنى الاسلام حقيقة الفهم . ولم تدرك معنى العبادة الادراك الكامل ، و لم يتكون فى باطنها الوازع الدينى ، و الخوف من الرقابة الالهية ، أجل هذه الجماعات لم تترب التربية الاسلامية اللازمة . و لم تتعلم العلم الاسلامى و لم تتخلق بالأخلاق الايمانيــة ، و لم تخضع نفسها لشريعة الله و لمنهج الله ، أوأنهـا ربيت بأيد غير نظيفة من الأغراض المنكرة و النوايا الخبيثة من إستشراق و تبشير ، و قد ينحو الاستعمار منحى تشويه الحقائق الاسلامية فيقلب الصورة رأساً على عقب ، و يغير القيم ، و يبدل المفاهيم . ثم يوصل هذه المفاهيم المغيرة و الحقائق المتــلاعب فى صورتها إلى أبناء المسلمين عن طريق مدارسهم و جامعاتهم الأوربية و الأمريكية أو التبشيرية فى الديار الاسلامية .

هذه الفئات موجودة فى المجتمعات الاسلامية فعــلا و هى تحتاج إلى نصح و إرشاد و توجيه و تعليم : تحتاج إلى دعاة أقضت مضجعهم الأحوال غير الطبيعة للسلمين فباتوا يخططون خطط الخير ويفكرون فى سبيل إعادة المشاعر الدينية إلى النفوس و الأحاسيس الاسلامية إلى القلوب ، و فضلا عن هذا فهم يسعون لانقاذ الأفكار و العقول من شبهات الاستشراق و يعملون على عرض الاسلام أبيض نقياً كما أراده الله تعالى و كما بلغه عنه رسوله الكريم محمد الأمين ﷺ .

« يتبع »

الأدب الاسلامى
فى تراثنا التاريخى والجغرافى

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة « العربية » (Arabia)

— الحلقة التاسعة —

و البيرونى يشير إلى التغيرات الجيولوجية والجيومور فولوجية فى اليابس والماء، و يقدم الدليل المادى على حدوثها وإن كان لا يستطيع أن يتتبع تفاصيلها . يقول: « ينتقل البحر إلى البر و البر إلى البحر فى أزمنة إن كانت مثل كون النـاس فى العالم فغير معلومة ، و إن كانت بعده فغير محفوظة ، لأن الأخبار تنقطع إذا طال عليها الأمد ، و بخاصة فى الأشياء الكائنه جزءاً بعـد جزء بحيث لا تقطن لها إلا الخواص ، فهذه بادية العرب وقد كانت بحراً فانكبس ، حتى أثار ذلك ظاهرة عند حفر الآبار و الحياض بها فانها تبدى اطباقاً من تراب و رمال و رضراض ، ثم فيها من الخزف و الزجاج و العظام ما يمتنع أن يحمل على رمل قاصد إياها هناك ، بل تخرج منها أحجار إذا كسرت كانت مشتملة على أصداف و ودع و ما يسمى آذان السمك : أما باقيتـه منهـا على حالها و أما باليـة قد تلاشت و بقى مكانها خلاء متشكلا بشكلها » (مقال د/ جمال بدر ـ البيرونى ـ المجلة ـ القاهرة ع ٢٣ نوفمبر ١٩٥٨م) .

ومن تمام التدقيق العلمى و الاستناد إلى المشاهدة فى نقل المعلومات الجغرافية، الحرص على قران الوصف اللفظى بالرسم . يقول المقدسى . « و أوضحنا الطرق لأن الحاجة إليها أشد ، و صورنا الأقاليم لأن المعرفة بها أروج ، و فصلنا الكور لأن

ذلك أصوب ، و قد استخرنا الله تعالى قبل جمعه و سألناه التوفيق و المعونة . بعد ما استشرنا صدور الزمان و الأئمة . . . (١) » و قد قسمناها أربعة عشر إقليما و أفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب ، ثم فصلنا كور كل إقليم ونصبنا أمصارها و ذكرنا قصباتها و رتبنا مدنها وأجنادها بعد ما مثلناها و رسمنا حدودها وخططها ، و حررنا طرقها المعروفة بالحمرة ، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة ، و بحارها المالحة بالخضرة ، و أنهارها المعروفة بازرقة ، و جبالها المشهورة بالغبرة . ليقرب الوصف إلى الأفهام و يقف عليه الخاص و العام » (٢) . و عمد الاصطخرى أيضاً إلى تعزيز كتابه (المسالك و الممالك) بعدد من المصورات و الخرائط ، يقول فى أوله : « فاتخذت لجميع الأرض التى يشتمل عليها البحر المحيط الذى لا يسلك صورة ، إذا نظر إليها ناظر علم مكان كل إقليم مما ذكرناه ، واتصال بعضه ببعض ، ومقدار كل أقليم من الأرض ، حتى إذا رأى كل إقليم من ذلك مفصلا علم موقعه من هذه الصورة ، و لم تتسع هذه الصورة التى جمعت سائر الأقاليم لما يستحقه كل إقليم فى صورته من مقدار الطول و العرض والاستدارة و التربيع والتثليث وسائر ما تكون عليه أشكال تلك الصورة ، فا كتفيت ببيان موقع كل إقليم ليعرف مكانه ، ثم أفردت لكل إقليم من بلاد الاسلام صورة على حدة ، بينت فيها شكل ذلك الاقليم و ما يقع فيه من المدن و سائر ما يحتاج إليه علمه ، مما أتى على ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى » (٣)

والحق أن التزام علماء المسلمين للنهج التجريبى تشهد به أوصافهم الدقيقة لتجاربهم الفيزيائية و الكيمائية و الطبيـــة ، و تشهد به أجهزتهم العلمية و أدوات الجراحة

(١) المرجع السابق ص ٨ . (٢) المرجع السابق ص ٩ .

(٣) الاصطخرى : المسالك و الممالك ص ١٥ .

و مراصدهم و مستشفياتهم ، و قد سجل علماء الغرب المعاصرين هذه الحقيقة الفذة لعلماء المسلمين ، و تميزهم عن فلاسفة الاغريق الذين اعتمدوا بصفة أساسية على الظن والتخمين أو الاستنتاج والقياس فى مجال لا يغنى هذان فيهما ولا يقطع إلا بالتجربة والمشاهدة الحسية ، و ارتياد علماء المسلمين النهج التجريبى للعلماء الغربيين المحدثين ، و ممن شهد للمسلمين فى هذا المجال برتراند رسل و الدوميلى و نالينو و سارتون و غيرهم كثير .

و من الخصائص الاسلامية لتراثنا من أدب البلدان و الرحلات ، ما سبق أن أشرنا إليه عند الكلام على الخصائص الاسلامية لتراثنا من الأدب التاريخى ، من الربط بين الانسان و الأرض ، أو بين النشاط التاريخى و المسرح الجغرافى . فعل هذا المؤرخون فلم يغفلوا تقديم المعلومات الجغرافية اللازمة عن مجال النشاط الانسانى فى الفترة موضع الدراسة ، وفعل هذا الجغرافيون فساقوا المعلومات التاريخية اللازمة خلال تناولهم للعالم الجغرافية الهامة ، و ترى ذلك واضحاً فى كتب البلدان و الرحلات على السواء ، و قد جمع المسعودى بين التاريخ و الجغرافيا فى كتابيه (التنبيه و الاشراف) و (مروج الذهب) ، و كان حظ الجغرافيا أكبر فى الكتاب الأول ، و حظ التاريخ أكبر فى الكتاب الثانى ، و جاء معجم البلدان لياقوت ، موسوعة جغرافية تاريخية، فهو يستهل عند ذكر أى بلد بمعلومات عن فتحه و أهم التصورات التاريخية التى قرت به ، و هو يختم ما كتبه عن البلد بذكر أشهر من نسب إليه .

و من سمات أدب البلدان و الرحلات فى تراثنا التوجيه إلى الاعتبار بما خلق الله ، و ربط المعلومات و الظواهر و المشاهدات الجغرافية بالخالق البارىء المصور بديع السماوات و الأرض الحكيم القدير . . . . . نقل ابن رستة فى صدر كتابه

(الاعلاق النفسية) عن أحمد بن الطيب : « الحمد لله الذى نبهنا على ما وهب لنا من خالصة أنفسنا التى هى ألبابنا وما حثنا عليه من استعمالها بالفكرة فى خلق سماواته وأرضه ، ولم يحظر علينا بحث شئ من ذلك منه لطيف وجليل و قريب أو بعيد ، إذا عاب قوماً لم يعملوا أفكارهم فى عجائب حكمته و بدائع قدرته ، و ما فطر من سماواته و أرضه . و ذرأ و بث فيها من صنوف خلقــه و غرائب ذرئه فقال (أو لم يتفكروا فى خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل و النهار) ثم قال (و ما يتذكر إلا أولى الألباب) ـ باعثاً على ذلك و حاثاً عليه ، ثم لم يترك ذلك عز و جل مطلقاً لظان يظن انه إنما قصد بهذا القول أن ينظر الناس إلى السماء و كواكبها و يتفكر فى استبتارها نهاراً و ظهورها ليلا و شروق الشارق منها وأفول الغــارب نظراً مطلقاً لا يؤدى إلى علم علة و لا يبحث عن سبب ، حتى دل على مراده و ذكر ذلك نصا فى كتابه فقال (و القمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) ، ثم قال عز ذكره (و قدره منازل لتعلموا عدد السنين و الحساب) و قال (الشمس و القمر بحسبان) ثم قال (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السماوات و الأرض) وقال (الشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) و قال : (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس) ، ثم قال لنا من تمام التوقيت و أحكام التنبيه و لئلا يظن ظان أنها تجرى على وجه بسيط مسطح أو فى جسم غير كرى فقــال (و كل فى فلك يسبحون) إذ اسم الفلك يدل على الاستدارة فى لغة العرب ، ثم زادنا فى تعريف صورة الفلك بصيرة فقال (أو لم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها وما لها من فروج) أى لا فرجة فيها و لا انفصال و إنما هى متصلة أجزاء الاستدارة لا انقطاع فيها ، إنما هو من الأجسام الكرى و من السطوح الدوائر » (١) .

(١) ابن رستة : الاعلاق النفيسة ص ٦ ـ ٧ .

و استمع إلى المقدسى يستفتح كتابه (أحسن التقاسيم) فيقول : « الحمد الذى خلق فقدر و صور فأتقن . أوتد الأرض بالراسيات لئلا تميد ، و أحاطها كيلا بغلب ماؤها و يزيد ، و بث فيها عباده لينظر كيف يعملون » (١) وعقب ابن خلدون على كلامه فى تفصيل الأقاليم السبعة بقوله : « هــذا آخر الكلام على الجغرافيا و أقاليمها السبعة ، و فى خلق السماوات و الأرض و اختلاف الليل والنهار آيات للعالمين (٢) و قد حرص أصحاب كتب البلدان و الرحلات على ذكر الآثار المروية فى ميزات المكان إذا وجدت ، و بيان منزلته الدينية و مكانته التاريخيــة ، يقول المقدسى مثلا عن جزيرة العرب التى جعلها فى صدر الأقاليم فى كتابه : « إنما بدأنا بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام و مدينة النبى عليه الصلاة و السلام ، و منها انتشر دين الاسلام ، و فيها كان الخلفاء الراشدون و الأنصار و المهاجرون و بها عقدت رايات المسلمين وقويت أمور الدين ، وأيضاً فان بها المشاعر والمناسك و المواقيت و المناحر » (٣) .

و هو يقول عن إقليم الجزيرة فى شمالى العراق و الشام : « هذا أيضاً اقليم نفيس ثم له فضل لأنه به مشاهد الأنبياء . به استقرت سفينة نوح على الجودى وبه سكن أهلها . . . أليس به مسجد يونس قبل توبته ؟ مع مشاهد كثيرة وفضائل جمة ، ثم هو ثغر من ثغور المسلمين و معقل من معاقلهم ، لأن أمد اليوم دار جهادهم والموصل من أجل أنصارهم و مع ذلك هو واسطة بين العراق والشام ، و منازل العرب فى الاسلام ، و معدن الخيل العتاق ، ومنه ميرة أكثر العراق .. (٤) وقد حرص

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ١٤٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٧

(٤) المرجع السابق ص ١٣٦ .

المقدسى على تسجيل معالم الحياة الدينيـــة فى كل اقليم ، فهو يورد الفرق و المذاهب الاسلامية السائدة والملل الأخرى القائمة ، ويشير إلى الحالة العلمية ، كذلك حرص الجغرافيون المسلمون على محاولة تتبع المعلومات المتاحة عما ورد فى الكتاب الكريم من إشارات إلى معالم هامة مثل سد ذى القرنين و كهف الفتية الذين آمنوا بربهم و زادهم هدى و لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين و ازدادوا تسعاً ثم بعثهم الله بمشيئته و شجع الخلفاء العباسيون و لا سيما الواثق بالله الرحـــلات فى هذه السبيل و جمع المعلومات عن ذلك بقدر الامكان و أورد شيئاً عن ذلك بن خرداذبة ثم نقلا عنه (١) المقدسى المسعودى (٢) و العمرى (٣) و ابن خلدون (٤) .

و يشير العلامة البيرونى فى كتابه (تحديد نهاية الأماكن) إلى أن تحديد خطوط الطول و العرض للواضع المختلفة من الأرض أصبح ميسورا بعـــد انتشار الاسلام فى أرجاء العالم ولم يكن كذلك أيام بطليموس فقد كان ولوج تلك الأراضى عسيرا فى الماضى نظراً للتباين الملى الذى كان أكبر عقبة فى سبيل التنقل بين البلاد . إذ كان أقوام مثل اليهود تحسب أنها تتقرب إلى الله حين تقدر بمجموع الأمم الأخر . وهناك أمم أخرى كالرومان تضرب على الأجانب الرق و هذا أهون الشرين و قد

(١) ابن خرداذبة : المسالك و الممالك ص ١٠٦ - ٧ ، ١١٠ ، ١١ ، ١٦٢ - ١٧٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم : ص ١٥٣ - ١٥٤ ، (سلسلة أهل الكهف) ، ص ٣٦٢ - ٥ (سد ذى القرنين) .

(٢) المسعودى : مروج الذهب القاهرة ج ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ ، التنبيه والاشراف - المكتبة الجغرافية ليدن ص ١٣٣ - ١٣٤ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار ج ١ تحقيق أحمد زكى ج ١ ص ٢١٧ ٢١٨ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ١٣٢ - ١٣٧ ، ١٤٦ .

يرد المسافرون على أعقابهم لأنهم غرباء أو يؤخذون بأدنى ريبة فيقذفون فى المهالك . أما الآن فقد امتد الاسلام من أقصى أقطار الأرض شرقاً إلى أقصاها غربا وبلغ الاندلس فى انتشاره من ناحية وقلب الهند وتخوم الصين من ناحية أخرى ، كما بلغ أقصى الحبشة وبلاد الزنج من ناحيـــة الجنوب كما بلغ ارخبيل الملايو و جاوه ، وبلغ بلاد الترك و الصقالية فى الشمال . وهكذا انتظمت الأقوام المتباينة فى ألفة متبادلة ما كانت تتوثق عروتها لولم يؤلف الله بين القلوب ولم يتبق من الناشزين سوى الأفاقية ، قطاع الطرق ، أما الكفار الذين بقوا على كفرهم فقد صاروا هيابين ودعاء يحلون المسلمين وينشدون مسالمتهم ، و على هذا النحوصـار الحصول على معلومات تتعلق بالأماكن المختلفة على ظهر الأرض أكثر يسرا وآمناً إلى درجة لاتقارن بما كانت عليه الحال من قبل (١) » وهكذا يبين العالم المسلم فضل الاسلام فى نشر الأمن وتوثيق المودة بين البشر ، مما يسر سبل الاتصال و المعرفة .

« يتبع »

---
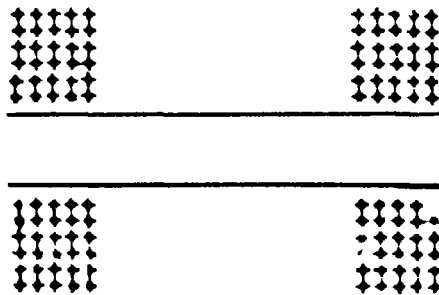
(١) نفيس أحمد : الفكر الجغرافى فى التراث الاسلامى ـ ترجمة فتحى عثمان ط ١ دار العلم بالكويت ـ ص ٨٧ ـ ٩٠

كعب بن مالك الأنصارى، ونموذج من شعره

[الحلقة الثالثة] سعيد الأعظمى الندوى

لا غرابة فيما إذا كانت ملكته الشعرية قد نمت واتسعت بعد إسلامه ، فان إيمانه القوى بالله و رسوله و صحبته مع النبى ﷺ فى غزواته وأسفاره قد فتق قريحته، و رقق شعوره ، ولما رأى من شدة عداوة المشركين و قسوتهم فى معارضة النبى ﷺ و دحض دعوته، اندفع إلى الانتصار للحق، و الرد على شنآنهم و بغضهم عن طريق الشعر والكلام المؤثر القوى الرقيق، فقد كان يتمتع بالقدرة على القريض، و هو يشتهر فى هذا الجانب بالجودة و الأصالة ، و يعرفه النــاس بمكانته الشعرية أكثر من أى صفــة أخرى ، حتى إن النبى ﷺ لمـا عرفه فى مكة لأول مرة، عرفه بالشاعر .

وكعب بن مالك ثانى شعراء المدينة الفحول الخمسة وكان أولهم حسان بن ثابت (١)، و هداه الله تعالى للاسلام فوضع كل مؤهلاته الشعرية فى خدمة الدين و تأييد رسول الله ﷺ ، يدافع عنهما و ينافح بأحسن شعر و أقوى كلام ، حتى أصبح من شعراء الاسلام المعدودين ، و قد بلغ فى الأصالة الشعرية مبلغاً عالياً كما كان عالى الكعب فى رواية الأحاديث الكثيرة عن النبى ﷺ ، يقول الامام أبو الفرج الأصفهــانى فى

(١) ثالثهم عبد الله بن رواحة ، من الخزرج نفسها ، و رابعهم قيس بن الخطيم من الأوس ، و خامسهم أبو قيس بن الأسلت و هو من الأوس كذلك، (أنظر طبقات فحول الشعراء لابن الجمحى) .

أخبار كعب بن مالك : « و لكعب بن مالك أصل أصيل و فرع طويل فى الشعر ، ابنه عبد الرحمن شاعر ، و ابن ابنه بشير بن عبد الرحمن شاعر ، و معن بن عمر بن عبد الله بن كعب شاعر ، و عبد الرحمن بن عبد الله شاعر ، و معن بن زهير بن كعب شاعر ، و كلهم مجيد مقدم ، و عمر كعب بن مالك و روى عن النبى ﷺ حديثاً كثيراً ، وكل بنى كعب بن مالك قد روى عنه الحديث (١) ، ومما رواه ابن ابنه بشير عن أبيه عبد الرحمن بن كعب يحدث عن أبيه أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال : و الذى نفسى بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل بما تقولون لهم من الشعر (٢) » .

و قد روى الأصفهانى عن أبى عاصم عن ابن جريج عى هشام بن عروة عن أبيه قال رجز راجز من قريش برسول الله ﷺ فقال :

لم يغذها مد و لا نصيف ‏ ‏ و لا تميرات و لا تعجيف

لكن غذاها اللبن الحريف ‏ ‏ و المحض و القارص و الصريف

قال فأحفظت الأنصار حيث ذكر المد و التمر ، فقالوا لكعب بن مالك انزل فنزل فقال :

لم يغذها مد و لا نصيف ‏ ‏ لكن غذاها الحنظل النظيف

و مذقة كنظرة الخنيف ‏ ‏ ينبت بين الزرب و الكنيف

فقال رسول الله ﷺ : اركبا ، وعن محمد بن سيرين (فى حديث طويل) قال : كان يهجوهم يعنى قريشاً ثلاثة نفر من الأنصار يجيبونهم ، حسان بن ثابت ، و كعب بن مالك و عبد الله بن رواحة ، وكان حسان بن ثابت وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع و الأيام و المآثر ، و يعيرانهم بالمثالب ، و كان عبد الله بن

(١) كتاب الأغانى ج ١٥/ص ٢٦ - (٢) مسند الامام أحمد بن حنبل ج ٣/ص ٥٦٠

رواحة يعيرهم بالكفر ، وينسبهم إلى الكفر ، ويعلم أنه ليس فيه شر من الكفر فكانوا فى ذلك الزمان أشد شئ عليهم قول حسان و كعب ، وأهون شئ عليهم قول ابن رواحة ، فلما أسلموا و فقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول ابن رواحة (١) .

وعن عبد الله بن أنيس عن أمه و هى بنت كعب بن مالك . أن النبى ﷺ خرج على كعب و هو ينشد ، فلما رآه كأنه انقبض ، فقال ما كنتم فيه ؟ فقال كعب : كنت أنشد ، فقال رسول الله ﷺ : أنشد فأنشد حتى أتى على قوله «مقاتلنا عن حرمنا كل فحمة» فقال رسول الله ﷺ لا تقل «مقاتلنا عن حرمنا ...» و لكن قل «مقالتنا عن ديننا» .

قال أبو زيد وحدثنى سعيد بن عامر قال حدثنا ابن عون عن ابن سيرين قال : وقف رسول الله ﷺ ، بباب كعب بن مالك فخرج فأنشده ، ثم قال له : إيه ، فأنشده ثلاث مرات ، فقال رسول الله ﷺ : «لهذا أشد عليهم من وقع النبل» (٢) .

وعن عبد الأعلى القرشى قال قال معاوية رضى الله عنه يوماً لجلسائه : أخبرونى بأشجع بيت وصف به رجل قومه ، فقال له روح بن زنباع ، قول كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا ... يوماً و نلحقها إذا لم تلحق

فقال له معاوية : صدقت (٣) .

و معظم شعره فى المغازى التى شهدها مع الرسول ﷺ ، و قد حضر غزوة بدر و قاتل المشركين مع المسلمين ولم يدخر وسعاً فى محاربة أعداء الاسلام بالسيف و السنان ، و لما أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين و هلاك رؤس قريش و أسر رجالها وهزيمتها النكراء . أفاض الشعراء من المسلمين بذكر ما أنعم الله به عليهم من

(١) الأغانى ج ١٥/ص ٢٨ . (٢) كتاب الأغانى ، ج ١٥/ص ٢٨ ٢٩ .

(٣) نفس المصدر .

النصر المبين ، و تصدى بعض شعراء مشركي قريش فقال أبياتاً من الشعر رثاءً بقتلاها و جمعاً لهمة رجالها ، و إبداء لدوافع النقمة والسخط ضد الاسلام بوجه خاص ، فهذا ضرار بن الخطاب بن مرداس يقول في يوم بدر ، وهو يهدد الأنصار بحرب يشفي فيها غليل الانتقام .

عجبت لفخر الأوس ، والحين (١) دائر عليهم غداً ، و الدهر فيه بصائر
و فخر بني النجار إن كان معشر أصيبوا ببدر كلهم ثم صابر
فإن تك قتلى غودرت من رجالنا فإنا رجال بعدهم سنغادر
و تردى بنا الجرد العناجيج وسطكم بني الأوس حتى يشفي النفس ثائر (٢)

فأجابه كعب بن مالك بقصيدة مماثلة يتحدث فيها عن مصرع الرؤس من قريش ، و يؤكد فيها قضاء الله القاهر الذي لا راد له ، و يعتز بوجود رسول الله ﷺ فيهم و يشير إلى الثقة التي يتمتع بها المسلمون فيما وعدهم الله به من نصر الحق و دحر الباطل ، يقول :

عجبت لأمر الله ، و الله قادر على ما أراد ، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشراً بغوا ، و سبيل البغي بالناس جائر (٣)
و قد حشدوا و استنفروا من يليهم من الناس ، حتى جمعهم متكاثر (٤)
و فينا رسول الله و الأوس حوله له معقل منهم عزيز و ناصر (٥)
و جمع بني النجار تحت لوائه يمشون في الماذي و النقع ثائر (٦)

---

(١) الحين : الموت . (٢) تردى : تسرع ، الجرد : الخيل العتاق قصيرات الشعر ، العناجيج مفردها عنجوج : الطويل السريع ، ثائر : طالب بالثأر .
(٣) بغى الرجل : عدل عن الحق ، جائر بالناس ، مائل بهم عن الطريق .
(٤) استنفروا : طلبوا الخروج للقتال . (٥) معقل : موضع الحصانة .
(٦) و في رواية (يميسون) بمعنى يختالون ، الماذي : الدروع البيض اللينة .

فلما لقيناهم و كل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره و أن رسول الله بالحق ظاهر
و قد عريت بيض خفاف كأنها مقاييس يزهيها بعينيك شاهر (١)
بهن أبدنا جمعهم فتبددوا وكان يلاقى الحين من هو فاجر (٢)
فكب أبو جهل صريعاً لوجهه و عتبة قد غادرته و هو عاثر (٣)
و شيبة و التيمى غادرن فى الوغى و ما منهم إلا بذى العرش كافر
فأمسوا وقود النار فى مستقرها و كل كفور فى جهنم صائر
تلظى عليهم و هى قد شب حميها بزبر الحديد و الحجارة ساجر (٤)
و كان رسول الله قد قال اقبلوا فولوا و قالوا : إنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به و ليس لأمر حمه الله زاجر (٥)

و أصيب عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب يوم بدر فى رجله فقطعت ، ولكن لم تقدر له الحياة بعد ذلك و توفى بهذا المصاب ، و كانت مناسبة حزينة هدت المسلمين ، قال فيها كعب بن مالك شعراً جميلا يبكيه فيه .

أيا عين جودى و لا تبخلى بدمعك حقاً و لا تنزرى (٦)
على سيد هدنا هلكه كريم المشاهد و العنصر

(١) يزهيها : يحركها و يستخفها . شاهر : سال السيف و رافعه .
(٢) أبدنا : من الابادة ، أهلكنا . تبددوا : تفرقوا .
(٣) عاثر : ساقط من حيث لا يدرى .
(٤) زبر الحديد : قطعه ، ساجر : موقد من النار ، من سجر التنور ، إذا أوقده ناراً .
(٥) حمه : بمعنى قدره .
(٦) لا تنزرى : لا تقللى .

جريئ المقدم شاكى السلاح كريم الثنا طيب المكسر (١)
عيدة أمسى و لا نرتجيه لعرف عرانا و لا منكر
و قد كان يحمى غداة القتا ل حامية الجيش بالمبتر (٢)

و فاضت قريحته بالشعر القوى الرصين ، الذى يدل على تصرفه فى مناحى الكلام و قدرته الشعرية ، يخاطب فيه أبا سفيان يهدده و يتنبأ له بفتح مكة ، و قد سبقت نبوءته بالفتح نبوءة حسان بن ثابت بأعوام عديدة ، يقول :

لعمر أبيكما يا ابنى لوى على زهو لديكم و انتخاء (٣)
لما حامت فوارسكم ببدر ولا صبروا به عند اللقاء (٤)
وردناه بنور الله يجلو دجى الظلماء عنا و الغطاء
رسول الله يقدمنا بأمر من أمر الله أحكم بالقضاء
فما ظفرت فوارسكم ببدر و ما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وارقب جياد الخيل تطلع من كداء (٥)
بنصر الله ، روح القدس فيها و ميكال ، فيا طيب الملاء (٦)

(١) شاكى السلاح : حاد السلاح شائكه ، و شاكى مقلوب شائك . الثنا : ما يذكر عن الرجل من خير و شر . طيب المكسر (بسكون الكاف و كسر السين) محمود عند الخبرة .
(٢) حامية : التاء للمبالغة ، الجماعة التى تحامى و تذب عن نفسها . المبتر : آلة البتر ، و المراد بها السيف البتار .
(٣) الزهو : الكبر ، انتخاء ، إعجاب بالنفس و تكبر .
(٤) حامت : امتدت . (٥) كداء : موضع فى مكة .
(٦) الملاء : هو الملأ ، رؤساء القوم و أشرافهم ، روح القدس : جبريل ، ميكال و ميكائل أحد الملائكة المقربين .

و يقول فى يوم بدر وهو يشكو إلى غسان ما قد حدث فى هذه المعركة من قبل قريش عداوة منها و بغضاً للسلمين فلقيت مصيرها من الخزى و العار والهزيمة .

ألا هل أتى غسان فى نأى دارها و أخبر شئ بالأمور عليمها

بأن قد رمتنا عن قسى عداوة معد معاً جهالها و حليمها (١)

لأنا عبدنا الله لم نرج غيره رجاء الجنان إذ أتانا زعيمها (٢)

نبى له فى قومه إرث عزة و أعراق صدق هذبتها أرومها (٣)

فساروا و سرنا فالتقينا كأننا أسود لقاء لا يرجى كليمها (٤)

ضربناهم حتى هوى فى مكرنا لمنخر سوء من لواء عظيمها

فولوا و دسناهم ببيض صوارم سواء علينا حلفها و صميمها (٥)

و كانت غزوة أحد بعد بدر فساهم فيها كعب بن مالك خلال الحرب بنفسه وماله ، و قاتل المشركين مع رسول الله ، ولكن المسلمين انكشفوا فأصاب فيهم العدو حتى خلص إلى رسول الله ﷺ و حدث له ما حدث من إرهاق و عنت ، و قد شاع بين النـــاس أن رسول الله ﷺ قد هلك ، فكان أول من عرف رسول الله ﷺ بعد الهزيمة وقول الناس: قتل رسول الله ﷺ ، كعب بن مالك ، قال: عرفت عينيه تزهران من تحت المغفر فناديت بأعلى صوتى : يا معشر المسلمين أبشروا ، هذا رسول الله ﷺ ، فأشار إلى رسول الله ﷺ : أن أنصت (٦) .

و لما وضعت الحرب أوزارها و عادت الأمور إلى نصابها ، أقبل الشعراء من

(١) قسى : جمع قوس . (٢) زعيمها : يريد بالزعيم هنا رسول الله ﷺ .
(٣) أروم : بمعنى الأصل . (٤) كليم : من كلم يكلم بمعنى جريح .
(٥) دسناهم : من داس يدوس ، حلفها : من كان حليفاً فيهم ، صميم : الخالص من القوم . (٦) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣ / ص ٨٨ .

كلا الفريقين يقرضون القصائد و الأبيات حول يوم أحد و ما دار فيه من وقائع و أحداث ، و مما قيل فيه قول هبيرة بن أبي وهب وكان شاعراً من قريش شديد العداوة لله و لرسوله ، و ذلك ما يتجلى فى قصيدته التى قالها فى هذه المناسبة، ومن جملة ما قال :

سقنا كنـانة من أطراف ذى يمن عرض البلاد على ما كان يزجيهـا

قالت كنانة : أنى تذهبون بنا ؟ قلنـا النخيل ، فأموها و من فيهـا

نحن الفوارس يوم الجر من أحد هابت معد فقلنا نحن نأتيها (١)

فرد عليه كعب بن مالك بقصيدة طويلة تضم ثمانية و أربعين بيتاً ، و تلك هى القصيدة التى كان ينشدها فمر عليه رسول الله ﷺ فلما رآه كأنه انقبض ، فقال ما كنتم فيه ، فقال كعب : كنت أنشد ، فقال رسول الله ﷺ أنشد ، فأنشد حتى أتى قوله : « يجالدنا عن جذمنا كل فخمة » فقال رسول الله ﷺ : أيصلح أن تقول : « يجالدنا عن ديننا » فقال نعم ، فقـال رسول الله ﷺ : فهو أحسن ، فقـال كعب : « يجالدنا عن ديننا كل فخمة » و إليكم هذه القصيدة بطولها :

ألا هل أتى غسان عنا و دونهم من الأرض خرق سيرة متنعنع (٢)

صحـار و أعلام كأن قتـامها من البعد نقع هامد متقطع (٣)

تظل به البزل العراميس رزحاً و يخلو به غيث السنين فيمرع (٤)

(١) عرض البلاد : ما اتسع من أرجائها و نواحيها ، و النصب على الظرفية يزجيها : يسوقها ، النخيل : على وزن فتيل يعنى بها المدينة المنورة ، أو على وزن زبير ، اسم عين قرب المدينة ، الجر بتشديد الراء . أصل الجبل .

(٢) خرق : فلاة واسعة تنخرق فيها الريح ، متنعنع : مضطرب .

(٣) أعلام : جبال مرتفعة ، قتام : غبار أسود ، نقع هامد : غبار ساكن .

(٤) بزل : جمع بازل الابل الشابة ، العراميس : الشديدة القوية ، رزح : جمع رازح ، بمعنى ملتصقة بالأرض هزالا رتعباً ، يمرع : يخصب .

به جيف الحسرى يلوح صليبها ... كما لاح كتان التجار الموضع (١)
به العين و الآرام يمشين خلفة ... و بيض نعام قيضه يتقلع (٢)
مجالدنا عن ديننا كل فخمة ... مدربة فيها القوانس تلمع (٣)
و كل صموت فى الصوان كأنها ... إذا لبست نهى من الماء مترع (٤)
و لكن ببدر سائلو من لقيتم ... من الناس ، و الأنباء بالغيب تنفع
و إنا بأرض الخوف لو كان أهلها ... سوانا لقد أجلوا بليل فأقشعوا
إذا جاء منا راكب كان قوله ... أعدوا لما يزجى ابن حرب و يجمع
فمهما يهم الناس مما يكيدنا ... فنحن له من سائر الناس أوسع ،
فلو غيرنا كانت جميعاً تكيده البـ ... ـرية قد أعطوا يداً و توزعوا (٥)
نجالد لا تبقى علينا قبيلة ... من الناس إلا أن يهابوا و يفظعوا
و لما ابتنوا بالعرض قال سراتنا ... علام إذا لم نمنع العرض نزرع (٦)

---

(١) جيف : جمع جيفة ، جثة الميت المنتنة ، الموضع : المنقوش المبسوط .

(٢) العين : جمع عيناء ، المراد بها بقر الوحش ذات العيون النجلاء ، الآرام : جمع رئم مقلوباً ، الظباء التى بطونها بيض وظهورها سمر ، القيض : قشر البيض الأعلى ، يتقلع : بمعنى يتشقق .

(٣) مدربة على القتال أو مذربة بالذال المعجمة ، بمعنى محددة ، القوانس جمع قونس : أعلى بيضة الحديد .

(٤) الدرع المحكمة النسج تسمى صموت ، نهى مترع : غدير مملوء .

(٥) اعطوا يداً : يقال أعطى يده وبيده إذا انقاد واستسلم ، توزعوا : تقسموا ، تبددوا ، و فى رواية ، تورعوا : بمعنى ذلوا .

(٦) ابتنوا نصبوا أبنيتهم ، والعرض بكسر العين : موضع خارج المدينة ، سراة : جمع سرى ، السيد الشريف السخى .

و فينا رسول الله نتبع أمره ... إذا قال فينا القول لا نتطلع (١)
تدلى عليه الروح من عند ربه ... ينزل من جو السماء و يرفع
نشاوره فيما نريد و قصرنا ... إذا ما اشتهى أنا نطيع ونسمع (٢)
و قال رسول الله لما بدوا لنا ... ذروا عنكم هول المنيات و اطمعوا
و كونوا كمن يشرى الحياة تقرباً ... إلى ملك يحيا لديه و يرجع ،
و لكن خذوا أسيافكم و توكلوا ... على الله ، إن الأمر لله أجمع
فسرنا إليهم جهرة فى رحالهم ... ضحياً علينا البيض لا نتخشع (٣)
بملوسة فيها السنور و القنا ... إذ ضربوا أقدامها لا تورع (٤)
فجئنا إلى موج من البحر وسطه ... أحابيش منهم حاسر و مقنع (٥)
ثلاثة آلاف و نحن نصية ... ثلاث مئين إن كثرنا و أربع (٦)
نغادرهم تجرى المنية بيننا ... نشرعهم حوض المنايا و نشرع (٧)
تهادى قسى النبع فينا و فيهم ... و ما هو إلا اليثربى المقطع (٨)

(١) لا نتطلع : لا نرفع إليه أبصارنا إجلالا له ، و فى رواية : لا نتظلع ، بمعنى لا نميل عنه .
(٢) الروح : المراد بها روح القدس جبريل عليه السلام ، قصرنا : غايتنا .
(٣) ضحيا : وقت الضحى :
(٤) ملوسة : كتيبة مجتمعة ، السنور : السلاح ، لا تورع : لا تكف .
(٥) احابيش ، جمع أحبوشة : الجماعة من الناس ليست من قبيلة واحدة ، حاسر : من ليس عليه درع و لا مغفر ، و المقنع : من لبس المغفر .
(٦) نصية : من القوم أو من الابل خيارها ، ثلاث مئين : لضرورة الشعر .
(٧) نغادرهم : نداولهم ، و نشارعهم : بمعنى نشاربهم ، نشرع : نشرب .
(٨) تهادى فى الأصل تتهادى : تتمايل ، اليثربى : الأوتار اليثربية .

و منجوفة حرمية صاعدية ... يذر عليها السم ساعة تصنع (١)
تصوب بأبدان الرجال و تارة ... تمر بأعراض البصار تقعقع (٢)
وخيل تراها بالفضاء كأنها ... جراد صبا فى قرة يتريع (٣)
فلما تلاقينا و دارت بنا الرحى ... و ليس لأمر حمه الله مدفع
ضربناهم حتى تركنا سراتهم ... كأنهم بالقاع خشب مصرع
لدن غدوة حتى استفقنا عشية ... كأن ذكانا حر نار تلفع (٤)
و راحوا سراعاً موجعين كأنهم ... جهام هراقت ماءه الريح مقلع (٥)
و رحنا و أخرانا بطاء كأننا ... أسود على لحم ببيشة ظلع (٦)
فنلنا و نال القوم منا و ربما ... فعلنا ، و لكن ما لدى الله أوسع
و دارت رحانا و استدارت رحاهم ... و قد جعلوا . كل من الشر يشبع
و نحن أناس لا نرى القتل سبة ... على كل من يحمى الذمار و يمنع
جلاد على ريب الحوادث لا نرى ... على هالك عيناً لنا الدهر تدمع
بنو الحرب لا نعيا لشئ نقوله ... و لا نحن مما جرت الحرب نجزع
بنو الحرب إن نظفر فلسنا بفحش ... و لا نحن من أظفارنا نتوجع

(١) منجوفة : السهم العريض النصل ، حرمية : نسبة إلى الحرم ، و صاعدية : نسبة إلى صاعد ، صانع سهام معروف .
(٢) تصوب : تقع ، البصار : جمع بصرة ، الأرض الغليظة ، الحجارة الرخوة .
(٣) يتريع : بمعنى يتردد ، قرة : البرد القارس .
(٤) كانا : يعنى توقدنا فى نار الحرب ، تلفع : تشتمل
(٥) جهام : السحاب الذى لا ماء فيه ، مقلع : زائل .
(٦) بطاء : جمع بطئ ، بيشة : مأسدة معروف أسودها بشدة البطش والضراوة ، ظلع جمع ظالع : مائل .

و كنا شهاباً يتقى الناس حره ... و يفرج عنه من يليه و يسفع (١)
فخرت على ابن الزبعرى و قد سرى ... لكم طلب من آخر الليل متبع
فسل عنك فى عليا معد و غيرها ... من الناس، من أخزى مقاماً و أشنع ؟
و من هو لم تترك له الحرب مفخراً ... ومن خده يوم الكريهة أضرع (٢)
شددنا بحول الله و النصر شدة ... عليكم و أطراف الأسنة شرع
تكر القنا فيكم كأن فروغها ... عزالى مزاد ماؤها يتهزع (٣)
عمدنا إلى أهل اللواء و من يطر ... بذكر اللواء فهو فى الحمد أسرع
فخانوا و قد أعطوا يداً و تخاذلوا ... أبى الله إلا أمره وهو أصنع (٤)

و لما تصدى عمرو بن العاص شاعر قريش الذى كان من فرسانها فى الجاهلية، وهو يعير المسلمين، و يستهزىء بهم حينما أصابتهم هزيمة فى يوم أحد، ويقول أبياتاً من الشعر فى ذلك : جاء فيها ما يلى :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا ... مع الصبح من رضوى الحبيك المنطق (٥)
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا ... لدى جنب سلع ، و الأمانى تصدق

(١) يسفع : يحرق و يوسم بالكى .
(٢) أضرع : ذليل .
(٣) الفروغ : الطعنات الواسعة ، عزالى ، جمع عزلاء : فم القربة . يتهزع : بمعنى يتقطع .
(٤) أعطوا يداً : استسلموا ، (السيرة النبوية لابن هشام) ج ٣/ ص ١٣٩ ١٤٠ - ١٤١ - ١٤٢ .
(٥) الحبيك : الطريق ، أو ما فيه طرائق ، المنطق : من انطاق ، المشدود بالنطاق ، أو موضع النطاق .

فما راعهم بالشر إلا فجاءة	كراديس خيل فى الأزقة تمرق (١)
أرادوا لكيما يستبيحوا قبابنا	و دون القباب اليوم ضرب محرق

رد عليه كعب بن مالك فى نفس القافية و الرديف ، وكان رداً قاسياً نستطيع أن نقدر ذلك فى أبياته التالية :

ألا أبلغا فهراً على نأى دارها	و عندهم من علمنا اليوم مصدق
بأنا غداة السفح من بطن يثرب	صبرنا ، و رايات المنية تخفق (٢)
صبرنا لهم ، و الصبر منا سجية	إذا طارت الأبرام نسمو ونرتق (٣)
على عادة تلكم جرينا بصبرنا	و قدماً لدى الغايات نجرى فنسبق
لنا حومة لا تستطاع ، يقودها	نبى أتى بالحق عف مصدق (٤)
ألا هل أتى أفناء فهر بن مالك	مقطع أطراف وهام مفلق (٥)

[للكلام بقية]

---

(١) كراديس خيل : جماعاتها ، تمرق : بمعنى تخرج .
(٢) يريد بالسفح سفح جبل أحد ، موقع المعركة .
(٣) الابرام : جمع برم الذى لا يدخل مجلس القوم فى الميسر ، والمراد بها اللئام . نرتق : نصلح .
(٤) حومة القتال أو البحر : معظمه .
(٥) أفناء : جمع فنو ، يقال : هو من أفناء الناس ، أى مختلط لا يعلم ممن هو .

تعريف بكتاب :

الأدب الاسلامی و صلته بالحياة

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى

[منذ أيام فقط صدر لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الرابع الحسنى الندوى (عميد كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء) كتاب جديد حول الأدب الاسلامی و صلته بالحياة ، قد تحدث فيه عن الأدب الاسلامی الأصيل الذی له صلة عميقة بالحياة و الانسان و الكون و هو أدب حی نام ، جدير بالحياة و البقاء و النمو فی كل زمان و مكان .

و هذا المقال الذی كتبه سماحة الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى كمقدمة لهذا الكتاب القيم ، ننشره تعريفاً بالكتاب و تبياناً لواقع الأدب الاسلامی و صلته الوثيقة بالحياة] . [التحرير]

الحمد لله الذی خلق الانسان ، و علمه البيان ، و أرسل رسله بالهدى و التبيان ، و أرسل أشرفهم و خاتمهم بأشرف كتاب و أبلغ بيان .

وبعد فقد بقى الأدب فی فترات طويلة من التاريخ فی كثير من الأمم ، تحت رحمة الأدباء و الكتاب ، و الباحثين و المؤرخين ، الذين اعتادوا أن لا ينظروا إليه إلا من زاوية الصناعة و الفن ، و لا يعتبروه — فی غالب الأحوال — إلا أداة تسلية ، أو آلة طرب ، أو طريقة إظهار براعة ، أو وسيلة تحقيق مآرب ،

أشبه شئ بفن من فنون الوشى و التطريز ، أو التحلية و التطرية ، أو مظهراً من مظاهر « الفروسية » - بأوسع معانيها ـ الكلامية ، أو « السياسة البلاغية » ، وكان شبيهاً ببلبل غريد سجين ، فاذا كان طائراً مدللا فى قفص من ذهب ، تقدم له أطايب الطعام والشراب، فى صحاف من ذهب وأكواب ، تغنى بمدح سيده بأطيب الألحان . و إن كان طائراً مهجوراً فى قفص ، أسلاكه من حديد ، يضيق عليه فى الطعام و الشراب . ويقتر عليه فى الرزق ، صدع بالهجاء أو الرثاء ، و العتاب و السباب ، أما أن يكون طائراً حراً طليقاً يرفرف بجناحيه ، و يطير فى الأجواء و يحلق فى السماء ، و يقتات كيف يشاء ، و يسجع كيف يشاء ، فلا ! .

و كان من المؤسف أن الأدب ظل مدة طويلة تحت رحمة هؤلاء الباحثين و المؤرخين ، تعريفاً و وصفاً ، و عرضاً و تحليلا ، و وزناً و تقييماً ، و تاريخاً و ترجمة ، فلا يتعرف به من بدأ يشدو فى لغة من اللغات . أو يريد أن يتذوق الجمال فى أدب أمته ، و يطلع على مقدرتها البيانية ، إلا فى هذا الاطار الضيق ، و التصور القاصر ، و يؤلف كاتب أو مؤرخ كتابه فى وصف الأدب و الأديب ، و يعرض أمثلة و نماذج من الأدب المنثور ، و الكتابة البليغة ، فيختار أكثرها تنميقاً و أغناها زخرفة لفظية ، وبلاغة صناعية ، و يأتى الآخرون فيترسمون خطاه ، فإما يكتفون بنقل ما اختاره المؤلف الأول ، و إما ينتهجون منهجه فى النقل و الاختيار ، و لا يتعبون أنفسهم فى استعراض ذخائر الأدب ، استعراض جديد ، و استخراج نفائس من الثروة الأدبية المطمورة ، و بذلك يطغى لون واحد من الأدب على جميع ألوانه و أساليبه ، و يتصور كثير من دارسى الأدب — حتى أصحاب الاختصاص و البحوث فيه — أن أدب هذه الأمة قد استنفدت قوته ، و أثيرت دفائنه ، و قد أصبح من قبيل إضاعة الوقت ، العودة إليه مرة أخرى ،

و البحث فيه عن شئ جديد ، مع أن ما استخرج منه و عرض فى مجاميعه الأدبية ، إنما هو غرف من بحر ، و إن المكتبة العربية — نقولها عن الأدب العربى الذى ألممنا به بعض الالمام بصفة خاصة — تكاد تكون ركازاً أدبياً ، تنتظر همماً عالية ، و نظرات واسعة ، و أيدياً أمينة قوية ، و تصوراً للادب صحيحاً واسعاً ، و هياماً بالجمال و القوة و الحياة ، و بلاغة التعبير و دقة التصوير ، و مس القلوب وإثارة النفوس ، و القدرة على تحريك العاطفة ، و حاسة الجمال ، و إن وجد فى ذلك فى مجال أطبق الأدباء المقلدون على أنه لا صلة له بالأدب و البلاغة ، بل هو و الأدب على طرفى نقيض ، وقد بقى الأدب التقليدى ـ و بالأصح الأديب المقلد ـ قروناً متطاولة يعاف هذا الضرب من البيان ، و يأنف من الدنو منه أو الاعتزاء إليه ، كالوعظ ، و الارشاد ، و كلام الزهد و النسك ، و العقائد و الديانات ، و الطب ، و العلوم الرياضية و علم الحيوان و النبات ، و علم النفس ، و الرسائل التى كتبت بطريقة طبعية لا يتصور كاتبها أنه سيطلع عليها أديب أو تنشر فى زمن من الأزمان ، كرسالة الأم إلى أبنائها ، أو الأخ الكبير إلى أخيه الصغير ، أو مذكرات و يوميات ، أو انطباعات أو انعكاسات ، يقيدها كاتبها لنفسه ، و قد يحب أن لا يطلع عليها غيره ، و قد تكون هذه القطع أكثر جمالا وأقوى تأثيراً ، و مثالا للبلاغة ، من كثير مما كتبه الكاتبون ليخلد ذكرهم و يضفى عليهم ألقاب البليغ الكبير ، و الكاتب القدير ، والأديب الشهير ، لأن الأول أقرب إلى الطبيعة و أكثر اتصالا بالحياة ، و أصدق تعبيراً ، عن خلجات النفس و دقات القلوب ، و أسرع دخولا إلى أعماق النفس الانسانية ، وأكثر مساً للقلوب وتحريكا للشاعر ، و الثانى يفقد هذه المعانى و يتجرد من هذه الأوصاف .

و يحلو لى أن أنقل هنا قطعة مما جاء فى مفتتح هذا الكتاب الذى نقدم له

تحت عنوان « صلة الأدب بالحياة » يقول المؤلف :

« الأدب يمثل الحياة و يصورها ، و يعرض على القارىء و السامع صوراً تنعكس و تبدو من مجالات العيش المختلفة ، و يعرض عرضاً جميلا و مؤثراً لشتى جوانبها و أشكالها ، فتبدو فيه ملامح الكون و الحياة و أشكالها المتنوعة ، فعند ما يفوتنا النظر إلى الحياة مباشرة ، ننظر إليها و نشاهدها فى مرآة الأدب شريطة أن يجيد الأدب عمله و تصدق من صاحبه مقدرته ، و تحسن ملكته ، و بذلك يصبح الأدب سبباً لتخليد أحداث الحياة و صورها ، فهى تلمس و تشاهد ولو بعد وقوعها بزمن بعيد ، إذا بقيت العبارة المصورة لها ، و بقى التعبير الفنى الجميل عنها و بقيت معانيها و كلماتها مفهومة مثلما كانت مفهومة فى أوانها .

فبالأدب يصل الانسان إلى فهم ظواهر الحياة و تذوق كيفياتها ، و قد يكون هذا الفهم و التذوق أحسن و أقوى من فهمها و تذوقها مباشرة بغير واسطة الأدب ، و لو أن الظواهر الحقيقية هى أقرب منالا ، و من السهل أن تسبر أغوارها بصورة مباشرة ، ولكن الأدب ينوب عن ذلك مناباً كبيراً و واسعاً إذا اختفت أو غابت الظواهر الحقيقية و الوقائع العلمية .

و يتسع الأدب باتساع الحياة و تتعدد جوانبه و نواحيه كما تتعدد جوانب الحياة و نواحيها ، و يستطيع به القارىء أو السامع أن يطل على حياة البعيدين فى المكان أو السالفين فى الزمان ، مهما قدم تاريخهم أو بعدت أوطانهم » .

و قد كان قلب هذه النظرية الخاطئة الطارئة على الأدب العربى ، التى أساءت إلى قيمة اللغة العربية و سعتها و جمالها ، و تدفقها بالحياة ، و إدالة الأدب العربى من صوره تصويراً قاتماً ، كالحاً عبوساً ، و الانصاف له و ايتاؤه حقه من الجهاد فى سبيله ، و إنقاذه ممن جنوا عليه ، يحتاج كل ذلك إلى خطوة جريئة وشئ من الثورة

فى التفكير ، و مغامرة فى سبيل تحريره من أسر المحتكرين له و لتاريخه و تعريفه ، الذين حفروا حوله خنادق لا يتخطاها إلا مجازف بنفسه و شهرته ، و نصبوا حوله سرادقات لا يدخلهـا إلا من تزيا بزى الأدب ، و حمل شهـادة مكتوبة بأقلام هولاء المحتكرين .

و لعل دار العلوم التابعة لندوة العلماء كانت فى مقدمة من خطا هذه الخطوة الجريئة ، نحو إبانة الأدب العربى الصحيح ، الحى القوى ، الجميل الجليل . الذى بقى قروناً طويلة مطمورة فى صفحات من الكتب ، التى أبعدت عن ركن الأدب والبيان فى المكتبة العربية العالمية ، و وضعت فى ناحية بعيدة عن الأدب واللغة ، بحيث لا يتبادر إليها ذهن مؤرخ الأدب ، ولا باحث فى البيان والبلاغة . وكان نتيجة هذه المغامرة الأدبية أو الثورة فى عالم الجمع و التأليف ، كتاب « مختارات فى الأدب العربى » فى جزئين ، ومقدمته التى نادت بهذه الحقيقة بصوت عال ، ولكن فى أسلوب أدبى ، و كتاب « منثورات من الأدب » و « الأدب العربى بين عرض و نقد » وكلاهما لصاحب هذا الكتاب الذى نقدم له .

ثم كان من ضمن هذه المساعى المشكورة و الخطوات الجريئة المبرورة ، عقد ندوة عالمية للادب الاسلامى فى رحاب دار العلوم ندوة العلماء فى ١١/١٢ / ١٣ من جمادى الآخرة عام ١٤٠١هـ حضرها عدد وجيه مشرف من عمداء الأدب العربى فى كثير من الجامعات العربية و الهندية ، و المشتغلين بالبحث و التدريس و التأليف فى الأدب العربى ، و صاحب هذا الكتاب السيد محمد الرابع الحسنى الندوى الذى نقدم له ، فى مقدمة من تبنى هذه الفكرة و حمل أعباء هذه الندوة ، و يرجع إليه الفضل فيما حققته هذه الندوة من نجاح ، و حازته من ثقة ، و كسبته من شهرة ، و قد كان جديراً بذلك لأنه عميد كلية اللغة العربيـــة و آدابها فى جامعة دار العلوم لندوة

العلماء ، و الداعى إلى هذه الفكرة من زمن قديم على بصيرة ، و المطلع على أحدث ما كتب و يكتب فى هذا الموضوع ، و كثير التردد و الزيارة للعواصم العربية ، و مراكز الثقافة الاسلامية الأدبية ، و رئيس تحرير صحيفة « الرائد » .

و قد كتب السيد محمد الرابع هذا البحث ليعرض فى هذه الندوة و عنوانه « الأدب الاسلامى و صلته بالحياة » و قد بحث فيه صلة الأدب بالاسلام بصفة خاصة ، و قد شرح جوانب هذا البحث فى توسع و إيجاز . و بين ميزة الأدب الاسلامى بين الآداب العالمية و سعته ، و عنى باهتمام الرسول صلى الله عليه و آله وسلم و صحابته رضى الله عنهم أجمعين بالأدب والشعر بصفة خاصة ، و عرض نماذج رائعة و قطعة بيانية خالدة من كلام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم ، و رفع اللثام عن خصائص الأدب النبوى الكريم ، و ما يمتاز به من الشعور الرقيق ، و العاطفة الفياضة ، و الأسلوب الجزل ، و المنهج التربوى الحكيم . ثم تعرض لأدب الصحابة رضى الله عنهم ، و أشار إلى جوانبه البلاغية ، والنفسية ، والدعوية ، و بكل ذلك جاء هذا الكتاب على وجازته غنياً بالمواد البلاغية التاريخية ، دافقاً بالحيوية ، و القوة ، و الرشاقة ، يشكر عليه صاحبه و يعترف بمجهوده و سلامة ذوقه ، و سعة اطلاعه . و يقدم إلى قراء العربية و المعنيين بأدبها و تاريخها كهدية من ندوة العلماء ومن مكتبة الندوة العالمية للأدب الاسلامى و مكتبتها الوليدة الناشئة ، يحمد الله على ذلك كاتب هذه السطور و المقدم لهذا الكتاب بصفته خادماً و أحد المسئولين عن الندوتين ، ندوة العلماء ، و الندوة العالمية للأدب الاسلامى ، و المساهمين فيهما .

و الحمد لله أولا و آخراً . و الصلاة و السلام على نبيه فى الأولين و الآخرين .

من إخاء شعورى إلى إخاء عملى

واضح رشيد الندوى

إن الارتباط الوثيق بين أعضاء الجالية الاسلامية ، رغم إختلاف اللغات ، و القوميات ، و الثقافات ، و رغم القيود السياسية و الحدود الجغرافية و الحواجز البرية التى تفصل بينها ، و روح الانتماء الذى يبعث على وحدة الانفعال فى السرور و الحزن . و الاطمئنان ، و القلق ، لهو الميزة التى تخص بهذه الأمة ، و كلما تصاعد هذا الارتباط و تعزز ، تعززت الأمة الاسلامية ، و تتوفر فى التاريخ أمثلة كثيرة لهذا الارتباط ، و مواقف الانفعال بهذا الارتباط ، و قد أتى هذا الشعور بالانتماء إلى الأمة الاسلامية ، و اعتبار كل فرد من أفرادها أخاً بصرف النظر عن وطنه ، و ثقافته و لغته ، بالعجائب فى التاريخ . وكلما ضعف هذا الارتباط تردت الأمة الاسلامية ، و صارت نهباً للغيرين ، و رمية للرماة ، وكان سقوط الأندلس و الكارثة البشرية التى وقعت فيها نتيجة لغياب هذا الشعور فى الجالية الاسلامية فى ذلك العهد الذى كانت فيه عدة حكومات إسلامية ، و لكنها كانت فارغة من هذا الشعور ، و الانفعال ، فذبح المسلمون و تم القضاء على القاعدة الاسلامية التى قامت بدور حضارى و دعوى يتمجد به التاريخ الاسلامى فصارت عبرة و درساً ، و تبرهن كارثة الأندلس على أهمية هذا الارتباط ،

وقد شوهد هذا الارتباط فى مختلف العصور ، فكانت الاخوة الاسلامية أقوى رابطة من بين الروابط الأخرى لأن هذه الرابطة تقوم على شعور قلبى ، والشعور لا يتغلب عليه ، وقد أكد الاسلام على هذه الرابطة ، تأكيداً جوهرياً ، واعتبرها من حسن إسلام المرء ، و فى بعض المواضع جعلها شرطاً للايمان .

كان هذا الشعور بالانتماء ، و الصلة بين مسلم و مسلم أقوى من صلة القرابة ،

والرحم ، و يقدم التاريخ الاسلامی شواهد علی تجسید التصور الاسلامی بأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى ، فكان المؤمن قوياً رغم ضعفـه و استكانته فی الظاهر ، لأنه كان عضواً لأسرة قوية ، و كان دينه و ثقافته عزيزة لأن له أعواناً ، و أنصاراً ، و استمسك المسلمون بهذه الآصرة زمناً فعزوا و كان لهم رعب و هيبة .

و لكن هذا الارتباط ، و هو بدون شك صفة دائمة للسلمين لأنه من تعاليم الاسلام الأساسية ، كانت له أقدار ، و أشكال ، تتغير بتغير الأحوال و الظروف و وجد فی كل عصر ، شكل أو مظهر من مظاهره ، و كان يتراوح باعتبار الحالة النفسية ، و القدرة ، و صلاحية الممارسة و التعبير ، و الفرض ، فيتراوح بين شعور القلب ، والتصرف و الخطوة العملية ، كما جاء فی الحديث الشريف «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه و إن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان» .

كذلك الاخاء الاســلامی ، فان وجوده يتراوح بين شعور قلبی ، و تثبيت باللسان و تنويه به ، و ممارسة عملية ، و تصرف فعلی ، باعتبار التربية الاسلامية ، و بقدر تنمية روحه و عاطفته ، و الايمان به .

لقد تجـلى هذا الشعور بالانتماء ، و الاخاء ، و الانفعال بشقاء الأخ المسلم و الاقدام لنصرته ، و تأييده ولو أخلاقياً ، فی حرب البلقان فجاشت قرائح الشعراء المسلـمين و الكتاب و الزعماء فی الهند ، و اضطرب جماهير المسلمين ، و قدموا أنفسهم لمساعدة إخوانهم ، وتجلى فی المعارك التی خاضتها تركيا ضد الحلفاء الصليبيين.

و تحرك المسلمون فی الهند جميعاً ، و وقفوا صفاً واحداً لنجدة الأتراك رغم خضوعهم للاستعمار البريطانی ، و هتفوا ببقاء الخلافة العثمانية ، و ليست البلاد بلادهم و لا الجنس جنسهم .

و تجلى هذا الشعور لدى قيام إسرائيل ، و زحف القوات العربية لمكافحة هذه المؤامرة الصليبية الصهيونية ، فنسى المسلمون فی الهند محنتهم و مشاكلهـم و انضموا

إلى إخوانهم العرب ، و لو فى الشعور القلبى ، و تقدم بعضهم للمشاركة الفعلية فى القتال شوقاً إلى الجهاد ، مغموراً بالحنين إلى الشهادة ، و سعياً إلى إثبات الاخاء الاسلامى ، و تجلى هذا الشعور لدى كل محنة ، و فى كل كارثة ، و مأساة .

و تجلى هذا الشعور أخيراً فى حرب الأفغان و جهادهم ضد قوى الاحتلال السوفيتى فوقف العالم الاسلامى كله صفاً واحداً ، وفى مقدمته العالم العربى ، باستثناء الحكومات الاشتراكية العميلة للاتحاد السوفيتى ، وكان هذا التأييد العالمى والمساندة العملية من مختلف البلاد الاسلامية دعماً كبيراً و سنداً للأبطال المجاهدين ، و كان استمرار النضال الأفغانى رغم الخسائر التى بلغت الرقم القياسى ، أكبر برهان على صمود العاطفة الايمانية و صلابة الإخاء الاسلامى .

وبالاضافة إلى قضية أفغانستان التى أظهرت روح الإخاء الاسلامى . ثمة قضايا أخرى تجلى فيها شعور الانتماء الاسلامى ، منها قضية أرتريا ، وفطانى وقضاياإسلامية أخرى ، ومآسى وكوارث أصيب بها العالم الاسلامى ، فتقدم المسلمون لنصرة إخوانهم بعواطف الإخاء ، وكذلك إن كثيراً من الحركات الاسلامية والمؤسسات الاسلامية تستمد قوة من الاخوان المحبين ، و المؤيدين لها فى البلاد الاسلامية الأخرى ، و بفضل هذه الجهود يتواصل العمل الاسلامى ، ويرفع صوت المسلمين المضطهدين والمستضعفين فى المنابر الدولية ، و بدأت عدة دول تشعر بوزن الجالية الاسلامية ، و تدرك أنها لا يمكن القضاء عليها ، لأن العالم اليوم كالبحر إذا ألقيت فيه حصاة ثارت دائرة .

كل ذلك و الإخاء الاسلامى لا يزال شعورياً ، و إن كان معنوياً فهو محدود و مقيد و لا يوجد إلا على مستوى الشعوب تنفصل عنه الحكومات التى لا تزال تخجل فى إظهار انتمائها إلى الاسلام و إقامة روابط على هذا الأساس .

يتمتع المسلمون اليوم بنفوذ سياسى ، بحكم أصواتهم فى المنابر الدولية ، و بحكم صلاحية بعض البلاد الاسلامية للساعدة المالية ، و فرض إرادتها و رغباتها و نفوذها على دول أخرى ، فاذا كان الاتحاد السوفيتى يتمتع بحق التصرف لحماية

المصالح الشيوعيــة و الولايات المتحدة لا تتردد فى الدفاع عن مصالح جاليتها الاقتصــادية ، و السياسية . و إذا كانت الدول الغربية المسيحية لا تتردد فى بسط شبكات التبشير ، و تخطو خطوات واسعة فى دعم المؤسسات المسيحية ، و لا تتردد فى ا ستخدام القوة و قد استهدفت عدة بلدان إسلاميــة للتنصير ، و حماية مصالح المسيحيين . و لا تخفى نواياها ، فلم لا يستطيع المسلمون حكومات و شعوباً نصرة الاسلام و المسلمين عملياً وجدياً و تعزيز هذا الإخاء ليكون صوت الاسلام أرفع و مكانة المسلمين أعز و أقوى .

إن تغيراً بسيطاً فى موقف الحكومات الاسلامية . و شجاعة قليلة فى مواقفها و عدم ترددها فى التعبير عن شعورها النبيل الأخوى إزاء المسلمين فى بلاد المسلمين ا لمستضعفين و اهتمامها بنشر الاسلام بدون عداء للمذاهب و الأديان الأخرى سيكون له تأثير جوهرى ، فى سياسة كثير من البلدان التى تهتم بعلاقات ودية معها .

السعادة الحقيقية . . . .

تحركت الارساليات النصرانية أخيراً واستأنفت نشاطاتها ببرامج ومخططات جديدة ، و أعدت استراتجية جديدة لوقف انتشار الاسلام . و قد اعترفت منظمة الكنائس العالمية بأن الخطوات التقليدية لمحاربة الاسلام و التنصير لم تكن مجدية ، فى وقف الاسلام فحثت على تغيير الوسائل التى كانت تتخذ حتى الآن للتنصير ، ودعا بعض المهتمين بالقضية إلى التقارب بين الاسلام والمسيحية وتغيير وسائل بث الكراهية وعداء الاسلام العلنى ، و على العكس كسب صداقة مع المسلمين ، كما حث بعض المستشرقين على تغيير الموقف التقليدى للمستشرقين ازاء العلوم الاسلاميــة و الاسلام ، و إزالة الانطباع السائد عنهم بأنهم معاندون ، ليظهروا باحثين غير منحازين ، و تكون نتيجة بحثهم و تحقيقهم أكثر قبولا ، و استمالة للقلوب .

وقد لوحظ هذا التغير فى كتابات الكتاب المعاصرين ، فانها لا تحمل ذلك العداء السافر ، و التلاعب الفاضح و السخرية بالنسبة للاسلام و المسلمين الذى تعوده

المستشرقون بل تبدو كأنها معالجات جدية للظروف ، ودراسات واقعية و إن كانت لا تخلو من مغالطات و مزالق و تدسيس .

ويبدو من المنشورات والكتب التي توزعها الكنيسة أنها تعترف بأن الحضارة المعاصرة قد أحدثت مشاكل وسلبت الهدوء والسعادة فى الحياة ، وذلك هو الاعتراف بواقع الحياة الذى كان يلفت إليه الدعاة المسلمون الانتباه ، منذ أن سادت الحضارة الغربية .

يقول أحد المنشورات التبشيرية التى وزعت أخيراً بعنوان «هل أنت سعيد فى حياتك» (Are you happy) إن الانسان اليوم يبحث عن السعادة الحقيقية ويظن أنه سينالها بجهوده و مساعيه ، ولكن السعادة الحقيقية هبة من الرب ، و لا تحصل بالجهود الذاتية ، و بوسائل مادية ، إن الناس يحسبون أن السعادة تحصل بالمال ، و الثروة . فيجب كسب الثروة بكل طريق شرعى وغير شرعى وهم متوجهون كلياً إلى كسب الثروة ، و الحق أن السعادة الحقيقية لا تتوفر فى الوسائل المادية ، و لا تكسب بالثروة » .

ثم يقدم الكتيب أمثلة لأصحاب الثروة الهائلة فى التاريخ من الملوك والأغنياء ، و فى العصر الحاضر من حياة أصحاب الملايين ، ويقول إنهم لم يجدوا السعادة الحقيقية ، و يدعى الكتيب أن الطريق الوحيد للسعادة القلبيـــة هو التخلص من العدو الكامن فى النفس ، و هو « المعصية » ، ثم يدعو الكتيب إلى تلاوة الانجيل لمعرفـــة ما هى المعصية ، و طرق التخلص منها لحصول السعادة .

و قد وزعت هذه المنشورات ببطاقات التعارف بنطاق واسع وسألت القراء بأن يطلعوها على عناوينهم لترسل إليهم منشورات أخرى ، و الانجيل مجاناً .

وألقيت هذه المنشورات فى مواضع عامة والمحلات التجارية والمنازل فى الحارات الاسلامية فى الهند كاعلانات تجارية ، يلتقطها كل شخص و يقرؤها كأنه يبحث فيها بضاعته المنشودة .

و لا شك أن السعادة هى البضاعة المنشودة ، ولكن من سلب هذه البضاعة ؟

و من جعل هذه الحياة مضطربة وقلقة؟ ، و من أهدر كرامة الانسان ، و من خلق النهامة والشراسة للحصول على المال بطريق شرعي وغير شرعي ، وجعل الانسان سلعة يباع ويشترى ، وحيواناً شرساً لا يهمه إلا إشباع بطنه وجنسه ؟ إنه بدون شك الغرب المسيحى ، الذى يمول هذه الأرساليات التبشيرية ، للدعوة إلى السعادة ، فان الحضارة الغربيه و المسيحية اليوم وجهان لنقد واحد لا انفصال بينهما .

لقد كانت الدعوة الصحيحة إلى السعادة الحقيقية إذا كان هؤلاء الدعاة مخلصين ، البحث عن وسائل للتخلص من حضارة المعصية التى يقودها الغرب المسيحى .

كانت أوربا أحق بأن تدعى إلى ترك طريق المعاصى ، و كان يحق للبشرين أن يعلنوا براءتهم من ذلك النظام الغاشم للحياة الذى تنشره وتدعو إليه أوربا باسم الحضارة ، وكيف تحصل السعادة بقبول ذلك النظام الذى سلب السعادة الحقيقية ، إنه فى الواقع خوض فى الشقاء و تعمق فيه .

و لعل المبشرين أدركوا أهمية ذلك الجانب بعرض الدعاة المسلمين جوانب أخلاقية للاسلام ، و دراسة حياة المسلم التى تتميز بالشعور بالسعادة ، و الطمأنينة ، بمعرفة الحقوق فى داخل الأسرة ، والمجتمع ، والرضا برضا الله ، والاقتناع بالقدر ، بقدر التمسك بتعاليم الاسلام .

ويثبت تأثير تعاليم الاسلام الخلقية بما ذكره بعض الدعاة إلى الاسلام فى أوربا ، و المدن المتحضرة ، إن تصوير الحياة المنزلية و رعاية الحقوق بين أفراد الأسرة ، و الجيران وخاصة إظهار المحبة والاحترام تجاه الأم ، والزوجة ، و التعامل بالمساواة بين الأجير و المستأجر ، وبين الغنى و الفقير ، و الاقتناع فى الحياة بتصور أن الله هو القادر ، يجذب الناس و يستميلهم إلى قبول الاسلام ، فيدخل فى الاسلام أفواج بسماع هذه القصص ، و شرح التعاليم الاسلامية ، و قد كان الجانب الخلق للاسلام أكثر تأثيراً لجلب غير المسلمين إلى الاسلام فى اليابان ، و عدد فى البلدان الأفريقية ، و فى أوربا حيث يزداد الشعور بالقلق النفسى بتفكك نظام الأسرة ، وطغيان المادية ، و إخفاق المسيحية فى حل هذه المشاكل .

إلى الإسلام من

البعث الإسلامي

شهرية إسلامية جامعة

Jamia Nagar

العدد السابع

المجلد الثامن والعشرون

ربيع الثاني ١٤٠٤هـ

يناير ١٩٨٤م

تصدرها ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

أخي القـارىء

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١— كتابة العنوان بالانجليزية و العربية كلتيهما فى ورقة خاصـــة ، كل حرو
حدة ، و ارساله إلينا .

٢— ارسال إشتراك بالقيمـــة المبينة أدناه باسم « البعث الاسلامى » مقدما
واحد أو أكثر :

٣— يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤— الاشتراك السنوية .

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف .

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الج

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٣٠ د
بالبريد الجوى .

فى باكستان ، بنغلاديش و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السط
١٨ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I
N A D W A T U L U L A M A
P. O. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

البعث الإسلامي
شهرية إسلامية جامعة

العدد السابع
المجلد الثامن والعشرون
ربيع الثاني ١٤٠٤هـ
يناير
١٩٨٤م

رئاسة التحرير
سعيد الأعظمي الندوي
واضح رشيد الندوي

أخى المسلم

أخى فى العقيدة و الدين لا فى التراب و الطين، أخى على درب الايمان و الجهاد، و طريق الشوك و القتاد، أخى فى النضال و الكفاح و التضحية و الفداء. أخى فى الحق و الصبر فى الوطن و المهجر، أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق، أخى فى زهرة الصحراء و درة الخليج، بين الرياح العاتية والأمواج الثائرة، أخى فى اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء، أخى فى الله! نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك فى وجه الباطل، زاداً لك فى طريق الايمان، عوناً لك على نوائب الحق، نصراً لك فى صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر، حارس للأمانة، أكثر من دور مشترك رسمى فى مجلة، أوزبون فى محل تجارة!

[محمد الحسنى - رحمه الله]

المراسلات:
البعث الإسلامي
ندوة العلماء. ص. ب ٩٣
لكهنؤ - الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Box No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

عودة إلى وحدة الكلمة وقوة العقيدة، متى تتحقق؟

منذ أن غابت حقيقة الاسلام فى حياة المسلمين الفردية و الجماعية تطرقت إليهم معان تقليدية ظنها أكثر الناس من صميم تعاليم الاسلام، كما وفدت إلى المجتمعات الاسلامية تفسيرات خاطئة للمفاهيم الاسلامية و الوجهات العملية، كان لها دور بارز فى حشو العقول المريضة بأفكار مشبوهة، وخلط الفكر النير الاسلامى الأصيل بآخر هزيل مهلهل، ولقد تفاقمت هذه الظاهرة الفكرية بشكل مرعب فى الفترات المعاصرة من التاريخ حيث إن الدين أصبح مجموعة من أحكام و عادات و تقاليد، إذا مارسها الانسان المسلم برىء عن مسئوليته الدينية، وأدى ما عليه من واجب الطاعة و الاستسلام، ثم إنه حر طليق فى جميع شئون الحياة و علاقاته بالناس أفراداً و جماعات، و ممارساته فى المجالات كلها، كأنه فصل الدين عن قضايا الحياة و حصره فى نطاق محدود لبعض العبادات و الأحكام و الطقوس الدينية.

إن هذا الظن أو مثله ظل التصور العام للدين فى القطاعات الجماهيرية العامة التى اقتنع أفرادها بوجه عام باعطاء الدين حقه فى المسجد وفى بعض الأحكام والشعائر، وظنوا أن الانتماء إلى الدين فى هذه الحدود هو المطلوب منهم كمسلمين، و لم يدر بخلدهم أن الدين الاسلامى الذى ينتمون إليه أوسع من هذه النظرة القاصرة، وأنه لا يترك الحياة بأوسع معانيها للحظة واحدة تنطلق بنفسها نحو الممارسات العملية من غير أن تتقيد فى جميع أجزائها و جوانبها، وظواهرها وبواطنها بتعاليم الاسلام الواضحة وبدوافع الطاعة والرضا،

و الخضوع و العبودية لله تبـارك وتعالى ، ذلك أن هؤلاء الجماهير من المسلمين اكتفوا عن معرفتهم الدينية بما رأوا أو سمعوا فى بيئاتهم التى ولدوا فيها و المحيطات التى عاشوا فى إيحاءات أجوائها و اتجاهات أفرادها ، و فى الأوساط العائلية و الاجتماعية التى تنفسوا فى ظلالها و انعكاساتها .

فكان من الطبيعى أن ينظر هؤلاء الناس إلى الدين بهذا المنظار القاصر ، ويحددوه فى نطاق خاص يصطنعونه و يطلقون عليه اسم الدين ، و لعلهم قاسوا ذلك بمقاييس الديانات الأخرى سواء عن شعور أو من غير شعور ، و لم يفكروا فيما إذا كان هناك فرق ظاهر بين هذا الدين و تلك الديانات و من هنالك وجدت كثير من البدع و الخرافات و الضلالات و من السيئات و المكرات سبيلا إلى بيوت المسلمين و بيئاتهم ، و اختلطت الشعائر و العقائد الأساسية بأساطير وافتراضات لا تمت إلى الاسلام بصلة ما ، و حسبنا كدليل على هـذا الكلام ما نراه فى مجتمعات المسلمين العامة من اعتقادات فاسدة ، و عادات و ضلالات يحسبونها من الدين ، و يتناولونها بشئ كثير من الأهمية ، حتى إن أساسيات الدين تفقد قيمتها و تتضاءل أمامها ، و بالتالى تذهب ضحية الوساوس الشيطانية ، و الحبائل الشركية .

و سوف لا نواجه أى صعوبة فى العثور على هذه المأساة الدينية فى الجماعات المنحرفة فى العالم كله ،بحيث إن نسبة الخاضعين للاتجاهات البدعية و الضلالات العقيدية فى هذه الجماعات تفوق كل شئ ، لذلك نستطيع أن نلاقى أفرادها فى نشاط غريب لدى المناسبات الدينية التى اخترعوها بوحى من النفس الأمارة بالسوء، وفى الاحتفالات التى تقام على القبور و الضرائح و فى الأعياد التى تعقـد لاحياء ذكريات من ميلاد أو وفاة ، أو زواج و عرس ، أو ما أشبه ذلك ، و لا يبالون فى ممارسة هـذه الضلالات بأى قيمة يكلفها « واجبهم الدينى » فيما يزعمون ، و إن الأمر الذى يبعث الأسف الشديد القاتل المرير فى النفس ويجرح قلب كل مؤمن صادق أن هذه الأعمال من الضلال و الشرك البواح لا تمارس إلا باسم الدين ، و طاعة لله و الرسول ، و ما أبعدها عن الدين و الطاعة !

ليس هؤلاء الجماهير المصابون بالانحراف العقائدى و المأخوذون بسحر البدع و الخرافات منفردين فى هذا المجال بالذات و لكن لهم أئمة من العلماء و المثقفين يقودونهم نحوها ، و يزينون لهم الابتداع بأنواعه و ألوانه ، مع ما يأتون لذلك من البراهين القاطعة التى تويد آراءهم و أفكارهم ، و لا شك فانهم يتناولون آيات من كتاب الله بالتأويل الذى يرضونه ، و يفسرونها تفسيراً يتفق و مرئياتهم الخاصة ، و يتخذونها فى الواقع شركاً يقع فيه ضعاف الايمان من سذج المسلمين ، و من العبث أن نحاول التفتيش عن الصورة الأصيلة للدين لدى الجماعات المنحرفة التى تعيش ألوانا من ضلالات باسم الدين و العقيدة ، و الحب و الايمان .

و لندع الآن هؤلاء الذين لا يخفى زيغهم على الناس و نبدأ بأهل العقيدة الصحيحة ، و الايمان الكامل بالحقائق الغيبية و المسلمات الايمانية . أولئك الذين يمقتون كل أمر يعارض روح الدين و يكرهون كل فساد يمس العقائد و ينال من شخصية المؤمن ، لكى نفتش عن فكرتهم الدينية و حياتهم العملية فى ضوء الكتاب و السنة ، و الحياة الاسلامية التى وجدت فى القرون الأولى ، إن هذا النوع من المسلمين الغيارى الذين يستطيعون أن يمثلوا صورة واضحة كاملة و صادقة للحياة الاسلامية الصحيحة يكاد يكون فى درجة الصفر أو المفقود ، بالنسبة إلى العدد الهائل الذى يشكله المسلمون اليوم فى العالم ، و قد لا يعدو أصابع اليدين ، ذلك لأن هناك مواضع ضعف تختفى فى غضون الحياة و تفسيراتها العملية و الفكرية ، و فى الفهم الدينى الذى يعتمد عليه المسلم ذو العقيدة السليمة ، والمسلم البعيد عن الضلال والبدع ، إنه يفهم الدين بما لا يوافق فهم السلف الصالح من أئمة الدين و أعلام الفقه الدينى الصحيح ، ويؤول ذلك بتجدد القضايا و تطورات العصر مرة ، و بالحاجة إلى التوفيق بين المسائل القديمة و المطالب المستحدثة مرة أخرى ، و يظن أن خلود الشريعة الاسلامية و استمرارية رسالتها معناهما الخضوع أمام كل جديد ،

أو إخضاع الدين لكل نمط من أنماط الفكر و العمل ، و من هنالك فانه لا يلبث أن يفسر المهمات الأولية و حتى الحقائق الدينيـة بشئ كثير من التوسع ، و لو جر ذلك إلى تغيير فى معانى الايمان و العمل . وإلى شبه كبير بين حياة المسلم وغيره . و قـــد يكون للدين تفسير مماثل للتفسيرات المادية دون مراعاة لروح الاخلاص والاحتساب ، و من غير اعتماد على التقوى التى هى الميزان العـادل بين كل نشـاط و عمل يقوم به العبد المسلم و بين ربه الذى يربط به نفسه و يعتبره المحور الوحيـــد الذى تدور حوله الحياة فى كل حال « قل إن صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين » .

على هذا القسطاس المستقيم نضع حياتنا العملية و نزنها بشئ من الدقة والامعان فاذا بهـا غير متزنة فى مجالات عديدة ، لا تكتمل فيها جوانب العقيدة و الايمان و السلوك و العمل على السواء ، فاذا رجحت كفة العمل و السلوك لدى شخص طاشت كفة التقوى و العقيدة عنده ، و رغم أن حياته الظاهرة تتحلى بقوة العمل والشعور بالواجب و النشاط الزائد فى ممارسة شئون الحياة تتخلى عن الشعور بمراقبة الله و تتسم بضعف فى العقيدة و الايمان ، فلا يبالى بما إذا صدر منه بعض المخالفات فى الأخلاق و المعاملات وظهر منه بعض مواضع الضعف فى أداء حقوق العباد ، و قـــد شهد المجتمع الاسلامى نماذج من أمثال هذا النقص ، و جرب هذا النوع من المسلم الذى لايرى بأساً فى غمط الحقوق ، و التقصير فى أداء المسئولية ، وممارسة الحرام بطريق سرى ، مع التزامه بالصلاة و المحافظة على أشكال العبادات ، و حتى قيامه بالعبادات المتطوعة غير الواجبة و المفروضة .

أما طبقة الدعاة والعلماء والمصلحين فاليهم ترجع المنة على عامة المسلمين والجماهير فى شأن الدين ، ولو لاهم لما وصل هذا الدين إلى الأجيال المتعاقبة فى شكل واضح ، و وقعت الأمة فريسة التحريف و المغـالاة و التطرف المشين ، إن و جود هؤلاء العلماء و الدعاة الذين تولوا شرح تعاليم الاسلام على أساس الكتاب والسنة المتين ،

كان ضماناً لبقاء الأمة الاسلامية على الجادة واتصالها بالاسلام كشريعة وعقيدة، وإيمان و عمل ، ورغم الاعتراف بما قام به دعاة الاسلام من مجهودات مشكورة فى سبيل العمل للاسلام وتربية الجماهير من الناس، نشير إلى واقع ينبع من بعض التفسيرات النظرية للدين تنقصها الروح العملية و السلوكية ويغلب عليها اللون العلمى و الطابع الفكرى ، الأمر الذى يحصر الاسلام فى جوانب نظرية محدودة ولا يحث على تحقيق الغاية الكبرى التى يتوخاها الاسلام لأتباعه من اتصال العبد بربه بطريق مباشر ، وبلون العبودية و الاستسلام والعودة إليه فى كل صغير وكبير ، مع ارتباطه العميق بأحكامه و شرائعه و كتابه و رسوله الكريم ﷺ بدافع صادق خالص من الايمان والعقيدة والحب و الاخلاص ، وبتحكيم الشريعة فى جميع شئون الحياة فى كل زمان ومكان من غير لين أو ضعف فى تطبيق قواعدها وتنفيذ أحكامها فى النفس والمجتمع، و الأفراد و الجماعات « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل و فى هذا » .

ولا ينبغى أن نغفل موضوع الفهم الصحيح للاسلام فقد يخطئ ناس فى هذا الفهم ، ويعقب ذلك تفسيرات خاطئة لكثير من النواحى العملية والفكرية ، وتلتبس الغايات بالوسائل وبالعكس ، وهنالك نرى تباينا واضحاً فى سلوك العاملين و الدعاة ، وخلافاً بين وجهات الأنظار فيما يختص بالأساسيات والحقائق الدينية ، كما لا يخفى ، وهل نستطيع أن ننكر النتائج الوخيمة لهذا التباين و الخلاف فى صميم عمل الدعوة إلى الله من تشتت فكرى وفرقة وانشقاق فى صفوف العاملين وتراتيب النشاط والجد ، والواقع أن النظرات المادية والأساليب الفكرية الوضعية من أهم عوامل هذا الخطأ فى تفهم الاسلام بغاياته ووسائله ، وتبين الهدف الخالص الذى يستهدفه الدين الاسلامى بتعاليمه الخلقية و الاجتماعية و أحكامه الشرعية و حقائقه الايمانية .

و لقد أورث هذا الخطأ فى الفهم أو بتعبير آخر : التسرع فى الحكم ، نوعاً من التطرف الدينى فى بعض الأحيان وأصبح له أنصار و متحمسون ممن لايراعون

الظروف في فرض وجهات الأنظار التي يصطنعونها على غيرهم من غير رفق أي هوادة ، و قد يألفون العنف في مسار العمل فيقبلون على استخدام القوة في كل مناسبة . ظناً منهم أن حكمة الدعوة تتطلب منهم الشدة في الوقت الحاضر ، و فعلا يعتمدون على وسائل العنف و القوة ، و يشوهون بممارساتهم الشخصية وجه الدعوة وسمعة الدعاة ، ولقد جرب التاريخ المعاصر للدعوة الاسلامية مثل هذا الوضع الذى حدث فى بعض أوساط العمل الاسلامى و شباب الدعوة فيها .

و لم يأل الماديون من أصحاب النظرات و الفلسفات المادية أى جهد فى دس السموم الناقعة فى أفكار الشباب المسلم والدعاة الاسلاميين من خلال رؤيتهم الخاصة نحو الحياة ، و ذلك بحكمة بالغة و أسلوب سرى من حيث لا يخطر على بال أن هناك سموماً فكرية تمتزج بالفكر الاسلامى الأصيل ، و بفعل هذا المزيج الفكرى نشأ فكر زائغ عن الاسلام طالما لم يفطن له المسلمون فرحبوا به على الصعيد الدعوى و الفكرى ، و تمسكوا به كفكر إسلامى متطور يحتاج إليه المسلم فى العالم المتطور المتغير ، و خاصة فى مجال الدعوة ، و العمل ، و السلوك الدينى و الاجتماعى .

إن تصحيح الفكر و تنقيته من شوائب الخطأ و الضعف لمن أوليات الدعاة وأهم الواجبات ، فقد خسر المسلم من أجل الخطأ فى الفهم وحدة الكلمة وقوة العقيدة ، و كلتاهما من الدعائم الرئيسية للحياة الاسلامية الخالصة ، ومن عوامل العزة والخلود و الاستمرار ، و كلما أصاب المسلمون روح الدين و غاية الحياة من خلال الرؤية الاسلامية الصحيحة الواضحة ، أدركوا سرالبقاء والخلود ، و وسعت رسالتهم العالم كله بخصائصها الجليلة ، و شملته بقدراتها العظيمة الباقية النامية ، و بعطائها الوفير .

و لكن ما نراه فى عالمنا الحديث من أوضاع سيئة و فاسدة تحيط بالحياة من جميع النواحى إنما هو نتيجة طبيعية للخطأ الذى نعيشه على جميع المستويات .

فهل للعودة إلى وحدة الكلمة وقوة العقيدة من سبيل ؟ ! ؟

سعيد الأعظمى

التوجيه الإسلامي

★ مجتمع فى فرد و أمة فى نفس واحدة
★ نحو الاقتداء الصحيح بالسنة النبوية المطهرة

مجتمع فى فرد و أمة فى نفس واحدة

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

« قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، و الذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم ، فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، و الذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (سورة «المؤمنون» / ١-١١) .

قد مرت بكم فى الآيات صورة إنسانية ، صورة تزخر بالحياة وتزهو بالصفات، وتفتن بالملامح و القسمات . فبالله هل رأيتم صورة فى التاريخ و فى الشعر و الأدب وفيما حولكم أجمل و أكمل من هذه الصورة التى مرت بكم آنفا ؟ ! .

إنها صورة إنسانية تجمع بين الفضائل الخلقية والمكارم الفردية و الاجتماعية التى لا تجتمع فى إنسان أو فى جماعة ـ إلا فى النادر حتى اعتقد كثير من الناس حتى من علماء النفس و الأخلاق أنها أضداد و ضرائر ، قوة فى إيمان ، و خشوع فى العبادة ، و إعراض عن اللغو ، و مؤاساة للفقراء ، وعطف على الضعفاء ، وعفة عن المحارم ، واقتصار على التمتع المباح ، و وقوف عند الحدود ، ورعاية للعهد ، وحفظ للامانة ، و محافظة على العبادات و الواجبات فيالله من فرد يتصف بهذه الأوصاف كلها ، إنه مجتمع فى فرد ، و أمة فى نفس واحدة .

وتصوروا الفرد الذى يتصف بهذه الصفات فى واقع الحياة ، و تصوروا رجلا إذا قام أمام ربه خشع و رق قلبه ، فعيناه تهطلان دمعاً ، ولسانه يفيض ذكراً وشكراً ، و إذا خرج من المسجد وصادف فى طريقه لغواً ـ وما أكثره فى الحياة ـ أعرض عنه فى حياء وكبر نفس ، سخياً بذات يده على الفقراء ، ضنينا بنفسه و شهوته على ما لا تحل له من النساء، ثابتاً راسخاً فى فتنة المال والجمال، إذا وسدت إليه الأمانة فى

الأموال و الأعراض و الحكم و الولاية ـ فكلها أمانات ـ لم يخن فى أمانته ، و إذا وعد أو عاهد لم يغدر بذمته ، و إذا هتف هاتف ربه أسرع إلى إجابته ، فكان فى كل حق من حقوق الله وحقوق العباد . قوياً أميناً ، نشيطاً .

و تصوروا مجتمعاً يتكون من هؤلآء الأفراد . يتكون من أصحاب الايمان و اليقين ، من العباد الخاشعين ، و الأغنياء المحسنين ، و الأقوياء الزاهدين ، والقضاة العادلين ، و الولاة الصالحين ، كل فرد فيه قائم بحقه واقف عند حده ، خاشع أمام ربه ، ناصح لاخوانه ، ألا يسعد هذا المجتمع ولا يسود عليه السلام و الهدوء و السكينة ، ولا ينجو من مهالك الدنيا و الآخرة ؟ إنه مجتمع مثالى قد بلغ ذروة السعادة و الفلاح فى الدنيا و الآخرة ، و إن من يتصف بهذه الصفات الكريمة التى تجمع بين الايمان والعمل يدخل الجنة بسلام و يحل منها المحل الأعلى « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

ثم ذكر الله مبدأ خلق الانسان ، وما مر به فى وجوده و نشأته من أدوار و أطوار من الطين إلى الجنين و من ماء مهين ، و إلى إنسان كامل مبين ، ثم ما ينتهى إليه بعد إتمام دورة الحياة ثم البعث بعد الممات ، كل ذلك مما يدل على عجز الانسان وضعفه و فقره و ضئالته ، وقدرة الله وقوته ، وحكمته ، و عجائب صنعه ، حتى لا يغتر بنفسه و فضائله ويعلم أن كل ذلك صدقة من ربه ، و جود منه على عبده ، فلو شاء جرده من هذه الفضائل كلها كما فعل بكثير من عباده ، « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » .

وأضاف إلى ذلك ما ذكر من بدائع خلقه ولطائف صنعه من إنزال الأمطار ، و إنشاء الجنات و الأشجار ، وخلق الدواب و الأنعام ، وما وضع فيها من منافع ، ليكون أدعى للشكر و أدعى لمعرفة الله سبحانه و تعالى ، و الخضوع أمامه .

نحو الاقتداء الصحيح بالسنة النبوية المطهرة

د / توفيق محمد شاهين
مدير المركز الاسلامى - أتوا - كندا

نحن كمسلمين نوقن بأن كتاب الله الكريم لا ريب فيه هدي للمتقين ، و أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، و حفظه الله تعالى من التغيير و التبديل و التحريف ، و على هذا توارثه المسلمون جيـــلا بعد جيل ، منذ بعثة النبي الخاتم — ﷺ — و سيظل على هذا الحفظ ، و هذه الرعاية والعناية من المسلمين إلى أن يرث الله الأرض و من عليها بفضل الله .

و إذا كان القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الاسلامى ، فان السنة النبوية الصحيحة هى المصدر الثانى ، و قد اقترنت السنة النبوية بكتاب الله سبحانه ، تبين مقاصده و أهدافه ، و تشرح ما لم يكن مفصلا من أحكام القرآن ، و تفسر وقائعه ، و تتبع الصور و الجزئيات ، مما جاء على وجه الاجمال فى مصدر التشريع الأول : فقد جاء ذكر الصـــلاة و الزكاة ، و الحج — مثلا — فى القرآن مجملا ، و تكفلت السنة النبوية بتفصيل وتفسير هذا الاجمال ، كمذكرة تفسيرية تلقى أضواء ، ليصبح الأمر فى غاية الوضوح و البيان ، و نفى اللبس و الغموض ، و يعين بالتالى على إمكانية الطاعة و التنفيذ فى قبول و يسر و سهولة ، بضميمة اليسر ، و رفع الحرج ، و دفع الضرر ، و بساطة الشعائر و التعاليم ، و تلك مـــيزة الاسلام فى سماحته ، « هو اجتباكم و ما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، و ما خير رسولنا — ﷺ — بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، و لطالما أوصى : بشروا ولا تنفروا ، و يسروا و لا تعسروا ، لأن هذا الدين يسر لا عسر .

و كما كانت السنة الشريفة لهذه المهمات الجليلة و العميقة الأثر فى حياة المسلمين ، كانت أيضاً للتشريع فى مسائل عديدة ، ذكرها العلماء الأقدمون فى كتبهم، و بينوا وضعيتها و مناسباتها ، و رتبوا عليها ما تمليه من أحكام و تشريع ، و من هذا التشريع النبوى بالسنة المطهرة .

جعله — ﷺ — المدينة المنورة حرماً ، كما جعل الله تعالى مكة المكرمة حرماً آمناً .

و تحريم لحوم الحمر الأهلية ، و كل ذى ناب و مخلب من الطيور والسباع .

و تحريم زواج المتعة — لأن شرط الزواج التأبيد ، و هى موقتة — وكانت أحلت فى الحرب لأيام ، ثم حرمها الرسول ﷺ إلى يوم القيامة ، بأحاديث صحيحة مستفيضة . الأمر الذى جعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — يعتبره زنا ، و قال : (لو أتيت ناكح متعة لأقمت عليه حد الزنا) .

و كتحريمه ﷺ الجمع فى الزواج بين المرأة و عمتها ، أو خالتها ، حتى لاتقطع ا رحامهن .

و كإقراره ﷺ ميراث الجدة ، و ليس له ذكر فى كتاب الله سبحانه .

و هناك مسائل أخرى كثيرة فى هذا الصدد ، ، مثل : التشريع فى مسائل الشفعة و المساقاة ، و غير ذلك ...

و تشريع الأحكام بالسنة الصحيحة كتشريعها بالقرآن الكريم ، لقوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » ، « و أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » ، « وما آتاكم الرسول فخذوه ، و ما نهاكم عنه فانتهوا » .

و إخباره — ﷺ — بقوله : « ألا و إنى أوتيت القرآن و مثله معه » ...

و نلاحظ أن حظوظ الناس و اختلافهم فى التمسك بالسنة جد مختلف : فمنهم

من يراعيها فى كل شئونه و هذا مطلوب محمود ، و منهم من يراعيها فيما يسهل عليه فقط ، و يترك ما صعب عليه و هذا تفريط ، و منهم من يهملها كلية وهو آثم .

و نحن نعلم أن سنة النبي — ﷺ — و أحاديثه ، هى : أقواله ، و أفعاله ، و تقريراته و أحواله . لكن يجب أن نعرف أن من سنتــه ما صدر كتشريع عام ، صدر عنه — ﷺ — على وجه التبليغ ، أو لبيان وجه الحلال و الحرام ، كما سلف ، و هذا أمر واجب الاتباع تماماً ، كما هو واجب فى القرآن الكريم .

و من سنته ما ليس بتشريع عام ، بل فعله النبي ، أو صدر عنه ، أو أقره بسبب من الأسباب ، أو فى مسألة بعينها ، فلا يجوز لأحد أن يقدم عليه أو يحاول فعله بنفسه اليوم أو بعد اليوم بحجة أن النبى — ﷺ — فعله أو أقره ، بل لا بد من إذن الوالى أو الدولة .

فقــد بعث النبى — ﷺ — الجيوش للدفاع و الغزوات ، و صرف أموال بيت المال ، و صدر عنه ذلك كوال للمسلمين و إمام لهم .

و من السنة ما صدر عنه بوصفه قاضياً للمسلمين ، كقوله : « من أحيا أرضاً ميتة فهى له » ، و قوله : « من قتل قتيلا فله سلبــه » ، و قوله : « خذى لك و لولدك ما يكفيك بالمعروف » .. الخ ، قال بعض العلماء هذا تشريع عام فيتبع ، و قال آخرون : ليس شرعاً عاماً ، لأنه صدر فى وقائع بعينهـــا ، أو تحريضاً فى وقائع تخصها ، أو فتوى فى مسألة بعينها ، أو بصفـــة القضـاء فلا يجوز التعميم ، أو كانت خصوصية له ﷺ ، كاباحته لمن واقع أهله عامداً فى رمضان — ولم يكن لديه مقدرة عـــلى الفدية بأنواعها — أن يأكل هو و آله تمر الهـــدية التى أهديت للرسول ، و أهداها الرسول إليه ليكفر بها عن خطيئتـــه ، لكن لم يكن بين لابتى المدينة من هو أفقر من الرجل و آله ، كما ذكر ، و قد اختلف العلماء أيضاً هنا :

أهى خصوصية للرسول ؟ لأن القرآن يوصى فى الكفارة بأن تكون لاطعام ستين مسكيناً ؟ أو يجوز لمن فى مثل حالة ذلك الرجل ؟ أو لا يجوز ، و ما صدر عنه ﷺ فى هذا الشأن إنما هو خصوصية له ، بوصفه رسولا ؟

و كذلك من السنة النبوية ، ما صدر عن الرسول الأكرم ، موافقاً لما هو عرف أو خبرة أو جبلة ، أو عادة جارية فى البيئة بين قومه و مخالطيه ، مثل :

تفضيل لبس الأبيض ، و الأكل باليـد ، و الجلوس على الأرض ، و غطاء الرأس بعمامة أو نحوها و السواك من شجر الأراك ... إلخ .

أو يكون فعله أو قوله لتجربة اشتهرت بين قومه و ذاعت ، و لكنها — بالضرورة — لا يخضع لها جميع الأشخاص ، و لو لنفس أعراض المرض ، كقوله — ﷺ — لمن سأله عن شفاء لبطن أخيه المصاب بالاستطلاق ، فقال له الرسول ثلاث مرات : « اسقه عسلا » . فليس العسل دواء من كل إسهال ، و لا داعى للتكلف فى القول بأن من أنواع الاسهال ما يكون دواؤه بما يعين على شدة الاسهال ، و بخاصة و التجربة على هذا القول ما تزال فى طورها التجريبى و الاختبارى .

و مسألة « التأبير » معروفة مشهورة ، فقد رأى المصطفى — ﷺ — قومه يؤبرون النخل — كعادتهم — ليجود التمر ، فقال لهم : إن ظنه أن ذلك لا يفيد النخل شيئاً ، فتركه القوم فى هذا العام ، لاشارته — ﷺ — و قوله ... وتصادف أن المحصول خاب فى ذلك العام ، و حين راجع الناس نبيهم فى ذلك تحمل الأمر بشجاعة و عدل عن رأيه السابق ، و قال لهم : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ، وأن ما صدر عنه بصفة الوحى و التشريع لا بد من طاعتـه ، و أما غير ذلك فالأمر مبناه على التجربة و العادة و الالف ، فعاد الناس إلى سابق تجربتهم و معتادهم .

ولا نحب — فى هذا المقام — أن يفتح غير الفاهمين ، أو المبطلون ، أو من

فى قلوبهم مرض ، الباب على مصراعيه ، بمثل هذا الحديث الشريف : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » ، للتفلت من اتباع السنة النبوية ، التى هى واجبة الاتباع مثل القرآن الكريم ، أو المطالبة بالغاء السنة من دنيا المسلمين ، أو الفصل بين شئون الدنيا و الدين فى مسائل التشريع ، ليبقى الاسلام دائراً فى فلك العبادة و أمور الآخرة و شئون الغيبيات وحدها ... لا يقول بهذا إلا مغرض أو حاقد ، أو جاهل أو متحلل ...

بقى أن نشير إلى أن هناك أشياء فى السنة حرمها الرسول - ﷺ - أو كرهها. أو فعلها و ليست لأحد غيره ، (فالرسول كغيره من الأنبياء لا يورثون ، و ما يتركونه بعد التحاقهم بالرفيق الأعلى إنما هو صدقة) كما لا يحل للرسول و أهل بيته الصدقة ، لأنها من أوساخ الناس ، و طهرة مالهم (و الرسول تزوج أكثر من أربعة — و هو ما قرره القرآن الكريم — و كان زواجه بأكثر من أربع زوجات ، خصوصية له — ﷺ — لمقام التشريع ، و مصلحة الرسالة ، و ليست مسألة شهوة و هوى ، كما فصله العلماء و المفسرون فى كتبهم ، كما حرم الله عليه استبدالهن ، أو زواجهن من بعده — ﷺ — .

و أهل الصحراء يحبون أكل « الضب » و هو حيوان شبيه بالتمساح أو ما نسميه بـ« السحلية » الكبيرة ، و عرض خالد بن الوليد — رضى الله عنه — قطعة من الضب ، على النبى — ﷺ — ليأكلها ، و لكن الرسول لم يقبلها منه ، فسأله خالد : أهو حرام يا رسول الله ؟ قال : لا ، و لكن نفسى تعافه » . فالرسول لم يأكله ، و لم يقبل هدية خالد منه ، لأن معدته لا تقبله ، و شهيته لا تتفتح له ، و نفسه لا تقبل عليه .. و مع ذلك لم يحرمه النبى ﷺ ، بل هو حلال لمن يأكله و يشتهيه .

ذكرت ذلك لنعلم : أن سنة النبى فى التشريع ، و أحاديثـه لتحريم الحرام و حل الحلال ... إنما هى أمر واجب الاقتداء و الاتباع ، و بها تكون الأسوة و القدوة و حسن الاتباع .

أما ما ليس كذلك — مما ضربنا له الأمثلة — فأمر يفعله المسلم إذا أحب أن يقتدى برسول الله فى كل أموره و أحواله ، و هذا شئ محبوب و مرغوب لا شك فى ذلك ، لكن لو لم يفعله بعض الناس فلا يليق بمسلم إطلاقاً أن يعنفه ، أو يوبخه ، أو يؤنبه ، أو يختلف معه اختلافاً كبيراً لأنه لم يفعله ، فضلا عن أن يقع فى المصيبة العظمى فيكفره و العياذ بالله .

فلو استاك إنسان بفرشاة أسنان ، أو سواك من غير شجرة الأراك ، أو أكل بالشوكة و السكينة ، أو جلس على الخوان والمائدة ليأكل ، أو شرب الماء فى كأس ، أو ربط عـلى رسغه ساعة ، أو لبس طربوشا أو عرى رأسه ، أو لبس سروالا أو (بنطلونا) ، وصلى فيه أو لم يطل لحيته إلى قبضة أو قبضتين ، أو لم يكحل فى عينيه ، أو لم يرخ (عذبة) من عمامته على ظهره ، أو لبس ما له لون مناسب ، فيه الحشمة و الوقار بما ألفه قومه ، أو ركب سفينة أو قطاراً أو طائرة فى سفره ، أو سيارة فى تنقلاته ... إلخ ، هذه القوائم التى يتشبث بها من يتعلون بالسنة الشريفة و يصرون على فعلها بأنفسهم ، و حمل غيرهم على ذلك و إلا رموه بتهم أخفها و أرشقها البدعة و المخالفة ...

أقول : هذه الأشياء ـ من السنة غير التشريعية ـ لو لم يفعلها إنسان ـ مع أن فعلها أفضل لمن قدر على ذلك ـ و لقى ربه ، فلن يضر إيمانه شئ إن شاء الله فهو مؤمن على ملة الاسلام ، و سنة رسوله .

و فى رأيى : أن الخلاف العنيد ، و الجدل الخشن ، و التسفيه فى الرأى ،

و محاولة حب الغلبة فى النقاش و سوق الرأى لافحام الغير ، وما يتبع ذلك من هجر أو اجتناب أو خصومة أو احتقار للغير . . فى رأيى أن هذه هى البدع و المعاصى التى لا يحبها الله ورسوله وتعظم المصيبة وتشتد إذا تمسكنا بمثل هذه السنن و أهملنا الفرائض أو تجاهلناها .

و قد سقت ما سقت ، لأنى رأيت فى أسفارى و بخاصة فيما وراء البحار كثيرة من الخلافات التى تبدأ صغيرة ، و سرعان ما تكبر إلى حد العداء أو توهمه بين مسلمين غير فاهمين ، فيتدابرون بسبب ذلك بدلا من لقيامهم على مودة ومحبة و تعارف و تألف كما يأمرهم بذلك دينهم الحنيف .

و سمعت من ظريف أن بعض الداعية للاسلام فى البلاد غير الاسلامية ، يصرون على دعوة غير المسلمين إلى الاسلام بمثل الأمثلة التى ذكرناها من السنة غير التشريعية . و يتمثلون أمام من يدعونهم للشرب جلوساً ، و الأكل باليد ، و لعق الصحن ، و الجلوس على الأرض ، و ارتداء جلباب أبيض فوق البنطلون ، و وضع السواك دائماً فى الفم ، و كأنما الاسلام ليس فيه إلا هذه الأشياء . . بينما أغفل أو غفل ـ بمعنى أصح ـ هؤلاء عن أساسيات الاسلام ، وشعائره و أثرها ، و فضائله و مغزاها . . فحبذا لودعا هؤلاء الدعاة ـ جزاهم الله الخير ـ الناس إلى الاسلام ، بادئين بالشهادة و معناها فى تحرير الفرد وأمنه وسعادته ، ومثنين بالفرائض والأخلاق و محاسن الآداب الاسلامية .

وحبذا لو اختفت نهائياً هذه الخلافات ، ليحل الوئام و المودة محل الشقاق والنفرة ، لأن بعض المتدينيين و الدعاة ـ أحياناً ـ لهم أمور : تغيظ ولا تسر ، و تضر و لا تنفع ، وتنفر و لا تبشر : [يقول أستاذنا الشيخ محمد الغزالى : إن

الاسلام كنجم ملئ بالجواهر و اليواقيت ، يدخله بعض الدعاة فلا يخرج منه إلا « بقفة تراب » على رأسه يخرج بها ليبشر الناس بالاسلام بما فى قفته ، بدلا من أن يعرض عليهم جواهره و ذهبه ، و يقول : إن بعض الناس لا يفهم من السنة النبوية إلا أنها جلباب أبيض ، و سواك من أراك . . و الحق أن السنة منهج حياة راقية نافعة و رفيعة و مهذبة ، السنة منهج حياة متكامل ، ترويها لنا حياة الرسول الأكرم و سيرته ، كما رواها الثقات الأعلام : فى أحوال الرسول ، و أخباره ، و عاداته ، و سجاياه ، و خلقه القويم ، و تدبيره الصائب . .

يقول الامام أبو حامد الغزالى رحمه الله :

من شاهد أحوال النبى ﷺ .

أو أصغى إلى سماع أخباره المشتملة على أخلاقه و سجاياه و عاداته .

و سياسته لأصناف الخلق و هدايته إلى ضبطهم .

و تألف أصناف الخلق ، وقوده إياهم إلى طاعته .

مع ما يحكى من عجائب أجوبته فى مضايق الأسئلة .

و بدائع تدبيراته فى مصالح الخلق .

و محاسن إشاراته فى تفصيل ظاهر الشرع ، الذى يعجز الفقهاء و العقلاء عن إدراك أوائل دقائقها فى طول أعمارهم.

لم يبق لديه ريب و لا شك فى أن ذلك لم يكن مكتسباً بحيلة تقوم بها القوة البشرية . . بل لا يتصور ذلك إلا بالاستمداد من تأييد سماوى ، و قوة إلهية . بل كانت شمائله و أحواله شواهد ساطعة بصدقه » .

هذا كلام الامام العالم أبو حامد الغزالى رحمه الله ، عن نبينا ﷺ ، و لنا

فى نبينا أسوة حسنة كما يقول القرآن الكريم و حبذا لو اقتدينا به فى مهمات الأمور قبل دقائقها و جزئياتها :

فهو - ﷺ - ساس بحكمته أصناف الخلق و هداهم ، و تلك معجزة له فى أن يتألف أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، مع ما عرف عنه من لين ورقة ورأفة، فيبكى للعظة و سماع القرآن ، يتألف الصديق مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه مع ما عرف عنه من شدة شكيمة فى الحق ، حتى لو سلك طريقاً لسلك الشيطان غيره و هما الشريفان يتألفان مع سليمان الفارسى و صهيب وبلال رضى الله عنهم أجمعين . فيكونون إخوة فى الاسلام تفوق أخوتهم أخوة النسب ، لأن الأولى صلة السماء .

و أجوبة الرسول فى مضايق الأسئلة تحملنا على طلب العلم ، و العلم النافع المنظم المفيد الذكى العميق ، المستمد من كلام الله تعالى ، و الأحاديث النبوية و فعل الصحابة و قولهم ، و تفسيرات الأئمة و التابعين رضوان الله عليم ، و بدائع التدبير فى مصالح الخلق تقتضى أن يتنوع الطلاب فى طلب صنوف العلم و ألوانه ، لرقى الحياة، و ازدهارها ، و نهضة الأمة و رفعتها ، نطلبه فى مظانه و أماكنه ، لنخدم به أمتنا قبل غيرنا ، ونرفع به من شأن جماعتنا قبل غيرها ، ونضحى فى سبيل الآخرين من أمتنا و الانسانية قبل ذواتنا . . . و تلك هى سنة الرسول الأمجد و الأسوة و القدوة ، و فى ذلك فليتنافس المتنافسون .

و ختاما : يجب أن ندرك أن القرآن الكريم ، و السنة النبوية ، هما مصدر التشريع الاسلامى ، وهما وما يتبعهما من روافد الاجتهاد ، والقياس ، والاستحسان ، و المصالح المرسلة ، يتسعان للحركة الفكرية العاقلة ، و الاستنباط الذكى ، فى تشريعات الاسلام ، (ما عدا العقائد و أصول التشريع ، فهى ثابتة راسخة) .

وبهذه الحركة الفكرية لا يقف الاسلام على لون واحد من التفكير ، وقد ساير الثقافات الصحيحة ، و أسهم فى الحضارات النافعة ، و كل ما فيـه صلاح البشرية و رفاهيتها ، مهما نمت الحيـاة و ارتقت ، و مهما تغيرت أنماط السلوك البشرى السوى فيها ، و مهما ارتقى العقل البشرى فى آفاقه التى جدت وتجد .

و بهذا صلح الاسلام لكل زمان و مكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها و كان نتاج الحركة الفكرية الذكية ثروة فقهية ضخمة لا نجد لها مثيلا عند غيرنا من الأمم ثروة تهدى و لا تردى ، وتسير ولا تحجم ، وتعين و لا تعوق ، و تصون و لا تبدد ، و تغنى و لا تحوج ، و تريح و لا ترهق ، و تعقل و لا تشتط ، و تنتهى إلى خير طريق .

(وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله).

و حرى بنا أن نعض على سنة نبينا ـ ﷺ ـ بالنواجذ ، فكتاب الله تعـالى و سنة نبيه خيرهاد و خير عاصم .

و لقد خاب و خسر من يحاول النيل من السنة النبوية ، أو يقول بتركـها اكتفاء بالقرآن الكريم ، و برغم الدفع القوى فى تنشيط هذه الفتنة من قبل ـ وما زالت لها جذور إلى الآن ، لأن الباطل لا يهدأ و لا يكل و لا يمل ـ فان وعى المسلمين بمقدراتهم و مقررات إسلامهم يقى عاصماً من التردى فى الخطأ ، و حافظـاً للشعلة من الانطفاء « و لنا أن نحمد الله تعالى على نعمه وحفظ دينه . . ولهم أن يحمدوا الله على خيبتهم » فالحق أحق أن يتبع . و الله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

الناس أمام الحق فريقان

الدكتور عبد الله عبد القادر بلفقيه الحسينى الاندونيسى

قال الله تعالى : « يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، و من ضل فإنما يضل عليها و ما أنا عليكم بوكيل » (يونس ١٠٨) .

إن الاسلام هو دين الله العام الذى بعث به كل رسله وأنزل لبيانه كل كتبه ، تدور شرائعه و أحكامه مهما تعددت و تنوعت حول كلمة واحدة هى (الحق) .

والحق هو تشهد به الفطرة التى لم تفسد ، وتطمئن إليه النفوس التى لم تدنس . و تطيب به الحياة التى ينحرف أهلها عن الصراط المستقيم ، و الحق يتنوع إلى .

١ — حق فى العقيدة « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد » .

٢ — حق فى العبادة « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه ، وهو على كل شئ وكيل » (الأنعام ١٠٢) .

٣ — حق فى المعاملة « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم » (النساء ١٣٤).

٤ — حق فى السلوك « فبما رحمـــة من الله لنت لهم و لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم و استغفرلهم و شاورهم فى الأمر » (آل عمران ١٥٩) .

و لا تستوى الحسنة و لا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » (حم السجدة ٣٤) .

و للحق فى الأنفس و الآفاق و المتجمعات ، شواهد و آثار ، تميزه و تجليه و تهدى إليه ، و ليس كل الناس سواء فى نقاء الفطرة ، و صفاء النفس ، و سلامة التصور فيعرفونه من دلائله و آثاره ، ويؤمنون به وينزلون على حكمه ، فى العقيدة و العبادة ، و المعاملة و السلوك .

ومن هنا كانوا أمام الحق فريقين ، فريق تسلم فيه قوة الخير ، فيعرف الحق و يعمل به فى خاصة نفسه ، فيكمل بالعلم و العمل ، ثم يندفع بحكم الرحم الانسانى و ابتغاء مرضاة الله ، و محبة الخير لعباده ، إلى تكميل الناس بما كمل به نفسه ، فيدعوهم إلى الحق ، و يعمل جهده فى إنقاذهم من الباطل الذى تحجب عنهم غشاوته نور الحق ، و تقطع دونهم مدده .

و فريق آخر تنمو فى نفسه قوة الشر بتأثيره بيئة فاسدة ، أو وراثة ضالة أو شهوة طاغية ، و بذلك يتخيل أن إيمانه بما قر فى الضمير الانسانى أنه حق ، يزلزل مكانته فى قومه ، أو يقطعه عن سلفه ، أو يسد عليه منافذ شهوته ، فينفر منه و يعرض عنه ، و يقع عنده موقع السخط والانكار وينطلق فى الحياة كالوحش فى الفلاة يفترس من الأحياء ما أمكنه أن يفترس ، و ينتهك من الأعراض ما أمكنه أن ينتهك ، و يستلب من الأموال ما أمكنه أن يستلب ، و ليس لديه من الموازين ما يتحاكم إليه فى معرفة ما ينبغى أن يفعل فيفعله ، و ما لا ينبغى أن يفعل فلا يفعله ، و لا يقف فى ذلك عند نفسه . بل ينشط و يعمل جاهداً فى صرف الناس عن الحق و تأليبهم عليه ، يلبسه بالباطل و يلقى عليه الشبه والشكوك ليطمس معالمه ، و يطفئ نوره إن استطاع إلى ذلك سبيلا .

فريقان ، فريق يهدى ويهدى « وممن خلقنا أمة يهتدون بالحق وبه يعدلون » (الأعراف ١٨١)

وفريق يضل ويضل « ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى و نذيقه يوم القيامة عذاب الحريق » (الحج ٨ ـ ٩) .

وقد كان رسول الله و أتباعه من بعدهم ، يمثلون فى العصور المختلفة ، الفريق الأول ، يعرفون الحق ويشرق عليهم نوره، فيؤمنون به ، ويخلصون فى الدعوة إليه.

و كان غيرهم من رؤس الكفر و النفاق ، و دعاة الاباحية ـ أرباب الجاه الزائف أو السلطان الغاشم أو التصور الفاسد ، الذى ابتلى الله بهم عباده المخلصين فى كل عصر و فى كل مكان ـ يمثلون الفريق الثانى ، يكفرون بالحق و يصدون عن سبيله ، و يفتنون الناس فيه .

وقد صور الله إعراضهم عن الحق و دعوته بما حكى عنهم فى أنفسهم « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، و فى أذاننا وقر ،و من بيننا و بينك حجاب » (حم السجدة ٥) .

وكذلك صور طريقتهم فى محاولة صرف الناس عن الحق بما حكى عنهم أيضاً بالنسبة إلى الدعوة لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلكم تغلبون » (حم السجدة ٢٦) .

و بالنسبة إلى الداعى: « لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا » (المنفقون ٧) .

و هذان طريقان يسلكهما أهل الضلال فى كل عصر لمحاربة الحق ودعوته، ينكرونه و يظهرون التبرم به ، و يحذرون الانصات إليه ، و يضربون الحصار على أهله ، و بذلك وقع الصراع فى حياة الناس ، و فيما يرى من مظاهرها بين (الحق و الباطل) .

و الله هو الحق ، و الحق دعوته ، والشيطان هو الباطل ، و الباطل دعوته ، و قد ضرب الله المثل للحق و الباطل « فأما الزبد فيذهب جفاء ، و أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » (الرعد ١٧) .

و قد رسم لعباده المخلصين ما يقيهم و يقى دعوتهم شر التأثر بأراجيف المبطلين و كيدهم فكفل لهم بوعده الحق ، النصر التأييد ما استقاموا على طريقته و تمسكوا بحقه ، و جاهدوا فى سبيله « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » (العنكبوت٦٩) .

و أكد لهم أن كل ما يبذله المعارضون أعداء الحق فى مكافحته و إضعاف سلطـــانه و التضييق على أهله سينقلب عليهم شره ، و سترتد أسلحتهم إلى نحورهم حادة قتالة « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون » (الأنفال ٣٦) .

و كذلك يؤكد لهم أنهم بإيمانهم و إخلاصهم فى الدعوة إلى الحق ، وصبرهم على مشاقها فى حضانته و معيته « إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون » (النحل ١٢٨) معية حفظ و رعاية ، و نصر و تأييد ، يربط بهما على قلوبهم فلا يصل إليها شئ من بواعث الخوف والحزن « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا و لا تحزنوا » (حم السجدة ٣٠) .

ثم يرشدهم إلى سمو مكانتهم عنده ، و أنهم بالدعوة إلى الحق أو التضحية فى سبيله بمنزلة لا يوجد حكمه و قضاؤه أحسن منها و لا أسمى : « و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً و قال إننى من المسلمين » (حم السجدة ٣٣) .

هذا و لدعوة الحق صور و جوانب ، فالدعوة إلى الايمان بالله و توحيده فى العبادة و الاستعانة ، دعوة إلى الحق .

والدعوة إلى مكافحة الظلم والطغيان، وإقرار العدل بين الناس دعوة إلى الحق .

و الدعوة إلى تطهير النفوس و المجتمعات من الأخلاق الفاسدة و التقاليد الضارة دعوة إلى الحق .

و الدعوة إلى تحرير و البلاد تخليصها من مخالب المستعمرين لتكون خالصة لأهلها ينظمون بأحكام الله شئونها ، و يستثمرون بما رسم خيرهـا ، دعوة إلى الحق . و الدعوة إلى الخير و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر ، و التحذير من موالاة الأعداء ، و اتخاذهم بطانة من دون المؤمنين دعوة إلى الحق .

والدعوة إلى نبذ الأمور الشخصية والتحلل من المعانى الذاتية فى سبيل الصالح العام و التضامن العام ، دعوة إلى الحق .

و الدعوة إلى نشر دين الله ، و بث تعاليمه خالصة نقية من عمل الدساسين ، و بدع الضالين، الذين يكتبون بأيديهم ويقولون هذا من عند الله، دعوة إلى الحق.

و الدعوة إلى الحق فى جميع صورها ، دعوة إلى الله .

و الداعون إلى الله أينما كانوا محفوظون ـ كما وعد الله ـ برعايته، فليعتصموا بحبله ، و ليثقوا بنصره « و الله غالب على أمره » .

بهذا مضت سنة الله فى الأولين ، و هى سنة محكمة ، باقيــة إلى يوم الدين « و لقـــد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، إنهم لهم المنصورون ، و إن جندنا لهم « الغالبون » (الصافات ١٧١ ـ ١٧٣) .

مواقف و رجال فى القضاء الاسلامى

أبو موسى الأشعرى

دكتور فواد عبد المنعم أحمد (قطر)

هو الصحابى الجليل عبد الله بن قيس بن سليم ، من أهل اليمن جاء مهاجراً إلى الرسول ﷺ فى مكة ، والدعوة مضطهدة ، وغير قليل من أتباعها قد هاجروا إلى الحبشة ، و كانت سنه و قتئذ قرابة سبعة عشر عاماً ، مما يدل على فطرة سليمة و عقل راجح ، و استطاع أن يستدل على الرسول وهو يطوف فى بيت الله الحرام دون أن يرشده أحد ، و قد أسلم ومعه عمه على يد الرسول ﷺ ، و قد علمه الرسول مبادئ الاسلام ، و حفظ سوراً من القرآن الكريم رتلها بصوته الجميل أمام الرسول ﷺ ، فأثنى عليه ، وقال : لقد أعطى أبو موسى مزماراً من مزامير آل داؤد ، وكلفه الرسول بالعودة إلى اليمن و الدعوة للاسلام ، فامتثل ، و استطاع أبو موسى الأشعرى أن يضم إلى الصف المسلم عدداً غير قليل من أقاربة ومن أهل اليمن ، و لما وصله العلم بهجرة الرسول إلى المدينة وأنه قد وجد فيها أنصاراً وأماناً ، و أنه ﷺ يحث أصحابه على الهجرة إلى المدينة دولة الاسلام الأولى ، تاقت نفسه و أقاربه إلى رؤية الرسول و البقاء معه ، فركبوا سفينة ألقت بهم الرياح إلى شاطئ الحبشة ، عوضاً عن شاطئ العرب فالتقوا باخوة لهم سابقين فى الاسلام من مهاجرى الحبشة ، و مكثوا معهم مدة ثم مضوا فى سفينتين إلى المدينة ، ولزم أبو موسى الأشعرى الرسول ﷺ ، وحفظ القرآن ، وحمل عن الرسول علما و حكمة ، وقد ولاه

الرسول ﷺ على عدن كما ولاه عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ البصرة سنة ١٧هـ ، فافتتح أصفهان والأهواز .

و من الكلمات القضائية التى نقلت عن أبى موسى الأشعرى ، و تعد من أهم المبادئ القضائية فى كل عصر ومكان ، قوله : لا ينبغى للقاضى أن يقضى حتى يتبين له الحق كما يتبين له الليل من النهار ، وحينما بلغت هذه الكلمة أمير المؤمنين عمر قال : صدق أبو موسى الأشعرى ، و قد زوده عمر رضى الله عنه بكتاب فى أسس القضاء مشهور .

و قال الشعبى قضاة الأمة ـ يعنى الصحابة ـ أربعة ، وهم : عمر و على ، و زيد و أبو موسى الأشعرى .

و من المواقف التى تذكر له و التى تدل على اجتهاده ونصحه و شفقته على الأمة موقفه فى التحكيم بين على و معاوية رضى الله عنهما ، و الذى صورته بعض كتب التاريخ على أن عمرو بن العاص خدعه بمقولة : إنه بعد أن اتفق الحكمان على الرجوع لأصحاب النبى ﷺ لاختيار خليفة جديد قدم عمرو أبا موسى ليتكلم فقام فخلع علياً و معاوية ثم قام عمرو فخلع علياً و أبثت معاوية ، و قد بين زيف هذه المقاله و بهتانها الفقيه المالكى أبو بكر ابن العربى فى كتابه القيم « العواصم من القواصم » وما كان عمرو بالصورة التى تصوره بها كتب التاريخ بالرجل الذى يقامر بمصلحة الاسلام و المسلمين و يستعمل الكذب و المكر و الخداع ليصل إلى إمرة على حساب دينه و أمته بل كان عمرو واحداً من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ، و من الفاتحين المجاهدين الصادقين الذين يبغون عزة الاسلام فقد التقى أبو موسى الأشعرى بعمرو بن العاص فى رمضان بدومة الجندل للتحكيم و أعرب له عن حزنه لما حل بالمسلمين و عن رغبته بأن تعود كلمتهم واحدة ، و ينضوون تحت

امرة أمير واحد ، و شاركه عمرو فى هذه الرغبة و استعرضا الآراء للخروج من هذه الأزمة الخطيرة و تناقشا طويلا . فهما لم يتوصلا إلى طريقه تلائم الرجلين (على و معاوية) فعلى يصر على عزل معاوية عن الشام و رفض مطالبته بدم عثمان ، و معاوية لا يبايع عليا حتى يسلمه قتله عثمان فيقتص منهم ، و هذا الأمر يصعب جداً على الامام على رضى الله عنه خصوصاً بعد أن صار القتلة فى قبائلهم واحتموا بها ، ثم أن معاوية لا ينصاع لعلى فى اعتزال امرة الشام ولا يرضى بذلك أهل الشام حتى ولو رضى هو ، و أن الأمور لم تعد منقادة لأمير المؤمنين « على » فهناك جماعة كبيرة من المسلمين تنكرت له و امتلأت قلوبها ضغنا عليه لما أسال من دمائها ، وهى جماعة الشام ، لذا فإن الأمور لن تصلح إلا بخليفة جديد يختاره أصحاب رسول الله و ينزل جميع المسلمين على حكمه ورأية ، أما معاوية فعليه أن يعتزل امرة الشام و يكون واحداً من المسلمين يسمع ويطيع للخليفة الجديد ، و قد وافق عمرو أبا موسى على ذلك وأعلنا رأيهما على جميع من حضر هذا الاجتماع الخطير . وتفرق الناس على هذا الرأى و لم يقدر لأصحاب رسول الله أن يلتقوا و ينظروا فى اختيار خليفة جديد ، فبقى أمير المؤمنين على فى الكوفة إلى أن اغتيل رضى الله عنه فى عام ٤٠ للهجرة ، وبقى معاوية أميراً على الشام خارجاً على طاعة الخليفة إلى أن تنازل له الحسن بن على عام ٤١ للهجرة ، و أصبح خليفة للمسلمين ، و اجتمعت عليه كلمتهم .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

نظام العدل فى الاسلام

—(الحلقة الثانية)—

فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى
رئيس قسم التفسير بكلية الشريعة دار العلوم ندوة العلماء

و يقول الفاضل الشهير أبو البقاء فى فصل العين من كتابه المعروف « كليات العلوم » (١) « العدل أصله ضد الجور » ، و لكن هذا التعريف ، تعريف قاصر محدود ، لا يكشف النقاب إلا عن جانب من جوانبه فان مفهوم العدل متسع الآفاق ، كثير النواحى ، يشمل جميع جوانب الشريعة الاسلامية و يحتوى على جميع معانى الأخلاق الفاضلة ، كما يظهر ذلك من مواقع استعماله فى القرآن الحكيم و الحديث النبوى الشريف ، و كما يظهر ذلك من تعريفات المحققين عن اللغويين و تصريحاتهم ، فان الضليع فى العلوم العربية العلامة السيد شريف الجرجانى عرف العدل ـ هذا التعريف الجامع الذى يعلم منه شمول معنى العدل وسعة آفاقه و نواحيه ، بايجاز و اختصار ، قال : « هو الأمر المتوسط بين طرفى الافراط و التفريط » (٢) .

و قد صور العلامة شهاب الدين الآلوسى ـ رحمه الله ـ الذى هو من أبرز المفسرين و أنبغهم ـ فى القرن الماضى ـ معنى العدل الجامع الشامل بريشته البارعة إذ يقول فى تفسير هذه الآية من النحل : « إن الله يأمر بالعدل » إى بمراعاة التوسط بين طرفى الافراط و التفريط ، وهو رأس الفضائل كلها ، يندرج تحته فضيلة القوة

---

(١) كليات العلوم لأبى البقاء ص ٢٥٧ دار الطباعة العامة مصر .

(٢) تعريفات السيد شريف ، باب العين ص ١٩٨ طبع الآستانة .

العقلية الملكية من الحكمـــة المتوسطة بين الجربزة و البلادة و فضيلة القوة الشهوية البهيمية عن العفة المتوسطة بين الخلاعة و الجمود ، و فضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور و الجبن ، فمن الحكم الاعتقادية ، التوحيد المتوسط بين التعطيل و نفى الصانع ، كما تقوله الدهرية ، و التشريك كما تقوله الثنوية و الوثنية ، و عليه اقتصر ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ فى تفسير العدل ، على ما رواه البيهقى فى الأسماء و الصفات ، و غيره ، و ضم إليه بعضهم القول بالكسب المتوسط بين الجبر و القـــــدر ، و من الحكم العملية التعبد بأداء الواجبات المتوسط بين البطالة و ترك العمل ، ومن الحكم الخلقية الجود المتوسط بين البخل و التبذير وعن سفيان بن عينية : « إن العدل استواء السريرة والعلانية فى العمل ، وسأل عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ محمد بن كعب القرظى عن العدل : فقال كعب : بخ ، سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أباً ، ولكبيرهم ابناً ، وللمثل منهم أخا ، و للنساء كذلك ، و عاقب الناس على قدر ذنوبهم و على قدر أجسادهم ، و لا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتكون من العادين (١) .

وذكر شيخ الاسلام الامام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى حقيقة «العدالة» فى أسلوبه الحكيم و تعبيره الخاص ، فقال : العدالة : وهى ملكة فى النفس تصدر عنها الأفعال التى يقام بها نظام المدينة و الحى بسهولة ، و النفس كالمجبول على تلك الأفاعيل (٢) و ينبغى أن يعرف أن تعبير الامام بالمدينة لا يعنى مفهومه اللغوى المحدود . بل إنه يستعمله فى معنى دولة سواء كان نطاقها محدوداً صغيراً ، أم واسعاً كبيراً .

و قد نقل العلامة أبو الفضل الشهير بابن منظور قول سعيد بن جبير التابعى

(١) روح المعانى ٢١٧ ج ١٤ ـ الطبعة الهندية .

(٢) حجة الله البالغة ص ٥٣ ج ١ طبع « المطبعة الصديقية ، بريلى ، الهند .

الجليل فى تحقيق معنى العدل يقول كتب عبد الملك إلى سعيد بن جبير يسأله عن العدل ، فأجابه ، إن العدل على أربعة انحاء ، العدل فى الحكم ، قال الله تعالى : « وإن حكمت فاحكم بينهم بالعدل » و العدل فى القول ، قال الله تعالى « وإذا قلتم فاعدلوا » و العدل ، الفدية : قال الله عزو جل : « لا يقبل منها عدل » و العدل فى الاشراك » و قال الله عز و جل : « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، أى يشركون » (١) .

وقد استعمل لفظ القسط ، و الاقساط كلفظ مرادف لمعنى العدل ، فى كثير من آيات القرآن الحكيم ، و الأحاديث النبوية ، على صاحبها صلاة و تحية ـ فقد جاء فى الآية التى ذكرناها فيما سلف من سورة النساء « كونوا قوامين بالقسط » و جاء فى عديد من مواقع الكتاب الحكيم مثل سورة الحجرات حيث ختمت آية من آياته بقوله عز و جل ، « واقسطوا إن الله يحب المقسطين » (الحجرات ٩) فيجمل بنا أن نبحث ـ قليلا ـ فى حقيقة هذه الكلمة فى ضوء أقوال العلماء البارعين:

قال المحدث الجليل ، الامام محمد بن إسماعيل البخارى ـ رحمه الله ـ فى آخر جامع الصحيح الذى طبق صيته الآفاق مفسراً هذه الآية الكريمة : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » قال مجاهد : القسطاس ، العدل بالرومية و يقال القسط مصدر ، المقسط و هو العادل ، و أما القاسط فهو الجائر (٢) .

---

(١) لسان العرب ص ٢٥٨ ج ١٣ للعلامة أبى الفضل جمال الدين أحمد بن بكر ، المعروف بابن منظور الأفريقى المصرى الأنصارى ، الطبعة الأولى ، بالمطبعة الأميريه ببولاق مصر سنة ١٣٠٢هـ .

(٢) صحيح البخارى ص ١١٢٦ ج ٢ طبع المكتبة الرشيدية دهلى (الهند) .

و جاء تعريف القسط فى لسان العرب ما يلى :

« المقسط هو العادل ، يقال أقسط يقسط فهو مقسط، إذا عدل و القسط العدل ، أقسط فى حكمه ، عدل ، فهو مقسط (١) .

ثبت مما تقدم من تحقيق معنى العدل ، أن مفهومه عميق شامل ، يشمل جميع جوانب الحياة الانسانية و لكننا ـ نظراً إلى الايجاز ، نركز هذا البحث على العدل فى القوانين الشرعية ، و الأخذ بالعدالة الحقيقية فى تنفيذها و تطبيقها .

لا بد لتحقيق العدل بهذا المعنى المحدد من أمرين . الأول أن يكون أساس هذه القوانين التى يتبنى عليها القضاء فى أمر الناس ـ و ينبغى أن يقال . التى يقوم عليها صرح المجتمع الاسلامى ـ على النصفة و العدالة ، و أن تكون هذه القوانين نفسها ممثلة لمعانى العدل و واقعيته المثالية و تكون مرآة صافية يتراءى فيها العدل بكل أبعاده و شموله .

الثانى : تنفيذ هذه القوانين العادلة وتطبيقها على المجتمع بصورة عادلة ، وإيصال الحقوق إلى أهلها فى ظل العدل الاسلامى الظليل ، فالأمر الأول عبارة عن الشريعة البيضاء و ديانة الاسلام نفسها ، والمسلم لا يحتاج إلى أن يقال له : إن نزول الشريعة و القوانين الاسلامية من رب العالمين ، القادر العليم ـ الذى من أسمائه الحسنى « العدل و العادل » ـ وعدم كونها وليدة القوى العقلية الانسانية ـ التى مهما سمت و علت . ومهما اعتدلت فانها لن تسمو أبداً عن العواطف والميول الشخصية والنقائص البشرية ، و الضعف الطبعى ماله أثر بارز على تفكير الانسان ، ونتائج بحثه وتأملاته ، ليكفى أن يكون ذليلا نظرياً ثابتاً على عدل هـــذه القوانين و إنصافها ، و لكننا لا نجتزىء بالدليل النظرى فحسب بل نقدم الدلائل الواقعية العملية ، لينجلى الأمر وتتضح الحقيقة .

(١) لسان العرب (٣ ـ ٢٦٢)

نذكر هنا لشرح أساس القوانين الشرعية ، و إبراز روح الشريعة الاسلامية مقتبسات من الكتاب الشهير « العدالة الاجتماعية فى الاسلام » للكاتب الاسلامى سيد قطب الشهيد ـ رحمه الله ـ فان هذا الكتاب (٢) بروحه و صبغته الدينية ، و تعبيره المؤثر الجيل مقترنا بالأسلوب العصرى المقبول ، يحمل امتيازاً خاصاً فى المكتبة الاسلامية ، و تتضح به ملامح العدل فى الشريعة الاسلامية بصورة رائعة: يقول : « كان تصور الاسلام أن الانسانية وحدة تفترق أجزاؤها لتجتمع ، وتختلف لتتسق ، و تذهب شتى المذاهب لتتعاون فى النهاية بعضها مع بعض ، كى تصبح صالحة لتتعاون مع الموجود المؤحد » ثم يؤيد دعواه هذه بالاستدلال بتلك الآية الكريمة التى تعطى تصوراً واضحاً لأساس الوحدة الانسانية .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا »

ثم يقول : « و نظام الحياة لا يستقيم حتى يتم هذا التعاون و التناسق وفق منهج الله و شرعه ، و تحقيقه واجب لصالح الانسانية كلها ، حتى ليباح استخدام القوة لارجاع من يشذ عن هذا النهج إليه » ويستدل المؤلف الجليل على ذلك بهذه الآيات الكريمة.

« إنما جزاء الذين يحاربون الله و رسوله ، و يسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم و أرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض » (سورة المائدة الآية : ٣٣)

« و إن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فان بغت إحداهما على الأخرى ، فقاتلوا التى تبغى حتى تفيئ إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل ، و أقسطوا إن الله يحب المقسطين » (سورة الحجرات الآية ٩) .

---

(٢) لا يخفين عن البال ، أن فى هذا الكتاب بعض مباحث لا يوافق عليها بعض أهل العلم .

« و لو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض (سورة البقرة الآية ٢٥) ، ثم يقول : « فالأصل هو التعاون والتعارف والتناسق فى حدود منهج الله وشرعه ومن شذ على هذا الأصل فليرد إليه بكل طريق ، لأن سنة الله فى الكون أولى بالاتباع من أهواء الأفراد ، و التكافل بين الجميع يتفق مع غاية الكون الواحد ، و غاية خالقه الواحد سبحانه ، فاذا نحن وصلنا إلى الانسان الجنس و الانسان الفرد فهو وحدة كاملة » (١) .

هذه هى الوحدة التى تقوم مقام الأساس للعدل الحقيق ، و هى التى تتمثل فى جميع القوانين الشرعية ، لأنه حينما يتجلى للناس تصور الوحدة الحقيق ، و يرسخ فى أذهانهم ، فلا بد من أن تتحقق « المساواة » التى تعنى العدل فى مفهومه الواسع الشامل ، فكلما تطيش كفة كان من الحق و إقامة العدل أن ترفع هذه ، أو تخفض أخرى حتى تجتمعا و تتلاقيا ، و قد روعى هذا العدل و المساواة فى جميع القوانين الشرعية ، فالأخذ من الظالم بقدر ظلمه أو إعطاء المظلوم حقه المغتصب الشرعى أو مثله ، يعتبران من أسس الأحكام الجنائية وأصولها المقررة ، وهذا هو الأساس الهام الذى نوه به القرآن الحكيم إذ قال :

« فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (سورة البقرة الآية ١٩٤) .

« و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » (سورة النحل الآية ١٢٦) .

غير أن المظلوم إذا رضى بالأجر على الصبر فى الآخر ، و أغمض عينه عن خسارته العاجلة فى الدنيا طمعاً بما عند الله مع نفع دائم ، و لا يستدعى القانون ، بل يضحى بحقه ، فذلك دليل على صبره و كرمه و مكارم أخلاقه ، و يدعى عمله هذا « إحساناً » و « صبراً » ولو أمعنا النظر لعلمنا أن هذا أيضاً من العدل ولكن

(١) العدالة الاجتماعية ص ٢٤ ـ ٢٥ الطبعة السابعة ١٣٧٦هـ ١٩٦٧م .

هذه الصورة للعدل ، صورة أدق ، و ألطف و أسمى و أنفع .

إن غرامة الأشياء المغصوبة و المتلفة ، وديات النفس و ما دون النفس ، مثال لاعطاء المظلوم حقه (أو مثله) « أن النفس بالنفس ، و العين بالعين ، و الأنف بالأنف ، والأذن بالأذن إلخ » ـ لا سيما بهذا التصريح القانونى : ـ « والجروح قصاص » مثال للاخذ من الظالم بقدر ظلمه .

و تستطيعون أن تقدروا سعة هذه الحدود للعدل و المساواة ، و شمول معناهما ، بأنه لا يعتبر هناك أى امتياز بين الظالم و المظلوم بسبب التفاوت الطبق ، و الاعتبار العرفى ، و الاختلاف النسبى والتمايز الوطنى ، حتى الفرق الجنسى — غير المستثنيات القليلة — و هذا من القواعد المقررة الثابتـــة ، فقد قال العالم الشافعى الشهير الذى يدعى لعلمه الوسيع و تضلعـــه التام فى مسائل القضـــاء و اشتغاله به عملياً « أقضى القضاة » وهو العلامة أبو الحسن على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالماوردى فى كتابه المعروف الذائع الصيت « الأحكام السلطانيـــة » (١) و هو يبين أصول القضاء ! « العاشر : التسوية فى الحكم بين القوى و الضعيف ، و العدل فى القضـاء بين المشروف و الشريف » و قد ذكر العلامة ، تأئيداً لقوله ، هذه الآية الكريمة قال الله تعالى : يا داؤد إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين النـاس بالحق ، و لا تتبـــع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله ، لهم عذاب شديد ، بما نسوا يوم الحساب (سورة ص الآية ٢٦) ثم أشار إلى رسالة عمر رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ـ التى تشتمل على قواعد هامة ، و أصول بعيدة الغور للقضاء ، و إرشادات ذات تأثير بالغ للقاضى ، ونكتفى هنا بنقل ما نحن بصدده الآن — و ستأتى هذه الرسالة بتفاصيلها و متعلقاتها فيما بعد

(١) ص ٦٨ (طبع مطبعة الوطن ، مصر ١٢٩٨ هـ) .

— إنشاء الله — جاء فيها : « آس بين الناس فى وجهك و عدلك ، و مجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، و لا ييئس ضعيف من عدلك .

إن تأكيد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ على هذه الأصول ، و تعرض « أقضى القضاة » لذكرها — ليس نتيجة اجتهاد منهما أو حصيلة تفكير ، بل إنما هو صدى تلك التعاليم الاسلامية الصريحة القوية ، التى زخر بها القرآن الحكيم ، و الحديث النبوى الشريف — ﷺ — و قد ذكرنا الآية المفيدة بذلك فيما قدمنا — و نود أن ننقل عدة أحاديث من الثروة الضخمة للأحاديث فى هـذا البـاب .

أخرج الامام المحدث الجليل مسلم بن الحجاج القشيرى فى صحيحه : إن رسول الله ﷺ قال : إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد و لا يبغى أحد على أحد (١) .

و فى حديث آخر أخرجه الامامان المحدثان الجليلان أبو عيسى الترمذى و أبو داؤد فى سننهما ، ذم النبى ﷺ الفخـر بالأنساب و الشعور بالاستعلاء و الكبر ، و اقتلع جرثومته ، قال : إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية و فخرها بالآباء ، إنما هو مؤمن تقى أو فاجر شقى ، الناس كلهم من آدم ، و آدم من تراب (٢) .

و فى حديث آخر أخرجه الامام أحمد بن حنبل فى مسنده ، و البيهقى فى شعب الايمان ، نفى رسول الله ﷺ عدم المساواة ، و أثبت حقيقة التساوى بين

(١) صحيح مسلم ، نقلا من مشكاة المصابيح (٢/٤١٧ الطبعة الهندية) مطبوعة أصح المطابع دهلى .

(٢) سنن الترمذى و أبى داؤد ، نقلا من مشكاة المصابيح (٢/٤١٨) .

جميع أفراد الانسان فى أسلوب عجيب و تعبير لطيف ، « قال رسول الله ﷺ : أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحد ، كلكم بنو آدم طف الصاع بالصاع ، لم تملؤه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين أو تقوى (١) .

و لم تكن هذه المساواة بين أفراد الرعية ، و العامة من الناس ، بل المساواة بين الحاكم و المحكوم و السيد و المسود ، و الآمر و المأمور حتى بين الخليفة و رعيته ، فلو جنى الخليفة جناية أو اقترف ذنباً وجب أن يعاقب و يعزر بمثل ما يعاقب به أى فرد من أفراد عامة الناس ، و ليس هذا القانون ليشاد به و يعلن به على رؤوس المنابر فحسب — كما أصبح ذلك ديدن الزعماء و القادة المزعومين اليوم — بل إنه قانون منفذ ، نفذه أعظم و أسمى شخصية فى تاريخ العالم و البشر — محمد بن عبد الله ﷺ — على نفسه ، و نفذه من بعده خلفاؤه الراشدون ، عملا ، وواقعاً و تطبيقاً ، و هناك كثير من الأمثلة التى تشهد على هذه الحقيقة التاريخية ، و قد كفانا مؤنة البحث و التتبع ذلك الشهيد فى سبيل الله ، عبد القادر عودة — رحمه الله رحمة سابغة — فنحن ننقل فيما يلى ما جاء تحت عنوان « المساواة بين رؤساء الدول و الرعايا » فى المجلد الأول من كتابه التشريع الجنائى — بتغير و حذف يسير — يقول :

« تسوى الشريعة بين رؤساء الدول و الرعايا فى سريان القانون ، و مسئولية الجميع عن جرائمهم و من أجل ذلك كان رؤساء الدول فى الشريعة أشخاصاً لا قداسة لهم ، و لا يمتازون على غيرهم ، وإذا ارتكب أحدهم جريمة عوقب عليها كما يعاقب أى فرد ...... و لقد كان الرسول ﷺ و هو نبى ...... لا يدعى لنفسه قداسة ، و لا امتيازاً ، و كان يقول ...... « هل كنت إلا بشراً رسولا » و كان قدوة

(١) أيضاً عن المسند لأحمد ، و شعب الايمان للبيهقى .

لخلفائه و للمسلمين فى توكيد معانى المساواة بين الرؤساء و المرؤوسين .

دخل عليه ﷺ أعرابى ، فأخذته هيبة الرسول ، فقال له ﷺ : هون عليك ، فانما أنا ابن امرأة ، كانت تأكل القديد (١) وخرج أثناء مرضه الأخير بين الفضل بن عباس و على — رضى الله عنهما — حتى جلس على المنبر ثم قال : « أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً ، فهذا ظهرى فليستقد منه ، و من كنت شتمت له عرضاً ، فهذا عرضى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا ، فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخش الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى ، ألا و إن أحبكم إلى من أخذ منى حقاً إن كان له ، أو حللنى ، فلقيت ربى ، و أنا طيب النفس ، ثم نزل ، فصلى الظهر ، ثم رجع إلى المنبر فعاد مقالته الأولى (٢) .

و جاء خلفاء الرسول من بعده ، فنسجوا على منواله ، و اهتدوا بهديه ، فهذا أبو بكر — رضى الله عنه — يصعد إلى المنبر بعد أن بويع بالخلافة ، فيكون أول كلمة يقولها توكيداً لمعنى المساواة ، و نفياً لمعنى الامتياز ، قال : أيها الناس ! قد وليت عليكم و لست بخيركم ، إن أحسنت فأعينونى ، و إن أسأت فقومونى ، ثم يعلن : أطيعونى ما أطعت الله و رسوله فاذا عصيت الله و رسوله فلا طاعة لى عليكم (٣) .

و هذا عمر بن الخطاب يولى الخلافة ، فيكون أكثر تمسكا بهذه المعانى ، أعطى أبو بكر — رضى الله عنه — القود من نفسه ، و أقاد الرعية من الولاة ، و فعل عمر بن الخطاب مثل ذلك و تشدد فيه ، فأعطى القود من نفسه أكثر من

(١) نقلا عن زاد المعاد (١/٥٩) .
(٢) نقلا من تاريخ ابن الأثير (٢/١٥٤) .
(٣) المصدر السابق (٢/١٦٠) .

مرة (١) ولما قيل له فى ذلك قال : رأيت رسول الله ﷺ يعطى القود من نفسه، و أبا بكر يعطى القود من نفسه ، و أنا اعطى القود من نفسى (٢) ، ومن تشدد عمر فى هذا الباب أنه ضرب رجلا ، فقال له الرجل : إنما كنت أحد رجلين ، رجل جهل فعلم ، أو أخطأ فعفا عنه ، فقال له عمر : صدقت ، دونك فامتثل . أى اقتص (٣) .

وأخذ عمر الولاة بما أخذ به نفسه ، فما ظلم وال رعيته إلا أقاد من الوالى للظلوم ، و أعلن على رؤوس الأشهاد مبدأه هذا فى موسم الحج ، حيث طلب أن يوافوا فى الموسم ، فلما اجتمعوا خطبهم ، و خطب الناس ، قال : إنى ما أرسل إليكم عمالا ليضربوا أبشاركم ، و لا ليأخذوا أموالكم، إنما أرسل إليكم ليعلموكم دينكم، و سنة نبيكم ، فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه إلى ، فوالذى نفس عمر بيده لاقصنه منه (٤) .

فكان من تأثير هذه التعاليم الاسلامية و المثل العليا التى تمثلت فى سيرة الخلفاء الراشدين ، أن بقى الخلفاء و الملوك فى الأدوار التالية لخير القرون — التى لا نظير لها فى التاريخ البشرى — الأدوار التى كان المتبوؤون على عرش المملكة ، والمحتلون مناصب القضاء و الافتاء ، قد ابتعدوا فيها عن روح الاسلام و جوهره و تعاليمه ، و أصبح الاسلام فى كثير من نواحى حياتهم اسماً و رسماً ، و لا يمكن أن يسمى النظام الذى تبنوه ونفذوه نظاماً إسلامياً كاملا - محافظين على معانى العدل والمساواة -

(١) نقلا من سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى (١١٣ — ١١٥) .

(٢) نقلا عن الأم (٦/٤٤) .

(٣) نقلا عن « كتاب الخراج » لأبى يوسف (٦٥) .

(٤) نقلا عن تاريخ ابن الأثير (٣/٢٠٨) وكتاب الخراج لأبى يوسف .

فهناك فى التاريخ مئات من الشواهد و الأمثـلة للعدل و الانصاف فى هذه العصور المنحطة كذلك ، نقتصر هنا على ذكر مثال واحد يتعلق بعهد المامون ابن الخليفـة العباسى هارون الرشيد ، و قد أورده أقضى القضاة الماوردى فى كتـابه « الأحكام السلطانية » نذكر فيما يلى خلاصة ما جاء فيه :

« حكى أن المامون كان يجلس للظالم فى يوم الأحد ، فنهض ذات يوم من مجلسه ، فلقيته امرأة فى ثياب رثة ، و شكت إليه فى رجل ، فاعتذر إليها المـامون و قال : هذا أوان صلاة الظهر ، فانصرفى و أحضرى الخصم فى اليوم الذى يجلس للظـالم ، فانصرفت وحضرت يوم الأحد فى أول الناس ، فقال المامون : من خصمك؟ فقالت القائم على رأسك العباس بن أمير المؤمنين ، فقال المامون لقاضيه يحيى بن اكثم ، ـ وقيل لوزيره أحمد بن خالد ـ اجلسها معه ، و انظر بينهما ، فأجلسها معه و نظر بينهما ، بحضرة المامون وجعل كلامها يعلو ، فزجرها بعض حجابه ، فقال له المامون كلمة التاريخية « دعها فان الحق أنطقها ، و الباطل أخرسه » وأمر برد ضياعها عليها .

هذا هو الأصل والأساس الحقيق الصحيح الذى أمر الله العادل الحكيم أن يقضى بين الناس وفقه ، و أن يعيش المجتمع الانسانى حسب مقتضاه . . . و يمكن أن يشكل على بعض الناس تفريق الشريعة الاسلامية بين حدود العبيد و الأحرار ، فان حد العبـد على النصف من حد الحر ، اتباعاً لقول الله عزو جل « فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (سورة النساء الآية ٢٥) فيرى أن هذا خلاف أصل المساواة ، ولكن يكفى لباغى الحق فهم الحكمة والسر المرعى فى هذا الحكم، مما كتبه الفقيه المحقق كمال الدين ابن الهمام فهو يقول : « لأن الرق منصف للنعمة ، فتنقص العقوبة ، لأن الجناية عند توافر النعم أفحش ، فيكون أدعى إلى التغليظ ألا ترى إلى قوله سبحانه و تعالى : « يا نساء النبى من يأت منكن

بفاحشة مبنية يضاعف لها العذاب ضعفين» (١) .

و قد ذكر العلامة رشيد رضا المصرى فى تفسير المنار » (٢) وجها آخر ، و هو ألطف ، وأوقع فى النفس وأكثر اقناعاً فى تلك الظروف التى شرع الحكم ، يقول : كون الحرة أبعد عن دواعى الفاحشة و الأمة عرضة لها ، و ضعيفة عن مقاومتها ، فرحم الشارع ضعفها ، تخفف العقاب عنها » .

وهذا من القواعد المقررة أن زلة أو غلطة من ذى مروءة و وجاهة ومكانة كبيرة تكون أفحش و أثقل ، وأدعى إلى أن يعاقب هو عليها ، أما السوقة والدهماء فان أخطاءهم الكبيرة قد تغتفر ويصفح عنها .

و ليس هذا موقع الافاضة و التفصيل فى سوق الجزئيات ، فينبغى أن نكتفى بذلك ، إن ذينك الأساسين اللذين لا بد منهما لاقامة العدل و القسط فى الشريعة الاسلامية ، وأغنتنا التفاصيل التى قدمناها عن زيادة القول فى الأساس الأول منهما الذى هو عبارة عن رعاية العدالة فى نفس القانون وأصول الشريعة ، فليس فى هذه العجالة مجال يسع للبحث المزيد فى هذا الأساس .

« يتبع »

---

(١) فتح التقدير ص ١٢٨ ج ٤ الطبعة الأولى بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣١٧ھ .

(٢) تفسير المنار ص ٢٤ ج ٥ الطبعة الأولى ١٣٢٨ھ ـ مطبعة المنار ، مصر .

المستشرقون و السنة النبوية

— ٣ —

محمد صدر الحسن الندوى

مكانة الصحيحين عند المسلمين :

و قبل أن نستعرض أساس هذه الشبهات نريد أن نبحث عن مكانة الصحيحين عند المسلمين .

يقول العلامة أبو إسحاق الأسفرائيني و هو يتحدث عن مكانة الصحيحين :

« أهل الصنعة مجمعون على أن الأخبار التى اشتمل عليها الصحيحان مقطوع بصحة أصولهما ومتونهما ، ولا يحصل الخلاف فيها بحال ، وإن حصل فذاك اختلاف فى طرقها و رواتها ، فمن خالف حكمه خبراً منها و ليس له تأويل سائغ للخبر نقضاً حكمه لأن هذه الأخبار تلقتها الأمة بالقبول » (١) .

و يقول العلامة السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى فى مكانة الصحيحين عند المسلمين .

« ليس من الصواب و لا من الفقه و لا من مصلحة الاسلام و المسلمين أن تثار قضية أصحية هذين الكتابين الجليلين (صحيح البخارى و صحيح مسلم) من جديد و تبحث ، كأن الأمر أنف و الموضوع بكر لم يطرق من قبل و لم يقتل بحثاً و تفكيراً ، فهو يحدث كذلك فوضى فكرية ، و يضيع على الأمة كثيراً من جهودها

(١) توجيه النظر ص ١٢٥ .

و طاقاتها و أوقاتها ، و هو جهاد فى غير جهاد ، أغنى الله خلف هـــذه الأمة عن القيام بأعبـائه بما تولاه سلف هذه الأمة . و فتح باب خطر على مصراعيه ، تدخل منه آفات كثيرة و تشوشات عظيمة ، و ليس سر أصحية هذين الكتابين و فضلهما على سائر الكتب فى علو طبقة رجالهما و عدالتهم و فى الشروط الدقيقة التى التزمها المولفان فحسب . بل فى اشتهار هذه الأحاديث التى حواها هذان المجموعان ، و بشدة اعتنـاء علماء هذا الشأن بها و كثرة تلقى الأمة لها » (١) .

وقال شيخ الاسلام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوى فى كتابه الفريد « حجة الله البالغة »

« أما الصحيحان فقد اتفق المحدثون على أن جميع ما فيها من المتصل المرفوع الصحيح بالقطع و أنهما متواتران إلى مصنفيهما ، و أن كل من يهون أمرهما فهو مبتدع متبع غير سبيل المؤمنين (٢) .

هذه حقيقة واضحة — ليس فيها غموض و لا إبهام — إنهـا توجد فى السنة و تدوينهـــا و فى تراجم رواتها و فى فن الجرح و التعديل كتب تبلغ إلى المآت و الألوف ، هى تدل على درجة الأحاديث التى وردت فى كتب الحديث ، هل هو صحيح أو حسن أو ضعيف أو موضوع و كذلك تبحث هذه الكتب عن أسانيدها و رواتها فى أدق شكل و أمتن صورة ، فنستطيع أن نعرف ترجمة كل راو ، أين ولد ، و أين ترعرع ، و أسماء الشيوخ الذين تتلمذ عليهم ، و هل كان صـادقاً أم كاذباً ، هل كان ضعيف الذاكرة أم قوى الذاكرة ، وجملة القول أن كتب التراجم لاتغادر شيئاً يتعلق بقبول الحديث و رده ، وهذه الكتب توجد فى كل مكتبة بفضل المطابع .

(١) مقدمة لامع الدرارى على جامع البخارى ص ١١ الطبعة الثالثة .
(٢) حجة الله البالغة ص ١٢٤

فهلا يراجع البحاثون تلك الكتب إذا أرادوا أن يكتبوا بحثاً مفيداً قيماً فى هذا الموضوع ، و ما بالهم يستندون إلى تلك الكتب التى لا تبحث عن حياتهم بل جاءت فيها تراجمهم عفواً ، و هى غير موثوق بها فى هذا المجال .

إذا قلت لكم : راجعوا كتب الاجتماع إذا أردتم العثور على أدوية الطب وخواصها و ميزاتها ، وأى دواء يستخدم فى أى مرض ، وما هى علامات الأمراض المختلفة من الزكام الوافد ، و الذبحة الصدرية ، و النوبة القلبية ، و أمراض السكر البولى ، والتيفويد ، والالتهاب التربوى ، والحصبة ، والاضطرابات المعدية المعوية .

و تدبروا فى كتب علم النفس إذا شئتم أن تعرفوا كيف تصنع الصواريخ و الدبابات ، و الطائرات ، و التلفزيون ، و الهاتف ، و القنابل النووية . فماذا تظنون بى ، إذا قلت لك هذا وذاك ، فهل أنا مجنون ، قد فقدت الاتزان ، واحتاج إلى أن أدخل فى المستشفى و أفكر فى مصيرى ، دون أن أكون فى مجمع علمى ، و أشرف على شئونه و أكتب بحثاً ، و ألقى المحاضرات فى الجامعات و المراكز العلمية الكبيرة .

و نضرب لكم مثالا آخر : هناك أديب بارع هو نسيج وحده وفريد عصره ، لا يوجد له نظير فى الدنيا ، يضرب إليه أكباد الابل . والناس يأتون إليه للاستفادة من الأصقاع و الأنحاء و يتلمذ عليه أئمة الأدب من أطراف العالم كله و يقيمون له وزناً كبيراً و يعترفون بفضله و نبوغه و سعة اطلاعه و علو كعبه و أنه أبو عذرته و ابن بجدته و يرون أنفسهم أمامه كقطرة أمام بحر زاخر و يعدون معارفهم كمعارف طفل أمام الشيخ المتضلع من العلوم . يتفجر منه أنهار العلم والمعرفة . والناس ينهلون من منهل علمه العذب الصافى حسب استعداداتهم ومؤهلاتهم و يشربون من نميره الفياض . وجملة القول : أنه بحر لا ساحل له . لكن هذا النبوغ العلمى و المزايا

كلها تنحصر فى إطار واحد فحسب .

هو أديب فاق أقرانه و أحرز قصب السبق فى هذا المضمار ، لا يضاهيه أحد ولا يضارعه نفس فى هذا النفس . فلابد أن يكون لآرائه وزن فى الدوائر العلمية . و ليس من الميسور دحض آرائه و رفض نظرياته و الحط من شأن علمه إلا بعد جهد كبير .

لكن إذا اجترأ ذلك الأديب و نطق ببنت شفة فى علم النفس و الاجتماع وعلم التربية و الطبيعة وما بعد الطبيعة ، وعلم الحيوان ، والنبات والطب و التكنالوجيا وعلم الفلك والنجوم ، وهو يريد على ذلك الثناء العاطر والاعتراف بالنبوغ والفضل . فهل لك أن تقر له هذا المنصب العظيم الخطير ، و تعتبره مرجعاً فى هـــذه العلوم أيضاً ، أرى أنكم تنكرون على هذا الادعاء إنكاراً شديداً لاذعاً ، لأنكم تعلمون أن هذه العلوم ليست مجال بحثه و دراسته ، إنه أفنى عمره فى فن الأدب فلابد أن يتجنب إبداء الآراء فى غيره ، و هذا لا يسيء إلى نبوغه و فضله و لا يزرى بسعة اطلاعه و طول باعه وعلو كعبه فى فن الأدب ، بل يسيء إلى نبوغه إذا فرط منه أخطاء علمية فاحشة فى مجال دراسته و نطاق اختصاصه .

منهج المهاجمين على الحديث فى البحث :

الذين يهاجمون على السنة يسلكون مسلكاً طريفاً فى البحث ، و يعرضون الحقائق بعد التزوير والتلفيق ، وقد أشار إلى تلك السمات التى تتسم بها كتب المهاجمين على السنة الأستاذ المرحوم الدكتور مصطفى السبـاعى ، إنه يقول وهو يستعرض كتاب أبي رية « أضواء على السنة المحمدية » :

١ــ إن الرجل غير موثوق فيما ينقل ، فكثيراً ما يزيد فى النص الذى ينقله كلمة يفسر بها المعنى ، ينسجم النص مع ما يريد ، دون ما يريد صاحبـه ، و كثيراً

ما ينقص كلمة و كثيراً ما يسند القول إلى غير صاحبه تضليلا و تمويهاً .

٢— إنه يستدل لفكرته التى يخالف بها جمهور العلماء بنصوص للعلماء فى موضوع غير الموضوع الذى يتكلم فيه ، ليوهم القارىء أنه مؤيد فيما يقوله من العلماء الأقدمين .

٣— إنه يسىء فهم النصوص عمداً ، و يتحكم فى فهمها تحكماً يمليه الهوى لا البحث العلمى .

٤— إنه فى سبيل تأكيد الفكرة المستولية عليه ، يرفض نصوصاً أجمع العلماء على صحتها من حيث يعتمد على روايات مكذوبة نص العلماء على بطلانها وعلى « حكايات » تروى فى مجالس الأدب ، و من مصادر غير موثوقة فى نظر العلماء و اس لها سند و لا يعرف قائلها .

و بهذا ليس عنده مانع يمنع من تكذيبه لما جاء فى كل كتب السنة الصحيحة كالبخارى و مسلم ، و السنن الأربعة و غيرها .

٥— اعتماده فى سب أبى هريرة و تكذيبه و فى التشكيك بالسنة و رواتها على ما كتبه المستشرق « جولدزيهر » و « شبرنجر » و « فون كريمر » و « دائرة المعارف الاسلامية » (البريطانية) و تفاخر بأنه يأخذ عن هؤلاء و يتلقى عنهم دروس السب و الشتم فى جلة صحابة رسول الله ﷺ .

٦— إنه لم يتحل بالأدب الكريم فى بحثه . فكانت له الكلمات النابية التى مكانها مجالس السوقة و الرعاع لا الكتب و المؤلفات .

٧— إنه لم يتورع خلال بحثه —ليثبت عبقريته ، وإنه أتى بما لم يأته الأوائل ، و أنه اكتشف حقيقة أبى هريرة التى خفيت على ثمانمائة من حملة العلم من الصحابة و التابعين من أن يتهم الصحابة — و فيهم عمر — بالغفلة و السذاجة حيث

سمحوا لمسلمة أهل الكتاب الذين أسلموا ليدسوا على الاسلام ، أن يكذبوا على الرسول ، ثم نقلوا عنهم هذا الكذب ، من غير أن يوتوا ذرة من الفطنة التى أوتيها أبو رية فيعلموا أن هولآء مدسوسون دساسون بل خدعوا بهم ونقلوا عنهم و تركوهم يدسون على الدين و يفسدون عقائده أحراراً يسرحون ، و يمرحون بل يعظمون و يقدسون .

٨ــ زعم أبو رية أنه استكثر فى كتابه من الأدلة التى لا يرقى الشك إليها وتزيد من الشواهد التى لا ينال الضعف منها ، وحسبنا أن نلمس مكان هذه الدعوى فى المصادر التى استمد منها كل ما خالف رأى جماهير المسلمين جيلا بعد جيل .

٩ــ زعم « أبو رية » أنه ألف كتابه على قواعد التحقيق العلمى ، فما هو المنهج الذى وضعه لكتابه ؟ ما هى القاعدة أو القواعد التى وضعها لتصحيح الأحاديث؟ ماذا نفعل بهذه الثروة من كتب السنة الموجودة ؟ أ نرميها كلها ؟ أ نأخذ بها كلها ، أنأخذ بعضها ونترك بعضها ؟ وما القاعدة فى ذلك ؟ العقل الصريح ؟ عقل من ؟ أ مثل عقله الذى كذب الروايات الثابتة ، وصدق « الحكايات » المكذوبة ؟ و رد رواية البخارى و قبل حكاية الاسكافى .

وبعد فقد اتضح لنا مما سبق أن كتاب أبى رية ليست له أية قيمة علمية لأمرين بارزين .

١ــ خلو الكتاب من المنهج العلمى .

٢ــ و خلو مؤلفه من الأمانة العلمية .

و هذا الأسلوب هو أسلوب المتعصبين من المستشرقين و هو الذى أسقطهم من عيون العلماء المحققين المنصفين الذين أتوا بعدهم ، وأضعف من الثقة بأبحاثهم (١) .

---

(١) السنة و مكانتها فى التشريع الاسلامى ص ٣٥٣ - ٣٦٣ .

و لنا أن نرد على الشبهة التى أوردها دكتور أحمد أمين وأمثاله حول حديث صحيح البخارى « من اصطبح كل يوم سبع تمرات من عجوة لم يضره سم و لا سحر ذلك اليوم إلى الليل » و أمثاله .

« أى شئى فى هذا الحديث يستحيله العقل ، هل يستحيل العقل وجود شئى من العقاقير يزيل أثر السم إذا أكله أحد ، نرى أنها توجد أشياء من العقاقير تزيل بل تمنع تأثير السم لأبد الدهر لا لأيام و أسابيع فحسب نذكر على سبيل المثال لقاح الجدرى ، فانه يحصل من رطوبة القروح الجدرية ، و هى التى تمنع الأجسام من أن تسيطر عليها الميكروبات الجدرية السامة القبيحة ، فهل كان للعقل أن يسلم هذه الحقيقة قبل اختراع هذا اللقاح بزمن كثير ، و هل يمكن أن يسبب هذا الأمر إلى تكذيب هذه الحقيقة التى هى شائعة فى هذه الأيام وتعد من البديهيات ، و كذلك من الأشياء المستغربة إيجاد حقنة دوائية « بنسلن » هى تصنع — كما يقول الأطباء — من شبكة العنكبوت ، هذا أيضاً كان مستغرباً لدى العقول قبل إيجاد هذا الدواء الذى هو بمثابة بلسم شاف و ناجع للجروح ، فهل هنا مبرر لأى شخص أن يكذب تأثير أى شئى و يكذب ذلك الرجل الذى يقول بتأثيره على أساس أنه لم يجربه أبداً ، و مع ذلك هنا شروط لتأثير أى شئى ، و قد يفقد الشئى تأثيره لكون الرجل الذى استخدمه غير صالح لذلك الدواء ، أو لأنه لم يستخدمه مع مراعاة الشروط التى لابد له من أن يباشرها ، فكما نرى أن « بنسلن » ـ ومن تأثيره أن يلتئم الجرح به ـ لا يؤثر على جروح الرجل الذى أصيب بمرض السكر بل يزيد خطورة ، فهل من المعقول أن يقال إن « بنسلن » لا يلتئم الجرح به .

فاذا كان الأمر كذلك فاننا لا نبالى بحياتنا ـ فى بعض الأحيان ـ بقول طبيب فى دواء جربه هو بنفسه (مثلا نستعد لاجراء عملية جراحية قلبية) ونثق بقول ذلك

الطبيب و لا نحقق فيما إذا كان قوله صحيحاً أم لا ، و لكن إذا كان انتماء شئ إلى رسول الله الأمين بسند متصل — و توجد تراجم هؤلاء الرجال الذين هم من رواته و يمكن أن نعلم اليوم أهم متقنون عادلون ضابطون أم لا — و مع ذلك فهل يرفض ذلك الحديث ، و يقال : لا نصدق ذلك الأمر الذى لا يقبله العقل ، فهلا يقيم (هؤلاء الناس) وزناً لرسول الله مع كونه صادقاً ، كما يقيمون وزناً لأى طبيب؟ أسألهم بالله هل يوجد كتاب لأى طبيب وصل إلينا بكل صحة كما وصل إلينا الكتب الستة من الصحاح و خاصة البخارى و مسلم (١) .

صلة السنة بالقرآن :

و هناك صلة وثيقة بين القرآن و السنة ، لأن القرآن يشير إلى معظم الأحكام إشارة إجمالية و السنة تفسرها ، فالقرآن يشتمل على الأصول للاحكام و لا يتعرض للقوانين الفرعية إلا قليلا ، يقول العلامة الشاطبى :

« القرآن على اختصاره جامع ، و لا يكون جامعاً إلا و المجموع فيه أمور كليات ، لأن الشريعة تمت بتمام نزوله ، و أنت تعلم أن الصلاة و الزكاة ، والجهاد ، و أشباه ذلك لم يبين جميع أحكامها ، إنما بينه السنة ، وكذلك العاديات من الأنكحة و العقود ، و القصاص و الحدود و غيرها (٢) .

و لذلك الذين يحاولون إنكار السنة ، فانهم يريدون إزالة عرقلة السنة بينه وبين القرآن ، و إذا فعلوا ذلك تيسرلهم تأويل القرآن حسب أهوائهم و ميولهم ، يقول الأستاذ اهتدى محمد أسد النمساوى :

---

(١) مجلة البعث الاسلامى جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ .

(٢) الموافقات للشاطبى المسألة الخامسة ج ٣ ص ٣٦٧ .

« ولكن يستطيع نقدة الحديث المزيفون أن يبرروا قصورهم و قصور بيئتهم ، فانهم يحاولون أن يزيلوا ضرورة اتباع السنـــة ، لأنهم إذا فعلوا ذلك كان بامكانهم حينئذ أن يتأولوا تعـاليم القرآن الكريم كما يشاؤن على أوجه من التفكير السطحى ، أى حسب ميول كل واحد منهم و حسب طريقة تفكيره هو ، و لكن تلك المنزلة الممتازة التى للاسلام – على أنه نظام خلقى و عملى ونظام شخصى و اجتماعى – تنتهى بهذه الطريقة إلى التهافت و الاندثار (١) .

السنة حفظ على كيان الاسلام :

إن السنة النبوية تدعم أركان الاسلام و تجعلها متماسكة متراصة وبدونها لا يمكن أن يبقى الاسلام على وجه الأرض فى صورته الصحيحة الرشيقة ، بل يقع الاسلام فريسة تأويل الجاهلين و انتحال المبطلين و تحريف الغالين، و تكون صورة الاسلام مشبوهة مشوهة .

يقول الأستاذ محمد أسد و هو يشير إلى هذه الحقيقة الناصعة :

« إن العمل بسنة رسول الله ، هو عمل على حفظ كيان الاسلام وعلى تقدمه ، و إن ترك السنة هو انحلال الاسلام .. لقد كانت السنة الهيكل الحديدى الذى قام عليه صرح الاسلام ، وإنك إذا أزلت هيكل بناء ما ، فيدهشك بعدئذ أن يتقوض ذلك البناء كأنه بيت من ورق (٢) .

صلة السنة بالمجتمع الاسلامى :

ثم إن الحديث النبوى الشريف لا يمكن بدونه أن يستقيم أمر المسلمين . ويتيسر لهم التحلى بالأخلاق الفاضلة الحسنة والابتعاد عن الرذائل والعادات التى تزرى بالانسان،

---

(١) الاسلام على مفترق الطرق ص ٩٥ للاستاد محمد أسد .

(٢) الاسلام على مفترق الطرق ص ٨٥ .

و التأسى بالأسوة الحسنة فى الشدائد والمحن ، والسراء و الضراء و الرخاء والعسرة ، ولا يتأتى الاتزان الكامل فى السير والسلوك إلا بالترابط الوثيق المتماسك بين القرآن و السنة ، يقول العلامة الشيخ أبو الحسن على الحسنى الندوى :

« إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون فى كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة . و لا يتأتى الاعتدال الكامل فى الأخلاق و الأعمال إلا بالجمع بين القرآن و بين الحديث ، الذى هو يملأ الفراغ الذى وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ... فلو لا الحديث الذى يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولو لا التوجيهات النبوية الحكيمة ، و لو لا هذه الأحكام التى أخذ بها الرسول المجتمع الاسلامى ، لوقعت هذه الأمة فى إفراط و تفريط ، و اختل الاتزان ، وفقد المثال العملى الذى حث الله على الاقتداء به بقوله « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » وبقوله : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » و الذى يطلبه الانسان و يستمد منه الثقة و القوة فى الحياة ، و يقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينيـــة على الحياة ميسور و واقع » (١) .

(١) رجال الفكر والدعوة ج ١ ص ٩٨ ط الطبعة الرابعة ١٩٧٤م - ١٣٩٤هـ .

التضامن الاسلامى فى العصر الحديث
ضرورته و وسائله

-. الحلقة الرابعة — الدكتورة نادية شريف العمرى

إن فكرة التضامن لا تتحقق إلا إذا اتحدت مشاعر الأفراد على أساس عقيدى روحى دائم لا يتغير بتغير الظروف والأحوال والمصالح ، و هذه المشاعر لا يمكن أن تلتقى على مجرد العصبية أو الجنسية أو المنافع الاقتصادية فقط ، لأنها عوامل غير ثابتة وغير صالحة لأن تبنى عليها وحدة إسلامية إنسانية ، وما كان هذا شأنه فهو غير قادر على الاستمرار فى توحيد الشعوب ، والأمة التى يجمع بين أفرادها الحق لا يمكن أن يفرق بينها الباطل وقد جمعت عقيدة التوحيد بين المسلمين جميعاً بغض النظر عن أجناسهم و ألوانهم و أوطانهم و عصبياتهم و هذه العقيده نفسها قادرة اليوم على أن تجمع بين المسلمين و أن تؤلف بين قلوبهم و أن توحد مقاصدهم و أهدافهم .

و أما العامل الخارجى فيتجلى بأن تمثل حكومات البلاد الاسلامية الاسلام بمعناه الحقيقى عقيدة ونظام حياة ونظام حكم . و من الخطأ البالغ أن تفصل أية حكومة بين التصور الاعتقادى و بين نظام الحكم و الأنظمة الاجتماعية ، ذلك لأن الاسلام يختلف اختلافاً كليا عن سائر المعتقدات وسائر الأديان التى عبثت بها الأيدى وغيرت من خط مجراها تغييرا جوهرياً ، وقد بقى الاسلام الدين الوحيد الموثوق فيه، الذى سلم - بفضل الله وحفظه ـ من الأيدى الآثمة و الأفكار المضللة . وهو الدين الذى ينبع منه كل تصور لكل نواحى الحياة وجوانبها . وحينما يكون الشعب مسلماً بأنه لا يرضى بغير دين الله حكماً و لا بغير شرع الله شرعاً ، و الانفصام بين التصور الاعتقادى

و النظام الاجتماعى والسياسى لا يفيد إلا التمزق الفكرى و الاجتماعى ، وأنه يوقع فئات المجتمع بربكة أيما ربكة ، وحيرة أيما حيرة .

و قد آن للسلدين أن يعرفوا الطريق السوى الذى يجب أن يسلكوه ، و الغاية النبيلة الجامعة التى يجب أن يسعوا إلى تحقيقها ، بعد أن عرضت عليهم فى عالم التجربة (أفكار) و (مذاهب) و (عقائد) (شرقية) و (غربية) و قد أثبت الواقع زيف وبطلان تلك المذاهب و العقائد ، ولم يبق إلا الاسلام . . و الاسلام وحده ، هو الذى ينقذ الأمة الاسلاميــة من الغزو الفكرى المريع و من الصراع العنيف . . وهو الذى يضمن لها السلامة و الاطمئنان و الأمن .

إن جدية المعركة و خطورتهـا لتتطلب من كل مسلم أن يتدبر أبعاد الوضع الدولى القائم و أن يعرف حقيقة الدوافع التى تحرك أحداثه وانعكاسات هذا التحرك على عالمه الاسلامى وما ينشأ عنها من قضايا و مشكلات .

وتلك الجدية نفسها تتطلب من كل مسلم ألا يقف مكتوف اليدين إزاء ما يرى من تآمر على تتشارك فيه القوى العالمية الشريرة ، ويثق بأن ليس فى الدنيـا ، بعد الله تعالى ، سوى إخوته المسلمين فى شتى بقاع الأرض ، فهم و حدهم الذين يتألمون لألمه و يفرحون لفرحه ، وهم ـ و حدهم من بنى البشر جميعاً ـ المستعدون للتضحية من غير أن ينتظروا الجزاء بعيداً عن حسابات المصالح و فواتير الأرباح ، (١) .

وغير خاف على أحد أن السبيل الوحيد لتقدم الأمة الاسلامية والدعامة الأولى فى بناء نهضتها و السبب الأكيد لعزها هو تمسكها فى دينها و تبنيها لفكرة التضـامن الاسلامى على أسس من عقيدتها و منهاجها الاسلامى .

(١) التضامن الاسلامى للأستاذ محى الدين القابسى ص ١٦ .

دواعى التضامن الاسلامى :

إن كل شئ فى الاسلام عقيدته ، لغته ، نظمه ، مناهجه ، يدعو إلى التضامن وجمع الكلمة و وحدة الصف ، فالعقيدة هى التى تجمع بين قلوب المؤمنين و تشد من أزرهم كلما داهمهم خطب أو حزبهم أمر أو ألم بهم مكروه ، وبالعقيدة وحدها يشعر المؤمن بالتعاطف و التآخى مع إخوته المؤمنين ، و إن عاشوا فى أدنى أو أقصى المعمورة. وحينما اتحد المسلمون على أساس العقيدة تمكنوا من مواجهة جحافل الصليبية فى حروبها الطاحنة ، و من ردها على أعقابها خاسرة نادمة

و المؤمنون يعتقدون أن اللغة العربية هى اللغة الأم الجامعة ، لأنها الوسيلة الحقيقية لأداء الشعائر الدينية صحيحة ، فالمؤمن يحس بالألفة و المودة تجاه من يتكلم العربية ، و تجاه من يقرأ القرآن عبادة و تقربا لله تعالى ، و إن كانت تفصل بينهما آلاف من الأميال ، إذ أن الشعور القلبى و الرابطة الايمانية لا تتوقف على قرب الزمان و المكان .

و الاسلام دين و عقيدة ولغة ومنهج حياة يحيا ـ فى قلوب ألف مليون من المسلمين ـ مختلفين فى الأوطان و الديار و القوميات و الجنسيات . ومع ذلك فهو يطبعهم بطابع خاص و يوجههم وفق تعاليمه و أخلاقه و مناهجه الخاصة ، وهم يختلفون فى أسلوبهم المعاشى و منهاجهم الحياتى عن غيرهم من الشعوب و الأمم التى لا تدين بالاسلام ، والمناهج الواحدة والغايات الواحدة كفيلة لا يجاد الألفة الروحية بين المسلمين ، و كفيلة أن تجعلهم أمة متميزة عن غيرهم من الشعوب و الأمم .

و الاسلام لا يسمح بالتكتل على أساس العنصرية أو اللون أو الجنسية أو الطائفية لأنه الدين الذى جاء لصهر كافة هذه العوامل فى وحدة دينية جامعة لا تفرق بين عربى و تركى و كردى أو أحمر و أبيض إلا بالتقوى . . وهو الدين الوحيد

الذى جاء ليقرر الأخوة الايمانية و أنها أخوة تفضل عن أخوة النسب وتعلو عليها ، بل هى الرابطة الحقيقية التى تجمع بين مختلف الأجناس و العصبيات .

و نرى الرسول ـ ﷺ ـ وهو الامام و القدوة هو المثل الأعلى للمسلمين يقيم الروابط الاجتماعية فى المدينة المنورة على أساس الأخوة الايمانية دون اعتبار لاخوة النسب ، حتى أن المسلمين كانوا يتوارثون بسبب هذه الرابطة ، فلو لم يكن لها الاعتبار القوى ، ولو لم يكن لها المنزلة العظمى لما جعلت أوثق من قرابة النسب و أقواها أثرا .

و إنه لمن المؤسف حقاً أن نجد دعاة الثورية و التقدمية فى كثير من بلاد العالم الاسلامية يتحرجون من الدعوة إلى التضامن الاسلامى أمام العالم الغربى المتطور ، فيلجأون إلى طبعها بطابع القومية العربية ظنا منهم ـ غباء أو بسوء نية ـ أنها أنسب للعصر ، و أدعى لأن تحظى برضى الآخرين ، وجهل هؤلاء أن القومية ليست دعوة إنسانية . و أنها ضيقة جداً و محدودة فى حيز مكانى صغير ، و أن القوميات التى دانت للاسلام قد انصهرت عن طواعية و رضى فى بوتقة الاسلام . ثم إن الدعوة للقومية أصبحت شعاراً قديماً ـ و فى عرفهم ـ رجعياً . إذ أن الدعوات الحديثة تقوم على أساس وحدة المبدأ أو الفكرة ، دون وحدة القومية ويكفى للدلالة على ذلك أن روسيا الشيوعية تضم ما ينيف عن مائة و سبعين قومية : وكانت هذه القوميات تخضع للشيوعية مقهورة مغلوبة على أمرها إذ لا يجد الانسان السوى فيها ما يتناسب مع فطرته ومع إنسانيته ، وشتان بينها وبين مبادىء الاسلام المثالية الواقعية التى تلتئم التئاماً قوياً مع الفطرة البشرية . و أين الثرى من الثريا ؟ و يكفى للرد على هؤلاء الذين يخجلون من الدعوة للتضامن الاسلامى قول الله تبارك وتعالى : (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم . قل إن هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت

أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) (١) و قوله جل من قائل : (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) (٢) .

فالاسلام يأبى كل الاباء أية دعوة تدعو لتمزيق كيان الأمة و لتشتيت شمل أبنائها ، أو لتفريق كلمتها ، والقضاء على وحدتها ، و تبديد قوتها ، و إن إثارة فتنة القومية أو الطائفية فى المجتمع الاسلامى كفيلة بأن تبذر بذور الحقد والحسد والتناحر و التخاصم فى قلوب أفراد هذا المجتمع المتماسك بسبب الدين وحده ، و إن الرابطة الايمانية هى التى وحدت بين القلوب وهى التى شيدت صرح التاريخ وهى التى أعلت بنيان المجد و السؤدد التليد .

ولا يخفى أن الاستعمار البغيض لم يستطع أن يبسط نفوذه على الأمة الاسلامية إلا بعد أن فرقها شيعاً و أحزاباً و أقام بينها حواجز مصطنعة ، تتقاطع من أجلها و تتقاتل فى سبيل هذه الحدود الاعتبارية التى ما أنزل الله بها من سلطان ، وشد ما نحزن حينما نعلم أن الخلاف يصل إلى عنفوانه ، و إلى درجة سفك الدماء والذهاب بالرجال والمعدات بسبب الحدود المصطنعة .. إنها مسألة مرسومة بريشة العدو الثلاثى المشترك (الصهيونية والشيوعية والصليبية) لاثارة العداوات ولتبديد الطاقات والأموال ولشغل المسلمين بفتن جانبية تبعد اهتماماتهم عن القضايا الأساسية وعن المشاكل الجوهرية .

وحينما صممت الشعوب الاسلامية على أن تتحرر من نير الاستعمار ، لم تستطع أن تحقق ما سعت إليه إلا بسبب قوة العقيده ، و وحدة الشعور الدينى الذى كان يلهب الحماسة ويشد العزائم ويجمع الشتات ويذكى الكفاح ، ويوحد النضال .

و على هذا فان طابع الأمة الاسلامية طابع إنسانى عالمى ، إنه يتسامى على

---

(١) الآية ١٢٠ من سورة البقرة .

(٢) الآية ٩٢ من سورة الأنبياء .

القومية التى تدعو إلى التكتل على أساس روابط القبيلة أو العرق أو الجنس أو الطبقة الخاصة . . ويتسامى على طابع الرأسمالية التى تساند الأثرياء من أصحاب المال والصناعة، ولو اقتضى الأمر أن تكون المساندة على حساب الآخرين و من غير قيد لوسائل الكسب والانفاق ، وهو فوق الاشتراكية التى تساند طبقة العمال مساندة مطلقة على حساب أصحاب رؤوس الأموال . (١)

إن كل العوامل التى تحدث الفوارق فى المجتمعات الانسانية ، من اقتصاد أو طبقية أو عنصرية تزول أمام قوة الاسلام ، و ذلك للقدرة الذاتية التى يملكها هذا الدين لاستيعاب كافة مقومات الأمة فى الوحدة الاسلامية و الرابطة الايمانية . . إن المسلمين يتعبدون بكتاب واحد ، هو كتاب الله العزيز الحميد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه ، ويتجهون جميعاً فى عباداتهم إلى قبلة واحدة هى رمز لوحدة الهدف والاتجاه ، وهم جميعاً يسعون لتحقيق غرض واحد وهو رضاء الله رب العالمين . . وهذه هى العوامل الحقيقية لوحدة الأمة الاسلامية ، وهى العوامل الجوهرية التى تدعو إلى التضامن الاسلامى .

إن التضامن الاسلامى أمر تفرضه على المسلمين طبيعة دينهم و وضعهم الجغرافى و الاقتصادى و ظروفهم السياسية و الدولية وتراثهم المشترك الزاهى ، وأنه من الخير أن تتكتل المجتمعات الاسلامية على وحدة الدين و أن يكون كل فرد بالنسبة لأخيه المسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً . و أن يتعاونوا فى سبيل نهضة إسلامية شاملة . قال الله تبارك وتعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا و اذ كروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون . و لتكن منكم أمة يدعون إلى

(١) الثقافة الاسلامية على ضوء الكتاب و السنة للدكتور تهامى نقرة ص ٢٣٣ .

الخير ويأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون ، و لا تكونوا كالذين تفرقوا و اختلفوا من بعد ما جاءهم البينات و أولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون . و أما الذين ابيضت و جوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون . تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين) (١) .

و على هذا الضوء ينبغى أن ينظر إلى (التضامن الاسلامى) ، فهو حقيقة قائمة بين الشعوب الاسلامية لا يحتاج إلى أكثر من تنسيق و تنظيم و توجيه .

و ليست دعوة التضامن الاسلامى قاصرة على المشاعر النفسية و الروابط القلبية و الأحاسيس الداخلية ، وإنما تتعدى هذا المجال إلى مجال الاقتصاد و السياسة والقوة الدفاعية .

ففى المجال السياسى و على الصعيد الدولى تظهر قضايا إسلامية تحتاج إلى حل سريع ودائم ، و هذه القضايا هى : قضية فلسطين ، وقضية كشمير ، وقضية أرتيريا ، وهناك شعوب مضطهدة فى فلسطين المحتلة و لبنان و جنوب أفريقيا ، و قبرص . . ولا بد للعالم الاسلامى أن يقف من هذه القضايا موقف الرجل الواحد ، الذى يسعى حثيثاً لمناصرتها و الذود عن حرماتها . ويبذل الغالى و النفيس من أجل الحفاظ على سلامتها و وجودها و حريتها و أمنها .

و فى المجال الاقتصادى توجد بلاد إسلامية غنية و أخرى فقيرة ، فلا بد من إعداد المشاريع الجمة تحقيقاً للتعاون فيما بينها . ولا بد أيضاً من إعداد برامج مشتركة للتنمية الاقتصادية تشمل كافة أوجه النشاط الاقتصادى ، من زراعة وتصنيع و تعمير وتجارة ، ويرافق هذه المشاريع و هذه البرامج خطة علمية لتقدم العلم (التكنولوجى)

(١) الآيات (١٠٢ ـ ١٠٨) من سورة آل عمران .

فی العالم الاسلامی علی حد سواء للاستفادة منه فی مجال التصنیع و التسلح و التنمیة الاقتصادیة .

و علی هذا فالتضامن الاسلامی (دعوة الدین والدنیا فی آن واحد لأن الاسلام نفسه دین و دنیا ، و لأنه (عبادة) (و معاملة) ، فقد حض أتباعه علی أن یعملوا لدنیاهم کأنهم یعیشون أبداً ، و أن یعملوا لآخرتهم کأنهم یموتون غداً ، ولیس بین جمیع عقائد الدنیا ، روحیة ودنیویة عقیدة أقامت التوازن الدقیق بین الدین و الدنیا مثلما فعل الاسلام (١) .

و إن سیاسة الدول و الأمم فی العالم قائمة علی التکتل و التحالف و الانضواء فی مجموعات متعاونة یسند بعضها بعضاً ، و یدافع بعضها عن بعض ، ویلتمسون لذلک أوهی الأسباب ، فأوروبا الغربیة وجدت نفسها واقعة بین العملاقین الکبیرین : أمیرکا و روسیا ، و وجدت أن تبعیتها لهذا المعسکر أو ذاک إنما یهدد و جودها ومستقبلها وکیانها ودورها الحضاری المتمیز ، وکان علیها أن تجزم أمرها ، و أن تختار الطریق الذی یحفظ لها ذلک الکیان ، وهو طریق الوحدة ، رغم ما بین دولها من تناقضات کان یعتقد أنه لا سبیل إلی تخطیها .

وما السوق الأوروبیة المشترکة إلا خطوة فی سبیل التقارب والتعاون والاتحاد بین الدول الأوروبیة الغربیة فی مضمار الاقتصاد .

ونحن المسلمین ـ ألسنا أولی من أوروبا وغیرها بأن تکون لنا أسواقنا المشترکة . و أن تکون لنا ـ عبر مساحات واسعة ـ صور أخری من التضامن الاجتماعی والثقافی و السیاسی و العسکری ، حتی نستأنف دورنا الحضاری فی التاریخ ، و نکون ـ عن جدارة ـ خیر أمة أخرجت للناس ؟ ـ إن ذلک هو أملنا ـ و أمل کل مسلم ـ فی العصر الحدیث .

---

(١) محی الدین القابسی ، التضامن الاسلامی (ص ١٤) .

رسالة لغوية للسيد مرتضى الحسينى البلكرامى ثم الزبيدى

أبو محفوظ الكريم معصومى
أستاذ فى الحديث و التفسير
بالمدرسة العالية الحكومية كلكتا (بنجال الغربية)

هذه رسالة قصيرة لأحد فحولة أعلام الهند ، الامام السيد محمد (١) بن محمد محمد بن عبد الرزاق الملقب بمقتدى (٢) ، ثم الشهير بمرتضى ، الحسينى الواسطى أولية و محتدا ، الهندى البلجرامى موطنا و مولدا ، الزبيدى المصرى متحولا و مرقــدا (١١٤٥هـ-١٧٣٢ ، ١٢٠٥هـ-١٧٩٠م) كتبها إجابة لرغبات من ألقى عليه مسألة لغوية فى ضمن خطابه إليه ، وهى أن السائل طلب منه أن يوضح له الفرق بين كلمتى الكوع و الكرسوع و ما إليهما . و لاختصارها لفظاً و حجماً ، و اقتصارها على حــدود المسألة المقدمة إليه قلما ذكرها مترجمو الامام هذا ، فى قائمة مؤلفاته الجليلة .

(١) راجع له الأستاذ خير الدين الزركلى . الاعلام ج ٧ ص ٢٩٧ - ٢٩٨ ، و تاج العروس ج ١٠ ص ٤٦٩ - ٤٧٠ ، و مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ج ٤٣ ص ٩٣٠ - ٩٣٦ - و أفرز هذا العاجز فى ترجمته مقـالة غير هينة لم تنشر للآن ، وهى لا تزال عند صديقنا الأستاذ مختار الدين أحمد ، رئيس القسم العربى بجامعة على كره ، ولا أدرى متى يقضى لها البروز إلى مجال النور .

(٢) يعتقد هذا الكاتب أن السيد المرتضى عاش طول وجوده بالهند يعرف بالسيد محمد مقتدى و لا أقول إن السيد غلام على آزاد كان مخطئاً فى ذكره بهــذا اللقب أو وقع هذا الخطأ ممن استنسخ نسخة كتابه « مآثر بلكرام » و قد يبنت ذلك فى مقالى المخزونة فى حوزة الدكتور مختار الدين .

كنت قرأت عنها أولا فى فهرسة الكتب التى صارت إلى حوزة العلامة الشهير النواب صديق حسن (١) القنوجى الحسينى، وقد سرد أسماءها بآخر مؤلفه الممتع اللطيف باللغة الفارسية، الموسوم بـ « سلسلة العسجد فى ذكر مشايخ السند » ، فأثبت برقم ٤٠٦ « رسالة كوع و كرسوع » يعنى رسالة الزبيدى هذه (٢) - و بما أن العلامة الزبيدى مع غلبة هذه النسبة عليه، كان بلا شك من نخبة الفطاحل الذين أنجبتهم الهند الفيحاء، ظللت مغرماً بكل دق و جل مما لم ينشر من آثار قلمه وأبكار فكرته الرهينة فى خبايا الزوايا من خزائن الكتب المخطوطة مع صعوبة الوصول إليها، ما خلا آثار عدة فقط ، بقيت عندنا فى محتويات دور الكتب بالهند - و إحداها هذه الرسالة الوجيزة الأنيقة ، فتمنيت لو تيسر لى الاطلاع على نسختها فى بقايا ذخيرة النواب الشخصية التى تحيط بها خزانة الكتب بدار العلوم لندوة العلماء فى لكناؤ - و لكن هيهات بينى و بينها . إذ لم يسنح لى قط أن أسافر إلى لكناؤ بأى مناسبة - فكتبت فى شأنها إلى صديقى الحميم الأستاذ محبوب الرحمن الأزهرى ، حفظه الله ، و جشمته أن يبحث عن أصلها المخطوط فى ذخائر النواب بخزانة دار العلوم إذا وجد فى الوقت سعة - فأسعفنى بالمأمول فى أول وهلة، وتم له أن يتفقدها فى طوايا بعض المجاميع الخطية ، حتى خولنى بنسخة منقولة بخط يمينه عن أصل هذا الأثر الأثير (برقم ١٧٣٧ - ع) و طوقنى منة خالصة و استحق منى جزيل الشكر على أياديه و جزاه الله عنى أوفى الجزاء

لقد سنح لى الآن أن أنشر هذا النص النادر الحقيق بمضاهاة الفص الباهر العتيق

---

(١) راجع له مآثر صديق باللغة الأردية ونزهة الخواطر للسيد العلامة عبد الحى اللكنوى و قاموس المطبوعات لسركيس

(٢) أنظر سلسلة العسجد (طبعة بهوفال ، ١٢٩٣هـ) ص ٩٦ .

تعميماً للفائدة ، و تنويهاً بمكانة المؤلف و آثاره ، ورأيت فى هذا الصدد أن أشير على الطرد إلى مواضع يسيرة تسترعى الانتباه و أسرد شتى النكت الشاردة يقتضى إثباتها آداب الدراسة و البحث و التنقيب ، مراعياً فى كل ذلك جانب الايجاز بلا إخلال إمكانياً .

فى ختام هذه الطوطئة يبهجنى أن أعود، والعود أحمد ، إلى أداء صميم الامتنان والشكر لصديق الفاضل الأستاذ الأزهرى و ندوة الفضلاء كلهم بدار العلوم وخزانتها القيمة على صنعهم الجميل و يدهم البيضاء ، و أرجو المتشاركين معى ن الوقوف على هذا النص الأثرى عن كثب ، أن يعترفوا بمالهم من إحسان إلينا و منة علينا جميعاً و أن يتفضلوا بالتجاوز عن كل خلل و زلل حدث نتجة لقلة عدتى و ضآلة بضاعتى و من الله التوفيق

فهاكم نص الرسالة كما يلى :

(القول المسموع فى الفرق بين الكوع و الكرسوع) :

بسم الله الرحمن الرحيم

و به نستعين :

الحمد لله الفاتح لمن شاء من عباده أبواب المعارف ، المانح بدرر (١) اللطائف و غرر الطوائف فى أصداف العوارف ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الذى جلى بنوره ظلم الكثائف ، و على آله و أصحابه أسود التنائف و بدور الطوائف .

أما بعد فهذه أسطر قليلة ، و أحرف هزيلة ، تتضمن ذكر الفرق بين الكوع و الكرسوع ، سألنى فى تحريرها فاضل من العلماء وعالم من الفضلاء ممن وجب إسعافه و احترز خلافه، وسميتها : (القول المسموع فى الفرق بين الكوع و الكرسوع)

(١) فى النقل، بدر اللطائف على أنه جمع بدرة ».

و على الله فيما قصدت توكلى ، و عليه فى كل الأمور معولى .

و هذا نص ما راسلنى به فى كتابه بعد البسملة :

الحمد لله الذى رفع مقام علماء الاسلام ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد سيد الأنام ، و على آله و أصحابه فى كل محفل و مقام ، صـلاة و سلاماً دائمين متلازمين عدد صريف الأقلام و غوص الأفهام .

سلام الله الأتم ، و رضوانه الأعم ، على سيدالمحققين [ا ـ ب] وسند المدققين و خاتمة المحدثين ، محى سنة سيد المرسلين و حامل لواء المفسرين و المتكلمين ، وبقية السلف الصالحين ، العلم المفرد و البحر الأوحد ، قاموس الفصاحة و البلاغـة ذى التأليف النفيسة التى أحسن فى سبكها الصياغة ، مجلى الأشباح بكمالاتها (١) والأرواح بملكاتها ، المتقن الجامع و الكوكب اللامع بين المعقول و المنقول ، المقبول عند ذوى الكمال و العقول ، و الجدير بقول القائل (٢) من سلف الأوائل :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد (٣)

هو شمس الملة والدين ، السيد محمد مرتضى ، لا زال فى جميع أحواله مرتضى.

أما بعد فالقصد منكم أن تكتبوا لنا الفرق بين الكوع والبوع (٤)و الكرسوع

(١) فى النقل « م » .

(٢) هو الحسن بن هانىء أبو نواس الحكمى الشاعر المعروف . راجع له ابن النديم ، الفهرست ـ ص ٢٢٨ ، ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ـ ١٩٠ ، ٤٠٨ - ٤٠٩ ، ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء ص ـ ٣١٣ .

(٣) أنظر خاص الخاص للثعالبى ـ ص ٨٨ .

(٤) هذا اللفظ لم يتعرض له المؤلف فى جوابه ـ و الباع و البوع و البوع ـ هذلية ـ و الجمع أبواع ، مسافة ما بين الكفين إذا بسطتهما يميناً و شمالا (راجع لسان العرب ج ٩ ص ٣٦٩ و المصباح المنير للفيومى) و قرأت فى رحلة ابن قائد المكى من رجال القرن الثالث عشر .

و الرسغ و ما يتعلق بها من الأقوال ، مع ذكر جموعها و ضبط كل منها بايضاح و بسط عبارة و إفصاح ، و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته . إلى هنا انتهى ما كتبه إلى .

فأجبته فى الحال على الارتجال فى غير تمكث و لا إمهال ، بما نصه :

الكوع بالضم ، اختلف أهل اللغة فيه على أقوال :

الأول : هو طرف الزند الذى يلى الابهام ، نقله الجوهرى (١) وغيره (٢)؟

الثانى : هو طرف الزند فى الذراع مما يلى الرسغ ، نقله الليث (٣) و قال هكذا زعمه أبو الدقيش الأعرابى (٤) . وهما كوعان .

والثالث من الأقوال : إنه أخفاهما وأشدهما درمة [الورقة الـ / ٢ / ظ] و هذا نقله الصاغانى (٥) فى العباب ، وفسر الدرم ، بالتحريك ، بأن لا يظهر

(١) إسماعيل بن حماد أبو نصر (ت ٣٩٨ / ٤٠٠هـ) أنظر له إنباه الرواة ج ١ ص١٩٤ ـ ١٩٨ رقم ١٢٢ ، وقارن تاج اللغة وصحاح العربية (تحقيق أحمد عبد الغفور عطار) ج ٣ ص ١٢٧٨ .

(٢) منهم الفيومى ، أنظر المصباح المنير ـ ص ٨٣٩ ومشى عليه المجد فى القاموس المحيط ، أنظر تاج العروس ج ٥ ص ٤٩٨ .

(٣) الليث بن نصر بن سيار الخراسانى صاحب الخليل ، راجع له إنباه الرواة ج ٣ ص ٤٢ ـ ٤٣ رقم ٥٦٨ .

(٤) مصغرا . قد ورد ذكره كثيراً فى قطعة كتاب العين (ط . بغداد) وهو معدود فى ثقات الأعاريب و علمائهم الأفذاذ (أنظر المزهر فى اللغة ج ٢ ص ٢٤٩) .

(٥) راجع له الجواهر المضيئة ـ ج ١ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ رقم ٤٩٦ ، بغية الوعاة ـ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

للعظم حجم (١) فهذه ثلاثة أقوال فى تفسير (الكوع) والجمع أكواع (٢) .

و أما (الكرسوع) بالضم فهو اسم لطرف (٣) الزند الذى يلى الخنصر وهو الناتئ (٤) عند الرسغ كما فى الصحاح (٥) . وهو الوحشى (٦) . ونص الليث فى كتابه : حرف الزند ، والجمع كراسيع ومنه قول العجاج (٧) :

على كراسيع و مرفقيه (٨)

أوعظم (٩) فى طرف الوظيف ، مما يلى الرسغ من وظيف الشاه ونحوها من غير الآدميين ، نقله الصاغانى وصاحب اللسان (١٠) .

---

(١) قارن تاج العروس ج ٥ ص ٤٩٨ .

(٢) هو أيضاً جمع الكاع (أنظر المحكم ج ٢/٢٠٠ واللسان ج ١٠ ص ١٩٢) .

(٣) عند ابن سيدة (حرف) بدل (طرف) أنظر المحكم ج ٢ ص ٢٩٦ .

(٤) فى النقل بدون الهمزة ، والتصويب عن المراجع السالفة .

(٥) قارن الصحاح (ج ٣ ص ١٢٧٦) و عنه الفيومى (المصباح المنير ص ٨١٧) .

(٦) قارن تاج العروس (ج ٥ ص ٤٩٢) و لعل هذه النبذة عن ابن سيدة (أنظر المحكم ج ٢ ص ٢٩٦) .

(٧) أبو الشعثاء راجع له ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب (ط . عبد السلام محمد هارون) — ص ٢١٥ ، ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (ط . مصطفى السقاء) — ص ٢٣٠

(٨) تاج العروس : (كراسيعى) .

(٩) اللسان و القاموس : « عظيم » مصغراً .

(١٠) قارن اللسان ج ١٠ ص ١٨٤ و ليس فى نصه (من غير الآدميين) و انظر لابن منظور (بغية الوعاة — ص ١٠٧) .

وقيل (كرسوع) القدم، مفصلها من الساق (١) — وقال الزمخشرى (٢) فى الأساس : الغبى هو الذى لا يفرق بين الكوع و الكرسوع (٣) — الكوع من ناحية الابهام و الكرسوع من ناحية الخنصر انتهى .

و قد أنشدنا بعض الأشياخ فى ذلك :

(الكوع) و(الكرسوع) إن أشكلا (فما يلى إبهامك الكوع)

(١) هذه النبذة أغفلها المجد و ذكرها السيد مرتضى فى المستدرك بدون الاشارة إلى مصدره (تاج العروس ج ٥ ص ٤٩٢) و لعلها عن ابن سيدة (أنظر المحكم ج ٢ ص ٢٩٦) .

(٢) راجع له إنباه الرواة — ج ٣ ص ٢٦٥ — ٢٧٢ رقم ٧٥٣ .

(٣) سقط معظم هذه الفقرة من طبعتى الأساس، الأولى بالوهبية (سنة ١٨٨٢) ص ٢١٣ ج ٢ و الثانية بمطبعة نول كشور (الهند سنة ١٨٩٣) — ج ١ ص ٥٤٨ وبقى منها بقية (و الكرسوع) فقط فاختلت العبارة والصواب إثباتها تماماً كما ورد فى نقل الزبيدى و جاء فى طبعة دار الكتب المصرية (سنة ١٩٣٣) — ج ٢ ص ٣٢٣ « و فلان يفرق بين الكوع و الكرسوع » مكان « الغبى هو الذى لا يفرق بين الكوع والكرسوع » و لعل الأصوب ما ورد عند الفيومى : يقال فى البليد « لا يفرق بين الكوع و الكرسوع » (المصباح المنير — ص ٨٣٩) .

ويضاف إلى ذلك عن الجوهرى : يقال «أحق يمخط بكوعه» (الصحاح ج ٣ ص ١٢٧٦) و عنه الزبيدى فى المستدرك (تاج العروس - ج ٥ ص ٤٩٨) و عنه أيضاً « حلأت حالئة عن كوعها (الصحاح ج ١ ص ٤٤) ويقال ذلك للدافع عن نفسه (أنظر التمثيل والمحاضرة للثعالبى ص ٣١٥) و قال الميدانى : يضرب لمن يتعاطى ما لا يحسنه ولمن يرفق بنفسه شفقة عليها (مجمع الأمثال — ج ١ ص ٢٠١) .

و الخنصر الصغـــرى ، فكن سامعاً فما يليهـــا فهو (كرسوع)

و اختلف فى (الكاع) ، ففى أحد الأقوال هو (الكرسوع) (١) و فى أحد الأقوال هو (الكوع) بالمعنى الأول (٢) .

و أما (الرسغ) فبالضم و بضمتين (٣) كيسر و يسر ، فهو الموضع المستدق بين الحافر و موصل (٤) الوظيف من اليد و الرجل (٥) ، قال العجاج [الورقة ال٢/ب] .

فى رسغ لا يتشكى (٦) الحوشبـــا مستبطناً مـــع الصميم عصبـــاً

و قيل هو مفصل [ما] بين الساعد والكف والساق و القدم (٧) — وقيل هو مفصـــل ما بين الكف و الذراع (٨) — و قيل مجتمع الساقين (٩) و مثل

---

(١) هذا قول ابن سيدة (المحكم ج ٢ ص ٢٠٠) .

(٢) مشى على ذلك الجوهرى حيث فسر الكاع و الكوع معاً بما تقدم من نصه و تبعه الفيومى و المجد (أنظر المصباح المنير — ص ٨٣٩) .

(٣) قال الفيومى و ضم السين للاتباع لغة (المصباح — ص ٣٤٧) .

(٤) فى نص الفيومى : « موضع » .

(٥) هذا على قول الفيومى تفسير الرسغ من الدواب فقط .

(٦) فى النقل (لا تشتكى) من الافتعال و هو مخل بالوزن ، و التصويب عن اللسان (ج ١ ص ٣٠٨ ، ج ١٠ ص ٣٠٩) و تاج العـــروس (ج ١ ص ٢١٤ ، ج ٦ ص ١١) .

(٧) هذا تفسير الرسغ للانسان عند الفيومى و فى نصه : ما بين الكف و الساعد و القدم إلى الساق (المصباح — ص ٣٤٧) و فى الأساس (ط الهند) هو موصل الكف إلى الساعد و القدم إلى الساق .

(٨) هذا تفسير الكوع عند ابن دريد (أنظر الاشتقاق — ص ٤٧٤) .

(٩) زاد فى التاج — « والقدمين » — (تاج العروس ج ٦ ص ١٢) .

ذلك من كل دابة ، و جمعه أرساغ و أرسغ (١) — قال أبو زيد الطائي (٢) يصف الأسد :

كأنما يتفادى أهل ود هم (٣) من ذي زوائد (٤) في أرساغه فدع

وقال رؤبة بن العجاج (٥) :

مستفرغ النعل شديد الأرسغ (٦)

و على هذا القدر وقع الاختصار في الجواب مع الانتخاب و ترك الاسهاب ومن أراد الزيادة فعليه بشرحي على القاموس المسمى بتاج العروس ، و كتب الفقير محمد مرتضى الحسيني غفر له في ربيع الأول سنة تسعين و مائة و ألف هجرية ، حامداً لله عز وجل ومصلياً ومسلماً ومستغفراً .

(١) هذا الجمع أغفله الزمخشري والفيومي وابن منظور .

(٢) حرملة بن المنذر بن معدى كرب من بني هنئ بن عمرو ، كان لهجاً بوصف الأسد ، أنظر له جمهرة أنساب العرب — ص ٤٠١ والشعراء — ص ١٠١

(٣) في الطرائف الأدبية : أهل بعضهم (ص ٩٩) و الذي ههنا ورد أيضاً في تاج العروس (ج ٦ ص ١٢) .

(٤) في رواية شمر : مقابل الخطو . بدل من ذي زوائد (أنظر اللسان ج ١٠ ص ١١٧) أو أنه صدر بيت آخر لأبي زيد على ما يبدو من صنع الزبيدي حيث أنشده مع هذا العجز :

ضبارم ليس من الظلماء هياباً

(تاج العروس — ج ٥ ص ٤٤٨) .

(٥) أنظر له جمهرة أنساب العرب — ص ٢١٥ والشعراء ص ٢٣٠ — ٢٣١

(٦) قارن تاج العروس (ج ٦ ص ١٢) .

كعب بن مالك الأنصارى ، و نموذج من شعره

— ٢ —

سعيـــد الأعظمى

وفى هذه الغزوة استشهد حمزة بن عبد المطلب ، عم رسول الله وغيره من الشهداء فمثل بهم المشركون غيظاً و عداوة و بقرت هند بنت عتبة عن كبد حمزة بن عبد المطلب فلاكتها ، ولما فرغ الناس للقتلى بعد عودة المشركين من أحد ، وبدأوا يبحثون عنهم سأل رسول الله ﷺ عن سعد بن الربيع فبحث عنه رجل من الأنصار (١) فوجده جريحاً فى القتلى و به رمق ، فقـال له : أمرنى رسول الله ﷺ أن أنظر فى الأحياء أنت أم فى الأموات ؟ قال : أنا فى الأموات ، فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام ، و قل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما يجزى نبياً عن أمته ، و أبلغ قومك عنى السلام و قل لهم : « إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف (٢) ».

و أشرف رسول الله ﷺ على القتلى يوم أحد فقال : أنا شهيد على هؤلاء ، إنه ما من جريح يجرح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه ، اللون لون دم و الريح ريح مسك ، أنظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن ، فاجعلوه أمام أصحابه فى القبر ، و كانوا يدفنون الاثنين و الثلاثة فى القبر الواحد .

---

(١) هو محمد بن مسلمة ، كما ذكره الواقدى .

(٢) نستطيع أن نقدر بهذا مدى حب الصحـابة رضى الله عنهم لرسول الله ﷺ و تفانيهم فى سبيل الاسلام و أنهم لم يهتموا بشئ حتى بأنفسهم أمام أداء المسؤلية و إعلاء كلمة الله .

« وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة بن عبد المطلب فوجده ببطن الوادى قد بقر بطنه عن كبده ومثل به ، فجدع أنفه و أذناه ، فحزن رسول الله ﷺ بهذا المنظر و قال : لن أصاب بمثلك أبداً ، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا ، ثم أمر بحمزة فسجى ببردة ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة فصلى عليهم وعليه معهم حتى صلى عليه ثنتين و سبعين صلاة » .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكانت شقيقته ، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام : القها فأرجعها لاترى ما بأخيها ، فقال لها : يا أمه : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى ، قالت : و لم و قد بلغنى أن قد مثل بأخى و ذلك فى الله فما أرضانا بما كان من ذلك ، لأحتسبن و لأصبرن إن شاء الله ، فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك قال : خل سبيلها ، فأتته فنظرت إليه ، فصلت عليه و استرجعت و استغفرت له ، ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن (٣) .

و حزن المسلمون لما حزن له رسول الله ﷺ و قالوا فى ذلك أبياتاً أو قصائد من الشعر و من بينهم كعب بن مالك الذى رثى لحمزة بن عبد المطلب و قتلى أحد فقال قصيدته التى قالها فيهم و بدأها بقوله :

نشجت و هل لك من منشج ... و كنت متى تذكر تلجج (٤)

تذكر قوم أتانى لهم ... أحاديث فى الزمن الأعوج

فقلبك من ذكرهم خافق ... من الشوق و الحزن المنضج

و قتلاهم فى جنان النعيم ... كرام المداخل و المخرج

---

(٣) اقرأ السيرة النبوية لابن هشام ج /٣ ذكر غزوة أحد .

(٤) نشجت بمعنى بكيت ، و النشيج صوت البكاء ، تلجج من اللجج و هو التمادى و الاصرار على شئ ، بغك الادغام .

بما صبروا تحت ظل اللواء ... لواء الرسول بذى الأضوج (١)
غـــداة أجابت بأسيافها ... جميعاً بنو الأوس والخزرج
و أشياع أحـــمد إذ شايعوا ... على الحق ذى النور والمنهج (٢)
فما برحوا يضربون الكماة ... و يمضون فى القسطل المرهج (٣)
كذلك حتى دعاهم مليك ... إلى جنة دوحـــة المولج (٤)
فكلهم مات حر البلاء ... على ملة الله لم يخرج (٥)
كحمزة لمـــا وفى صادقاً ... بذى هبـــة صارم سلجج (٦)
فلاقاه عبـــد بنى نوفل ... يبربر كالجمـــل الأدعج (٧)
فأوجره حربة كالشهاب ... تلهب فى اللهب الموهج (٨)
و نعمان أوفى بميثاقـــه ... و حنظلة الخير لم يحنج (٩)
عن الحق حتى غدت روحـــه ... إلى منزل فاخر الزبرج (١٠)

(١) أضوج بضم الواو جمع ضوج ، منعطف الوادى ، والأضوج ، اسم مكان بعينه.

(٢) شايعوا ، بمعنى تابعوا ، المنهج ، الطريق الواضح .

(٣) القسطل ، الغبار الساطع فى الحرب ، المرهج ، بفتح الهاء ، الغبار المثار .

(٤) الدوحة ، الشجرة العظيمة ذات الأغصان الكثيرة ، المولج ، موضع الدخول .

(٥) حر البلاء ، يعنى خالص البلاء و الاختبار .

(٦) بذى هبة بتشديد الباء ، يريد بهبة السيف وقوعه بالعظم ، سلجج ، من الطعام ما يكون سهل الابتلاع لذيذاً ، والمراد به هنا ، سيف مرهف ، يصل إلى العظم بلا عسر .

(٧) يبربر ، يصيح فى غضب ، الأدعج ، الأسود .

(٨) أجره ، بمعنى طعنه بالرمح فى فيه ، الموهج ، الموقد .

(٩) لم يحنج ، يعنى لم ينصرف عن جهته التى أرادها ، عن الحق .

(١٠) الزبرج ، الزينة من وشى أو نحوه .

البعث الإسلامي

أولئك لا من ثوى منكم من النار فى الدرك المرتج (١)

و سمع المشركون هذه القصيدة الغراء فى شهداء أحد و سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب فطلبوا شاعرهم الكبير ضرار بن الخطاب الفهرى أن يجيب عليها فأجاب بقصيدة مماثلة و مطلعها :

أ يجزع كعب لأشياعه و يبكى من الزمن الأعوج (٢)

عير فيها المسلمين بمصارع الشهداء ، و افتخر بقريش و جماعة المشركين و ما أبلوا فى الحرب من بلاء حسن - كما زعم - حتى ختم قصيدته بهذا البيت .

فدسناهم ثم حتى انثنوا سوى زاهق النفس أو محرج

وقد وجد الشعراء مجالا واسعاً فى هذه المناسبة ففاضت قرائحهم بأبيات وقصائد من الشعر ، و كثير منهم عاود الكلام و كرر القريض ، فهذا عمرو بن العاص الشاعر القرشى أنشد قصيدة أخرى حول هذه الحرب تظاهر فيها بالفخر و الاعتزاز بنفسه و قومه . و هذا مطلع القصيدة :

لما رأيت الحرب ينزو شرها بالرصف نزوا

رد عليه كعب بن مالك بقصيدة غراء خاطب فيها أهل قريش وهددهم بالمصير المظلم ما داموا متعنتين ، و عيرهم بالكفر و الكذب الذى اعتمدوا عليه فى بيان مفاخرهم و بطولاتهم ، و أكدلهم أن القتل الذى تعيروننا به إنما هو شهادة لنا ، و فضيلة لا تعادلها نعمة ، و أن المسلمين يمارسون الحرب طاعة لله و الرسول لا نزولا على الهوى و إشفاءاً لغليل الحقد والنقمة ، فكيف يستوى الكافر والمؤمن ، و لننشد الآن هذه القصيدة :

---

(١) الدرك بالفتح و الدرك بالسكون ، بمعنى أقصى قعر الشئ .

(٢) بعض أهل العلم ينكرها لضرار بن الخطاب الفهرى ، هكذا قال ابن هشام فى سيرته .

أبلغ قريشاً و خير القول أصدقه — و الصدق عند ذوى الألباب مقبول
أن قد قتلنا بقتلانا سراتكم — أهل اللواء ففيما يكثر القيل (١)
و يوم بدر لقيناكم لنا مدد — فيه مع النصر ميكال و جبريل
إن تقتلونا فدين الحق فطرتنا — و القتل فى الحق عند الله تفضيل
و إن تروا أمرنا فى رأيكم سفهاً — فرأى من خالف الاسلام تضليل
فلا تمنوا لقاح الحرب و اقتعدوا — إن أخا الحرب أصدى اللون مشغول (٢)
إن لكم عندنا ضرباً تراح له — عرج الضباع له خذم رعابيل (٣)
إنا بنى الحرب نمريها و ننتجها — و عندنا لذوى الأضغان تنكيل (٤)
إن ينج منها ابن حرب بعد ما بلغت — منه التراقى، وأمر الله مفعول (٥)

---

(١) سراة، جمع سرى، وجهاء القوم و خيارهم . السرى، السيد الشريف السخى، صاحب المروءة، جمعه سراة، و سرى، و أسرياء، و السراة، بمعنى الظهر . مفرد، و جمعه سروات، و يقال : سروات القوم، سادتهم .

(٢) اللقاح : ماء الفحل من الابل و الخيل، ولقاح الحرب، نموها وزيادتها، أصدى اللون، ما يشبه لونه لون الصدأ الذى يعلو الحديد، و هو ما بين السواد و الحمرة .

(٣) تراح، من راح يراح راحة و رياحة و أريحية، للأمر . إذا فرح به و أقبل عليه، عرج، جمع أعرج، وضباع، جمع ضبع، سبع معروف، خذم . قطعة من شئ، و المراد هنا قطع اللحم، رعابيل، جمع رعبولة، القطعة من اللحم .

(٤) نمريها، بمعنى نستدرها، ننتجها : من نتاج الناقة، بمعنى نولدها .

(٥) بلغت منه التراقى، يعنى شارف الموت .

فقد أفادت له حلماً و موعظـة ... لمن يكون له لب و معقول

و لو هبطتم ببطن السيل كالحكم ... ضرب بشاكلة البطحاء ترعيل (١)

تلقاكم عصب حول النبى لهم ... مما يعدون للهيجاء سرابيل (٢)

من جذم غسان مسترخ حمائلهم ... لا جبناء و لا ميل معازيل (٣)

يمشون تحت عمايات القتال كما ... تمشى المصاعبة الأدم المراسيل (٤)

أو مثل مشى أسود الظل ألثقها ... يوم رذاذ من الجوزاء مشمول (٥)

فى كل سابغة كالنهى محكمة ... قيامها فلج كالسيف بهلول (٦)

ترد حد قرام (٧) النبل خاسئة ... ويرجع السيف عنها وهو مغلول

---

(١) شاكلة : طرف ، البطحاء : وجمعها بطاح وبطائح : مسيل من الوادى واسع فيه رمل و دقاق الحصى . ترعيل : تقدم فى الحرب سريع .

(٢) عصب : جمع عصبة ، الجماعة .

(٣) الجذم بكسر الجيم : الأصل ، حمائل : جمع حمالة و حميلة ، بمعنى علاقة السيف ، ميل : جمع أميل ، من يميل على سرج الخيل إلى جانب ، معازيل ، جمع معزال : من لا سلاح معه .

(٤) عمايات القتال : ظلماته ، المصاعبة ، جمع مصعب : الفحل ، الفرس الذى صار صعباً لعدم الركوب ، الأدم جمع آدم ، بمعنى أسمر اللون . المراسيل جمع مرسال ، ناقة سهلة السير .

(٥) ألثقها بمعنى بللها الرذاذ ، المطر الخفيف ، الجوزاء ، برج فى السماء ، مشمول ، الذى هبت عليه ريح الشمال .

(٦) سابغة ، المراد بها الدرع الكاملة المحكمة النسج ، النهى ، الغدير من الماء أو شبهه ، قيامها ، أى ما تقوم به الدرع وعمادها ، فلج : الصبح ، ومعناه النهر كذلك ، بهلول : أبيض اللون ، ضحاك .

(٧) قرام : موضع الجلدة التى تقطع من أنف البعير ، و قرام النبل : سنانها .

و لو قذفتم بسلع عن ظهوركم — و للحياة و دفع الموت تأجيل
ما زال فى القوم وتر منكم أبداً — تعفو السلام عليه وهو مطلول(١)
عبد و حر كريم موثق قنصاً — شطر المدينة، مأسور ومقتول(٢)
كنا نومل أخراكم فأعجلكم — منا فوارس لا عزل و لا ميل
إذا جنى منكم الجانى فقد علموا — حقاً بأن الذى قد جر محمول
ما نحن لا نحن (٣) من اثم مجاهرة — و لا ملوم، و لا فى الغرم مخذول

و هذه قصيــدة قالها كعب بن مالك، و هو يرثى سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، و هى تتضمن معانى الألم و الحزن على الصنيعة التى قام بها المشركون نحوه، و معانى الاستبشار و الفرح بالشهادة التى أكرمه الله بها، فيدخل الجنة باذن الله تعالى، بينما يدخل قتلى المشركين نار جهنم خالدين فيها أبداً.

طرقت همومك فالرقاد مسهــد — وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد(٤)
ودعت فؤادك للهوى ضمرية — فهواك غورى و صحوك منجد (٥)

---

(١) تعفو عليه، بمعنى تطلبه، يريد أن الحجارة تطلب انتقامها منهم على ذلك الدم المهدر، الوتر، الانتقام، السلام، جمع سلمة بكسر اللام: الحجارة. مطلول. الدم المهدر الذى لم يثأر له.

(٢) موثق قنصاً: مشدد صيده بالوثاق، شطر المدينة: بمعنى توجه إلى المدينة

(٣) و فى النسخة الألمانية من السيرة النبوية لابن هشام (ما يجن لا نجن).

(٥) مسهد من السهد، و هو عدم النوم (الأرق) أو قلة النوم، و المعنى رقاد مسهد. سلخ بمعنى انقضى و مضى، الأغيد، الناعم.

(٦) و دعت. تركت، أو الواو للاستئناف، و، دعت: فعل ماض للمؤنث، من، دعا. ضمرية: نسبة إلى قبيلة ضمرة، و المراد حبيبة ضمرية، غورى نسبة إلى الغور و هو المنخفض من الأرض، منجد، نسبة إلى النجد وهو المرتفع من الأرض.

فدع التمادى فى الغواية سادراً ... قد كنت فى طلب الغواية تفند (١)

و لقد أنى لك أن تناهى طائعاً ... أو تستفيق إذا نهاك المرشد

و لقد هددت لفقد حمزة هدة ... ظلت بنات الجوف منها ترعد (٢)

و لو أنه فجعت حراء بمثله ... لرأيت راسى صخرها يتبدد (٣)

قرم تمكن فى ذوابة هاشم ... حيث النبوة و الندى والسودد (٤)

و العاقر الكوم الجلاد إذا غدت ... ريح يكاد الماء منها يجمد (٥)

و التارك القرن الكمى مجدلا ... يوم الكريهة و القنا يتقصد (٦)

و تراه يرفل فى الحديد كأنه ... ذو لبدة شثن البراثن أربد (٧)

عم النبى محمد وصفيه ... ورد الحمام فطاب ذاك المورد (٨)

و أتى المنية معلماً فى أسرة ... نصروا النبى و منهم المستشهد (٩)

---

(١) تفند : بمعنى يكذب رأيك .

(٢) بنات الجوف ، يريد بها القلب وما يحويه .

(٣) حراء ، جبل ، وضمير المونث إليه على تأويل بقعة .

(٤) القرم : السيد الشريف ، ذوابة بمعنى قمة .

(٥) الكوم ، جمع كوماء ، ناقة عظيمة السنام ، الجلاد ، ذات القوة ، و تجمد الماء بالريح الباردة ، كناية عن شدة الشتاء ، وأيام الجدب والجفاف .

(٦) مجدلا : مصروعاً ، على الأرض ، يتقصد : بمعنى يتحطم .

(٧) ذو لبدة : يريد به الأسد ذا اللبدة ، و اللبد : الشعر الذى يكون على كتفى الأسد ، أربد : الأغبر .

(٨) الحمام : بكسر الحاء ، الموت .

(٩) معلماً ، بمعنى واسماً نفسه بسمة الحرب .

و لقد إخال بذاك هند أبشرت ... لتميت داخل غصة لا تبرد

مما صبحنا بالعقنقل قومها ... يوماً تغيب فيه عنها الأسعد (١)

و ببئر بدر إذ يرد وجوههم ... جبريل تحت لوائنا و محمد

حتى رأيت لدى النبي سراتهم ... قسمين : يقتل من نشاء و يطرد

فأقام بالعطن المعطن منهم ... سبعون ، عقبة منهم و الأسود (٢)

و ابن المغيرة قد ضربنا ضربة ... فوق الوريد لها رشاش مزبد

و أمية الجمحى قوم ميله ... عضب بأيدى المؤمنين مهند

فأتاك فل المشركين كأنهم ... و الخيل تثفنهم نعام شرد (٣)

شتان من هو فى جهنم ثاوياً ... أبداً ، ومن هو فى الجنان مخلد

و قال ، يخاطب صفية بنت عبد المطلب و يحثها على البكاء لشقيقها حمزة رضى الله عنه .

صفية قومى و لا تعجزى ... و بكى النساء على حمزة

و لا تسأمى أن تطيلى البكاء ... على أسد الله فى الهزة (٤)

فقد كان عزاً لأيتامنا ... و ليث الملاحم فى البزة (٥)

يريد بذاك رضا أحمد ... و رضوان ذى العرش والعزة

(١) صبحنا قومها ، فاجئنا قومها وقت الصباح ، العقنقل : الكثيب من الرمل .

(٢) العطن : مبرك الابل حول الماء .

(٣) الفل : الجماعة المنهزمة ، تثفنهم : بمعنى تطاردهم و تقتفى آثارهم

(٤) الهزة ، يريد بها الاهتزاز و الاضطراب فى ساحة الحرب .

(٥) الملاحم جمع ملحمة ، كل حرب يكثر فيها القتل والالتحام ، البزة : السلاح . الثياب ، الهيئة ، و المراد هنا ، السلاح .

و لكعب بن مالك عدة قصائد فى يوم أحد ، تحدث فيها عما جرت فيه من أمور ، وما واجه فيه المسلمون من محنة ، و ما كان فيه من المشركين من تبجح ، فذكر فيها ممارسة المسلمين للقتال ، و اعتمادهم على الله تعالى و ثقتهم فى نصره ، و طاعتهم لله و للرسول ﷺ فى جميع شئون الحياة ، و إليكم هذه القصيدة الطويلة التى تتضمن تسعة و عشرين بيتاً :

إنك عمر أبيك الكريـ ... م أن تسألى عنك من يجتدينا (١)
فان تسألى ثم لا تكذبى يخبرك من قد سألت اليقينا
بأنا ليالى ذات العظا...... م كنا ثمالا لمن يعترينا (٢)
تلوذ البجود بأذرائنا من الضر فى أزمات السنينا (٣)
بجدوى فضول أولى وجدنا وبالصبر والبذل فى المعدمينا (٤)

(١) العمر ، بفتح العين و السكون ، الحياة و الدين ، ويقال فى القسم لعمرى ، أى لدينى ، و لعمر الله وعمر الله ما فعلت كذا ، بالنصب على المصدرية ، وإذا أدخلت عليه اللام فلا يجوز فيه إلا الرفع ، و كذلك لعمر أبيك ، وعمر أبيك ، اجتدى : بمعنى طلب جدواه ، و الجدوى : العطية .

(٢) ثمال القوم ، غياثهم الذى يقوم بأمرهم .

(٣) البجود ، جمع بجد ، بمعنى جماعات الناس ، والبجد من الخيل مأة أو أكثر أذراء ، جمع ذرى فناء الدار و نواحيها ، أزمات جمع أزمة وآزمة ، بمعنى الشدة ، و الضيقة ، و القحط ، و يقال : أزم عليه الدهر ، بمعنى اشتد ، السنين ، باعراب الجر جمع سنة ، بمعنى القحط و الجدب .

(٤) الجدوى ، العطية ، الوجد بالضم و الكسر ، بمعنى الغنى ، و القدرة ، المعدم الفقير ، من أعدم المال ، يستعمل لازماً و متعدياً .

و أبقت لنا جلبات الحرو..... ب ممن توازى لدن أن برينا (١)

معاطن تهوى إليها الحقو.. .. ق يحسبها من رآها الفتينا (٢)

تخيس فيها عتاق الجما.........ل صحما دواجن حمراً وجونا (٣)

و دفاع رجل كموج الفرا.........ت يقدم جأواء جولا طحونا (٤)

ترى لونها مثل لون النجو.. .... م رجراجة تبرق الناظرينا (٥)

فان كنت عن شأننا جاهلا فسل عنه ذا العلم ممن يلينا

(١) جلبات، جمع جلم جمع مؤنث سالماً، بمعنى المقص، توازى، بمعنى تساوى، برينا، من برأ، يعنى خلقنا.

(٢) معاطن جمع معطن، مواضع الابل حول الماء، و لكن المراد هنا، الابل نفسها، الفتين، الأرض الحرة السوداء، كأن حجارتها محرقة بالنار، جمعه فتن.

(٣) تخيس بمعنى تذلل، صحم، جمع أصحم، ما لونه بين الخضرة و السواد، دواجن، جمع داجنة، بمعنى مقيمة فى الأرض، جون بفتح الجيم من الأضداد، بمعنى الأبيض و الأسود، و الجون من الخيل والابل، الشديد السواد، جمعه جون بضم الجيم.

(٤) دفاع، ما يندفع من السيل، الرجل يعنى الرجالة، والمراد بها سيل الجماعة الرجالة. جأواء، الكتيبة التى يكون لونها من كثرة السلاح، كلون السواد و الحمرة، الجول، جانب الجبل، والمراد به الكتيبة الضخمة، طحون: من الطحن صيغة المبالغة.

(٥) الرجراجة، كثيرة الحركة و الاضطراب

بنا كيف نفعل إن قلصت عواناضروساًعضوضاًحجونا (١)
ألسنا نشد عليها العصا ......ب حتى تدر ، و حتى تلينا (٢)
و يوم له وهج دائم شديد التهاول حامى الأرينا (٣)
طويل شديد أوار القتا .. ....ل تنفى قواحزه المقرفينا (٤)
تخال الكماة بأعراضه ثمالا على لذة منزفينا (٥)
تعاور أيمانهم بينهم كئوس المنايا بحد الظبينا (٦)
شهدنا فكنا أولى بأسه و تحت العماية و المعلمينا (٧)

---

(١) قلصت بمعنى انقبضت ، و لكن المراد هنا اشتدت الحرب ، عوانا ، الحرب العوان : أشد الحروب ، حرب ضروس ، شديدة مهلكة ، عضوض : كثيرة العض : حجون ، كثيرة اعوجاج الأسنان .

(٢) العصاب : ما يشد به ضرع الناقة .

(٣) الوهج بفتح الهاء : حر النار أو الشمس الشديد ، و المراد به هنا الحرب التى يشتد أوارها ، التهاول : الهول و الخوف ، الأرين : مستوقد النار .

(٤) أوار القتــال : حره ، قواحز جمع قحز : بمعنى الاضطراب و القلق ، المقرف : النذل ، اللئيم .

(٥) أعراض ، أطراف ، ثمال : جمع ثمل ، بمعنى سكارى ، منزفون : من ذهبت الخمر بعقولهم ، و فى رواية مترفون ، بمعنى متنعمون .

(٦) تعاور بمعنى تداول ، أيمـانهم : يعنى أيديهم ، الظبين فى حالة الجر : جمع ظبة على وزن جمع السالم ، بمعنى ، حد السيف أو السنان .

(٧) العماء و العماية : السحاب المرتفع ، المعلمين ، الذين يعلمون أنفسهم بعلامة فى الحرب فيعرفون بها .

بخرس الحسيس حسان رواء	و بصرية قد أجن الجفونا (١)
فما ينفللن و ما ينحنين	و ما ينتهين إذا ما نهينا
كبرق الخريف بأيدى الكماة	يفجعن بالطل هاماً سكونا (٢)
و علمنا الضرب آباؤنا	و سوف نعلم أيضاً بنينا
جلاد الكماة ، و بذل التلا	د عن جل أحسابنا ما بقينا (٣)
إذا مر قرن كفى نسله	و أورثه بعده آخرينا (٤)
نشب و تهلك آباؤنا	و بينا نربى بنينا فنينا
سألت بك ابن الزبعرى فلم	أنبأك فى القوم إلا هجينا (٥)
خبيثاً تطيف بك المنديات	مقيماً على اللؤم حيناً فحينا (٦)

(١) خرس : جمع أخرس ، الذى لا صوت له ، الحسيس : الصوت الخفى ، ويعنى بذلك السيوف الصامتة ، رواء ، جمع ريان ، من الرى ، ضد العطش ، بصرية : بضم الصاد ، نسبة إلى بصرى ، أجن ، المراد بها سمن ، وغضبن ، جفون جمع جفن بمعنى الغمد .

(٢) بالطل : يعنى باهدار الدم ، و يروى بالظل ، و المراد به ظلال السيوف اللامعة ، هاماً سكوناً ، يعنى رؤساً ثابتة لم تفصل من الجسم بعد .

(٣) جلاد الكماة ، مفعول ثان لفعل نعلم ، فى البيت السابق ، و الجلاد معناه المضاربة بالسيوف ، و الكماة ، جمع كمى بمعنى الشجاع ، التلاد : المال الموروث القديم ، جل بمعنى كل .

(٤) القرن بالكسر : النظير فى الشجاعة أو العلم أو ما أشبههما .

(٥) هجين : اللئيم ، أو الذى أبوه عربى و أمه أمة غير محصنة .

(٦) المنديات ، الأمور التى يتندى لها جبين الحياء .

تبجست تهجو رسول المليـ ......ك قاتلك الله جلفا لعينا (١)

تقول الخنا ثم ترمى به نقى الثياب تقياً أمينا (٢)

و قال أيضاً فى يوم أحد ، يخاطب فيها قريشاً و يسألهم عما إذا كانوا قد جربوا شدة شكيمة المسلمين و مراسهم الحرب فى ظل التربية النبوية الحكيمة التى تلقوها من رسولهم الكريم ﷺ :

سائل قريشاً غداة السفح من أحد ماذا لقينا و ما لاقوا من الهرب

كنا الأسود و كانوا النمر إذ زحفوا ما إن نراقب من إل و لا نسب

فكم تركنا بها من سيد بطل حامى الذمار كريم الجد والنسب (٣)

فينا الرسول شهاب ثم يتبعه نور مضيئ ، له فضل على الشهب

الحق منطقه ، و العدل سيرته فمن يجبه إليه ينج من تبب (٤)

نجد المقدم ماضى الهم ، معتزم حين القلوب على رجف من الرعب (٥)

يمضى و يذمرنا عن غير معصية كأنه البدر لم يطبع على الكذب (٦)

بدا لنا فاتبعناه نصدقه و كذبوه ، فكنا أسعد العرب

جالوا وجلنا فما فاؤا وما رجعوا و نحن نثفنهم (٧) لم نأل فى الطلب

---

(١) تبجست : بمعنى تفجرت بالكلام ، جلف : غليظ جاف أحمق ، لعين من اللعن .

(٢) الخنا : الفحش من الكلام ، نقى الثياب : بمعنى العفيف الطاهر .

(٣) الذمار : ما يجب حمايته و الدفع عنه من الأهل و العرض و الحرم .

(٤) التبب : مصدر تب بالتشديد بمعنى الهلاك .

(٥) نجد المقدم : بمعنى الشجاع المقدام ، رجف : اضطراب من الخوف شديد .

(٦) يذمرنا ، بمعنى يلومنا مع حض على الأمر ، لم يطبع : لم يخلق .

(٧) نثفنهم : ندفعهم و نضربهم .

ليسا سواء، و شتى بين أمرهما حزب الاله وأهل الشرك والنصب(١)

وهذه قصيدة أخرى فى رثاء حمزة بن عبد المطلب أنشدها أبو زيد الأنصارى لابن هشام، و لكن ابن اسحاق ينسبها إلى عبد الله بن رواحة، و لعل الصواب أنها لكعب بن مالك.

بكت عينى وحق لها بكاها و ما يغنى البكاء و لا العويل

على أسد الاله غداة قالوا أحمزة ذاكم الرجل القتيل

أصيب المسلمون به جميعاً هناك، و قد أصيب به الرسول

أبا يعلى لك الأركان هدت و أنت الماجد البر الوصول (٢)

عليك سلام ربك فى جنان مخالطها نعيم لا يزول

ألا يا هاشم الأخيار صبراً فكل فعالكم حسن جميل

رسول الله مصطبر كريم بأمر الله ينطق إذ يقول

ألا من مبلغ عنى لؤيا فبعد اليوم دائلة تدول (٣)

وقبل اليوم ما عرفوا و ذاقوا وقائعنا بها يشفى الغليل

نسيتم ضربنا بقليب بدر غداة أتاكم الموت العجيل

غداة ثوى أبو جهل صريعاً عليه الطير حائمة تجول (٤)

و عتبة و ابنه خرا جميعاً و شيبة عضه السيف الصقيل

(١) شتى، بمعنى شتان، النصب: الأصنام و التماثيل التى اتخذت إلها من دون الله.

(٢) أبو يعلى، كنية حمزة بن عبد المطلب. (٣) دائلة: يعنى بها الحروب

(٤) حائمة: من حام يحوم إذا دار من عطش.

و متركنا أمية مجلعباً و في حيزومه لدن نبيل (١)
و هام بني ربيعة سائلوها ففي أسيافنا منها فلول
ألا يا هند فابكي لا تملي فأنت الواله العبرى الهبول (٢)
ألا ياهند لاتبدى شماتا بحمزة ، إن عزكم ذليل

و قال في يوم أحد كذلك :

أبلغ قريشاً على نأيها أتفخر منا بما لم تلي (٣)
فخرتم بقتلى أصابتهم فواضل من نعم المفضل
فحلوا جناناً و أبقوا لكم أسوداً تحامى عن الأشبل (٤)
تقاتل عن دينها وسطها نبي عن الحق لم ينكل (٥)
رمته معد بعور الكلام و نبل العداوة لا تأتلي (٦)

« يتبع »

(١) متركنا ، مصدر ميمي من ترك ، مجلعباً : من اجلعب بمعنى ، اضطجع وامتد ، والمراد به مضطجعاً ممتداً على الأرض ، الحيزوم : وسط الصدر ، جمعه حيازيم ، لدن : بمعنى الرمح اللين : نبيل ، يعنى به عظيماً .

(٢) الواله ، المرأة التي تتحير من شدة الحزن ، وتفقد رشدها . العبرى : كثيرة الدموع ، الهبول : المرأة الثكول ، التي فقدت ولدها .

(٣) لم تلي : بمعنى لم تملك (٤) الأشبل : جمع شبل ، ولد الأسد .

(٥) لم ينكل : لم يتأخر و لم يرجع .

(٦) عور : جمع أعور ، و المراد به الكلام القبيح ، لا تأتلي : من الائتلاء ، بمعنى قصر ، لا تأتلي : لا تقصر .

من بحوث الندوة العالمية للأدب الاسلامى :

الأدب الاســــــلامى
فى تراثنا التاريخى والجغرافى

— الحلقة العاشرة الأخيرة —

الأستاذ الدكتور فتحى عثمان مدير البحوث (سابقاً)
بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية
رئيس تحرير مجلة « العربية » (Arabia)

و تراثنا الجغرافى غنى متنوع كما سلفت الاشارة ، فيه كتب للبلدان إقليميــة و عالمية ، و رحلات حجازية و عالمية ، ومعاجم للبلدان ، و كلها تحمل ذلك الأداء الأدبى المعبر الجميل وهى تسوق الظواهر و المشاهدات و المعلومات الجغرافية المتعددة ، و كل ما سبق من أمثلة و قبسات شاهد على ذلك ، ولنمض فى الاستزادة من تلك المناهل العذبة بهذه الرشفة من (رحلة ابن جبير) . يقول عن الاسكندرية : « ومن مناقب هذا البلد و مفاخره العائدة فى الحقيقة إلى سلطانه : المــدارس و المحارس الموضوعة منه لأهل الطب و التعبد ، يفدون من الأقطار النائية فيلقى كل واحد منهم مسكناً يأوى إليه ، و مدرساً يعلمه الفن الذى يريد أن يتعلمه وإجراء يقوم به فى جميع أحواله ، و اتسع اعتناء السلطان بهؤلاء الغرباء الطارئين ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستانا لعلاج من مرض منهم و وكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم التى يشيرون بها من علاج و غذاء ، و قد رتب أيضاً فيــه أقدام برسم الزيارة للمرضى ... و ينهون إلى الأطباء أحوالهم لينقلوا بمعالجتهم ... و هذا السلطان الذى سن هــذه السنن المحمودة هو صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب وصل الله

صلاحه و توفيقه ... و مآثر هذا السلطان و مقاصده فى العدل و مقاماته فى الذب عن حوزة الدين لا تحصى كثرة » و ابن جبير يقول عن دمشق : « و بهذه البلدة نحو عشرين مدرسة ، و بها مارستانان قديم و حديث ... و هذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الاسلام و المدارس كذلك ، و من أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله ..... » . و ابن جبير يمزج فى عرضه الأدبى الجميل بين حقائق الجغرافيا و وقائع التاريخ : « و قـــد تقدم الذكر فى غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات : صلاح الدين أبى المظفر يوسف بن أيوب ، وماله من المآثر المأثورة فى الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله. . و الشام أكثره بيد الافرنج ، فسبب الله هذا السلطان رحمة للسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوى لراحة ولا يخلد إلى دعة ولا يزال السرج مجلسه .... و قد خرج لمنازلة حصن الكرك ، و هو عليه محاصر حتى الآن و الله يعينه على فتحه .... وقد صفح عن جريرة أحد الجناة عليه فقال : أما أنا فلأن أخطىء فى العفو أحب إلى من أن أصيب فى العقوبة . . . . و حضر أحد مماليكه المتميزين لديه بالحظوة و الاثرة مستوياً على جمال ذكر أنه باعـــه جملا معيباً أو صرف عليه جملا بعيب لم يكن فيه ، فقال السلطان له : ماعسى أن أصنع لك ، وللسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعى مبسوط للخاصة و العامة مذاهبه متمثلة و إنما أنا عبد الشرع و شحنته .... و الشحنة عندهم صاحب الشرطة ... » . ثم استمع إلى ابن جبير يصف عكا وهى مازالت بين براثن الصليبيين : « هى قاعدة مـــدن الأفرنج بالشام و محط الجوارى المنشئات فى البحر كالأعلام ، مرفأ كل سفينة ، و المشبهة فى عظمتها بالقسطنطينية ، مجتمع السفن و الرفاق و ملتقى تجار المسلمين و النصارى من جميع الآفاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام و تضيق فيها مواطىء الأقدام ، تستعر كفراً وطغياناً وتفور

خنازير و صلباناً .... انتزعها الأفرنج من أيدى المسلمين فى العشر الأول من المائة السادسة فبكى لها الاسلام ملء جفونه وكانت أحد شجونه . فعادت مساجدها كنائس و صوامعها مضارب للنواقيس ، و طهر الله من مسجدها الجامع بقعة بقيت بأيدى المسلمين مسجداً صغيراً ... » (١) .

و إذا كان ابن جبير قد أبدع فى وصف الظروف السياسية و الحربيـة التى كانت تعانيها الشام بوجه خاص نتيجة للاحتلال الصليبى والجهاد-الاسلامى لاقتلاعه. فان عبد اللطيف البغدادى (المتوفى ٦٢٩هـ) قد أبدع فى وصف ظروف الأزمة الاقتصادية وما صاحبها من كوارث اجتماعية ، و لقد دقق تدقيق الطبيب البحاثة فى مشاهداته و معايناته التى أودعها كتابه (الافادة و الاعتبار) . و أبرز البغدادى خصيصتين للنيل : أولاهـا طوله إذ لا يعلم فى المعمورة نهر أبعد منـه مسافة ، و ثانيهما أنه يزيد عند ما تنضب جميع الأنهار فى سائر الدنيا و تتناهى زيادته عد الاعتدال الخريفى . وحين يصف البغدادى القحط الذى أصاب مصر ٥٩٧—٥٩٨هـ، يسوق صوراً مروعة لما أصاب المجتمع المصرى من بلاء. يقول: « فأقحطت البلاد و انضوى أهل السواد و الريف إلى أمهات البلاد ، و انجلى كثير منهم إلى الشام و المغرب و اليمن ، و تفرقوا فى البلاد أيادى سبأ ، و مزقوا كل ممزق ، ودخل إلى القاهرة و مصر منهم خلق عظيم ، و اشتد بهـم الجوع و وقع فيهم الموت و وقع المرض ، و اشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات و الجيف و الكلاب و البعر و الأوراث ، ثم تعـدوا ذلك إلى أن أكلوا صغاربنى آدم فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفـاعل .... لم أر فيهـم من يعجب لذلك أو ينكره فعاد تعجبى

(١) رحلة ابن جبير : تحقيق حسين نصـار — القـاهرة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م ص ١٠ — ١١ ، ٢٧٢ . ٢٨٦ — ٢٨٧ ، ٢٩٣ .

أشد ، وما ذلك إلا لكثرة تكرره على إحساسهم حتى صار فى حكم المألوف الذى لا يتعجب منه . » . على أن الأزمة أكلت نفسها بعد أن بلغت دروتها فلم تعد تجد ما تطحنه ، وقد لاحظ البغدادى ذلك وحاول تعليل الأمر فقال : «فتناقص موت الفقراء لقلتهم لا لارتفاع السبب الموجب ، و تناقص أكل بنى آدم ثم انقطع خبره أصلا . وقل خطف الأطعمة من الأسواق . و ذلك لفناء الصعاليك و قتلهم ى المدينة ، و انحطت الأسعار حتى عاد الأردب بثلاثة دنانير لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول . وخفت المدينة بأهلها ، واختصرت واختصر جميع ما فيها . . . . وألف الناس الغلاء و استمروا على البلاء حتى عاد ذلك كأنه مزاج طبيعى » (١) .

و بعـــــد :

فلقد جاء الأدب الاسلامى فى تراثنا التاريخى والجغرافى أداة و وسيلة وسبيلا للتعبير عن وقائع و مشاهدات .. وأقتبس مرة أخرى كلمات منظمى هذه الندوة : « إن هذا الأدب الطبيعى الجميل القوى كثير و قديم فى المكتبة العربية ، بل هو أكبر سناً وأسبق زمنا من الأدب الصناعى ، فقد دون فى كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعى فى كتب الرسائل و المقامات ، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء و الباحثين وعنايتهم ما حظى به الأدب الصناعى ، مع أنه هو الأدب الذى تجلت فيه عبقرية اللغة العربية و أسرارها وبراعة أهل اللغة و لباقتهم ، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى » .

لقد أثبت هذا الأدب العلمى طاقات اللغة العربية و قدراتها الهائلة على التعبير عن حقائق العلم ، و طواعيتها فى الاشتقاق و النحت ، و مرونتها فى قبول الاقتباس

(١) البغدادى : الافادة والاعتبار ـ القاهرة ١٩٣٤م . ص ٤٨ ـ ٥٠ ، ٥٧ .

و أصالتها فی دمغ المقتبس من الألفاظ بطابعها وصهره فی قالبها ، جرسها و أصواتها و تشکیله بأشکالها ......

و إن التقسیم الشائع المتعارف للنثر العربی إلی نثر فنی و نثر غیر فنی یدخل فیه النثر العلمی بمافی ذلك النثر الذی یحفل به تراثنا فی علوم الدین و التربیة و الأخلاق والتاریخ والجغرافیا ، جدیر بأن یفکر تفکیراً جاداً رصیناً متعمقاً فی الاستبدال به کأن یقال نثر الصناعة و النثر الوظیفی ، و هو النثر الذی وظف للأداء و التعبیر الجمیل عن حقائق و مضامین تقریریة واقعیـــة . بأسلوب یترفع عن التقریر الساذج والوصف الرکیك للواقع ، ویعزز جماله الذی لم تخالطه الصنعة والتعقید أداء للحقائق العلمیة و إیصالها لعقول الناس و قلوبهم دون أن تطغی زخارف البهرجة اللفظیة علی ما یحمله و ما یؤدیه من حقائق و مضامین .

و ما أجل الیـــد التی ساقتها هذه الندوة لهذا الأدب الاسلامی المتغلغل فی مختلف مجالات التعبیر و الأداء ، و الحامل لمنجزات الحضارة الاسلامیـــة الزاهرة خلال القرون .

و الله المسئول أن یبارك القصد ، و یأخذ بأیدینا ، و یربط علی قلوبنا ، و یثبت أقدامنا ، و یرینا الحق حقاً و یرزقنا اتباعه ، و یعیننا علی تبعاته و أعبائه و دعوة الناس أجمعین إلیه ..

و الحمد لله رب العالمین . وصلی الله وسلم علی الرسول الکریم .

٩/ من جمادی الآخرة ١٤٠١هـ .

١٤/ ٤/ ١٩٨١م .
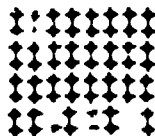
مؤتمر دول الكومنولث أو فترة استجمام

واضح رشيد الندوى

انعقدت اجتماعات دول الكومنولث البريطانى فى دورة انعقاد المؤتمر فى دلهى الجديد ، وفى حالة استجمام فى « جوا » فجمعت المحادثات التى جرت بين زعماء دول الكومنولث بين العمل و الراحة ، و قد وفرت الهند الدولة المضيفة للمؤتمر أقصى وسائل الراحة و الاستمتاع و الهدوء ، أو كما وصفه بعض الضيوف بالجو المنزلى المألوف ، لكيلا يشعروا بالغربة فى الهند ، ويأخذوا الاستراحة . و بلغ من اهتمام المضيفين براحة الضيوف أنهم أعدوا أطعمة و أشربة حسب ذوق كل ضيف ، فضلا عن حاجته ، و نقلت الصحف تفاصيل مذهلة عن الاجراءات و الترتيبات للمؤتمر ، و وسائل التسلية و المتعة و ألوان الأطعمة و الأشربة ، و التفنن فيها و رعاية طبيعة الذوق لكل ضيف من الضيوف الذين قدموا من مختلف بقاع العالم ، لأن لكل بقعة اتجاهات و ميولا غذائية و اجتماعية و ثقافية خاصة .

كانت العناية بتلبية رغبة كل ضيف و تأمين راحته كأنهم كانوا مرهقين بأعباء دولهم أو مطاردين من شعوبهم فلم يذوقوا النوم منذ أمد بعيد . و لم تتح له فرصة الاستراحة لسهرهم فى خدمة الوطن أو حل المشاكل فكانوا فى أشد حاجة إلى استجمام أو استراحة ، فاستضافتهم الهند لتخفف عنهم و طأة الحكم المرهق فى بلادهم .

و قد يصدق ذلك فى حق عدد من الزعماء الذين اشتركوا فى المؤتمر ، فانهم حقاً يعيشون فى بلادهم مغمورين بالمشاكل و المسائل . أو يعيشون فى بلادهم فى حالة

خوف و ذعر شديدين من ثورة عسكرية ، أو فى حالة خوف لهجوم و غزو من البلاد المجاورة .

حالة من هذه الحالات النفسية الثلاث تصدق على كل بلد اشترك فى المؤتمر ، و لا يخلو بلد من البلدان فى العالم اليوم من إحدى هذه الحالات ، إما تذمر سياسى فى البلاد أو مشاكل إقتصادية أو سياسية ، أو طائفية تهز الكيان السياسى ، وتهدد النظام القائم ، أو جو أطماع فى كوادر الجيش فى الحكم أو تدهور العلاقات مع البلدان المحايدة من أجل التدخل فى شئونها ، و أعمال التحريض و الاثارة للطامعين فى الحكم فيها ، ما يسبب الاستفزاز ويثير على الغزو العسكرى ، أوالحرب الباردة.

و بسهولة تامة يمكن تطبيق حالة من هذه الحالات على أى بلد من البلدان ، بما فيها بريطانيا الدولة الأم لكومنولث و مربية البلدان التى استعمرتها و الهند التى تزعم أنها رائدة التعايش السلمى و عدم الانحياز .

و لنأخذ مثلا بريطانيا ، فانهـا بمثابة الأم الحنون لدول الكومنولث الدول التى كانت مستعمراتها السابقة ، و فيها دول لا يتعدى عدد سكانها عن مآت ألوف ، و بعضها لا تملك جيشا ، و لاوسيلة للدفاع عنها ، وأنما هى أجزاء من بلد إقتطعتها بريطانيا لتفرض عليها سيطرتها بصورة دائمة ، و قد أثارت بريطانيا قبل مدة قصيرة زوبعة بغزو فولكلندة ، وهى التى تتحمل مسئولية دماء الملائين من الأبرياء فى فلسطين لغرس إسرائيل فى أرض العرب عنوة وتشريد سكان البلاد الأصليين كما تتحمل هى مسئولية الدماء التى اريقت ولا تزال تراق فى الهند لأنها انتهجت سياسة فرق تسد خلال حكمها فغرست الاحقاد فى قلوب سكانها ، و خلقت مشاكل طائفية و دينيـة ، و نعرات قومية وثقافية لا تزال تهدد البلاد بالتقسيم والتمزق بعد أن انقسمت إلى ثلاث دول ، ولها عهد طويل عريق فى الاستعمار و التدخل العسكرى و التامر ، و يجد الدارس

للتاريخ إن معظم المشاكل فى العالم اليوم هى من غرس بريطانيا أولها سهم فيها ، ومن ثم ترجع معاناة البشرية اليوم ، إلى أكبر حد ، إلى سياسة الاستعمار البريطانى نفسه، فضلا عن سهمها فى الحربين الكونيتين ، فلو كان للظلوم حق مشروع ومسموع اليوم و كانت الانسانية تقدر على تقديم قضيتها ، لكانت طالبت بمحاكمة بريطانيا و معاقبتها ، كما حوكم النازيون الألمانيون .

لقد عانت كثير من البلدان التى تشترك الآن فى الكومنولث ، من شقاء وحرمان و استبداد وجور ، و افتراء وتزوير ، وإهانة لثقافتها و تاريخها ، و قيمها الموروثة و استغلال لمواردها الطبيعية ، و اراقة لدماء قادتها ومواطنيها الأحرار فى عهد الحكم البريطانى و من تمزق لشملها ما لا يجهله التاريخ المعاصر ، و لا تزال بريطانيا رغم هزالها و هرمها تشجع حركات الانفصال و تساند حكومات تمارس التمييز العنصرى ، و تؤيد حكومات الأقليات ، و لها يد خفية فى مشاكل كثير من البلدان الآسيوية و الأفريقية ، و لكن الحكام فى معظم هذه البلدان تربوا فى أحضانها ، فيؤدون حق الولاء و الوفاء لها ، و إلا لكانت جديرة بأن تقف فى قفص الاتهام وأن لا تكون ضيف شرف بل ضيفاً غير مرحب به فى المؤتمرات و اللقاءات الدولية .

إن جرائم بريطانيا لم تنته بانتهاء حكمها ، بل تستمر لأنها أعدت أجيالا من القادة و المفكرين و المثقفين الذين انسلخوا من شخصيتهم القومية و الثقافية ، و انحرفوا من مصالح بلادهم و رغبات شعوبهم ، ويسيرون على خطى سادتهم الانجليز ، بالقمع و الكبت ، و اذلال الشعوب ، و احداث المشاكل و التدسيس ، و المؤامرات ، وبسبب هذه السياسات الاصطناعية الاستعمارية ، لا يهدأ بالهم ولا يهدأ بال شعوبهم ، فهم فى حاجة إلى استجمام بين حين و آخر ، و استشارة أستاذهم ، أما المسائل لمصلحتهم تتجه إلى تعقيدها والاكثار منها أو تغطيتها لا حلها وتسويتها ، فتبقى هذه المسائل

على حالها ، و يصدر البيان فى ختام الاجتماع ، أن الزعماء درسوا المسائل فى جو ودى وحثوا على حل عادل لها ، كما يتضح من التصريحات الأخيرة .

إن المؤتمر درس كل مشكلة ولم يتقدم بحل ولا بادانة معتد لأن الادانة بالاسم تثير ردود فعل عنيفة ، وقد حدث ذلك أثناء مناقشة التدخل العسكرى فى غرينادا ، فلوح المدافعون عن أمريكا بعدة دول أخرى فى الكومنولث ، بأنها ارتكبت نفس الجريمة و كانت بريطانيا الدولة الأم فى مقدمة هذه الدول ، و فى سجل دول كثيرة ما هو أكبر من غرينادا .

انعقد مؤتمر الكومنولث و انتهت جلساته و ستنعقد مؤتمرات كما ينعقد مؤتمر نزع السلاح منذ سنين و لكن المسائل ستبقى بل تتقدم مزيداً ، لأن الذين يثيرون هذه المشاكل هم الذين يعقدون هذه المؤتمرات و يشتركون فيها فيتنصلون عن المسؤلية لأنهم ضيوف شرف أو مضيفون .

مراكز التربية الدينية و التربية البدنية

أدهشت الصحافة الهندية الرأى العام بخبر صغير عن وجود مركز للتربية الدينية فى جمو العاصمة الشتوية لولاية كشمير و وجود مصنع للاسلحة داخل المركز الذى يشرف عليه أحد الكهنة الهندوس دهيريندر برهمجارى ، و قد عثر البوليس على أكثر من ٦٠٠ بندقية مصنوعة بأجزاء أسبانية ، و ادعى البوليس أن هذه الأسلحة كانت تباع بصورة غير شرعية إلى عناصر تقوم بأعمال غير مشروعة فى مختلف ولايات الهند ، وادعى الكاهن الهندوكى أن إنتاج الأسلحة كان يجرى بتصريح من حكومة الهند و لذلك لا تتمتع حكومة الولاية بحق إلقاء القبض عليه أو مصادرة الأسلحة وادعى كذلك أن هذا الاجراء الذى اتخذته حكومة الدكتور فاروق عبد الله

يشكل عملية انتقامية ضده ، لأن له صلة وثيقة برئيسة وزراء الهند إندرا غاندى ، و أن مركزه كان مرخصاً له ، وأفادت الأنباء أنه يملك طائرة خاصة و يستخدم مطاراً خاصا له .

ومهما تكن نتائج المحاكمة التى تجرى حول هذه القضية فان القضية ليست كما أعرب عنه أحد القضاة فى المحكمة مسألة سهلة بل إن لها ملابسات سياسية و لها جذور عيقة وصلة بالأحداث فى مختلف أجزاء البلاد ، و الأمر الذى يبعث على الاهتمام هنا هو الجمع الغريب بين نشاطين قد يبدوان متعارضين التربية الدينية والصناعة العسكرية .

لم يكن هذا الجمع بين التربية الدينية و الصناعة العسكرية بدعاً وإنما هو طريق يختاره المبشرون المعاصرون فى عدد من الدول لنشر ديانتهم ، فانهم يحصلون على تسهيلات باسم التربية أو باسم الخدمات الانسانية ، ويفرضون حول منطقتهم حصاراً ، ينشئون فيه نظامهم الخاص الذى لا يخضع لقانون البلاد ، و يعتنون فيه بالتربية البدنية بجانب التربية الفكرية ، وفى بعض الظروف يحملون لافتة التربية البدنية والخدمات الانسانية و حيناً آخر لافتة الدعوة الدينية .

و قد أفادت الأنباء من بنغلاديش بوجود مراكز للتربية الدينية النصرانية بتسهيلات التدريب العسكرى ، و يظهر النصرانيون أن هذا التدريب جزء من التربية البدنية التى تشتمل عليه برامجهم اليومية .

و بهذا المنهج الدينى العسكرى أنشأ الصليبيون مستعمرات فى إندونيسيا ، لها نظام للواصلات ، و الارسال الاذاعى ، وبنجاح هذه الطريقة التى تكسب لهم منافع التبشير و الاستعمار يطبقون نفس الطريق فى بنغلاديش ، حيث يلتقطون أطفال الطبقات الفقيرة و الشباب الطامحين ، و بعد تنصيرهم بطرق تبشيرية ، يدربونهم تدريباً عسكرياً ، و يزودونهم بأسلحة حديثة ، و يحصنون مناطقهم بهذا الطريق ،

إلى أن تحصل لهم قوة و مناعة تقدر على سيطرتهم و إنشاء مناطق نفوذ لهم داخل دولة بنغلا ديش .

و قد أفادت الأنباء باتباع المسيحيين هذه الوسائل فى عدد من الدول الأفريقية و الاسلامية ، و دول الخليج العربى ، و هو اتجاه خطير له عواقب وخيمة سياسية و دينية و لا يسمح أى نظام على الأرض بعرض فكر معارض لعقيدته الأساسية بهذه الحرية .

يجرى هذا النشاط فى الدول الاسلامية و تبقى أوكار الهدامين خارج حدود القانون ، لأن المشرفين على هذه المراكز يحظون بمعاملة حماية و عطف و مناصرة من الحكام ، بينما يبطش هؤلآء الحكام بالخطباء و الدعاة المسلمين و يقيدون حريتهم و تفرض رقابة شديدة على الصحف الاسلامية ، و تبث الجواسيس داخل المساجد لتسجيل كل ما يجرى فيها من لقاءات ، و حوار ، و تلاوة ، و عبادة . لأنهم يخافون الصحوة الاسلامية ، أكثر مما يخافون السيطرة الصليبية أو اليهودية و الوثنية و تحول هذه الحكومات دون أى تجمع للسلمين أو التقاء بينهم ، و إن كان لتبادل المشاعر ، و استعراض الظروف ، و تتمتع الحركات المعادية للاسلام فى البلاد الاسلامية بحرية التكتل ، و تنمية القوة و توسيع نفوذها .

وبهذا المنهج الدينى العسكرى أنشأ المسيحيون قوتهم فى السودان ومصر ولبنان و كثير من الدول ، و اعدوالهم كتائب مسلحة تستطيع أن تقاوم أى جيش لا الدول الأوربية المتحضرة تمولهم و تسلحهم .

و مما يبعث على القلق ، ما افادت به الأنباء ، أن بعض المنظمات للدعـ و التبشير إلى ديانات وثنية ، قد انبثت فى البلاد الاسلامية مقلدة فى نشر دعوة طرق المبشرين المسيحيين بفرض سرية تامة على نشاطاتها ، و هى نشطة فى عدد

دول الخليج العربى ، و توزع على العمال من مختلف الجنسيات ، منشورات تبشيرية و يمتد نفوذها عن طريق التربية البدنية ، و عن طريق المعالجة النفسية ، فتحبب إلى المنضمين إلى هذه المراكز طرق العبادة الوثنية ، و هى أوكار خطيرة يجب الانتباه لها من أجل صيانة الشباب و الأطفال من الانسياق إليها ، و التعرض لدعايتها ، و الانبهار بطقوسها.

و قد ادعى قبل مدة أحد مسئولى منظمة « راشتريا سيوك سنج » أن للنظمة فروعاً فى عدد من الدول الأجنبية ، و منها دول الخليج ، و أن لها أنصاراً فى تلك البلاد . ويفيد أحد التقارير الصحفية ، أن للنظمة حوالى نصف مليون متطوع متدرب فى الهند ، و تجرى لها تمرينات دائمة ، و صرح أخيراً زعيم طائفة سيخ الدينى « بهدران والا » رداً على التهم التى وجهت إليه بأن مراكز التربية الدينية لطائفة السيخ فى كشمير وأماكن أخرى ومعابد السيخ أصبحت مراكز التربية العسكرية ، والتدريب على الارهاب ، أن التدريب على استخدام الأسلحة و التربية البدنية جزء من تعاليم و منهج تربية ديانة السيخ ، و صرح أن سائر هذه الاجراءات ، هى تدابير وقائية ، لحماية مصالح السيخ .

لقد أدخل المسيحيون العسكرية فى دعوتهم واستخدام القوة والاغراء فى نشر دينهم ، و ساعدتهم فى ذلك حكوماتهم التى كانت تتظاهر بأنها لادينية ، و تسلك هذا المنهج كثير من الدول التى تتظاهر بالعلمانية و يوجد ترامل و تضامن بين الحكومات و الحركات الدعوية .

لقد أغفل المسلمون هذا الجانب المهم كل إغفال ، أو أجبروا عليه ، وهم اليوم أبعد الأمم عن التربية البدنية ، و قد كانت الرماية و الفروسية من ألعابهم المفضلة لكنهم

الى أن تحصل لهم قوة و مناعة تقدر على سيطرتهم و إنشاء مناطق نفوذ لهم داخل دولة بنغلا ديش .

و قد أفادت الأنباء باتباع المسيحيين هذه الوسائل فى عدد من الدول الا[illegible] و الاسلامية ، و دول الخليج العربى ، و هو اتهام [illegible] و دينية و لا يسمح أى نظام على الأرض بعرض فكر [illegible] بهذه الحرية .

يجرى هذا النشاط فى الدول الا[illegible] القانون ، لأن المشرفين عا[illegible] من الحكام ، [illegible]

[illegible] عاش بالتسامح و حرية الرأى و العمل فعلا ، و أنه تخلى عن العصبيات المذهبية و العقائدية . إن الواقع هو عكس ما يظنه المسلمون المتحضرون، فبينما تحارب الحكومات فى البلاد الاسلامية الدين و رجال الدين . تدعم حكومات [illegible] النشاطات الكنسية والروحانية والعقائدية وتساهم فى نشر دعوتها و ذكرها فى العالم كله ، وقد قال أحد رجال التربية أن ثمار المدافع تضمحل وثمار الثقافة والفكرة والعقيدة تبقى طويلا كما تحمى القوة ثمار الثقافة والفكر ، لقد حان الأوان للقادة المسلمين أن يدركوا أن الحضارة المعاصرة رغم دعواها بالثورة على الدين متمسكة بالفكرة الدينية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، و يتجلى ذلك برد فعل الصحافة العالمية على كل عمل إسلامى و حرص الدول الأوروبية على تعزيز النشاط التبشيرى لأنه يجنى لها ثماراً لا يجنيها النشاط العسكرى، وكان الجمع بين الجانبين هو العنصر الجوهرى لبقاء الحضارة الغربية، ولكنه لا يزال مجالا غير مطروق للدول الاسلامية ولا تزال الفجوة واسعة بين المجالين .

ـوى

ـ الكويت والمملكة

إسلامية ، و يرافقه فى

الندوى عميد كلية اللغة العربية والدعوة

ـ ـسيخ للامارات و الكويت حافلة بالبرامج و اللقاءات

ـ فى مقدمتها حضور مناسبة افتتاح مكتبة عبد الله بن على المحمود فى ١٧/ نوفمبر ١٩٨ فى الشارقة ، و زيارة جامعة العين و إلقاء المحاضرة فيها .

و قد افتتح سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمى عضو المجلس الأعلى ، و حاكم لشارقة مكتبة عبد الله بن على المحمود بالشارقة التى تتألف من الكتب التى قام بتجميعها لشيخ عبد الله بن على المحمود رحمه الله و التى تضم ٢٥٠٠ كتاب ، و قد أقيمت لمكتبة حديثاً و لها أقسام و برامج علمية و دعوية .

وألقى سمو الشيخ سلطان كلمة بهذه المناسبة امتدح فيها جهود المرحوم الشيخ عبد الله على المحمود و قال إن أفضال المرحوم الشيخ عبد الله على المحمود بالتوجيه و النصح يجعلنا لا ننساه ، و علينا إحياء لذكراه إقامة مسجد و مكتبة واسعة ، وقال سموه إن المكتبة ستكون بمثابة مبنى يتجمع فيه كل المحبين لفضيلة الشيخ عبد الله .

وألقى الأستاذ محمد عبد الله المحمود كلمة شكر فيها الشيخ سلطان بن محمد القاسمى ورحب بسماحة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى الذى قبل الدعوة لحضور هذه المناسبة والتحدث فيها ، لما كانت تربطه صلة خاصة بوالده المرحوم عبد الله العلى المحمود .

وبعد انتهاء مراسيم الافتتاح تحدث سماحة الشيخ الندوى فقال : إن ألغاز التاريخ العالمية الكبرى التى لم تحل بعد هو أن أكبر حركة علمية تاليفية معترف بها انبثقت من أعظم أمية ، فهى هذه الأمة التى قامت بهـذا الدور الكبير أمى ، و إذا عللت هذه الظاهرة فانها تعلل بقدرة الله القاهرة و حكمته الباهرة ، و تحدث عن النهضـة

التى حققها الاسلام فى مختلف الميادين و العلوم و عبر الأرجاء و الحدود. و مشيراً إلى أن هناك ديانات ترى حياتها فى موت العلم، قال إن الاسلام يرى حياته فى العلم. بل إنه يربط بين الدين و العلم و يربط مصيرهما بعضهما البعض، و صرح الشيخ الندوى أن الاسلام ربط بين وحدات العلم التى كانت متناقضة من قبل، و اكتشف الاسلام تلك الوحدة فى معرفة الله.

و فى ختام كلمته أشار سماحتــه إلى الخدمات الجليلة التى أداها المرحوم الشيخ عبد الله على المحمود الذى تنشأ هذه المكتبة تخليداً لذكراه. و وصف المكتبة بالعرفان بالجميل لفضائل الشيخ عبد الله على المحمود.

و تحدث بهذه المناسبة الدكتور عبد الله نصيف أمين عام رابطة العالم الاسلامى و صرح أن السبيل الوحيد لنجاح هذه الأمة هو التمسك بكتاب الله و سنة رسوله والتمسك بالعلم والتأليف والنشر، وأشار بدور الشيخ المرحوم عبد الله المحمود فى المضمار.

و كان فى مقدمة من نظم الحفل الدكتور سالم بن عبد الله المحمود، وحضره سمو حاكم الشارقة و حاكم عجمان، وعدد من الوزراء، والأعيان، والعلماء المثقفين.

و اشتملت برامج سماحة الشيخ الندوى خلال زيارته للامارات على زيارة بنك دبى الاسلامى على دعوة رئيسه الشيخ سعيد لوتاه حيث تحدث إلى جمع من العلماء، والعاملين و الدعاة و الأعيان و زيارة مدينة العين، حيث ألقى محاضرة فى جامعة الامارات بعنوان أزمة العصر الحقيقية و محاضرة فى كلية البنات فى مدينة العين بناء على دعوة الكلية وفى مسجد سعد بن أبى وقاص فى أبو ظبى، بناء على دعوة من وزارة الاعلام كما تحدث سماحته فى مدرسة الصديق بدبى، و مسجد عمر بن الخطاب التابع لمركز الدعوة بالشارقة، بناء على دعوة من حاكم الشارقة سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمى.

ومن الامارات توجه سماحته إلى الكويت، حيث ألقى عدة محاضرات وأجرى لقاءات مع قادة الفكر والدعوة الاسلامية، وغادر إلى المدينة المنورة فى ٢٧/ نوفمبر ٨٤م و سيعود سماحته فى الأسبوع الثانى من شهر ديسمبر ـ بسلامة الله و عافيته ـ بعد أداء العمرة و الزيارة.

الطباعة و أرخص

أعمال الطباعة والتنضيد الفوتوغرافية على أجهزة الاديت رايتر «كومبيوجرافيك»
باللغة العربية و الانجليزية ، لأول مرة فى الهند .

يرجى الاتصال بنا من أجل الطباعات الملونة و الطباعة آفسيت للكتب .
و المجلات ، و الصحف ، و الأدوات المكتبية ، المتنوعة الأخرى باللغتين العربية
و الانجليزية معاً .

ونحن متخصصون ، كذلك ، فى طباعة الكتب المدرسية بعدد ضخم و مقدار
مطبعى هائل . مع التأكد من التسليمات العملية العاجلة .

عنوان الأعمال :

E 75, New Okhla Industrial Complex, Noida,
Distt Ghaziabad (U.P.) INDIA

و المكتب الرئيسى :

118 Mew Rajdhani Enclave
Wikas Marg, New Delhi
(INDIA)

PHONE . 49747-42948 REGD. NO. LW/NP 59

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA LUCKNOW.(INDIA)

صدر حديثاً

الطريق إلى للدول والمجتمعات الاسلامية الحرة

كتاب جديد صدر حديثاً لسماحة الشيخ العلامة أبي الحسن علي الندوي يخاطب فيه الدول والمجتمعات الاسلامية الحرة، ويبين لها الطريق إلى السعادة و القيادة .

إن الكتاب مجموعة ١٢/ محاضرة ألقاها سماحة المؤلف في باكستان بمناسبة حضوره هناك في المؤتمر الاسلامي الآسيوي الأول الذي عقدته رابطة العالم الاسلامي (بمكة المكرمة) في يوليو ١٩٧٨م في كراتشي .

تحدث فيه إلى كل قطاع من الناس من رجالات القانون و العلم و الفكر و خبراء التعليم و التربية و أساتذة الجامعات و طلابها و رجال الحكم و المناصب الرسمية العليا إلى الجماهير العامة من المسلمين المخلصين .

وجه فيه نداء عاماً للانتفاضة الاسلامية التي تترقب يقظة المسلمين وصحوتهم .

و كل ذلك في أسلوب خطابي جميل ، و تعبير مؤثر جذاب .

الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت

ويطلب : من مكتبة دار العلوم التجارية

بندوة العلماء ص . ب ٩٣ لكهنؤ (الهند)

قام بالطبع و النشر جميل أحمد الندوي في مطبعة ندوة العلماء - لكهنؤ (الهند)

رئيس التحرير : سعيد الأعظمي

أخى القــارى،

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١ــ كتابة العنوان بالانجليزية و العربية كلتيهما فى ورقة خاصـــة ، كل حرف على حدة ، و ارساله إلينا ·

٢ــ ارسال إشتراك بالقيمـــة المبينة أدناه باسم « البعث الاسلامى » مقابل عام واحد أو أكثر :

٣ــ يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه ·

٤ــ الاشتراكات السنوية ·

فى الهند : ٣٥ روبية ، ثمن النسخة ثلاث روبيات و نصف ·

فى العالم العربى ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ١٨ دولاراً بالبريد الجوى ·

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ٩ دولارات بالبريد السطحى ، ٣٠ دولاراً بالبريد الجوى ·

فى باكستان ، بنغلاديش و دول شرق آسيا : ٨ دولارات بالبريد السطحى ١٨ دولاراً بالبريد الجوى ·

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

P. O. Box. No. 93 L U C K N O W (INDIA)

شهرية إسلامية جامعة

أنشأها
فقيد الدعوة الإسلامية
الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى
في عام ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

أخي المسلم

أخي في العقيدة و الدين لا في التراب و الطين ، أخي على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخي في النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخي في الحق و الصبر في الوطن و المهجر ، أخي في مهبط الوحي و منبع الصبح الصادق في ليل الانسانية الغاسق أخي في زهرة الصحراء و درة الخليج ، بين الرياح العاتية والأمواج الثائرة ، أخي في اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخي في الله !

نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك في وجه الباطل ، زاداً لك في طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك في صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمي في مجلة ، أوزبون في محل تجارة !

[محمد الحسني ــ رحمه الله]

العدد الثامن
المجلد الثامن والعشرون
جمادى الأولى ١٤٠٤هـ
فبراير
١٩٨٤م

هيئة التحرير :
...الأعظمي الندوي
...رشيد الندوي

المراسلات :
البعث الإسلامي
ندوة العلماء ص.ب ٩٣
لكهنؤ ــ الهند

Albaas - el - Islami
NADWAT- UL - ULAMA
P. O. Box No. 93
LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

من أين يستسيغ لبعض رواد البحث و العلم — كما يسمون أنفسهم — أن يتناولوا شريعة الله بدراساتهم الخاصة ، و ينطلقوا فى شرح بعض المفاهيم الثابتة إلى احتمالات بعيدة أو شذوذ من الرأى مما لا يتفق و روح الشريعـــة فى حال ما ، و لقد بذلت محاولات كثيرة من هذا النوع فى فترات عديدة من التاريخ الاسلامى ، ولكنها كانت تبتنى على فساد فى العقيدة ، أو زيغ فى أسلوب التفكير ، أو كانت لها بواعث نفسية أخرى من التحزبية والطائفية التى واجهها المسلمون فى العصور السابقة ، أما أن يتخذ الناس هذه الشريعة لعبة يتلاعبون بها للتقليل من شأنها و إخراج هيبتها من القلوب فذاك واقع نستطيع أن نلمسه فى عصبة من تلاميذ المستشرقين أو المعجبين بآرائهم وأفكارهم ، وفى أتباع الحركات الهدامة من الصليبية الحاقدة على الاسلام ، و الماسونية المخططة ضد المسلمين و العالم الاسلامى بكامله ، والصهيونية العالمية ، و البلشفية الماكرة ، أولئك هم الناس الذين يتصدون لتحقيق أحلامهم فى الاسلام ولكن لا بأسلوب العداء و السلبية أو طريق الخصام و الخلاف البين ، بل بطريق سلمى ، و إيجابى ، كأنهم ذوو اهتمام بالغ بدراسة شريعة الله و التحقيق فى القضايا المتجددة والمشكلات المستحدثة التى تواجه المجتمعات الاسلامية اليوم ، نتيجة للتقدم العلمى ، واتساع الحضارة ، واكتشاف النواحى البكر فى مجال الصناعة و التقنية .

هذا الأسلوب الهادئ الرزين الذى يبدو كأنه من أجدد الأساليب العلمية و الفكرية تقليداً ، إنما هو فن يبرع فيه البارعون ،

و لا يتوخون من ورائه إلا الضرب على الأساس ، و لو تأملنا فى هذا الواقع بجد و اهتمام ، و توصلنا إلى أغوار القضية لوجدنا أن هناك أكثر مما تصور فى التعمق والتخطيط ، لتحبيب هذه الصناعة إلى النفوس و اعتباره موضوعاً علمياً له مدرسته الخاصة التى تعنى بتربية التلاميذ على إتقان هذا الفن ، و تخريجهم فى هذا الموضوع المهم ، و لم يكن الاستشراق فى مدارس الغرب إلا مؤسساً على هذه الفكرة ، غير أن تلاميذ المستشرقين النجباء فى الشرق تركوا أساتذتهم الغربيين وراءهم بمراحل كثيرة فى أداء المهمة التى ناطوها بهم ، و كفوا مؤنة الغرب المادى فى هدم معنوية المسلمين، و تضييق الخناق على الشريعة الاسلامية بتطوير الفكر قبل كل شئ، ثم تقريب أذهان المسلمين بحكمة إلى ضرورة التفكير من جديد فى قضايا ذات الصلة العميقة بالحضارة الجديدة، ولقد ألبسوا على فكرهم الزائغ لباس الاجتهاد، مستدلين بأن الاسلام لايغلق باب الاجتهاد و إنما يسمح به فى المسائل المستجدة .

لا مساغ للشك فى هذا الرأى الذى يتظاهرون به ، ولكن اتخاذه ذريعة للتصيد فى الماء العكر و النيل من القيم الدينية المحكمة التى لاتبديل فيها ، عن طريق هذا الرأى و أمثاله لا يمت إلى الأمانة و الصدق و الأسلوب العلمى النزيه بأى صلة ، و إن ما تقوم به هذه الفئة المسلمة من جهود باسم إيجاد الاتزان بين المتطلبات الحضارية الحديثة و المثل الايمانية و العقائدية القديمة ، وتسهيل العمل بأحكام الشريعة وتطبيقها على الحياة و المجتمع ، ليس مصدر كل ذلك هو الجهل بالاسلام و العقيدة و الايمان و قلة المعرفة بالشرائع و الأحكام و إنما ينبع ذلك من روح الهدم و المكر ، سواء حسداً على طبقة العلماء و الحكام المسلمين الذين يتمسكون بالاسلام فى السراء و الضراء ، و فى الظل و العراء ، أو نزولا على رغبة أساتذتهم الماديين و امتثالا لأوامرهم ، الذين يتحرقون غيظاً على المسلمين و دولهم و ما يتمتعون به من نعمة الحب و الايمان و بالتالى من نعمة الهدوء و الطمأنينة على المستوى العام ، و بالثراء و الرخاء على بعض المستويات فى الدول الاسلامية الغنية .

و لعل ما أقض مضاجع الغربيين الماديين فى الوقت الحاضر فبدأوا ينعقون عن

طريق عملائهم بما لا يؤمنون به من فتح باب الاجتهاد للتوفيق بين الحضارة الحديثة والاسلام ، و بين المشكلات الجديدة و العقائد الايمانية ، هو ما يشاهدونه اليوم من صحوة دينية عامة ، و شعور بالعودة إلى الحياة الاسلامية، حتى فى المجتمعات والدول المادية الخالصة ، و ما يرونه من انضواء المسلمين ، نحو لواء الشريعة و التجائهم إلى ملجأ الدين والعقيدة و الايمان ، إنهم يرون فيه شبحاً من الخطر الذى يحلمون به على مستقبل سيادتهم و كلمتهم التى حكمت و لا تزال تحكم أقطار المسلمين و مجتمعاتهم ، و رغم أنهم خرجوا من هذه الأقطار باستعمارهم المادى و لكنهم لا يزالون يحكمونها و يسيطرون عليها بالاستعمار الفكرى و الاستعباد العقلى ، و يجعلونها نهبة لمطامعهم و شهواتهم ويأكلون من روافدها و خيراتها التى يهربونها بدهاء وخديعة . فاذا جاء الاسلام و دخل إلى قلوب الناس وبيوتهم ، و إلى حياتهم بجميع مجالاتها فأنى يجدون فيها ما يشفون به نهمهم المادية و السياسية .

إذن كان لا بد من إقامة عملاء من المسلمين أنفسهم ليحاولوا إقناعهم بحاجة التغيير و التطوير الأكيدة فى العصر الراهن الذى يتسم بالسرعة و العلم ، و ينصحوا لهم فى دينهم ودنياهم بادلاء مرئياتهم الخاصة فى هذا المجال ، و يؤكدوا لهم أن أدنى تأخير أو إغماض عن الحقائق اليوم سوف يغلق عليهم باب العلم والمدنية و التقدم والمسايرة مع الزمان للأبد ، ويفرض عليهم العبودية والمشى فى ذيل الأمم والشعوب ، والأكل من فتات موائدهم ، بصفة مستمرة .

هذا الكلام و إن كان يبدو فى ظاهره جميلا ومعقولا للغاية ولكنه فى الواقع بداية لنهاية مؤلمة ، و فاتحة لشقاء سرمدى ، ذالك أنه كلمة حق أريد بها الباطل ، وخدمة للفكر المادى الخالص الذى يحاول من زمن طويل أن يعامل الدين الاسلامى كسائر الديانات الأخرى و يجرده من ذلك اللباس الفضفاض الذى أضفاه الله سبحانه عليه من الايمان و التقوى و روح التعفف و الحماس و إخلاص العمل لله والعبادة له ، و يجعلوه ديناً ينزوى إلى ركن بعيد لا يلجأ إليه المرء إلا فى بعض المناسبات الدينية و فى الأعياد و الجمع ، و ينفصل عنه فى جميع الشئون و القضايا الحيوية مما

يتعلق بالاجتماع العام و الحضارة و العلم ، و بما يتصل بعالم القلب و الروح ، وباللحظات الحانية التى يلتجئ فيها الانسان إلى ربه ويخلو فيها بأشواقه وآماله وعواطفه وشجونه ، ويناجى ربه ويخاطبه من غير أى حجاب ولا حاجز بينه وبين مليكه المقتدر .

إننا لا ننكر أبداً فى أى حال ما للوسائل من قيمة فى خدمة الدين بجميع تفاصيله و دقائقه ، و أنها تتغير بتغير الظروف و العصور والأقطار و الأجواء ، ولقد فرض الله سبحانه و تعالى النهوض بالاعداد اللازم المطلوب من القوة و من رباط الخيل على عباده المسلمين ، ولم يأمر بالاصرار على وسيلة دون وسيلة ولا على سلاح دون سلاح ، و ذلك للحفاظ على القيم الدينية التى لا تتغير ، و تعميق أحكام الشريعة التى لا تتطور . ذلك لاعلاء كلمة الله التى لا تسقط فى أى حال ، وتغليب العقائد و الحقائق الايمانية على كل باطل و خرافة « و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله و عدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم . الله يعلمهم » .

وفى الآية أوضح دليل على أن هناك أعداء مختفين لا نعلمهم ولكن الله يعلمهم . وهم الذين يتقنعون بقناع الصديق ويتظاهرون بالنصح والعطف على المسلمين و بالاهتمام بخدمة الدين ، و لكنهم لا يريدون إلا فساداً ولا يريدون إلا هدماً من وراء ستار غليظ باسم العمل للاسلام ، وخدمة الشريعة الاسلامية على المستوى العالمى والعلمى .

إننا نؤمن كامل الايمان بأن شريعة الاسلام ليست ذات واجهة واحدة من جسد ومادة وحياة دنيوية و نعيم و لذات فانية ، و لكنها روح ومادة ، قلب وعقل ، علم و إيمان ، و فقه و تدبير ، و غاية و وسيلة ، و أن عطاء الاسلام لا يتوقف على جانب واحد من هذين الجانبين ، ولكنه يعم الحياة بأكملها ، ويغطى المناحى كلها . فلا يضع حداً على نشاط علمى أو عقلى أو مادى و لا يخط خطاً فاصلا بين الروح و المادة ، بل الحق أنه يجمع بينهما جمعاً دقيقاً متزناً و يجعل من كلتيهما مزيجاً غريباً له تأثيره فى الحياة فردية و جماعية ، ودوره فى إعطاء هذا العالم حقه من الهدوء و الاستقرار ، و كم كان الخطأ جسيماً حينما زعم كثير من أفراد الطبقة المثقفة بل

كثير من المسلمين أن الدين الاسلامى لا يساير الحياة و يتقاصر عنها فى أغلب الأحوال والظروف التى تتجدد ، والمشكلات التى تبرز على ساحة الوجود ، ولقد كان هذا التفكير فى شريعة الاسلام نابعاً من عقل ضعيف و محدود ، ومن هنالك نستطيع أن نطلع على ما يتحمس له تلك الفئة المتجددة — أعنى طبقة المتجددين من المسلمين — من إدخال تحسينات فى التشريع الاسلامى ، و ليتهم درسوا الاسلام بروحه الخالدة الباقية التى تفيض على الحياة خيراً مستمراً دون انقطاع ، و بعطائه المتجدد المتوافر فى المجالات كلها ، و لم ينظروا إليه بالمنظار العلمى فحسب و لا بالعين المجردة عن العاطفة والروح ، ولو أنهم فعلوا ذلك لوصلوا إلى الحقيقة التى لم يدركوها إلى الآن ، « و لو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم و أشد تثبيتاً » .

ويسعدنى أن أنقل هنا قطعة من البحث القيم الذى وضعه سماحة أستاذنا الكبير العلامة الشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، حول « الاجتهاد و نشأة المذاهب الفقهية » يقول :

« إن الاسلام ـ بخلاف ما يعتقده كثير من المسلمين و بعكس ما يصوره أكثر المستشرقين و المؤرخين الغربيين ـ ليس حضارة عهد خاص ، و لا فن فترة من فترات التاريخ تمثله آثار ذلك العهد و مبانيه ، و يعيش فى الأحجار و الرسوم و الصور ، لا فى واقع الحياة ، و قد فقد صلاحيته للحياة و أدى رسالته ، كالذى تتحدث عن الحضارة اليونانية والرومية أو الفن التركى والمغولى ، إنه دين حى ورسالة خالدة ، إنه حى كالحياة نفسها ، و خالد كخلود الحقائق الطبيعية و نواميس الحياة ، إنه تقدير العزيز العليم « صنع الله الذى أتقن كل شئ » و قد ظهر فى شكله النهائى و طوره الكامل ، و أعلن يوم عرفة : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً » فهو يجمع بين الكمال الذى لا انتظار بعده لدين آخر ، و لا حاجة معه إلى رسالة جديدة ، و بين الحيوية التى لانفاد لها و النشاط الذى لا آخر له ، و لذلك استطاع أن يساير الحياة و يراقبها فى وقت واحد ، ويتابعها فى صلاحها و استقامتها ، و ينكر عليها فى انحرافها و زيغها ، فلا هو مساير مائع ككثير من الأديان المحرفة ، ولا هو مراقب جامد ككثير من الفلسفات النظرية ،

و ذلك مثل الدين الكامل و مثل الدين الحي للانسان الحي ، الذي يشعر بشعوره و يعترف بحاجاته ، و يرشده في مشاكله و يعارضه في اتجاهاته الفاسدة

وقد استطاعت الأمة الاسلامية أن تواجه التقلبات التي لا تكاد تنتهي والقضايا التي لا يأتي عليها الحصر ، ولا يحدها قياس ، و اختلاف الزمان و المكان ، وتنوع البيئات و الملابسات ، و قد أمكن ذلك بقوتين :

القوة الأولى : هي الحيوية الكامنة في وضع الاسلام نفسه و صلاحيته للحياة و الارشاد في كل بيئة و في كل محيط ، وفي كل عهد من عهود التاريخ ، فقد خص الله محمداً ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للانسان ، صالحة لكل زمان و مكان ، وتستطيع أن تواجه ما يتجدد من الشئون و أطوار الحياة ، وتحل كل ما يعتري من المشكلات و المعضلات ، و الدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم و الحديث النبوي الصحيح و مصادر الاسلام ، كافلة بالاقتناع بما أقول .

و القوة الثانية : هو أن الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء في كل عصر ، ينقلون هذه التعاليم الاسلامية إلى الحياة ، و يطبقونها على العصر ، و يحلون في ضوء الأصول و النصوص التي وهبتهم إياها الشريعة الاسلامية ، و في ضوء مقاصد الشريعة وروحها ، المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة ، و القضايا المتجددة ، فلم تعدم هذه الأمة في عصر من عصورها أئمة في العلم و عماليق في الفكر لا يوجد نظيرهم - لا في الكمية و لا في الكيفية - في أمة من الأمم » (ص ٦-٩) .

فليتفهم المتجددون في كل مكان أن المقاييس التي يطبقونها على الشريعة الاسلامية لا أصل لها في كتاب الله و سنة رسوله ﷺ ، و أنهم يضعون طاقاتهم فيما لا يعود عليهم بطائل ، بل الواقع أنهم بذلك يجاهدون في غير عدو ، و أن شريعة الله لغنية عن أفكارهم و آرائهم ، و بريئة عن خدماتهم و جهودهم ، فليبحثوا لهم عن مجال آخر يصلح لمستواهم العلمي و الفكري ، و يتركوا عمل التشريع و الاجتهاد الاسلامي لعلماء هذه الأمة و مفكريها المخلصين .

و على الله قصد السبيل و منها جائر و لو شاء لهداكم أجمعين . ؟

سعيد الأعظمي

التوجيه الإسلامي

★ الاسلام و الحضارة الانسـانية

★ ابن قيم الجوزية عالماً و إماماً

و ذلك مثل الدين الكامل و مثل الدين الحى للانسان الحى ، الذى يشعر بشعوره و يعترف بحاجاته ، و يرشده فى مشاكله و يعارضه فى اتجاهاته الفاسدة

وقد استطاعت الأمة الاسلامية أن تواجه التقلبات التى لا تكاد تنتهى والقضايا التى لا يأتى عليها الحصر ، ولا يحدها قياس ، و اختلاف الزمان و المكان ، وتنوع البيئات و الملابسات ، و قد أمكن ذلك بقوتين :

القوة الأولى : هى الحيوية الكامنة فى وضع الاسلام نفسه و صلاحيته للحياة و الارشاد فى كل بيئة و فى كل محيط ، وفى كل عهد من عهود التاريخ ، فقد خص الله محمداً ﷺ برسالة وتعاليم كاملة للانسان ، صالحة لكل زمان و مكان ، وتستطيع أن تواجه ما يتجدد من الشئون و أطوار الحياة ، وتحل كل ما يعترى من المشكلات و المعضلات ، و الدراسة العميقة الشاملة للقرآن الكريم و الحديث النبوى الصحيح و مصادر الاسلام ، كافلة بالاقتناع بما أقول .

و القوة الثانية : هو أن الله قد تكفل بأن يمنح هذه الأمة التى قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء فى كل عصر ، ينقلون هذه التعاليم الاسلامية إلى الحياة ، و يطبقونها على العصر ، و يحلون فى ضوء الأصول و النصوص التى وهبتهم إياها الشريعة الاسلامية ، و فى ضوء مقاصد الشريعة وروحها ، المشاكل الطريفة والمسائل المعقدة ، و القضايا المتجددة ، فلم تعدم هذه الأمة فى عصر من عصورها أئمة فى العلم و عماليق فى الفكر لا يوجد نظيرهم ـ لا فى الكمية و لا فى الكيفية ـ فى أمة من الأمم » (ص ٦—٩) .

فليتفهم المتجددون فى كل مكان أن المقاييس التى يطبقونها على الشريعة الاسلامية لا أصل لها فى كتاب الله و سنة رسوله ﷺ ، و أنهم يضعون طاقاتهم فيما لا يعود عليهم بطائل ، بل الواقع أنهم بذلك يجاهدون فى غير عدو ، و أن شريعة الله لغنية عن أفكارهم و آرائهم ، و بريئة عن خدماتهم و جهودهم ، فليبحثوا لهم عن مجال آخر يصلح لمستواهم العلمى و الفكرى ، و يتركوا عمل التشريع و الاجتهاد الاسلامى لعلماء هذه الأمة و مفكريها المخلصين .

و على الله قصد السبيل و منها جائر و لو شاء لهداكم أجمعين . ؟

سعيد الأعظمى

التوجيه الإسلامي

★ الاسلام و الحضارة الانسانية
★ ابن قيم الجوزية عالماً و إماماً

الاسلام و الحضارة الانسانية

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن على الحسنى الندوى

[هذه المحاضرة ألقاها سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن على الحسنى الندوى في مدرج كلية العلوم بجامعة الكويت في الخالدية بالكويت في ١٨ / من صفر ١٤٠٤هـ ٢٣ / نوفمبر ١٩٨٣م، و ذلك بمناسبة زيارته للكويت بدعوة من اللجنة الوطنية الكويتية للاحتفال بدخول القرن الخامس عشر الهجرى] « التحرير »

سادتى و إخوانى ! يسعدنى أن أتحدث فى بلد إسلامى عربى عزيز كالكويت عن « الاسلام و الحضارة الانسانية » و هو موضوع منير مثير ، وثيق الصلة بواقع الحياة و حاضر الانسانية و مستقبلها ، و دور الأمة الاسلامية فى بناء الحضارة و توجيهها ، و أن يكون ذلك حين ودعنا عاما من التقويم الاسلامى و استقبلنا عاماً جديداً ، و نحن على أبواب استقبال عام جديد من التقويم الميلادى .

و لكن الموضوع كان أليق بعمل جمعى منه بمجهود فردى ، فان الموضوع بطبيعته عالمى انسانى ، يمتد على عدة مساحات واسعة مختلفة . فالمساحة الزمانية تمتد من القرن الاسلامى الأول (أو القرن السادس الميلادى) إلى هذا القرن الذى نلتقى فيه، والمساحة المكانية تمتد من أقصى العالم إلى أقصى العالم ، و المساحة المعنوية تمتد من مجال العقيدة إلى مجال الأخلاق و السلوك ، و من مجال الاجتماع و الحياة

المنزلية والفردية ، إلى مجال السياسة و التشريع و القانون ، وعلاقات الشعوب والأمم بعضها ببعض ، و من مجال أنماط المدنية الراقيـــة الرقيقة ، إلى مجال الفن المعمارى و الأدب و الشعر ، و الذوق الرفيع ، و كل مساحة من هذه المساحات مساحـة واسعة ذات جوانب عديدة فسيحة ، فلا يفى بحق هذا الموضوع إلا مجمع على مكون من أساتذة بارعين أصحاب الاختصاص فى موضوعهم الذى له اتصال وثيق بهـــذا الموضوع ، فالموضوع ينوء بالعصبة أولى القوة فى العلم و الدراسة ، الأمينة النزيهة فى الحكم على الأشياء ، الجريئة فى إبداء الرأى و النتائج العلمية ، فيقوم أحـد الأساتذة بجانب العقيدة و التفكير الدينى ، و يقوم آخر بجانب الاجتماع ، و الثالث بجـانب التشريع و القانون ، و الرابع بمبـــدأ الحرية و المساواة ، و الخامس بحقوق المرأة و منزلتها فى المجتمع ، و هكذا ، و هو أجدر بموسوعة خاصة بهذا الموضوع فضلا عن كتاب ، فضلا عن بحث يعد فى وقت قصير وعلى تشتت بال وتزاحم أشغال ، و لكن كما قال الأولون : « ما لا يدرك كلـه لا يترك كله » و لا أبلغ من قول الله تعالى : « فان لم يصبها وابل فطل » وها هوذا جهد المقل وسعى المقصر ، وإلمام بهـــذا الموضوع الجليل الذى ليس فى صالح المسلمين و العرب فحسب ، بل هو فى صالح العهد التاريخى الذى نعيش فيـه ، و المجتمع البشرى الذى نحن من أعضائه .

أيها السادة ! إن من أصعب العمليات و أدقها هو تحليل الحضارة التى اختمرت تحليلا كيمياوياً وفرز العناصر التى دخلت فيها فى عهود مختلفة وفترات تاريخية معينة ، و إرجاعها إلى أصلها و مصدرها ، و تحديد مقاديرها و مداها من التأثير والقبول ، و تبيين من يرجع إليه الفضل فى هذا العطاء الحضارى و التغيير الجذرى ، فقد دخلت هذه العناصر و التأثيرات فى الهيكل الحضارى والمجتمع البشرى وتغلغلت فى أحشائهما و جرت منهما مجرى الروح و الدم ، و تفـــاعلت ، و تكون منهما مزاج خاص

لهذه الحضارة ، شأن عوامل التكوين و التربية و البيئة و الأغذية فى حياة الفرد ، و تكوين شخصيته الخاصة ، وإلى الآن لم يخترع معمل كيمياوى يباشر عمل التحليل التاريخى ، ولا مجهر « الميكروسكوب » (Microscope) يضخم هذه الأجزاء الدقيقة التى لعبت دورها فى تكوين الحضارة تكويناً خاصاً إذاً لا بد من دراسة عميقة واسعة لتاريخ الشعوب و الأمم و البلاد و المجتمعات ، حتى نستطيع أن نقارن بين ماضيها و حاضرها ، و نهتدى إلى عمل الدعوة الاسلامية و البعثة المحمدية فى تغيير العقيدة و إصلاحها و القضاء على آثار الجاهلية و الفلسفات الوثنية ، و التقاليد الموروثة ، وتحويل التيار الفكرى من جهة إلى جهة ، و التغيير الثورى فى القيم والمثل ، وتناول المدنيات بالتهذيب والتحسين ، وذلك يحتاج إلى دراسات مضنية وإجهاد نفسى وعقلى، و لكنه عمل مفيد إذا لم توفق له مؤسسة علمية كيونسكو (Unesco) أو مجمع فى أوربا و أمريكا بطبيعة الحال ، فلا بد أن يخصص له مجمع علمى فى إحدى عواصم الشرق الاسلامى ، أو جامعة من الجامعات الاسلامية ، و لا شك أنه أنفع وأجدى من كثير من الأعمال العلمية التى تضطلع بها هذه المجامع و الجامعات ، و تجند لها طاقاتها و وسائلها .

إن تحديد مجالات التأثير الاسلامى فى الحضارة لانسانية صعب و غير عملى تقريباً ، لأن هذا التأثير قد اختلط بجهاز الحضارة ، اختلاط الدم باللحم ، و عادت هذه الشعوب و الأمم لا تشعر بهذه التأثيرات ولا يخطر ببالها فى حين من الأحيان أنها عناصر دخيلة أجنبية ، فقد أصبحت جزءاً من أجزائها و تفكيرها و مدنيتها وحياتها، وهنا استعير ماسبق أن قلته فى كتابى : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » و أنا أتحدث عن المدنية الاسلامية و تأثيرها فى الاتجاه البشرى

« صارت طباع الناس و عقولهم تتغير و تتأثر بالاسلام من حيث يشعرون

ومن حيث لا يشعرون ، كما تتأثر طبيعة الانسان و النبات فى فصل الربيع ، وبدأت القلوب العاصية الجافــة ترق و تخشع ، و بدأت مبادىء الاسلام و حقائقه تتسرب إلى أعماق النفوس و تتغلغل فى الأحشاء ، و بدأت قيمة الأشياء تتغير فى عيون الناس ، و الموازين القديمة تتحول و تخلفها الموازين الجديدة ، و أصبحت الجاهلية حركة رجعية ، كان من الجمود و الغباوة المحافظة عليها . و صار الاسلام شيئاً راقياً عصرياً ، كان من الظرف و الكياسة الانتساب إليه ، و الظهور بمظاهره ، و كانت الأمم بل كانت الأرض تدنو رويداً رويداً إلى الاسلام ، ولا يشعر أهلها بسيرهم كما لا يشعر أهل الكرة الأرضيــة بدورانهم حول الشمس ، يظهر ذلك فى فلسفتهم و فى دينهم و فى مدنيتهم ، و تشف عن ذلك بواطنهم و ضمائرهم ، وتنم عنــه الحركات الاصلاحية التى ظهرت فيهم حتى بعد انحطاط المسلمين (١) .

ولكن إذا كان لا بد من تحديد جوانب ومجالات فى حياة الأمم والشعوب ، و الحضارة ، ظهرت فيها التأثيرات الاسلامية فى أجلى أشكالها ، نحددها فى عشرة من المعطيات الهامة و المنح الأساسية الغالية التى كان لها الدور الأكبر فى توجيـه النوع البشرى و إصلاحه وإرشاده ، ونهضته و ازدهاره ، والتى خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم فى شئ ، و هى كما يلى :

١ـ عقيدة التوحيد النقية الواضحة .

٢ـ مبدأ الوحدة الانسانية و المساواة البشرية .

٣ـ إعلان كرامة الانسان و سموه ، و رد الاعتبار إلى المرأة ، و منحها حقوقها و حظوظهـا .

٤ـ محاربة اليأس و التشاؤم ، وإساءة الظن بالفطرة البشرية واعتبار الانسان مذنباً

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة الثالثة عشرة ، ص/١٣٧ .

موقعه من الدارين ، و إن شئت اقتبست من معرفة إثبات الصانع بطرق واضحات جليات ، تلج القلوب بغير استئذان ، و معرفة حكمته فى خلقه و أمره ، و إن شئت اقتبست منه معرفة قدر الشريعة و شدة الحاجة إليها و معرفة جلالتها و حكمتها ..

و إن شئت اقتبست معرفة النبوة و شدة الحاجة إليها ، بل و ضرورة الوجود إليها و إنه يستحيل من أحكم الحاكمين أن يخلى العالم عنها ، وإن شئت اقتبست منه معرفة ما فطر الله عليه العقول من تحسين الحسن و تقبيح القبيح ، و أن ذلك أمر عقلى فطرى بالأدلة و البراهين التى اشتمل عليها هذا الكتاب فلا توجد فى غيره ، و إن شئت اقتبست منه معرفة الرد على المنجمين القائلين بالأحكام بأبلغ طرق الرد من نفس صناعتهم و علمهم ، و إلزامهم بالالزامات المفحمة التى لا جواب لهم عنها ، و إبداء تناقضهم فى صناعتهم و فضائحهم و كذبهم .

و إن شئت اقتبست منه معرفة الطيرة و الفأل والزجر ، و الفرق بين صحيح ذلك و باطله ، و معرفة مراتب هذه فى الشريعة و القدر ، و إن شئت اقتبست منه أصولا نافعة جامعة مما تكمل به النفس البشرية ، و تنال به سعادتها فى معاشها و معادها ... إلى غير ذلك من الفوائد التى ما كان منها صواباً فمن الله وحده هو المان به ، و ما كان منها من خطأ فمن مؤلفه و من الشيطان ، و الله بريئ منه و رسوله ... (١) .

كلمة جامعة تنبئ عن سعة مداركه ، وحثه على الفضيلة ، والدفاع عن الشريعة ، و بيان ما هو ضرورى لكمال الايمان بالله ، و تجلية بعض حكم الله تعالى فى خلقه ، و عظيم نعمه ... ثم التصدى للماديين و الملحدين و المشعوذين و المعوقين ممن يعيشون

(١) مفتاح دار السعادة ، و منشور ولاية العلم و الارادة ، ط ثالثة ١٣٩٩هـ ص ٦٢٣ .

فى الظلام ، و همهم الحرام . ثم يتواضع كعلماء زمانه ، فينسب ما كان من كمال و حسن فى كتابه إلى الله تعالى ، و ما كان من خطأ فرجعه إليه لتقصيره و إلى الشيطان الرجيم ... و يحتاط فى كل مسألة بعد بيانها بقوله (والله أعلم) و معنى هذا فى إيجاز : أن علماءنا كانوا واعين و مقدرين و ناهضين بالمهمة التى ألقيت على كواهلهم ، و هى بناء الانسان و الحضارة و التاريخ .

ولابن قيم الجوزية بجوار هذه المعلومات الدينية معلومات قيمة عن اللغويات ، أو (أصول اللغة) بلغة العصر الحديث ، أغرانى كتابه هذا (مفتاح دار السعادة) بتتبعها و بخاصة منها ما يتعلق بالصوتيات ، فلم أجد البون شاسعاً ، و لا الفرق واسعاً بين معارفه و بين معارف المحدثين من المختصين فى هذا الفن اليوم ، مع ملاحظة أن وسائل الأقدمين كانت بسيطة أو بدائية ، و مقدراتهم المادية للبحث و المعرفة نادرة ، إذا ما قورن ذلك بما هيئ من وسائل البحث الحديث اليوم من منجزات هائلة و دفع قوى ، و عون دائم يعين على الابتكار و مواصلة البحث و التجربة بتعقل ، لأن المحنة اليوم فى جهود ترفض التطور إطلاقاً ، و بين تطرف يفضى إلى شر العواقب ، فبقيت الوسطية العاقلة .

و لسنا بهذه النظرة نقلل من قيمة الدراسات الحديثة ،و لا جهود القائمين بها ، فذلك أمر تتطلبه روح العصر ، و تعين عليه منجزات التكنولوجيا ، و يفتح آفاقاً واسعة فى دنيا المعرفة والثقافة اليوم ، ويقتضيها طلابنا للرقى الحضارى فى شتى المجالات المعينة على النهوض .

و إنما قصدنا بهذه النظرة إبعاد شبح الانهزامية عن المسلم ، حتى يتمسك بتسلسل منطقى لانشاء الحضارة ، بفكر القرآن و السنة و اجتهادات أصيلة مبتكرة ، و تنقيتها عما تراكم حولها من سلبيات ، فتوحى بعد الغربلة الثقة فى نفس العربى

و المسلم ، و ينطلق من ضيق الأفق بسبب ما ران عليه خلال عصور لم تكن فى صالحه ، و لا فى مقدوره أن يتخلص منها ... و عندما تبدأ « دنياميكية » الفكر عنده فى تنظيم دورتها و تتابعها ... يوم أن ينهض من جديد بفكر و عمل خلاق ، يصل به ما بدأ به أجداده ، و ما يوحيه إليه إسلامه ، و بدلا من التسول العلمى على موائد من نهضوا بمعارفنا ، سنصبح من جديد قبلة للعلم و العلماء .. و سيعلم أبناؤنا بالتالى أن بضاعتنا شرقت وغربت ، و لكنها — و الحمد لله — عادت و ردت إلينا ... فترد إلينا الروح و ترجع لنا الثقة .

فى هذه الجزئية التى تناولها اليوم تتنوع جهود المؤلفين العصريين :—

منهم من يقتبس من جهود الأقدمين ، بغير ما إشارة إلى المرجع ، و بخاصة ما ألف فى العصور المتأخرة أو المظلمة كما نسميها ... و فى هذا ما فيه من الافتئات و الغبن ، و لا عاصم منه إلا تحكيم الضمير ، و الحس العلمى الحى .

و آخرون يؤلفون مقتدين بالغرب و مدارسه ، معجبين و مؤيدين ، و لا إشارة من قريب أو من بعيد ، لصنيع أجدادنا وعلمائنا القدامى ، ممن أفنوا عمرهم فى خدمة العربية و الاسلام ... و هذا انسلاخ أو مسخ لا يرضاه عالم ... فان كان الأمر جديداً فالعلم تركة موزعة بين أذكياء البشرية ، و إن أرسى علماؤنا قواعده ، و أسهموا فى إيجاده فأبسط حقوقهم أن يشار إلى عملهم ، و أن تذكر مراجعهم ، و أن يشاد بفضلهم و جهدهم . وتلك خلة محمودة ، توحى بالثقة ، و تغرس الأمل ، و تغرى بمواصلة البحث و التقدم .

و لا يوافق عاقل أن تتوالى كتب الأبحاث اللغوية و ما يتصل بها خلوا من الاشارة إلى ما قدمنا فى هذا المجال مما خلفه لنا تراثنا بدءاً بالعبقرى الخليل بن أحمد ، و مروراً بالخالد (ابن جنى) و غيره من عباقرة العرب و المسلمين .. و وصولا إلى العلماء و المحدثين المخلصين المنصفين .

و من ثم فقد تهللت لبادرة الأستاذ الدكتور : أحمد مختار عمر فى كتابه (البحث اللغوى عند العرب) و حبذا لو توالت الأبحاث على هذا المنوال ترتكز على الأسس العتيقة و ترفدها الدراسات الحديثة . فيكون من هذا و ذاك وقود النهضة الواعية و الصاعدة ، بما يربط بماض مجيد أسهم فيه ابن سينا برسالة (أسباب حدوث الحروف) ، و ابن جنى فى (سر الصناعة) ، و ابن سنان الخفاجى فى (سر الفصاحة) ، و واكبهم علماء البلاغة و البيان ، قديماً و حديثاً

و تبرز قيمة و أهمية هذا الحديث عن ابن القيم لغوياً ، حين نعلم أن علوم فقه اللغة و الصوتيات تعنى دائماً بمثل هذه الأحاديث قبل شرح أية نظرية لهم .

يقول أستاذنا الشيخ إبراهيم محمد نجا — رحمه الله — :—

(... و قد كان للعرب فضل كبير فى هذه المباحث الطبعية : (مباحث علوم اللغة) فأجروا التجارب التى مكنتهم من أن يستنبطوا على ضوئها حقائق كثيرة .

فقد ابتكروا كثيراً من الآلات الموسيقية ، كالأرغون ، و الرف ، و الطبلة ، و القيثارة ، و الطنبور ، و العود ... الخ .

و يقول أيضاً فى كتابه (الأصوات) :—

... و من هنا نستطيع أن نقول : إنه لا غنى لدارس (علم الأصوات) عن الالمام بالمبادئ الطبيعية التى تساعده على التعرف على أعضاء النطق . و عن الالمام بالمبادئ الاجتماعية ، لتعرف الأسس التى قامت عليها دلالة الألفاظ : كدراسة النواحى الجغرافية ، و الفلسفية ، و النفسية .

والعرب هم أول أمة عنيت بهذه الدراسة ، هادفين إلى ضبط القرآن الكريم ، و الاهتمام بتلاوته ، و لذلك أطلقوا على هذه الدراسة : (تجويد القرآن) (١) .

(١) التجويد و الأصوات د. نجا ص ٧

فهذا اللون من الدراسة وإن أصبح له فى دنيا الغرب الشأن الكبير، وأفردت له الأقسام و خصصت له المعامل ، و أجريت عليه التجارب ، إلا أن للعرب فى هذا الميدان فضل السبق ، و من حقهم و واجبهم اللحاق بالركب اليوم حفاظاً على لغة القرآن و السنة ، و بيان فضلها و ميزاتها ، و تحقيقاً لما جد و يجد من نفع فى دراسة هذا اللون فى ميادينه المختلفة ، لأن الالغاء الفج كلية لمثل هذه الدراسات تخلف حضارى لا شك فى ذلك .. كما أن الاكتفاء بالقشور قصور علمى « لا يغنى و لا يسمن من جوع » فحبذا لو جد جدنا لنكون — كما كنا — فى المقدمة ، أو على الأقل فى موقف وسط مشرف .

و قد حسدنا الغرب على الأصول التى وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدى(٨٩٩م) لعلم الموسيقى ، و لم يكن هاوياً و لا محترفاً ، و لم يضرب على آلة قط .

كما قد حسدونا على اختراع علم (التجويد) ، و ضبط الألفاظ و طريقة نطقها بما حفظ لنا و للأجيال من بعدنا الطريقة الصحيحة لنطق القرآن الكريم ، كما أنزله الله تعالى إلى نبينا محمد ﷺ ، و علمنا بالتالى كيف تنطق اللغة العربية التى هى وعاء الوحى .

و هذه مقتطفات مما لاحظته فى كتاب (مفتاح دار السعادة) ، لابن القيم رحمه الله فى هذا الصدد ، أسوقها بتعليق خفيف ، و أقارنها بسرعة بغيرها ، ليتبين الفضل لسبق علمائنا ، و غزارة علمهم .

كان ملحظ علمائنا الأوائل دينياً فى كل معارفهم و إن كانت دنيوية ، بمعنى أن الله تعالى كان قبلتهم فى كل شئ ، يقول الامام ابن قيم الجوزية : (خلق - ا سبحانه - الأذن أحسن خلقه و أبلغها فى حصول المقصود منها ، فجعلها مجو كالصدفة لتجمع الصوت ، فتؤديه إلى الصماخ ، وليحس بدبيب الحيوان فيها ، فنبا

إلى إخراجه . و جعل فيها غضوناً و تجاويف و اعوجاجات تمسك الهواء و الصوت الداخل فتكسر حدته ، ثم تؤديه إلى الصماخ ... .

و يشير إلى حكمة الله تعالى فى أنه جعل للانسان حاستين و عضوين كالأذنين و العينين اللتين اقتضت الحكمة تعددهما : فانه ربما أصيبت إحداهما أو عرضت لها آفة تمنعها من كمالها ، فتكون الأخرى سالمة فلا تتعطل منفعة هذا الحس جملة . و كان وجود أنفين فى الوجه شيئاً ظاهراً ، فنصب فيه أنفاً واحداً ، و جعل فيه منفذين حجز بينهما بحاجز يجرى مجرى تعدد العينين و الأذنين فى المنفعة و هو واحد ، فتبارك الله رب العالمين ، و أحسن الخالقين (١) .

و يقول : جعل سبحانه — فى الحلق منفذين ، أحدهما للصوت و النفس الواصل إلى الرئة ، و الآخر للطعام و الشراب و هو المرئ الواصل إلى المعدة ، و جعل بينهما حاجزاً يمنع عبور أحدهما فى طريق الآخر . منعاً للهلاك لو وصل الطعام من منفذ النفس ، [و جعل داخل الأذن مستوياً كهيئة الكوكب ، ليطرد فيه الصوت حتى ينتهى إلى السمع الداخلى و قد انكسرت حدة الهواء فلا ينكؤه] (٢) .

فقد لحظ ابن القيم أن تجويف الأذن تكفل بحفظها حين تشعر بالخطر ، و أن التجاويف تمسك الهواء و الصوت حتى يصل إلى الصماخ فى رفق ، و أن تكرار الأذن فيه جمال و احتياط ، و كذلك العينان ، و هام منفذ الأنف مقامهما بما تركب فيه من حاجز ، و فى الحلق منفذان يحجز بينهما ليقوم كل منهما بما نيط من مهمات حيوية ، و بما يضمن السلامة للانسان الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ، و يعمم ابن القيم فى حديثة ، ثم يخصص زيادة فى البيان ، فيذكر ما أودع الله تعالى فى

(١) مفتاح دار السعادة ٢٠٧ .

(٢) السابق ٢٩٢ .

الرأس ، — كأشرف مكان فى الانسان — و ما أودعه الله فيه من آلات تعين على استمرارية الحياة من جهة ، وتعين على الاختيار و التذوق لتفضيل المناسب والأليق . ثم تؤدى بالتالى نعمة الكلام و البيان ، مع الاشارة إلى الاتصال بينها و بين بعضها فى تناسق وترابط يسير إلى قدرة الخالق والمنعم ، ويذكر العبد بنعم المتفضل سبحانه .

و لأن اللسان أخطر الأعضاء من جهة و أجلها من ناحية أخرى ، و حتى فى تخصيص مكانه و ستره ، فضلا عن لطافته و حاجته إلى الرطوبة لتأدية وظيفته المزدوجة على نحو مرصن و فعال .. كان فى داخل الفم لا خارجه ... ثم ما أحيط به من أسنان و شفاه ... و كانت بدايته فى أقصاه لا فى طرفه ... و كيف كان اختلاف الحناجر معجزة فى عدم تشابه الأصوات ، مما أشبه اختلاف البصمات .. و كان اختلاف الأصوات سبباً فى حفظ الحقوق و العدل حين أباح العلماء للأعمى الشهادة ، لأنه يميز بين الأصوات المختلفة ، فلا تستعصى عليه الشهادة ... تمكيناً للعدالة فى دنيا الانسان ... يقول رحمه الله : فى معرض الرد على الدهريين ، والطبيعيين . مما نسميهم اليوم بالماديين و الملحدين : الله سبحانه شق للعبد الفم فى أحسن موضع و أليقه به ، و أودع فيه من المنافع و آلات الذوق و الكلام ، و آلات الطحن و القطع ما يبهر العقول عجائبه ، فأودعه اللسان الذى هو أحد آياته الدالة عليه و جعله ترجماناً لملك الأعضاء ، مبيناً ، مؤدياً عنه ، كما جعل الأذن رسولا مؤدياً مبلغاً إليه ، فهى رسوله و بريده الذى يؤدى إليه الأخبار ، و اللسان بريده ورسوله الذى يؤدى عنه ما يريد .

و عن وظيفة اللسان ، و مكانه و مكانته ، و ما أحيط به للحفظ و الز... و الاعانة على أداء وظيفته ، يقول :

(و اقتضت حكمته سبحانه ، أن جعل هذا الرسول مصوناً محفوظاً مستو...

غير بارز مكشوف كالأذن و العين و الأنف ، لأن تلك الأعضاء لما كانت تؤدى من الخارج إليه جعلت بارزة ظاهرة ، و لما كان اللسان مؤدياً منه إلى الخارج جعل له ستراً مصوناً لعدم الفائدة فى إبرازه ، لأنه لا يأخذ من الخارج إلى القلب ، و أيضاً : فلأنه لما كان أشرف الأعضاء بعد القلب ، و منزلته منه منزلة ترجمانه و وزيره .. ضرب عليه سرادق تستره و تصونه ، و جعل فى ذلك السرادق كالقلب فى الصدر .

و أيضاً : فانه من ألطف الأعضاء و ألينها ، و أشدها رطوبة . و هو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به فلو كان بارزاً صار عرضة للحرارة و اليبوسة و النشاف المانع له من التصرف ، و لغير ذلك من الحكم و الفوائد .

ثم زين سبحانه الفم بما فيه من الأسنان ، التى هى جمال له و زينة و بها قوام العبد وغذاؤه ... متناسقة الترتيب ، كأنها الدر المنظوم . وأحاط ـ سبحانه ـ على ذلك حائطين ، و أودعهما من المنافع و الحكم ما أودعهما ، و هما الشفتان ... و جعلهما إتماماً لمخارج حروف الكلام و نهاية له ، كما جعل أقصى الحلق بداية له ، و اللسان و ما جاوره وسطاً ، ولهذا كان أكثر العمل فيها له . إذ هو الواسطة ... و خلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال فى الضيق و السعة ، و الخشونة و الملاسة ، و الصلابة و اللين ، والطول و القصر ، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف ، و لا يكاد يشتبه صوتان إلا نادراً ، و لهذا كان الصحيح قبول شهادة الأعمى ، لتمييزه بين الأشخاص بأصواتهم ، كما يميز البصير بينهم بصورهم ، و الاشتباه العارض بين الأصوات كالاشتباه العارض بين الصور » (٦)] و لو تأملنا براعة الامام السكاكى فى توزيع الحروف الأبجدية بين أعضاء النطق ، فى رسم لا يختلف كثيراً

(٦) السابق ٢٨٥ .

عن رسومات المحدثين ، بما حباهم به العصر من منجزات التكنولوجيا المعاصرة ، لازداد اكبارنا لعلمائنا القدامى ، و لشعرنا بالتفوق ، بدلا من الشعور بالدونية و الاحباط] .

و اليوم إذا كان عصر التقدم التكنولوجى — على منجزاته الهائلة — عاجز عن التشريح الدقيق و بيان الوظائف التفصيلية أو شبهها للمخ ، وكيفية عمله ، فلا عجب أن يشير الامام ابن قيم الجوزية إشارات مقتضبة إلى هذا الجانب ، حين يقول :

(و من عجائب خلقه : أنه جعل فى الرأس ثلاث خزائن نافذاً بعضها إلى بعض ، من أسراره ما أودعها ، من الذكر و الفكر ، و التعقل (١) .

و لذا نجد بعض العلماء المعاصرين ، يتعرض لأعضاء النطق بالدراسة التفصيلية ، ما عدا (المخ) ، و يصرح بأنه لن يتعرض له بشئ من التفصيل لدقة تشريحه ، فضلا عن أن التشريح لم يصل بعد لتعرف شأنه تعرفاً تاماً » (٢) .

و يجعل ابن قيم الجوزية التفكر فى مكان يفضل العبادة ، لما ورد فى الآثار ، و لأن الفكرة مخ العقل ، و عبادة الصالحين ، ولذا صرف المتكبرون عن التفكر فى آيات الله : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » (٣) . . . ويفرق بين التذكر والتفكر : بأن الأول يثبت فى القلب ما عرف بالتكرار ، والتفكر يكثر العلم ويستجلب ما ليس حاصلا ، فالفكر يحصله ، والتذكر يحفظه ، ولهذا قال الحسن : (ما زال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، و بالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت بالحكمة) فالتفكر والتذكر بدار العلم ، وسقيه مطارحته ،

---

(١) السابق ٢١٠ .

(٢) التجويد و الأصوات ٩ .

(٣) سوره الأعراف ١٤٦ .

و مذاكرته تلقيحه (١) حتى يقرر : أن أصل كل طاعة إنما هى الفكر ، و أصل كل معصية من جانب الفكرة حين يصادف الشيطان أرض القلب خالية فارغة ، فيبذر فيها حب الأفكار الرديئة .

و يتعرض الامام ابن قيم الجوزية إلى الحديث عما فى داخل الانسان مما لانشاهده ، كالقلب والكبد و الطحال والرئة . . . . و يتحدث عن بعض وظائفها ، مستدلا بذلك على عجائب خلق الله سبحانه ، و يجعل القلب ملكا يستعمل جميع آلات البدن ، و كلها خادمة له ، لأنه أشرفها ، و به قوام الحياة ، و الغرائز ، و الصفات ، ولذا فالعين طليعة ورائدة ، و اللسان ترجمانه المؤدى للسمع ما فيه ، و من ثم فكثيراً ما قرن المولى سبحانه الثلاثة ، كما فى قوله : « إن السمع والبصر و الفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (٢) ، « و جعلنا لهم سمعاً و أبصاراً وأفئدة (٣) » ، و قوله تعالى : « صم بكم عمى فهم لا يعقلون (٤) » ، وبالجملة فسائر الأعضاء خدمه وجنوده ، و قال النبي ـ ﷺ : « ألا إن فى الجسد ، مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد و إذا فسدت فسد لها سائر الجسد ، ألا و هى القلب » [ولله در الشاعر حيث يقول :

فسبحان من لا يقدر الخلق قدره و من هو فوق العرش فرد موحد

و يذكر ابن قيم الجوزية الانسان بمنافع أعضائه : . . و العينان ، للاهتداء والجمال والزينة و الملاحة ورؤية ما فى السموات و الأرض وعجائبهما . والفم للغذاء والجمال

(١) مفتاح دار السعادة ١٩٧ .

(٢) سورة الاسراء ٣٦ .

(٣) سورة البقرة ١٧١ .

(٤) مفتاح دار السعادة ٢٨١ .

ويقرر باحثو علم اللغة حديثاً أن أعضاء النطق فى الانسان لم تكن خاصة بالنطق و الكلام و وقفاً عليه . . بل لها منافع و ميزات أخرى متعددة متنوعة ، و هذا ما أشار إليه ابن قيم الجوزية ، حيث يقول :

(و فى هذه الآلات مآرب أخرى ومنافع سوى منفعة الكلام) .

فى الحنجرة مسلك النسيم البارد الذى يروح على الفؤاد بهذا النفس الدائم المتتابع . و فى اللسان منفعة الذوق فتذاق به الطعوم و تدرك به لذتها ، و يميز به بينها ، فتعرف حقيقة كل واحد منها ، و فيه مع ذلك معونة على إساغة الطعام ، و أن يلوكه و يقلبه حتى يسهل مسلكه فى الحلق .

و فى الأسنان من المنافع ما هو معلوم ، و إسناد الشفتين و إمساكها عن الاسترخاء ، وتشويه الصورة . [و فى الشفتين منافع عديدة يرشف بها الشراب ، حتى يكون الداخل منه إلى حلقه بقدر ، فلا يشرق به الشارب ، ثم هما باب مغلق على الفم الذى ينتهى إليه ما يخرج من الجوف ، ومنه يبتدئ ما يلج فيه ، فهما غطاء و طابق عليه ، يفتحهما البواب متى شاء ، ويغلقهما إذا شاء . وهما أيضاً جمال وزينة للوجه ، وفيهما منافع أخرى سوى ذلك . [وقد بان لك أن كل واحد من هذه الأعضا يتصرف إلى وجوه شتى من المنافع و المآرب و المصالح ، كما تتصرف الأداة الواحدة فى أعمال شتى (١) . . . ثم يعترف بأنه فى تركيب العقل و صيانته ، وعمله . . . ما يحير الألباب و العقول ، و صدق الله « و فى الأرض آيات للموقنين ، و فى أنفسكم أفلا تبصرون » (٢) .

و المحدثون من علمائنا ، ما زالوا يقولون فى مثل هذه الدراسات :

---

(١) السابق ٢٩٠ .

(٢) سورة الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

(إن الجهاز الصوتى عند الانسان بالغ حد الروعة ، لما فيه من مرونة عجيبة :

فقد تهيأ للانسان بتلك المرونة إخراج عدد لا يحصى من الأصوات .

و إن هذا الجهاز لم يكن فى أصل خلقه لاصدار الأصوات ، وإنما كان لكل جزء مهام أخرى : كالتذوق بالنسبة للسان ، و المضغ للاسنان ، و الشم للانف ، و هكذا . .

و لكن عزى إليها الكلام لأهميته (١) .

و قد لا يقدر الانسان نعم الله عليه حق قدرها ، و لا يعرف أهميتها مع تمتعه بها ، بيد أنه إذا أصابها عطب أو تعطلت عن القيام بواجبها . . فان شعوره بالحسرة على فقدها يتضاعف . . بل إن الشعور بالألم يضاعف الألم أكثر مما يحسه الانسان، إذا تخيل أنه فاقد لحاسة من حواسه ، أو حرم من نعمتها بعد الانعام بها . لذلك يضع ابن قيم الجوزية أمام الأنظار . . ما يعظم لدى الانسان نعمه عليه من المنعم . . ويقارن بين المصائب والعلل ، أيها أكثر ضرراً و أشد تعويقاً للانسان . . وبخاصة فيما يتعلق بأمور الدين . . يقول :

« إن فقد البصر أشد ضرراً من فقد السمع لأنه أسلبهما ديناً ، وإذا صبر فله الجنة . . وقد كان فى الصحابة أضراء ، و لم يكن فيهم أطروش . . و المعافى من عافاه الله منهما ومتعه بسمعه و بصره ، و جعلهما الوارثين منه (٢) » .

و الهواء حياة الأحياء ، و ناقل الصوت و معبر الكلام إلى السامع ، فما قيمة الهواء ؟ و ما هو ؟

يقول ابن قيم الجوزية عن : (الهواء) وما فيه من المصالح ، فهو حياة الأبدان ، وتطرد الأصوات فتحملها و تؤديها كالرسول الحامل للبريد و الأخبار ، وصلاح حياة

(١) التجويد و الأصوات ٩ .

(٢) مفتاح دار السعادة ٢٨٦ .

الحيوان و النبات ، و حامل المطر كالراوية ، و يتفرق فى الجو حتى لا ينزل المطر جملة فيكون مهلكا . ويلقح الشجر و النبات حتى لا تكون عقيما ، و تسير السفن ، و تبرد الماء ، وتجفف المبتل ، و تضرم النار ... و لو ركدت لأنتن العالم ، وتلفت النفوس و النباتات و استشرى الوباء ... ولذا قال الرسول - ﷺ - فى الرياح : إنها من روح الله ، تأتى بالرحمة »

ثم ينبهنا إلى لطيفة اللطائف فى هذا الهواء ، (مما يعنينا فى موضوعنا هذا) ، فى هذا الهواء ، و هى : (أن الصوت أثر يحدث عند اصطكاك الأجرام ، و ليس نفس الاصطكاك ، كما قال ذلك من قاله ، ولكنه موجب الاصطكاك ، وقرع الجسم للجسم ، أو قلعه عنده ، فسببـــه قرع أو قلع ، فيحدث الصوت ، فيحمله الهواء و يؤديه إلى مسامع الناس ، فينتفعون به فى حوائجهم و معاملاتهم بالليل و النهار ، وتحدث الأصوات العظيمة من حركاتهم . [فلو كان أثر هذه الحركات و الأصوات يبقى فى الهواء ، كما يبقى الكتاب فى القرطاس لامتلاء العالم منه ، ولعظم الضرربه ، و اشتدت مؤنته ، و احتاج الناس إلى محوه من الكلام فى الهواء و الاستبدال به أعظم من حاجتهم إلى استبدال الكتاب المملوء كتابة ، فان ما يلقى من الكلام فى الهواء قرطاساً خفياً ، يحمل الكلام بقدر مايبلغ الحاجة ، ثم يمحى باذن ربه ، فيعود جديداً نقياً لا شئ فيه ، فيحمل ما حمل كل وقت) (١) .

و هذا وصف مبسط عند المحدثين لحرف من الحروف العربية ، يتبين منه كيف يتكون ، و المراحل التى مر بها ، حتى صار حقيقة تدرك و معجزة تحققت ، [مثلا (حرف التاء) : وصف علماء الأصوات بأنه : حرف مهموس ، شديد ، مستقل ، منفتح ، ومصمت ، ويرجع همسه لعدم اهتزاز الأوتار الصوتية حال نطقه

(١) السابق ٢٨٩ .

لانبساط فتحة المزمار ، واتساع مجرى الهواء . كما أن شدته ترجع إلى حجزه الهواء خلفه حجزاً تاماً حال تقابل عضوى النطق ، و هما طرف اللسان و أصول الثنايا العليا . [وهو عند المحدثين انفجارى . نظراً لانطلاق الهواء بقوة حال انفصال هذين العضوين عن بعضهما . [و نظراً لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلا كان مستفلا ، و منفتحاً .] ولما لم يعد ضمن حروف الخفة (مر بنفل) كان مصمتاً .

و يتكون هذا الحرف مصاحباً لهواء الرئتين ، فيمر بالقصبة الهوائية إلى أن يصل إلى الحنجرة فتنبسط فتحة المزمار ، و يبتعد الوتران الصوتيان عن بعضهما بما يسمح لمجرى الهواء بالاتساع ، مما ينجم عنه عدم الاهتزاز للاوطار الصوتية ، و من ثم عد هذا الحرف مهموساً ، ثم يتابع الهواء سيره ، ماراً بالحلق فاللسان إلى أن يتصل طرفه بأصول الثنايا العليا اتصالا محكماً يمنع الهواء من التسرب و لذلك عد (شديداً) وعندما ينفصل العضوان عن بعضهما ينطلق الهواء بقوة، ولذا سمى انفجارياً عند المحدثين ، ونظراً لعدم ارتفاع اللسان به إلى أعلا كان (مستفلا) و (منفتحاً) ، وهو مصمت لما سبق، ونظراً لغلبة الصفات الضعيفة عليه ، يعد من الحروف الضعيفة (٢٢) .

هذا ماقرره العلم الحديث لحدوث الصوت . . فما هو تصور ابن القيم فى هذا الجانب ؟ علما بأن هذه المعلومات من ابن القيم مر عليها قرابة الستة قرون ! ! !

يتصور الامام ابن قيم الجوزية ، حدوث الصوت اللغوى على النحو التالى ، يقول (... ثم تأمل فى هذا الصوت الخارج من الحلق ، وتهيئة آلاته ، و الكلام و انتظامه ، و الحروف و مخارجها ، وأدواتها ومقاطعها و أجراسها . . تجد الحكمة الباهرة فى : هواء ساذج يخرج من الجوف فيستهلك فى أنبوبة الحنجرة حتى ينتهى إلى الحلق و اللسان و الشفتين و الأسنان ، فيحدث له هناك مقاطع ، و نهايات ،

(٢٢) التجويد و الأصوات ٥٠ .

وأجراس ، يسمع له عند كل مقطع ونهاية بين منفصل عن الآخر ، يحدث بسببه الحرف. فهو صوت واحد ساذج يجرى فى قصبة واحدة ، حتى ينتهى إلى مقاطع و حدود تسمع له منها تسعة و عشرين حرفاً ، يدور عليها الكلام كله : أمره ونهيه ، و خبره و استخباره و نظمه ونثره وخطبه و مواعظه و فضوله ... . . . ومنه الكلمة التى لا يلقى لها بالاصاحبها يهوى بها فى النار . . . والكلمة التى يرضى عنها الله ، صاحبها يركض بها فى أعلا الجنان ، فى جوار رب العالمين . فسبحان من أنشأ ذلك كله من هواء ساذج ، يخرج من الصدر ، لا يدرى ما يراد به ، ولا أين ينتهى ، ولا أين مستقره . هذا إلى ما فى ذلك من اختلاف الألسنة و اللغات ، التى لا يحصيها إلا الله . . . و اللسان الذى هو الجارحة واحد فى الشكل و المنظر ، و كذلك الحلق و الأضراس و الشفتان ، و الكلام مختلف متفاوت أعظم تفاوت) (١) . . .

وعن تركيب آلات الكلام وعملها ، ومخارج الحروف و صفاتها . . . يحدثنا ابن قيم الجوزية ، بما لا يبعد عن الذى قرره علماء الأصوات حديثاً ، يقول : (فانظر الآن فى الحنجرة ، كيف هى كالأنبوب لخروج الصوت ، واللسان والشفتان و الأسنان لصياغة الحروف و النغمات ، ألا ترى أن من سقطت أسنانه لم يقم الحروف التى تخرج منها ومن اللسان . ومن سقطت شفته كيف لم يقم اللام والراء و من عرضت له آفة فى حلقه كيف لم يتمكن من الحروف الحلقية ! !)

و قد شبه أصحاب التشريح مخرج الصوت بالمزمار و الرئة بالزق الذى ينفخ فيه من تحته ليدخل الريح فيه و الفضلات التى تقبض على الرئة ، ليخرج الصوت من الحنجرة بالأكف التى تقبض على الزق ، حتى يخرج الهواء فى القصب و الشفتين و الأسنان ، التى تصوغ الصوت حروفاً ونغماً بالأصابع التى تختلف على المزمار

(١) السابق ٤٩٠ .

فتصوغه ألحانا ، و المقاطع التى ينتهى إليها الصوت بالأنحاش التى فى القصبة . حتى قيل : إن المزمار إنما اتخذ على مثل ذلك من الانسان . [فاذا تعجبت من الصناعة التى تعملها أكف الناس ، حتى تخرج منها تلك الأصوات « فما أحراك بطول التعجب من الصناعة الالهية التى أخرجت تلك الحروف والأصوات من اللحم والدم والعروق و العظام ! وما بعد ما بينهما !

ولكن المألوف المعتاد لا يقع عند النفوس موقع التعجب ، فاذا رأت ما لا نسبة له إليه أصلا إلا أنه غريب عندها تلقته بالتعجب وتسبيح الرب تعالى و عندها من آياته العجيبة ماهو أعظم من ذلك ، مما لا يدركه القياس .] ثم تأمل اختلاف هذه النغمات وتباين هذه الأصوات مع تشابه الحناجر و الحلوق و الألسنة و الشفاه و الأسنان ! ! فمن الذى ميز بينهما أتم تمييز مع تشابه محالها . . سوى الخلاق العليم (١) و من الحروف تتألف الكلمات ، و من الكلمات تعبير وبيان لمن رق طبعه ، ولطف حسه ، و من البيان سرور وروعة .

و عن نعمة البيان و أقسامه ، و مراتب الوجود ، ومدح من انتفع بذلك ، وذم سواه : يحدثنا العلامة ابن قيم الجوزية ، فيقول : ـ

(ثم تأمل نعمة الله على الانسان بالبيانين : البيان النطق ، و البيان الخطى ، و قد اعتد بها سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمه على العبد ، فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك . يعلم » . فقدتضمنت الآيات على إيجازهـا مراتب الخلق و الوجود : من ذكر عموم الخلق ، وهو إعطاء الوجود الخارجى . ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الانسان ثم ذكر ثالثا : التعليم بالقلم ، الذى هو من أعظم نعمه على عباده ، إذ به خلود العلوم ، و ثبات الحقوق ، و تعلم الوصايا ، و الحفظ و الضبط ... إلخ

(١) السابق ٣٠٠ .

(فالله) أعطى (الانسان) الذهن الذى يعى به ، و اللسان الذى يترجم ، به و البنان الذى يخط به ، وهيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات .

و التعليم بالقلم يستلزم مراتب الوجود الثلاثه ، و التى هى مسندة إليه سبحانه خلقاً وتعليماً ، وهى : مرتبة الوجود الذهى ، والوجود اللفظى ، والوجود الرسمى .. فمن فضله و كرمه ذكر تعليمين : خاصاً ، وعاماً ، وكذلك خلقين عاماً وخاصاً

وكذلك المتأمل فى قوله تعالى : « الرحمن . علم القرآن . خلق الانسان . علمه البيان » . يرى أنه سبحانه أعطى مراتب الوجود بأسرها : الايجاد الخارجى فى خلق الانسان ، و الوجود العلمى الذهنى فى تعليم القرآن . و تعليم البيان يتناول البيان الذهنى ، الذى يميز فيه المعلومات . والبيان اللفظى الذى يعبر عن المعلومات ويترجمها .

والبيان الرسمى الخطى ، الذى ترسم به تلك الألفاظ فتبين معانيها للناظر إليها. فهذا بيان للعين ، و الثانى بيان للسمع ، و الأول بيان للقلب .

ولذا جمع سبحانه بين الثلاثة فى مثل قوله : « إن السمع و البصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . وقوله : « و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، و جعل لكم السمع و الأبصار و الأفئدة لعلكم تشكرون » (١) ويذم من عدم الانتفاع بها فى اكتساب الهدى و العلم النافع ، كقوله : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » (٢) وقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم ، و على سمعهم ، و على أبصارهم غشاوة » (٣) .

(١) سورة النحل ٧٨ .

(٢) سورة البقرة ١٨ .

(٣) سورة البقرة ٧ .

وفى هذا الصدد يوضح المقام فى بيان ومنطقية ما قاله شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى ـ فى كتابه : « مذهب السلف القويم . فى تحقيق مسألة كلام الله القديم » ، خلاصة لما سبق فى عبارة وجيزة :

« بأن لكل شئ أربعة وجوادت : وجود خارجى هو الوجود فى الأعيان . و وجود علمى هو الوجود فى الأذهان ، و وجود لفظى هو الوجود فى النطق و اللسان . و وجود رسمى و هو الوجود فى الخط بالبنان . و لكون تعليم الخط يستلزم غالباً تعليم العبارة و اللفظ المستلزم لتعليم العلم . قال تعالى : « علم بالقلم » و أطلق التعليم ، ثم خص فقال : « علم الانسان مالم يعلم » (١) .

ختاماً ، يجب أن نعلم أن للعرب فضلا كبيراً فى هذه المباحث الطبيعية ، انتفعت بها أروبا إبان نهضتها ، و من هناك ندرك أن الأجداد لم يقصروا فى حق الأبناء ولم يقصروا أيضاً فى تأدية رسالتهم ، وبقى دور الأحفاد ، حبذا لو علمنا ذلك ، و درسناه لأبنائنا و طلابنا .

(١) سورة العلق . ٥ .
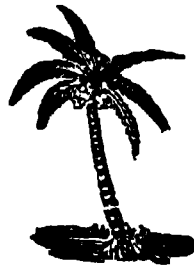
الحركات الاسلامية و دور الشباب فيها

لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز

الحمد لله رب العالمين ، و لا عدوان إلا على الظالمين ، و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و إمام الأولين و الآخرين و على آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فان الله سبحانه و تعالى ، قد جعل شريعة محمد ﷺ هي خاتمة الشرائع الاسلامية ، ورضى الاسلام ديناً لخير أمة للناس ، كما بعث الرسل جميعاً بدين الاسلام و جعله الدين المرضى له ، دون غيره من الأديان قال تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام (١) » و قال سبحانه و بحمده : « اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام ديناً (٢) » و قال عزوجل : « و من يبتغ غير الاسلام ديناً ، فلن يقبل منه ، و هو فى الآخرة من الخاسرين (٣) » .

فالكمال الذى هيأه الله فى الشريعة الاسلامية التى بعث الله بها محمداً ﷺ مبعثه فى هذه الشريعة ، و أوامرها و تعليماتها ، من تحقيق لكل ما تحتاجه النفوس و تتطلبه المجتمعات مهما جد فى حياتها من مؤثرات أو ظهر من اختراعات .

ذلك أن بعض ديانات الأرض اليوم المخالفة للاسلام لايجد المتمعن فى معتقداتها ما يتلائم فكراً وعملا مع متطلبات و مظاهر حياة هذا العصر ، ولا ما يريح النفوس من المؤثرات المحيطة ، فنشأ لديهم رغبة بفصل الدين عن الدولة فى مثل قولهم : دع ما لقيصر لقيصر و ما لله لله .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩ . (٢) سورة المائدة آية ٣ .

(٣) سورة آل عمران آية ٨٥ .

لكن الموضوع فى الاسلام يختلف ، لأن النفوس عند ما تشعر بالأزمات تنتابها وبالمشكلات تحل قريبا منها ، تجد فى دين الاسلام و تشريعاته الراحة والمخرج ، وكلما بعدت عن دين الاسلام و ضعف وازع الايمان فيها كلما كثرت الهموم فى النفوس وتعددت المشكلات فى المجتمع ، وهذا ما يسمونه فى العصر الحاضر : القلق النفسى .

و لا شئ يطمئن القلوب ، و يريح النفوس إلا الرجوع إلى الله و امتثال شرعه و التحلى بالصفات و الأعمال التى دعا إليها دين الاسلام .

فالقرآن الكريم وهو كتاب الله المبين ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يتطرق إليه الشك لأنه منزل من حكيم حميد لا تخفى عليه خافية وهو العالم بمصالح العباد فى العاجل و الآجل ، و كتابه الكريم هو المصدر الأول لعقيدة الاسلام و أحكامه . و هو الذى يعطى المؤمنين علاجا لقلوبهم ، و إراحة لضمائرهم بذكر الله ، وتعويد اللسان على هذا العمل ، « ألا بذكر الله تطمئن القلوب (١) » .

و فى عصرنا الحاضر ، مع تداخل الشعوب ، و احتكاك الأمم ، و كثرة المؤثرات و المخترعات و تباين الثقافات و اختلاطها بتطور وسائل الاعلام ، وسرعة توصيلها للعلومات من مكان لآخر ، و تقارب البلاد من أطراف الأرض بعضها من بعض ، بحيث أصبحت هموم بعضهم تؤرق البعض الآخر ، نراهم يجربون حلولا مختلفة ، من شعارات و مبادىء لتريح نفوسهم ، و تخفف من آلام مجتمعاتهم و تحل بعضاً من مشكلاتهم .

لكنها لم تجد شيئاً ، و لم تخفف عما داخل نفوسهم ، و خلخل مجتمعاتهم ، لأنها لم تكن من عند الله ، و لا صادرة عن شرعه الذى شرع لعباده ، وصدق الله إذ يقول موضحا مكانة القرآن الذى حفظه الله عن العبث و التغيير ، و نزهه عن

---

(١) سورة الرعد آية ٢٨ .

الخلافات والمتناقضات : « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً (١)»، و قال سبحانه : « و لا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق ، و أحسن تفسير (٢)» ، و قال عزوجل : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ ، وهدى و رحمة وبشرى للمسلمين (٣) » .

نتيجة لتلك القلاقل التى نشأت فى المجتمعات فى كل مكان ، و نشأ عنها تصرفات عجيبة من الشباب فى الغرب والشرق ، بعضها يضحك الثكلى ، وشر البلية ما يضحك . اهتم الباحثون من رجال تلك الديار ، لمعرفة الأسباب و المؤثرات . و محاولة فرض الحلول المعينة على تلك الهواجس ، فتهاووا فى طرق متشعبة ، وظلوا فى حيرتهم يعمهون ، و ارتدت دراساتهم و حلولهم عليهم ، خاوية الوفاض ، مزجاة البضاعة . و وجدوا أن الصامدين براحة نفس ، وهدوء بال ، أمام هذه العواصف هم المسلمون الملتزمون بدينهم ، المحافظون على شعائر ربهم ، لكنهم يريدون طمس هذه الحقيقة التى لا تتفق مع منهجهم و نظرتهم نحو عقيدة الاسلام ، منذ أزمان بعيدة .

ولذا نراهم يوهمون أبناء المسلمين ، بأن فى دينهم عيوباً . وعجزاً عن مواكبة الحياة الحاضرة ، وفى الحقيقة ما هذا الذى يتحدثون عنه إلا عيوب فى معتقداتهم ، ألصقوها بالاسلام ، بعد أن عجزوا عن إيجاد حلول لها .

أما أبناء المسلمين ممن أنار الله بصائرهم ، فانهم قد ارتاحت نفوسهم بالعودة لتعاليم الاسلام ، و أخذ أوامره علاجا لكل جديد وفد على مجتمعاتهم ، آخذين رسول الله ﷺ قدوة المنهج ، و معلما يسترشد بقوله و فعله فى كل موقف . يفزع إلى الصلاة كلما حزبه أمر ، و يقول لبلال رضى الله عنه : « أرحنا يا بلال

(١) سورة النساء آية ٨٢ .
(٢) سورة النحل آية ٨٩ .
(٣) سورة الفرقان آية ٢٣ .

بالصلاة » ويقول : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » وهذا تحقيق لقول الله تعالى :
(واستعينوا بالصبر و الصلاة (١) الآية .

و ما هـذه الحركات الاسلامية التي تنبع من الشباب في كل بلد إسلامي إلا عودة جديدة لدين الاسلام الذي تريح أوامره و شرائعه النفوس ، و تتجاوب مع متطلبات المجتمعات في كل عصر و مكان .

و الشباب في أي أمـة من الأمم ، هم العمود الفقري الذي يشكل عنصر الحركة ، و الحيوية إذ لديهم الطاقة المنتجة ، و العطاء المتجدد ، و لم تنهض أمـة من الأمم غالبا إلا على أكتاف شبابها ، الواعي ، و حماسته المتجددة .

إلا أن اندفاع الشباب لا بد أن تسايره حكمة من الشيوخ ، ونظرة من تجاربهم و أفكارهم و لا يستغني أحد الطرفين عن الآخر .

و إن أمة الاسلام ، وهي أمة الرسالة الباقية ، وذات الصدارة بين الأمم عند ما أكرمها الله بهذا الدين ، وببعثة سيد المرسلين محمد ﷺ ، كان للشباب مكان بارز في ركب الدعوة المباركة ، كما كان للشيوخ مكان الصدارة في التوجيه والمؤازرة .

و انطلق الجيل بقيادة محمد بن عبد الله عليه الصلاة و السلام ، يؤسسون دولة الاسلام الأولى و التي امتدت إلى آفاق بعيدة ، و رفرفت راية الاسلام عالية فوق غالب المعمورة ، في عصور الاسلام المختلفة التي كان الشباب في الطليعة يذودون عن حياض الاسلام ، ويدافعون عن ديار المسلمين ، باليد واللسان ، علما وعملا .

ففي الوقت الذي كانوا يتقدمون فيه صفوف الجهاد لاعلاء كلمة الله كانوا أيضاً يتزاحمون بالمناكب في حلقات العلماء وجلسات الشيوخ ، يلتقطون الحكمة من أفواههم ، يستنيرون بما عندهم من علوم ، و يتلقون منهم النصح و الارشاد ، و يستفيدون

(١) من الآية ٤٥ البقرة .

و الصواب ، بالحكمة و الموعظة الحسنة لاستعدادهم لتقبل التوجيه ، من منطلق الرأى الصائب ، الذى يحدده الاسلام ، و يحث عليه .

٢ — الحرص على إيجاد القدوة الحسنة من المدرس ، وفى المدرسة والبيت ، والنادى و الشارع و فى أسلوب التعامل . و عدم وجود المظاهر المنافية للاسلام ، والتى قد تحدث لديهم شيئاً من الشك و الريبة أو التردد فى القبول ، أو اعــتزال المجتمع ، والشكوك فيه ، بدعوى أنه مجتمع غيرمطبق للاسلام يقول أبناؤه بخلاف ما يعملون .

و بهذا كله يحصل الانفصال ، وتحدث التصرفات المتسرعة غير المنضبطة ، والتى تكون نتائجها غير سليمة على الفرد و المجتمع ، و على العمــل الاسلامى و لا تعود بالفائدة المرجوة على الشباب أنفسهم .

٣ — عقد لقاءات مستمرة مع الشباب ، يلتقى فيها ولاة الأمر و العلماء والمسؤولو فى البلاد الاسلامية بالشباب تطرح فيها الآراء و الأفكار و تدرس المشكلات درا متأنية و تعالج فيها القضايا و المسائل التى تحتاج إلى جواب فاصل ، فيما عرض ح لا تتسرب الظنون الخاطئة و تتباعد الأفكار ، و ينحرف العمل الاسلامى الذ يتحمس له هؤلاء الشباب ، لغير الدرب الحقيق ، و المنطق الذى رسمته تعاليمه .

و تتم هذه اللقاءات فى جو من الانفتاح لابداء الرأى المتسم بالأخوة و ا و الثقة المتبادلة بعيداً عن التعصب للرأى ، أو التسفيه للآراء ، أو تجهيل الآخري

إن الشباب بتوجيهم و رعايتهم ، مثل النبتة إذا أحسن الزارع رعايتهـا و أثمرت ، و إذا أهملت تعثر نموها و فقد الثمر منها مستقبلا .

و الشباب فيه طاقة حيوية ، يحسن الاستفادة منها و تنميتها ، و أسلم فى الحياة يربط الشباب بدينه و علمائه و أمته و بلاده ، هو منهج الاسلام : ابتعد الشباب عن منهج دينهم الواضح . و سلكوا طريق الغلو أو الجفاء، أو ال

و الانعزال فان النتائج ستكون وخيمة ، و لا حول ولا قوة إلا بالله .

و إن مسؤولية ولاة الأمور : من قادة وعلماء و مفكرين ، مسؤولية عظيمة ، فى الأخذ بأيديهم و رعايتهم و توجيههم نحو منهج الاسلام ، و توضيحه لهم ، ليأخذوه ، منهجاً و سلوكاً ، وليسيروا وفق تعاليم شريعته ، قدوة و تطبيقاً .

و هذا من أوجب الأمور ، و ألزم الواجبات و هو من باب النصح لله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين عامتهم ، الذى به يتكمل الايمان ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ .

كما أن ترك الشباب عرضة للافكار الهدامة ، والتصورات الخاطئة وعدم الأخذ بيده ، و تفهم آرائه و أفكاره ، و الاجابة عن كل تساؤلاته ، و إيضاح الرأى الصحيح أمامه ، ليتجنب كل ما يضر ويسلك ما ينفع ، كما فعل سلفنا الصالح (رضوان الله عليهم) و فى عصور التاريخ المختلفة حيث لم يحدث ردود فعل ذات خطر على الفرد و الجماعة .

فليتعاون ولاة الأمور كباراً و صغاراً ، علماء و متعلمين ، مفكرين ومسؤولين مع الشباب فى البيوت و المدارس ، فى المجتمعات والجامعات ، كل هولاء يتعاونون على إرشاد الشباب و توجيهه ، و تهيئة الأجواء السليمة التى يبدع فيها ، فى ظل العقيدة الاسلامية السمحة و تفكير الاسلام الصائب .

و الله نسأل ان يوفق أمة الاسلام شيباً و شباباً ، قادة وشعوباً ، إلى العمل بما يرضى الله توجيهاً و تبصيراً و عملا و اقتداء ، و أن يصلح القلوب و الأعمال ، و أن يهدى الجميع صراطه المستقيم ، إنه ولى ذلك و القادر عليه ، و هو الهادى إلى سواء السبيل ، و صلى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه وسلم .

تصحيح خطأ تاريخي :

لا علاقـــة بين الوهابيـــة الرستمية

و

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية

بقلم د. محمد بن سعد الشويعر

رئيس تحرير مجلة البحوث الاسلامية (الرياض)

أطلق خصوم دعوة الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب السلفية التصحيحية ، التى نبعت من الجزيرة العربية ، لإزالة ما علق بتعاليم الاسلام من شوائب ، و ما أدخل على التوحيد وخاصة توحيد الألوهية وتوحيد الأسماء و الصفات من مشاركة للخلوق مع الخلق ، فى صرف ما هو له جل وعلا ، و إشراك المخلوق .

نقول: إن أولئك الخصوم أعطوا هذه الدعوة اصطلاحاً فى اللقب هو « الوهابية» من باب التنفير ، حيث حركت ذلك الاصطلاح ودعت إليه بعض الطرق الصوفية و مصالحها فى تضليل العوام ، فوافق ذلك هوى فى نفوس أعـداء الدين الاسلامى الحريصين على تفكيك أبنائه و غرس بذور الشر بينهم ، لأنهم أدركوا مايرمى إليـ إذكاء هذا و تنميته .

و هذا الموضوع و إن كان قد كتب فيه كثيراً ، نسأل الله أن ينفع المسلم بمـا كتب لهم ، وأن يعيد ضالهم إلى الطريق الأقوم فهو سبحانه القادر على ذلك

إلا أن الذى لفت نظرى فيه ، و دفعت للحديث هو ما وجدته فى كتـا فقهى قديم ، على مذهب الامام مالك ، وله رغبة فى نفوس إخواننا المغاربة ، و طبع حديثاً و اسمه « المعيار المعرب ، والجامع المغرب ، عن فتاوى علماء أفريقية و الأندلس و المغرب » و المؤلف هو : أحمد بن يحيى الونشريسى ، فقد رأيت الجزء ١١ ص ١٦٨ عنوان سؤال هو : كيف يعامل معتنقو المذهب الوهابى ؟؟!!

و فى قراءتى لنص السؤال وجدته كما يلى : سئل اللخمى عن قوم من الوهبية سكنوا بين أظهر أهل السنه زماناً ، و أظهروا الآن مذهبهم ، وبنوا مسجداً . إلى آخر ما جاء فى السؤال .

و لما كان الجواب فيه قساوة وحدة ، فقد أحببت التثبت أولا عمن يعنى ، ثم إزالة ما فى الأمر من لبس؟ ذلك الاشتباه الذى قد لا يدركه كثير من الناس.

رجعت لترجمة حياة على بن محمد اللخمى ، و إذا هو قد توفى عام ٤٧٨هـ [أنظر الأعلام ٥ : ١٤٨م] كما وجدت على غلاف كل جزء من أجزاء « المعيار » بأن المؤلف أحمد بن يحيى الونشريسى قد توفى بفاس عام ٩١٤هـ .

و لما كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب و هو صاحب الدعوة التجديدية السلفية فى نجد لم يكن قد ولد بعد ، حيث إن ولادته كانت فى عام ١١١٥هـ .

و على هذا فان الجواب ، الذى ترتب من السؤال قد سبق ولادته بأكثر من ستمائه عام بالنسبة لوفاة المجيب و هو اللخمى ، وأكثر من مائتى عام بالنسبة للمؤلف و هو الونشريسى ، و هذا الأمر قد دفعنى للبحث تاريخياً فى كتب المغرب ، من أهل ذلك المذهب ومتى وجد خاصة ، وأن هذا السؤل و حوابه قد جاء فى كلام الونشريسى مرة باسم الوهبية ، و أخرى بالوهابية ، ولم يعلق الناشر أو المحقق عليه بشئ . مما يجعلنى اعتقد أن كثيراً من كتب المغاربة وخاصة منها ما يتعلق بالعقائد ، قد تعرض إليه بشئ من التوضيح .

و قد تراءى أمامى أثناء البحث ما يلى :ـ

١ـ جاء فى كتاب المغرب الكبير للدكتور السيد عبد العزيز سالم عبد الرحمن : أن ابن رستم الذى أسس الدولة الرستمية فى مدينة تاهرت بالمغرب ، عندما أحس بدنو أجله فى عام ١٧١هـ أوصى بالأمر لسبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية

ومن بينهم ابنه عبد الوهاب ، و يزيد بن فنديك ، و قد بويع عبد الوهاب . مما ترتب عليه نشؤ خلاف بينه و بين ابن فنديك :

و قد انقسمت الاباضية ـ التي هي ديانة ابن رستم ومن معه ـ بذلك إلى فرقتين : الوهابية نسبة إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ، والنكارية . و دارت بين الطرفين معارك ومقاتل تنهزم فيها النكارية ، إلى أن قتل زعيمها ابن قنديره . و في حالة ضعف من النكارية انضم إليهم الواصلية المعتزلة .

و قد عزم عبد الوهاب هذا على الحج في آخر حياته ، إلا أن أتباع نصحوه بالبقاء في « نفوسه » خوفاً عليه من العباسيين . وقد توفى عبد الوهاب هذا الذي يعتبر المؤسس للدولة الرستمية ذات الاتساع في شمال إفريقيا عا ٢١١هـ [انظر الجزء الثاني من ص ٥٥١ إلى ص ٥٥٧ طباعة دار النهض العربية بيروت] .

٢ـ أما المؤلف الفرنسي « شارلي أندرى » فقد تحدث في كتابه تاريخ إفريقيا الشما تعريب محمد مزالي ، و البشير بن سلامة من ممالك الخوارج ، و من ع مملكة تاهرت التي هي الدولة الرستمية ، و قد أفاض في حديثه من معتقدا و اتساعها و معالمها الحضارية ، و أبان بأنها تخالف أهل السنة في المعتقد [انظر الجزء الثاني من ص ٤١ إلى ص ٤٨] .

٣ـ كما تحدث الفرديل في كتابه الفرق الاسلامية في الشمال الأفريقي من ال العربي حتى اليوم ، و قد ترجم هذا الكتاب من الفرنسية عبد الرحمن : بدوى : من الخوارج الوهبيين الذين سمعوا نسبته إلى عبد الله بن وهب الر الذى قاتله الامام على بن أبي طالب رضي الله عنه في النهروان ، وعن انقس و قال : بأن أباضيبة المغرب في تاهرت منهم ، و هم الذين كانت د الرستمية ، و كانو أشد الفرق تعصباً .

ثم قال عن أتباع عبد الوهاب بن رستم : بأنهم أشد الأباضية تقوى ، و كانوا يكرهون الشيعة قدر كراهيتهم لأهل السنة [أنظر ص ١٥٠ ، وانظر من ص ١٤٠ ـ ١٥١ فى هذا الكتاب] .

وهذه النبذ الصغيرة تدل على أن هذه الفرق قد رصدعنها أشياء كثيرة من أبناء البلاد و ليس من الفرنسيين و حدهم ـ مما لم نطلع عليه ـ لأن عبد الوهاب هذا قد جعل من تاهرت مركزاً فكرياً ، وفتح باب الجدل مع علماء السنة ، مما تبلور عنه آراء تفند معتقداتهم التى تتخالف مع ما يراه أهل السنة والجماعة و تثبت به الأحاديث الصحيحة .

و هذا الحوار الفكرى هو الذى تفتق عنه جذور عميقة عند علماء و فقهاء المغرب حول هذه الفرقة و معتقداتها .

و قد استغل المستعمرون و أصحاب المصالح تلك الجذور ، فى إذكاء العداوة بين أبناء المسلمين فألبسوا الثوب القديم ، بما فيه من عيوب وحزازات ، الدعوة الجديدة التى جاءت لاصلاح العقائد .

فالانجليز مثلا لمسوا آثار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية فى أعظم مكان يعتزون باستعماره و الاستيلاء على خيراته ، عندما تلقفها المسلمون الهنود على يد الداعية الاسلامى : الامام أحمد بن عرفان الشهيد . وأتباعه ، و فى حركات أخرى مثل : الفراتفيين و تيتوميان « نزار على [أنظر انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب خارج الجزيرة العربية تأليف محمد كمال جمعة ص ٦٢—٨٧] .

تلك الدعوات التى ناوأت القاديانية الكافرة ، التى أرادها الانجليز واجهة إسلامية تحقق مآربهم .

و يظهر انزعاج الانجليز ، و حرصهم على القضاء على دعوة الشيخ محمد بن

عبد الوهاب التى تمثل يقظة جديدة فى الدين الاسلامى، ودعوة إلى فهمه من مصادره الصافية كتاب الله و سنة رسوله محمد ﷺ ، أنهم بذلوا جهوداً و أموالا فى هذا السبيل .

و قد أبانت رحلة « سادلير » نائب الحاكم البريطانى فى حكومة الهند الشرقية . الذى قام برحله شاقه من الهند إلى أن وصل الرياض ، و وقف على أطلال الدرعية التى هدمها ابراهيم باشا بناء على اتفاق سبق مع الانجليز ، ليطمئن على القضاء على قاعدة الدعوة السلفيــة بنفسه ، لما أحدثته من خوف و قلق فى داخل الحكومة الانجليزية خوفاً على مصالحها . وبعد أن ارتاحت نفسه شد الرحال لاحقاً بابراهيم باشا حتى أدرك فى آبار على ، على مقربة من المدينة المنورة ليقدم له التهانى بهذا النصر و لكى يطمئن الحكومة البريطانية على نتائج القضـاء على قادة هذه الدعوة و ذلك عام ١٢٢٣هـ .

لكن الأغرب من ذلك أن يقول سادلير عن ابراهيم باشا: بأنه تناول الطعام على الطريقة الانجليزية ، وأنه تحدث معه عن رحلته ، وأعطاه الهدايا البريطانية و الخطابات ، قبل دخوله المدينــة للسلام عـلى الرسول ﷺ [أنظر رحلة سادلير الموجود نسخة منها بمكتبة أرامكو باللغة الانجليزية تحت الرقم ٩١٥،٢،٥٦٠٢ و هى حدود ٨٠ صفحة] .

و الفرنسيون أيضا لهم دور ، فقد أحسوا باهتمام المغاربة بدعوة الشيخ محمد عبد الوهاب لأن سيدى محمد بن عبد الله العلوى ، الذى كان سلطاناً على المغرب الأ[...] قد قام بمحاربة البدع و الانحراف ، كما كان يحارب تشعب الطرق الصوفية ، و [...] إلى العودة إلى الاجتهاد وإلى السنة [انتشار دعوة الشيخ السابق ذكره ص ٢٣٥

هذا السطان هو الذى وصفه المؤرخ الفرنسى شارلى جوليان بقوله : و سيدى محمد و هو التقى الورع على علم بواسطة الحجيج بانتشار الحركة الوهابية فى ا[...]

العربية، و تأييد عائلة آل سعود لها. و قد أعجب بعباراتها، و كان يؤثر عنه قوله: «أنا مالكى المذهب وهابى العقيدة». و قد ذهبت به حماسته الدينية إلى الاذن باتلاف الكتب المتساهلة فى الدين و المحللة لمذهب الأشعرية، و تهديم بعض الزوايا [أنظر كتاب تاريخ أفريقيا الشمالية ج ٢ ص ٣١١].

و الايطاليون أقلقهم ما قام به محمد بن على السنوسى من دعوة إصلاحية فى ليبيا لاعادة الاسلام إلى صفائه و وضعه الصحيح فى النفوس تطبيقاً و عملا، و الوقوف ضد الايطاليين الوافدين، الذين لا يهمهم إلا استغلال خيرات البلاد، والتفريق بين المسلمين [أنظر المرجع السابق ص ٢٢٠]. كما أقلقهم امتدادها للصومال و تأثر بعض المسلمين هناك بها.

و الهولنديون حركهم ما لمسوه من اهتمام جديد و بحرص بالاسلام فى جزر سومطره و جاوه وسولو، مما حركه الحجاج الاندونيسيون الذين درسوا و اهتموا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب التجديدية، واطمأنوا إلى سلامة إصلاحها للعقيدة، و صفاء الدعوة، و أنها لم تقم لمآرب ذاتية، فنقلوا ذلك لبلادهم، حيث قامت دعوات متعددة مثل: الجمعية المحمدية فى جكجاكرتا، وقد بدأت الدعوة لنبذ الشوائب و الخرافات، التى أدخلت على تعاليم الاسلام.

هذا إلى جانب تأثر الأوربيين و بعض الأتراك و الأفارقة، و اهتمام المسلمين بها فى بلاد الشام ومصر والعراق وأفغانستان وغيرها.

فتعاون المستعمر مع عناصر فى القيادة العثمانية، من أجل مصالحهم من جهة، و من أجل ضرب المسلمين بعضهم ببعض لتحقيق المآرب باضعاف قوة المسلمين، حتى يخرجهم الكاسبون من جانب، و من جانب آخر فلأن المسلم لا يقبل من المستعمر المخالف له فى دينه أن يتدخل فيما يتعلق بعقيدته، وإلا انكشفت النوايا.

ولذا بدأ هؤلاء الغربيون ، ولا يستبعد أن بينهم يهود يهمهم ضرب الاسلام، بدأ هؤلاء ينبشون الماضى ، ويحركون أشياء ترضى ذوى الأهواء من أرباب المصالح. فأوهموا العامة ، و أنصاف المتعلمين الذين لا يقرأون و لا يتعمقون ، و هم الغالبية العظمى ، بأن هذه الدعوة الحديثة التى تحركت فى الجزيرة العربية ، ما هى إلا امتداداً لتلك السابقة ، فرقة الخوارج — الأباضية — التى تخالفكم معاشر المسلمين فى المذهب و المعتقد .

ظهر مثل هذا القول فى تقرير وخطابات ابراهيم باشا التى كان يبعث بها لمحمد على بمصر ، و فى كتابات لبعض العثمانيين .

هؤلاء جميعاً فى مظهر عام أمام المسلمين لبسوا على الناس الأمر ، ولا صوت آخر يناوئهم ، و قد وجدت هذه الشبهة صدى فى نفوس أصحاب المصالح و الجاه و الباب العالى ، و فى كثير من أقطار المسلمين ، روجها أناس يأكلون أموال الناس بالباطل ، و يرضون بزعامات دينية يتسلطون بها على الجهال الذين لا يدركون حقيقة دينهم .

و قد ضرب هؤلاء جميعاً على الوتر الحساس فى حياة الناس وهو الدين الذ تحتاج إليه النفوس و لكنها تجهله و تتبع ما يقال لها فيه .

و من يقرأ ما كتب خصوم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عنها فى افتر و كذب ، فانه سوف يلمس أن جميع ما أوردوه من شبهات ، و ما اختلقوه . مجادلات ، لا أصل له فى أى مصنف مما كتب رحمه الله ، و لا فى أى رسا نسبت إليه أو أحد تلاميذه . ثم إننا عندما نعود إلى أصل تلك الشبهات فاننا سنرا لا تخرج عن : ـ

شبهات ذات جذور فى الفرق السابقة ألصقوها بالشيخ محمد بن عبد الوهاب مع أن له رأياً فيها هو رأى أهل السنة و الجماعة ، حيث ينكر خروجها عن الص الاسلامى ، كما أنكرها قبله شيخ الاسلام ابن تيمية .

وإما أشياء مختلقة ، لا أساس لها من الصحة ، ولم ترد فى أصل مما نقل عن نصوص و مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب و لا فى مؤلفات تلاميذه و أبنائه . و المختلق لا حدود له ، وفيه تمويه على القارىء و السامع .

و يدخل فى هاتين الحالتين ظهور عجز من جادلوا أتباع الشيخ محمد وأفحموا ، ورغبتهم تغطية هذا العجز ، وهذا من باب التلبيس على الناس . ذلك أنهم لو قالوا الحقيقة التى دارت فى النقاش ، لانتهت مكانتهم و مصالحهم ، ولذا لم يبق أمامهم إلا قلب الحقيقة ، وتمويه النتيجة ، لأن ما جرى لم ينشر .

وإما كلام مبتور من أصل كلامه رحمه الله ، أو قول مؤول على غير معناه ، مثل من يقرأ « ويل للمصلين » و يسكت . و يدخل فى هذا قولهم : إن اتباع محمد ابن عبد الوهاب ينكرون الصلاة على النبى محمد ﷺ وينكرون رسالته .. مما لا يصدقه عاقل متبصر

و لا استبعد أن يكون جميع من كتب متهجماً على الشيخ محمد و دعوته . بأنه لم يقرأ واحداً من كتبه ، و لم يناقش رأياً مما خال ، و إنما حركتهم المصالح الدنيوية ، وأعماهم الهوى ، حيث وجدوها فرصة عاجلة ، لأخذ عيوب تلك الدعوة السابقة الذى قال فيها علماء المسلمين ما قالوا ، و جادل حولها علماء المغرب ما سجل فى كتبهم الشئ الكثير ، و استغلوا مطابقة اسم أطلقوه اصطلاحاً على دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، لاسم له جذور فى نفوس المسلمين فى شمال إفريقيا بصفة خاصة وهو « الوهبية أو الوهابية » وهم ممن شهد لهم بالدور الايجابى للوقوف ضد الدعوات المناهضة لأهل السنة ، مع عبد الوهاب بن رستم هذا ، ثم مع الفاطميين العبيديين و غيرهم . ثم بمناهضة المستعمر فى بلادهم .

فألبسوا دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية ثوباً معاراً من باب التنفير ، خوفاً من عودة المسلمين إلى المنهج المحمدى السليم ، ببساطة واستمالة لقلوب المسلمين ، الذين ملوا الفرقة و أصنام الخلاف .

و يتضح مثل هذا فى كتابه الباحثين الغربين ، من فرنسيين و إيطاليين و إنجليز و ألمان عن الاسلام و المسلمين فى شمال أفريقيا .

فى الوقت الذى بدأ المسلمون يعون حقيقة الدعوة السلفية التى جددها الشيخ محمد بن عبد الوهاب و أعادت للسلمين يقظة فكرية و عقائدية فى المنهج الاسلامى الصحيح ، و العقيدة السليمة لأنها لم تخرج بالاسلام من نقاوته الأولى ، كما تحدث عن ذلك كثير من العارفين و المفكرين العرب و المسلمين و غيرهم .

حيث أورد الأستاذ عبد الله بن سعد بن رويشد - فى كتابه « الامام محمد بن عبد الوهاب فى التاريخ » حدود أربعين رأياً تشيد بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب و دورها فى تحريك اليقظة فى نفوس المسلمين فى كل مكان [انظر الجزء الثانى ص ٣٠٠ - ٣٦٠] .

و ما ذلك إلا بعد أن دهمت المسلمين المبادى المنكرة من شيوعية و ماسونية و وجودية و علمانية و إلحادية و غيرها ، و لم يجدوا مخرجاً إلا بالاسلام الصافى الخالص من الشوائب و الدخائل .

ذلك أن أبناء المسلمين قد جبلهم الله على حب الولاء ، و الاتجاه بالعقيدة و هذه فطرة الله التى فطر البشر عليها ، و إن جذور الاسلام تجذبهم ، و رابط تؤلف بينهم ، فتجمع القلوب ، ثم تأتى جهات ذات أهداف و بعيدة عن المسلمين لتستغل ذوى العقول الضعيفة ، والمآرب الوقتية ، فتتحدث باسم العلم ، وهذا ما ك يخشاه رسول الله ﷺ على أمته من المضللين الذين يلبسون الأمور على الناس .

ألمس مثل هذا عند ما بدأت كتب تطبع و توزع بالمجان مجدداً فى أفر وآسيا و أوروبا تعيد تلك الشبهات على المسلمين، بعد أن حركت النصرانية أعوا لأنها بدأت تفلس هناك ، واتجه المسلمون للاسلام الصحيح فى نقاوته حسبما حدثنى أ الدعاة فى إفريقيا . و كان مما حدثنى به هذا الداعية : أن أحد علمائهم مال مع الكتب التى تطبع فى دولة إسلامية و توزع بعدة لغات ، و قد بدأ هذا الشي

ينال من الشيخ محمد بن عبد الوهاب و دعوته لتأثره بالكتب التى وصلته ، وألصقت بالشيخ شبهاً و افتراءات .

فقال له هذا الداعية : هل قرأت للشيخ محمد شيئاً من كتبه ؟ . قال لا ، و يكفى ما قيل عنه .

و كان هذا الداعية ذكياً ، فأعطاه كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ، بعد أن نزع عنه غلافه . و قال : أحب أن تقرأ هذا الكتاب و تعطنى رأيك فيه غداً ؟ .

و فى موعد اللقاء : أثنى ذلك العالم على هذا الكتاب ، و على مؤلفه . فأعطاه نسخة أخرى عنه و عليها اتغلاف . و قال : هذا هو الكتاب ً ملا ، و مولفه كما ترى هو محمد بن عبد الوهاب وبقية كتبه من هذا النوع . فما كان من ذلك العالم إلا أنه قال : حسبنا الله ونعم الوكيل ، لقد أتهم بما ليس فيه ، و ما نقرؤه عنه يخالف ما يقوله هو فى مؤلفه هذا ، إن هذا هو التوحيد الذى جاء به محمد بن عبد الله ﷺ و يدعونا إليه

هذه نظرة عامة يحسن بالمسلمين عموماً الانتباه إليها ، و ألا نجعل الآخرين يفرضون علينا رأياً بدون معرفة ، فالرأى العلمى . و الحقيقة التى تتعلق بالعقيدة و الدين . يحسن بالمسلم العارف أن يبحث حيالها و ينقب بنفسه ، و يتوثق ويدقق ، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها ويترتب على ذلك خلاف فى الصف الاسلامى ، لا يستفيد منه سوى العدو الذى يبذل الشئ الكثير من جهده و ماله ، و فكره وأعوانه لبث الفرقة ، وتشتيت الشمل بين المسلمين لأن مصالحه ومنافعه فى هذه الفرقة وبذر الخلافات .

وندعو الله أن يجمع كلمة المسلمين ، و أن يولف بين قلوبهم فى آخر الزمان ، كما ألف بين قلوبهم فى أوله عند ما قال لنبيه محمد ﷺ : « و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، و لكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

[سورة الأنفال آية ٦٣]

نظـام العدل فى الاسلام

—(الحلقة الثـالثة)—

فضيلة الشيخ محمد برهان الدين السنبهلى
رئيس قسم التفسير بكلية الشريعة دار العلوم ندوة العلماء

أما الأساس الثانى الدى هو عبـارة عن رعاية العدالة فى تنفيذ القانون و تطبيقه على المجتمع الانسانى، أو هو عبارة عن ايصال الحقوق إلى أهلها ، وإعطاء كل ذى حق حقه ، فهو ظامىء إلى بحث وتحقيق و تمحيص .

إن هذا الأساس يبتنى فى الحقيقة ـ على ثلاثة اشخاص ، القاضى و الشاهد والحالف ، فان هؤلاء يتفاعلون ، ويبلغ الحق ـ عن طريقهم ـ إلى صاحب الحق ، و بهم يقوم ميزان العدل ، و لذلك فهم فى أشد حاجـة إلى التقوى ، و خوف الله تعالى ، واستحضار حساب الآخرة ، وقد أرشدهم الشارع ـ عليه الصلاة والسلام بسبب ذلك ـ إلى التقوى و استحضار حساب الآخرة . تارة ترغيباً وأخرى ترهيباً وتخويفاً ـ ولا يحتاج هذا الأمر ـ لكثرة شواهده فى كتاب الله الحكيم وحديث الرسول الأمين ﷺ ـ إلى سوق الدلائل و إيراد الحجج .

و ربمـا يسبب تقصير القاضى ، و شهادة الزور من الشاهد ، واليمين الكاذبة من الحالف حرمان صاحب الحق من حقه ، كما أن سلاطة لسان المدعى ، وحسنه ، و براعته فى كسب الحكم له ، يفضى إلى خطأ فى القضاء و حرمان لصاحب الحق من حقه ، فلأجل ذلك أخبرهم الشارع لا سيما المدعى ، أنه لا تتغير الحقيقة و لا يدخل الشيئ المقضى فيه فى ملكية المقضى له و لا يحل له أبداً إذا استخدم المدعى ـ لاغتصاب حق الآخر طرق الحيل و المكر و الدهـاء ـ بل يبقى الشيئ حراما

عليه كما كان فيما سبق و لا يؤثر هذا الحكم المبنى على الظاهر فى حقيقته شيئاً ، و لا يحلل قضاء أى إنسان – حتى قضاء الرسول ﷺ – حراماً ، ولا يحرم حلالا ، فقد أخرج البخارى و مسلم فى صحيحيهما هذا الحديث الصحيح الصريح: « إن زينب بنت سلمة أخبرته ، عن أمها أم سلمة ، قالت سمع النبى ﷺ – جلبة خصام عند بابه ، فخرج عليهم فقال : « إنما أنا بشر ، و إنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضاً أن يكون أبلغ من بعض أقضى له بذلك ، و أحسب أنه صادق ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فانما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها (١) و لذلك لا يجوز للقاضى أن يحكم بسماع قول المدعى فحسب ولوكان هو بالغاً من التقوى والديانة والاحتياط المرتبة العليا، فقد جاء فى حديث شريف فى أسلوب حكيم ، « إن النبى ﷺ قال: « لو يعطى الناس بدعواهم لادعى ناس دماء رجال و أموالهم (٢) » .

ولا شك أن دور القاضى من بين هؤلآء الأربعة – مع المدعى – دور أخطر وأدق وأهم ، لأنه هو القسط الذى يدور عليه رحى العدل و الانصاف ، ولأجل ذلك وجهت الشريعة عنايتها إليها ، و ذكرته بمسئوليته و ثقلها ، و أرشدت إلى التحلى بالتقوى والخوف من القيام أمام الله عزوجل ، نقل الامام البخارى – رحمه الله – فى صحيحه ، قول التابعى الجليل الحسن البصرى – رحمه الله – الذى هو جدير بأن يكتب بمداد من ذهب ، فقد استدل فيه بثلاث آيات من الكتاب الحكيم فى أسلوب لطيف ، قال : قال الحسن : أخذ الله على الحكام أن لا يتبعوا الهوى ، ولايخشوا

(١) صحيح البخارى (٢/١٠٦٥) و صحيح مسلم (٢/٧٤ و اللفظ للبخارى (باب القضاء فى قليل المال و كثيره) .

(٢) صحيح مسلم (٢/٧٤) مطبوعة ، المكتبة الرشيدية – دهلى – .

الناس ، و لا يشتروا بآياتى ثمناً قليلا (١) ثم نقل الامام البخارى ـ رحمه الله ـ ـ بعد ذلك ـ قول الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ الذى يحمل حكمة وبصيرة و نفعاً كبيراً ، يقول : قال مزاحم بن زفر ا قال لنا عمر بن عبد العزيز خمس إذا أخطأ القاضى منهن خصلة كانت فيه وصمته ،أن يكون فهماً حليماً ، عفيفاً ، صليباً ، عالماً ، سؤولا عن العلم (٢) .

و الحقيقة أن كل خصلة من هذه الخصال تحمل من الأهمية ما يمتنع معه أن يقال إن خصلة منها أهم من الأخرى ، فلا بد من اجتماع هذه الخصال كلها وإلا كان عارا لنفسه و لبلاده كلها ، فقد كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز قال ذلك عن خبرة و تجربة ، و تفكير و روية ، و هذا الذى يضاعف أهميته ، و لا بد ـ مع العلم و التقى و الأمانة و التدين ـ من الفهم السليم و إلا لم يقدر القاضى على الحكم الصحيح و القضاء المصيب ، لأنه كم من عقدة لا يحلها إلا فهم الرجل و فراسته ، حيث لا يغنى العلم و التدين غناء الذكاء و الفراسة ، و قد جاءت قصة تتعلق بسيدنا سليمان عليه السلام الذى قال الله تعالى عنه : « ففهمناها سليمان (الأنبياء ٧٩) وإليكم القصــه المروية فى صحيح مسلم (٣) » ـ عن النبى ﷺ قال بينما امرأتان معهما ابناهما جاء الذئب فذهب بابن أحدهما فقالت هذه لصاحبتها ، إنما ذهب بابنك أنت و قالت الأخرى إنما ذهب بابنك ، فتحاكمتا إلى داؤد عليه السلام فقضى به للكبرى فخرجتا على سليمان بن داؤد عليهما الصلاة و السلام فأخبرتاه فقـال ائتونى بالسكين أشقه ، فقالت الصغرى يرحمك هو ابنها فقضى به للصغرى » .

صرحنا فيما سبق أن إقامـــة العدل و تنفيذه و تطبيقه و نشره بين الناس

(١) صحيح البخارى (٢/١٠٦١) (٢) نفس المصدر السابق .

(٣) الصحيح لمسلم (٢/٧٧) .

يحتاج ـ عدا القوانين العادلة ـ إلى من يتبوأ منصب القضاء و يتمكن منه ، فان له الأهمية البارزة من هذه الناحية ـ (و قد أردنا هنا من القضاء معناه الشامل الذى يحتوى على الأمير و الحاكم و الخليفة أيضاً) فلم يبالغ شمس الأئمة أبو بكر محمد بن أبي سهل السرخسى شارح كتب الامام محمد بن الحسن الشيبانى (رحمهما الله) ـ نظراً إلى هذه الحقيقة -- إذ قال : « إعلم بأن القضاء بالحق من أقوى الفرائض بعد الايمان بالله تعالى ، و هو من أشرف العبادات ، لأجله أثبت الله تعالى لآدم عليه السلام اسم الخلافة فقال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة ، و أثبت ذلك لداؤد عليه السلام فقال عزوجل : « يا داؤد إنا جعلناك خليفة فى الأرض » وبه أمر كل نبى حتى خاتم الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام .. وهذا لأن فى القضاء بالحق إظهار العدل ، و بالعدل قامت السماوات و الأرض و لأجله بعث الأنبياء و الرسل صلوات الله عليهم ، و به اشتغل الخلفاء الراشدون (١) وقال المحقق ابن الهمام ـ مشيراً إلى أهمية منصب القضاء وضرورته ... وأما وصف القضاء ففرض كفاية ، فلو امتنع الكل أثموا (٢) .

و لكن هذا المنصب ، و المسئولية دقيقة غاية الدقة ، ومزلة الاقدام ، وكأنها سيف ذات حدين يمكن أن تقطع من يصلها ، كما يخاف من أى زيغ و انحراف فى استخدامها أن تؤدى إلى عواقب وخيمة هائلة ، لا تفضى إلى دمار الفرد فحسب بل إلى دمار الأمة بأسرها والبلاد بأجمعها ، و لذلك نهى فى الأحاديث النبوية — على صاحبها الصلاة و التحية — عن تقلد هذا المنصب الخطير — ما دام ذلك ممكنا — وشدد النكير على من استشرف له و طلبه ، بل أعلن أن من طلبه ، وطمح إليه فليس هو بحقيق بأن يولى ذلك — عقد المحدث الجليل الامام البخارى — رحمه الله —

(١) المبسوط للسرخسى (١٦/٦٠) مطبوعة مطبعة السعادة — مصر — (طبعة أولى).

(٢) فتح القدير (٥/٤٥٣) .

فى صحيحه باباً مستقلا بعنوان « باب ما يكره من الحرص على الامارة » (١) وذكر هذين الحديثين تحت هــذا الباب : « عن النبى ﷺ ، قال : إنكم ستحرصون على الامارة ، و ستكون ندامة يوم القيامة » والحديث الآخر ، عن أبى موسى — رضى الله عنه — قال : دخلت على النبى ﷺ أنا و رجلان من قومى ، فقال أحد الرجلين أمرنا يا رسول الله ، و قال الآخر مثله ، فقال : إنا لا نولى هذا من سأله و لا من حرص عليه » و عقد الامام البخارى باباً آخر قبل هـذا الباب بعنوان « باب من لم يسأل الامارة أعانه الله » و ذكر فى البــاب هــذا الحديث : « قال النبى ﷺ يا عبد الرحمن بن سمرة ، لا تسأل الأمارة ، فانك إن أوتيتها ، عن مسألة ، وكلت إليهــا ، و إن أوتيتهــا عن غير مسألة ، أعنت عليها » فعلم من ذلك أنه لا ينبغى الاستشراف لهذا المنصب و لا طلبه ، و ينبغى التحرز منه ما وسع ذلك ولكن إن ولى أحد عليه وطلب منه ذلك ، وسعه القبول بل يجب فى بعض الأحيان، متوكلا على الله ، و مستعينا به ، و سيعينه الله تعالى .

وقد اتخذ العلماء المتقدمون و السلف الصالحون — نظراً إلى دقة هذا المنصب و ضرورته — موقفين ، فمنهم من غلبت على مشاعره دقة المنصب ووضعه الحساس فآثر الاحتراز عن تقلده كالامام أبى حنيفة — رحمه الله — و منهم من تقلده وقبله — على غير رغبة — لشعوره لحاجة الناس إليه ، و الضرورة المؤكدة ، مثل الامام أبى يوسف — و كل مصيب و مأجور إن شاء الله تعالى .

و قد وردت من الشارع الحكيم — ﷺ — إرشادات و ترهيبات ، وقيود و فرائض تتعلق بمن يحتل هذا المنصب الخطير ، و ذلك موضوع مستقل ، و قـد ألف الباحثون فيه كتباً مستقلة ، يعرفها العلماء ، ولكن عصارة هذه التعاليم وخلاصة

(١) صحيح البخارى (٢/١٠٥٨ الطبعة الهندية) .

هذه الارشادات ، جاءت فى رسالة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — التى كان كتبها إلى أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — الذى كان عاملا له ، و كل ماكتب و ألف فى هذا الموضوع هو بمثابة الشرح لهذه الرسالة ، و قد حملها عدد من المؤلفين الكبار — لأهميتها و شمولها ودقة معانيها — صدر كتبهم ، كما أن فقيه القرن الثانى الشهير محمد بن الحسن الشيبانى صدر كتاباً من كتبه بهذه الرسالة ، كما نقل ذلك شارح كتبه الامام السرخسى (١) ونجد هذه الرسالة — مع اختلاف يسير فى الألفاظ والترتيب — فى جميع الكتب المؤلفة حول هذا الموضوع ، ونحن ننقل — هنا — متن الرسالة من كتاب « أعلام الموقعين » للعلامة المحقق ابن القيم الجوزية — و جدير بالذكر أن العلامة ابن القيم قد شرح هذه الرسالة فى أكثر من أربعمائة و خمسين صفحة من القطع الكبير ، وتكلم بعض العلماء مثل ابن حزم الأندلسى على هذه الرسالة ، و لكن أكثر العلماء لم يعتنوا بكلامه ، ولم يقيموا له وزنا كما صرح به ابن القيم — رحمه الله — و إنه كتب هذه الكلمات على ختام الرسالة ، « وهذا كتاب جليل تلقاه العلماء بالقبول ، وبنوا عليه أصول الحكم والشهادة ، و الحاكم و المفتى أحوج شيئ إليه و إلى تأمله و التفقه فيه (٢) .

و إليكم — بعد هذا التمهيد — متن « الرسالة »

« أما بعد ، فان القضاء فريضة محكمة و سنه متبعة ، فافهم ، إذا أدلى إليك . فانه لا ينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس النـــاس فى مجلسك و فى وجهك و قضائك

(١) المبسوط للسرخسى (١٦/٦٠) .

(٢) أعلام الموقعين (١/٨٦) بدأت الرسالة قبل هذه العبارة بصفحة وتوجد الرسالة مع اختلاف فى الترتيب و الألفـــاظ فى المبسوط (١٦/٦٠) و الأحكام السلطانية للماوردى (٦٨) .

حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييئس ضعيف من عدلك ، البينة على المدعى ، و اليمين على من أنكر ، و الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالا ، و من أدعى حقاً غائباً ، أو بينة ، فاضرب له أمداً ينتهى إليـه . فان بينه أعطيته بحقه ، و إن أعجزه ذلك استحللت عليـــه القضية ، فان ذلك هو أبلغ فى العذر ، و أجلى للعماء و لا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم ، فراجعت فيه رأيك ، فهديت فيـه لرشدك ، أن تراجع فيه الحق ، فان الحق قديم لا يبطله شيئ ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، و المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجرباً عليه شهادة زور ، أو مجلوداً فى حد ، أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فان الله تعالى تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود ، إلا بالبنيات و الايمـان ، ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك ممـا ورد عليك مما ليس فى قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله ، و أشبهها بالحق ، و إياك و الغضب ، و القلق و الضجر ، و التأذى بالناس ، و التنكر عند الخصومة أو الخصوم — شك عبيد — فان القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر و يحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته فى الحق ، و لو على نفسه كفاه الله ما بينـه و بين الناس ، و من تزين بما ليس فى نفسه شانه الله ، فان الله تعالى لا يقبل من العباد ، إلا ما كان خالصاً ، فمـا ظنك بثواب عند الله ، فى عاجل رزقه ، وخزائن رحمته — و السلام عليك و رحمة الله — » .

لقد كان من حق هذه الرسالة أن تشرح كل كلمة من كلماتها ، وتبرز مكنوناتها ، وخفايا معانيها ، ولـكن حجم « المقالة » لا يسمح بالتوسع والافاضة ، وقد كفانا العلماء القدامى — رحمهم الله و برد مضاجعهم — تحليل تفاصيل الرسالة و البحث عن معانيها ـ و المصادر معروفة لدى العلماء ـ فقد يسرت وسائل الطبع والنشر الراقية فى هـذا العصر انتشار المصادر الاسلامية فى العالم كله .

إن عرض شروط القضاء ، و دقائق أموره ، و مسئولياته ، و جميع تفاصيله
ضخامة كتاب مستقل ، و ظاهر أنه ليس هذا محله ، و قد استوعبت الأسس
ادىء الأولية — بغاية من الايجاز و الاختصار — فى هذه الرسالة ، إلا أننا
بالمثل « ما لا يدرك كله لا يترك كله » نريد أن نذكر بعض الأمور المهمة .
يتحتم على القاضى أن يجتنب عن كل ما يزعج الخصم ، و يمنعه من التصريح
، و عرض قضيته عرضاً كاملا ، ليصل القاضى من طريق ذلك إلى الحكم
ح ، و يجب عليه أن يتحاشى عن كل ما يشعر بالتمييز بين خصم و خصم حتى
له الحكم ، و حماية المظلوم من الظلم ، و عقاب الظالم الجانى ، و إيصال الحق
ى الحق ، و تأملوا قول عمر — رضى الله عنه — هذا ، (كالمثال) : « إياك
ضب و الضجر ، و التنكر عند الخصومة » . و يقول الامام السرخسى (١)
« الكافى » ـ و هو يشرح هذا القول « إياك و الضجر و القلق » ـ و هما
من إظهار الغضب ، فالقلق الحدة ، و الضجر رفع الصوت فى الكلام ، فوق
تاج إليه ، و القاضى منهى عنه ، لأنه يكسر قلب الخصم به و يمنعه من إقامة
، ويشتبه على القاضى بسببه طريق الاصابة ، وربما لا يفهم كلام أحد الخصمين » .
جل ذلك ورد النهى فى الحديث الشريف — الذى أخرجه الامام البخارى فى
، — عن الحكم فى حالة الغضب ، يقول الصحابى المعروف أبو بكرة — رضى الله
. « سمعت النبى ﷺ يقول : لا يقضين حكم بين اثنين ، و هو غضبان » (٢)
ول شارح صحيح البخارى — العلامة بدر الدين العينى — فى شرح هذا الحديث :
كم بفتحتين ، و هو الحاكم ، و قال المهلب : سبب هذا النهى ، أن الحكم حالة

المبسوط شرح الكافى للسرخسى (١٦/٦٤) .
صحيح البخارى (٢/١٠٦٠) .

الغضب قد يتجاوز إلى غير الحق، فمنع، وبذلك قال فقهاء الأمصار، وقال الغزالی: فهم من هذا الحديث، أنه لا يقضی حاقناً أو جائعاً أو متألماً بمرض، وقال الرافعی: وكذلك لا يقضی بكل حال يسوء خلقه فيها ويتغير عقله فيها بجوع وشبع مفرط، ومرض مؤلم وخوف مزعج، وحزن وفرح شديدين وكغلبة نعاس وملال. وكذا لو حضره طعام ونفسه تتوق إليه، والمقصود أن يتمكن من استيفاء الفكر والنظار (١).

تأملوا إلى أی حد بلغت دقة فهم العلماء والفقهاء المسلمين وبعد غورهم فی التفكير، فی ضوء هذه الأحاديث الشريفة والاستخراج لمسؤليات القضاء، وشروطه الدقيقة، والسعی لصون أحكام القاضی — ما أمكن — من الخطأ والغلط. فلن يستجيز أبداً ذلك الدين — الذی يحمل هذه الروح وهذا الشعور الدقيق لدقائق العدل ومحقرات أموره — الظلم والعدوان، والحيف وغمط الحق، فهو دين. الناس فيه سواسية كأسنان المشط، ولسنا بحاجة إلى أن نصرح بأن هذا الدين لا يسمح أبداً، أن يحكم لأحد على أحد لشفاعة شفيع، أو رشوة راش، أو غير ذلك من الطرق المعروفة لكسب الحكم — عدواناً — فی حق أحد، فاذا كان هذا الدين يصرح بأنه «ليس لمن تقلد القضاء أن يقبل هدية» (٢) «ولا يحضر دعوة إلا أن تكون عامة ... ولا يضيف أحد الخصمين دون خصمه ... وإذا حضرا سوى بينهما فی الجلوس والاقبال والنظر، ولا يسار أحدهما ولا يشير إليه» (٣)

(١) عمدة القاری (١١/٣٨٧) المطبوعة بدار الطباعة العامرة.

(٢) الأحكام السلطانية (٧٢).

(٣) الهداية (٤/١٢٠).

فكيف يمكن أن يسمح بالحيل و طرق المكر و الخديعة ، و وسائل الاستهواء و الاستمالة .

وتلى أهمية القضاء و القاضى — فى الأحكام و إصدار الأوامر — فى الشريعة الاسلامية ، أهمية الشهادة و الشاهد ، لأنه الوسيلة و السبب ، فى أكثر الأحوال، ـ أى حين ينكر المدعى عليه دعوى المدعى وليست عنده بينة لإحياء الحق و إثباته ، و إيصاله إلى مستحقه ـ كما جاء فى الحديث الشريف « أكرموا الشهود فان الله تعالى يحى الحقوق بهم » (١) . ولذلك نهى الشاهد عن كتمان الشهادة — لا سيما الشهادة التى تتعلق باحياء الحقوق الانسانية العامة — فى القرآن الحكيم ، و عد كتمانهم للشهادة إثماً و جريمة ، « و لا تكتموا الشهادة ، و من يكتمها فانه آثم قلبه (البقرة ٢٨٣) و أمر الشهداء أن لا يأبوا إذا دعوا إلى أداء الشهادة « و لا يأب الشهداء إذا ما دعوا » (البقرة : ٢٨٢) ، وجاء فى حديث النبى الصحيح أن خير الشاهد هو الذى لا ينتظر أن يدعوه الداعى ، بل يتقدم بشهادته — إذا كان ينحصر بشهادته إحياء حق من حقوق الناس — إلى القاضى ، « إن النبى ﷺ قال : ألا أخبركم بخير الشهداء ، الذى يأتى بشهادته قبل أن يسألها » (٢) ، يقول شارح صحيح مسلم العلامة محى الدين النووى : « وفى المراد بهذا الحديث تأويلان ، أصحهما وأشهرهما ... أنه محمول على من عنده شهادة لانسان بحق ، و لا يعلم ذلك الانسان أنه شاهد ، فيأتى إليه فيخبره ، أنه شاهد له .. و يقول بعد ذلك : « يلزم من عنده شهادة لانسان لا يعلمها ، أن يعلمها إياه لأنها أمانة عنده » (٣) ، و لأن مدار الحكم

(١) المبسوط للسرخسى (١٦/١١٢) .
(٢) صحيح مسلم (٢/٧٧) .
(٣) شرح صحيح مسلم للنووى (٢/٧٧) المطبوع بالمكتبة الرشيدية بدلهى (الهند) .

و القضاء — يكون فى عامة الأحوال — على الشهادة ، لذلك نبه — مع هذه التأكيدات و الأحكام — إلى الاحتياط و التورع و الأمانة الدقيقة فى أدائه ، حتى لا يذهب الحق إلى غير أهله ، أو يتضرر صاحب الحق ، ففرضت لأداء الشهادة شروط ، أهمها العدالة ، وعدلت شهادة الزور — فى الحديث الشريف — بالاشراك بالله، و اعتبرت كقتل بغير حق ، وأكد هذه المعانى أسلوب الرسول ﷺ الشديد : سئل رسول الله ﷺ عن الكبائر ، فقال : الشرك بالله ، و قتل النفس ، و عقوق الوالدين ، فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ، فقال : قول الزور أو شهادة الزور » (١) . و شدد فى الشروط و الاحتياط فى مرافعات الحدود الشرعية ، حتى لم تجز شهادة المرأة — لضعف ذاكرتها و قلة فهمها و عدم إحاطتها بالقضية — فيها ، كما نقل ذالك الامام أبو يوسف ـ رحمه الله ـ فى كتابه الفريد فى موضوعه « كتاب الخراج » عن الامام الزهرى ، أنه قال : « مضت السنة من لدن رسول الله ﷺ و الخليفتين من بعده أن لا تجوز شهادة النساء فى الحدود (٢) .

و حد الزنا من بين الحدود الشرعية ذو أهمية و خطورة بالغة إذ ينتهك فيه العرض مع إرهاق النفس بعذاب شديد ، فكان أمره أدق وأخطر ، ولذلك قررت الشريعة له ، أربعة شهداء . قال الله تبارك وتعالى : واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم (سورة النساء : ١٥) . « و الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ... الخ (سورة النور : ٤) ، أما المرافعات المالية و أمثالها من القضايا فان رجلين أو رجلا و امرأتين — إذا لم يوجد رجلان —

(١) صحيح البخارى (٢/٨٨٤) .

(٢) كتاب الخراج لأبى يوسف (٩٩) المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق (مصر) ١٣٠٢هـ .

تكفيان فيها (١) . لقلة أهميتها بالنسبة إلى قضايا الحدود الشرعية وتكفى شهادة امرأة واحدة عند بعض العلماء فى بعض المسائل التى تختص بالنساء مثل الولادة و عيوب المرأة ، كما جاء فى شرح السير الكبير : « يكتفى بشهادة النساء فيما لا يطلع عليه الرجال (٢) . و إذا علم ميل الشاهد — مع عدله و أهليته لأداء الشهادة — إلى خصم من الخصمين ، ردت شهادته و اعتبرت غير مؤثرة (و هناك اختلاف العلماء فى تفاصيل المسألة) و إليه الاشارة فى رسالة عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إذ قال : « و لا ظنيناً فى ولاء أو قرابة » و لأجل هذه التهمة المتوقعة لا يجوز للقاضى ـ عند كثير من العلماء ـ أن يحكم بمجرد اعتماده على علمه ، لا سيما فى الحدود ، فان علمه لا يعتد به فى أمر الحدود ، و نقل على ذلك اتفاق جميع الصحابة الكرام — رضى الله عنهم — كما جاء فى الفتاوى الهندية : « و علم القاضى ليس بحجة فى الحدود باجماع الصحابة (٣) . والحقيقة أن بحث الشهادة يحتاج ـ مثل بحث القضاء ـ إلى التفصيل و البسط ، و لكننا نرى أن ما قدمناه يكفى (إن شاء الله) لفهم روح الشريعة الاسلامية ، و الأحسن أن نقتصر على هذا .

الأساس الثالث : الذى يحكم فى بعض الأحوال — مثل أن لا يأتى المدعى بالبينة و ينكر المدعى عليه دعواه — اعتماداً عليه هو « الحلف » أى اليمين ، و هى تتعلق فى الحقيقة بالمدعى عليه ، كما جاء فى الحديث الشريف وفى رسالة عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — « البينة على المدعى ، و اليمين على من أنكر » غير أن اليمين قد

(١) الهداية (١٣٨—٤/١٣٩) و بداية المجتهد (٤٥١—٢/٤٥٤) .

(٢) شرح السير الكبير (٣/٢٦٣) السير الكبير للامام محمد بن الحسن الشيبانى و شرحه للسرخسى المطبوعة — بحيدرآباد ـ طبعة أولى .

(٣) الفتاوى الهندية (٢/١٤٥) المطبوعة بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق ـ مصر ـ ١٣١٠هـ .

تتعلق — عند بعض العلمـاء — فى بعض الأحوال ، بالمدعى أيضاً ، و تزداد أهمية اليمين ، فى إيصال الحق أو عدم إيصـاله إلى صاحبه ، فى تلك الأحوال التى يعتمد الحكم فيها على اليمين . و لذلك ورد الوعيد و التهديد الشديد فى الحديث الشريف ، على اليمين الكاذبة ، كما جاء الوعيد والذم البليغ فى عديد من آيات القرآن الحكيم على الكذب فى اليمين للحصول على مال ، وأوعد عليه بالعذاب الأليم . فقال تعالى : « إن الذين يشترون بعهد الله و أيمانهم ثمناً قليـلا . أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة و لا يكلمهم الله و لا ينظر إليهم يوم القيامـة و لا يزكيهم و لهم عذاب أليم (سورة آل عمران : الآية : ٧٧) و جاء فى آية أخرى : « و لا تشتروا بعهد الله ثمنـاً قليلا (سورة النحل : ٩٥) ، و« و لا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم (سورة البقرة : ٢٢٤) و قد وردت هناك قصة فى حديث صحيح : يقول الأشعث بن قيس : كانت لى بئر فى أرض ابن عم لى فأتيت رسول الله ﷺ فقال بينتك ، أو يمينه ، قلت إذن يحلف عليها يا رسول الله ، قال رسول ﷺ : من حلف على يمين صبر و هو فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله يوم القيامة و هو عليه غضبان » (١) .

و خلاصة القول أنه لا بد لكل ركن من أركان القضية أو الحكم — سواء كان القاضى أو الشاهد أو الحالف — من التقوى و استحضار يوم الجزاء و حساب الله تعالى ، فانه هو الأصل و عليه العماد ، و هو الباعث الحقيق على أن يعدل القاضى فى الحكم و القضاء و أن يصدق الشاهد فى شهادته ، و أن يحلف الحالف حلفاً صحيحاً صادقاً ، وليس هناك أى سلطة قانونية — غير هذا الوازع و الضمير المؤمن — تستطيع أن تخرج من القاضى حكماً صادقاً ، وتبسط الأمن والسلام ، و تحول الحياة والعيشة إلى حياة حب و وئام ، و لأجل ذلك كان عمل الرسل و الرسول — ﷺ — الأول

(١) صحيح البخارى (٢/٩٨٧) .

والأقدم أن وضع نواة اليقين الجازم فى القلوب، وأيقظ الشعور المؤمن فى النفوس، فعندما استيقظ هذا الشعور و الوعى الايمانى شاهدت أعين السماء أن الدنيا أصبحت جنة و أن هذه الأرض غلت مغبوطة عند السماء — لما قدم المجتمع الاسلامى من روائع العدالة الفردية و الاجتماعية، و سماحة القوانين الالهيــة و الشريعة السمحة الغراء. فعاد أولئك المتحاربون الذين كانوا يسفكون الدماء و يهتكون الأعراض و يعادون الاخوان، و يظلمون الانسان، كما بين عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ الذى كان قاضياً فى عهد الخليفة الراشد الأول، و هو يقدم استقالته من منصب القضاء. سأله الخليفة الراشد الأول: أمن مشقة القضاء تطلب الاعفاء ياعمر؟ قال: «لا يا خليفة رسول الله! و لكن ليس لى حاجة عند قوم مؤمنين، عرف كل منهم ما له من حق، فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر فى أدائه، أحب كل منهم لأخيه، ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقدوه، و إذا مرض عادوه، و إذا افتقر أعانوه، و إذا احتاج ساعدوه، و إذا أصيب واسوه، دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، ففيم يختصمون؟(١).

ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل الأمة الاسلامية صورة صادقة لهذا المجتمع المثالى العظيم ويكلل جهود أولئك الأفراد الذين يسعون ـ و تلك الحكومات والدول التى تسعى جاهدة ـ لانشاء هذا المجتمع المثالى بالنجاح الباهر و الفوز المبين، والحمد لله أولا و آخراً، و هو ولى التوفيق.

(١) مقتبساً من مجلة «الوعى الاسلامى» الصادرة من الكويت «ربيع الثانى ١٣٩٥هـ»، وفى تاريخ الكامل ـ لابن الأثير (٢/١٧٦) و كذا فى تاريخ الطبرى (٤/٥٠) ـ هكذا: «جعل أبو بكر عمر قاضياً فى خلافته ... فمكث سنة لا يخاصم إليه أحد».

كعب بن مالك الأنصارى ، و نموذج من شعره

— ٣ —

سعيد الأعظمى

و لما حدث فى بئر معونة (١) ما حدث مع أصحاب رسول الله ﷺ ، و ذلك فى صفر سنة أربع و قتل عدد كبير من خيار المسلمين الذين بعثهم الرسول ﷺ إلى أهل نجد بقيادة المنذر بن عمرو بن خنيس بن حارثة بن لوذان الأنصارى مع أربعين رجلا و قيل سبعين رجلا لكى يدعوهم إلى الاسلام ، فلما نزلوا ببئر معونة بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل و كان سيد قومه . و لكنه لم ينظر فى كتاب رسول الله ﷺ و عدا على حامل الكتاب و قتله ، ثم استصرخ عليهم قبائل من بنى سليم فأجابته عصية ورعل و ذكوان حتى قتلوا المسلمين جميعاً ، إلا كعب بن زيد الذى ارتث من بين القتلى و أكرمه الله بالشهادة يوم الخندق ، وكانت المناسبة حزينة أليمة قال فيها شعراء المسلمين بما فاضت به قرائحهم من الشعر ما عبروا فيه عن حزنهم و غيظهم على نكث العهد ، و بكوا فيه على القتلى ، وأنشد كعب بن مالك أبياتا فى بئر معونة يعير فيها بنى جعفر بن كلاب على تركهم نصرتهم و من أبياته :

تركتم جاركم لبنى سليم ... مخافة حربهم عجزاً وهونا

فلو حبلا تناول من عقيل ... لمد بحبلها حبلا متيناً (٢)

(١) بئر معونة ، هى بين أرض بنى عامر و حرة بنى سليم . و قيل ماء لبنى عامر بن صعصعة .

(٢) يريد من قوله حبلا : عهداً و ذمة ، و يروى (من نفيل) مكان (من عقيل) و هو الصحيح ، كما قال ابن هشام .

أو القرطاء (١) ما إن أسلموه و قدما ما وفوا إذ لا تفونا

و قد كان فى سرح هؤلاء القوم عمرو بن أمية الضمرى و المنذر بن عمرو الأنصارى فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر ، فقالا : و الله إن لهذه الطير لشأناً فأقبلا لينظرا فاذا القوم فى دمائهم ، فقاتلا العدو فقتل المنذر بن عمرو و أخذ عمرو بن أمية أسيراً ، و لما أخبرهم أنه من مضر ، أطلقوه فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة (٢) من صدرقناه (٣) أقبل رجلان من بنى عامر فنزلا معه فى الظل ، و كانا قد حصلا على عقد جوار من رسول الله ﷺ لم يعلم به عمرو بن أمية ، فلما ناما عدا عليهما فقتلهما ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ قال له : لقد قتلت قتيلين لأدينهما .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى ، فقالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ، و لكنهم أرادوا الغدر مع النبى ﷺ ، الأمر الذى كان سبباً لغزوة بنى النضير ، و نزول سورة الحشر فيها .

و كان من بين ما قيل فى بنى النضير من الشعر قصيدة لكعب بن مالك يذكر فيها إجلاء بنى النضير و قتل كعب بن الأشرف يقول :

لقد خزيت بغدرتها الحبور كذاك الدهر ذو صرف يدور (٤)

---

(١) القرطاء « قبيلة من هوازن ، و هى قريبة من نفيل ، و قال أبو ذر : « القرطاء بطون من العرب من بنى كلاب .

(٢) القرقرة : اسم موضع بينه و بين المدينة ثمانية برد .

(٣) قناة : واد يأتى من الطائف إلى القرقرة .

(٤) حبور جمع حبر يريد بها علماء اليهود .

و ذلك أنهم كفروا برب　　عزيز أمره أمر كبير
و قد أوتوا معاً فهماً و علماً　　و جاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً　　و آيات مبينـة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق　　و أنت بمنكر منا جدير
فقال : بلى لقد أديت حقا　　يصدقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد　　و من يكفر به يجز الكفور
فلما أشربوا غدراً و كفراً　　و حادبهم عن الحق النفور
أرى الله النبي برأى صدق　　و كان الله يحكم لا يجور
فأيده و سلطـه عليهم　　و كان نصيره ، نعم النصير
فغور منهم كعب صريعاً　　فذلت بعد مصرعه النضير
على الكفين ثم و قد علته　　بأيدينا مشهرة ذكور (١)
بأمر محمد إذ دس ليلا　　إلى كعب أخا كعب يسير (٢)
فماكره فأنزله بمكر　　و محمود أخو ثقة جسور
فتلك بنو النضير بدار سوء　　أبارهم بما اجترموا المبير (٣)
غداة أتاهم فى الزحف رهواً　　رسول الله وهوبهم بصير (٤)
و غسان الحماة موازروه　　على الأعداء و هو لهم وزير

(١) مشهرة : يعنى سيوفا مسلولة مرفوعة ، ذكور : قوية حادة .
(٢) يريد من أخى كعب : سلكان بن سلامة بن وقش ، و كان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة .
(٣) أبار يبير إبارة ، بمعنى أهلك ، اجترموا : اقترفوا الجريمة .
(٤) رهواً : بمعنى سار سيراً رفيقاً .

فقال السلم ، و يحكم فصدوا وحالف أمرهم كذب وزور (١)
فذاقوا غب أمرهم وبالا لكل ثلاثة منهم بعير
و أجلوا عامدين بقينقـاع و غودر منهم نخل و دور

و لما تصدى ضرار بن الخطاب بن مرداس الفهرى يوم الخندق ، يتبجح فيـه بجماعته و إعداده الحربي و يعير المسلمين المجاهدين و ينال من قيمتهم ، و قال فى ذلك قصيدة مطلعها :

و مشفقة تظن بنا الظنونا و قد قدنا عرندسة طحونا

أجابه كعب بن مالك بقصيدة مماثلة فى القافية وعدد الأبيات . ويرد فيها على ما زعمه ضرار من مكانه عالية له و لجماعته من المشركين ، وهو يعتز بالاسلام ونبي الاسلام ﷺ و بالثقة و الايمان و عقيدة التوحيد لله تبارك و تعالى ، يقول :

وسائلة تسائل ما لقينا . و لو شهدت أرتنا صابرينا
صبرنا لا نرى لله عدلا على ما نابنا متوكلينا
و كان لنـا النبى وزير صدق به نعلو البرية أجمعينـا
نقاتل معشراً ظلموا و عقوا و كانوا بالعداوة مرصدينا (٢)
نعاجلهم إذا نهضوا إلينا بضرب يعجل المتسرعينا
ترانا فى فضافض سابغات كغدران الملا متسربلينا (٣)

(١) السلم بالفتح و الكسر ، بمعنى الصلح .
(٢) مرصدين بمعنى آخذين عدتهم .
(٣) درع فضفاضة وفضافضة بمعنى واسعة ، سابغات بمعنى كاملات ، الملا من الأرض ما اتسع منها ، متسربلون يعنى لابسى السرابيل و المراد بها الدروع .

و فى أيماننا بيض خفاف بها نشفى مراح الشاغبينا (١)
بباب الخندقين كأن أسداً شوابكهن يحمين العرينا (٢)
فوارسها إذا بكروا و راحوا على الأعداء شوساً معلمينا (٣)
لننصر أحمداً و الله حتى نكون عباد صدق مخلصينا
و يعلم أهل مكة حين ساروا و أحزاب أتوا متحزبينا
بأن الله ليس له شريك و أن الله مولى المؤمنينا
فاما تقتلوا سعـــداً سفاها فان الله خير القادرينا
سيدخله جناناً طيبات تكون مقامة للصالحينا
كما قد ردكم فلا شريداً بغيظكم خزايا خائبينا (٤)
خزايا لم تنالوا ثم خيراً وكدتم أن تكونوا دامرينا (٥)
بريح عاصف هبت عليكم فكنتم تحتها متكمهينا (٦)

و لكعب بن مالك قصائد عديدة فى يوم الخنـدق ، و منها ما قاله رداً على

(١) مراح بكسر الميم : النشاط ، و بالفتح ، الموضع الذى يروح منه القوم أو إليه ، و بالضم ، مأوى الابل و البقر و الغنم .

(٢) المراد من الشوابك مجموعاتها الملتفة بعضها مع بعض، و العرين: فناء الدار.

(٣) شوس جمع أشوس ، و هو الذى ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر ، المعلم من الاعلام ، الذى جعل عليه علامة الحرب ليعرف بها .

(٤) الفل : الجماعة المنهزمة ، شريداً بمعنى مطروداً .

(٥) دامرين من الدمار ، يعنى هالكين .

(٦) متكمهين من التكمه ، و تكمه فى الأرض ، ذهب فيها إلى حيث لا يدرى أين يذهب .

شعر عبد الله بن الزبعرى السهمى الذى أنشده يوم الخندق بقوله :

حى الديار محا معارف رسمها طول البلى و تراوح الأحقاب

فأجابه حسان بن ثابت الأنصارى (رضى الله عنه) كما رد عليه كعب ابن مالك الأنصارى بنفس الأسلوب و القافية يقول :

أبقى لنا حدث الحروب بقية من خير نحلة ربنا الوهاب (١)

بيضاء مشرفة الذرى و معاطناً حم الجذوع غزيرة الأحلاب (٢)

كاللوب يبذل جمعها و حفيلها للجار و ابن العم و المنتاب (٣)

و نزائعاً مثل السراح نمى بها علف الشعير و جزة المقضاب (٤)

عرى الشوى منها و أردف نحضها جرد المتون و سائر الآراب (٥)

قوداً تراح إلى الصياح إذا غدت فعل الضراء تراح للكلاب (٦)

و تحوط سائمة الديار و تارة تردى العدا وتؤوب بالأسلاب (٧)

(١) النحلة : العطاء . (٢) الذرى جمع ذروة بمعنى الأعالى، ويريد بها الحصون و الآطام ، حم جمع أحم بمعنى أسود ، ويريد بالمعاطن ، منابت النخل قرب الماء ، والمراد من الجذوع ، الأعناق ، أحلاب جمع حلب ، ما يحلب . (٣) اللوب جمع لوبة ، وهى الأرض الحرة ، ذات الحجارة السود ، حفيلها كثير اللبن . (٤) نزائع جمع نزيعة ما ينتزع من الخيل و الابل من أيدى الغرباء وتجلب إلى غير بلادها ، السراح جمع سرحان بمعنى الذئب ، جزة المقضاب ، ما يقطع من العلف بآلة القطع . (٥) الشوى : القوائم ، النحض : اللحم ، جرد المتون ملساء الظهور من قصر الشعر ، الآراب جمع أربة . القطعة من اللحم .
(٦) قود جمع أقود وقوداء ، بمعنى الطوال . تراح بمعنى تنشط ، الضراء جمع ضارى ، الكلب المعلم للصيد ، والكلاب بالتشديد صاحب هذه الكلاب

(٧) تحوط ، بمعنى تحيط بالماشية المرسلة للرعى ، تردى : تهلك . العدا جمع ★

حوش الوحوش مطارة عند الوغى ... عبس اللقاء مبينة الانجاب (٣)

علفت على دعة فصارت بدنا ... دخس البضيع خفيفة الأقصاب (٤)

يغدون بالزغف المضاعف شكه ... و بمترصات فى الثقاف صياب (٥)

و صوارم نزع الصياقل غلبها ... وبكل أروع ماجد الأنساب (٦)

يصل اليمين بمارن متقارب ... وكلت وقيعته إلى خباب (٧)

و أغر أزرق فى القناه كأنه ... فى طخية الظلماء ضوء شهاب (٨)

و كتيبة ينفى القران قتيرها ... و ترد حد قواخذ النشاب (٩)

جاوى ململة كأن رماحها ... فى كل مجمعة ضريمة غاب (١٠)

عدو ، الأسلاب جمع سلب بفتح اللام ، ما يسلب . (٣) حوش الوحوش ، نوافرهـــا و سراعها ، مطارة ، مدفوعة بسرعة ، عبس جمع أعبس و عبساء ، الانجاب : النجابة و العتق . (٤) بدن ، ذات الأبدان السمينة ، دخس : المكتنز ، البضيع : اللحم ، الأقصاب جمع قصب بمعنى المعى . (٥) الزغف : دروع واسعة محكمة حسنة الحلقات ، المضاعف شكه : يريد أنهـا مضعف الحلق ، مترصات : شديدات ، الثقاف : الرماح المثقفة ، صياب جمع صائبة يعنى الرماح المثقفة الصائبة الصلبة . (٦) صوارم جمع صارمة بمعنى السيوف القاطعة ، غلب بالضم جمع أغلب ، غليظ العنق ، المراد بها هنا خشونة السيوف و صدأها .

(٧) مارن : طرف الأنف أو ما لان منه ، و رمح مارن لدن ، لين ، وقيعته : بمعنى صنيعته ، خباب اسم قين معروف بصناعة الرماح .

(٨) أغر أزرق يريد بذلك سنان الرمح ، طخية ، السواد الحالك .

(٩) قران : مقارنة النبال ، قتير : مسامير حلق الدروع ، قواخذ النشاب : النبال التى تصيب الأفخاذ . (١٠) جاوى ململة : جيش مجتمع تخالط سواده

يأوى إلى ظل اللواء كأنه ... فى صعدة الخطى فيئ عقاب (١)
أعيت أبا كرب ، و أعيت تبعاً ... و أبت بسالتها على الأعراب (٢)
و مواعظ من ربنا نهدى بها ... بلسان أزهر طيب الأثواب
عرضت علينا فاشتهينا ذكرها ... من بعد ما عرضت على الأحزاب
حكما يراها المجرمون بزعمهم ... حرجاً ، و يفهمها ذوو الألباب
جاءت سخينة كى تغالب ربها ... فليغلبن مغالب الغلاب (٣)

و هذه قصيدة أخرى له فى يوم الخندق :

من سره ضرب يمعمع بعضه ... بعضاً ، كمعمعة الأباء المحرق (٤)
فليأت مأسدة تسن سيوفها ... بين المذاد وبين جزع الخندق (٥)
دربوا بضرب المعلمين و أسلموا ... مهجات أنفسهم لرب المشرق
فى عصبة نصر الاله نبيه ... بهم ، و كان بعبده ذا مرفق
فى كل سابغة تخط فضولها ... كالنهى هبت ريحه المترقرق (٦)
بيضاء محكمة كأن قتيرها ... حدق الجنادب ذات شك موثق (٧)

حرة ، الضريمة : اللهيب المتوقد . (١) صعــدة : القناة المستوية ، فيئ ، بمعنى الظل . (٢) أبو كرب و تبع ملكان من اليمن .
(٣) سخينة : لقب قريش فى الجاهلية ، و قد مر هذا البيت فى ترجمة كعب بن مالك ، وما قاله رسول الله ﷺ لكعب حين حين أنشده هذا البيت .
(٤) المعمعة : صوت التهاب النار ، الأباء بالفتح ، القصب أو الأغصان الملتفة .
(٥) تسن بالنون المشددة : تشحذ . (٦) تخط فضولها ، يعنى ينجر الزائد منها على الأرض فيجعل عليها علائم مثلما يكون فى ماء الغدير حينما تهب عليه الريح .
(٧) يريد بها دروعا محكمة النسج ، ويشبه مسامير حلقها بعيون ذكور الجراد ★

جـدلاء يحفزهـا نجـاد مهنـد	صافى الحديدة صارم ذى رونق (١)
تلكم مع التقوى تكون لباسنا	يوم الهياج و كل ساعة مصدق
نصل السيوف إذا قصرن بخطونا	قدما و نلحقها إذا لم تلحق
فترى الجماجم ضاحياً هاماتهـا	بله الأكف كأنها لم تخلق
نلقى العدو بفخمة ملمومة	تنفى الجموع كفصد رأس المشرق (٢)
و نعد للاعداء كل مقلص	ورد ومحجول القوائم أبلق (٣)
تردى بفرسان كأن كماتهم	عند الهياج أسود طل ملثق (٤)
صدق يعاطون الكماة حتوفهم	تحت العماية بالوشيج المزهق (٥)
أمر الاله بربطها لعـدوه	فى الحرب ، إن الله خير موفق
لتكون غيظاً للعدو و حيطاً	للدار إن دلفت خيول النزق (٦)
و يعيننا الله العزيز بقوة	منه و صدق الصبر ساعة نلتقى
و نطيع أمر نبينا و نجيبه	و إذا دعا لكريهة لم نسبق
و متى يناد إلى الشدائد نأتها	و متى نرالحومات فيها نعنق (٧)

شك موثق : محكم السرد لحلق الدروع . (٤) جدلاء بمعنى الدرع المحكمة النسج كذلك ، يحفزهـا : يرفعها ، نجاد مهند : حمائل السيف المهند .

(٥) الفخمة ، المرادبها الكتيبة المكثفة ، ملمومة ، المجتمعة ، المشرق ، جبل بين الصريف و المصيم من أرض ضبة . (٦) مقلص : فرس خفيف طويل القوائم ، ورد : من الخيل ما كان أحمر اللون إلى صفرة .

(١ طل : مطر خفيف ، ملثق ، ما ينشأ من الطل من وحل وطين .

(٢) يريد بالعماية الغبار المظلم ، الوشيج : الرماح ، المزهق : المهلك .

(٣) حيط بتشديد الياء جمع حائط من حاط يحوط ، نزق جمع نازق بمعنى الغاضب السيئ الخلق . (٤) حومة القتال : معظمه ، نعنق : نسرع .

من يتبع قول النبي فانه   فينا مطاع الأمر حق مصدق

فبذاك ينصرنا و يظهر عزنا   و يصيبنا من نيل ذاك بمرفق

إن الذين يكذبون محمداً   كفروا و ضلوا عن سبيل المتق

و قال أبياتاً أخرى فى يوم الخندق و هى من قصيدة له :

لقد علم الأحزاب حين تألبوا   علينا و راموا ديننا ما نوادع

أضاميم من قيس بن عيلان أصفقت   وخندف لم يدروا بما هو واقع (١)

يذودوننا عن ديننا و نذودهم   عن الكفر والرحمن راء و سامع

إذا غايظونا فى مقام أعاننا   على غيظهم نصر من الله واسع

و ذلك حفظ الله فينا و فضله   علينا ، و من لم يحفظ الله ضائع

هدانا لدين الحق و اختاره لنا   و لله فوق الصانعين صنائع

و هذه قصيدة غراء يتحدث فيها عن انطباعاته نحو يوم الخندق :

ألا أبلغ قريشاً أن سلعاً   وما بين العريض إلى الصماد (٢)

نواضح فى الحروب مدربات   و خوص ثقبت من عهد عاد (٣)

رواكد يزخر المرار فيها   فليست بالجمام و لا الثماد (٤)

كأن الغاب و البردى فيها   أجش إذا تبقع للحصاد (٥)

و لم نجعل تجارتنا اشتراء الحمـــــير ، لأرض دوس أو مراد (٦)

(١) أضاميم جمع إضمامة جماعات انضمت بعضها مع بعض ، أصفقت : اجتمعت وتوافقت على الأمر . (٢) سلع و الصماد اسمان لجبلين ، و العريض بالتصغير واد بالمدينة . (٣) نواضح جمع ناضحة الناقة التى يستقى عليها ، خوص : آبار ضيقة ، ثقبت بمعنى حفرت . (٤) المرار : نهر ، الجمام جمع جمة ، البئر الغزيرة المياه ، الثماد : الماء القليل . (٥) البردى بكسر الدال وتشديد الياء ، نبات غليظ ينبت فى البرك ، يصنع منه الحصر ، أجش المكان : التف نباته وحشيشه ، تبقع ، صار فيه بقع صفر . (٦) دوس و مراد : قبيلتان .

بلاد لم تثر إلا لكيما ... نجالد إن نشطتم للجلاد (١)

أثرنا سكة الأنباط فيها ... فلم تر مثلها جلهات واد (٢)

قصرنا كل ذى حضر و طول ... على الغايات مقتدر جواد (٣)

أجيبونا إلى ما نجتديكم ... من القول المبين و السداد (٤)

و إلا فاصبروا لجلاد يوم ... لكم منا إلى شطر المذاد (٥)

نصبحكم بكل أخى حروب ... و كل مطهم سلس القياد (٦)

و كل طمرة خفق حشاها ... تدف دفيف صفراء الجراد (٧)

و كل مقلص الآراب نهد ... تميم الخلق من أخر وهادى (٨)

خيول لا تضاع إذا أضيعت ... خيول الناس فى السنة الجماد

ينازعن الأعنة مصغيات ... إذا نادى إلى الفزع المنادى

إذا قالت لنا النذر استعدوا ... توكلنا على رب العباد

و قلنا لن يفرج ما لقينا ... سوى ضرب القوانس و الجهاد (٩)

(١) لم تثر ، بالبناء على المفعول ، بمعنى لم تحرث للزراعة . (٢) السكة معناها صف النخل ، جلهات الوادى حافاته و متسعاته . (٣) ذى حضر يريد الفرس ذا العدو والطول . (٤) نجتديكم بمعنى نطلب منكم . (٥) شطر : ناحية ، ونحو ، المذاد الموضع الذى حفر فيه الخندق . (٦) المطهم : الفرس التام الخلق ، القوى . (٧) طمرة : الفرس الجواد الطويل القوائم ، خفق : دقيق الخصر ، تدف بمعنى تنشط و تتهيأ للعدو . (٨) مقلص : متشمر ، الآراب جمع أربة ،قطع اللحم . النهد : الفرس الحسن الجميل الجسم ، المراد من : مقلص الآراب مكتنز اللحم . أخر : المراد به من ورائه ، و هادى بمعنى العنق ، و المراد به من أمامه . (٩) قوانس جمع قونس أعلى بيضة الحديد .

فلم تر عصبة فيمن لقينا ... من الأقوام من قار وبادى (١)

أشد بسالة منا إذا ما ... أردناه ، و ألين فى الوداد

إذا ما نحن أسرجنا عليها ... جياد الجدل فى الأرب الشداد (٢)

قدفنا فى السوابغ كل صقر ... كريم غير معتلث الزناد (٣)

أشم كأنه أسد عبوس ... غداة بدا ببطن الحزع عادى

يغشى هامة البطل المذكى ... صبى السيف مسترخى النجاد (٤)

لنظهر دينك اللهم إنا ... بكفك فاهدنا سبل الرشاد

و خرج رسول الله ﷺ على رأس ستة أشهر من فتح بنى قريظة إلى بنى لحيان ليأخذ بثأر أصحاب الرجيع حبيب بن عدى و أصحابه و أظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة (٥) ، وفى هذه الغزوة قال كعب بن مالك أبياتا : خاطب فيها بنى لحيان و يذكرهم بما قد لقوه فى هذه الغزوة من المسلمين من قوة السلاح و الايمان :

لو أن بنى لحيان كانوا تناظروا ... لقوا عصبا فى دارهم ذات مصدق (٦)

لقوا سرعانا يملأ السرب روعه ... أمام طحون كالمجرة فيلق (٧)

(١) قارى ، من هو من أهل القرية ، و بادى ، الذى يسكن فى البادية .

(٢) أسرجنا : ربطنا ، الجدل ، جمع جدلاء : الدرع المحكمة النسج ، الأرب جمع أربة ، العقدة الشديدة . (٣) يقال : اعتلث الرجل زنداً ، إذا أخذه من شجر لا يدرى أيورى أم لا ، كناية عن الاستعداد الكامل للحرب .

(٤) البطل المذكى : الذى بلغ الغاية فى القوة ، صبى السيف : وسطه .

(٥) أنظر سيرة ابن هشام و امتاع الأسماع للمقريزى (غزوة بنى لحيان) .

(٦) تناظروا : يعنى انتظروا ، و العصب جمع عصبة ، الجماعات .

(٧) سرعان : بفتح الراء ، أول القوم ، سرب بالفتح ، الطريق ، وبالكسر ★

و لكنهم كانوا و باراً تتبعت — شعاب حجاز غير ذى متنفق (١)

و قد كانت غزوة ذى قرد (بفتح الراء) و يقال غزوة الغابة ـ وهو ماء على بريد من المدينة ـ فى ربيع الأول ، وذلك بعد ما اغار عيينة بن حصن بن حذيفة الفزارى فى خيل من غطفان على لقاح لرسول الله ﷺ ، بالغابة ، وفيها رجل من بنى غفار و امرأة له فقتلوا الرجل و احتملوا المرأة فى اللقاح . و قد قيل فى يوم ذى قرد شعر أودع فيه الشعراء المسلمون عواطفهم نحو هذه الإغارة ، و قال كعب ابن مالك فى هذه الغزوة أبياتاً من الشعر يتحدث فيها عما كان يتمتع به المسلمون من مكانة عالية بازاء أعدائهم ، يقول :

أتحسب أولاد اللقيطة أننا — على الخيل لسنا مثلهم فى الفوارس

و إنا أناس لا نرى القتل سبة — و لا ننثنى عند الرماح المداعس

وإنا لنقرى الضيف من قمع الذرى — ونضرب رأس الأبلخ المتشاوش (٢)

نرد كماة المعلمين إذا انتخوا — بضرب يسلى نخوة المتقاعس (٣)

بكل فتى حامى الحقيقة ماجد — كريم كسرحان الغضاة مخالس (٤)

★ النفس ، طحون بفتح الطاء صيغة المبالغة ، الكتيبة التى تطحن كل ما تمر به ، المجرة بفتح الميم : منطقة فى السماء ذات نجوم كثيرة تبدو كبقعة بيضاء ، الفيلق : الجيش العظيم ، جمعه فيالق (١) و بار بكسر الواو : جمع وبر بمعنى دويبة مثل السنور و لكنها أصغر منه ، متنفق ، من النافقاء ، و هو أحد أبواب جحر اليربوع و معنى (غير ذى متنفق) ليس له باب يخرج منه (٢) قمع جمع قمعة ، وهى أعلى سنام البعير ، الذرى جمع ذروة الأسنمة الأبلخ المتكبر ، المتشاوش ، الذى ينظر بمؤخر عينه نظر المتكبر (٣) انتخوا بمعنى تكبروا ، المتقاعس ، الذى لا ينقاد و لا يلين . (٤) مخالس بمعنى مقاتل .

يذودون عن أحسابهم و تلادهم ببيض تقد الهام تحت القوانس (١)
فسائل بنى بدر إذا ما لقيتهم بما فعل الاخوان يوم التمارس (٢)
إذا ما خرجتم فأصدقوا من لقيتم و لا تكتموا أخباركم فى المجالس
و قولوا : زللنا عن مخالب خادر به وحر فى الصدر ما لم يمارس (٣)

و قال كعب بن مالك أبياتاً فى يوم خيبر :

و نحن وردنا خيبراً و فروضه بكل فتى عارى الأشاجع مذود (٤)
جواد لدى الغايات لا واهن القوى جريئ على الأعداء فى كل مشهد
عظيم رماد القدر فى كل شتوة ضروب بنصل المشرفى المهند (٥)
يرى القتل مدحا إن أصاب شهادة من الله يرجوها و فوزاً بأحمد
يذود و يحمى عن ذمار محمد و يدفع عنه باللسان و باليد
و ينصره من كل أمر يريبه يجود بنفس دون نفس محمد
يصدق بالأنباء بالغيب مخلصاً يريد بذاك الفوز و العز فى غد

و كانت غزوة موتة فى سنة ثمان ، واستشهد فيها زيد بن حارثة و جعفر بن أبى طالب و عبد الله بن رواحة . فبكى عليهم شعراء المسلمين بشعرهم ، و أشادوا بجراءتهم وبسالتهم فى سبيل الله ، و كان من بينهم شاعرنا كعب بن مالك الذى فاضت قريحته بالأبيات التالية :

نام العيون و دمع عينك يهمل سحاً كما وكف الطباب المخضل (٦)

(١) القوانس جمع قونسة ، أعالى بيض الحديد . (٢) التمارس ، المضاربة فى الحرب (٣) خادر الأسد الذى يلزم أجمته ، الوحر بفتح الحاء : الحقد (٤) فروض جمع فرضة مواضع الشرب فى الأنهار (٥) المشرفى المهند ، السيف من صناعة هند أو الهند .
(٦) سحاً من سح الماء إذا صبه صباً متتابعاً ، الطباب جمع طبابة القطعة المستطيلة ★

فى ليلة وردت على همومها	طوراً أحسن و تارة أتململ
و اعتادنى حزن فبت كأننى	ببنات نعش و السماك موكل (١)
و كأنما بين الجوانح و الحشا	مما تأوبنى شهاب مدخل
وجداً على النفر الذين تتابعوا	يوماً بموتة أسندوا لم ينقلوا
صلى الاله عليهم من فتية	و سقى عظامهم الغمام المسبل
صبروا بموتة للاله نفوسهم	حذر الردى و مخافة أن ينكلوا (٢)
فمضوا أمام المسلمين كأنهم	فنق عليهن الحديد المرفل (٣)
إذ يهتدون بجعفر و لوائه	قدام أولهم فنعم الأول
حتى تفرجت الصفوف و جعفر	حيث التقى وعث الصفوف مجدل (٤)
فتغير القمر المنير لفقده	و الشمس قد كسفت وكادت تأفل
قرم علا بنيانه من هاشم	فرعا أشم و سودداً ما ينقل
قوم بهم عصم الاله عباده	و عليهم نزل الكتاب المنزل
فضلوا المعاشر عزة و تكرماً	و تغمدت أحلامهم من يجهل (٥)

★ من الجلد أو الثوب التى يشد بها بين خرزتى المزادة، وكف : قطر، المخضل : السائل الندى (١) يريد أنه بات يرعى النجوم من شدة ما ألم به من الهموم و الأحزان . (٢) صبروا نفوسهم، يعنى حبسوها على ما يريدون من الشهادة ، أن ينكلوا : أن يتأخروا هيبة من الأعداء . (٣) فنق جمع فنيق : الفحول من الابل ، المرفل من الحديد ما ينجر على الأرض و يريد به الدروع السابغة .

(٤) وعث الصفوف التحامها بحيث يصعب الخلاص منها ، مجدل : مطروح على الجدالة ، و هى الأرض . (٥) تغمدت أحلامهم ، يعنى سترت جهل الجاهلين .

لا يطلقون إلى السفاه حباهم و يرى خطيبهم بحق يفصل (١)

بيض الوجوه ترى بطون أكفهم تندى إذا اعتذر الزمان الممحل

و بهديهم رضى الاله بخلقه و بجدهم نصر النبي المرسل

و فى نفس هذه السنة سار النبي ﷺ إلى الطائف حين فرغ من حنين ، ولما عزم ﷺ على المسير إلى الطائف للغزوة قال كعب بن مالك القصيدة الآتية .

قضينا من تهامة كل ريب و خيبر ثم أجممنا السيوفا (٢)

نخيرها ، و لو نطقت لقالت قواطعهن ، دوسا أو ثقيفا

فلست لحاضن إن لم تروها بساحة داركم منا ألوفا (٣)

و ننتزع العروش ببطن وج وتصبح دوركم منا خلوفا (٤)

و يأتيكم لنا سرعان خيل يغادر خلفه جمعاً كثيفا (٥)

إذا نزلوا بساحتكم سمعتم لها مما أناخ بها رجيفا (٦)

بأيديهم قواضب مرهفات يزرن المصطلين بها الحتوفا

كأمثال العقائق أخلصتها قيون الهند لم تضرب كتيفا (٧)

تخال جدية الأبطال فيها غداة الزحف جاديا مدوفا (٨)

(١) حبا جمع حبوة ، ما يشد على الركبتين من اليدين أو ثوب عند الجلوس ، و ذلك كناية عن الاستعداد للنجدة . (٢) أجممنا بمعنى أرحنا .

(٣) الحاضن : المرأة التى تحضن ولدها ، و يروى الحاصن : بمعنى العفيفة .

(٤) خلوفا : يريد دوراً خالية عن أهلها ، بطن وج . فى الطائف (٥) سرعان بفتح الراء ، المسرعون . (٦) رجيف : الصوت المرعب مع اضطراب .

(٧) كتيف جمع كتيفة ، صفائح الحديد التى تضرب للابواب ، عقائق جمع عقيقة ، المراد بها هنا شعاع البرق . (٨) جدية : طريقة من الدم . الجادى : الزعفران ، مدوف : مخلوط بغيره .

أجدهم أليس لهم نصيح ... من الأقوام كان بنا عريفا (١)
يخبرهم بأنا قد جمعنا ... عتاق الخيل و النجب الطروفا
و أنا قد أتيناهم بزحف ... يحيط بسور حصنهم صفوفاً
رئيسهم النبى و كان صلبا ... نقى القلب مصطبراً عزوفا
رشيد الأمر ذو حكم و علم ... و حلم لم يكن نزقا خفيفاً (٢)
نطيع نبينا و نطيع رباً ... هو الرحمن كان بنا رؤوفاً
فان تلقوا إلينا السلم نقبل ... و نجعلكم لنا عضداً و ريفاً (٣)
و إن تأبوا نجاهدكم و نصبر ... ولا يك أمرنا رعشاً ضعيفاً (٤)
نجالد ما بقينا أو تنيبوا ... إلى الاسلام إذعانا مضيفاً (٥)
نجاهد لا نبالى من لقينا ... أ أهلكنا التلاد أم الطريفا
وكم من معشر ألبوا علينا ... صميم الجذم منهم و الحليفا (٦)
أتونا لا يرون لهم كفاءاً ... فجدعنا المسامع و الأنوفا
بكل مهند لين صقيل ... نسوقهم بها سوقا عنيفاً
لأمر الله و الاسلام حتى ... يقوم الدين معتدلا حنيفا
و تنسى اللات و العزى وودآ ... و نسلبها القلائد و الشنوفا (٧)
فأمسوا قد أقروا و اطمأنوا ... و من لا يمتنع يقبل خسوفا (٨)

(١) أجدهم يعنى أحداً منهم ، منصوب على المصدرية ، عريفاً ، بمعنى عارفاً .
(٢) نزق : كثير الحدة والطيش . (٣) ريف : أرض فيها زرع وخصب .
و يريد هنا أعوانا على الحروب . (٤) رعش بمعنى متقلب غير ثابت .
(٥) مضيفاً يعنى به ملجئاً له ، مثل الضيف الذى يقدم له الملجأ .
(٦) ألبوا علينا يعنى جمعوا علينا ، صميم الجذم بمعنى خالص الأصل .
(٧) شنوف جمع شنف ، القرط الذى يلبس فى أعلى الأذن .
(٨) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ .

تحيـــــة النـــــدوة

فضيلة الدكتور الشيخ عدنان زرزور
رئيس قسم القرآن والسنة فى جامعة العين بدولة الامارات

[هذه الكلمة ألقيت فى الندوة العالمية للادب الاسلامى . التى عقدتها كلية اللغة العربية وآدابها بجامعة ندوة العلماء فى الفترة ١١ - ١٣ جمادى الثانية ١٤٠١هـ -] .

الحمد لله و الصلاة و السلام على سيدنا رسول الله .

نلتقى فى هذا اليوم المبارك فى رحاب ندوة طاهرة ، و فى ظل معهد عريق كان ولا زال وسيبق إن شاء الله حصناً من حصون الاسلام فى هذه البلاد الشاسعة المترامية الأطراف ، بل إننا إذا ذكرنا الشعار الذى نلتقى تحته الآن ، و هو الأدب الاسلامى و علمنا أن ما كتب من هذا الأدب بلغة العرب يمثل أهم فصوله وأبوابه لقلنا : إننا اليوم فى حصن من حصون العروبة و الاسلام جميعاً ، و لعل معظمنا معشر أعضاء الوفود قد أتيحت له الفرصة فى هذه الفترة التى سبقت افتتاح هذه الندوة أن يطلع عن كثب على مدى حياة اللغة العربية فى هذا المعهد ولدى جميع الذين أصابوا حظاً من الثقافة الاسلامية من أبناء المسلمين فى هذه البلاد . . حتى إننى رددت فى نفسى أن من يدخل دار العلوم يعلم أنه ليس غريب الوجه و اليد و اللسان . و أن الأمر هنا ليس كما قال أبو الطيب فى مغانى شعب بوان :

و لكن الفتى العربى فيها   غريب الوجه واليد واللسان

و إن كان هذا الشعور قد يخامر الفتى العربى الآن وهو فى بعض الجامعات ، بل فى بعض العواصم العربية مع الأسف الشديد .

و أعتقد أن الكثيرين من أعضاء الوفود يا سماحة الرئيس كانوا يعلمون ذلك عن دار العلوم قبل أن يتشرفوا بالحضور إليها . حتى إنى قد قلت مرة ، وقد استبد بى اليأس من بعض الجامعات العربية التى تعلم باللغات الأجنبية فى بعض الكليات ،

وباللهجات العامية المحلية فى بعض الكليات الأخرى ... حتى إن دوام النحو والصرف و البلاغة العربية سمعتها تعلم بمثل هذه اللهجات المقيتة ... قلت : ما أحرى أن تكون الكلمة التى قالها الشيخ محمد عبده فى دار علوم مصر أن تقال اليوم فى دار العلوم بالهند ... و لحواها أن اللغة العربية تموت فى كل مكان . . وتحيا فى دار العلوم .

ولم يا سيدى الشيخ .. و الكثيرون منا من أبناء الجيل الذى تربى على كتب السيد أبى الحسن الندوى و رسائله و محاضراته ... ليس فى باب الثقافة و الفن والدعوة الاسلامية فحسب ، بل فى باب اللغة العربية و الأدب العربى و البيان العربى كذلك . ولا يتسع المجال هنا لضرب الأمثلة و إحصاء الشواهد .

و لهذا فان حالنا اليوم فى هذه الندوة تذكر بالمثل العربى القائل : كناقل التمر إلى هجر ... و لكنكم تأبون فى كل حالاتكم إلا أن تكونوا معلمين . و تكونوا متواضعين . . جزاكم الله خيراً عن الاسلام و المسلمين .

و قد يستعيد المرء فى ذاكرته ، وهو يرى توارد الوفود العربية فى اليومين الماضيين . . ما ذكرتموه فى كتابكم « المسلمون فى الهند » من أن العرب دخلوا الهند هداة مرشدين ، و ملوكا طامحين ... يستعيـــد المرء هاتين الحالتين ليضيف إليهما إذا أذنتم : و محاضرين متعلمين .

أيها الحفل الكريم : لعل من أبرز ما تثيره ندوة عن الأدب الاسلامى فى شبه القارة الهندية ، فى ذهن المتأمل أو الناظر من بعيد ، تلك العلاقة التى لا تنفصم عراها بين العربية والاسلام ... ويتذكر المرء هذه العلاقة بمقدار معاناته من محاولات الفصم الجاهلة ، و الكارهة للاسلام و العروبة جميعاً .. و التى تمثلت ، و لا أقول تتمثل لأنها اليوم فى حالة احتضار .. فى الدعوات القومية الغبية والمتآمرة فى بعض البلاد العربية ، و كما أوضحه أستاذنا أبو الحسن فى كتابه : الصراع بين الفكرة الغربية و الفكرة الاسلامية .

زعموا أن الثقافة التى يحمونها ويدافعون عنها هى الثقافة القومية .. ثم يحاربون الاسلام و الثقافة الاسلامية ... وهل الثقافة القومية إلا ما دون بالعربية فى ظلال الاسلام ! ثم ماذا تقدم دراسة اللغة العربية للدارس أو الباحث ! !

إن دراسة اللغة العربية تقدم للفرد معنى الاسلام والحضارة الاسلامية، وتربطنا ربطاً وثيقاً بهذه الحضارة التى تقوم على مبدأ الايمان العميق بالآله الواحد جل وعلا، وتنبنى على قواعد من التوزان و الشمول و الايجابية ، و تدور على مبررات إنسانية قوامها روح المساواة بين الأفراد وبين الأمم و الشعوب .

و لكن المسألة التى يجب التنبه لها فى هذه العلاقة النهائية أن الثقافة الاسلامية كما حطمت حاجز الأجناس والسلالات فانها كذلك تجاوزت حاجز اللسان واللغات: لقد انتظمت الثقافة الاسلامية عباقرة من جميع الشعوب ، بحيث يصعب علينا الآن أن تنسب « تراث » هذه الثقافة التى يدعونها قومية - إلى شعب بعينه أو إلى جنس بعينه ، بل صار من الصعب علينا أيضاً أن نميز اللسان الخاص بهؤلا العباقرة والعلماء و الأفذاذ . وقد عبروا جميعاً عن هذه الثقافة بلغة كتابها ، وهو القرآن الكريم . بغض النظر عن شعوبهم و قبائلهم .

لقد خرج الاسلام باللغة العربية إلى دائرة أوسع من لدائرة العربية ومحيطها . . و لهذا فهى لم تعد ملكا للعرب وحدهم ! بل إنهم لو أرادوا ذلك لما استطاعوا . . كما لم يعد فى مقدورهم أن يتجاوزوا « عربية القرآن » فيما نقدره و نذهب إليـــه . و لهذا كان من العجيب محـاولة بعضهم أن يفرق بين العربية و الاسلاميه ، أو أن يعود بالاسلام إلى الدائرة العربية فيجعله من صورها أو من عبقرية قوميتها ... و الاسلام كما يعلم كل عاقل هو الذى دفع العربية وحماها ، وكتب لها الخلود بخلود القرآن الكريم : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » إن الدرس البليغ الصامت الذى سمعناه من حجارة هذا البناء المتواضع المهيب أول ما وقع بصرنا عليه ، و الذى أكدلنا ما استقر فى أرواحنا وعقولنا منذ سنين كان يقول : إن تقليص دائرة الثقافة الاسلامية و العودة بها إلى الدائرة العربية أو القومية بدعوى أو بدليل أن العربية هى لسان هذه الدائرة الاسلامية ، و لذلك فهى دائرة العروبة أو القومية ...... إن هذا التقليص أمر طريف لا يصح لنا أن نقف عنده إلا بمقدار ما يجوز لنا أن نتحدث فيه عن سيبويه العربى ، و أبى على الفارسى العربى ، و الفارابى العربى ، و ابن سينا

العربى ، و القزوينى العربى ، و البخارى العربى ، و الترمذى العــربى ، و النسائى العربى ، و الرازى العربى...إلى آخر هذا الشريط العربى الظريف و الخفيف ! !

أما فى باب التاريخ الذى جعله بعضهم العنصر الأساسى الثانى فى بناء القوميات و الجاهليات ، و حاولوا فيه ما حاولوا فى اللغة العربية من تقطيع و تمزيق ، فاننا نستعيد هنا على أرض الهند العريقة ما قلناه بشأنه من خواطر سانحة سابقة : إن المسلم الهندى الذى يذكى فيه التاريخ روح الارتباط بالعرب ، و الايمان بالقرآن العربى المبين ، و الرسول العربى العظيم ﷺ . فيفرح لاندحار أجداده أمام جحافل العرب المسلمين ، لأن هذا الاندحار هيأ له فرصة الهداية إلى هذا الدين . إن هذا المسلم ارتبط مع العرب و مع سائر المسلمين الآخرين بالتاريخ بعد ارتباطه باللغة كذلك و ما أروع ما قاله الأستاذ مسعود الندوى فى هذا الباب حين أشار فى صدر كتابه عن مجمل تاريخ الدعوة الاسلامية فى الهند إلى أن المسلمين فى هذه البــلاد إن كانوا يأسفون على شئ ... فعلى أن بلادهم لم تتشرف بأقدام الفاتحين الأوائل من الصحابة رضوان الله عليهم .

أيها الحفل الكريم !

تأتى هذه الندوة عن الأدب الاسلامى فى وقت بلغ فيه التحدى الحضارى و الثقافى أوجه بين العالم الاسلامى و الأوروبى بشقيه الرأسمالى و الشيوعى . و فى وقت بلغ فيه التعاون بين شقى هذه الحضــارة الأوروبية الواحدة أوجه كذلك . أو بعبارة أدق : أسفر فيه هذا التعاون عن وجهه ... فى مواجهة الاسلام . وضد مصالح المسلمين ، و لقد كان للأدب الاسلامى دوره على الدوام فى مواجهة مثل هذه التحديات التى وقعت فى التاريخ ...

و سواء أكانت أيضاً داخلية أم خارجية ... كما أن هذا الأدب لم يتخلف عن حركة الفتوح و الجهاد و تحرير الشعوب من الجاهليـات ... تلك المهمـة التى نيطت بالأمة الاسلامية على الدوام ... بل إن الأدب الاسلامى واكب الحياة و المجتمـع

الاسلامى فى الأعم و الأغلب فى مرحلتى المد و الجزر ، أو فى أيام الغلبة ، و فى أوقات الصمود .. و بحسبنا أن نشير هنا إلى أدب الامام الغزالى و ابن تيمية على سبيل المثال كانا من أهم أسباب الرد على التحديات الداخلية و الخارجية جميعاً ، و نحن اليوم ما زلنا فى مواقع الصمود . وربما انقلبنا إلى مواقع الغلبة فى بعض البلاد فأين هو الأدب الاسلامى ، و ما دوره ... و ما هى طبيعته ؟ . هذا ما نرجو أن نسمع الاجابة عنه فى هذه الندوة الرائدة التى لم يسبق لها مثيل من قبل فيما نعلم و حين تأتى هذه الدعوة من هذه البقعة الصامدة البعيدة . فذلك دليل على أن العربية والاسلام كلاهما بخير إن شاء الله ... و أن المستقبل للاسلام وللغة القرآن بحول الله و قوته و توفيقه و لعل الاخوة و الزملاء الحضور أن ينجحوا فى الوصول إلى مفهومات مشتركة و أصول عامة أو أساسية للنظرة الاسلامية فى الأدب و مدى انطلاقها من القرآن الكريم .. الذى جمع أصول الحياة الاسلامية جميعاً فى الوقت الذى كان فيه معجزة أدبية بيانية خالدة ... وعسى أن تتطور هذه الندوة كذلك لتصبح لها أمانة ثابتة و مقر دائم يتابع تنفيذ مقرراتها و توجيهاتها ، و يعمل على إخراجها إلى حيز الوجود فى زمن يلعب فيه الأدب و الاسلام و الصحافة أخطر الأدوار فى حياة الأمم و الشعوب .

إن الآمال المعقودة على هذه الندوة الرائدة كبيرة و يوم تنجح فى إيتاء بعض ثمراتها فسوف يكون ذلك باذن الله واحداً من أهم عطاءات الشعب الاسلامى الهندى الذى قدم للعالم الاسلامى على الدوام ، و فى هذا العصر على الخصوص الكثير الكثير فى باب الحديث و الأدب و الثقافة و اللغة و فى باب الدعوة الاسلامية على وجه العموم . و لقد أمدتنا هذه القارة فى هذا العصر بعقل الدعوة الاسلامية و روحها متمثلين فى أبى الأعلى المودودى و أبى الحسن الندوى .. رحم الله أبا الأعلى ، و بارك لنا فى حياة السيد أبى الحسن .. و جزاكم جميعاً ما هو أهله ، و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته .

لقد مرت قضية فلسطين بالصراع الداخلى الذى حطم المقاومة وشغلها عن محاربة إسرائيل حقيقة ، لأن منظمة التحرير كانت تتألف من فرق متناقضة الفكر والعقيدة . والولاء السياسى ، وحاول القادة دائماً تجنب عنصر الوحدة والتأليف الحقيق ، ويتحمل السيد ياسر عرفات نفسه المسؤلية عن هذا التمزق الذى ظهر وقوى فى أتباعه .

وقد كان من صميم المأساة إبعاد العنصر الاسلامى المخلص من صفوف القيادة ، والاعتماد الزائد على الاشتراكيين والمسيحيين ، والقوميين الذين يحولون ولاءهم سريعاً ، وكان ارتباط منظمة تحرير فلسطين بهذا العنصر هو الذى منعها من تأييد الجهاد فى أفغانستان . ودفعها إلى تأييد قوات الاحتلال السوفيتية ، ومواقف أخرى ظلت فيها مرتبطة بالمعسكر الاشتراكى

اعتمد الفسطينيون فى صراعهم على وسائل النضال الاشتراكى . فجعلوا قدوتهم ثوار ويتنام ، و كوريا و كوبا و الصين ، و حاولوا الاقتباس من مناهجهم الفكرية . والحربية ، و كانوا يمجدون بطولاتهم و يستفيدون من تجاربهم ، فنشأ فيهم جيل ثائر على الدين و القيم . و قد ذكرت إحدى الصحف العربيـــة . أن وفداً للفلسطينيين زار هوشى منه ، ليفيده من تجاربه فى حرب العصابات ، فقال هوشى منه مستغرباً . لقد تعلمت حرب العصابات من قائدكم العربى محمد عبد الكريم الريفى ، الذى سجل مآثر فى حرب العصابات وأقلق قوات إيطالية و فرنسية و اسبانية مجتمعة ، و ألحق هزائم متتالية ، فهذه بضاعتكم ، فخجل الفلسطينيون ، لكنهم لم يحولوا قبلتهم .

إن النضال الفلسطينى سار دائماً على طريق غير معبد ، وكانت تعوزه وحدة التفكير والهدف . والأصالة ، وإذا وجد أى عنصر أو موقع تحقق به النصر كان ذلك مديناً لوجود فئات متشتتة للاسلاميين الذين أتيحت لهم فرصة ليمثلوا دورهم ولكنهم أبعدوا سريعاً عن المواقع الحساسة .

ومما يدل على الانحراف الفكرى أن ياسر عرفات لدى خروجه من جنوب لبنان وخروجه من طرابلس كان يلوح برمز « V » وهو رمز النصر ، الذى كان قد استخدمه تشرشل خلال الحرب العالمية ، فصارت إشارة إلى النصر ، ويظهر بذلك مايختمر فى أذهان القادة .

لقد خسر الفلسطينيون حربهم ، و خسرت سائر وسائلهم و أسلحتهم ، لأنهم لم يعينوا منطلقهم تعيينا صحيحاً أصيلا ، ولم يعتمدوا على المصدر الحقيق للقوة والوحدة ، و النصر ، وما النصر إلا من عند الله ، ينصر من يشاء برحمته ، و العاقبة للمتقين .

13737-3, 342

REGD. NO. LW/NP 59

baas-e-islami

LUCKNOW (INDIA)

شعارنا الوحيد: إلى الإسلام من جديد
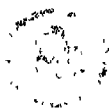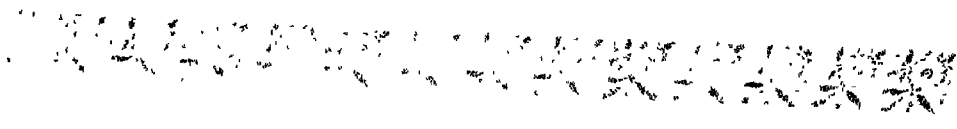
البعث الإسلامي

العدد التاسع

المجلد الثامن والعشرون

جمادى الثانية ١٤٠٤هـ

مارس ١٩٨٤م

تصدرها ندوة العلماء لكهنؤ (الهند)

أخي المسلم

أخي في العقيدة و الدين لا في التراب و الطين ، أخي على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخي في النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخي في الحق و الصبر في الوطن و المهجر ، أخي في مهبط الوحي و منبع الصبح الصادق في ليل الانسانية الغاسق . أخي في زهرة الصحراء و درة الخليج ، بين الرياح العاتية و الأمواج الثائرة ، أخي في اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخي في الله ! نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك في وجه الباطل ، زاداً لك في طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك في صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمي في مجلة ، أو زبون في محل تجارة !

[محمد الحسني ـ رحمه الله]

المجلد الثامن والعشرون

العدد التاسع

جمادى الأخرى ١٤٠٤هـ

مارس ١٩٨٤م

أنشأها

فقيد الدعوة الاسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

في عام ١٣٧٥هـ ١٩٥٥م

المراسلات :

البعث الإسلامي

ندوة العلماء ص.ب ٩٣

لكهنؤ ـ الهند

Albaas - el - Islam

NADWAT - UL - ULAMA

P. O. Box No. 93

LUCKNOW (I N D I A)

في هذا العدد

الافتتاحية

كان هذا المؤتمر قبل كل شئ فرصة غالية ، لجمع أصحاب الفكر و الدعوة و الاهتمامات الاسلامية على المستوى العالمى فى أحسن و أكرم بقعة ، و من جهة عريقة فى مجال العمل الجاد للاسلام ، تربية ودعوة ، وهى الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، التى تولت عقد هذا المؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة ، انطلاقاً من رسالتها و أهدافها فى تبليغ رسالة الاسلام و دعوته إلى العالمين ، و استهدافاً للبحث عن وسائل التضامن و الوحدة بين المسلمين ، وجمعهم على مبدأ البر والتقوى وفى ساحة الأخوة والتعاطف بينهم ، و خاصة فى الظروف القاسية والأخطار المحدقة بهم من كل جانب .

ولقد نالت دعوة المؤتمر استجابة كريمة من المدعووين الكرام فقد كان ملتقى إسلامياً على صعيد الدعوة إلى الله والتفكير فى القضايا المهمة التى تشغل بال القائمين فى مجال العمل الاسلامى ، والأجواء والظروف التى تكتنفه . وكان المجتمعون فيه يمثلون الفكر الاسلامى و المراكز والمؤسسات الاسلامية للتربية وللدعوة ، ومن لهم ماض مشرق فى خدمة الفكر الدينى و الثقافة الاسلامية و فهم صحيح سليم للاسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً ، ولا أدل على ذلك من البحوث التى ألقيت فى المؤتمر ومن الأفكار والآراء التى عرضت فيه . وكانت بمثابة أضواء على الطريق .

أما موضوع المؤتمر الرئيسى فكان : « سبيل الدعوة الاسلامية إلى تحقيق التضامن الاسلامى و وحدة المسلمين » ذلك الموضوع المهم الذى يعتبر من أهم موضوعات المسلمين اليوم فى كل مكان ، و لا غرو فان هذا التضامن المنشود و وحدة المسلمين هما ضالة المسلمين فى هذا العصر المتنور المتطور . يبحثون عنها بكل الوسائل والطاقات و لكن دون جدوى ، لقد استعصى عليهم طريق التضامن

و الوحدة منذ أن تفرق بهم السبل ، و التوى عليهم مفهوم الوحدة والتضامن بفعل الأفكار الوافدة و المفاهيم الخاطئة . و الكل يعلم أن جوانب حياة المسلمين الأخرى لم تلق ذلك الاهتمام الكبير الذى لقيه هذا الجانب الحساس، جانب الوحدة والتضامن. من قبل أعدائهم ، الذين عرفوا بعد التجارب والممارسات العملية أن الطريق الوحيد لحسم طاقات المسلمين و إضعاف شوكتهم هو التركيز الكامل على تمزيق الصف ، و إثارة الشكوك و الخلاف فيما بينهم ، فاذا تحقق الانشقاق و الفرقة تحقق ذلك « الهدف العظيم » الذى يتوخاه العدو على أساس المبدأ الذى وضعه من تفرق المسلمين ثم السيادة عليهم . المبدأ الذى يقول : « فرق تسد » .

لم يكن أعداء المسلمين فى أى وقت من أوقاتهم أقل علماً بتاريخ المسلمين و بطولاتهم التى كان الاعتصام بحبل الله وحده هو منبعها الأصيل . قد درسوا تاريخ ماقبل الاسلام فرأوا أن الناس كانت تتمزق بهم الحر ب والخلافات والعداوات والحزازات من كل نوع ، دون أن تكون هناك قوة تجمعهم على درب الحب والتآلف و الايمان ، و كان الاسلام هو الذى تمكن باذن الله تعالى و بالتعاليم التى جاء بها من عند الله ، من تأليف القلوب وتعويض الناس عن التفرق بالتجمع ، وعن العداوة بالمحبة و الألفة . فلم يركزوا جهودهم و طاقاتهم إلا على هذه النقطة بأحص وجه ، و بذروا بذور الخلافات التى إذا قويت و ذهبت إلى الأعماق تكفلت تقطيع أوصال الوحدة و التضامن فى المجتمع الاسلامى . و تفرقت بأفراده أهواء شتات ، و بالتالى وصلت بهم إلى حضيض الأحقاد ، و هنالك يتحقق ما يراد من الأمة الاسلامية . و ما حالة المسلمين اليوم بسر .

لقد عاش الانسان فى الجاهلية الأولى أحقاداً لا أرجاء لها ، و لم تتمكن الحضارات الموجودة يوم ذاك من الحد عليها ، ولا تهدئة أعصاب الناس ، ولم تستطع أن تضعه فى موضع محترم ، و لم تقدر على إخراجه من الظلم الاجتماعى والاضطهاد السياسى و التفاوت الطبقى والسخرة القاتلة المدمرة للكرامات ، إلى العدل الاجتماعى ،

و المساواة الانسانية و احترام الحقوق و الحرمات ، و أراد الله سبحانه بالانسان خيراً فأنزل الاسلام وبعث النبى عليه الصلاة والسلام ، لذى تناولهم بالتربية الحكيمة النبوية وزكى قلوب الناس بالتعليم والموعظة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة ، و إن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » فاذا بالقلوب تتزكى و يتراءى لها الحق و الهداية و نور الايمان ، و تتلاشى الأحقاد و الضغائن ، و تنهار حواجز الخلافات و العصبيات ، و يعود الناس كلهم أسرة واحدة ، و إخواناً متقابلين ، فلا بغض ولا عداوة ، لا عصبية ، و لا أنساب و لا قبائل ، و لا ألوان و لا أوطان و إنما الناس كلهم كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى ، و يأمرهم الله تبارك و تعالى جميعاً بالوحدة و الاعتصام بحبله فينزلون لأمره و يعتصمون بحبله ، فألف بين القلوب ، و أبعدهم عن ذلك المصير المشئوم الذى تهددهم بالنار والدمار ، و ذلك ما من الله به عليهم ، و عده نعمة كبيرة أنعم بها على الانسان ، فقال : « و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ، و كنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

و لما كان التمزق من كل نوع داء الانسان العضال ، فوصف الله علاجه فى وحدة الاسلام، الوحدة التى تعتبر ميزة هذا الدين الكبرى ، وخصيصته العظيمة التى يتميز بها عن جميع الديانات والفلسفات التى نادت وتنادى بالمساواة و احترام حقوق الانسان ، و من خلال هذه الوحدة و التضامن تتجلى قوة الاسلام ، و الدور الديناميكى (Dynamic Role) لرسالة الدين الأخير الذى أكمله الله بجميع ما فيه من معان و خلال و صفات على يد خاتم النبيين محمد ﷺ ، و كلما فصلت حياة المسلم عن مصدر هذه القوة التى تستمد منه الروح و النشاط فى مجالاتها المتعددة ومناسباتها المنوعة بقيت كلحم على وضم ، و اختطفته الضوارى و الوحوش .

إن مصيبة الانسان الجاهلى لم تكن فى شئ مثل ما كانت فى المناوشات والمشاجرات ، وجاء الاسلام فقضى قبل كل عمل على عوامل الاثارة النفسية والقسوة و غيرها بعوامل لين وقرب ، بشئ كثير من الحكمة و التربية ، وربطه برباط الثقة والحب ، و أعلن أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . و أن الجميع من آدم ، وآدم من تراب ، ولو لا قضاء الله وقدرته لم يكد ينزاح الناس عن مواقف العصبيات القبلية و النسبية التى أشربت فى قلوبهم ، و لكنها تعاليم الاسلام و تربية النبى ﷺ التى نجحت فى تطهير النفوس من هذه الأدران الغليظة ، بحيث إنها إذا حادت عن الطريق و مالت عن القصد سرعان ما تعود إلى سيرتها الأولى من التفاخر بالأنساب و الآباء ، و التغنى بالأمجاد و الأوطان ، و الانحياز إلى الأجناس و الألوان ، ثم التناحر و التقاتل بله الخلافات و العصبيات و التناقضات .

إن عدونا لم يك غبياً فى أى لحظة ، و لكنه درس بتعمق خصائص الاسلام و ما يريد أن يصنعه فى الانسان المسلم ، فرأى أن الاسلام يجمع النـــاس على البر والتقوى ، ويؤلف بين القلوب باسم الاخوة والتعاون ، ويربى أتباعه على خلال الاحسان و العدل والايثار والعطاء . ويصنع من كل ذلك وحدة صماء لا تحطمها الصواريخ ، فركز تفكيره فى تمزيق وحدة المسلم وتضامنه بأى طريق ممكن ، فلم يجد طريقاً أجدى و أسرع تأثيراً من زرع بذور الخلافات فى قلبـه على جميع المستويات ، بوحى من شياطين الانس و الجن ، و ذلك ما نراه اليوم و نلمس آثاره فى كل مجتمع و بلد و قرية و بيت يسكنه المسلمون .

من هنا نستطيع أن نقول بكل صراحة و قوة : إن محنة المسلمين ليست فى الاستعمار و لا فى الحركات الهدامة و المخططـات السرية التى تمارس اليوم ضدهم ، و لكنها فى واقع الفرقة الذى يعيشونه اليوم على كل مستوى ، و فى واقع الفوضى الخلقية و الاجتماعية و السياسية التى يستمرؤنهـا بكل إلحاح و لجاج . و إن شئت

فانظر فى كل طبقة من مجتمعات المسلمين ، سوف لا تظفر برجلين يتفقان على شئون الحياة العامة من كل جهة ، بل و ربما يقفز إليهما الخلاف فى أمور عادية لا قيمة لها ، و نتيجة لذلك فان القيم الخلقية و الاجتماعية تذهب ضحية الخلافات من غير سبب كبير ، و ذلك من المشاهدات و الحقائق التى تمر بنا كل حين .

واسمحوا لى أن أتقدم خطوة أخرى فأقول : إن محنة المسلمين اليوم ليست فى أعدائهم المتربصين بهم الدوائر من كل جانب ، ليست فى اسرائيل والسوفيات والأمريكان و ليست فى الممارسات الارهابية و العمليات الانتحارية ، ليست فى الجيوش المحتلة والأسلحة المدمرة ، إنما هى فى تفرقهم وخلافاتهم . وفى نزاعاتهم ومشاجراتهم ، وفى نشاطاتهم الموسعة ضد إخوانهم ، كأنهم يحققون لأعدائهم فوق ما يتربصون بهم ، فأغنوهم عن هذه المهمة لكى يتوافروا على توفير طاقاتهم العسكرية والاقتصادية وإرساء قواعدهم فى بلدان المسلمين و مجتمعاتهم الاسلاميـة ، و تركونا نحن المسلمين يضرب بعضنا بعضاً ، ويلعن بعضنا بعضاً ، دون أن نفكر فى الهدف والغاية و نتبصر بالعواقب الوخيمة التى تهددنا من بعيد .

أ ليس ذلك إيذاناً بنجاح مكايد الشيطان وإخوانه فى المسلمين المتحابين المتعاطفين الذين مثل الرسول ﷺ تعاطفهم وتوادهم قائلا : «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» و اعتبرهم وحدة متكاملة فقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » و أشاد الرب تبارك وتعالى بوحدة صفهم وتضامنهم فى القتال فقال : إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » فحذر الله مما يريد الشيطان أن يثير فيما بين المسلمين من العداوة ويمزق شمل أنسهم وتعاونهم « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء فى الخمر والميسر ، و يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة ، فهل أنتم منتهون » (سورة المائدة الآية ٩١) .

لقد أهملنا شأن الوحدة و التضامن إلى مدة طويلة و أغفلنا دورهما فى القوة والعزة ، فأنتج ذلك ما أنتج من تخلف وتبعية فى كل مجال ، فضلا عن القيادة العالمية

التي كانت شعار الأمة الاسلامية وعلامة مجدها في كل زمان ومكان ، فأين هي اليوم من قمة السعادة و الهداية ، إلا في حضيض من الذل و الاستكانة ، و رغماً من الاعتراف بهذا الواقع لانجد هناك مضاضة وتحرقاً على مستوى الأمة العام . بل بالعكس من ذلك يعم الاهمال والغفلة معظم المسلمين ، عدا تلك المجهودات التي تبذل في النطاق المحدود من بعض الجهات المعنية للعودة بالأمة إلى سابق حالها من الوحدة و التضامن و الأخوة ، كما نلمس آثار ذلك في المؤسسات الاسلامية التي ترعاها حكومة الجزيرة العربية ، و بعض الدول المسلمة .
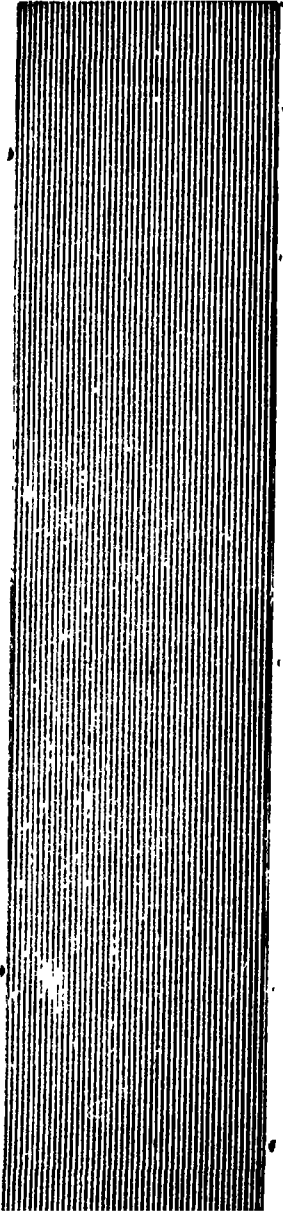
ومادام الاسلام حقيقة واقعة تتولى السعادة للبشرية جمعاء ، و مادام منهجاً عملياً شاملا للانسان في كل عصر و مصر ، يجب أن يكون بعيداً عن كل إهمال أو سوء اعتناء ، ومهما توغل الناس في أبعاد الفلسفات والنظرات وأعراضها . ولكنهم لايدركون فيها مايتوخونه من سعادة و طمأنينة ، ولو أنهم رأوا إلى الاسلام بغير هذا المنظار وبحثوا فيه بالجدية ودافع الانصاف لم يتجشموا عناء التنقيب في مظان العز والسعادة . وإنما اعتنوا بهذا المنهج العملي الذي لاينقصه ماينقص الأنظمة والأساليب الوضعية من رصانة الفكر وتركيز على الهدف ، وجمع حول محور واحد سماوي ، و مبدأ واحد إلهي ، هو محور العبادة لله ومبدأ الطاعة لله ولرسوله « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء » « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً »

ولكن الاسلام بمفهومه الواسع الشامل لايتحقق بالفرقة بل ولا علاقة له بأي شئ مما يشير إلى هذا المعنى وإنما هي جاهلية ، و وحشية و وقوف على شفا حفرة من النار والدمار ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » فما أحوجنا اليوم إلى الوحدة و تضامن ، و لكنهما لا يتحققان بالأحلام و الأماني ، إنما بالجد و العمل ، و بالأخلاص و التقوى ، و على مستوى الجماعة و الأمة ؟ .

سعيد الأعظمي

التوجيه الإسلامي

★ لابد من أولى بقيـــة ينهون عن الفساد فى الأرض فى كل زمان !

★ السمات البارزة للأنبياء عليهم السلام

لابد من أولى بقية ينهون عن الفساد في الأرض في كل زمان

سماحة الشيخ السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى

[هذه المحاضرة قدمت إلى مؤتمر الدعوة الذى عقدته الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة فى الفترة ٢٨ – ٣٠ ربيع الأول ١٤٠٤ﻫ]

الحمد لله رب العالمين و الصلاة و السلام على سيد المرسلين و خاتم النبيين . محمد و آله و صحبه أجمعين ، و من تبعهم باحسان و دعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أما بعد ! فأعوذ بالله من الشيطان الرجيم « فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، و اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه و كانوا مجرمين » (١) .

سادتى و إخوانى ! هذه آية من سورة « هود » كلما تلوتها اقشعر جلدى وثارت فى المشاعر ، إن الآية فى أسلوب قرآنى مؤثر مرقق ، لاأجد تعبيراً يفى بحق هذه الآية ، يقول الله تبارك و تعالى : « فلو لا كان من القرون من

(١) سورة هود آية ١١٦ .

قبلكم أولو بقية » إن كلمة « أولو بقية » كلمة لايبقى بها تعبير ، و لا شرح ولاتفسير ، يعنى لماذا لم يكن حين انتشر الفساد فى قطعة من الأرض و فى العالم — كما كان الشأن فى القرن السادس المسيحى ، فى الجاهلية العالمية التى طبقت الآفاق (ولاتصوير أدق من تصوير القرآن « ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون » (١)) ـ أولو بقية ينهون عن الفساد ؟ وهذا أسلوب القرآن يحيل على الماضى ولكنه يثير فى المعاصرين لنزوله المباشرين لتلاوته، الشعور بالمسئولية فى الحاضر ، فان القرآن هو الكتاب الخالد لا تبلى جدته ، هو الكتاب الذى يعاصر الأحداث و يعاصر الأمم و الأجيال ، و لا يساير الزمن فحسب ، بل يسبق الزمان ويقود البشرية . فيرجع بنا إلى الماضى نرجع إلى الحاضر و المستقبل (٢) ، فكأنه يقول لماذا لا يكون فى الجيل المعاصر لنزول القرآن . والأجيال المخاطبة بالقرآن فى كل زمان و مكان أولو بقية ؟ و « أولو بقية » كلمة لو ألف كتاب ضخم فى شرح هذه الكلمة (أولو بقية) و لماذا يوصفون بأولى بقية ، و ما هو الفرق بينهم و بين سائر الناس ، لقصر القلم ، و عجز اللسان ، و انتهى الكتاب .

إن البشرية ، أيها السادة ! مازالت ولاتزال هدفاً لعوامل التدمير والافساد ، منها عوامل داخلية باطنية ، من الشهوانية ، و الأنانية ، و عبادة النفس ، و حب اللذات ، و من قصور النظر و من الانصراف إلى الدنيا و الخضوع للمادة والقوة ، و لعوامل الشذوذ والانحراف ، ومنها عوامل خارجية ، من فساد البيئة والمجتمع ، و سوء التعليم و التربية ، وانحراف القوانين والنظم ، و الانسان يعيش فى الواقع ،

(١) سورة الروم آية ٤١ .
(٢) و القرآن مملوء بشواهده و أمثاله .

لا يعيش فى الأحلام و الأمانى ، و لا يعيش فى الفلسفات و التصورات ، يسعى على قدميه ، و يتنفس فى الهواء ، فان كان الهواء فاسداً تتنفس الفاسد ، و إن كان الهواء عفناً تتنفس العفونة ، و إن كان الهواء صالحاً نقياً ، تنفس النقى الصالح ، فلا يستغرب أن ينتشر الفساد الخلقى والفساد الاجتماعى انتشاراً عاماً إذا توفرت أسباب قاهرة لافساد مجتمع خاص ، هذا وقع آلافاً من المرات ، وسيقع مراراً إذا كان فى الوقت متسع و للدنيا أجل ممدود .

و لكن المعول على وجود طبائع صالحة ، و ضمائر حية ، و عقول نيرة . و عقائد جازمة راسخة ، و دعوات قوية مؤثرة ، و العمدة على خلفاء الأنبياء عليهم السلام ، وعلى حملة الرسالة ومشاعل النور ، ليس من الغريب أن يمرض الانسان ، و ليس شيئاً مروعاً مؤيساً ، الغريب المروع المفزع هو فقدان الطبيب ، و هو الذى حذرت منه الديانات السماوية ، و حذر منه الأنبياء — و سيد الرسل ﷺ بصفة خاصة — و هو أن يفقد الأطباء ، و يفقد التألم النفسى بالفساد ، و يفقد من يواجهه وجهاً لوجهه ، ويقف فى تياره كالسد المنيع والطود الشامخ الذى لا يتزلزل ، ينتشر الفساد ولا يجد مقاومة ، ينتشر الفساد ولا يجد تحدياً ، ينتشر الفساد ولا يجد منكراً أو مستنكراً ، هذا هو البلاء ، هذا الذى عرض الركب البشرى للنار والدمار ، والانتحار والانهيار ، و ساد الفساد على المجتمع الانسانى كله ، وهو الذى يصوره القرآن بقوله المعجز البليغ ، « ظهر الفساد فى البر و البحر بما كسبت أيدى الناس » (١) .

فالشئ المثير للتأمل و القلق ، هو عدم وجود الأطباء الناصحين ، المتألمين

(١) الروم — ٤١ .

المستنكرين لهذه الأوضاع الفاسدة ، الذين لا يطيب لهم طعام ولا شراب ، ولا نوم فى هذا الوضع ، و يتعكر عليهم صفو الحياة . فالشئ الأساسى الرئيسى هو وجود أولى بقية ، عندهم أثارة من شعور ، و بقية من غيرة انسانية ، ومن حياة الضمير ومن الوعى الصحيح الدينى ، بقية من التألم و الاهتمام بمصير الانسانية ، أو الاهتمام على الأقل بمصير المجتمع الذى يعيشون فيه ، وهؤلاء أولو بقية مازالوا فى كل فترة حالكة ، يبرز وجههم فى فسار المجتمع و يقومون يتحدون الفساد و يصرخون به ، و يخاطرون بمستقبلهم فى سبيل الدعوة و الاصلاح ، كما يقول القرآن عن سيدنا صالح عليه السلام « قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هـذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب »(١) ، فكثير من المرجوين الذين كان لهم الغد المضمون و المستقبل المشرق ، كانوا يخاطرون بمستقبلهم و بامكانياتهم ، و يجازفون بحياتهم و يخاطرون بأهلهم ، و يتحدون الباطل و يقفون فى وجه الفساد ، و يقولون لا نرضى بهذا الوضع أبداً . قد كان هؤلاء أولى بقية فى بعض الأحيان أفراداً يعدون على الأصابع ، وقد كان هؤلاء جماعة أو أمة فى الزمن الذى عم فيه الفساد و تفاقم الشر ، بحيث خرج إصلاح الحال من دائرة إمكان أفراد ، مهما أوتوا من المواهب ، و مهما أوتوا من الذكاء ، و من النفوذ على النفوس ، و امتلاك ناصية البيان و اللسان ، فقد كان الفساد أوسع و أعظم من أن يقف فى وجهه أفراد أفذاذ من الناس ، هنالك أرادت مشية الله تعالى أن تنهض أمة .

و هذه قصة القرن السادس المسيحى الزمن الذى سبق الاسلام ، كان الفساد أوسع من أن يقوم له أفراد ، و لو كانوا عمالقة فى الفكر ، عمالقة فى قوة الارادة و فى الشجاعة و فى الاخلاص ، و لكن لم يكن هـذا يدخل فى نطاقهم ، هنالك

(١) سورة هود آية ٦٢ .

أراد الله أن تقوم أمة ، و لذلك قرن الله سبحانه و تعالى بعثة آخر الرسل وسيدهم وخاتمهم ببعثة أمة بأسرها ، كانت بعثته ﷺ بعثة فردية تتجلى فى شخص النبى ﷺ . و هو النبى الذى ختم به الله تبارك و تعالى الرسالات و النبوات ، فلا نبى بعده ، قرن هذه البعثة ببعثة أمة لأن المهمة ضخمة جداً ، و هى الأمة الاسلامية ، والقرآن استخدم تعبيراً يدل على أن هذه الأمـة التى رافقت النبى ﷺ فى غزواته ، و فى دعوته ، و فى سلوكه ، و فى حمل رسالته ، هذه الأمة لم تكن أمـة من الصدف . و لا كالحشائش الطفيلية التى تنبت فى الحقول غير مقصودة ، إنما هو نبت الهى . نبت ربانى مقصود ، أراد الله أن تقوم هـذه الأمة بأسرها كحـاملة الرسالة . فاستخدم لها القرآن تعبيراً يختلف عن تعبير الأمم السابقة ، قال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس (١) » هذا الشعور الذى كان يحمله الصحـابة رضى الله عنهم حتى الذين لم يكونوا على مستوى رفيع جداً من الثقافة و التربيـة النبوية . كأن هـذا الشعور قد انتشر فى أفراد هذه الأمة على اختلاف مستوياتهم .

لما كان الفساد مخيماً على العالم الانسانى كله فى القرن السادس المسيحى ، وكان الظلام حالكاً قاتلا ليس قاتماً ، قاتلا للضمائر ، قاتلا للنفوس ، قاتلا للعقول ، كان إصلاح الأوضاع خارجاً من إمكان أفراد ، مهما بلغوا من قوة الارادة ، و مهما بلغوا من الذكاء ، وامتلاك الوسائل و الأسباب ، هنا بعث الله أمة بأسرها لتحارب هذا الفساد المنتشر حول هذه الأمة و حول هذه الجزيرة .

و لكن كيف كان ذلك ؟ إنما كان ذلك بصفات امتاز بها أفراد هذه الأمة فى الأمم ، منها قوة الايمان و عمقه فى النفوس و تغلغله فى أحشائهم ، و كتب

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .

السيرة و التاريخ طافحة بأمثلته ، فقد كان مدى إيمان الصحابة بمواعيد الله تعالى ، و بمواعيد الرسول ﷺ ، فوق ما يتصوره الانسان ، ثم حسن الخلق و استقامة السيرة ، ثم بساطة المعيشة و التقشف فى الحياة . و البعد من البذخ و الترف الذين ابتلعا الأمة الرومانية . و الأمة الفارسية و نخرتهما كما ينخر السوس العود ، الترف المدمر . الفاتك بالكفايات ، الفاتك بالطبيعة البشرية .

و الذى أخشاه على الأمة العربية ، والذى أخشاه على المجتمع العربى الاسلامى الكريم ، هو أن تكون مثالا أو تكون نموذجاً لتلك المدنية المصطنعة . المدنية التى حادت بهم عن كل مكرمة ، و عن كل بطولة .

لما أراد الله بالأمة العربية أن تكون «أولى بقية ينهون عن الفساد فى الأرض» اصطفاها الله تبارك و تعالى و جعلها أمة متقشفة . قوية الخلق ، كريمة السيرة حية الضمير ، تحمل قلباً متألماً متوجعاً للانسانية ، و خلق فى نفسها من الرحمة للبشرية ما لايبلغها قياس . ترق نفوسهم للبشرية ، وتدمع عيونهم على حاضر البشرية ومستقبلها ، و ينسون أولادهم وأهلهم وأنفسهم فى سبيل إخراج البشرية من هذا المستنقع المتعفن الذى كانت تتردى فيه ، خلقهم من جديد كأنهم ولدوا فى الاسلام ولادة جديدة ، لا يشبهون حياتهم الجاهلية فى شئ ، كأنهم نبتوا من الأرض ، أو نزلوا من السماء ، إنسان غير إنسان ، و بشر غير بشر ، يصف الصحابى الجليل سيدنا عبد الله ابن مسعود الصحابة رضى الله عنهم ، فيقول : «أبر الناس قلوباً ، وأعمقهم علماً و أقلهم تكلفاً . اختارهم الله لصحبة نبيه . واعزاز دينه» ولما استفسر قيصر الروم – الامبراطور هرقل – الفلول المنهزمة من الجيش الرومانى الداحر للفرس فى الأمس القريب و سأل قادتها لماذا تنهزمون كل يوم و معكم الجيوش الجرارة التى دوخت إيران بالأمس ، ما السر فى ذلك ؟ لماذا تنحسرون بهذه السرعة ، من هم هؤلاء ؟

أهم من الجن ، أم من العفاريت ، و الله صفهم لى ، فقال أحد قادة الرومان ، هل تسمح لى يا صاحب الجلالة بالوصف الصحيح ؟ قال : نعم ، قال : هم « فرسان بالنهار ، رهبان بالليل ، لا يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربوا حتى يأتوا عليه ، فقال : لئن كنت صدقتنى ليملكن موضع قدمى هاتين » (١) .

فاختار الله الأمة العربية ، و أفاض عليها لباساً جديداً من السيرة البشرية . و من الأخلاق الانسانية ، بفضل القرآن ، و بفضل التربية النبوية ، فكانت هذه الأمة شامة بين الأمم ، منارة نور فى بحر الظلمات ، إذا كانوا أصحاب يسار و سعة فى الرزق ، كانوا متقشفين ، و إذا كانوا تجاراً كانوا أمناء صادقين ، و إذا كانوا حكاماً أو قضاة كانوا عادلين ، وإذا كانوا عملة أو خدماً كانوا ناصحين مجتهدين ، وإذا كانوا رؤساء كانوا متسامحين راحمين ، و إذا كانوا فى الماضى لا يفكرون إلا فى نفوسهم و عيالهم ، أصبحوا يفكرون فى الانسانية كلها ، و إذا كانوا فى الجاهلية ينامون الليل كالأموات ، أصبحوا يحيون لياليهم بالذكر والتلاوة وإذا كانوا يجمعون الأموال لأنفسهم سابقاً ، عادوا يبذلون الأموال لغيرهم ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فما تمكن العرب من فتح العالم — كما يقول كبار مؤرخى أوربا أنهم فتحوا نصف العالم فى نصف قرن ، و هذه معجزة تاريخية — و ما استطاعوا ذلك إلا بفضل سيرتهم الخاصة ونمط حياتهم والمزايا التى كانوا يمتازون بها ، والسمة التى كانوا يتسمون بها .

يا إخوانى ! يقول الله تبارك و تعالى ، و لو كان كلام البشر لقلت يقول متحسراً متفجعاً ، و لكن جل الله عن ذلك ، جل عن التفجع و التوجع ، ولكن

(١) البداية و النهاية (ج ٧ ص ١٥) .

يجب علينا أن نقرأ هذه الآية مفجعين و متوجعين ، و هــذا دورنا فى التدبر فى القرآن . القرآن نزل و حفظ ، و هو لا يختلف فى أى زمان و مكان ، و لكن يجب علينا أن نستشعر فى أعماق نفوسنا بالروح التى تسيطر على هــذه الآية ، فنقرأ متفجعين متوجعين ، متحسرين متألمين ، قول الله تبارك وتعالى : « فلو لا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينــا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه و كانوا مجرمين » تأملوا فى قوله تعــالى : « و اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه » هذا كان شأن الأمم فى كل زمان . فقد اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، فقد تهالكوا على أدوات الترف و البذخ و تنافسوا فيها ، و اقتبسوها و استوردوها من الخارج ومن الشعوب السابقة فيها ، المخترعة لها ، ليس لها خيــار و لا ابتكار . و لا وقوف عند حد و استقرار .

إن ضمير النوع البشرى المعاصر أيها السادة ! يصرخ بأعلى صوته شاكياً معاتباً بلسان الحال « لولا كان من الأمة الاسلامية فى هــذا الزمان أولو بقية ينهون عن الفساد » و الله لو قام أحد على قمة جبل و تكلم على مذياع عالمى يسمعه كل واحد فى كل قطعة من الأرض ، قال : فلولا كان من الأمة الاسلامية العربية . فلولا كان من الجزيرة العربية التى طلعت منهـا شمس الاسلام و التى أكرمهــا الله بالقرآن ، أكرمها الله بالايمان ، أكرمها الله بالمواهب التى خصها بهــا . فلو لا كان فى الأمة الاسلامية العربية أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض . الفساد موجود ، و لكن الواقفون فى وجهه ، المتحدون له ، المحاربون له ، و على الأقل المتنكرون له ، غير موجودين ، الداء موجود و الطبيب مفقود ، و كما يقول الشاعر :

ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

فالمسلمون ملح الأرض إذا فقد الملح ملوحته من يعيد إليه الملوحة ؟ .

إن القرآن لايزال ينبهنا على هذه الآية ، ويجب علينا أن ننتبه ، وأن تقشعر جلودنا ، إن صوت الضمير الانسانى المعاصر يقول: « فلولا كان فى الأمة الاسلامية ، هذه المنتشرة فى أرجاء الأرض ، هذه التى قد ملأت الآفاق ، والتى تملك الحكومات ، و تملك رؤوس الأموال ، و تملك خيرات الأرض ، و تملك الطاقة البشرية ، و تملك وريد جسم الصناعة و الحضارة ، لولا كان من الأمة الاسلامية العربية أولو بقية ينهون عن الفساد » ؟ .

أنا أؤمن بأزمة واحدة ، أزمة عدم وجود القدوة الحسنة ، القدوة الصالحة على مستوى الشعوب و الأمم ، ليس على مستوى الأفراد ، الحمد لله عندنا أفراد ، ولكن مصير الأمم لايتغير بالأفراد ، مصير الأمم يحتاج فى تحويله إلى مجهود جماعى ، وإذا بقى هذا الفراغ طويلا فإنه ليس خطراً على الأمم التى امتحنت به والتى تمثله ، بل هى كارثة العالم كله ، فتنهار هذه المدنية ، و تنهار هذه النظم التى تقوم الآن ، و يطوى الله هذا البساط ، فلابد أن تنهض هذه الأمة ، لابد أن توطن نفسها على ملأ هذا الفراغ بقدر الامكان .

و لكن ما قامت أيها السادة ! أمة بحركة إصلاحية ، ثورية بناءة ، إلا حين كانت مدنيتها صالحة ، و حين كانت حياتها بسيطة ، حين كانت تتصف بشئ من البطولة ، و بشئ من روح المخاطرة و المجازفة ، و أما الأمم المترهلة ، الشعوب الرخية الناعمة الرخوة الرقيقة ، الشعوب التى قد أخلدت إلى الأرض ، و أخلدت إلى الشهوات ، فانها لا تستطيع أن تحدث انقلاباً ، هذا الذى أخافه على المجتمع الاسلامى بصفة عامة ، و على المجتمع العربى حين أخاطبه وجهاً لوجه بصفة خاصة ، علينا أن نفكر فى ذلك جدياً ، ونفكر مع الانسانية ، و لا نفكر فى إطارنا المحدود ، المنزلى أو المحلى ، أو البلدى ، أو الشعبى ، نفكر فى مصير البشرية كأنه مصيرنا ،

ونربط مصيرنا بمصير البشرية ، وفى الحقيقة مصيرنا مربوط بمصير البشرية ، لايمكن أن تبقى أمة على حالها و على وضعها إذاكان العالم حوله يموج بفتن ، يموج باضطرابات . يموج بصراع نفسى ، فلابد لنا أن نفكر فى مصير الانسانية ، نؤمن بأن مصير الانسانية مرتبط بمصيرنا ، ومصيرنا يرتبط بمصيرها ، الرسول عليه السلام ضرب مثلا بليغاً لذلك بسفينة ، ولم أجد مثلا أبلغ منه فى أدب الدعوة وفى كلام أثر عن الأنبياء ، فقال عليه الصلاة و السلام :

« مثل القائم فى حدود الله و الواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها ، فكان الذى فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً (١) .

نحن على سفينة البشرية ، و السفينة البشرية مضطربة مائجة ، فيجب علينا أن نفكر فى إيصالها إلى بر السلام ، و ليس بر السلام إلا الاسلام الحقيق الكامل ، البعيد عن النفاق ، البعيد عن كل ما كانت الجاهلية تتسم به ، الدافق بالحياة والقوة ، الحامل للرسالة و الرحمة للانسانية ، المالك للمثل العليا و النماذج الصالحة و القدوة الحسنة الفاضلة ، أفراداً و مجتمعات ، و شعوباً و بلاداً ، و نظماً و حكومات ، و بالله التوفيق .

---

(١) رواه البخارى .

السمات البارزة للأنبياء عليهم السلام

العلامة السيد سليمان الندوى (رحمه الله)

تعريب : محمد أكرم الندوى

الصفات الكمالية :

لقب ابراهيم عليه السلام بخليل الله ، ولكن هل يعنى ذلك أن الأنبياء الآخرين لم يكونوا أخلاء لله تعالى ؟ وهل هناك رسول أو نبي لم يتشرف بخلة الله ؟ فما السبب فى تخصيص إبراهيم عليه السلام بهذا الوصف .

و لقب موسى عليه السلام بكليم الله ، و لكن هل يعرف رسول لم يكلمه الله ، فلماذا خصص بهذا الوصف من بين سائر الأنبياء و المرسلين ؟ و قد وصف الله عيسى بن مريم عليهما السلام بروح الله ، مع أن روح كل نبي بل كل إنسان من الله تعالى ، فلماذا وصف عيسى عليه السلام بروح الله ، و لم يوصف غيره من الأنبياء بذلك .

و ما هى الحكمة فى أن يخصص النبي ﷺ بنعوت الشاهد ، والمبشر والنذير ، و الداعى إلى الله ، و السراج المنير ، مع أن كل نبى أرسل شاهداً ، و مبشراً ، و نذيراً ، و داعياً إلى الله ، و سراجاً منيراً .

هذا السؤال ينشأ فى أذهان عامة الناس ، لكن الحكمة واضحة و تتجلى بمعرفة أسلوب البيان ، فان كل إنسان إنما يلقب بالصفة التى يصل فيها إلى ذروة الكمال ، فتصبح سمته وشارته الغالبة ، كل إنسان يتحدث و يتكلم ، فينبغى أن يلقب كل واحد بأبى الكلام ، و لكن أهل اللغة إنما يطلقون هذا الوصف على من بلغ ذروة الكمال

فى إجادة الكلام و إطالته ، و البداهة فيه و الروعة البيانية و حسن التصرف فيها .

من الذى لا يملك اليدين و العينين ، و يقتضى ذلك أن يعتبر كل واحد منا من أولى الأيدى و الأبصار ، و لكن القرآن الكريم خص بهذا الوصف بعض الأنبياء عليهم السلام ، إذ يقول : « و اذكر عبادنا إبراهيم و إسحاق و يعقوب أولى الأيدى و الأبصار » (١) .

خلقت اليد خادمة للعمل والعين وسيلة للعلم ، والهدف منهما كمال قوى الانسان العلمية و العملية ، و إذا كان الأنبياء عليهم السلام يمتازون بمنزلة كمال القوتين العلمية و العملية . كانوا أولى الناس بأن يوصفوا بأولى الأيدى و الأبصار .

لأجل ذلك ذكر الله تعالى الأنبياء عليهم السلام بالأوصاف الكمالية المختلفة ، قال عن إبراهيم عليه السلام : « و اتخذ الله إبراهيم خليلا » (٢) وقال عن موسى عليه السلام : « و كلم الله موسى تكليماً » (٣) و قال عن إسماعيل عليه السلام : « إنه كان صادق الوعد » (٤) و قال عن أيوب عليه السلام : « إنا وجدناه صابراً » (٥) .

انظروا هل تجدون نبياً لم يكرمه الله بخلته أو لم يكلمه الله تعالى ، أو لم يكن صادق الوعد ، أو لم يكن صابراً فى سبيل الحق ، و لكن رغم ذلك كله خص الله تعالى إبراهيم عليه السلام بوصف الخلة ، و موسى عليه السلام بالتكليم ، و إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، وأيوب عليه السلام بالصبر ، مع أن القرآن يقول بنفسه :

(١) سورة ص الآية ٤٥ .

(٢) سورة النساء الآية ١٢٥ .

(٣) سورة النساء الآية ١٦٤ .

(٤) سورة مريم الآية : ٥٤ .

(٥) سورة ص الآية : ٤٤ .

« فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » (١) .

و لكن — رغم هذا الشمول لوصف الصبر — خص أيوب عليه السلام من بين سائر الأنبياء عليهم السلام بقوله « إنا وجدناه صابراً » و لا يعنى ذلك أن غيره من الأنبياء عليهم السلام كانوا مجردين عن هذا الوصف .

الواقع أن كل فرد من البشر ، مهما كان ، قد أودع كل نوع من الاستعداد لا يبلغ درجة الكمال إلا فى استعداد أو فى استعدادين ، وأن الاستعدادات التى أودعها الانسان هى استعـــدادات بالقوة ، و لا يظهر إلى حيز الفعل إلا بمقتضى الظروف و الحوادث ، كل نبى أمر بالجهاد ، و لكن لم تظهر فى حياة سائر الأنبياء الظروف المقتضية له ، إن مشاهد الجهاد التى نراها فى حياة موسى ومحمد عليهما السلام لايوجد لها نظير فى حياة الأنبياء الآخرين .

غاية الأمر أن هناك فرقاً كبيراً بين أن يوجد فى الانسان وصف بالقوة وبين أن تتحقق المناسبات لظهوره إلى حيز الفعل ، إن الأنبياء عليهم السلام حينما يلقبون بوصف فليس ذلك لأنهم يتصفون به بالقوة ، بل لأن كمال هذا الوصف قد تحقق فيهم بالفعل ، و لأجل ذلك لقب إبراهيم عليه السلام بخليل الله وموسى عليه السلام بكليم الله ، و عيسى عليه السلام بروح الله ، و إسماعيل عليه السلام بصادق الوعد . و أيوب عليه السلام بالصابر ، فان الله تعالى قد وعد إبراهيم عليه السلام بخلته فى ذريته ، و أكرم بنيه و من بعدهم بالنبوة و البركة ، و لم يشاركه نبى آخر فى هذا الكمال لوصف الخلة ، وإن التكليم الذى تشرف به موسى عليه السلام على الطور لم يحظ به نبى آخر ، وإن الروح الالهية التى فاضت على عيسى عليه السلام لم تفض على نبى غيره ، و الله تبارك و تعالى يقول : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم

(١) سورة الأحقاف الآية : ٣٥ .

من كلم الله و رفع بعضهم درجات ، و آتينا عيسى بن مريم البينات و أيدناه بروح القدس » (١) .

تعرضت هذه الآية لذكر ثلاثة أنبياء ، امتازوا ببعض الأوصاف ، ذكر أولا موسى عليه السلام بما تشرف به من تكليم الله إياه ، وذكر أخيراً عيسى عليه السلام الذى أيد بالبينات و روح القدس ، و خلل بينهما نبي رفع درجات و هذا هو نبينا محمد ﷺ ، الذى أرسل بالشريعة الوسط بين شريعتي موسى وعيسى عليهما السلام .

إن رفعة الدرجات التى أكرم بها نبينا محمد ﷺ ، أعلى من أن توصف ، وقد فسرها القرآن الكريم فى مواضع مختلفة ، فان التكليم الذى أكرم به موسى عليه السلام ، و التائيد بروح القدس الذى تشرف به عيسى عليه السلام هما من فضائلهما الذاتية ، و أما الدرجات و المنازل التى فاز بها نبينا محمد ﷺ ، فهى دينية شاملة ، وإن فضائله الذاتية كالخاتمية هى كذلك شاملة لكتابه ولشريعته ولأمته . فقد شرف الله تعالى دينه بالشمول و الخلود و جعله نبي الأنبياء كما جعله نبي الأمم ، فكملت بدينه كل ناحية من نواحى الدين الالهى ، قرر الله تعالى كتابه خاتم الكتب وناسخها ، و قد وعد بحفظه إلى يوم القيامة ، و لقبت أمته بالأمة الأخيرة ، و لكن لا يعنى ذلك كله أن النبي محمداً ﷺ لم يتشرف بالكلام معه ،ولم يؤيد بروح القدس ، لاشك أنه أكرم بهما ، ولكن ليس ذلك من أوصافه الخاصة ، بل إن له ميزات أخرى كذلك يقول الله تبارك و تعالى : « إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً » (٢) وقال تعالى : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً و مبشراً و نذيراً ، وداعياً إلى الله باذنه و سراجاً منيراً » (٣) .

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥٣ . (٢) سورة الفتح الآية : ٨ .

(٣) سورة الأحزاب الآية : ٤٥ ، ٤٦ .

هذه هى بعض الأوصاف التى امتاز بهـــا عن الآخرين ، و لكن ليس معنى ذلك أن الأنبياء الآخرين عليهم السلام كانوا مجردين عنها ، بل الحق أنهم اتصفوا بها و لكن لا على هذه الدرجة من الاختصاص والامتياز فلم ينص القرآن الكريم على تخصيص نبى بهذه الصفات إلا النبى محمداً ﷺ . فان الانسان لا يوصف إلا بما امتاز به عن غيره ، ويسمى بالسمات البارزة أو الصفات الغالبة للانسان ، يشير إلى هذه النكته ، الشيخ محمد قاسم النانوتوى رحمه الله فى رسالته « تحذير الناس » بقوله : « لا يلقب أحد إلا بأوصافه الغالبة أو سماته البارزة ، إن الشيخ المرزا جان جانان و الشيخ غلام على ، و الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولى الله الدهلوى والشيخ عبدالعزيز رحمهم الله ، كلهم كانوا ممن جمعوا بين العلم والفقر (الزهد) ولكن المرزا مظهر جان جانان والشيخ غلام على رحمهما الله اشتهرا بالفقر و الزهد ، و أما الشيخ ولى الله والشيخ عبد العزيز رحمهما الله فاشتهرا بعلومهما ، والسبب فى ذلك ما أسلفناه من أن الأولين غلب فقرهما على علومهما ، إذ الآخران برزت علومهما على زهدهما ، و يمكن أن لا يكونا فى العلم أقل منهما ، كما يمكن أن لا يكونا أقل زهداً منهما ، فالأنبياء عليهم السلام غلب علمهم عملهم ، و إن كان عملهم قد غلب أعمال الآخرين ، فالأنبياء يمتازون بالعلم عن غيرهم » ثم يقول : « النبوة من الكمالات العلمية وأن النبى ﷺ جامع للعلوم ، وغيره من الأنبياء ليسوا كذلك ، فالأنبياء يوصفون بتلك الصفات التى يفضلون بها غيرهم ، إن النبى ﷺ لم يوصف بالشاهد و المبشر والنذير والداعى إلى الله والسراج المنير إلا لأن هذه الأوصاف بأسرها اجتمعت فيه بغاية من الكمال لم يبلغها نبى غيره .

إن هذه الأوصاف الكمالية للأنبياء عليهم السلام تعرف عن طريقين : أحدهما أن تثبت بالنص الصريح ، كما نص القرآن الكريم على تكليم الله موسى عليه

السلام ، و تأييده عيسى عليه السلام بروح القدس ، و وصف إسماعيل عليه السلام بصدق الوعد ، وأيوب عليه السلام بالصبر ، والطريق الثانى أن هذا الوصف الغالب لم يثبت بالنص و لكنه تجلى فى مآثر الحياة واضحـاً ، كما يتجلى وصف الانذار فى حياة نوح و موسى عليهما السلام ، و وصف التبشير فى حيـاة إبراهيم و عيسى عليهما السلام .

إن كمال الانذار أن تتجلى فيه صفات الله تعالى من القهر والجبر وكمال التبشير أن يتجلى فيه فضل الله و كرمه و رحمته الشاملة ، يقول الله تبارك وتعالى : « وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيراً » (١) .

إن ناحية القهر و العذاب تكون أبرز و أظهر فى الانذار من ناحيـة الفضل و الكرم فانه لما يئس نوح عليه السلام من قومه بعد ما جاهد فى سبيل دعوتهم إلى الله تعالى ألف سنة دعا الله تعالى على الكفار من قومه أن يدمرهم ولا يزيد الظالمين إلا تباراً ، يقول الله تبـارك و تعالى بلسان نوح عليه السلام : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبـادك و لا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، رب اغفرلى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين و المؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً » (٢) .

إن هذه الآية تمثل كلا الجانبين ، الانذار و التبشير ، و لكن تبدو واضحاً غلبة جانب الانذار على جانب التبشير . فانه اقتصر فى استغفاره من الله تعالى على المؤمنين ، و دعا على كفار الأرض كلها بالهلاك و الدمار ، ثم ختم دعاءه بتدميرهم التام

و يدعو موسى عليه السلام الله تبارك و تعالى بقوله :

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٤٧ .

(٢) سورة نوح الآية : ٢٦ ـ ٢٨ .

« ربنا إنك آتيت فرعون و ملأه زينة و أموالا فى الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، و اشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (١) .

و فى جانب آخر نرى عيسى عليه السلام يدعو الله تعالى بقوله : « و إذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، قال ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى و ربكم ، و كنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم و أنت على كل شئ شهيد ، إن تعذبهم فانهم عبادك ، و إن تغفرلهم فانك أنت العزيز الحكيم » (٢) .

وهذا الاسترحام من الله تعالى للذين أنذرهم عيسى عليه السلام بنفسه إذ يقول: « إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة و مأواه النار » (٣) .

ولكنه — رغم ذلك كله — يسترحم لهم من الله و يستغفره ، و هو الذى جاء مبشراً برسالة محمد ﷺ « و مبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » .

صفة التبشير فى إبراهيم عليه السلام :

إن جمال البشارة أوضح من ذلك وأحسن فى وجه إبراهيم عليه السلام أرسل خيراً و بركة و أباً للرسل و الأنبياء ، إليه تنتهى بركات آل إسماعيل و آل إسحاق عليهم السلام ، و به اهتدى سائر بنى آدم ، و هو الذى دعا الله تعالى بظهور نبى المرسلين رحمة للعالمين ﷺ .

(١) سورة يونس الآية : ٨٨ .

(٢) سورة المائدة الآية : ١١٦ — ١١٨ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٧٢ .

انقلبت نار نمرود برداً و سلاماً على إبراهيم . و إنه يدعو أباه المشرك إلى الله تعالى ولكنه يأبى أن يلبى دعوته فينذره فى أسلوب سهل لين ، يقول : « يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً » (١) .

فلما سمع أبوه ذلك قال : « أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك و اهجرنى ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفياً ، و اعتزلكم و ما تدعون من دون الله ، و أدعو ربى عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقياً » (٢) .

و لكنه رغم ذلك يدعو لأبيه : « ربنا اغفرلى و لوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب » (٣) ، إن هذا الالتماس المستمر للاسترحام والبشارة ليس إلا لأب مشرك ، و لما نهى الله تعالى النبى ﷺ و أصحابه عن الاستغفار للمشركين اعتـــذر عن إبراهيم عليه السلام بقوله : « و ما كان استغفار ابراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن ابراهيم لأواه حليم » (٤) .

إن هذه الآية الكريمة تشير إلى أمرين ، أحدهما أن إبراهيم عليه السلام كان يتمنى أن يسلم أبوه ويستحق رحمة الله تبارك وتعالى ، ولكن أمنيته هذه لم تتحقق . والأمر الآخر أن ابراهيم عليه السلام كانت ميزته الكمال فى التبشير ، فأثنى الله سبحانه و تعالى على حلمه و تأوهه .

و كذلك لما أخبره الملائكة الضيوف بهلاك قوم لوط ، تأوه وأخذه الخوف و توجه نحو جناب الله سبحانه و تعالى . يجـادله عن قوم لوط ، فأثنى الله تبارك

(١) سورة مريم الآية : ٤٥ . (٢) سورة مريم الآية : ٤٦ — ٤٨ .
(٣) سورة إبراهيم الآية : ٤١ . (٤) سورة التوبة الآية : ١١٤ .

و تعالى عليه حلمه و تأوهه و إنابته ، يقول القرآن الكريم :

« فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط ، إن ابراهيم لحليم أواه منيب ، يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قــد جاء أمر ربك ، و إنهم آتيهم عذاب غير مردود » (١) .

وكيف جادل إبراهيم عليه السلام عن قوم لوط ، تشير آية أخرى أنه توسل بلوط لاستنزال رحمة الله تعالى . يقول القرآن الكريم :

« و لما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين ، قال إن فيها لوطاً ، قالوا نحن أعلم بمن فيها ، لننجينه وأهله إلا امرأته ، كانت من الغابرين » (٢) .

و يبدو أنه نتيجة لمجادلته هذه ، تقررت سنة الله تعـالى بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ، ورد فى القرآن الكريم : « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، و أن ليس للانسان إلا ما سعى » (٣) .

و ورد فى سورة الأنعـام : « قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ، و ما كان من المشركين ، قل إن صلاتى و نسكى و محياى و ممـاتى لله رب العـالمين ، لا شريك له بذلك و أمرت و أنا أول المسلمين ، قل أ غير الله أبغى ربا و هو رب كل شئ ، و لا تكسب كل نفس إلا عليهـا ، و لا تزر وازرة وزر أخرى » (٤) .

كل ذلك ورد فى صحف إبراهيم عليه السلام وأعيد فى الصحيفة المحمدية و إنى أرى أن سفر التكوين من التوراة تفصيل لمجـادلة ابراهيم مع الله عن قوم لوط ،

(١) سورة هود الآية : ٧٤ — ٧٦ .
(٢) سورة العنكبوت الآية : ٣١ — ٣٢ .
(٣) سورة النجم الآية : ٣٦ ـ ٣٩ . (٤) سورة الأنعام الآية : ١٦٢ ـ ١٦٥ .

« و أما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب فتقدم إبراهيم و قال : أفتهلك البار مع الأثيم عسى أن يكون خمسون باراً فى المدينة ، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه ، من أجل الخمسين باراً الذين فيه ، حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم ، حاشا لك أديان كل الأرض لا يصنع عدلا ، فقال الرب : إن وجدت فى سدوم خمسين باراً فى المدينة فانى أصفح عن المكان كله من أجلهم ، فأجاب إبراهيم و قال : إنى قد شرعت أكلم المولى و أنا تراب و رماد ، ربما نقص الخمسون باراً خمسة ، أتهلك كل المدينة بالخمسة ، فقال : لا أهلك . إن وجدت هناك خمسة و أربعين ، فعاد يكلمه أيضاً . و قال : عسى أن يوجد هناك أربعون ، فقال : لا أفعل من أجل الأربعين ، فقال : لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون ، فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين ، فقال : إنى قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون ، فقال : لا أهلك من أجل العشرين ، فقال : لا يسخط المولى فأكلم هذه المرة فقط ، عسى أن يوجد هناك عشرة ، فقال : لا أهلك من أجل العشرة ، و ذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع إبراهيم ، و رجع إبراهيم إلى مكانه » (١) .

إن بيان التوراة هذا قد تعرض لتفصيل الجدال الذى استمر فيه إبراهيم عليه السلام لحفظ المذنبين و المجرمين من سدوم ، و هذا يصدق تأوه إبراهيم عليه السلام و حلمه و إنابته مما قد ورد فى القرآن الكريم ، و يظهر بذلك شأن التبشير فى إبراهيم عليه السلام الذى تجلى عليه الجمال الالهى .

حينما يفرغ ابراهيم عليه السلام من بناء الكعبة يقدم أولاده إلى جنابه تعالى لحفظها ويدعو الله تعالى: « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعنى فانه منى و من

(١) سفر التكوين الأصحاح ١٨ الآيات : ٢٣ — ٣٣ .

عصاني فانك غفور رحيم ، ربنـا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنـا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم و ارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (١) .

استغفر إبراهيم عليه السلام هنا من الله تعالى للعصاة الذين يعبدون الأصنـام و يكفرون بالله ، و هذا مظهر من مظاهره فى صفة التبشير .

مظاهر هذا التبشير و الانذار فى الصحابة :

إن ما قدمنا فى السطور السابقة من تفسير للتبشير والانذار ليس من قبل نفسى بل إن النبي محمداً ﷺ قد أشار إليه بنفسه ، و ذلك حين استشار أصحابه فى أسارى بدر ، عن أبي عبيدة بن عبد الله عن أبيه قال : لما كان يوم بدر قال لهم رسول الله ﷺ : ما تقولون فى هؤلاء الأسارى . فقال عبدالله بن رواحة : أنت فى واد كثير الحطب فاضرم ناراً ثم ألقهم فيها ، فقال العباس رضى الله عنه : قطع الله رحمك . فقال عمر رضى الله عنه : قادتهم و رؤساؤهم قاتلوك و كذبوك فاضرب أعـناقهم ، فقـال أبو بـكـر رضى الله عنه : عشيرتك و قومك ، ثم دخل رسول الله ﷺ لبعض حاجته فقالت طائفة : القول ما قال عمر ، فخرج رسول الله ﷺ فقـال : ما تقولون فى هؤلاء ، إن مثل هؤلاء كمثل إخوة لهم كانوا من قبلهم ، قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . وقال موسى : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم » الآية ، وقال ابراهيم عليه السلام : « فمن تبعنى فانه منى و من عصانى فانك غفور رحيم ، و قال عيسى عليه السلام : « إن تعذبهم فانهم عبـادك و إن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » (٢) .

عرفنا من ذلك أن النبى ﷺ شبه عبد الله بن رواحة و عمر رضى الله عنهما

(١) سورة إبراهيم : ٣٥ — ٣٧

(٢) المستدرك للحاكم ٣ : ٢١ — ٢٢ .

بنوح و موسى عليهما السلام فى الانذار ، و أبا بكر رضى الله عنه بابراهيم وعيسى عليهما السلام ، و تبين من ذلك معنى التبشير و معنى الانذار .

كل نبي بشير و نذير بصفة عامة :

لا يحسبن أحد أن غاية هذا البحث أن نبياً حينما يكون بشيراً و آخر نذيراً فمعناه أن الواحد يكتفى بالتبشير و الآخر بالانذار ، بل الغاية من ذلك أن بعض الأنبياء يبلغ درجة الكمال فى التبشير ، مع وجود الصفة العامة للانذار فيه والبعض الآخر يتصف بكمال الانذار مع وجود الصفة العامة للتبشير فيه ، فان الله تعالى قد وصف سائر الأنبياء بالانذار والتبشير كليهما من غير استثناء، يقول - الى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين و منذرين » (١) و فسر هذا التبشير و الانذار بقوله « فمن آمن و أصلح فلا خوف عليهم و لا هم يحزنون ، و الذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون » .

و لكن الأوصاف الغالبة للتبشير والانذار تختلف عن هذه الأوصاف العامة ، و نرى سمات الانذار البارزة فى حياة نوح و موسى عليهما السلام . وسمات التبشير البارزة فى حياة إبراهيم وعيسى عليهما السلام . وقد اجتمعت هاتان الناحيتان كلتاهما فى شخص النبي ﷺ .

هذان مظهران للجمال الالهى و الجلال الالهى :

إن هذا الاختلاف بين الأنبياء فى غلبة صفة الانذار وغلبة صفة التبشير ليس سبباً لتفضيل بعضهم على بعض ، بل إن التبشير مظهر للجمال الالهى والانذار مظهر للجلال الالهى ، فبعض الأنبياء يتجلى عليه الجلال وبعضهم يتجلى عليه الجمال ، حسب ما تقتضيه الظروف و الملابسات و هما من صفات الله تعالى و أسمائه الحسنى .

(١) سورة الكهف الآية : ٦٥ .

أثر تطبيق الشريعة الاسلامية في وحدة المسلمين وتضامنهم

الدكتور محمد بن سعد الشويعر
رئيس تحرير مجلة البحوث الاسلامية (الرياض)

[بحث قدم إلى المؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة و إعداد الدعاة الذى عقدته الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة فى الفترة بين ٢٨/٣٠/ ربيع الأول ١٤٠٤هـ، و نقدمه إلى قرائنا الكرام نظراً إلى قيمته العلمية]
« التحرير »

الحمد لله رب العالمين و لا عدوان إلا على الظالمين . و الصلاة و السلام على أشرف الأنبياء و المرسلين وقائد الغر المحجلين . نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد !

فانها خطوة مباركة ـ باذن الله ـ أن تبادر الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة إلى تكرار اللقاء للمرة الثانية بعلماء المسلمين و بمفكريهم و دعاتهم فى عقد المؤتمر العالمى الثانى لتوجيه الدعوة و إعداد الدعاة خلال شهر ربيع الأول من عام ١٤٠٤هـ .

فان الدعوة إلى الله عزوجل مهمة صعبة . لا يضطلع بها إلا من أعطاه الله قدرة فى التحمل ، و دراية فى الفهم و موهبة علمية ، فيقدر الله حق قدره ويؤدى الدور الذى شرعه الله على خير خلقه ، نحو نفسه وتجاه إخوانه فى الاسلام .

و هى مهمة الأنبياء ، و عمل الصفوة المختارة من الخلق . و هم الأنبياء عليهم الصلاة و السلام و أتباعهم باحسان و الدعوة إلى الله سبيل إلى تضامن المسلمين . و طريق من طرق اجتماع كلمتهم ، و اتحاد صفهم . قال الله تعالى : « و إن يريدوا أن يخدعوك فان حسبك الله هو الذى أيدك بنصره و بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم و لكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم » .

و قال عزوجل فى حث نبيه محمد على حسن الخلق فى الدعوة « و لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » .

و دور التضامن بين المسلمين ، يبرز كثيراً ، عند ما يحرصون على تطبيق الشريعة الاسلامية ، ويمتثلون لأوامر الله و يجتنبون مناهيه . فى التطبيق والأداء .

وحيث إن أركان الاسلام الخمسة التى لا يقوم الاسلام بنقصانها ، أو التهاون فى واحد منها ، تشعر المسلم برابطة مكينة عند الأداء . تشده باخوان المسلمين . وتقوى علاقته بخالقه جل وعلا .

فالركن الأول : الذى هو أول مدخل إلى الاسلام : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله :

يشعر المسلمين باتحاد هدفهم وغايتهم فى وحدانية العبودية لله سبحانه لاشريك له .

فلا إله إلا الله : تثبت و تنفى : تثبت الوحدانية لله لا شريك له و تنفى كل معبود يتجه إليه القلب ، و تتعلق به الحواس فى أى شأن من شئون العبادات القولية والفعلية ، إلا الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، فهو سبحانه المستحق بأن تصرف له العبادات و تتجه إليه الأفئدة .

وهذا الاحساس فى قلب المسلم وعقيدته . نموذج قوى فى التضامن الاعتقادى ،

الذى يربط المسلمين جميعاً بعقيدة واحدة صافية ، مرتبطة بالله عزوجل لا شريك له فى أسمائه و لا فى صفاته .

ومثل هذا شهادة أن محمداً رسول الله : أن يطيعه المسلمون فى أى مكان كانوا فيما أمر ، و يجتنبوا ما نهى عنه و زجر ، و ألا يعبدوا الله إلا بما شرعه لهم ، ويحبوه بقلوبهم ويطبقوا كل ما جاء به عن ربه بجوارحهم ، واستجابة من نفوسهم .

فما يأتى به ﷺ حق من عند الله ، فنحبه نحن معاشر المسلمين جميعاً ، ونأتمر بأمره . و لا نختلف فى أمر من أمور ديننا و دنيانا لأنه عليه الصلاة و السلام حريص على مصلحة المؤمنين ، رؤوف بهم رحيم بضعفائهم ، كما وصفه ربه فى سورة التوبة .

و من وحدة المسلمين فى دينهم ، و الذى ينعكس أثره على أمور دنياهم و معاشهم ، عدم الخلاف فى المعتقد : وهذا هو وحدانية الله فى العبودية بالارتباط بالله جل وعلا فى السراء و الضراء ، و اتباع السنة المحمدية من مصدرها الصحيح الذى اجتهد فيه علماء الاسلام ، و بذلوا فى تحقيقها ما يستطيعون من عمل ، و ما وفقهم الله إليه من تمحيص وتدقيق و حرص و دراية ، حتى ظهرت كتب الحديث السبعة ، التى يعتبر الأخذ بما فيها من الأحاديث من أهم المهمات ، ثم تطبيقها على أمور العبادات ، و متطلبات الحياة الدنيا ، و تصريف شؤونها : تضامناً بين المسلمين فى المأخذ ، و توافقاً فى منبع الاستقاء ، و نبذاً لكل خلاف بذره أعداء الاسلام فى التشكيك حول التشريع الاسلامى ومصدريه ، فى سلامة المأخذ ، وصدق الاتجاه .

فالخلاف و الشقاق اللذين نشآ بين المسلمين فى مختلف العصور ، جاءا من هذا المدخل ، حيث أدرك أعداء الاسلام و المسلمين ، نتيجة الخلاف فى المعتقد فى العبودية مع الله جل وعلا ، و الخلاف على الأنبياء و ما تركه ذلك فى أممهم من

شقاق و شحناء ، وفشل وتدابر ، فحاولوا غرس بذوره فى المجتمع الاسلامى ، وعند ما قلدوهم حل بهم ما حل بمن قبلهم ، قال رسول الله ﷺ : « افترقت اليهود على إحدى و سبعين فرقة و افترقت النصارى على اثنتين و سبعين فرقة ، و ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة ، قيل من هى يا رسول الله قال من كان على مثل ما أنا عليه و أصحابى » و يروى فى حديث قدسى أن الله سبحانه و تعالى يقول : « من عصانى و هو يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفنى » والمتتبع للرسالة السماوية التى جاء بها محمد ﷺ من عند ربه يدرك أن أول ماشرع الله فى دين الاسلام : الدعوة إلى وحدانية الله و التصديق برسالة محمد ﷺ ، لأن الخلاف فى تاريخ الأمم والابتعاد عن المنهج القويم بدأ فيهم من الاخلال بوحدانية الله التى دعت إليها جميع الرسالات السماوية ، منذ خلق الله آدم و أسكنه الأرض ليعمرها بنوه من خلقه قال الله تعالى : « وما خلقت الجن و الانس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »

و إن معصية الأمم السابقة ، و خلافاتها التى جرت عليها المصائب و الفتن ، و استحقت غضب الله وعقابه ، جاءت نتيجة الابتعاد عن منهج الله و معصية الأنبياء و التشكيك فيما جاءوا به من ربهم ، معاندة و تكبراً ، قال الله تعالى : « و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .

فقوم نوح هم أول من أشرك بواحدانيـــة الله عند ما عبدوا وداً و سواعا و يغوث و يعوق و نسراً ، وبنو إسرائيل لم يكتفوا بمخالفة أنبيائهم وعدم تصديقهم بل كذبوا عليهم و آذوهم وقتلوا بعضاً منهم .

و قد أبان القرآن الكريم فى مواضع كثيرة مواقف تلك الأمم و ما حل بها . لأنه نشأ عن أعمالها تلك ، ابتعاد عن منهج الله وفرقة فى الصف . وخلاف على شرع الله الذى شرع لهم .

و من أسباب وحدة الصف سلامة الاتجاه الاعتقادى و العملى ، فى المجتمع الاسلامى ، و تطبيق الايمان بالله على حقيقته ، وحقيقة الايمان هو التصديق بالقلب ، و العمل بالجوارح ، و النطق باللسان .

و أركانه التى يقوم عليها ستة : الايمان بالله . و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الآخر و بالقدر خيره و شره . فهذا الاتجاه يجمع الأمة على وحدة الهدف والعقيدة . والاخلاص الذى يباعد عن الفرقة وأسبابها . ثم شرعت بعد الشهادتين: الصلاة : تلك العبادة التى تولى رب العزة و الجلال فرضها بنفسه على محمد و أمته عند ما عرج به ﷺ إلى السماء فى مبدأ البعثة ، و ذلك لما لها من شأن فى حياة الناس و تأثير على تصرفاتهم إذا أدوها و فهموها على حقيقتها .

فهى صلة بين العبد و ربه ، و يتجه إليه جل و علا خمس مرات فى اليوم و الليلة ، متهيئاً متطهراً ، حاضر القلب ، مرهف الحواس ، فى خشوع و خضوع لا يناجى بمكنون نفسه إلا الله ولا طلب المدد والعون من غيره جل وعلا .

فاذا أمعنا النظر فى سرعة المسلمين فى كل قطر من أقطار الأرض و فى أى موضع كانوا ، إلى المبادرة لأداء هذه الشعيرة عندما يحين وقتها يلبون النداء جميعاً ، و يتطهرون جميعاً ، و يتجهون إلى قبلة واحدة هى الكعبة المشرفة التى اختص الله مكانها فى مكة المكرمة ، باتجاه العباد إليها فى صلاتهم و حضور حواسهم لرب واحد ، مخلصين له الدين ، فان هذا العمل من أعظم أعمال تضامن المسلمين . الذى يربط بين قلوبهم ، و يوحد بين اتجاههم و يثبت به أعمالهم .

وما ذلك إلا لأنهم بالغوا فعملوا ، وسمعوا البينات كما جاءت من عند الله فصدقوا ، وكانوا إخوة متحابين فى الله قد ألفت بينهم عقيدة الوحدانية لله و ربطت بين قلوبهم تعاليم الاسلام و شرائعه ... و أهل الكتاب لم يختلفوا و تتفرق كلمتهم إلا بخلافهم

على ما جاءهم من تشريع ، يقول الله تبارك و تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين منفكين حتى تأتيهم البينة، رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة، فيها كتب قيمة ، و ما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة ، و ما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) .

و هذه العبادة علاوة على كونها تربط العبد بخالقه فى مناجاته و اتجاهه فانها ذات فائدة للنفس و المجتمع ، فالنفس تتطهر من الأدران و الذنوب بدءاً بالوضوء ثم تكبيرة الاحرام ، و انتهاءاً بالتسليمتين . فتجتنب المعاصى و تبتعد عن الآثام يقول الله تبارك و تعالى : (اتل ما أوحى إليك من الكتاب و أقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء و المنكر) .

فالنداء للصلاة فى أوقات محدودة ، نداء للتضامن فى العمل ، و أداء للواجب الذى شرعه الله لجميع المسلمين فى كل مكان ، على اختلاف ألسنتهم و ألوانهم .

و من ينظر فى عمق مدلول الصلاة ، و حكمة التشريع : يرى أن لها مكانة راسخة فى الوشيجة التى تؤلف بين المسلمين ، و توحد كلمتهم ، فهم يتعارفون فى كل لقاء ، و يتقاربون فى كل وقت و يتفقد بعضهم بعضاً فى الحضر و السفر ، فى انقياد و استسلام ، و أداء و انتظام ، مؤتمرين بقيادة واحدة و مستجيبين لنداء واحد ، و تشعرهم الصلاة بأنه لا تمييز بين طبقة و طبقة و لا فرق بين سيد و مسود ، الكل سواسية فى التشريع و التلقى ، و الكل متماثلون فى التطبيق و العمل .

و شعور المسلمين بهذا الاتحاد فى الأوامر ، يربط بين قلوبهم و يزيل عنها التشاحن والبغضاء ، و هذا من أقوى دعائم الألفة والمحبة ، و أمكن مسببات الترابط و التماسك ، ضد عدوهم الألد و هو الشيطان الرجيم و ضد أعداء العقيدة و الدين ،

المتربصين بالمسلمين الدوائر ، المتحينين لكل فرصة ضد المسلمين و رسالتهم السماوية ، كما أن شعورهم بالانقياد خلف إمام واحد فى الجمعة و الجماعة يتابعونه فى عبادتهم ، يزيد فى نفوسهم حاجتها إلى قيادة موحدة تجمع شملهم ، و توحد صفهم ، ليكونوا يداً على من سواهم ، يسعى بذمتهم أدناهم و يطبقون ما تحرص عليه هذه القيادة فيما هو صالح الاسلام و المسلمين .

فالامام فى الصلاة يدعو من خلفه باسم الله تكبيراً و تمظيماً و للشهادتين تطبيقاً وإخلاصاً فى المعتقد ، وفى حى على الصلاة حى على الفلاح المؤكدة والمكررة أهمية عظيمة لهذه الدعوة العاجلة للاستجابة فى العمل ، وتأدية هذه الشريعة فى وقتها مع و جماعة المسلمين على مستوى الحى و القرية فى الأوقات الخمسة ، ليترابط الناس و يتألفوا و يتعرف بعضهم على ما يؤرق البعض الآخر ، فيحس كل منهم بما يؤلم أخيه و يتحاوب معه .

ثم بتجمع أكبر ، و تضامن أرسخ ، واستجابة آكد فى الأسبوع مرة على مستوى أعم فى صلاة الجمعة ، حيث يتجمع المسلمون و يبادرون بالسعى إليها ويهتم الامام و خطيب المسجد بالتحدث عما يؤرقهم ، وتوجيههم و إرشادهم لما فيه مصلحة دينهم و دنياهم ، و ينذرهم عما له نتائج غير حسنة على الصف الاسلامى فى دنياه و أخراه ، ليحصل من هذا التجمع فائدة ظاهرة و مصلحة مرجوة .

ثم فى صلاة الاستسقاء وصلاة الكسوف ، يبرز الاهتمام الجماعى الذى يربط المسلمين بالله الذى لا يزيل الضرر إلا هو و لا يكشف السوء النازل سواه ، فهو سبحانه الذى يجيب المضطر تلجأ إليه النفوس فى وحدة واستجابة وتضرع و خضوع و بقلوب مخلصة و أفئدة حاضرة ، اقتداء برسول الله ﷺ الذى كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة و لجأ إلى ربه واستراح بها حيث كان يقول لبلال : أرحنا يا بلال

بالصلاة ، ذلك أن أقوى علاقة تربط المسلم بأخيه ، و تجعل المسلمين يداً على من سواهم ، هى تمكين الرابطة بالله سبحانه و تعالى عقيدة و سلوكاً ... فبذلك تتألف القلوب ، و تتجاوب الهواجس و يتفق المؤمنون فى سرهم و علانهم فيما بينهم لأنهم أدركوا أن سبب الأسباب ومزيل الكربات هو الله الذى لا تخفى عليه خافية فيكلون أمورهم إليه سبحانه .

وبذا يصدقون مع إخوانهم كما صدقوا مع الله ، ويخلصون فى تعاملهم فيما بينهم . كما أخلصوا فى اتجاههم إلى خالقهم ، و ينظمون علاقاتهم و صلاتهم بعضهم ببعض كما هى التنظيمات الموجودة فى الصلاة ، و تتحد كلمتهم ضد عدوهم حسبما اتحدوا فى اتجاههم إلى رب واحد ، وقبلة واحدة ، وخلف إمام واحد ، فى صفوف متراصة ومنتظمة ، مما يشعرهم بأهمية القيادة فى الاسلام و عدم الخروج عنها . أو شق عصا الطاعة عليها . قال الله تعالى : (و اعتصموا بحبل الله جميعاً و لا تفرقوا و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا) .

كما أن التجاء المسلمين فى الصلاة لله خالقهم ، و مدبر أمورهم فى الملمات و فى الضراء : فان صلاة العيدين و التى هى فرض كفاية إذا قام بها بعض المسلمين سقط عن الباقين ، تجمعهم فى إظهار الشكر الجماعى لله جل و علا أن هداهم للاسلام . وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، فبالشكر تدوم النعم ، قال الله تعالى : (لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) . فهم يشكرونه على نعم كثيرة . ففى عيد رمضان يشكرونه أن من عليهم بصيام رمضان وقيامه . و فى عيد الأضحى يشكرونه على تجمع المسلمين فى مكان واحد . وعلى ما شرع لهم من التهليل والتكبير والتقرب إليه سبحانه و تعالى بالهدايا و الضحايا ، و الزكاة وهى الركن الثالث من أركان الاسلام . حق فرضه الله فى أموال الأغنياء يعطى للفقراء ، لما جاء فى حديث معاذ

ابن جبل رضى الله عنه عند ما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن ، و قد جاء فيه مما قال له رسول الله ﷺ : (فان هم أطاعوك لذلك فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم . ثم قال عليه الصلاة و السلام : و إياك و كرائم أموالهم و اتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها و بين الله حجاب) .

و لما كان المال هو أنفس شئ تهتم به أكثر النفوس ويحصل بسببه مشكلات و شحناء بين الناس فان الله جلت قدرته و هو الأعلم بطباع البشر و أدرى بما يصلح أحوالهم ، و بما يؤلف بين قلوبهم قد فرض بنفسه الأحكام المتعلقة بالمال :

فحدد سبحانه أصحاب الزكاة الثمانية فى سورة التوبة .

وعين جلت قدرته أصحاب الفروض وأنصبتهم فى التركة بعد الوفاة فى سورة النساء .

و أوضح تبارك اسمه الفئ و المغانم و عين أصحابها فى سورة الأنفال .

ومن هذا يخرج المرء بنظرة شاملة عن مكانة الاسلام فى السيطرة على أهم عنصر يتسبب فى قطعية الرحم و يورث الشحناء إذا تفشى إيشاره فى المجتمع و خالف الناس فيه أمر الله .

وللتصرف فى المال الذى نظمته شريعة الاسلام دور هام فى غرس بذور المحبة و الألفة بين النفوس . و تكوين المودة والتقارب فى المجتمعات إذا انطلق الناس فيه من المصدر التشريعى الالهى أخذاً و عطاء و أمراً و نهياً . فاذا كان الذى عليه الحق يؤديه لأصحابه بنية طيبة . ونفس راضية ، فانه مع هذا الدور يكون فى راحة نفس و اطمئنان بال ، لأنه يؤدى شيئاً افترضه الله عليه ، نحو إخوانه المستحقين أخذاً من قول الله تعالى : (و من يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) .

و قوله تعالى فى وصف المؤمنين : (و الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

و آيات البذل و العطاء فى القرآن الكريم كثيرة لما فيه من مغالبة للنفس ، و مجاهدة لأهوائها ، و يحصل أيضاً مثل هذا للآخذ الذى يرضى بما قسم الله له ، و يزول من نفسه كل حقد و كراهية ضد الآخرين لشعوره بالعدالة التى نظمتها تعاليم الاسلام

و النفس إذا ارتاحت ، و شعرت بالعدالة لاتحس بغضاضة نحو الآخرين . و لا بكراهية على بقية طبقات المجتمع . وهذا محرك باطنى مهم نحو التضامن والمحبة وإشاعة الألفة و الاخاء ، تلك الخصال التى تهدف إليها تعاليم الاسلام . و تؤكدها شرائعه قولا وعملا ، فالاسلام يدعو إلى مكارم الأخلاق و الأخذ بأسباب التآلف فى الصف ، و تكوين البيئة المتماسكة و يرغب فى كل ما يدعو إلى التحلى بذلك .

و هذه الأعمال من كمال الايمان فى النفوس ، و ترسيخ الرابطة أولا بالله الخالق الرازق والاله الحق ، ثم بما تشيعه من صفاء و مودة فى نفوس أبناء الاسلام على اختلاف مراكزهم و مستوياتهم ، لأن الاسلام بما تضمنه من الشرائع ، كفل ما يعود على أبنائه براحة البال ، و تكوين أمة يحب بعضهم بعضاً . و يحنو كبيرهم على صغيرهم . و وضع حواجز تكبح جماح النفوس حتى لا يتسلط القوى على الضعيف ، و يأكل حقه أو يعتدى على ممتلكاته ، و من نتيجة وقوف المسلمين عند حدود هذه الحواجز أن ترضى نفوسهم . و يتحابوا و يتضامنوا .

و الحج الذى فرضه الله مرة واحدة ، على من استطاع إليه سبيلا ، حيث يتجمع المسلمون فى وقت واحد من أنحاء المعموره ، يرفعون نداء واحداً : لبيك اللهم لبيك استجابة لك يا رب ، و تلبية لأداء ما افترضته علينا ، جئنا إليك مسرعين لأداء الواجب ، تحت سماء واحدة و يجمعنا صعيد واحد متجهين إلى مكان واحد هو بيت الله الحرام ، و ما حوله من أماكن مقدسة تؤدى فيها شعائر الحج .

و المسلم لا يسعه و هو يشاهد هذه الجموع المتجهة إلى الله بقلوبها و أجسامها فى ذلة و انكسار ، إلا أن يشعر بعمق الرابطة التى تتركها شرائع الاسلام . والحج من أبرزها فى تنظيم الصفوف . و توحيد الكلمة . و التضامن الأخوى بين أبناء المسلمين باختلاف لغاتهم و تعدد جنسياتهم و أشكالهم مع تباعد ديارهم و منازلهم .

وذلك بما يدعو إليه الحج من عدم الرفث أو الفسوق ، أو الجدال أو الفحش فى القول و العمل ، و يحققه لهم من مصالح دنيوية و أخروية . يقول الله سبحانه و بحمده : (و أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا و على كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم و يذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام . فكلوا منها و أطعموا البائس الفقير ، ثم ليقضوا تفثهم . و ليوفوا نذورهم و ليطوفوا بالبيت العتيق ذلك و من يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه و أحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم ، فاجتنبوا الرجس من الأوثان . و اجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به) الآية .

و الخطاب هنا لأمة الاسلام عموماً . مما ينبئ عن وحدة الاسلام فى التشريع و عمومه فى التبليغ ، و عدم تفريقه فى الأداء بين فرد وفرد ، أو طبقة و طبقة . فالكل متساوون فى التكليف ومطالبون بالتنفيذ . إلا من ألمت به أعذار تخفف عنه .

و تعظيم حرمات الله فى قلوب المسلمين ، شعور بالتضامن الوجدانى و الوحدة العملية ، واتفاق الكلمة على مبدأ ثابت جاء من عند الله ، وما كان من عند الله أمراً بالعمل . و حلا فى التناول و إجتناباً فى الأخذ ، فهو الكامل فى طريق التآلف و الوحدة بين أفراد المجتمع الاسلامى ، و ما يخالفه فى المنهج و السلوك فهو طريق الفرقة و الخلاف و الشقاق فى صفوف المجتمع قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

و الصيام و تحديد وقته ، و التكليف به ، من الشرائع التى فرضت على الأمم

السابقة فاختلف فى التطبيق ، و تجاوزت الحد فى الأداء . فدبت الفرقة و الخلافات بينهم . وباعد الله بين قلوبهم وفرض على أمة محمد ﷺ فزادها التمسك بهذه الشريعة وحدة ضد العدو و تضامناً ضد النكبات و تماسكاً فى الصفوف . وسمعاً و طاعة للقيادة الاسلامية . و تعاوناً مع ولاة أمور المسلمين ، فيمسكون عن الطعام والشراب جميعاً فى وقت واحد . ويفطرون بغروب الشمس جميعاً و يتمثلون هذا الأمر حسب بلادهم و أماكن سكناهم لأن فى الصيام : نظاماً فى الأداء . و حرصاً على التنفيذ ، و مغالبة للنفس عن شهواتها و مجاهدة للشيطان الذى هو عدو الانسان الأول فى هذه الحياة الدنيا .

فالمسلم عند ما يلتزم بأركان الاسلام الخمسة . و هى أعمدته و ركائزه التى يقوم عليها كيانه ، كما يمثل التمسك بها وأداءها على الوجه المطلوب ، وحدة الاسلام و تماسك أجزائه . و هذه الأركان بالنسبة للاسلام ، بمثابة أركان و عمد الخيمة . التى تقيم بنيانها . و تثبت أجزاءها لصمودها أمام العواصف و الأمطار .

و المسلم فى هذه الحالة يستشعر مكانة تعاليم الاسلام و أثرها فى الوحدة بين أبناء المسلمين ، وتجميع كلمتهم ، وتوحيد قيادتهم ، وخضوعهم و استجابتهم للأوامر و سمعهم و طاعتهم ، و تلبيتهم للتشريعات بدون تردد أو إحجام .

و مثل هذا الدور يبرز فى الحدود الشرعية . و القضاء بين الناس فى الحقوق و أداء ما على النفوس من التزامات و واجبات . و الاستجابة لكل أمر و اجتناب كل نهى ، و الوقوف عند حدود الله و تشريعاته . سواء عرفت العلة أم لم تعرف . فالله سبحانه و بحمده أعلم بما يصلح أحوال البشر فى معاشهم و معادهم يقول الرسول ﷺ : (إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها) .

تلك التشريعات التى تطبق على المخالف لأمر الله مهما كانت مكانته بدون تردد ،

حيث شرع الحكم على الفاعل نظير عمله . و ليس على الشخص حسب وضعه الاجتماعى ، وتبرز مكانة الاسلام وعدالته فى مثل هذا العمل الذى لا يسع من يعى هذا الدور ، إلا القناعة بمكانة الاسلام العظيمة فى حفظ التوازن والابتعاد عن مسببات الفتنة والشقاق ، التى تحرك كوامن النفوس وتغرس بذور الخلاف والفرقة فى الصف .

يقول رسول الله ﷺ : (إنما أهلك من كان قبلكم أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه و إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) .

و لما كان رسول الله ﷺ حريصاً على تماسك المسلمين و إزالة كل سبب قريب أو بعيد يضعف كيانهم أو يفتح عليهم مسالك شياطين الجن و الانس . كان ﷺ يتخول أمته بالنصيحة فى مناسباتها و يغضب لله فى كل أمر يخالف دينه . و قد حصلت حادثة فى زمنه ﷺ عند ما سرقت المرأة المخزومية ، ذات الحسب والنسب ، فأهم الناس أمرها . و أرادوا التكلم مع رسول الله ﷺ . و البحث عمن يوصل الأمر إليه ليخفف عنها الحد الشرعى : مما أغضبه ﷺ غضباً شديداً ، و قال : لمن جاء يستشفع : أتشفع فى حد من حدود الله ؟) .

و قد أخبر النبى ﷺ أن مثل هذا العمل إذا استشرى فى المجتمع الاسلامى فانه يخلخل تماسكه ، ويهد كيانه ، ويقضى على عنصر التضامن فيه ، و يوجب هلاكه . وغضب الرسول ﷺ زادهم على مر العصور حرصاً على الأداء ، وتمسكاً بالتشريعات السماوية ، وهذا واحد من أسرار قوة المسلمين ، ومهابتهم فى قلوب أعدائهم .

و لذا أراد صلوات الله و سلامه عليه قفل مثل هذا الباب الذى بانفتاحه تنفتح الفتن على المسلمين و يتسلط عليهم الأعداء بقوتهم . بعد أن يتخلى الله عنهم ، فقام خطيباً فى الناس ليشعرهم بعدم الشفاعة فى حد من حدود الله ، إذا وصل الأمر إلى السلطة التنفيذية ، و هى ولى الأمر للمسلمين ، و مما قاله ﷺ فى هذا : (والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) .

و هذا واحد من المواقف الاسلامية فى تطبيق حدود الله و شرعه . التى يستشعر منها المسلم أن المسلمين سواسية فى الحكم لا يختلفون فى شرع الله و أوامره و نواهيه .

فصاحب الذنب و من اقترف مخالفة يجب أن تطبق عليه الحدود و الجزاءات مهما كانت مكانته الاجتماعية ، و يؤخذ منه الحق . ليرد على أصحابه الأصليين، وهذا نموذج من عدالة الاسلام فى الحكم التى جعلت مقترف الذنب يخضع لتطبيق الحكم الشرعى من السلطة التنفيذية التى يتولاها ولى أمر المسلمين أو من ينيبه .

و يحرص المسلمين جميعاً على متابعة هذا الدور والتعاون فيه لتقوية مكانة الحكم الشرعى فى العمل و الأداء ، و تقوى مكانة الاسلام فى النفوس . التى من غريزتها حب الاستعلاء. لكنها تخضع للحق إذا عرفت أن الناس فيه سواء يعطى الحق لصاحبه مهما كان ضعيفاً لأنه صاحب حق ، رفع مكانته الاسلام كما قال أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته بعد بيعته خليفة لرسول الله ﷺ : (و الضعيف منكم قوى عندى حتى أعطيه حقه و القوى ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه) .

و بقدرة السلطة على تطبيق حدود الله و شرائعه ، و تحكيم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فى كل أمر من أمور الاسلام ، تكبر منزلتها و يعلو قدرها لدى المواطنين ، و يخشاها الخصوم وتتحد الكلمة ، ويزول من الصف كل عدو مستتر .

و يكون لهذه السلطة تأثير كبير — باذن الله — فى اجتناب المسلمين مسببات العقاب، ودور فى المحاكاة والتقليد من الجهات الاسلامية الأخرى التى لم تتشبع بتعاليم الاسلام فى أنظمتها و أحوالها الجنائية و محاكمها .

فانهم يلمسون دور الاسلام فى إضفاء المهابة و إعلاء القدر و التأليف بين القلوب ، حيث تزول الشحناء من نفوسهم التى من أسبابها الشعور بالعدالة فى الحكم والسواسية فى التشريع وتأدية الحقوق أخذاً وعطاء سواء كانت لله فى شرعه ، أو للبشر فى

العلاقات فيما بينهم أو للمجتمع فى تطبيق ما يصلحه ويزيل أسباب الفرقة والشحناء منه.

و هذا الدور من أهم أسباب التضامن الاسلامى و أقوى ركائز وحدة الصف و أمنع حصن ضد أعداء الاسلام و المسلمين : ظاهراً و باطناً الذين يتربصون بهم الدوائر . و يتحينون الفرص للتسلط على أمة الاسلام و تفريق صفها ، قال الله تعالى : (و هو الذى أيدك بنصره و بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم - لكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) .

و التاريخ خير شاهد على هذا فعند ما تمسك المسلمون الأوائل بتعاليم دينهم . و حرصوا على تطبيق حدود شرع الله ، و امتثلوا بشريعة الاسلام عملا و سلوكاً . و قادة و شعوباً . و لم تأخذهم فى ذلك لومة لائم . اتحدت كلمتهم و علا شأنهم و انطووا تحت قيادة واحدة و دانت لهم الدنيا و دخل شعوب الأرض فى دين الله الذى أزالت تشريعاته عنهم الظلم و الجور و التعسف و بغى القوى، وعم الرخاء الأرض - بل استجاب أهل الأرض المفتوحة للاسلام و دافعوا عنه ، لما فى تعاليمه من رأفة و رحمة وعدالة تتطلع إليها النفوس، وقد خدم كثير منهم الاسلام بجهودهم العلمية و البدنية و المالية بدفاعهم عن عقيدة الاسلام و تشريعاته .

و لا عودة للأمن و الرخاء فى الأرض إلا بالعودة لتعاليم الاسلام و تطبيقها حيث يلتئم شمل المسلمين ، وتتحد غاياتهم وأهدافهم وقد قال الامام مالك رحمه الله: لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . و أولها ما صلح إلا بالاسلام . و آخرها لن يصلح إلا بالاسلام ... ففى العودة إلى تطبيق شرائعه و تعاليمه الخير كل الخير للبشرية جمعاء . والوحدة والتضامن مع القيادة الاسلامية ضد الأعداء المتربصين بالمسلمين الدوائر المتحينين للفرص الذين يحاولون المكر بالمسلمين .

و الله الهادى إلى سواء السبيل و هو حسبنا و نعم الوكيل .

و صلى الله وسلم على نبينا محمد و آله و صحبه وسلم .

الاسلام أوسع من « الاصطلاحات »

الأستاذ السيد محمد الحسنى (رحمه الله)

الاصطلاحات — فى كل مجتمع و فى كل بلد — لها جو خاص وطابع ممتاز، هى وليدة تجارب يمر بها شعب أو مجتمع ، و عصارة أفكار و عقول ، و نزعات و ميول ، و تقاليد و عادات و مرافق ، فاذا أخذناها أخذناها برمتها و استوردناها مع أجوائها و ظلالها و تاريخها ، و سائر مقوماتها الداخلية و عواملها النفسية .

إن معظم هذه المصطلحات تدور حول الأدب و الفلسفة و الاقتصاد و السياسة ، و تعبر — دائماً — عن وضع خاص ، و تشير إلى منهج خاص فى هذه العلوم والآداب ، ومن هذه المصطلحات المشهورة التى استوردناها . الديمقراطية . والرأسمالية ، و الشيوعية ، و الاشتراكية ، و الثيوقراطية إلخ .

فما كان الداعى إلى قبول هذه الاصطلاحات ؟

إننا رأينا فى هذه المصطلحات بعض ما يلائمنا أو يعجبنا ، أو يتفق — فى خط من الخطوط — مع أهدافنا ، فأحببنا أن نستعين بها فى تعريف الاسلام و عرضه على الجيل المثقف الجديد ، الذى افتتن بهذه المصطلحات وآمن بها كايمانه بالله ورسوله .

و كان المجال الأول و المجال القريب هو الحكم الاسلامى ، الذى صار موضع النقاش و الجدال منذ أعوام طوال ، و قد ظهرت هذه المحاولات فى العالم الاسلامى — خاصة فى مصر و باكستان — فى صورة مؤلفات و دراسات تنظر إلى الحكم الاسلامى بهذا المنظار الغربى الجديد ، — منظار الاصطلاحات المحدود — فاذا رأوا فيه حرية شخصية قالوا إنه ديمقراطى و رأسمالى ، و إذا رأوا فيه مساواة قالوا إنه

إشتراكى ، و إذا رأوا فيه خليفة يأمر و ينهى ، قالوا إنه دكتاتورى ، و إذا رأوا فيه أحكاماً إلهية لا دخل فيها للبشر قالوا إنه ثيوقراطى ، و إذا رأوا فيه بيعة عامة و خليفة كأبى بكر — رضى الله عنه — يقول فى أول خطبته حين بايعه الناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » قالوا إنه شعبى . الحكم الأخير فيه للشعب !

فما هى طبية الحكم الاسلامى و منهاجه الأصيل ، المبتكر ، المجرد عن الملابسات و المصطلحات و الشكليات ؟ أليس للانسان فكرة مستقلة خاصة ، و نظام متكامل . متكافل ، متناسق ، غنى عن الأخذ والاقتباس والاستيراد ؟ أليس له دعوة ومنهاج و حكم ؟ ثم أليس له مصطلحات و أسماء و شعائر أو شارات نعرفه بها ثم ندعو الناس إليه ؟

بلى ؟ إنه كذلك !

و لننظر الآن ما يستقل به الحكم الاسلامى ، أو ما يتميز به دون غيره من المناهج السياسية و الاقتصادية المعروفة ، و كيف يسمو عليها بنظامه الربانى العميق الدقيق ، و ما هو الفارق بين المصطلحات الجاهلية ، و المصطلحات الاسلامية . وهل تسعه المصطلحات أم لا ؟

الاسلام دين كامل أتم الله نعمته على البشر فقال « اليوم أكملت لكم دينكم و أتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام ديناً » فهو (إذاً) نظام ربانى أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ ، و أتمه فى ثلاث و عشرين سنة ، ولم يدعه عرضة للأوضاع المتغيره ، و الملابسات الخارجية و المشكلات المتجددة ، و العصر المتطور ، شأن المذاهب السياسية الأخرى التى لا تزال فى دور التجربة و التكوين و البناء ، فجاء شاملا لسائر النواحى و الوجهات بل الدقائق و الخلجات التى لا تدركها الأبصار ، و لا يترقى إليها عقل البشرية القاصر المحدود .

« ألا يعلم من خلق و هو اللطيف الخبير »

« أفحكم الجاهلية يبغون و له أسلم من فى السماوات و الأرض طوعاً و كرهاً و إليه يرجعون »

« هو أعلم بكم إذا أنشأكم من الأرض و إذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى »

و الآيات فى هذا الباب كثيرة معلومة .

هذه هى المبادىء الأولية للحكم الاسلامى و أبعاده ، و سوف نتقدم الآن ببعض التفصيل ، و لنتذكر — و نحن فى بداية السفر — تلك الحقيقة الكبرى ، أن الاسلام دين سماوى منزل من الله ، و أنه دين كامل لا يؤذيه التطور ، ولا تنال منه الأحداث ، أما المذاهب الأخرى — والمذهب أيضاً إصطلاح لا يعبر عن النظام الاسلامى مطلقاً — ناقصة ، محدودة لا تزال فى دور التجربة أو فى دور الطفولة ، انتهت بها فى سيرها أو بحثها عن الحق على بعض محاسن أو وجوه من الحق و الجمال ، و البر و المعروف ، فحسبتها نهاية المطاف و آخر الشوط ، وظنت أنها ظفرت بالغاية المنشودة ، و سمتها باسم خاص ، و وضعت لها مصطلحات ، مع أنها كانت جانباً ضئيلا لايصح الوقوف عنده أو التمسك به ، ولا يصح اعتباره « كاملا » يتوقف عليه مستقبل البشرية إذا قيس بالجوانب الضخمة الأخرى ، التى لا تكتمل بدونها الصورة ، و لا يستقر بغيرها الوضع .

و نقدم الآن بعض جوانب الحكم الاسلامى على سبيل المثال .

« و أمرهم شورى بينهم » « وشاورهم فى الأمر »

« و فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه مارأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ » (١) .

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٦٤ .

إنها ناحية مهمة من نواحى الحكم الاسلامى حسبوها ديمقراطية، يخضع فيها الرئيس لرأى الأكثرية و لو كان هذا الرأى غير صالح أو غير نافع، و هو تجن على الاسلام و دليل على سوء فهمه.

و يأتى مبدأ «و أطيعوا الله و أطيعوا الرسول و أولى الأمر منكم»

و هو جانب خطير أيضاً، فقد نهى الجمهور عن معارضة الخليفة، و الأمير والحاكم «ما أقاموا فيكم الصلاة» و نهى عن الخروج عليهم «ما لم يظهروا كفراً بواحاً» وهذا إقرار لقيمة الحكم الاسلامى وأهميته، وسموه على الخلافات الصغيرة، و فيه تدعيم لأركانه و تشييد لبنيانه، و هنالك تلتقى الصورة أحياناً ببعض صور الحكم فى التاريخ القديم و الحديث، و لكنها لا تمتزج فيها أبداً، و قد تجلى ذلك واضحاً صريحاً فى موقف عمر رضى الله عنه حين قال:

«أصابت امرأة و أخطأ عمر»

إنه وضعت له حدود و معالم و إطار واضح و هو «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» وروى الشيخان «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب أو كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع و لا طاعة» إنه ليس الحكم المطلق و لا الطاعة الدائمة، بل شتى بين هذا وذاك، أقرب إلى الفطرة، و أقرب إلى روح الاسلام، و أما أمر البيعة فهو أشبه بنظام الانتخاب و التصويت فى العصر الحديث و لكنه يفترق عنه كما افترق أولا فى سائر المبادىء و الوجهات فى عد الأصوات، بل إنه بيعة عامة يستقل بها الخليفة وأمير المسلمين، ثم يدير دقة الأمور بمشورة من أصحابه!

هذا هو الاطار العام الوجيز السريع للحكم الاسلامى، و هو نظام مستقل بطبيعة الحال، غنى عن الاصطلاحات، بعيد عن الشكليات، بل إن الاصطلاحات

تجنى عليه و تحول بينه و بين فهمه على حقيقته ، و نمطه فى الشؤن الاقتصادية مثل نمطه فى الشؤن السياسية .

و موقفه نحو السلطة الشخصية ، وفى مسئلة الأحزاب السياسية ، والانتخابات العامة ، و فى الأقطاع ، و فى الملكية الفردية ، و فى التأميم و علاقات العمال و رجال الأموال ، و فى المساواة الطوعية والاجبارية ، ونحو ذلك من المشكلات الفنية ، موقف مستقل بذاته ، ذو طابع خاص و سمات واضحة مشرقة ، و حدود معلومة و نمط معروف ، لا تستطيع هذه المصطلحات السياسية (التى حملها إلينا الغرب) أن تعبر عنه بدقة ، أو تصوره تصويراً صحيحاً .

إنها لا تقدم إلا صورة مشوهة ، محدودة ، شاحبة لهذه النواحى الهامة ، ولا تستطيع أن تدرك غايتها أو تمس مستواها ، وتفهم روحها و أسلوبها ومناهجها المستقل الأصيل ، المتفرد ، المبتكر .

إن جوانب الحكم الاسلامى أعلى من أن نعبر عنها بهذه الاصطلاحات المكدودة المحدودة . فلنرجع إلى المآخذ الأولى و الشعائر الأولى . أو نضع عنها اصطلاحات إسلامية خاصة ليس لها صلة بالغرب ونفسيته، نقية من شوائبه وعلائقه، وأكداره .

محمد إقبال و اتجاهاته الدينية

الأستاذ محمد إسحاق عطا الندوى
الحائل (المملكة العربية السعودية)

محمد إقبال دقيق الادراك فى معتقداته ونظرياته العلمية وشعوره الدينى القيم وإنه لمن الصعب تحليل أفكاره السامية المجزأة فى روائع شعره إلا بعـد دراسة فلسفية فى نزعاته الدينية و رسالته الأصيلة .

تحدث النقاد و المفكرون عن فن إقبال و زواياه الفكرية التى ترضخ للاسلام و مبادئه السامية ، و أوجزوا بقولهم :

« إن إقبال لا يعتقد بأوهام ضالة مستنكرة بل اعتقاده بالاسلام عبـارة عن معرفة الوجود وعلم الكون وأنه غير مقتصر على المعرفة المجردة بل يدعو إلى العمل .

التكوين من المعرفة والعمل يشكل نظاماً خاصاً للسلمين فى حياتهم الذاتية واتجاهاتهم الفكرية ، و الوصول إلى الحقائق الثابتة هى الغاية المنشودة للمؤمن .

الفرد سواء كان عالماً أو جاهلا مجبر على أن يتبع نواميس الطبيعة فى حياته . أما العالم فيمتاز عن الجاهل فى معرفة الطبيعة ، و الجاهل يجهل معرفتهـا تماماً و أنهما متساويان فى تنفيذ التقديرات الكونية عليهما فى الطاعة والخضوع إليها والذى يكشف هذا الغموض للانسان عن معرفة الطاعة و الخضوع هو الشريعة الاسلامية .

دلالات فى شعره

١ــ النبات والجماد يخضع للقضاء والقدر ، والمؤمن لا يطأطئ رأسه إلا أمام ربه .

٢- الكافر يعتمد على سيفه ، و المؤمن يحارب بعزيمته و قوة إيمانه .

مسألة الجبر و الاختيار :

الفرد يسمى نفسه مجبراً و هذا الجبر « Determinism » معناه تنازل الفرد عن حقوقه لقوانين الطبيعة أى الجبر المقيد وجوده بالفطرة ، يتبع لحكم ذاتى بمشيئة الله ، إقبال يوسع الرأى بتحكيم الدين فى موضوع الجبر بقوله :

إن الاسلام يمنح الحرية للفرد و المجتمع . و الشريعة الاسلامية توسس حرية الانسان على أسس ثلاثة و هى :

١- الايمان « Faith » .

٢- التدبر و الفكرة السائدة « Thought » .

٣- الاكتشاف و المعرفة « Discovery » .

الفرد يجتاز كل مرحلة منها حسب مقدرته وإرادته و يتقمص الايمان بالطاعة ، و الرضى بأحكامه و مبادئه ، و هذه الطاعة و الانقياد لا تمنع الفرد عن السير فى جادة ارتقائه الذاتى .

شعره : أيها الرجل المتكاسل لك فى الطاعة شرف
لأن الجبر نفسه يخلق الاختيار

علمنا بشعره بأن الجبر و الاتكال عليه لا ينجز من الشئ إلا السير على ما خلق الله بدون أى تفكير فيه ، أما الابداع والكشف لأسرار الكون قوة ذاتية تنبثق من الجبر كما يتفجر من الحجر أنهار متدفقة تروى القلوب بزيادة الايمان .

شعره : الفرد يثبت وجوده من طاعته و من العصيان يفنى ، النار المشبوبة إذا طغت على نفسها صارت رماداً .

شعره : من أراد استقامة عزمه على تسخير النجوم و القمر فلا يغفل عن دراسة قانون الطبيعة .

الوقوف بدون تقدم ، رأيه فى ذلك :

التمسك بشعار زمنى وحده لا يأتى بثمرة مفيدة إذا جرد من الحركة و التقدم و الارتقاء .

و الفرد إذا تشدد بتفكيره و تصلب بمنهج مذهبه و طريقة حياته فى النظم و القوانين قد سد الطريق فى وجه التقدم .

إن دين آدم عليه السلام وصل إلينا بتطورات الزمن و بتغير أحوال الأمم ، إذا تصورنا أن دين آدم عليه السلام لم يكن صالحاً لقبول تطور الزمن و السير مع الحياة الاجتماعية لما كان دينه ديناً عالمياً .

« يمحو الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب — » .

وفى تعاقب الليل النهار و نزول كتاب بعد كتاب وشريعة بعد شريعة لأكبر دليل على أن التغير لا ينحصر فى الحياة الفكرية و العقلية للانسان فحسب بل إن التغير يحدث فى ارتقاء دينى فى جوانبه الكونية من أسلوب و دراية و منهج اجتماعى أيضاً ، و هذا التحول متدرع بتحول النشأة الأممية حسب أحوالها الزمنية و ظروفها الاجتماعية .

« ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » .

كانت حكمة الله مرتسمة فى شرائع و مناهج قبل إتمام دينه بالرسالة المحمدية ، واستمرت سنة الله فى النسخ والاثبات إلى أن أرسل محمداً عليه الصلاة و السلام و أنزل عليه القرآن الحكيم و أتم نعمته بالشريعة الاسلامية و أكمل دنه بنسخ سائر الأديان السماوية .

نحن على يقين و برهان بأن الاسلام آخر رسالة إلهية للبشرية و أنه صورة صادقة للمجتمع الانسانى فى تحسين علاقة الفرد بالفرد و المجتمع بالمجتمع و صلاته

الكونية بالشعوب و الأمم ، فالاسلام ثابت فى ذاته و جامع فى صفاته ، إذا كان هذا الاعتقاد صحيحاً .

فما الدور الذى يلعبه الاسلام فى المجتمع البشرى فى هذا العصر ؟ ! !

القرآن إتمام النعمة على البشرية ، هل هـــذه النعمة مستقرة غير متحركة ؟ ! مزخرفة فى الصورة اللفظية لا تقبل التنويع المعنوى السليم فى السير مع الضمائر والأفكار السائرة فى التقدم و النمو ؟ .

هل التفكير الانسانى فى مركب السباق و الاسلام متفرج عليه ؟ .

هل القرآن الكريم كامل و متجمد ؟ .

المؤمن لا يعتقد بالقرآن و لا بالاسلام بهذا الشكل ؟ .

القرآن منزل من الله على سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام و مخاطب لكل مؤمن مدبر فى شرح آياته الكونية و الاجتماعية و الأخلاقية و هو خلاف لتكوين الحياة المعاصرة فى زواياها المتعددة الجوانب من تفكير علمى و حضارى و فنى .

الاسلام ليس قصراً مشيداً بجدرانه العالية وحده حتى نتمنى له الشباك لكى يدخل منه الهواء النقى من جهـــة المغرب ، بل الاسلام مواد صالحة لبناء كل صرح فكرى و منهجى فى كل عصر .

الدين الاسلامى له ركنان أساسيان : الركن الأول فى قواعده ثابت و محكم و قوى فى بناء كيان المجتمع البشرى .

و الركن الثـانى متحرك و مواصل فى العمل قابل للتغير فى شكله و مظهره لا فى جوهره .

١ــ الركن الأول هو التوحيد الذى يمثل بالوحـدة فى الحيـاة العقائدية للمسلمين من صلاة و زكوة و حج و غيرها .

٢- الركن الثانى هو الاجتهاد الذى يفتح له مجال التفكير والتجديد فى الآراء، الاسلام له الاعتناء البالغ الأهمية بالتوحيد و الاجتهاد.

شرع الله الأصول لتنظيم الحياة التى تحدد بها المواقف والمسئولية للفرد والمجتمع ونحن نقوم بتطبيقها فى توحيد النظريات السليمة لفائدة الجماعة الاسلامية، والمقصود من التوحيد توحيد الفكر والعمل و تركيزه فى خير البشرية، إذا سبرنا الغور فى مفاهيم التوحيد و درسنا جوانبه المستلزمة للاتحاد و السلام العالمى لقضينا على تشتيت الأعمال و تنافر الكلمات البغيضة المتسببة للخلافات بين الجنس و الدم و اللون.

من تعمق فى دراسة الفكر الاسلامى وقارن بين قراءاته و مقتضيات عصره ظهر له تطابق كلى بين الدين و متطلبات الكون، و جعلت المقارنة منه رجلا مثالياً يستحق التقدير و النيابة الالهية و يحق له أن يكون خليفة الله فى الأرض.

شعره: يسر المؤمن بنيابة الحق (سبحانه تعالى) و له الغبطة فى البقاء فى العالم و يسر أن يكون مقتدراً على تحكم فى عناصر الكون.

شعره: بنيابته عرفنا أنه جوهر العالم و بهذه النيابة صار ظل الاسم الأعظم.

شعره: كان عالماً بأسرار المعرفة بأسرها
فأصبح قائماً بأمر الله فى الأرض

منهجه الفكرى:

إقبال يشيد بناء تفكيره السليم على الحركة الذاتية و الارتقاء.

الحياة عنده مثل نهر جار نقى فى صفائه متدفق فى شبابه، و شبابه لا يضمحل ولا يطرأ عليه الضعف ولا هرم الشيخوخة، إقبال لا يقبل فى حياته الانقطاع عن العمل الفكرى المثمر و الفصل عن نموه الذاتى و لا يرضى بالتأخر عن ركب الحياة الاجتماعية، إقبال يقول فى تفكيره بالاسلام:

إنه لا يقف فى مكان ما و فى زمان ما وقفة حيرة أمام التطور و السمو الفكرى والأسلوب المنهجى لأمة من الأمم بل يساير التقدم إذا وجد فيه خيراً للأمة الاسلامية ، إنه يكاتف و يبارك فيما أوتى بثمرة مفيدة للانسانية .

الركب الحضارى و الانتاج من العقول البارعة و السبق إلى معرفة التقديرات الكونية والاستفادة من جلائل الأعمال للمخترعين والمشاركة فى التنظيم الثقافى والمساهمة فى بذل الجهود و كشف الستار عن المكنونات الجوهرية فى طبقات الأرض وفى أجواء السماء لأكبر اجتهاد فى فروع أحكام الدين .

أثبت الاسلام قدميه فى مضمار الحياة و احتفظ بالاستقرار التشريعى والقضائى فى الأمة ، الشريعة الاسلامية لها نظم ثابتة غير متجمدة ، متحركة غير متصلبة ، صامدة غير متحجرة ، فهى تتطور حسب الزمان و المكان كأنها دوحة كريمة ذات أغصان متدلية يستريح تحت ظلالها حفظـــة العقول و هى تترنح من الطيور المغردة الشادية بأنغام عقلية و فنية و أغصانها المتجعدة تمايل عند ما يرقص نسيم العطف و الحنـان على صدر الكون .

فى الوقت الذى كان الرسول ﷺ طريح الفراش و بعض الصحابة يتباحثون فى تعيين خليفة للنبى ﷺ فما أعجب عمر بهذا الوضع من طرف الصحابة و النبى بين ظهرانيهم ، وخاطبهم عمر رضى الله عنه بقوله : « حسبنا كتاب الله » إقبال جد متأثر من قول عمر الذى أعطى حرية كاملة لعلماء ومفكرى الاسلام فى التعبير عن ما وصلوا إليه من استشهـاد أو فهم من القرآن الكريم

أراد سيدنا عمر رضى الله عنه من قوله القيم أن أصول الدين العامة والأحكام التشريعية للطبيعة تصلح بتسايرها مع تقدم الفكر الانسانى و تفتح له المجـــال الواسع للبحث و النقد فى الحكم و السلوك مما لا يقتصر فى المحل الفردى بل يمتد إلى جميع أجناس البشر .

كعب بن زهير بن أبي سلمى

— ١ —

سعيد الأعظمي

يتجمل تاريخ الأدب المخضرم بذكر كعب بن زهير وشعره الخصب ، وهو من أسرة لها فى الشعر العربى القديم مكانة عالية، وأصالة عرق قلما تتفق للشعراء وأصحاب القريض ، فقد كان أبوه زهير أشعر الشعراء و من فحول الجاهلية ، وهو من أصحاب المعلقات الذين يتفق النقاد علـى علو كعبهم فى الشعر العربى ، و كان زهير راوية أوس بن حجر ، و يروى عن عمر بن الخطاب أنه قال أنشدونى لأشعر شعرائكم ، قيل و من هو ؟ قال : زهير ، قيل و بم صار كذلك ؟ قال كان لا يعاظل (١) بين القول ولا يتبع وحشى الكلام ، ولا يمدح الرجل إلا بما هو فيه ، وهو القائل:

إذا ابتدرت قيس بن عيلان غاية ... من المجد من يسبق إليها يسود
سبقت إليها كل طلق مبرز ... سبوق إلى الغايات غير مخلد (٢)

وفى رواية أخرى : قال عمر لابن عباس: أنشدنى لشاعر الشعراء الذى لم يعاظل بين القوافى ، و لم يتبع وحشى الكلام ، قال : و من هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : زهير ، فلم يزل ينشده إلى أن برق الصبح (٣) .

(١) عاظل الكلام عقده و والى بعضه فوق بعض و كرره ، و عاظل الشاعر فى القافية : ضمن .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى ص/٥١ .

(٣) أيضاً ص/٥٤ ، طبع دار الكتب العلمية بيروت .

قال عبد الملك (بن مروان) لقوم من الشعراء : أى بيت أمدح فاتفقوا على بيت زهير :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله (١)

لقد فاق كعب بن زهير على أبيه الشاعر فى غزارته مادته و بديهة كلامه ، يدل على ذلك ما قد رواه أبو الفرج الاصفهانى من قصته مع أبيه فى قرض الشعر ، قال : أخبرنى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى و حبيب بن نصر المهلبى قالا : حدثنا عمر بن شيبة قال حدثنا علي بن الصباح عن هشام عن إسحاق بن الجصاص قال : قال زهير بيتاً ونصفاً ثم أكدى ، فمر به النابغة (الذبيانى) فقال له : أبا أمامة ، أجز ، فقال : و ما قلت ؟ قال : قلت :

تزيد الأرض إما مت خفاً و تحيا إن حييت بها ثقيلا

نزلت بمستقر العرض منها

أجز ، قال فأكدى و الله النابغة ، و أقبل كعب بن زهير ، و إنه لغلام فقال أبوه : أجز يابنى ، فقال : و ما أجيز ؟ فأنشده ، فأجاز النصف بيت فقال :

و تمنع جانبيها أن يزولا ،

فضمه زهير إليه ، و قال : أشهد أنك ابنى (٢)

و قال ابن الأعرابى : قال حماد الراوية : تحرك كعب بن زهير و هو يتكلم بالشعر فكان زهير ينهاه مخافة أن يكون لم يستحكم شعره فيروى له ما لا خير فيه ، فكان يضربه فى ذلك ، فكلما ضربه يزيد فيه فغلبه . فطال عليه ذلك فأخذه فحبسه . فقال و الذى أحلف به لا تتكلم ببيت شعر إلا ضربتك ضرباً ينكلك عن ذلك ،

(١) نفس المصدر ص/٥١ .

(٢) كتاب الأغانى ، ج ١٥/ ص ١٤١ طبع مصر القديم .

فمكث محبوساً عدة أيام ، ثم أخبر أنه يتكلم به ، فدعاه فضربه ضرباً شديداً ثم أطلقه وسرحه فى بهمة وهو غليم صغير ، فانطلق فرعى ثم راح عشية وهو يرتجز :

كأنما أحدو ببهمى عيراً　　من القرى موقرة شعيراً

فخرج إليه زهير و هو غضبان ، فدعا بناقته فكفلها بكسائه ثم قعد عليها حتى انتهى إلى ابنه كعب فأخذه بيده فأردفه خلفه ثم خرج فضرب ناقته ، و هو يريد أن يبعث ابنه كعباً ، و يعلم ما عنده من الشعر ، فقال زهير حين برز إلى الحى :

إنى لتعدينى على الحى جسرة　　تخب بوصال صروم و تعنق

ثم ضرب كعباً و قال له : أجز يالكع ، فقال كعب :

كبنيانة القرى موضع رحلها　　و آثار نسعيها من الدف أبلق

فقال زهير :

على لاحب مثل المجرة خلته　　إذا ما علا نشزاً من الأرض مهرق

أجز يالكع ، فقال كعب :

منير هداة ليله كنهاره　　جميع إذا يعلو الحزونة أفرق

قال فتبدى زهير فى نعت النعام و ترك الابل يتعسفه عمداً ليعلم ما عنده . و قال :

و ظل بوعساء الكثيب كأنه　　خباء على « صقبى بوان » مروق

« صقبى بوان » عمود من أعمدة البيت ، فقال كعب :

تراخى به حب الضحاء و قد رأى　　سماوة قشراء الوظيفين عوهق

فقال زهير :

تحن إلى مثل الحبابير جثم　　لدى منتج من قيضها المتفلق

الحبابير جمع حبارى ، و تجمع أيضاً حباريات ، فقال كعب :

تحطم عنها قيضها عن خراطم و عن حدق كالنبخ لم يتفتق

الخراطم هنا : المناقير ، و النبخ : الجدرى ، شبه أعين ولد النعامة به ، قال فأخذ زهير بيد ابنه كعب ثم قال له : قد أذنت لك فى الشعر يا بنى . فلما نزل كعب وانتهى إلى أهله وهو صغير يومئذ قال :

أبيت فلا أهجو الصديق و من يبع بعرض أبيه فى المعاشر ينفق

قال : و هى أول قصيدة قالها (١) » .

و قد مال بعض الأدباء و النقاد إلى أن كعب بن زهير أشعر من أبيه ، وقد سئل خلف الأحمر ، زهير أشعر أم ابنه كعب ؟ قال : لولا أبيات لزهير (٢) أكبرها الناس لقلت : إن كعباً أشعر منه (٣) .

كان كعب بن زهير من أسرة لها اتصال قوى بالشعر ، فقد كان أبوه من فحول الجاهلية و فى الطبقة الأولى منها ، و جده أبو سلمى كان شاعراً مجيداً ، وهو الذى قال فى خاله أسعد المرى و ابنه كعب بن أسعد ، و كان حمل أمه و فارقهما :

لتصرفن ابل محبيه من عند أسعد و ابنه كعب
الآكلين صريح قومهما أكل الحبارى برعم الرطب

يقول ابن قتيبة : يقال إنه لم يتصل الشعر فى ولد أحد من الفحول فى الجاهلية ما اتصل فى ولد زهير، وفى الاسلام ما اتصل فى ولد جرير (٤) ، فقد سجل تاريخ

(١) كتاب الأغانى للأصفهانى ج ١٥/ص ١٤١- ١٤٢ .

(٢) قصيدة يمدح فيها هرم بن سنان المرى ، و مطلعها :

لمن الديار بقنة الحجر أقوين من حجج و من دهر ،

(٣) الشعر و الشعراء لابن قتيبة ، ترجمة زهير بن أبى سلمى ص ٥١—٥٢ .

(٤) الشعر و الشعراء لابن قتيبة ، ص ٥١ .

الشعر العربي أن أباه ربيعة بن رياح المعروف بأبي سلمى كان شاعراً ، وخاله أسعد المرى كان شاعراً ، و أختيه سلمى و الخنساء كانتا شاعرتين ، و ابنيه كعباً و بجيراً كانا شاعرين ، و ابن ابنه عقبة بن كعب ، ولقبه المضرب كان شاعراً ، و حفيد ابنه العوام بن عقبة بن كعب بن زهير كان شاعراً .

« قال أبو عمر رحمة الله عليه : كان كعب بن زهير شاعراً مجوداً ، كثير الشعر ، مقدماً فى طبقته هو أخوه بجير ، و كعب أشعرهما » (١) .

و قد روى الأصفهانى فى الأغانى قال : أخبرنا أبو خليفة عن محمد بن سلام . وأخبرنى محمد بن الحسن بن دريد عن أبي حاتم عن أبي عبيده قالا : أتى الحطيئة (٢) كعب بن زهير ، و الحطيئة راوية زهير و آل زهير ، فقال : يا كعب قد علمت روايتى لكم أهل البيت و انقطاعى إليكم ، وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك . و تضعنى موضعاً بعدك ، و قال أبو عبيدة فى خبره : تبدأ بنفسك فيه وتثنى بى ، فان الناس لأشعاركم أروى ، وإليها أسرع ، فقال كعب :

فمن للقوافى شأنها من يحوكها ... إذا ما ثوى كعب وفوز (٣) جرول
يقول فلا تعيا بشئ تقوله ... و من قائليها من يسئ و يعجل
كفيتك لا تلقى من الناس واحداً ... تنخل منها مثل ما يتنخل ،
يثقفها حتى تلين متونها ... فيقصر عنها كل ما يتمثل (٤)

و قد كان لكعب سبق إلى المعانى الشعرية تحدث فيها عن شئ فقلده الشعراء فى ذلك ، ومما سبق إليه كعب بن زهير فأخذه الشعراء منه كذى الرمة ، والطرماح

---

١) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، لابن عبد البر ، القسم الثالث ص ١٣١٥ .
٢) اسمه جرول بن أوس . (٣) فوز بمعنى مات .
٤) الأغانى ج ١٥/ص ١٤٠ — ١٤١ .

ابن الحكيم ، و هو شعره الذى يذكر فيه ذئباً و غراباً :

فلم يجدا إلا مناخ مطية ... تجافى بها زور نبيل و كلكل
و مضربها وسط الحصى بجرانها ... و مثنى نواج لم يخنهن مفصل
و موضع طولى و أحناء قاتر ... يئط إذا ما شد بالنسع من عل
و أتلع يلوى بالجديل كأنه ... عسيب سقاه من سميحة جدول
و سمر ظباء واترتهن بعد ما ... مضت هجمة من آخر الليل ذبل
سفى فوقهن الترب ضاف كأنه ... على العرج والحاذين قنو مذلل ،
ومضطمر من خاشع الطرف خائف ... لما تضع الأرض القواء وتحمل (١)

و مما يستجاد لكعب بن زهير قوله يذكر رجلا قتل من مزينة رهطه ، يقول :

لقد ولى أليته جوى ... معاشر غير مطلول أخوها
فان تهلك جوى فكل نفس ... سيجلبها لذلك جالبوها
و إن تهلك جوى فان حولى ... كظنك كان بعدك موقدوها
و ما ساءت ظنونك يوم تولى ... بأرماح وفى لك مشرعوها
كأنك كنت تعلم يوم بزت ... ثيابك ، ما سياتى سالبوها
فما قلنا لهم نفس بنفس ... أقيدونا بها إن لم تدوها
و لكنا دفعناها ظماء ... فرواها بذكرك منهلوها
و لو بلغ القتيل فعال حى ... لسرك من سيوفك منتضوها (٢)

و من قوله :

(١) الشعر و الشعراء لابن قتيبة ص ٥٥ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٧ — ٥٨ .

لو كنت أعجب من شئ لأعجبنى ... سعى الفتى و هو مخبوء له القدر

يسعى الفتى لأمور ليس يدركها ... و النفس واحدة و الهم منتشر

و المرء ما عاش ممدود له أمل ... لا تنتهى العين حتى ينتهى الأثر (١)

و مما يستجاد له كذلك قوله :

إن كنت لا ترهب ذمى لما ... تعرف من صفحى عن الجاهل

فاخش سكوتى إذ أنا منصت ... فيك لمسموع خنى القائل

فالسامع الذام شريك له ... و مطعم المأكول كالآكل

مقالة السوء إلى أهلها ... أسرع من منحدر سائل

و من دعا الناس إلى ذمة ... ذموه بالحق و الباطل (٢)

و من جيد شعره قصيدته التى يفتخر فيها على مراد ، أولها :

أتعرف وشماً بين دهمان (٣) فالرقم ... إلى ذى مراهيط ، كما خط بالقلم

عفته رياح الصيف بعدى بمورها ... وأندية الجوزاء (٤) بالوبل و الديم

ديار التى بتت حبال و صرمت ... وكنت إذا ما الحبل من خلقه صرم

فزعت إلى أدماء حرف كأنما ... بأقرابها قار إذا جلدها استحم

ألا أبلغا هذا المعرض أنه ... أيقظان قال القول إذ قال أو حلم

فإن تسألى الأقوام عنى فإننى ... أنا ابن أبى سلمى على رغم من رغم

(١) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ، القسم ٣ ص/١٣١٥ .

(٢) نفس المصدر ص/١٣١٥ .

(٣) و فى رواية رهمان بفتح الراء ، و هو واد فى ديار عبد الله بن غطفان ، و يروى زهمان بالزاى .

(٤) أندية الجوزاء : يريد بها أمطاراً .

أنا ابن الذى قد عاش تسعين حجة ... فلم يخز يوماً فى معد و لم يلم
و أكرمه الأكفاء من كل معشر ... كرام ، فان كذبتنى فاسأل الأقم
أقول شبيهات بما قال عالماً ... بهن ، و من يشبه أباه فما ظلم
فأشبهته من بين من وطئ الحصى ... ولم ينتزعنى شبه خال و لا ابن عم
إذا شئت أعلكت الجوع إذا بدت ... نواجذ لحييه بأغلظ ما عجم
أعيرتنى عزاً قديماً و سادة ... كراماً بنوا لى المجد فى باذخ الشمم
هم الأصل منى حيث كنت و إننى ... من المزنيين المضيفين للكرم
هم ضربوكم حين جزتم عن الهدى ... بأسيافهم حتى استقمتم على أمم (١)
و ساقتك منهم عصبة خندفية ... فما لك منها قيد شبر و لا قدم
هم الأسد عند الناس والحشد فى القرى ... وهم عند عقد الجار يوفون بالذمم
هم منعوا سهل الحجاز و حزنه ... قديماً و هم أجلو أباك عن الحرم
متى أدع فى أوس و عثمان تأتنى ... مساعر حرب كلهم سادة و عم
فكم فيهم من سيد و ابن سيد ... و من عامل للخير إن قال أو زعم

و تأخر اسلام كعب بن زهير عن أخيه بجير بن زهير الذى أتى النبى ﷺ بعد ما بعث ، فأسلم ثم رجع إلى بلاد قومه ، ولما هاجر النبى ﷺ أتاه بالمدينة ، و شهد مع الرسول ﷺ غزوة حنين و غزوة الطائف و يوم خيبر ، و شهد فتح مكة ، و قال فى ذلك :

صبحناهم بألف من سليم ... و ألف من بنى عثمان واف
فرحنا و الجياد تجول فيهم ... بأرماح مثقفة خفاف

(١) جزتم بمعنى تجاوزتم ، أمم : محركة ، القرب ، اليسير ، البين من الأمر .

وفى أكتافهم طعن وضرب ... ورشق بالمريشة اللطاف

هذا ما رواه الأصفهانى فى الأغانى، وتحدث ابن هشام فى السيرة فقال:

« فلما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف بعد القتال والحصار، قال بجير بن أبى سلمى يذكر حنيناً والطائف »:

كانت علالة يوم بطن حنين ... وغداة أوطاس ويوم الأبرق (١)

جمعت باغواء هوازن جمعها ... فتبددوا كالطائر المتمزق

لم يمنعوا منا مقاماً واحداً ... إلا جدارهم وبطن الخندق

ولقد تعرضنا لكيما يخرجوا ... فتحصنوا منا بباب مغلق

ترتد حسرانا إلى رجراجة ... شهباء تلمع بالمنايا فيلق (٢)

ململمة خضراء لو قذفوا بها ... حضناً لظل كأنه لم يخلق (٣)

مشى الضراء على الهراس كأننا ... قدر تفرق فى القياد وتلتق (٤)

فى كل سابغة إذا ما استحصنت ... كالنهى هبت ريحه المترقرق (٥)

(١) أراد من قوله (علالة) تكرار القتال، ومعناها فى الأصل: الشرب بعد الشرب، أوطاس: اسم واد فى ديار بنى هوازن: كانت فيه وقعة حنين.

(٢) حسرى جمع حسير بمعنى الكليل، أو يكون جمع حاسر، وهو الذى لادرع عليه، الرجراجة: الكتيبة الضخمة.

(٣) ململمة: مجتمعة، يريد بها الجيش، حضن: اسم جبل بأعلى نجد.

(٤) ضراء: جمع ضارى، المراد بها الوحوش الضوارى، من الكلاب والأسود، الهراس: اسم نبات له أشواك.

(٥) النهى: الغدير من الماء.

جدل تمس فضولهن نعالنا من نسج داؤد وآل محرق (١) (٢)

ذلك لأن زهير بن أبي سلمى كان قد أوصى بنيه باللحوق بنبي آخر الزمان الذي سيظهر بعد موته ، و أمرهم بالايمان به ، كما قد روى الأصفهاني في كتابه الأغاني من خبر زهير بن أبي سلمى فقال : « إن زهيراً كان نظاراً متوقياً ، و أنه رأى في منامه آتياً أتاه فحمله إلى السماء حتى كاد يمسها بيده ، ثم تركه فهوى إلى الأرض . فلما احتضر قص رؤياه على ولده وقال : إني لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدي شئ ، فان كان تمسكوا به و سارعوا إليه ، فلما بعث النبي ﷺ خرج إليه بجير بالمدينة و كان من خيار المسلمين ، و شهد يوم الفتح مع رسول الله ﷺ و يوم خيبر و يوم حنين (٣) .

و ذكر البغدادي في خزانة الأدب هذا الخبر فزاد فيه بعد قول زهير لبنيه : فان كان فتمسكوا به و سارعوا إليه (ثم توفى قبل المبعث بسنة) و قال (فلما بعث النبي ﷺ ، خرج إليه ولده كعب بقصيدته « بانت سعاد » وأسلم) (٤) .

و لكن هذه الرواية التي فيها اسم كعب بدلا من بجير تعارض ما قد رواه أصحاب التراجم و مؤرخو الأدب العربي قديماً و حديثاً ، فان كعب بن زهير أسلم في سنة ثمان من الهجرة بعد منصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف وقدم إليه قصيدته التي كان قد صنعها كمديحة للنبي ﷺ .

(١) جدل : جمع جدلاء و هي الدرع المحكمة النسج ، محرق : عمرو بن هند ملك الحيرة .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج ٣/ص ١٢٩ — ١٣٠ .

(٣) الأغاني ج ١٥/ص ١٤٣ .

(٤) خزانة الأدب للبغدادي ج ٢ / ٢٩٣ .

يشهد على ذلك ما جاء فى الاستيعاب لابن عبد البر يقول فى ترجمة كعب ابن زهير : « قدم كعب بن زهير على النبى ﷺ بعد انصرافه من الطائف ، فأنشده قصيدته التى أولها (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول) » .

و يؤيد ذلك ما رواه ابن هشام فى سيرته عن أمر كعب بن زهير فقال :

« لما قدم رسول الله ﷺ من منصرفه عن الطائف كتب بجير بن زهير بن أبى سلمى إلى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة . ممن كان يهجوه ويؤذيه وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب . قد هربوا فى كل وجه ، فان كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ ، فانه لا يقتل أحداً جاءه تائباً ، و إن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك (١) من الأرض و كان كعب بن زهير قد قال :

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا ؟ (٢)
فبين لنا إن كنت لست بفاعل ... على أى شئ غير ذلك دلكا (٣)
على خلق لم آلف يوماً أباً له ، ... عليه و ما تلفى عليه أبا لكا
فان أنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل إما عثرت : لعاً لكا (٤)
سقاك بها المأمون كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها و علكا (٥)

---

(١) إلى نجائك : أى إلى محل ينجيك منه .

(٢) أبلغا : خطاب لاثنين ، و المراد الواحد ، أو خطاب لواحد مؤكد بنون توكيد خفيفة قلبت ألفاً فى الوصل على نية الوقف .

(٣) فبين لنا : أى اذكر لنا مرادك من بقائك على دينك .

(٤) لعالك : كلمة تقال للعاثر وهى دعاء له بالاقالة من عثرته .

(٥) روية (فعيلة بمعنى مفعلة ، بضم الميم وكسر العين) أى مروية : والنهل :★

قال ابن هشام : ويروى « المأمور » وقوله « فبين لنا » : عن غير ابن اسحاق
و أنشدنى بعض أهل العلم بالشعر و حديثه :

من مبلغ عنى بجيراً رسالة ... فهل لك فيما قلت بالخيف هل لكا (١)
شربت مع المأمون كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها و علكا
و خالفت أسباب الهدى و اتبعته ... على أى شئ ويب غيرك دلكا (٢)
على خلق لم تلف أماً ولا أباً (٣) ... عليه و لم تدرك عليه أخاً لكا
فان أنت لم تفعل فلست بآسف ... و لا قائل إما عثرت : لعاً لكا

قال : و بعث بها إلى بجير، فلما أتت بجيراً كره أن يكتمها رسول الله ﷺ فأنشده إياها ، فقال رسول الله ﷺ لما سمع « سقاك بها المأمون » صدق و إنه لكذوب ، أنا المأمون، ولما سمع « على خلق تلف أماً ولا أباً عليه » قال : أجل ، لم يلف عليه أباه و لا أمه (٤) .

★ الشرب الأول ، و العلل : الشرب الثانى ، و المأمون : يعنى النبى ﷺ ، كانت قريش تسميه به و بالأمين قبل النبوة ، قال الزرقانى : « وفى رواية غير ابن اسحاق « المحمود » و هو من أسمائه ﷺ .

(١) الخنين : أسفل الجبل ، و يريد به خيف منى .
(٢) ويب غيرك . أى هلكت هلاك غيرك . وهو بالنصب على إضمار الفعل .
(٣) قال السهيلى : « إنما قال ذلك لأن أمها واحدة ، و هى كبشة بنت عمار السحمية ، فيما ذكر عن ابن كلبى » .
(٤) زاد الزرقانى نقلا عن ابن الأنبارى أن النبى ﷺ قال « من لقى منكم كعب ابن زهير فليقتله » .

ثم قال بجير لكعب :

من مبلغ كعباً فهل لك فى التى ... تلوم عليها باطلا و هى أحزم

إلى الله (لا العزى ولا اللات) وحده ... و تنجو إذا كان النجاء و تسلم

لدى يوم لا ينجو و ليس بمفلت ... من الناس إلا طاهر القلب مسلم

فدين زهير و هو لا شئ دينه ... و دين أبى سلمى على محرم

قال ابن اسحاق :

و إنما يقول كعب « المأمون » ويقال « المأمور » فى قول ابن هشام لقول قريش الذى كانت تقوله لرسول الله ﷺ .

قال ابن اسحاق :

فلما بلغ كعباً الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه و أرجف (١) به من كان فى حاضره (٢) من عدوه فقالوا : هو مقتول ، فلما لم يجد من شئ بدآ قال قصيدته التى يمدح فيها رسول الله ﷺ و ذكر فيها خوفه و إرجاف الوشاة به من عدوه ، ثم خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة كما ذكر لى ، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلى الصبح وصلى مع رسول الله ﷺ ثم أشار له إلى رسول الله ﷺ فقال : هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه فذكر لى أنه قام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه فوضع يده فى يده و كان رسول الله ﷺ لا يعرفه ، فقال يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال : رسول الله ﷺ نعم ، قال : أنا يا

(١) أرجف به : خاض فى أمره بما يسوءه و يفزعه .

(٢) حاضره : حيه .

رسول الله كعب بن زهير ، قال : ابن اسحاق فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة :

أنه وثب عليه رجل من الأنصار فقال يا رسول الله دعنى و عدو الله أضرب عنقه فقال : رسول الله ﷺ : دعه عنك فانه قد جاء تائباً نازعاً (عما كان عليه] قال : فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبه ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير فقال فى قصيدته التى قال حين قدم على رسول الله ﷺ :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول (١)

يتبع

(١) بانت : فارقت فراقاً بعيداً ، و سعاد : اسم امرأة ، و قيل (كما فى الزرقانى) : هى امرأته و بنت عمه ، خصها بالذكر لطول غيبته عنها ، لهروبه من النبى ﷺ ، و متبول : أسقمه الحب و أضناه ، و متيم : ذليل مستعبد ، و لم يفد : لم يخلص من الأسر ، و يروى : « لم يجز » ، و « لم يشف » ، و مكبول : مقيد .
يريد الشاعر أن محبوبته فارقته ، فصار قلبه فى غاية الضنى والسقم والذل و الأسر ، لا يجد من قيده فكاكاً ، و لا يستطيع من سجنه خلاصاً .

من الديوان المخطوط : « نجاوى محمدية » :

ضراعـــــــة المضطر

عمر بهاء الدين الأميرى

[أحداث منطقة الشرق الأوسط تتوالى ، و أصداء الفواجع الدامية ، واستغاثات المنكوبين و المعذبين تتردد فى آفاق العالم ..

الشاعر المشرق فى معتزله المغربى بالهرهورة قرب الرباط ، يتلقى أخباراً و رسائل تحكى له صوراً من بطولات المجاهدين و الفدائيين ، رغم الأهوال الطاحنة و المصائب الضروس .

وتطل خلال ذلك ذكرى ميلاد الرسول الأعظم ﷺ بما فيها من عطاء وإشراق...فيعيشها الشاعر بين الأمل والألم ، والايمان والأشجان ..ويزفر بهذه القصيدة الوجدانية الضارعة] .

لهفى على صدرى و ملء	زفيره ، غصص توائم
من غور قلبى ، و القلوب	موزعــات فى العوالم
شوك بحنجرتى ، صداع	كالرحى ، للرأس قاصم
يالأنى فى الهم ، قرح	مقلتى مقل سواجم (١)
أبصرتهـا بمشاعرى ، بالروح	تنزف فى مـآتم
تبكى و تشكو بثها	لله ، من كرب جوائم
أخذت بخانقة العبـاد	يسومها الطغيان غاشم
و أنا ... المكبل هاهنـا	و الوسع ضاق ، ولا مداعم
فى خافقى ، الغر الشبـاب	عليهم انقضت أراقم (٢)

(١) مرسلات الدمع .　　(٢) جمع أرقم و هو الأفعى .

و بمسمعى ، رغم المدى النائى ، استغاثات عظائم
قرعت بحتها السماء تلوذ من فتك مداهم
بالله ، تصرخ .. تستجير من الخنى (١) لحق الكرائم
من للحرائر يا غيور ، و للأباة ذوى الشكائم (٢)
يا رب أنت المرتجى ، ما منك حين تشاء عاصم
فى شهر مولد مصطفاك أبى المراحم و الملاحم
و قلوب كل المسلمين اطلعة الذكرى بواسم
المبتلون الصابرون و عزمهم فاق العزائم
يتضرعون .. و يجأرون (٣) فقد تفاقمت المظالم
شهر البغاة الكافرون على رقابهم صوارم (٤)
و المؤمنون على يقين أن يوم الفتح قادم
لكنهم يتضورون (٥) من العذاب ، من الجرائم
و زفيرهم بضراعة المضطر حشرج (٦) فى الحلاقم
يا رب ، مجيراهم (٧) يا رب ، يا رب العوالم
بلغ الزبى (٨) سيل المكائد و المآسى و المآثم
و لأنت ، يا رحمن بالضر الذى يشتد عالم
و لأنت جبار الجبابر ممطر الحمم القواصم
و لأنت كاشفها ، إذا ما قلت : « كن » كانت حواسم
عجل بما يختار فضلك أنت فى الأكوان حاكم

نظمت فى معتقل المرهورة قرب رباط الفتح فى المغرب

(١) الفحش . (٢) جمع شكيمة ، و هنا الأنفة و الانتصار من الظلم .
(٣) جأر : تضرع ورفع صوته بالدعاء . (٤) جمع صارم وهو السيف القاطع .
(٥) يتأوهون من وجع الضرب (٦) الحشرجة : الغرغرة عند الموت .
(٧) الكلمة التى من دأبهم ترديدها . (٨) جمع زبية وهى المرتفع الذى لا يبلغه السيل .

من باب « قرأت لك » :

عدالة الاســلام الاجتماعيـة

طلحة بن أبى سلمة الندوى

ملكية الفرد فى الاسلام ليست ملكية حقيقة إنما هى ملكية تصرف و انتفاع ضمن قيود و شروط معينة تعنى أن التملك وظيفة اجتماعية فقط تقيد حرية التصرف فيه بمصلحة المجتمع وفائدة الأمة، إن منفعة المال فى نظر الاسلام عائدة للشعب كله. فلا يتصرف فرد فى الثروة العامة و الخاصة بما يضر المجموع ، و يقول القرآن « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً » — « و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » — « و لا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً » ، فانه يجب على صاحب المال أن يتصرف فيه بما يتفق و روح الشريعة الاسلامية ، و على غيره أن لا يتدخل فى وظيفة صاحب المال مالم يخالف الدستور و يتصرف بما يعود ضرره إلى الأمة و الحكومة .

قد وضع الاسلام على هذه النظرة الواسعة خمسة مبادىء مهمة متكافلة تتكفل صيانة الثروات و تأمين العدالة الاجتماعية بين مختلف الطبقات فى الناس .

١— العمل حق واجب على كل مستطيع .

٢— المنع لتسرب الثروات فى أيدى أفراد قليلين .

٣— الحجر على الذين يسيئون التصرف فى الثروات .

٤— إخراج جزء من الأموال الخاصة لاقامة العدالة الاجتماعية فى المجتمع .

٥— حق الدولة فى أخذ ما تحتاج إليه من أموال فى داخل الدولة وخارجها .

أما المبدأ الأول فما دامت خيرات الأرض ملكا للناس جميعــاً فليسع وراءها

كل قادر على السعى و لا يصح لأى فرد أن يكون عالة على المجتمع يتكفف الناس و يسألهم ، و هو قادر على العمل و واجد له . ولا يكتفى الاسلام بايجاد العمل فقط بل يعلن تقديسه و احترامه له .

يقول رسول الاسلام « إن أفضل الكسب كسب الرجل من يده ، إن الله يحب العبد المحترف و يكره العبد البطال » و يسير الاسلام بالعمل إلى أن يجعله جهاداً فى سبيل صيانة النفس و الأسرة ، لا يقل فضله عن الجهاد بالسيف ذوداً عن سيادة الأمة .

مر رجل جلد قوى على رسول الله ﷺ و هو مع عدد من الصحابة فقال أحدهم مشيراً إليه ويح هذا لو كان جلده و قوته فى سبيل الله ، فقال عليه السلام : « إن كان خرج ليسعى على أولاد صغار فهو فى سبيل الله و إن كان على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله الخ » وهكذا يدفع الاسلام الناس جميعاً إلى العمل ولا يسوغ أن يرى فئة من أبنائه كسالى يتساقطون على فتات الموائد و يستجدون صدقات الأغنياء بل لايجيز أن ينقطع إنسان حتى فى سبيل العبادة فى المساجد وغيرها جهلا بأن العمل فى الجهة المذكورة أفضل العبادات ، وهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى أناساً فى المسجد يقيمون فيه فيسأل عن حالهم فيقولون « انقطعنا للعبادة » فيقول لهم « من أين تأكلون » قالوا : « نتوكل على الله » .فضربهم عمر بالدرة فأخرجهم من المسجد و قال لهم « اذهبوا و اسعوا فى طلب الرزق ، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ، و لا فضة »

أما المبدأ الثانى فقد أعلنه الاسلام بصراحة حين تحدث عن اشتراك فقراء المهاجرين فى أموال الأغنياء بقوله : «كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » تحقيقاً لهذا المبدأ جاء الاسلام بنظام الارث ليقضى على الثروات الضخمة فيقسمها إلى ملكيات

صغيرة أو متوسطة و من أجل هذا منع الاسلام كل ما يؤدى إلى الثراء الفاحش و التفاوت العظيم بين أفراد الشعب فى الثروة و الغنى ، فهو يمنع الربا و القمار والغش والغصب والسرقة كما يمنع الاحتكار بمختلف أنواعه ، احتكار القوت واحتكار السلع و احتكار الصناعات ، لأن ذلك كله يؤدى إلى نشوء ثروات واسعة فى أيدى قلة من أبناء الشعب فلا تبقى الملكية وظيفة اجتماعية يراد بها خير الشعب و مصلحته و ليس أدعى إلى الشقاء و لا أبعث للعداء و لا أسرع فى إشعال نار الفتنة بين الشعوب من أن يتجمع المال فى أيدى فئة قليلة ، و يحرم منه جمهور من الناس ، و قد أعلن الاسلام منذ نشأته أن الحياة لا تستقيم فى المجتمع الانسانى حين يكون لبعض أفراده قصور شامخة و دور واسعة ، و بجانبهم و فى محيطهم عشرات و مئات يتسكعون فى الطرقات لا يجدون السكنى ولا المأوى ، فكيف يصلح أمر أمة بعد الذين يملكون عشرات القرى ولايحصى عدد الذين لا يملكون ذراعاً من أرض ولاحجرة من بيت ، من هنا فليحمل الرأسمالية المعروفة اليوم والديمقراطية المزعومة والديكتاتورية المشئومة أوزارها

و أما المبدأ الثالث فهو الحجر على الذين يسيئون التصرف فى الثروات فهناك صبيان لا يحسنون التصرف فى الأموال و هناك مجانين و معتوهون ممن لا يؤمن عليهم أن يغبنوا فى المعاملات ، و هناك مبذرون و مسرفون ينفقون الأموال الطائلة فى أمور غير مهمة ، فان مثل هؤلآء يجب أن تمنعهم الحكومة من التصرف فى ثرواتهم موافقاً لمادة دستور الاسلام « و لا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً » و فى رأى كثير من فقهاء الاسلام و القانونيين أن المبذرين فى الحلال والمتوسعين فى الانفاق على أنفسهم بما يخرج على الاعتدال يجب الحجر عليهم أيضاً.

والحجر على هؤلاء ليس إلا ناشئاً عن حق الدولة فى الاشراف على التصرف

فى الثروات الخاصة وفق مصلحة الشعب لأن الثروة حق الخاصة. منها منفعة مشتركة بين الناس جميعاً و الحكومة وكيلة عنهم.

و المبدأ الرابع هو إخراج جزء من الأموال الخاصة لاقامة العدالة الاجتماعية فى المجتمع، فهذا المال الذى حصل عليه الرجل بجهده وعمله ولم يسالك فى جمعه طريقاً شائناً و لا استأثر به دون الناس و لا أسرف فى إنفاقه على ملذاته ومنافعه و بقيت منه بقية إلى نهاية العام، يجب إخراج جزء منه ليصرف فى رفع مستوى معيشة الشعب وفقاً لمصالح العامة و توفير العيش و الطمأنينة للبائسين و المحتاجين. و هذا مايسميه الاسلام بالزكاة التى يعتبرها ركناً ثالثاً من أركانه و يكل للدستور أمر إخراجها من الأموال إلى من هى بيده، فاذا امتنع عن أدائها أخذتها الحكومة منه قهراً و جاز لها أن تعلن الحرب على أهل بلدة أو جماعة أو جمعية امتنعوا عن تنفيذ هذه المادة الدستورية و حاولوا التخلص من هذا التكليف.

فأما المبدأ الخامس فهو حق الحكومة فى أخذ ما تحتاج إليه من أموال الناس لصيانة السلامة العامة فاذا حل بالبلاد عدو أو وباء و ليس فى خزينة الحكومة ما يكفى لتجهيز الجيوش و تأمين الثغور و دفع عاديات النكبات كان لها أن تأخذ من الثروات الخاصة، من كل على قدر ثروته حتى تندفع الحاجة ويزول الخطر.

هذه المبادىء الخمسة التى يعلنها دستور الاسلام بقوة و وضوح هى نتيجة لرأيه فى وظيفة المال الاجتماعية و وجوب استعماله فى مصلحة الشعب ضمن حدود المصلحة العامة، وهى مبادىء طبقت فى حياة رسول الله ﷺ و بعده فوفرت للمسلمين حياة ملؤها الكرامة و ألفت بين قلوب الأغنياء و الفقراء و عملت على تأمين العيش الكريم لكل مواطن بما يتناسب مع كرامة الانسانية التى أعلنها القرآن بقوله « ولقد كرمنا بنى آدم ».

و نقف الآن وقفة يسيرة فى مفترق الطرق لنبحث عن أثر هذه المبادىء فى الأمة الاسلامية و فى الحكومات الاسلامية اليوم فنراها فى غفلة ظاهرة عنها بل إن بعض الناس ينكر أو يشك أن يكون فى دستور الاسلام علاج ناجع لهـــذه الحالة السيئة ، أمة تعانى من الظلم الاجتماعى ما تأباه المروءات والديانات ، وتتفاوت الثروات فيما بينها تفاوتاً بيناً فى كثير من الأحيان ، و تذهب يميناً و شمالا لتبحث عن العلاج الناجع لهـذه الحالة المؤلمة المحزنة المؤدية إلى خطورة سيئة العواقب .

إن دستور الاسلام يعلن وينادى بهذه المبادىء الكفيلة باصلاح الفساد وتأمين العدالة ، إنه كون للعالم حكومة قائمة على هذه المبادىء وعالج جميع مرافق الحياة البشرية قروناً و أحقاباً و شهد بها التاريخ و سجلها بمداد من نور ، و هل يجوز تحت هذه المبادىء أن يستمر بعض ذوى الثروات الطائلة فى تبديد ثرواتها على الملذات و فساد الأخلاق و انتهاك الحرمات بينما جماهير العمال والفلاحين فى عدم الكسب حائرون. والفقراء والمساكين فى ضنك العيش خامدون ، وذوو الحقوق من حقوقهم محرومون.

و من المناسب فى هذا المقام أن نبحث بحثاً بسيطاً من التسعير الاجبارى فى الاسلام فان التسعير الاجبارى فى الأوقات غير العادية مثلا إذا طرأت أحوال خاصة من مجاعة أو وباء أو اضطراب اقتصادى أو نحو ذلك جائز فى الاسلام وحينما يمتنع التجار عن بيع السلع الضرورية للجتمع إلا بزيادة عن الثمن المعروف لمصلحة المجتمع. و كذلك ينفذ التسعير حينما تنخفض الاسعار إلى الحضيض دون المستوى العادى حتى لا يضار التجار أو الصناع ، الأمر الذى يترتب عليه إضرار المجتمع كله من أوله إلى آخره ، إن هاتين المادتين و إن ادعى الغربيون ابتكارهما على أنهم سارقون لها من دستور الاسلام الذى وضعهما منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ، وكتب أهل فقه الاسلام دليل مادى على ذلك ، التى ألفت قبل أحقاب طوال ، ونفذهما وتبعهما سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخليفة الثانى لرسول الله ﷺ قبل أن يتبعهما النظم والأوضاع الاقتصادية الغربية .

هذا فى الحالة غير العادية أما فى الحالة العادية فلقد أعلن رسول الاسلام و الفقهاء المسلمون أنه فى الأوقات العادية يجوز فيها اكراه التجار على سلعهم بغير ما تطيب به نفوسهم لأن فى ذلك ظلماً منافياً لوظيفة الملكية وحرية التصرف ، لأنه فى الأوقات العادية لا يستطيع أى تاجر أن يرفع ثمن بضاعته عن ثمن بضاعة زملائه ، وذلك أنه لو فعل ذلك لتركه الناس واتجهوا إلى زملائه بما يترتب عليه إغلاق محله وخروجه من هذه التجارة ، وهذه التفرقة بين الحالة العادية وغير العادية واضحة و واقعة فى أوقات الحروب و ما بعدها ، لأن أكثر جهاز الانتاج فى مثل هذه الحالة يتجه لانتاج أدوات الحروب و لاعداد الجيوش بما تحتاج إليه من ملابس و أغذية و ذخائر و أسلحة و غيرها ، هذا علاوة على أن فى الحروب تدبيراً يعوق تصدير السلع و الآلات الصناعية و تبادل الأدوات الضرورية بين الدول و البلاد ، و بالجملة فان المادة الاقتصادية فى دستود الاسلام تنحصر فى عشرة أمور .

١— إيجاد العمل لكل مواطن .

٢— تحديد الملكية الكبيرة .

٣— عدم تركيز الثروات الضخمة فى أيدى فئة لا تشعر بشعور الأمة و آلامها .

٤— الحجر على المبذرين و المسرفين فى ثروة الأمة .

٥ تنظيم جباية الزكاة و طرق إنفاقها .

٦— إشراف الحكومة على تصرف الناس بالأموال .

٧— أخذ الحكومة من الأموال الخاصة ما يحتاج إليه الشعب .

٨— تربية النفوس و تقوية الأخلاق فى الشعب على هذه المبادىء .

٩— تنفيذ التسعير الاجبارى فى الأوقات الغير العادية لمصلحة الشعب.

١٠— تنفيذ التسعير حينما تنخفض الأسعار إلى الحضيض .

تعريف بآخر كتاب صدر لسماحة
العلامة الشيخ أبي الحسن على الندوى

أحاديث صريحـــة
مع إخواننا العرب و المسلمين

بقلم : فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
عميد كلية اللغة العربية و آدابها فى جامعة ندوة العلماء

الحمد لله ، و الصلاة و السلام على رسول الله ﷺ .

أما بعد ! فقد زار فضيلة الشيخ السيد أبو الحسن على الحسنى الندوى الامارات العربيـــة المتحدة ، والكويت فى منتصف صفر ١٤٠٤هـ، (١٦—٢٧ نوفمبر ١٩٨٣) و قضى فيها نحو أسبوعين ، ألقى فى خـــلالهما مجموعـــة من محاضرات تتسم بالقوة و الوضوح ، والصراحة والواقعية ، وتحدث عن واقع العالم الاسلامى و أزمة المسلمين الحقيقية اليوم، بدأ زيارته هذه من الشارقة التى وفد إليها لحضور مناسبة افتتاح مكتبة عالم المنطقة الجليل وداعيتها الاســـلامى الكبير ، المرحوم الشيخ عبد الله على المحمود رحمه الله ، رئيس مركز الدعوة الاسلامية بالشارقة سابقاً ، على دعوة من أنجاله الكرام ، الســـادة الدكتور سالم ، و أخويه محمد وعلى عبد الله المحمود، حفظهم الله.

وقدأجاب فضيلة الشيخ الندوى هذه الدعوة رغم ضعف صحته وزحمة مسئولياته و أشغاله فى مقر عمله فى الهند ، وذلك بسبب ما يحمله من حب للمغفور له ، الشيخ عبدالله بن على المحمود ، و من تقدير لأعماله فى سبيل الدعوة الاسلامية ونصرة كلمة الحق ، كما أراد بذلك أن يتنهز الفرصة بهذه الزيارة للقيام بواجب الدعوة ، والتنبيه على ما تواجه هذه المنطقة من أخطـار ، وما تمر به من مرحلة دقيقة عصيبة ، تمر بها الأمة العربية الاسلاميـة بصفة عامة، و هذه المنطقة بصفة خاصة ، و ما يحتاج

ذلك إلى وعى إسلامى صحيح ، و استعداد معنوى خلق ، و إصلاح عميق شامل فى نهج الحياة و وجهات النظر ، و كان لكاتب هذه السطور شرف المرافقة فى هذه الجولة التاريخية .

لقد كان المرحوم الشيخ عبد الله على المحمود ـ رحمه الله ـ شخصية محبوبة مرموقة فى الشارقة و شقيقاتها ، كان من خيرة العلماء فى بلاد الخليج ، و عاملا للاسلام جليلا ينصر الحق و يبذل ما يسعه من الجهد فى خدمة الفكرة الاسلامية و كان وارث والده فى العلم و التربية ، فقد أنشأ والده الشيخ على المحمود — رحمه الله — مدرسة للتعليم الدينى ، درس فيها نخبة من أبناء الجيل ، و اهتم المرحوم الشيخ عبد الله على المحمود بخدمة الدعوة و الدعاة ، و لما كانت له صلات حسنة مع أعيان المنطقة و أمرائها ، بخاصة مع حاكم الشارقة و ملحقاتها سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمى ، استعان بهذه الصلات فى خدمة الاسلام و الدعوة ، و قد أنشأ بالشارقة مركزاً عالمياً للدعوة الاسلامية تحت اهتمامه و إشرافه و رعاية سمو حاكم الشارقه .

و لما انتقل (١) الشيخ عبد الله إلى رحمة الله تعالى ، أراد أنجاله الكرام أن يجعلوا من مكتبته الخاصة ، و داره العامرة — التى كانت دائماً دار ضيافة و اجتماع لعلماء الاسلام و الدعاة من أنحاء العالم الاسلامى المختلفة — مركزاً علمياً و دعوياً إسلامياً ينتفع به القريب و البعيد ، و يبقى به العمل الاسلامى الكريم الذى كان يقوم به المرحوم و يكون له ذخراً فى الآخرة . و ذلك بمساعدة فضيلة الشيخ على ابن صالح المحويتى القاضى بالذيد بالشارقة ، مساعد الشيخ الخاص فى جهوده .

حضر حفلة افتتاح المكتبة طائفة مختارة من رجالات الامارات ، وعلى رأسهم سمو حاكم الشارقة سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمى ، و سمو الشيخ حميد بن راشد النعيمى حاكم عجمان ، و عدد من الوزراء و الأعيان ، كما حضر المناسبة معالى الشيخ

(١) كانت وفاته فى ٢٤ من جمادى الأولى ١٤٠٢ه (٢٢ من مارس ١٩٨٢م) .

عبد الله نصيف الأمين العام لرابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة و كان فى زيارة رسمية للامارات ، و قد أزاح الشيخ السلطان الستار عن اللوحة التذكارية إيذاناً بافتتاح المكتبة ، و ألقى كلمة امتدح فيها جهود الشيخ المرحوم عبد الله بن على المحمود ثم تحدث الأستاذ محمد بن عبد الله المحمود بكلمة شكر فيها سمو الشيخ سلطان بن محمد القاسمى ، و رحب بالشيخ أبى الحسن على الحسنى الندوى ، و تقدم بكلمة تعريف به و بجهوده و مؤلفاته ، و بعد ذلك ألقى فضيلة الشيخ أبو الحسن الندوى كلمته التى كانت مع وجازتها كلمة منيرة دسمة لائقة بالموضع و الموضوع ، سننقلها فى آخر هذا التقديم ، و ألقى الدكتور عبد الله نصيف كلمة بهذه المناسبة حث فيها على إنشاء المكتبات لما لها من فائدة فى تربية الأفراد .

قضى فضيلة الشيخ الندوى — بعد الانتهاء من هذه المناسبة اللطيفة المفيدة خمسة أيام فى الامارات ، ألقى فيها أربع محاضرات قيمة ، محاضرتين فى جامعة الامارات بمدينة « العين » إحداهما محاضرة عامة فى مدرج الجامعة الكبير ، حضرها عدد كبير من أساتذة الجامة و طلبتها و أعيان البلد ، و غصت القاعة بالحاضرين بصورة غير عادية . و أخرى فى كلية البنات التابعة للجامعة و محاضرة فى مدينة أبو ظبى ، على دعوة من وزارة الاعلام فى مسجد سعد بن أبى وقاص ، ومحاضرة فى مدينة الشارقة على دعوة من رئيس مركز الدعوة الاسلامية فى مسجد عمر بن الخطاب .

و جميع هذه المحاضرات تدور حول حالة العرب المسلمين الراهنة ، فى بعدهم عن الجد و الصرامة ، و وقوعهم فريسة التغافل و التخاذل ، و حول ضرورة العودة إلى صفات الأنفة العربية و الغيرة الاسلامية ، و الايمان العميق الذى يدير دفة الحياة ، و يسيطر على التفكير و التصرفات ، و سيرة العرب المسلمين الأولى التى نشروا بها الاسلام و فتحوا بها نصف العالم فى نصف قرن ، و قد لجأ فضيلته فى مواضع من كلامه إلى صراحة تتسم بالقسوة أحياناً ، و لكنه لطف من حدتها

و وطأتها و جعلها سائغة مقبولة بقوله « إنى التقى مع إخوانى العرب الذين أتحدث إليهم ـ زيادة على آصرة الدين الذى هى أقوى آصرة وأفضل رابطة ـ فى النسب (١) و اللغة و الآدب ، و فى الشعور و العاطفة ، و أشاركهم فى الهوان و الشرف ، فلا مانع من أن أكون صريحاً وناقداً ومعاتباً ، فأنا عضو فى هذه الأسرة الكريمة ، و قديماً قال الشاعر العربى :

و فى العتاب حياة بين أقوام

ثم زار فضيلته الكويت على دعوة من وزارة الاعلام فيها بمناسبة احتفالات القرن الخامس عشر الهجرى و ألقى محاضرة علية قيمة بعنوان « الاسلام و الحضارة الانسانية » فى مدرج كلية العلوم فى جامعة الكويت بالخالدية ، لقيت استجابة كريمة وآذاناً صاغية من كبار المثقفين فى البلد وعلمائها وأعيانها . ورحبت به وزارة الأوقاف الكويتية . و ألقى عدداً من المحاضرات ، حضرها جم غفير من المستمعين حيث إن القاعات كانت تغص بالحاضرين ، و تضيق على سعتها على غير عادتها . منها محاضرة فى قاعة جمعية الاصلاح الاجتماعى بعنوان « واقع العالم الاسلامى » ألقاها على دعوة من سعادة الشيخ عبد الله العقيل مستشار وزارة الأوقاف و الشئون الاسلامية ، و سعادة الشيخ عبد الله العلى المطوع رئيس جمعية الاصلاح الاجتماعى ، و كانت هى الأخيرة ، من أشد محاضراته صراحة ، و ذلك لأن واقع العالمين — الاسلامى و العربى لا يحتمل عند المحاضر ملقاً أو تغطية أو مجاملة لارضاء الجماهير ، و كما قال فضيلته قد التقت المهازل مع المآسى فى لبنان . و بلغت الكارثة قمتها فى تلك الأيام

(١) الأستاذ الندوى ينتهى نسبه إلى سيدنا الحسن بن على بن أبى طالب ، و قد حافظت أسرته بعد انتقالها إلى الهند على نسبها الهاشمى العربى ، وكثير من خصائصها العربية الاسلامية .

التى زار الأستاذ فيها هذه المنطقة الاسلامية العربية ، و لكنه لم ير آثارها و ردود فعلها فى هذه المدن العربية الاسلامية . فلا تزال الحياة فيها لاهية ساهية كما لم يقع شئ من هذا النوع ، فأطلق المحاضر أنات قلبه الجريح ، وكشف عن صدره المكلوم وفاضت كأسه التى طفحت ألماً وأسى ، وحق لها أن تفيض و ترشح ، و قد كانت الحوادث كافيـــة لاثارة مشاعره و مبررة بل موجبة لهذه الصراحة و المرارة ، فقد كان شأنه فى موكب هذه الانطباعات و المشاعر ، شأن الشاعر العربى الذى يقول :

سقونى و قالوا لا تغن و لو سقوا -

جبال سليمى ما سقيت لغنت

و يستحق مستمعو هذه المحاضرات ـ و فيهم الشخصيـات الجليلة و العاملون للاسلام ـ التقدير و الاعتراف برحابة صدورهم و تقديرهم لكلمة الحق ، مهما كانت مرة و قاسية ، فقـــد تلقوها ببشاشة و تقدير ، و عدم امتعاض أو استنكار .

و لما كان موضوع هذه المحاضرات (باستثناء الكلمة الملقـاة فى مناسبة افتتاح المكتبة) موضوعاً واحداً تقريباً وهو موضوع الساعة ، فمن المفيد أن يطلع عليهما عدد أكبر من أبناء هذه المنطقة ، و المسلمون عربهم و عجمهم و لذلك ألقى عليها صاحب المحاضرات حفظه الله نظرة بعد أن نقلت من الأشرطة ، و تناولها بشئ من التنقيح و التهذيب ، و زيادة و حذف يسيرين ، و لعموم النفـع نشرها فى مجموعة بعنوان « أحاديث صريحة لاخواننا العرب و المسلمين » و هى بين يدى القراء ، و قد أضاف الأستاذ محاضرة سابقة كان ألقاها فى الشارقة فى مسجد على فى سنـــة ١٣٩٩هـ ، فبرائر ١٩٧٩م ، عنوانها « درس من الحوادث » لاتصالها بموضوع هذه المحاضرات و روحها و هدفها ، إكمالا للفائدة و زيادة فى قيمة هذه المجموعة .

توصيات المؤتمر العالمى الثانى لتوجيه الدعوة و إعداد الدعاة

.. الاهتمام بالتعليم والتربيــة .. العناية بالشباب و الأسرة
.. أجهزة الاعلام ، ومسئوليتها .. الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر و دور المسجد . .. مجلس عالمى للدعوة و الدعاة

الحمد لله الذى جعلنا بالاسلام خير أمة . . و الصلاة و السلام على نبينا محمد رسول الهدى و الرحمة و على آله و صحبه و من اتبعه . . و بعد :

فان الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة انطلاقا من رسالتها و أهدافهـا فى تبليغ رسالة الاسلام إلى العالمين ـ قد دعت إلى عقد المؤتمر العالمى الثـانى لتوجيه الدعوة و إعداد الدعاة لبحث وسائل التضامن و الوحدة بين المسلمين تحقيقاً لما يجب أن يكون بينهم من تعاون على البر و التقوى و قياماً بواجب الدعوة و استجابة لله و للرسول فيما أمروا به من الاعتصام بدينهم و الاجتماع عليه و ما نهوا عنــه من التفرق و الاختلاف من بعد ما جاءهم البينات .

وقد تم بعون الله وتوفيقه عقد هذا المؤتمر فى مقر الجامعة الاسلامية فى مدينة رسول الله ﷺ فى الفترة من ٢٨ ـ ٣٠ من شهر ربيع الأول ١٤٠٤هـ ، واشترك فيه علماء و دعاة من العالم الاسلامى .

و بعد دراسة البحوث المقدمــة فى موضوع المؤتمر و النظر فى واقع المسلمين و ما يجب أن يكونوا عليه من أخوة و تعاطف و ترابط فان المؤتمر يناشد المسلمين بعامة و حكامهم و أولياء أمورهم بخاصة أن يقدروا الظروف التى تمر بهم والأخطار

المحدقة بأوطانهم ، و أن يعملوا جميعاً على جمع كلمتهم و توحيد صفوفهم باتباع دينهم وطرح الشعارات المنافية له وأن يخضعوا كل شئ من أمرهم لاعلاء كلمة الله عز وجل أداء لرسالتهم وتحقيقاً لعزتهم ورحمة للعالمين ، كما يذكرهم أن - يردوا أى شئ تنازعوا فيــه إلى الله و الرسول عملا بقول ربهم : « فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر ذلك خير و أحسن تأويلا » .

و فى سبيل تحقيق ذلك يوصى المؤتمر بما يلى :

أولا : يؤكد المؤتمر على العناية بتنفيذ جميع توصيــات المؤتمر العالمى الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة - لشمولها وأهميتها البالغة على طريق الدعوة الاسلامية.

ثانياً : أن يعمل المسلمون جميعاً حكاماً و محكومين على ترسيخ العقيدة الاسلاميــة الخالصة الصافيــة ، و تعميق حقيقة (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فى قلب كل مسلم و مسلمة بعلم و يقين ، حتى تكون العبادة خالصة لله وحده و موافقه لشرع رسوله محمد ﷺ . و حتى يظهر أثر ذلك صفـاء فى النفس و استقامة فى الخلق ، و صلاحاً فى العمل و اعتزازاً بالايمان ، و غيرة على الاسلام و وحدة و أخوة و تعاونا بين المسلمين .

ثالثاً : دعوة ولاة الأمور فى الأقطار الاسلامية إلى تطبيق الشريعــة الاسلامية فى كافة شئون الحياة قياماً بما أوجبه الله عز وجل عدلا منه و رحمــة ، و خروجاً من دائرة الأثم و التعرض للعقوبات العاجلة و الآجلة وتوحيداً لمسيرتهم فى حياتهم على منهج الاسلام ، و تعزيزاً لسبل التعاون و التضامن فيما بينهم ، و توفيراً للامن و الرخاء و الاستقرار و النمو فى مجتمعاتهم .

و ينوه المؤتمر بما تحقق قريباً فى الباكستان و السودان و موريتانيا من اتجاه إلى تطبيق الشريعة الاسلامية و بدء فى تنفيذ ذلك .

رابعاً : أن تعمل الحكومات الاسلامية على توحيد سياسة التعليم فى جميع المراحل و التقريب بين المناهج الدراسية و صبغها بالصبغة الاسلامية التى تحفظ للامة خصائصها التربوية و التعليمية و العلمية المستمدة من الكتاب و السنة .

التعليم و الجامعات :

و يوصى المؤتمر المركز العالمى للتعليم الاسلامى بجامعة أم القرى بمكة المكرمة بالقيام بالدراسات التى تيسر للحكومات تحقيق ذلك .

خامساً : التوسع فى إنشاء الجامعات الاسلامية فى جميع الأقطار الاسلامية فى التخصصات الشرعية و فى التخصصات الأخرى التى يحتاج إليها المسلمون فى نواحى المعرفة الانسانية من : طب ، و هندسة ، وزراعة وغيرها ، مع العناية بتربية الطلاب فى جميع تخصصاتهم تربية إسلامية تجمع بين العلم و العمل حتى يتيسر لأبناء المسلمين ـ حيثما يوجدون ـ تحقيق رغباتهم فى مواصلة تعليمهم الجامعى فى جامعات تعنى باعدادهم إعداداً إسلامياً متكاملا ، يمكنهم من حمل رسالة الاسلام الشاملة ، و تطبيق أحكامه فى كل مجالات الحياة .

سادساً : دعوة الجامعات والهيئات والمؤسسات المتخصصة فى جميع الأقطارالاسلامية إلى التعاون فى مجالات البحوث و الدراسات العلمية و التقنية المتطورة فى كل فروع المعرفة الانسانية و نواحى الحياة و الارتقاء بها إلى ما يحقق للامة الاسلامية التقدم العالمى المنشود فى هذا المضمار الذى تتسابق فيه الأمم بكل طاقاتهم ، لتسبق غيرها و إلى ما يمكن هذه الأمة من بناء قوتها و حضاتها دون اعتماد على غيرها .

سابعاً : التوسع فى إنشاء المدارس والمعاهد التى تستوعب أولاد المسلمين حتى لا يتجهوا إلى الالتحاق بالمدارس غير الاسلامية التى تؤثر على عقيدتهم و أخلاقهم

و ولائهم لدينهم ، و انتمائهم إلى الأمة الاسلامية .

ثامناً : العناية - خاصة فى مراحل الطفولة و الشباب - بالتربية الاسلامية المبنية على الايمان و إخلاص العبادة لله عز وجل ، و ربطها بمبادىء الأخوة و المودة و التعاون و الأخلاق و الآداب الاسلامية الفردية و الاجتماعية المستمدة من الكتاب و السنة و هدى السلف الصالح وأن تتعاون فى ذلك جميع المؤسسات المعنية بالتربية من: الأسرة والمدرسة ، والمسجد والجامعة ، و مراكز الدعوة و الثقافة و المؤسسات الشبابية و الاعلامية .

العناية بالشباب والأسرة :

و يؤكد المؤتمر أهمية العناية برعاية الشباب و تنشئتهم تنشئة إسلامية خالصة : عقيدة و خلقاً و سلوكاً . . و بناء حياتهم على الاستقامة و الجد و الحزم و القوة و الصبر . و حب الطاعة و البر ، و كراهية المعصية و الشر ، و البعد عن مظاهر الترف ، و مجالات اللهو و اللعب و إضاعة الوقت فيما لا يعود عليهم بنفع يدعو إليه دينهم .

تاسعاً : إن المؤتمر إذ يقدر الأهمية البالغة للعناية الكاملة بأطفال المسلمين جيل المستقبل للامة الاسلامية (خاصة فاقدى العائل منهم) ليوصى الحكومات و الجمعيات و المؤسسات وذوى القدرة من المسلمين بتوفير رعايتهم الرعاية الشاملة و وضع البرامج و إنشاء المؤسسات التعليمية فى مراحلها المختلفة و الايوائية و غيرها التى تحقق ذلك ، وعلى الدعاة أن يعنوا بهذا الجانب الاسلامى الانسانى الاجتماعى فى دعوتهم لتنشيط الجهود فى هذا المجال .

عاشراً : محافظة على البيت المسلم والمجتمع المسلم و مبادئه و قيمه الاسلامية وسلوكه الاسلامى ، و درءاً للمفاسد المتوقعة يحذر المؤتمر من استخدام غير المسلمين وبخاصة

فى المنازل ، و القيام بتربية الأطفـــال و رعاية شئونهم التزاما بواجب الوقاية لقوله : « ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة » و مسئولية الرعاية لقول النبي (كلكم راع و كلكم مسئول عن رعيته)

حادى عشر : أن يكون التضامن الاسلامى و وحدة المسلمين ضمن ما يركز عليه فى مناهج الثقافة الاسلامية فى مختلف مراحل التعليم .

ثانى عشر : العناية فى دراسة التاريخ و الجغرافيا للاقطار الاسلاميـــة باعتبارها أمة واحدة تترابط وتتفاعل أجزاؤها وتتكامل ثرواتها وطاقاتها و يتحد مصيرها.

ثالث عشر : أن تكون اللغة العربية لغة أساسيـــة فى مناهج التعليم فى جميع الأقطار الاسلامية بالقدر الذى يمكن من إجادتها اجادة اللغة المحلية، وأن يكون تخاطب الشعوب الاسلامية بها هدفاً أساسياً يسعى الجميع إلى الوصول إليه بكل الجهود و الوسـائل .

و على أجهزة الأعلام أن تشارك بجهودها و برامجها فى هذا المجال ،

و فى تحقيق ذلك توحيد للسان الأمة الواحدة بلغة كتابها و سنـــة نبيها ﷺ . . و تقريب عقلى و وجدانى بين شعوبها فضلا عن تيسير تفقهها فى دينها ، و توسيع دائرة المعارف فى مجالات علومه المتعددة .

رابع عشر : أن تقوم هيئات الدعوة الاسلامية و مؤسساتها و الجامعات الاسلامية فى العالم الاسلامى بجهود علمية نشيطة فى دراسة أوضاع المسلمين و تشخيص أسباب تفرقهم وتخلفهم و ولاء بعضهم لأعدائهم واتباعهم فى مذاهبهم وسياستهم، و بيان سبل إصلاح هذه الأوضاع و دعوة المسلمين إليها شعوباً و حكومات للاخذ بها و العودة إلى ما يجب أن يكونوا عليه أمة مسلمة واحدة تقوم على التوحيد الخالص فى العقيدة و العبادة ، و السير على نهج السلف الصالح خير القرون من الصحابة الكرام و من تبعهم باحسان .

الاعلام و النشر :

خامس عشر : أن تتحمل أجهزة الاعلام فى جميع الأقطار الاسلامية مسئوليتها تجاه أمتها ، وأن تؤدى دورها كاملا فى إبراز معانى التضامن و الوحدة و مزاياها و إظهار مساوىء الخلاف و الفرقة ، و تكوين رأى عام إسلامى يدرك خصائص أمته التى جعلها الله بها خير أمـة أخرجت للناس ، و يعى حقيقة تضامنها و وحدتها و يتجاوب معها : وجـدانا و عقلا و سلوكاً فى كل جوانب الحياة .

و الاعلام قادر باذن الله بقوة تأثيره و اتساع دائرة جماهيره أن يخطو بجهود مخلصة خطوات جادة تؤدى إلى الهدف المنشود .

سادس عشر : دعوة مراكز البحث العلمى و دور النشر إلى تشجيع تأليف الكتب و إعداد البحوث و الدراسات لبيان حقيقة الاسلام و شرائعه و الدعوة إليه وما يجب أن تكون عليه الأمة الاسلامية من تضامن و وحدة ، و نشرها على أوسع نطاق و باللغات المختلفة ، و تيسير الحصول عليها .

دور المسجد :

سابع عشر : أن يكون للمسجد ـ منبر الاسلام الأول و منطلق دعوته و أساس دولته ـ دوره البارز و الفعال فى توجيه المسلمين فى جميع الأقطار الاسلامية وهدايتهم إلى سبيل ربهم ، ومنهج دينهم و دنياهم على طريق تضامنهم و وحدتهم ، و تطهير مجتمعاتهم من عوامل التدابر و الخلاف و الفرقة ، و تقوية عناصر التآخى و التواد و التعاطف و التراحم و التعاون فيما بينهم مهما تباعـدت أوطانهم ، و أن يشارك المجلس الأعلى العالمى للمساجد بمكة المكرمة بجهوده فى توجيه هذا النشاط و تعزيزه و تنسيقه .

ثامن عشر : تعميم مراكز الدعوة الاسلاميــة فى العالم الاسلامى و غيره و توثيق الاتصال بينها لتوحيد سياستها و تعزيز جهودها و تنسيق برامجها .

تاسع عشر : أن تعنى الجامعات فى الأقطار الاسلامية بالتوسع فى توفير المنح الدراسة للطلاب المسلمين فى مختلف التخصصات لتنميــة التآخى و التعاون بين المسلمين و تعميم العلوم الاسلامية و المعارف الانسانية بين الشباب المسلم .

عشرون : أن تتبنى منظمة المؤتمر الاسلامى إنشاء هيئة للتعاون الاسلامى تعنى بدراسة سبل التعاون و التكامل بين الأقطار الاسلاميــة فى جميع مجالات الحياة : الصناعية ، و التجارية ، و الاستثمارية، و الدفاعية ، والأمنية ، و الزراعية ، و الاجتماعية ، و الصحية وغيرها و العمل على تحقيق ذالك

واحد و عشرون : دعوة الحكومات فى جميع الأقطار الاسلامية إلى الاتفــاق على على (ميثاق إسلامى) مستمدة من الكتاب و السنة . يجمع كلمتها و يوحد سياستها و يعزز قوتها ، و يجعل ولاءها لدينها فيما بينها و انتصارهــا بربها ، لا بالتحالف مع أعدائها ، و أن تكون العلاقات الدولية خاضعــة للسياسة الشرعية الاسلامية .

الأمر بالمعروف و النهى المنكر :

١ــ يؤكــد المؤتمر على أهميــة الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر الذى أوجبه الله عز وجل و جعله أساساً لخيرية هذه الأمة لما يستهدفه من إقامة حيــاة المسلمين على الحق و الخير و تطهيرها من كل باطل و شر ويوصى الأقطار الاسلاميــة جميعاً بتعميم إنشاء هيئات الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و توفير كل ما يمكنها من أداء رسالتها أداء كاملا : استجابة لقول الله عز وجل : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير و يأمرون بالمعروف وينهون

عن المنكر ، و أولئك هم المفلحون » و لقوله تعالى : « و المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة و يطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم » .

٢- تيسيراً لقيام الدعاة بواجبهم و تذليلا لما يعترضهم من بعض العوائق يوصى المؤتمر حكومات البلاد الاسلامية بتسهيل سرعة حصول الدعاة على الاقامة و على سمة الدخول فى البلدان الاسلامية و غيرها و إعطائهم بطاقات معترف بها من الجهات ذات الاختصاص .

٣- يتابع أعضاء المؤتمر ما يقع لبعض البلاد الاسلامية من محاولات التنصير المدعوم بالقوى المادية و الاستعمارية ، و يرى ضرورة العمل من جانب الحكومات و المسلمين على التصدى لهذه المحاولات باعداد المسلم إعداداً يمكنه من الثبات على دينه و التأثير فى غيره لا التأثر به و العمل كذلك على إقامة المؤسسات و توفير الخدمات التى تعينه على السير فى مجال التعليم والتمتع بالرعاية الصحية و الاجتماعية .

٤- انطلاقا من أهمية الدعوة الاسلامية و مسئوليتها الكبرى فى عالمنا المعاصر و ضرورة العناية بالدعاة و تعزيز جهودهم و كفاءتهم لأداء رسالتهم يوصى المؤتمر بانشاء (مجلس عالمى للدعوة و الدعاة) يعنى بشئون الدعوة الاسلامية و الدعاة فى العالم ... و من أهم أهدافه :

توجيه سياسة الدعوة الاسلامية فى العالم ✠ تنسيق جهود الدعاة والجهات المعنية بها و تعزيز تعاونهم لأداء رسالتهم الأداء المنشود ✠ دراسة مناهج الدعوة وأساليبها و وسائلها ، و تزويد الدعاة بنتائج هذه الدراسات للاستفادة منها و تطبيقها فى مجال الدعوة ✠ تزويدهم بالمراجع المعتمدة و الكتب التى تعينهم فى أداء رسالتهم و تحقيق أغراض الدعوة ✠ تنظيم البرامج التدريبية للدعاة .

✠ تمويل الدعوة عن طريق صندوق ينشأ لذلك يتبع المجلس ، و يوصى المؤتمر رابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة أن تقوم بانشاء هذا المجلس فى أقرب وقت .

صور و أوضاع

« يدخلون في دين الله أفواجاً »

واضح رشيد الندوى

لا تزال ظاهرة انتشار الاسلام فى بعض مناطق الهند ، حيث اعتنق الاسلام عدد كبير من رجال الطبقات المتخلفة ، و أشهروا إسلامهم جماعياً ، تستلفت اهتمام زعماء الحركات و المنظمات الطائفية ، و الرسمية ، فصارت هذه المناطق محط الأنظار ، تتوجه إليها وفود تلو وفود . وتنشر الصحف تحليلات و مقابلات صحفية ، تستعرض فيها الأسباب و الدواعى إلى قبول الاسلام وردود الفعل التى أثارتها هذه الأحداث و أثارت حفيظة عدد من الكتاب المتحمسين ، فهددوا المسلمين بعواقب وخيمة ، وبلغ الانفعال بأحد الكتاب حداً فقد أعصابه فيه فهدد باعادة ما حدث فى الأندلس ، و تظهر فى الصحف الهندية ، كتابات حاقدة ضد الاسلام و المسلمين حيناً لآخر .

و قد كان من المصادفة أن انتشار الاسلام قد سبب فى الدول الأورية فى الوقت ذاته هياجاً شديداً ، فقامت الصحف الغربية بحملة لاثارة العناصر غير الاسلامية ضد هذه الظاهرة .

فلا يختص ذلك بالهند ، بل إنه أصبح ظاهرة عالمية ، لأن الاسلام ينتشر فى استراليا ، و فى اليابان ، و فى فرنسا ، و بريطانيا ، علاوة على دول أفريقيا و آسيا المتخلفة ، كما ينتشر فى الهند ، و إذا كان ينتشر فى تلك الدول المتقدمة التى تعتز بحضارتها و رقيها ، و تنظر إلى المسلمين بنظرة ازدراء ، وتعيرهم بالتخلف و التشنج ، و يقبل عليه عقلاء و مثقفون أوربيون ، فما بال الطبقات المتخلفة المضطهدة فى الهند التى تواجه التمييز .

كان من حق هذه الظاهرة أن يقبل هؤلاء الناس الذين أصابهم الهرج والمرج ،

أن يدرسوا رسالة الاسلام ، و يدرسوا مبعث جاذبيته و تأثيره ، و الاقبال عليه رغم كون المسلمين فى محنة و شقاء ، وأن يدرسوا ما يحمل هؤلاء المعتنقين للاسلام على الدخول فى عقيدة المضطهدين .

أليس من ألغاز العصر أن الاسلام ينتشر رغم مكتبات من المؤلفات التى قامت لتشويه تاريخ الاسلام ، و طمس معالمه ، و وصفه خطراً للانسانية ، ورغم حملة شعواء مستمرة ضده ، و رغم قيام نظم طاغية لا تمنح فرصة لليقظة الاسلامية و انتشار الوعى الاسلامى ، بل تضع سدوداً و حواجز نفسية و مادية فى انتشار الدعوة الاسلامية ؟

ينتشر الاسلام، و هو حقيقة يقر بها الأعداء و الأصدقاء ، كما يبدو من ذعر و هول الكتاب الغربيين ، رغم كون المسلمين فى أقلية معنوية ، حتى الدول التى توصف بالدول الاسلامية لوجود المسلمين فيها فى أغلبية عددية لا تمثل عواطف المسلمين و مشاعرهم الحقيقية ، و لا تطلق الحرية للدعوة الاسلامية ، بل على العكس تضع عدة دول إسلامية منها عراقيل فى سبيل الدفاع عن الاسلام ، و تطلق العنان للهجوم على الاسلام ، و حضارته ، فلا تتحقق الحياة الاسلامية بمعناها الحقيقى ، ينتشر الاسلام رغم هذا الواقع المرير ، رغم ضعف المسلمين و تخلفهم و تمزقهم ، و تفرق كلمتهم وعدم توفيقهم فى عرض قضيتهم ، وعرض الصورة الحقيقية للاسلام ، و تطبيق التعاليم الاسلامية ، و هو طبعاً وضع لا يرشح المسلمين للقيادة ولاعقيدتهم لتضاهى العقائد السائدة ، و لا نظامهم للاحتكاك بالنظم المطبقة .

إن هذا الوضع لا يساعد حقاً على انتشار الاسلام و لا على تضخم عدد المسلمين ، فان الطبقة التى تواجه قيوداً و صعوبات و تمييزاً و توجه إليها التهم و تخطط ضدها مكايد و مؤامرات ، و تواجه هزائم على الساحة الدولية ، و تمر

بمذابح ، و تحدث فى بلادها ما يبعث على السخرية ، و الطعن ، للتصرف الصبيانى من القيادات السياسية ، التى تقوم فى معظم بلاد الاسلام ، و للمؤامرات و الخيانات التى تتصل حلقاتها ، لا يساعد هذا الوضع الذى يعيش فيه المسلمون على انتشار الاسلام ، و لكنه أمر الله ، و قضاؤه ، و قضاء الله مبرم .

لقد وعد الله بنصر المسلمين و باعزازهم . و أنه يحفظ دينه إلى أن يأتى وعد الله ، وقد أعاد القرآن هذا التأكيد ، « يريدون ليطفؤا نور الله بأفواههم والله متم نوره و لو كره الكافرون » « و لو كره المشركون » .

إن ظاهرة انتشار الاسلام ظاهرة طبيعية مهما تقلق أصحاب الديانات الأخرى ، و ستستمر رغم الموجة الجديدة للهجوم على الاسلام و المسلمين ، و تضييق خناق المجهودات المتواضعة التى يقوم بها المتوضئون و المتطهرون ، فانها ليست غريبة و لا جديدة .

إن أعداء الاسلام تغيظهم ظاهرة انتشار عدد الملتحين و عدد المتحجبات ، و عدد مراكز الدعوة ، و بناء المساجد و المدارس ، و اقبال الشباب على الاسلام ، و سماع الأذان من المآذن ، و يشعرون برؤية المنارات بطعنة فى صدورهم و يقلقهم ازدياد عدد المسلمين فى البلاد الأوربية ، فيتهمون المسلمين بكثرة المواليد ، ويخططون لتحديد النسل ، واتخاذ إجراءات مشددة ضد نشاطات الفئات المؤمنة التى تقوم بجهود متشتتة موزعة فى مختلف أنحاء العالم ببضاعة مزجاة ، و هى تعلم أن جهودها ووسائلها ضعيفة و ضئيلة أمام القوى الجبارة الهائلة ، المدججة بالسلاح و المدعمة بالوسائل و تظافر الجهود ضدها ، و لكنها تعلم كذلك أن الكفر كان دائماً مدعماً بالوسائل و مدججاً بالسلاح ، ولكن الحق ينتصر ، لقد انتصر الاسلام بفئة مؤمنة قليلة على أكبر حضارات العالم وسينتصر على أكبر الحضارات فى كل عصر ، إذا كمل الايمان ،

و تحقق اليقين ، و استعد شباب و كهول للتضحية و الفداء فى سبيل عقيدتهم . و صدقوا فى قولهم و عملهم .

كان انتشار الاسلام رغم مواطن الضعف الكثيرة فى المسلمين أنفسهم ، وبعدهم عن الاسـلام الحقيق فى حياتهم ، و عدم وجود قوة جامعة لهم أو وجود حركة منظمة للدعوة الاسلامية إلا الجهود الفردية المتشتتة ، وانتشاره فى وجه القوى المعادية التى تتألف من الصليبية و الصهيونية و الوثنية ، و بالواقع الاسلامى الذى لا يصدر إلا التمزق و التناحر ، ورغم القوة العلمية و الاعلامية التى تكونت خلال قرون من الاستعمار ، دليلا ساطعاً على وجود عنصر غير مرئى فى انتشاره ، وهو كونه دين الفطرة ، و دين الانسانية الطبيعى ، فـكان من حق هذه الظاهرة الجديدة التى فاقت كل التكهنات ، أن تقبل النفوس على دراسة الاسلام من جديد و البحث عن منطلقه و جاذبيته بصفاء القـلوب ، بدون حقد و كراهية كما تعوده المستشرقون ، و برزانة و روح البحث الحقيق ، بدلا من التذمر و التذامر الذى يشاهد فى أوربا والهند ، بالطرق العاطفية .

فان الاسلام دين مفتوح ، رحب ، ونحن واثقون بأن الحواجز العلمية والعقلية و النفسية التى وضعت فى سبيل الوصول إلى حقيقة الاسلام إذا أزيلت تحقق وعد الله من جديد ، « و يدخلون فى دين الله أفواجاً » و صدق الله العظيم .

مصر تعود إلى المؤتمـر الاسـلامى

حقق مؤتمر القمة الاسلامية الذى انعقد فى الدار البيضاء بالمملكة المغربيـة ، و اشترك فيه عدد لا يستهان به ، من الملوك والرؤساء المسلمين انتصاراً ، له قيمته ، بالتوصل إلى اتفاق لاعادة مصر إلى منظمة الدول الاسلامية ، وقد كان هذا الموضوع شائكا وكانت له حساسية لأن المنظمة تتألف من دول ذات ولاءات سياسية ومصالح

إقليمية مختلفة فكانت فيها بعض الدول العربية التي تبدى حماساً زائداً و انفعالا متطرفاً فى قضية فلسطين و قضايا أخرى مماثلة و تتبـع فيها توجيهات المعسكر الاشتراكى .
فكان من المتوقع أن يواجه هذا المجهود مقاومة شديدة من هذه الدول ، كما سبق أن واجهها فى المناسبات السابقة ، و لكن الجهود المركزة التى بذلتها غينيا و باكستان قد نجحت فى التوصل إلى اتفاق رغم معارضة سوريا و ليبيا الشديد

و ترجع خيبة سوريا و ليبيا فى كسب التأييد إلى سبب رئيسى و هو خيبتهما فى أن تفعلا شيئاً فى القضيـة سوى الحماس الزائد فى العداء لاسرائيل . أو السباب و الحرب الكلامية ، بدون مساهمة فعلية لتحقيق هذا الهدف كما يتضح من الأحداث الأخيرة التى ظهر فيها وهن هذه الدول فى مواجهة إسرائيـل رغم أن الفرصة كانت مواتية لضرب إسرائيل الضربة الأخيرة لأنها وصلت إلى موقف المواجهة مع قوات دول التصدى مباشرة ، فلم تثبت هذه القوات فى المعركة بل تقهقرت مولية بخسائر فادحة فى جانبها و قبلت وقف إطلاق النار ، و بقيت إسرائيل مطلقة العنان فى لبنان تفعل ما تشاء .

و لم تخذل سوريا زعيمة دول التصدى فى المنطقة التى كانت فى موقف الصمود و المقاومة لتثبت صدق نيتها ، الفلسطينيين و تركتهم فى العراء ، بل حاولت أن تقضى على الفل منهم وتحطم قوتهم . فدخلت فى حرب سافرة لاقلاعهم من آخر ملجئهم بطرابلس .

و بذلك سقطت آخر قلعة للمقاومة الفلسطينية أو الصمود والتصدى لاسرائيل ، فكان ما صرحه السيد ياسر عرفات أن أكـبر ضربة لحقت بالفلسطينيين جاءت من الدول التى كانت تتشرق بتأييدهم و أنها هى التى طعنت فى ظهرهم ،و إن هذا الموقف الخائن هو الذى حمل زعيم الفلسطينين ياسر عرفات على تغيير موقفه . و قطع آماله عن هذا الفريق و انضمامه إلى مصر بينما كان من ألد أعداء الزعامة المصرية ومؤيدى موقف سوريا و ليبيا .

كانت حرب ١٩٦٧ هزيمة لقيادة عبد الناصر ، هزيمة سياسية و عسكرية و فكرية ، فكانت نهاية لعهده و فلسفته التى كلفت العالم الاسلامى كثيراً ، و أقلقت التوازن العقلى ، و السياسى فى البلاد العربية ، و ستكون أحداث لبنان لعام ١٩٨٣ هزيمة تكراء للقيادة الخائنة لحافظ الأسد الذى بدأ عهده بالخيانة بتسليم الجولان ، ثم بتحطيم القوى الاسلامية فى بلاده ، ومحاولته لتغيير وجه سوريا ، فكان عهده عهد تحطيم و تدمير ، و خزى و عار لسوريا ، و عن طريقها للعالم العربى كله ، وسيخلد هذا العهد فى التاريخ كأسوأ عهود التاريخ الاسلامى ، فقد كانت خيانات حافظ الأسد أخطر و أخزى من الخيانة المتمثلة فى كامب ديفيد ، فقد استعادت مصر بموجبها بعض أراضيها ولكن حافظ الأسد سلم الجولان بدون أن يستعيد شيئاً سوى عرشه ، و التاريخ حافل بمعاهدات و عقود صلح مع الأعداء ، و الحرب سجال ، و العهود ليست بأمر جديد ، و إنما تشكل إجراء موقتا إذا رافقها استعداد حربى ، و عزيمة صادقة و جهود بناء ، و الاحتفاظ بالشخصية ، ولكن تغير شخصية آمة ذات رسالة ، و ذات تاريخ و عقيدة و تدمير مؤسساتها ، ومعالمها ، و هتك الأعراض ، وتدمير المساجد ، و الاستهانة بالقيم و العقائد التى يقوم عليها كيان الشعب و البغى و الطغيان و قهر الشعب بكامله و إذلاله ، جرائم لا تغفر ، و لا توجد فى سجل زعيم عربى مثل هذه الجرائم كما توجد فى سجل حافظ الأسد من عداء سافر للاسلام و خذلان للاخوة ، وإبادة للجنس البشرى ، وخيانة للوطن ، وتدمير للكفاءات البشرية ، وتشريد.

فاذا كان حافظ الأسد و أمثاله ممن كان يحمل مثل هذا السجل من الرؤساء الذين يحاربون شعوبهم و يجهرون العداء للاسلام و المسلمين ، و يزجون بالدعاة إلى الاسلام و العاملين له إلى السجون يستطيعون أن يحتفظوا بمقاعدهم فى فى منظمة الدول الاسلامية ، فلم تحرم مصر ، التى لقيت زعامتها التى ارتكبت جريمة عقابها . وقد أدت دوراً كبيراً وتحملت تضحيات وخسائر جسيمة فى الدفاع عن فلسطين.

كان موقف إرجاع مصر إلى منبر منطقة الدول الاسلامية موقفاً إيجابياً ، فان إخراج مصر عن الجالية الاسلامية و قطع الصلة بها كان يشكل إبعاد مصر عن الأسرة الاســلامية ، و مساعدتها على أن تقترب من العنصر الصليبي ، الذى يتحين الفرصة فى مصر ، و خارجها ، بقطع صــلة مصر بالاسلام و بالعـالم الاسلامى ، وقد استفاد هذا العنصر بوضع مصر الخاص ، وضع الانعزال عن الاخوة الاسلامية .

و قد انتهى عهد أنور السادات ، فكان بقية القيادة الناصرية التى كانت نشأت على عداء الاسلاميين ، وتكونت على عقيدة العلمانية الكمالية ، وفكرة الثقافة الأوربية ، التى قدمها لمصر جيل الكتاب و المفكرين المصريين الذين تربوا فى حضن الصليبيين .

و تدل تجارب هذه السنين أن المقاطعة و المحاربة لا تفيد و لا تجدى نفعاً ، و إنما تخلق العناد ، و تثير الكبرياء .

إن المنظمة الاسلامية كيان كأسرة كبيرة ، و قد تختلف وجهات النظر فى مسائل إقليمية ، و تختلف مواقف و مصالح قومية ، لـكن المسائل الحيوية للعـالم الاسلامى لا تختلف و لا يمكن أن تتدخل فيها المسائل الاقليمية أو القومية ، فلتكن هذه المنظمة فوق هذه الدوائر الضيقة ، فليكن فيها ليونة ، وشعور بالتآخى ، و التوافق فى إطار الاخوة الاسلامية ، و العقيدة الاسلامية ، و تحل المسائل الثابتة بين مختلف الأعضاء فى هذا الاطار ، و عندما تتحقق فكرة محكمـــة العدل الاسلامية ، باعتبار توفيقها فى حل مشاكل الأسرة الاسلاميـــة ، فستتقدم هذه المنظمة خطوة أخرى فى سبيل بناء كيان إسلامى عالمى بديل .

يميزون حتى بين دم الرجل الأبيض و دم الرجل الأسود

خبر قصير من دربن ، بجنوب أفريقيا ، و لـكنه نكتة لطيفة تكشف عن عقلية البيض غير الانسانية ، مهما ادعوا بالحضارة ، و الحرية ، و المساواة ، و مفاد الخبر

أن هناك نظاماً للتمييز بين دم الأسود ، و دم الأبيض ، فيكتب على زجاجة دم الرجل الأسود « الأسود » وعلى زجاجه دم الرجل الأبيض « دم الرجل الأبيض » و اتضح من فحص أن دم الرجل الأسود لا ينقل بأى حال من الأحوال إلى جسم الرجل الأبيض ، ليبقى الرجل الأبيض على أصالته فلا يجرى فى عروقه إلا دم البيض ، أما الرجل الأسود فانه إذا احتاج إلى دم ولا يوجد إلا دم الرجل الأبيض فيمكن نقل دم الرجل الأبيض إليه .

و قد دهش الأطبـاء فى جنوب أفريقيا عند ما علموا هذا النظام ، و يدل ذلك على مدى حرص الحكومة الأفريقية على التميز العنصرى ، رغم قرارات الأمم المتحدة ، و العقوبات التى فرضت عليها بهذا الصدد ، و كل ذلك يجرى على مرأى ومسمع من أكبر الدول الأوربية المتحضرة ، وهى التى تساند جنوب أفريقيا و تحميها .

لقد كنا سمعنا عن التميز فى القطارات ، و الاوتوبيسات ، و الأسواق ، و المدارس ، و مكاتب العمل ، لكن هذا التميز أمر طريف .

إن السلوك غير الانسانى الذى تسلكه حكومة جنوب أفريقيا ، كان يستحق أن يثير حفيظة سائر الدول الحرة ، فتقاطعها مقاطعة كاملة ، ويجبرها على احترام الانسان . و قد أثيرت هذه المسألة فى الأمم المتحدة و المنابر الدوليـة مراراً ، و لكن جنوب أفريقيا تجد حماية و وقاية من دول أوربا البيضـاء ، التى سودت فى الواقع وجه حضارتها بمعاملتها الوحشيه مع غير البيض ، و لعلها تعمـل ذلك لأنها تشعر بأنها فى أقلية فى العالم عنصرياً ، فلا تستطيع أن تبقى فى الحكم ، إلا بانفصالها عن الأغلبية من غير البيض ، كما فعل رجال الطبقة العليا الذين كانوا ينتمون إلى العنصر الآرى فى الهند عبر العصور وسط أغلبية المنبوذين ، لعل هذا جزء من العقلية الاستعمارية ، و لكن التاريخ لا يمهل ، و أيام الحضارة البيضاء معدودة .

الى الإسلام من جديد

شهرية إسلامية جامعة

العدد العاشر

المجلد الثامن والعشرون

رجب ١٤٠٤هـ

ابريل ١٩٨٤م

تصدرها ندوة العلماء لكهنؤ الهند

أخى القـارىء :

السلام عليكم و رحمة الله و بركاته

حرصاً على تأمين و سلامة وصول المجلة إليك نرجو :

١- كتابة العنوان بانجليزية و العربيـــة كلتيهما فى ورقة خاصة ، كل حرف على حدة ، و إرساله إلينا .

٢- إرسال إشتراك بالقيمة المبينة أدناه باسم « البعث الاسلامى » مقابل عام واحد أو أكثر :

٣- يرفق شيك الاشتراك ضمن مظروف مسجل إلى العنوان المذكور أدناه .

٤- الاشتراكات السنوية .

فى الهند : ٤٠ روبية ، ثمن النسخة أربع روبيات .

فى العالم العربى ١٢ دولاراً بالبريد السطحى ، ٢٥ دولاراً بالبريد الجوى .

فى أوربا و أفريقيا و أمريكا : ١٢ دولاراً بالبريد السطحى ، ٤٠ دولاراً بالبريد الجوى .

فى باكستان و بنغلاديش ودول شرق آسيا : ١٠ دولارات بالبريد السطحى ، ٢٠ دولاراً بالبريد الجوى .

A L B A A S E L I S L A M I

N A D W A T U L U L A M A

P. O. Box No. 93 LUCKNOW (INDIA)

العـــدد القـــادم

و هو العدد الأول للمجلد التاسع و العشرين سيصدر - باذن الله فى غرة رمضان ١٤٠٤هـ (يونيو ١٩٨٤م) فنرجو القراء أن لا يترقبوا المجلة فى شهر شعبان ١٤٠٤هـ (مايو ١٩٨٤م) « التحرير »

أنشأها

فقيد الدعوة الاسلامية

الأستاذ محمد الحسني رحمه الله تعالى

فى عام ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م

المراسلات :

البعث الإسلامي

ندوة العلماء . ص . ب ٩٣

لكهنؤ ـــ الهند

Albaas - el - Islami

NADWAT- UL - ULAMA

P. O. Box No. 93

LUCKNOW (I N D I A)

أخى المسلم

أخى فى العقيدة و الدين لا فى التراب و الطين ، أخى على درب الايمان و الجهاد ، و طريق الشوك و القتاد ، أخى فى النضال و الكفاح و التضحية و الفداء ، أخى فى الحق و الصبر فى الوطن و المهجر ، أخى فى مهبط الوحى و منبع الصبح الصادق فى ليل الانسانية الغاسق ، أخى فى زهرة الصحراء و درة الخليج ، بين الرياح العاتية والأمواج الثائرة ، أخى فى اليأس و الرجاء و الشدة و الرخاء ، أخى فى الله !

نقدم إليك هذه المجلة سلاحاً لك فى وجه الباطل ، زاداً لك فى طريق الايمان ، عوناً لك على نوائب الحق ، نصراً لك فى صراع النور و الظلام و معركة الجاهلية و الاسلام ، فليكن دورك فيها دور مرابط على الثغر ، حارس للأمانة ، أكثر من دور مشترك رسمي فى مجلة ، أوزبون فى محل تجارة !

[محمد الحسنى ـ رحمه الله]

المجلد الثامن والعشرون

العدد العاشر

رجب ١٤٠٤هـ

ابريل ١٩٨٤م

في هذا العدد

بسم الله الرحمن الرحيم

هناك فى أقصى شرق العالم حيث يتغير خط التاريخ العالمى (International Dateline) وتطلع فيه الشمس حينما تغرب فى أوربا، تقع مجموعة كبيرة من الجزر فى قلب المحيط الهادى، عرفت باسم « فيجى » (FiJi) و هى دولة مستقلة تجمع تحت حكمها ٣٣٣ جزيرة، مأة جزيرة منها مأهولة، و الباقية الأخرى تستعمل للزراعة وصيد الأسماك، وصل إليها عدد من المسلمين الهنود منذ مأة عام كعمال للاستعمار البريطانى من شغلهم بالزراعة و العمل فى حقول قصب السكر بوجه خاص، و أراد الله سبحانه و تعالى أن يكونوا نواة لمجتمع إسلامى فى هذه الجزيرة النائية التى يتعانق فيها الشرق مع الغرب، و تلتقى بطريقها القارة الاسترالية بالقارة الأمريكية الشمالية.

لقد كانت هذه الجزيرة ذات الأهمية الكبرى، محط أنظار التبشير المسيحى منذ أن وطئها الاستعمار البريطانى وجعلها ضمن مناطق نفوذها فى عام ١٨٧٤م، و قد بذل المبشرون هؤلاء جهوداً جبارة فى تثقيف أهلها الأصليين و إنقاذهم من حياة الكهوف و المغارات ومن الوحشية السائدة، إلى جو من الهدوء العقلى والعادات الانسانية والضوء الحضارى، ولم يألوا جهداً فى هذا المجال مع أنهم واجهوا بعض الأحيان قسوة منقطعة النظير من الفيجيين و خسروا أموالا و أرواحاً فى هذا السبيل، ولكنهم ظلوا صامدين فى عملية التحويل و التبشير، وأحرزوا نجاحاً كبيراً فى جلب عدد ضخم إلى الاعتناق بالديانة المسيحية، والخضوع أمام التاج البريطانى.

أما المسلمون الهنود الذين قدر لهم أن يصلوا إلى هذه الجزيرة التى تقع فى أقصى شرق الدنيا و لم يكونوا يحلمون أن يقطعوا هذه المسافة الهائلة بينها وبين الهند بطريق السفن البحرية، فقد اعتبروا

وجودهم فيها نعمة من الله عزوجل و ثبتوا على حياة الايمان و العقيدة متمكسين بتعاليم الاسلام من غير رغبة ولا رهبة ، وبالرغم من اشتغالهم بأعمال زراعية مرهقة حاولوا إقامة الشعائر الدينية وبناء المساجد فى المناطق والجزر التى وصلوا إليها وبطبيعة الحال قدموا مثالا طيباً لغير الهنود و لأهل هذه الجزيرة و استطاعوا التأثير فى المجتمع المحلى حتى اهتدى عدد منهم لا بأس به ، و لا يزال طريق الاسلام مفتوحاً أمام الجاليات غير الاسلامية ، ويتسع نشاط المسلمين فى القيام بشعائر دينهم وتعميق جذور الايمان فى قلوب الجيل المسلم عن طريق إقامة المدارس المحلية وإدخال المواد الدينية فى المناهج الرسمية للدارس الابتدائيــة ، و تأسيس المساجد و الكتاتيب الاسلامية الخاصة .

ولقد تزايد النشاط الاسلامى بعد استقلال « فيجى » فى عام ١٩٧٠هـ وقيام دولة فدرالية فيها ، ولقد كان للسلمين نشاط سياسى وإسهام فى مهام الدولة بطريق الأعضاء المنتخبين فى البرلمان الذى يتكون من ٦٢ عضواً غير أن المسلمين إنما كانوا يتمتعون بالوعى الدينى والاجتماعى منذ أوائل القرن العشرين فلم يدخروا وسعاً فى بذل ما كانوا يملكونه من إمكانيات و وسائل ضعيفة للابقاء على ميزتهم الاسلامية و تقوية انتمائهم للاسلام رغم المشكلات التى واجهوها فى هذا السبيل فى بلد لم يكن بلدهم بالوراثة القديمة وإنما كان بلد الهجرة الاجبارية ، وكان يحكمه الاستعمار البريطانى وهم عائشون تحت هذا الحكم كعمال ليس غير .

و حرصاً على تقوية الكيان الاسلامى فى هذه الجزيرة النائية وتمثيل الشخصية الاسلامية أقبل المسلمون على إقامة جمعيات إسلامية ينضوى المسلمون تحت لوائها و يتسنى لهم التمثيل الاسلامى بطريقها ، ففى ١٩١٥م قامت أول جمعية اسلامية باسم هداية الاسلام ، و بعدها بعام جمعية اشاعة الاسلام و فى عام ١٩١٩م جمعية حماية الاسلام ، و نشأت فى أعقابها جمعيات عديدة كلها تهدف إلى جمع كلمة المسلمين فى هذه الجزيرة وسد حاجاتهم من نشر العقيدة و التربية الاسلامية ، وفعلا كل جمعية

ركزت على تأسيس المساجد الجديدة و المدارس الابتدائية للنشء الاسلامى واهتمت بدعوة غير المسلمين إلى الاسلام مما كان له أثر إيجابي جميل ، ولكن توزع المسلمين فى مثل هذه الجزيرة التى لم يكن فيها للمسلمين عدد ضخم جداً بين جمعيات و جماعات لم يكن فى صالح العمل الاسلامى ، وفيما يخدم الوحدة الاسلاميـــة التى كانت و لا تزال أساس كل نجاح ، وخاصة أساس النجاح فى مجال الدعوة و التربية .

ولقد تفطن بعض الأذكياء والمهتمين بجمع شمل المسلمين إلى أن إقامة رابطة موحدة قوية تتولى توحيد صفوفهم وتنسيق جهودهم ، لمن أهم حاجات الساعة فأسسوا رابطة مسلمى فيجى (FiJi Muslim League) على مستوى الدولة العام فى عام ١٩٢٦م واتخذوا خطوة إيجابية بناءة لتنظيم المسلمين كافة فى هذه الجزر وتنسيق نشاطهم الاسلامى وضم الجميعات كلها فى هـــذه الرابطة التى تعتبر المنظمة المركزية و اسمثلة الشرعيـــة للسلمين على جميع المستويات .

من هنـــالك قامت رابطة مسلمى فيجى بدور كبير فى تأسيس منشآت تعليمة و تربوية لأبناء المسلمين وبناء المساجد ومراكز العمل فى المدن و الجزر المهمة كلها ، كما أنها عنيت باقامة مدارس تجمع بين التعليم الدينى والعصرى وتهتم بتعليم لغة مسلمى فيجى التى ورثوها أباً عن جد ، و هى اللغة الأردية ، و بتعليم اللغة العربية ، فأول مدرسة من هذا النوع قامت فى مدينة « لتوكا » (Lautoaka) التى تعتبر من أهم المدن الفيجية ، فى عام ١٩٤٨م ، و فى مدينة « أتوكا » تأسست مدرسة إسلامية ثانوية باشراف هذه الرابطة ، وهكذا أصبحت رابطة مسلمى فيجى الممثلة الشرعية لمسلمى هذه الجزيرة الذين يبلغ عددهم إلى ستين ألف مسلم ، من بين ست مأة الف نسمة لسكان الجزيرة بكاملهم ، فنسبة المسلمين ، عشر فى المأة ، و إن الهنود بما فيهم غير المسلمين غالبية سكان الجزيرة فيشكلون نسبة ٥١ ٪ و الفيجيون ٤٤ ٪ و البقية من الأجناس الأخرى ، وتوجد ديانات غير الاسلام ، كالنصرانية و الهندوكية و البوذية ، و للجميع حرية فى العمل بالدين الذى يدينون به ونشره .

و من بين هذه الجزر البالغ عددها إلى ٣٣٣ تحتل جزيرتان محل الأهميـــة

الكبرى أولاهما « فيتى ليفو » (Vitilevu) الممتدة على مساحة ١٠ آلاف كيلو مربع وفيها مدينة (صوا Suva) عاصمة فيجى، ومدينة لتوكه (Lautoka) و (نادى Nadi) حيث المطار الدولى لهـذه الدولة، و الأخرى جزيرة (فانوا ليفو Vanuilevu) ومساحتها خمسة آلاف وثلاثمأة كيلو مربع، ومن أهم مدنها (لمباسا Lambasa) .

نظراً لأهمية موقع هذا البلد « فيجى » و حاجة أهلها الأكيدة إلى دعوة الاسلام كان لزاماً على الدول المعنية بالدعوة الاسلامية و فى مقدمتها المملكة العربية السعودية التى أكرمها الله تعالى بحراسة الحرمين وبتبنى الدعوة إلى الله تعالى وتطبيق الشريعة أن تتجه إلى هذه المنطقة النائية و تستعرض فيها وضع الاسلام و المسلمين حتى يتسنى تنظيم برامج العمل فيها فى ضوء الحقائق و الأرقام ، و قد ألقى الله تعالى فى روع علامة المملكة الكبير سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز حفظه الله تعالى أن يتولى مهمة تفقد الوضع الاسلامى فى هـذا البلد ، فقام بايفاد المبعوثين من رئاسة إدارات البحوث العلمية و الافتاء و الدعوة و الارشاد كدعاة و معلمين إلى فيجى و هم الذين كانوا نقطة اتصال بينه و بين هذه المنطقة ، و أحس سماحته بحاجة إلى تنظيم و توعية العمل الاسلامى فى المنطقة فأرسل المسئولين عن الدعوة الاسلاميـة فى رئاسته إلى هـذه المنطقة البعيدة حتى يزوروهـا عن كثب و يطلعوا على الوضع الصحيح للاسلام و المسلمين فيها و يرفعوا إليه تقريراً عن ذلك .

وقد كان فى مقدمة من اهتم بهذه المنطقة وتناولها بمسح شامل مع دراسة الوضع الاسلامى فيها بعمق وبصيرة سعادة الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن المسند المستشار بوزارة التعليم العالى فى المملكة العربية السعودية، ورافقه سعادة الشيخ محمد بن ابراهيم القعود مدير عام إدارة الدعوة فى الخارج برئاسة إدارات البحوث العلمية و الافتاء و الدعوة و الارشاد بالرياض ، و قد توصلا بعد لقاءات و دراسات للاوضاع فيها إلى أن هذه المنطقة بحاجة إلى إقامة دورة تدريبية للدعوة الاسلامية لمدة شهر على أقل تقدير يدعى إليها العاملون فى مجال الدعوة إلى الله فى المدارس و المساجد

و الجامعات ، و يكون مقرها مدينة « سوا » عاصمة « فيجى » و يشترك فيها كل من الشباب و الكهول ممن لهم علاقة بعمل دعوى و إسلامى ، سواء من هذه الجزيرة أو من استراليا ، التى تعتبر أقرب قارة من فيجى ، أو من المناطق المجاورة .

و وافق سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز الرئيس العام لرئاسة إدارات البحوث العلمية و الافتاء و الدعوة و الارشاد على وضع برامج الدورة التدريبية و إقامتها فى « فيجى » بين الفترة ١٥ فبراير ـ ١٥ مارس ١٩٨٤م ـ الموافق ١٣ ـ جمادى الأولى ١٣ ـ جمادى الثانية ١٤٠٤هـ . و عين سعادة الشيخ عبد العزيز المسند ، رئيس الدورة ، الذى قام بتنظيم الأمور كلها ببراعة و دقة كبيرتين ، و قام بجولة فى استراليا و المناطق المجاورة لاختيار الطلاب المشاركين و اختبار مدى صلاحيتهم للاستفادة من هذا البرنامج الدعوى والتربوى المهم ، وقام رجال رابطة مسلمى فيجى بالتعاون معه فى اختيار الطلبة من هذه الجزيرة للمشاركة فى الدورة ، مع تعاونهم الخاص فى اختيار مقر صالح لهذا العمل ، وتنظيم الشئون الادارية لمدة شهر كامل ، كما أن سعادة الشيخ المسند إنما كان موفقاً فى اختيار المحاضرين و استدعائهم من مراكز دعوية وعلمية متعددة ، وإن كاتب هذه السطور كان من بين من وقع عليهم الاختيار و خصوا بتوجيه الدعوة إليهم للمشاركة فى هذه الدورة الدعوية و العلمية كمحاضرين .

و انتهت هذه الدورة ـ و الحمد لله ـ بنجاح مرجو ، و عاد المشاركون فيها إلى مقر أعمالهم أكثر وعياً و اطلاعاً و علماً بأساليب و طرق الدعوة و فهماً للاسلام مما كانوا عليه قبل المشاركة ، و قد كانت دلائل البشر ، و الاستبشار من المستقبل بادية على جميع الوجوه ، و رأيت المسئولين عن شئون الدورة فى ارتياح و تفاؤل ، شاكرين الله سبحانه و تعالى على التوفيق الخاص الذى أكرمهم به فى هذا العمل الذى كان خالصاً لله تعالى دون أن تشوبه شائبة من النفس ، بل الواقع أن دافع الاخلاص و خدمة الدعوة و العلم كان يغطى جميع نشاطاتهم و أعمالهم ، فعاشوا شهراً كاملا فى اهتمام كبير بالدين و بلاغ الرسالة و تعليم الكتاب و السنة

(و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله و عمل صالحاً و قال إننى من المسلمين ».

إن هذه المنطقة النائية التى تتمتع بأهمية كبيرة من حيث موقعها الجغرافى أحق بالاهتمام الخاص من أهل العلم والدعوة حتى تعود إلى وضعها الاسلامى الأصيل و تتنفس فى جو من سماحة الاسلام و يعيش أهلها فى منهج الحياة الذى تجود به شريعة الله تعالى للانسان فى كل زمان و مكان ، و الذى يتكفل بالسعادة و الهناء لكل من يتبعه وينفذه فى الحياة .

و إن الجانب الخاص الذى لاحظته فى هذه الجزيرة باختلاط أهلها و دراسة وضعها الدينى هو جانب التعليم الدينى الذى لا يزال بأمس حاجة إلى اهتمام كبير من المعنيين بقضايا الاسلام و المسلمين فى الدول الاسلامية ، ذلك أن نقص هذا الجانب يورث جهلا بالدين الصحيح ، فيقع كثير من الجماهير المسلمة فى أمور لاعلاقة لها بالدين الخالص ، ظانين أنها من الدين ، و لكن التعليم الدينى هو الذى يوفر عليهم الفهم الصحيح للدين ، و معرفة الأولويات و الفرائض و السنن و المستحبات والتميز بين البدع والضلالات ، والايمان و الأعمال الصالحة ، و بتعبير آخر التميز بين الايجابيات و السلبيات .

و نرجو الله سبحانه و تعالى أن يوفق أهل هذا البلد للانتفاع بهذه الدورة التدريبية فى مجال الدعوة إلى الله ، ويمهدلهم الطريق نحو وضع برامج دعوية وتعليمية للمسلمين و أبنائهم حتى يعم فهم الاسلام الصحيح بينهم ، وتقوم هذه المنطقة الحساسة بموقعها الجغرافى بدورها المتوقع فى إرسال أشعة الاسلام إلى الشرق و الغرب معاً ، و تصبح منارة نور للقارات الغربية و الشرقية كلها و مركزاً للاسلام كبيرا ، يتعانق فيه الشرق و الغرب على صعيد الدعوة الاسلامية و كلمة الاسلام ، «ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، و هو العزيز الرحيم » .

و صدق الله العظيم ؟ .

سعيد الأعظمى

التوجيه الاسلامي

★ واقـــع العالم الاســـلامى

★ العلاقة بين الدين و الدولة

واقع العالم الإسلامي

سماحة الشيخ العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

[حديث ألقي في جمعية الاصلاح الاجتماعي بالكويت أمام جمع كثيف ضاقت به جنبات الصالة على سعتها ، وذلك مساء يوم السبت ٢٢ من صفر ١٤٠٤هـ (٢٦ من نوفمبر ١٩٨٣)] .

بعد الحمد و الصلاة !

سادتي و إخواني ، إني أتحدث إليكم في هذا اللقاء الكريم عن « واقع العالم الاسلامي » اليوم ، وفي الحقيقة أتحدث إليكم عن واقعنا جميعاً ، فهي مسئولية مشتركة و أمانة جماعية، وكنت أتمنى أن أتحدث عن واقع مشرق جميل زاهر ، يسر المؤمنين و يسر أصحاب الواقع ، و يسر المتحدث ، و إنني بدوري أستطيع أن أصور العالم الاسلامي تصويراً رائعاً جميلا ، فان اللسان يستطيع أن يعطي واقعاً حالكاً كئيباً صورة جميلة مشرقة ، و القلم أقدر من اللسان على ذلك ، و لكن سيكون واقعاً خيالياً أسطورياً ، لاصلة له بالحقيقة و الواقع ، فسأكون أميناً و صريحاً في تصوير هذا الواقع ، و إن لم أسر المستمعين الكرام ، و لم أدخل على نفسي السرور ، فالرائد لا يكذب أهله .

إخواني ! التناقض في حياة فرد عادي ، لغزة تحتاج إلى حل و فك و إلى ذكاء ، فكيف إذا كان التناقض في مجتمع كبير ، و كيف إذا كان في عالم واسع الأرجاء ، كبير الأهمية ، مجيد التاريخ ، و التناقض الغريب الذي أريد أن أتحدث عنه في هذه الأمسية ، هو أن العالم الاسلامي لم يكن في زمن من الأزمان أكثر

حكومات ، و أوسع مساحة جغرافية و أعظم أهمية سياسية ، و أغنى فى الطاقات و الامكانيات ، و أملك للوريد فى الجسم الصناعى ، لم يكن العالم الاسلامى ـ فى حد دراستى ـ و قد درست تاريخ الاسلام سياسياً و فكرياً ، وعلمياً ، و روحياً ، فى إطار واسع ، و أستطيع أن أقول فى ضوء دراساتى ، إننى ما وجدت العالم الاسلامى فى هذا التاريخ الضخم الكبير الحجم ، الواسع مساحة زمنية ، لم أجد العالم الاسلامى فى فترة من فترات التاريخ أغنى و أقوى ، و أوسع منه فى هذا الزمان ، و لكنى أقول لكم ، و الحزن يملأ قلبى ، و الخجل يعتقل لسانى : إن العالم الاسلامى مع هذا الحول و الطول و مع هذا العدد الكبير من الحكومات ، لم يكن أهون ، و لا أذل ، و لا أضعف ، و لا أخف فى الميزان السياسى الدولى منه فى هذا الزمان ، و هذا تناقض تحار فيه الألباب .

إن العالم الاسلامى فى الحقيقة كان قد ضعف فى روحه المعنوية و فى شخصيته و مميزاته من زمان ، ولكن كان له اسم كبير ، و كانت له مهابة و سطوة ، كانت هنالك الدولة العثمانيـــة ـ على علاتها و عجرها ـ كالسور المنيع للشرق الغربى ، لا يجترىء كثير من الحكومات و الشعوب الحاقدة ، أن تتسور هـــذا السور ، و يهين المقدسات الاسلامية و البلاد التى كانت تحت حماية الدولة العثمانيـــة ، و قد كان شرف العالم الاسلامى و كرامته منوطة بهذا الجزء المقدس الحبيب إلى المسلمين فى العالم ، و كان للدولة العثمانية الاسم الكبير الحافل بالأمجاد والبطولات ، فكان يصرف الناس عن الامتحان لقوته الحقيقـــة ، و كان هنالك « نظار » (١)

(١) النظار الخيال المنصوب بين الزرع ، و الناطور حافظ الكرم أو الزرع ، و الكلمة سريانية .

أو بجدار (١) على التعبير العربى القديم ، و هو العود الذى ينصبه الفلاح فى مزرعته ، و يلقى عليه شيئاً من الثياب ، فيتصور الغربان والطيور أن هذا لك إنساناً واقفاً ، فلا تتجاسر أن تقع فى هذه المزرعة و تسبب فيه ضرراً ، فاذا سقط هذا النظار أو الجدار بريح عاصفة مثلا ، أو عاثت فيه بعض الحيوانات الجريئة فأسقطته ، هنالك تعرف الطيور أنه ليس هنالك ما يخاف فتساقط عليها وتتلفها ، فكانت الدولة العثمانية ، و كان الاسم الكبير الذى تحمله ، و كانت الانطباعات التى كان يحملها الدارسون للتاريخ الاسلامى ، والتصور الكبير الضخم الذى كان أكثر من الحقيقة يمنع كثيراً من الشعوب التى كانت أقوى من الدولة العثمانية ، و كان فى إمكانها أن تسيطر على بعض الممتلكات العثمانية ، وحمياتها بسهولة من أن تجرب الوقوع فى هذه الحمى ، فلما سقط هذا النظار أو الجدار ، أصبحت الحمى مفتوحة لا حارس لها .

هذا مثل للعالم الاسلامى إذا قسنا العالم الاسلامى بمقياس الروح الاسلامية . و بمقياس القوة الايمانية ، و القوة الحربية الحقيقة . فقد كان قد تخلف فيها تخلفاً كبيراً منذ أمد بعيد ، و لكن كانت له رهبة ، و سطوة .

إن الحقيقة العالمية الخالدة أيها السادة ! أن الفرد لا يحترم إلا إذا كان يخشى و يرجى ، و الجماعة لا تحترم إلا إذا كانت تخشى و ترجى ، و تنفع وتضر . و كذلك الحكومات و المجتمعات ، لا يحسب لها حساب إلا إذا كانت تخشى . و ترجى ، و تضر ، تستطيع أن تضر و لو لم تفعل ذالك ـ بارادة و قصد ـ مدة طويلة ، و لكن يجب أن يعرف الناس أنها تملك قوة النفع و الضرر و إن لم تستعملهما ، إن الفرد و لو كان حقيراً تافهاً كالنملة قد تخشى لأنها تستطيع أن تقرص ، و العقرب تخشى لأنها تستطيع أن تلسع ، و الحية تخشى لأنها تستطيع أن

(١) ما ينصب فى الزرع لطرد الطير و الوحش ، و يقال له الفزاعة أيضاً .

تلدغ ، و الكلب يخشى لأنه يستطيع أن يعض ، و لو حيل بينه و بين ذلك سنين و أعواماً ، و كان كلباً مدللا أليفاً ، فلا بد من التوازن الصحيح و هو وجود صلاحية النفع ، و وجود صلاحية الضرر فى وقت واحد .

فكان لا بد أن يملك المسلمون بصفة أمة . و يملك الفرد المسلم بصفة فرد ، القدرة على النفع الضرر و إن لم يضر ـ كما قلت ـ لشرفه ، و لسماحته ، و إنسانيته الرفيعة ، وسمو رسالته ، ولو لم يأت منه الضرر و الأذى قروناً عديدة . لا بأس ، و لكن ليعرف الزمان أنه بمكان يرهب فيـــه ، و يخشى بأسه ، يقول الله تبارك و تعالى وهو رب العالمين ، و أحكم الحاكمين « و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم و آخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » (١) .

فأصبح المسلمون فى الزمن الأخير ، يرجون و لا يخشون . و ينفعون و لا يضرون ، و هذا و إن كان موقفاً شريفاً فى علم الأخلاق و النفس ، و فى العـــلم النظرى و الفلسفات النظرية الخيالية ، و إن كان يدل على شرف الرجل وعلى فضله ، وعلى نبله ، و على تمسكه بالمبادىء السامية ، و لكن الفطرة البشرية منذ أن فطرها الله تعالى تعودت أن تخضع للقوة ، ولما عنـــد الفرد أو الجماعة من قدرة الاضرار و الدفاع عن نفسه و أخذ الثار لها ، يقول الدكتور العلامة محمد إقبال :

« إن الوردة الجميلة لاسلامة لها ولا صيانة ، إذا كان الشوك الذى خلق ليحوطها ويصونها من الأيدى العاتية قد انحرف عن فطرته و أصبح حريراً ناعماً ، إذن فلا بقاء للوردة و لا حرمة لها » و اسمحوا لى أن أنشد البيتين باللغـــة الأردية ، لأنى

---

(١) سورة الأنفال : آية ٦٠ .

أری هنا عدداً من إخواننا الباکستانیین و الهندیین لیتـــذوقوا الآیات فی لغتها ، یقول محمد إقبال :

تمیز خار گل سے آشکارا   نسیم صبح کی روشن ضمیری
حفاظت پھول کی ممکن نہین ھے   اگر کانٹے مین ہو خوے حریری

یقول : إن نسیم الصباح یعرف طبائع الأشیاء ، فیربی الوردة علی طبیعتـــه الخاصة و هی النعومة و الرقة ، و ینشئ الشوك علی طبیعة أخری منافیة وهی الشدة و العنف ، و هذا یدل علی فراسة النسیم العلیل البلیل الذی یهب صباحاً ، یدل علی وفائه بالرسالة التی نیطت بها و وضع الشئ فی محله ، فاذا أصبح الشوك الذی یحیط و یصون الوردة الناعمة ، الوادعة البریئة ، حریراً ناعماً ، فلا بقاء للوردة ولاسلامة لها ، فکذلك لا بد للعالم الاسلامی الشریف النبیل صاحب الرسالة السامیة ، والمبادئ السماویة ، و التعالیم الربانیة ، حامل الرحمة الانسانیة ، وصاحب قلب خفاق ، یذوب للانسانیة الضعیفة و یسیل رقة و رحمة ، کان واجباً أن یکون هذا العـالم الاسلامی یملك ما یرهب و ما یخشی ، یملك السیاج المنیع ، والسور العالی ، و الجند الجاهز ، و لکن أصبح العـالم الاسلامی الیوم ترجوه کل المعسکرات الآن ، المعسکرات علی تناقضها فی المبادیء ، و علی ما بینهما من منافسة و محاربة ، تلتقی علی الانتفاع بالعالم الاسلامی و حلب درته و امتصاص دمه ، کلها تنظر إلی العالم الاسلامی کمادة ثریة ، و لکن لیس معسکر من المعسکرات الآن ، و لیست حکومة من الحکومات الکبیرة التی تتحکم الآن فی مصایر الأمم ، و فی المسیرة الانسانیة ، تخشی العالم الاسلامی فتحترمه ، إنما نسمع کلمات الاعتراف لبعض الحکومات الاسلامیة والعربیة ، وکلمات الاحترام فی أحیان أخری ، و لکنها کلها سیاسة و نفاق ، لیس فی قلب أحد من

هؤلاء الساسة ، و القادة من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، خوف من العالم الاسلامى فى الحقيقة .

ثم زاد الطين بلة ، هو أنه قد عرف العالم الغربى أن هذه الحكومات التى كان يمكن أن تخشاها مشغولة بشعوبها ، مشغولة بالصحوة الدينية التى ظهرت فى هذه البلاد ، إنها فى شغل شاغل ، إن همها الوحيد أن تقضى على البقية الباقية من الجمرة الايمانية فى هذه الشعوب ، فهى لا تجد فرصة ، ولا تجد مجالا لأن تبرز فى الميدان الحقيق ، و تتحدى القوة الأجنبية المحاربة للاسلام ، كالصهيونية أو الصليبية الحاقدة ، أو أن تنهض للانتصار لقضية إسلامية من قضايا الشعوب الاسلامية المضطهدة

و من المؤسف أن قادة البلاد الأجنبية يعرفون هذه الحقيقة و هذا الوضع ، أحسن ، و أكثر مما يعرفه كثير من إخواننا الذين يعيشون هذا الواقع ، و عندهم تفاصيل دقيقة ، ودراسات عميقة لواقع العالم الاسلامى اليوم ، هم يعرفون أن الجمرة الايمانية التى كانت تخشى فى الزمن القديم وهو الاستهانة بالحياة والحنين إلى الشهادة ، قد انطفأت فى صدور المسلمين أو كادت تنطفئ ، وكان هؤلاء القادة الأجانب يعرفون أن المسلمين يندفعون لهتاف الايمان ؟ ولا يفهمون إلا لغة القرآن و الدين ، ولأنهم لا يندفعون إلا لما فيه أجر الآخرة ، ولما فيه رضا الله تبارك و تعالى ، إن عدداً من الأقطار الاسلامية كسبت المعركة مع العدو وتغلبت عليه بفضل الهتاف بالشهادة فى سبيل الله ، و الهتاف بالجهاد فى سبيل الله ، و لكن لما انتهى هـذا الدور ، و خرجت من المعركة ، فأول ما تحاول و تصرف جهودها إليه هو القضاء على هذه الجمرة الايمانية ، إلى الآن لا تزال الصلة الأقوى التى تربط المسلمين بصدر القوة التى تأتى بالمعجزات ، هى الصلة بالله تبارك و تعالى ، و برسوله ، و لا تزال روائح الجنة تفوح مهما حاول السياسيون ، ولكن لا تزال الجمرة الايمانية كامنة فى الرماد ،

و لكن أكثر قادة البلاد عادوا ، لا يربطهم رباط بهذه اللغة الايمانية و الحمية الاسلامية ، و قد ضعفت الصلة بينهم و بين مصادر الايمان أنه جيل قد نشأ فى أحضان الحضارة الأوربية ، و كليات التربية العسكرية فى عواصم أوربا، وأساتذتهم و مربوهم يعرفون أنه قد أفلت الزمام من أيديهم، وانقطع الخيط الذى كان يربطهم بالمجموعة الاسلامية ، وبالجماهير المسلمة ، واستبدلوا به خيطاً سياسياً ، و الأوربيون يعرفون ، أن هذا الخيط إذ نفع و أفاد فى بلد ، فانه لا ينفع فى بلد إسلامى ، منهم من درس القرآن ، و منهم من درس تاريخ عصر الصحابة، و منهم من درس تاريخ صلاح الدين الأيوبى ، و تاريخ الغزوات الاسلامية ، و تاريخ الدعوة إلى الاسلام ، فهم يعرفون أن الخيط الذى يربط قادة البلاد بالجماهير المسلمة ، ليس فيه قوة أبداً ، إنه ينقطع سريعاً ، إن هذه الجماهير على ما أصابها من الوهن وعلى ما أصابها من أدواء و علل ، و على ما أصابها من تدهور ، لا تزال تندفع للهتاف الدينى و الايمانى فى كل مكان .

لقد أصبحت الأمة الاسلامية الآن هدف المآسى و المهازل فى وقت واحد لماذا ؟ لأننا هازلون ، و هزيلون ، العالم الاسلامى أصبح هزيلا و هازلا ، لا جد فيه ، تزور العالم الاسلامى من أقصاه إلى أقصاه ، من الشرق إلى الغرب ، تجدون هناك فيضاً من ملاهى ، وملاعب ، هل هناك تناسب ، تناسب بين ما نعيشه ونمط الحياة الذى نحياه فى هذه المدن الآمنة المطمئنة ، و بين ما يقع فى الجزء الآخر فى العالم الاسلامى هل إذا زار أحد من الزوار من الخارج و رأى هذه المدن ، هل يستطيع أن يفهم أن هذا جزء من الجسم الاسلامى الذى تقطع أجزاؤه فى ناحية أخرى ، هل هذه الأمة هى نفس الأمة التى أصبحت هدفاً فى لبنان وفى أفغانستان ، هل هم كلهم أعضاء الأسرة ، و الرسول ﷺ يقول « مثل المسلمين فى توادهم ،

و تراحمهم ، و تعاطفهم كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر و الحمى (١) .

يقول الله تعالى :

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » هل نحن أمة واحدة »

يقول بعض المستشرقين : انهزم الاسلام مرات عديدة سياسياً و هزم روحياً وحين انهزم سياسياً هزم الفاتح المسخر المدمر روحياً .

يجب أن تخمد هذه المعركة الدامية الحامية ، هذه المعركة غير الطبيعة ، هذه المعركة الصناعية التى استنزفت جهود القادة و السادة ، و ولاة الأمور ، والمفكرين فى بلادنا الاسلامية ، يجب أن تخمد وتنتهى هذه المعركة غير الحقيقية التى هى حامية بين الشعوب و الجماهير و الحكومة . فالحكومات تتجه اتجاهاً آخر ، و الشعوب تتجه الاتجاه القديم الاسلامى إلى الآن ، فلا الحكومات نجحت فى جر هـذه الشعوب و الجماهير المسلمة ، إلى الابتعاد عن جادة الاسلام ، و لا الجماهير نجحت فى إقناع هؤلاء الحكام والملوك فى استخدام الطاقة الذرية الهائلة التى هى كامنة فى نفوس الجماهير المسلمة ، و هى ، قوة الايمان التى هى أقوى من الطاقة الذرية ، فاذاً من الحكمة و من المعقول و النصيحة ، و من التوجيه الرشيد السديد أن تنتهى هـذه المعركة المصطنعة التى تحتدم هذا الصراع النفسى ، والصراع العملى الذى يحتدم بين من يملك الزمام ، سواء من يملك زمام التربية ، أو زمام السياسة ، أو زمام القيادة ـ والذين نشأوا فى أحضان الثقافة الأوربية ، و بين الشعوب المسلمة الوادعة المخلصة البريئة الصادقة ، القوية ، الوافية ، الوفية ، الزاكية الزكية ، البقية النقية ، أليس من الخير ،

(١) حديث متفق عليه .

أليس من المعقول أن تنصرف كل الجهود ، و الطاقات إلى استخدام هـــذه القوة التي لا يزال المسلمون يملكونها ، قوة الايمان ، و قوة الفداء ، و الوفاء للاسلام ، و بذل النفس و النفيس لله تبارك و تعالى .

ثم لا بد أن تنهض هؤلاء الربانيون الذين ذكرنا بعض النمـاذج من سيرتهم و من دعوتهم للاسلام ، فى كتابنا « رجال الفكر والدعوة فى الاسلام » و « ربانية لا رهبانية » فان الربانيين الصادقين ، الراسخين فى العلم المتبعين للسنة ، فيهم وحدهم قدرة على تربية النفوس على الايمان و الاسلام ، و الخلق المستقيم ، و التمرد على المادة و على الشهوات ، و التغلب على المغريات المعاصرة ، كان ما زال فى العـــالم الاسلامی هذا النمط من الربانيين ، ما خلا منهم عصر ، ولكن اجتمعت عدة أسباب ، و عدة أدوات لمحاربة هذه الربانية الصادقية ، فأقول كما قال الحطيئة :

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم   من اللوم أو سدوا المكان الذى سدوا

لملأ فراغ الربانية المشرقة الصادقة المؤسسة على الكتاب و السنة و على الزهد فى حطام الدنيا ، و الانصراف إلى الآخرة ، و الاشتغال بذكر الله تبارك و تعالى ، و استحضار الآخرة ، حتى نستطيع أن نجر هذه المجموعة الكبيرة إلى بر السلام ، إلى حقيقة الاسلام ، و إلى ماضى هذه الأمة .

أما بغير ذلك ، فان العالم الاسلامی ، إنما أتحرج أن أقول ، ولكننی أقول ، لأنه قد قال قبلى مفكر كبير وهو أكبر الكتاب فى عصر أمير البيان الأمير شكيب أرسلان يقول : « كاد أن يكون العالم الاسلامی بحراً كبحر العروض ، بحر ولا ماء » بحر العروض لا ماء فيه ، أصبح العالم الاسلامی لا يحمل قوة ترهب ، و لا يحمل القوات التى هى تمنع عن هذه المآسى .

هذا هو واقع العالم الاسلامى الذى نشاركه جميعاً ، و لو كنت منفرداً و فى عزلة عن هذا الواقع لما اجترأت أن أقول هذا ، و لكنى أشاركهم كأى مسلم و كعربى و نصيبى ليس أقل من نصيبكم ، فيسوغ لى أن أتكلم بهذه الصراحة ، لأنى لا أشهد على أنفسكم ، و لا على هذه المنطقة و لا على البلاد العربية لحسب ، بل أشهد على نفسى ، وعلى إخوانى ، وعلى من أزاملهم وأشاركهم ، وأتعاون معهم.

هذا واقع العالم الاسلامى يجب أن يتغير . و فى صالح الانسانية أن يتغير ، و فى صالح مصير الانسانية أن يتغير ، و إرادة الله أن يتغير هذا الواقع ، ويرجع العالم الاسلامى إلى ما كان عليه فى قرون مشهود لها بالخير ، فى زمن عظمة الاسلام و مجده ، و لا خير ، و لا لذة فى الحياة ما دام العالم الاسلامى هكذا ، لا لذة للمتلذ . و لا عزة لمعتز ، و لا قوة لقوى ، إذا كان العالم الاسلامى بهذه الصفة .

هذه كلمتى و أنا أشعر بأنها قاسية ، و لكنها صريحة ، وصادقة إن شاء الله ، و أرجو من الله أن يكون لها صدى فى نفوسنا ، و يكون لهــا مفعول فى نظام تفكيرنا ، و الله الموفق و المعين .

العلاقة بين الدين و الدولة

العلامة الدكتور السيد سليمان الندوى
تعريب : الأخ نثار احمد الأعظمى

يوجد فى العالم اليوم نوعان من الدولة :

١ــ النوع الأول منهما مالا علاقة له بالدين أصلا ، و هى تقوم على مبدأ « ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وإن هذا المبدأ يقيم الله وقيصر فى صفين متوازيين لا ينطبق حكم واحد منهما على الآخر ، و قد تأسست دول الغرب الحاضرة على هذا الأساس ، ففصلت الدين عن الدنيا و رسمت لكل واحد منهما حدوداً تخصه ، وقد أنتج ذلك أن الدول تجردت عن كل تصور للعبادة والدين والصدق والاخلاص

٢ــ النوع الثانى من الدولة ما له علاقة بالدين ، والدين لم يكن بمعزل عنها غير أن روح الدين الرقيقة قد فرضت عليها قوانين الدولة و قيودها بحيث إن تلك الروح قد تلاشت وحلت محلها القوانين و التقاليد الخشبية ، و من أروع الأمثلة لهذا النوع من الدولة : اليهودية و البرهمية .

إن الدين الالهى (و هو الاسلام) لم يزل ولا يزال واحداً ، يقول الله تعالى : « إن الدين عند الله الاسلام » و هذا الدين دين متكامل شامل ، قد قام العلماء بتفسير هذا الشمول من عدة وجوه ، منها أنه جامع بين الدين والدولة بصورة متزنة معتدلة ، و هذه الدولة ليس فيها قيصر و لا كسرى ، و إنما الحكم الأعلى فيها لله الواحد القادر الملك الحق لا إله إلا هو ، ليس للحكام و الأمراء فى هذه الدولة أن يصدروا حكماً إلا إذا كان مستنداً إلى كتاب الله و سنة رسوله .

كان سيدنا محمد ﷺ آخر نبي أرسل بهذا الدين ، وهو أول أمير و حاكم لهذه الدولة الربانية ، قرنت إطاعته باطاعة الله ، قال الله تعالى « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » و بعد وفاته ﷺ قام من أصحابه الخلفاء الراشدون المهديون الذين جمعوا بين الدين و الدنيا ، و الامارة والحكم ، و الامامة و الاجتهاد و القيادة الدينية ، و قورت إطاعتهم إطاعة الله و رسوله ، قال رسول الله ﷺ : « من أطاع أميرى فقد أطاعنى و من عصى أميرى فقد عصانى (١) .

هذا الجمع بين الدين و الدنيا هو أسمى ما يهدف إليه الاسلام ، فكل شأن من شؤن الدولة يمارسه الحكام طبقاً للاحكام الالهية وابتغاء لوجه الله تعالى يعتبر من الدين و العبادة حتى إن سياسة الأمراء لرعاياهم و اهتمامهم بأمورها ، وإطاعة الرعايا لأمرائها كذلك داخلة فى طاعة الله عز وجل .

فالحاصل أن الاسلام لا يقر بأى تفريق بين الدين و الدولة ، إن الامام فى إمامته و الخليفة فى خلافته ، و الراعى فى رعيته ، و الوالى فى ولايته ، و الأمير فى إمارته ، و الحاكم فى حكومته . و القاضى فى قضائه ، و الجندى فى ميدان القتال و المجاهد فى سبيل الله ، كل أولئك إذا أطاعوا الله وأخلصوا نياتهم تعتبر مزاولتهم لمسئولياتهم من الدين و العبادة ، و لئن أهمل هؤلآء واجباتهم و أحجموا عما عليهم من المسئوليات نحو الأمة و لجأوا إلى زاوية من زوايا البيت أو المسجد كانوا مقصرين ، فان الاسلام دين وسط لا رهبانية فيه ، يهتم بشؤن الدنيا كما يهتم بشؤن الدين .

أذكر هنا على سبيل المثال قصة داؤد عليه السلام و المستغيثين الذين تسوروا

(١) صحيح البخارى كتاب الأحكام ج ٢ ص ١٠٥ ، و الصحيح لمسلم كتاب الامارة ج ٢ ص ٢٢٣) .

المحراب ، فان فيها تنبيها من الله عز و جل لداؤد عليه السلام على أن الخليفة إذا فرغ من أداء الفرائض و الواجبات يجب عليـــه أن ينتصب للنظر فى شؤن الدولة و قضايا الناس ، و التعاهد للرعية ، فقد ورد فى القرآن الكريم : « و ظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه و خر راكعاً و أناب ، فغفرنا له ذلك ، و إن له عندنا لزلفى و حسن مآب . يا داؤد إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق و لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (١) .

يتبين من إمعان النظر فى نظم الآيات أن داؤد عليه الســـلام لما انشغل عن شؤن الدولة و فصل الخصومات و أغلق باب صومعته على الناس و عكف على ذكر الله و عبادته نبهه الله على ذلك و أوحى إليه أنه يجب على الخليفة أن يهتم بشئون الدولة و قضايا الرعية .

وقد ورد حديث فى جامع الترمذى و المستدرك للحاكم يفسر الآية المذكورة ، قال رسول الله ﷺ : « ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة و الخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته و حاجته و مسكنته (٢) » .

« من ولى أمر المسلمين شيئاً فاحتجب دون خلتهم وفقرهم و فاقتهم احتجب الله عز و جل يوم القيامة دون خلته و فاقته (٣) » .

إن الخلفاء الراشدين المهديين قد بذلوا أقصى جهودهم فى اتباع هذه الأحكام و اقتفاء آثارها حتى لم يبنوا لأنفسهم القصور و بيوت الجص و الآجر ولم يحتجبوا دون رعيتهم و لم يجعلوا بينهم و بينها حجاباً غير أن عبيداً كانوا مرتبين على أبوابهم لمن يستأذن للدخول عليهم .

(١) سورة ص : الآية ٢٤–٢٥ .
(٢) الترمذى أبواب الأحكام ص ٢٢٢ .
(٣) المستدرك للحاكم كتاب الأحكام ج ٤ ص ٩٣ .

لما ولى الكوفة سعد بن أبي وقاص فى عهد عمر الفاروق رضى الله عنه بنى له قصراً ركب فيه رتاجاً، فلما بلغ ذلك عمر الفاروق بعث من المدينة محمد بن مسلمة رضى الله عنه ، و أمره بأن يشعل الحريق فى رتاج القصر . فطوى الأرض إليه . و لم يكد أن يصل حتى أضرم فيه النار ، و أراد منه سعد بن أبي وقاص أن يقيم عنده ، وعرض عليه الزاد والمتاع ، ولكنه أبى ، وانطلق إلى المدينة راشداً (١) .

لما خاف معاوية فى عهده من المهاجمين عليه منع الناس من أن يدخلوا عليه ، و احتجب دون حاجتهم و خلتهم ، فقام إليه عمرو بن مرة من أصحاب رسول الله ﷺ وأخبره إنى سمعت رسول الله يقول : ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة و الخلة و المسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته و حاجته و مسكنته ، فجعل معاوية رجلا على حوائج الناس (٢) » .

قد أكد القرآن الكريم مراراً أمراء المسلمين و حكامهم أن يحكموا بالعدل ولا يقصروا فى أداء و اجباتهم نحو الدولة والشعب، يقول تعالى : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعاً بصيراً ، يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و أطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فان تنازعتم فى شئ فردوه إلى الله و الرسول إن كنتم تؤمنون بالله و اليوم الآخر ، ذلك خير و أحسن تأويلا (٣) .

هذه الآيات لها مكانة رئيسية فى تشريع قوانين الدولة فى الاسلام وأول جزء من هذه الآية ينطبق على الحكام فيما قاله المفسرون .

(١) ابن حنبل ج ١ ص ٥٤ طبع مصر .

(٢) الترمذى أبواب الأحكام .

(٣) سورة نساء : الآية ٥٨—٥٩ .

و يتبين من هذه الآيات أنه تجب إقامة العدل التام فى أداء الحقوق و أن يكال للناس كما يكتال عليهم ، قال الله عز وجل : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون (١) .

فمن زاد أو نقص فى الكيل و الوزن ظلم و جار عن العدل و حرم رحمة الله و فضله ، و أما من قضى بالعدل و أقام الوزن بالقسط فقد استوجب الرحمة الالهية « إن الله يحب المقسطين » (٢) .

و أما الذين اتبعوا أهواءهم و جاروا عن العدل فيقول فيهم القرآن :

« و الله لا يحب الظالمين » (٣) .

« إنه لا يحب الظالمين » (٤) .

و الظلم معناه غمط الحق ، مهما كان حقاً لله أو لعباده .

فادارة الدولة و شئونها لها اعتبار دينى فى نظر الاسلام ، و القيام بها بكل إيمان و احتساب يكسب الأجر و المثوبة و الغفلة عنها مأثمة و معصية ، ولا بد أن تؤدى هذه المسئوليات فى ضوء التعاليم الالهية و التوجيهات النبوية ، كما قال عز و جل : « و من لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الفاسقون » (٥) .

و قال النبى ﷺ : « ألا أيها الناس لا يقبل الله صلاة إمام حكم بغيرما أنزل الله » (٦) .

---

(١) سورة المطففين : الآية ١—٣ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٤٢ — سورة الحجرات : الآية ٩ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٥٧ ـ و ١٤٠ .

(٤) سورة الشورى : الآية ٤٠ .

(٥) سورة المائدة : الآية ٤٧ .

(٦) المستدرك للحاكم ج ٤ ص ٨٩ كتاب الأحكام .

و هنالك كثير من الأحاديث النبوية تشير إلى أن الحكومة فريضة دينية ، من قام بها كما أمره الله يأتى يوم القيامة آمناً مسفراً وجهه ضاحكا مستبشراً ، يتقلب بين رحمة الله و نعمته ، و من أهملها و تغافل عن أداء حقوقها يأتى يوم القيامة شقياً خائباً خاسراً يلقى الذل و الهوان .

قال رسول الله ﷺ : « الامام الذى على الناس راع و هو مسؤل عن رعيته » (١) .

فالخلافة أو الامارة فى الاسلام ليست حديقة يتمتع الحكام و أولو الأمر ببهجتها و نضارتها بل هى مسؤلية دينية لا يحملها إلا من وفقه الله ، قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصيحة الا لم يجد رائحة الجنة » (٢) .

إن معقل بن يسار من أصحاب رسول الله ﷺ عاده فى مرضه الذى مات فيه عبيد الله بن زياد الذى كان والياً غشوما بالبصرة ، فقال معقل يا عبيد الله إنى محدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ ، لو علمت أن لى حياة ما حدثتك به . إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت و هو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة (٣) .

و دخل عائذ بن عمرو من أصحاب رسول الله ﷺ على عبيد الله بن زياد و لم ينتظر مرض موته وخاطبه برفق ولين ، فقال: أى بنى إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن شر الرعاة الحطمة . فاياك أن تكون منهم فقال له اجلس فانما

(١) صحيح البخارى ج ٢ ص ١٠٥٧ كتاب الأحكام .

(٢) صحيح البخارى كتاب الأحكام .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة .

أنت من نخالة أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال وهل كانت لهم نخالة ، إنما كانت النخالة بعدهم و فى غيرهم (١) .

عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « كانت بنو اسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبى خلفه نبى ، و إنه لا نبى بعدى ، و سيكون بعدى خلفاء ويكثرون ، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله قال فوا بيعة الأول فالأول أعطوهم حقهم فان الله سائلهم عما استرعاهم (٢) .

وقال النبى ﷺ : « اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليه فاشقق عليه . و من ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فارفق به (٣) .

هذه كلمات من النبى ﷺ شاملة للملك و لأدنى عامل فى الدولة الاسلامية على السواء ، و تعود على كل واحد مسئولية الجانب الذى يتولاه .

و قال رسول الله ﷺ : « ألا كلكم راع و كلكم مسؤل عن رعيته ، و الرجل راع على أهل بيته و هو مسئول عنهم ، و المرأة راعية على بيت بعلها و ولده وهى مسئولة عنهم ، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته (٤) .

الرعيـــة :

قد شاع استعمال هذه الكلمة فى لغتنا حتى كدنا نتناسى حقيقتها ، هذه الكلمة مشتقة من رعى الابل و الغنم والبهائم فمعنى ذلك أنه كما أن الراعى يهتم بغنمه وإبله

(١) صحيح مسلم كتاب الامارة ص ١٢٢ .
(٢) صحيح البخارى ج ١ ص ٤٩١ باب ما ذكر عن بنى إسرائيل .
(٣) صحيح مسلم .
(٤) متفق عليه .

و يغدو بها إلى مروج خضراء و يراقبها كي لا تقع فريسة السباع و الوحوش الضارية كذلك يجب على الحاكم و الأمير الاهتمام بالرعية و السعي لتربيتها و توفير مرافق الحياة لها ، هذه الكلمة شاملة لمعاني المحبة و الشفقة و الملاطفة . وهي تحمل في طياتها أبعاداً عميقة من المسؤليات و الواجبات .

و قد وردت عن النبي ﷺ بشائر في الامام العادل ، قال :

« إن المقسطين عند الله على منار من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم و أهليهم و ما ولوا (١) .

و قال : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة و أدناهم مجلساً إمام عادل ، و أبغض الناس إلى الله و أبعدهم منه مجلساً إمام جائر » (٢) .

وعلى العكس من ذلك فكل أمير أو حاكم لم يحكم بالعدل والانصاف ولم تهمه أمور رعيته و لم يعتن بمعاملته لها بالنصيحة و المودة لم يستحق رحمة الله و نعمته ، قال سيدنا محمد ﷺ : « ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم . إلا لم يدخل معهم الجنة » (٣) .

وقال : « ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة » (٤) .

و قال : « إنما الامام جنة يقاتل من ورائه و يتقى به فان أمر بتقوى الله

(١) صحيح مسلم كتاب الامارة .

(٢) جامع الترمذي أبواب الأحكام .

(٣) صحيح مسلم كتاب الامارة .

(٤) صحيح البخاري كتاب الامارة .

و عدل فان له بذلك أجراً و إن أمر بغيره فان عليه وزرا » (١) .

و ما ذكر من الأحاديث النبوية يؤكد أن الحكم و الامارة من أمور الدين تكسب لصاحبها الأجر و الثواب و تجلب عليه الويل و العقاب .

إن الاسلام لا يسمح بالرهبانية واللجوء إلى الكهوف والغارات، والفرار عن معارك الحياة ، إنه يأمر الدولة بأن تجند طاقاتها و تبذل مساعيها فى تبليغ أحكام الله و إعلاء كلمته و إقامة شريعته المنيفة المحكمة ، دعا الاسلام بكل قوة إلى الجهاد ، و بشر المجاهدين بأن لهم أعظم أجراً و نعمة فى الآخرة ، وكانت حياة رسول الله ﷺ و أصحابه عامرة بالجهاد وههنا نورد بعض الآيات التى تنص على وجوب الجهاد و فضله ، يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنم و بئس المصير » (٢) .

و قال : « و الصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا و أولئك هم المتقون » (٣) .

كان الصحابة رضى الله عنهم لأجل إيمانهم بأن قطرة دم فى سبيل إقامة الدين و إعلاء كلمة الله تمحو الخطايا والذنوب ، فى حنين وشوق دائمين إلى الجهاد والقتال فى سبيل الله و الشهادة فيها ، قال الله عز و جل : « فالذين هاجروا و أخرجوا من ديارهم و أوذوا فى سبيلى و قاتلوا و قتلوا لأكفرن عنهم سيآتهم و لأدخلنهم

(١) سنن النسائى كتاب البيعة

(٢) سورة الأنفال : الآية ١٥—١٦ .

(٣) سورة البقرة : الآية ١٧٧ .

جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله، والله عنده حسن الثواب» (١).

إن الاسلام دين سماوى خالد متكامل شامل، يختلف فى محتواه عن الأديان الأخرى كاليهودية و المسيحية و البرهمية، فان هذه الأديان كلها تقر بفصل الدين عن الدولة، و أما الاسلام فلم يعرف هذا الفصل فى يوم من الأيام، إن كلمة الدين استعملت فى القرآن الكريم فى معنى إقامة الأحكام الالهية و تنفيذها، و الدولة وسيلة لانجاز هذه الغاية. و إقامة الدولة أى الخلافة فريضة محكمة فى الاسلام.

إن الخليفة فى الاسلام ليس كالملوك الجائرين المستبدين و الحكام الظالمين، تعنى كلمة الخلافة النيابة، فالخليفة فى الاسلام ليس مستقلا بذاته و إنما هو نائب يستمد سلطته من الله و رسوله، و لا يجوز له أن يقوم بأى تشريع إلا مستنداً إلى كتاب الله و سنة رسوله

و قد ذكرت قصة آدم عليه السلام فى القرآن الكريم كحجر أساسى لنظام الاسلام، فان هذه القصة تشير فى جانب إلى تكليف الانسان و سر العقاب والثواب، و الحاجة إلى الرسالة و النبوة و المصلحة فى بعثة الرسل و الأنبياء، و فى جانب آخر إلى منزلة الانسان و مسؤلياته فى هذه الدنيا، و امتثاله لأحكام الله تعالى و معاملته و سلوكه تجاه خلقه، فالجانب الأول يسمى بالعقائد الاسلامية، و الجانب الثانى يعرف كمبادىء رئيسية للدولة الاسلامية.

(١) سورة آل عمران : الآية ١٩٥.

الرسول صلى الله عليه وسلم و موقفه من العلم

الشيخ / حسين جوزو (يوغو سلافيا)

من المعلوم بالضرورة أن رسالة محمد ﷺ اختتمت بها سلسلة النبوات ولذلك كان رسولنا و نبينا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين و المرسلين ولا نبي بعده.

و الثابت أن برسالة محمد ﷺ وبعبارة أخرى بالقرآن بوصفه الكلمة الأخيرة للوحي انتهت فترة الخوارق التي كان أصحاب الرسالات في الأزمان السابقة من الأنبياء يثبتون بها صدق و صحة رسالتهم و بعثتهم.

ولا حاجة بنا أن نستعرض هنا ما قص علينا القرآن من أنباء تلك الخوارق التي أيد بها سبحانه و تعالى رسله بالآيات المعجزات لأن ذلك معلوم لكل من له أدنى إلمام بالدين و قد ذكر و سجل القرآن كثيراً من تلك الخوارق المتعلقة بالتحدى للكفار و بإثبات صدق دعوة الأنبياء و بعثتهم :

و قد انقضى عهد الخوارق ـ كما قلنا ببعثة محمد صلى الله تعالى عليه و سلم و استثناه سبحانه و تعالى عن غيره من الأنبياء السابقين ، فلم يؤيد بعثته بالخوارق و الآيات الميتا فيزقية فقط ، وإنما أيدها بالقرآن و آيات الكون ، و قال الله تعالى مخاطباً لخاتم أنبيائه و رسله (قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ، و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، و ما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الاعراف ١٨٨) ، وقال : « وإن كان كبر عليك إعراضهم

فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية و لو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكونن من الجاهلين ، إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون » (الأنعام ٣٥) .

و قد ثبت أن القرآن أنهى عهد الخوارق و فتح عهد العقل و العلم و التفكر والتدبر والنظر إلى آيات الكون وإلى ما تحتوى عليه الطبيعة من الاسرار والعجائب كما أطلق للانسان حريته الكاملة بجميع أنواعها بما فيها حرية الضمير و العقيدة والرأى فحريته غير مقيدة ، إنه حر فى إرادته و اختيار ما يقدم عليه مما يباشر من أعماله وأفكاره وآرائه واعتقاده، يقول الله تعالى : « و قل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن و من شاء فليكفر ، إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب و ساءت مرتفقاً » (الكهف ٢٩ـ٣٠) و جاء فى القرآن الكريم : « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، و ما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله و يجعل الرجس على الذين لا يعقلون ، قل انظروا ماذا فى السماوات و الأرض و ما تغنى الآيات و النذر عن قوم لا يؤمنون » (يونس ٩٩ـ١٠٠) .

و من المؤكد أن ما يمتاز به عهد رسالة محمد ﷺ و من أخص خصائصه هو سيادة الوحى و العلم و الاعتماد عليهما بدل الخوارق والكهنة و العرافة والتنجيم طبعاً فى حدود إمكانيتهما كما سنبين ذلك فى مكان آخر من هذا البحث .

دعا القرآن الكريم إلى السير فى الأرض والنظر إلى آيات الكون ، والتأمل فيها وإلى ما جرى فى التاريخ من حوادث و إلى أخذ العبر لأمم و أقوام ودول ، يقول الله تعالى فى كتابه الكريم : أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم » (غافر ٨٢) .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض » (آل عمران ١٣٧) .
« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين (النمل ٦٩) .
« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت ٢٠) .

إن التفكر و التفكير فى نظر الاسلام من أفضل العبادات و من المأثور أن فكر ساعة خير من عبادة سبعين سنـــة و أقرب الناس إلى درجة النبوة أهل العلم و الجهاد « و فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب » (١) .

و يكفينا فى معرفة منزلة العلم و مكانته فى الاسلام أن نلاحظ أن الله تعالى اختار الانسان أن يكون خليفته فى الأرض ، و سخر له كل ما فى السماوات وما فى الأرض ، و شرفه بهذه المهمة العظيمة ، و فضله على سائر المخلوقات على الرغم مما أبداه الملائكة وأشاروا إلى بعض خصائص الانسان السلبية من إفساد وسفك الدم . و ذلك لأن الانسان يحمل فى طبيعته و جوهر كيانه القدرة على العلم و المعرفة ، وقد ميزه الله تعالى و فضله على سائر المخلوقات بالعقل الذى يمكنه من إدراك حقائق الأشياء و كشف نعم الله فى الكون ، « و علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم » (البقرة ٣١ - ٣٢) .

هذا ، و لكن يجب أن نعرف أن عقل الانسان و علمه يجرى فى حـــدود متناهية و نطاق معين و دائرة محدودة ، إن العقل و ما ينتج منه من علوم وفنون و اكتشافات تكنولوجية غير كاف و غير واف لاسعاد البشر و تحقيق رفاهيته و رخائه ، و غير قادر ، لادراك كنه الحقيقة المطلقة ، و إنما يدرك مظاهرها و تجليات صفاتها . لأن الحقيقة المطلقة وراء الكون ، و الكون ليس إلا آية من آيات هذه الحقيقة .

(١) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه والبيهقى وقال : الترمذى : لا يعرف إلا من حديث عاصم بن رجاء من حيوة و ليس اسناده عندى بمتصل .

و من الخطأ الفاضح و الانخداع الخطير ، الاعتماد المطلق على العلم فقط ، و الثقة التامة به ظنا أن الانسان يكتفى به فى حياته ، ولا يحتاج إلى غيره ، وهذا ما وقعت فيه الحضارة الحديثة و اتسمت به ، و قد آمنت بالعقل والعلم إيماناً مطلقاً ، واعتمدت عليهما اعتماداً كاملا ، وتجاهلت و تناكرت لسواهما ، لحدث لها ما حدث من انحراف و انحلال و انكار للفضيلة و القيم الروحية ، و من عدم الطمأنينة و الاستقرار فى الحياة وفى نفوس الناس ، إن الانسان يعيش فى قلق مستمر و اضطراب متواصل و خوف دائم . وعلى الرغم من التقدم الباهر و المنتجات و المنجزات الضخمة فى جميع حقول الحياة فان العالم المعاصر فى مأزق لعل الله يجعل منه مخرجاً و قد طغت فيه الماديات طغياناً لا مثيل له فى التاريخ ، و أصبحت القوة تسيطر بجبروتها و تتحكم فى جميع الأمور و صار الانسان عبداً للآلة و انحطت قيمته وحلت محله و قامت مقامه العقول الالكترونية ـ كومبيوتر ، و بهذا أصبح الانسان بمثابة دودة زائدة بدون وظيفة و كأنه لا حاجة إليه ، قد يستغنى عنه .

و من هنا تبين لنا و ثبت ثبوتاً لا يتطرق إليه أى شك أن الانسان لفى خسر و إنه لفى خسر مهما تقدم فى العلوم ، ومهما أنتج من مختلف المنتجات ومهما وصل إليه من حضارات و انجازات مادية و الواقع أن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر . فهؤلاء لفى سعادة و يمن و بركة .

و معنى ذلك أن العلم بدون الايمان بالله لا يضمن السعادة و فى الغالب يساء استعماله ، كما حصل ذلك فى الواقع فى عهدنا ، فانه قد أسيء استعماله و أصبحت اكتشافاته تهدد البشرية بابادتها مباشرة أو غير مباشرة ، اعنى بالأسلحة النووية

أو بتلوث النفوس و الهواء و الماء، و كل هذا قائم يعمل عمله و ينذر بالويلات و النتائج الوخيمة المؤلمة .

العلم بدون الايمان غير مفيد ، لذلك قال الله تعالى فى أول آية نزلت على الرسول « إقرأ باسم ربك » ، فالعلم باسم رب العالمين معناه استعماله فى خير الانسان و المجتمع الانسانى و يتعذر اساءة استعماله ، و كما يتعذر استخدامه فى القتل و التخريب و التدمير ، و هذا ما حدث مع الأسف الشديد فى عهدنا .

ومع ذلك فان الانسان لا يستغنى كذلك عن العقل ، ولكنه لا يستغنى كذلك عن القلب إنه بحاجة إلى العلم ، و لكن حاجته إلى القلب أشد ، لأن إنسانيته تعتمد و تتوقف على القلب و الهدى أكثر من توقفها على العقل و العلم ، الانسان يدرك بالعقل و يكتفى بالعلم ، و لكنه يقبل الهدى ، و يقبل عمل الصالحات بالقلب فالقلب يمثل ناحية مهمة من الانسان ، وهو مصدر الفضيلة و الهدى و الالهام و الايمان ، و من ثمة يجب الاهتمام بهذه الناحية .

و بهذه المناسبة يحسن بنا أن نذكر هنا أن الحضارة المعاصرة التى نسميها بالحضارة الأوروبية قد ارتكبت خطأ آخر ، وهو عنايتها البالغة بالتعليم وإهمالها التام بالتربية ، اعنى عنايتها بالعقل و إهمالها عنايتها بالقلب فتجد العالم المعاصر خالياً عن القيم الروحية ، وعنى حقاً بالقيم المادية والمذاهب العقائدية و النظم الفلسفية والسياسية و الاقتصادية ، التى تنحصر برامجها فى تحقيق و انتاج ما يحتاج إليه الكيان الجسمى المادى للانسان ، و فى ذلك يكفى أن نذكر لك نظرية داروين و فرويد و ماركس ، و هذه النظريات كلها على اختلاف نزعتها الفلسفية و العقائدية اجتمعت على انزال الانسان و وضعه فى درجة الحيوان من حيث نشأته و دوافعه النفسية و علاقته بالكون فالانسان فى رأى أصحاب هذه النظريات كائن له هدف و لا غاية

من وجوده و لا رسالة له سوى إرضاء شهواته من الجنس و الأكل و قد اتجه الفكر الأوروبي و علمه و فنه هذا الاتجاه المادي الملحد ، فكان ما نشاهده اليوم من انكار وجود الله و فقدان التوازن بين القيم الروحية و القيم المادية ، و بين حاجات الجسم و الروح .

إن مهمة العلم في نظر الاسلام هي كشف نعم الله و جعلها في خدمة المصلحة العامة ، اعني في خدمة الانسان و المجتمع ، و هو وسيلة خير إذا أحسنا استعماله و وسيلة شر إذا اسأنا استعماله ، و إن استعماله إذن يتوقف على الانسان ، فاذا كان العلم في يد رجل صالح يصبح أداة خير وبناء و اصلاح ، أما إذا كان في يد رجل شرير و ذي فساد يصبح أداة تخريب وتدمير وقتل ، لذلك كان الرسول عليه صلوات الله و سلامه يستعيذ بالله من علم لا ينفع .

معناه أن الانسان مع حاجته إلى العقل و العلم فانه في أشد الحاجة كذلك إلى هدى من الله و تقواه ، وهدى الله هبة و إلهام منه يعطيه لمن يشاء و يهدي إليه من يشاء ، و قد أمرنا الله سبحانه و تعالى أن نطلب منه الهداية : إياك نعبد و إياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم و لا الضالين ، و هدايته تعالى مربوطة ومشروطة بتقواه ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، و لم يقل هدى للعالمين و العارفين ، لأن الهداية في القلب لا في العقل ، و الدليل القاطع على ذلك هو عالمنا المعاصر الذي يسود فيه العقل و العلم سيادة كاملة ، و لكنه خال عن الهداية و الايمان و الفضيلة ، إذ يموت فيه كل سنة جوعا أكثر من عشرين مليون نسمة ، و في نفس الوقت تصرف و تنفق الدول الغنية الراقية في التخريب و التدمير و القتل مئات الطيارات من الدولار ، فيا للانسان إنه لفي خسر ، إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات "

وعند ما نبحث عن موقف الرسول من العلم كان أجدر بنا أن نتعرض لواقع المسلمين و موقفهم من العلم ، إن موقف الرسول من العلم هو بعينه موقف القرآن منه ، و موقف القرآن من العلم معلوم ، ولكن ما الفائدة من التغنى و الترنم بهذا الموقف و حالة المسلمين و واقعهم من التخلف و الضعف و نسبة الأمية بينهم مما يؤلم و يؤسف له .

و لنا أن نتأمل لماذا هذا الواقع ؟ و لماذا هذه الأمية بين المسلمين لا تزال منتشرة و نسبتها مرتفعة جدا تصل فى كثير من البلاد الاسلامية مثل بنجلا ديش و باكستان و اندونسيا و ماليزيا و فى البلاد العربية و غيرها من البلاد الافريقية إلى ٨٠٪ حتى فى الأقليات الاسلامية التى تعيش فى أوروبا و غيرها من البلاد تجد نسبة الأميـــة بين أفرادها تزيد على نسبة غيرهم ، و إن كانوا يعيشون فى نفس الظروف .

يجب أن ندرس هذا الواقع وأن نجيب على هذه التساؤلات وأن نجد المخرج والخلاص منه ، أقول مقدما بأنى أعارض كل المعارضة ، وأرفض كل الرفض محاولة تبرئة أنفسنا و إدانة غيرنا و إلقاء المسئولية عليـــه لما أصابنا من الضعف و التأخر ، و اعتقد أن الرأى القائل بأن الاستعمار وحـــده سبب ضعف المسلمين غير صحيح باطلاق ، و الواقع أن الاستعمار وحده ليس سبباً لهذا الضعف وإنما جاء نتيجة له .

و رأيى أنه يتحتم علينا أن نعود إلى أنفسنا و نبحث عما فينا من أسباب ، ضعفنا و ما أصابنا من كوارث و نكسات و مصائب ، فما أصابكم من مصيبة فمن أنفسكم ، و إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

هذه قاعده القرآن تجرى عليها الحياة منذ وجدت ، فهل لنا أن نعتبر ؟ .

القرآن و العـــلم (١)

— ١ —

الدكتور مسعود أحمد
تعريب : محمد أكرم الندوى

العلم (science) هو ترجمة الملاحظات و الاكتشافات التجريبية إلى لغة الانسان فى أسلوب متناسق منسجم ، و هو يبتنى مبدئياً باعتبار منهجه (Method) على الملاحظة و التجربة ، و يصل العالم فى ضوء هذه التجارب و الملاحظات إلى أى استنتاج (Inference) و يتعين فى ضوء تعريف هذا العلم و منهجه أنه لايتجاوز العالم الظاهرى أو الطبيعى (Phenomenalor Physical World) و ليست له أى صلة بالحقائق التى تتصل بما وراء الطبيعة (Metaphysical and Naumenal World) العلم لا يرى بنفسه رأياً عما وراء الطبيعة فانه خارج عن مجاله .

و الجانب الآخر الملحوظ فى شأن العلم أنه علم غير تام ، لم يجتز بعد المرحلة البدائية فى إدراك كنه الحقائق و الوصول إلى أعماقها ، فكثير من الحقائق العلمية التى أصبحت أجزاء حتمية للعلم الحديث لم يكن أحد يتعرف فى الماضى القريب حتى على أسمائها ، فعلى سبيل المثال نرى أن العالم قبل عدة سنوات كان يجهل الذرة (Atom) و الذرات التى هى أصغر منها (Sub atomic particles) كالالكترون و البروتين و النيوترون و ما إلى ذلك من تفاصيل الأشياء التى لا ترى إلا بالجهار ، فكثير من

(١) إنما تحدثنا فى هذا البحث عن العلم الطبيعى (Pnysical) و العلم الفطرى (Natural) و لم نتعرض للعلوم الاجتماعية (Social Sciencess) و علم النفس (Psychology) .

معجزات العلم التى كان من المستحيل أن تتصور ، ينظر إليها عالم اليوم بأم عينيه ، و من الممكن تماما تأويل هذه الحقائق فى المستقبل تأويلا حتمياً لا يرد ولا يرفض. فيجب على العلماء الذين ينكرون المعتقدات التى تتصل بما وراء الطبيعة أن يعرفوا حدود العلم و أنه غير تام .

لا بد هنا من إدراك الفرق بين العلم و الفلسفة ، فبعض الناس يخلط بينهما ، و ههنا أمران :

أحدهما الحقائق العلمية (Scientific facts) .

و الآخر تفسيرها على أساس الفلسفة (Philosqhical inter pretation) .

إن النظريات العلمية (Scientific theories and hypotheses) هى الوجهات الفلسفية للعلم . إذ الحقائق العلميـــة (Scientific facts) هى حقـائق مسلمة ثابتة (Proved facts) مستمدة من التجارب و المـــلاحظات ، فمثلا ملح الطعام (Sadium Chloride ortable Salt) من حيث ماهيته الكيماوية مركب من الصوديوم و الكلورين ، وإنه يتكون بتفاعل من كاستك سودا و أسيد الملح (Hydrochloric acid) و هذه حقيقة ثابتة أ إذا مزج كاستك سودا بأسيد الملح فى أوضاعهما الخاصة وترتيبهما الخاص يتكون منه ملح الطعام حتمياً، ثم إنه يمكن فصل الصوديوم عن الكلوربون عن طريق التحليل الكيماوى للملح ، كأنه تظهر نتيجة واحد باجراء المنهجين السلبى و الايجابى ، و على العكس من ذلك فان نظرية الجاذبيـــة لنيوتن ، و نظرية النسبيـــة لآين استاين ، و نظرية الأثيرطيكن ، و نظرية الضوء لنوتن ، و نظرية النشوء و الارتقاء لدارون و ما إلى ذلك من النظريات ، فانها بأسرها لم تتوفر البراهين القاطعة على ثبوتها . و أكبر ما يمكن أن يقال عنها إنها قريبة من الحقيقة و مطابقة للقياس إلى حدما ، و من الحقائق الثابتة التى لا تنكر أن كل

نظرية من النظريات العلمية لم تزل تجتاز — مع تقدم العصور و الأزمان — مراحل التعديل و التبديل .

العلم لا يستكشف الحقيقة الجوهرية (Absolute reality) لقضية من القضايا و إنما يفسرها تفسيراً موضوعياً ، و إنه يحتاج فى منهجيه الاستقرائى (Inductive) و الاستدلالى (Deductive) إلى المنطق والفلسفة ، وإلى ذلك فان العلم ـ حسب تعريفه ـ يترجم الملاحظات و التجارب إلى اللغة الانسانية فى أسلوب منسق منسجم ، و من أهم نقائصه أن المخ يعمل كواسطة (Medium) بين تلك المعلومات (Datas) و الاستنتاج (Inference) مع أن للمخ مجاله الخاص و حدوده الخاصة (Definite Capacity and Limitations) و من نقائصه كذلك أن نتائجه تتأثر بأحوال العالم الفردية (كالعوامل النفسية و النظرية) و محيطه الاجتماعى (كالبيئة الاجتماعية و العلمية) و هناك كثير من العوامل تؤثر فى الاستنتاج (Inference) و تؤدى إلى الاستنتاج الناقص (Defective and imperfect Inference) ، و من الممكن تماما — نظراً إلى هذه العوامل المتغيرة — أن يحدث التغيير و التعديل فى الحقائق العلمية فضلا عن النظريات العلمية لفرق أن احتمال التغيير و التعديل أقوى فى النظريات لبروز الجانب العقلى فيها ، إذاً الحاتق العلمية هى تلك النتائج العلمية التى يضأل فيها الجانب العقلى و يبرز الجانب التجربى ، و تقترب النظريات العلمية إلى الحقيقة بالنسبة التى يغلب فيها الجانب التجربى الجانب النظرى (١) .

(١) و لا يغيبن عن البال أنه لا يصح استعمال هذه الكلية فى الحقائق التى تتصل بما وراء الطبيعة ، لأنه لا يمكن اجراء التجارب المادية عليه ، فمن الحق تطبيق مبادىء و قوانين العالم الطبيعى (Physical World) على العالم الميتافيزيقى (Metaphysical or Suprasensary World) .

و يعنى ذلك أن الحقيقة العلميــة (Scientific fact) هو الاكتشاف العلمى الذى تنتهج للوصول إليه الطرق اللامحدودة للملاحظات والتجارب السلبية والايجابية المختلفة، و الذى يؤدى إلى استنتاج واحد معــين ، و إلى ذلك يجب أن لا يكون فى هذا الاستنتاج أى تدخل للعقل و التخيل ، و الظاهر أنه من المستحيل تحقق هذا القيد الأخير ، فالعلم — رغم سائر محاسنه — ليس بما يعتبر الكلمة الأخيرة الحتمية .

و قد زعم بعض حاملى لواء العلم أنهم يبحثون عن الحقائق مترفعين عن بيئتهم الاجتماعية و النفسية و لكن هذا الفرض لا يمت إلى الواقع بأى صلة ، و يمكننا أن ندرك باعمال الفكر و إمعان النظر أن الاختراع (Invention) و البحث (Investigation) فى كل جانب من جوانب العلم كما يوفر للعالم الجهات الجديدة والأضواء الجديدة فى ناحية يوفر فى ناحية أخرى وسائل التبليغ الصامت لجهاز ذلك الباحث الفكرى و الخلق و النظرى ، و عند تفسير دوافع ذلك البحث و عوامله يسمع واضحاً صدى النظريات النافذة فى تلك البيئة و لا سيما النظريات التى يتأثر بها الباحث ، فالنظر إلى النظريات العلمية من حيث أنها تعبر عن الحقائق الطبيعية فى كل حال نتيجة لقلة المعرفة و قصر النظر ، و لأجل ذلك نرى أن معظم النظريات هى وليدة عصرها ، تتغير مع تغير الظروف و الملابسات و النظريات ، و لا تصل إلى حدود الحقائق الجوهرية إلا تلك النظريات التى تفسر التجارب و الملاحظات العلمية مترفعة عن النظريات الزمنية ا و معرضة — ما أمكن — عن الاعتماد عليها ، و كذلك البحث الذى لا يكون الدافع وراءه تمهيد السبيل لنظرية مساعدة فى الوصول إلى غاية معينة ، ومن سوء حظ العصر الراهن أن معظم المفكرين يضعون خطة قبل أن يمارسوا الملاحظات و التجارب ، لا شك أن الخطة توضع فى المنهج الاستقرائى (Inductive method) كذلك ، و لكنها توضع هنا فى ضوء تلك

المعلومات (Datas) التجريبية لاقبل الحصول على تلك الملاحظات و التجارب و المعلومات .

و هناك قضية أخرى فى شأن العلم ، وهى أن الكثيرين من العلماء المعاصرين ماديون فى حياتهم الشخصية ، فالتحيز (Biased) للمادية بالنسبة لهم ليس سراً مكتوما ، و لهذا التحيز سببان رئيسيان :

الأول : أن العلم بمقتضى تعريفه تفسير مادى للنواميس ، فانه لايفسر إلا الظواهر الطبيعية المحسوسة (Physical and perceptible phenomena) .

و السبب الثانى : أن للعلم فى القرنين السادس عشر و السابع عشر تاريخاً مأسوياً مؤلماً أدى به إلى الاستهزاء بالدين و الكنيسة و انكارهما ، تولد منه تصور الكون الميكانيكى لديكارت (Descarte) ونيوتن ، و تقدم بعض الناس خطوة و قالوا إنه يمكن أن يقاس (Measurablity) كل مظهر و كل حقيقة من مظاهر الكون و حقائقه ، و وصل الأمر إلى أنه لم يبق « العلم » كحقل للعلم (Field of knowlesdge) فحسب بل نال مكانة منهج الحياة (Way of life) يعرف بالمنهج العلمى للحياة .

هذه حقيقة أن التأثير الذى تركته الاختراعات العلمية الحديثة الباهرة للعقول على أفكار الانسان لا يدانيه أى علم آخر بنسبة ما ، فقد وفر العلم تصوره المستقل للكون (World uiew) لا تنفذ عيون الانسان فيه إلى ما وراء الكون ، و لا يسلم عقله أن الحقائق غير المحسوسة معقولة (Rational) و يقول هذا التصور إن تصور الاله اللامحدود و اللامحسوس « غير علمى » .

انظروا إلى نقائص العلم المادى التى يعجز لأجلها عن معالجة القضايا المهمة للبشرية .

الأمر الأساسى فى ذلك أن العـــلم — حسب تعريفه — لا يبحث إلا فى الوجود المادى للانسان ، لا صلة له بجوانبه الخلقية و الروحية و الاجتماعية ، كأن الانسان مضغة لحم مجرد من كل نوع من الشعور ، أو آلة متحركة لا تحتاج فى عملها و أداء وظيفتها إلى الوقود و الاصلاح إذا انكسرت و اختلت .

لو اقتصرت قضايا الانسان على الاحتفاظ بالنشوء و التطور الجسمى لآمنا من دون شك بأن العلم هو السر الوحيد لمعالجة القضايا البشرية ، و لكن للانسان قضايا اجتماعية و سياسية و خلقية و روحية ، و لحل هذه القضايا لا بد من الرجوع إلى أى جانب آخر .

يمكن أن يقال إن العلم يعالج سائر القضايا المادية للانسان ، مهما كانت تتعلق بالوجود الجسمى فحسب ، و لكن هذا أيضاً لا يعدو أن يكون فرضاً ، فالحق أن الانسان بذاته وحدة مستقـــلة ، يتأثر وجوده المادى بالنواحى الروحية و الخلقيـــة و الاجتماعية ، و كل وحدة منها تؤثر فى الأخرى ، بل يبـدو أن وجوده الروحى هو الوجود الحقيق له ، يواجه لأجله القضايا الأخرى ، و إلا فنرى أنه لا تنشأ أى قضيـة اجتماعية و خلقية و غذائيـــة فى عالم الحيون فانه لا غاية له إلا النشوء و البقاء الجسمى و هو أقوى بكثير بالنسبة للانسان ، و هذا هو السبب فى أنه إذا كان شخص مريضاً روحياً لايستطيع العلم أن يمنحه الصحة جسمياً ، وكذلك الانسان المتدهور فى الخلق و القيم لا يطمئن روحياً ، و من دون حل القضـايا الاجتماعية لا يمكن أن يهدأ الانسان نفسياً ، و أن يكون صحيحاً قوياً جسدياً .

لا شك أن الفرد وحدة من وحدات المجتمع ، و لكنه ليس وحدة بسيطة عادية ، يمكن الاستنتاج منها مباشرة كمبادىء العلم الرياضى (Direct quantitationed simple measurabitity) بل هنا إذا اجتمع الواحد والواحد أنتجا قضايا اجتماعية

و اقتصادية و خلقية و سياسية لا تحصى لا تعالج بالعلوم الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية الحديثة (Social Science Ecnomics and political science) التى أسست على مبدأ أن الواحد و الواحد إذا اجتمعا صارا اثنين .

ليس للعلم أى قدرة على حل هذه القضايا والمشكلات فانه حسب تعريفه يحلل كل قضية و مشكلة تحايــلا عرضياً غير مركز (Thirdorder of odstraction) إذ الدين ينفذ إلى الحقيقة السرية لكل قضية (Zero order of obstraction) .

إن الدافع وراء وجود علوم الاجتماع هو التقدم الباهر الذى أحرزته العلوم الطبيعية (Natural and pure sciences) ، بل الحق أن العلم المادى الحديث أثر فى كل قسم من أقسام العلم فيرى اخصائيو الاقتصاد الخير لأنفسهم فى أن يتبعوا المنهج العلمى (Scientific mathods) و هذه هى حال الاجتماع والسياسة ، فانهم أدخلوا هذه المناهج العلمية المزعومة فى علومهم ، وجعلوا منها العلم الاجتماعى والعلم السياسى. و بهذا التفوق المزعوم للعلم و سيطرته على العلوم الأخرى ، وبالانبهار أمام الرؤية الكونية الميكانيكية المادية للعلم الحديث (Mechnical world view) أصبح علماء اليوم بصفة خاصة و الجماهير من الشعب بصفة عامة يعتقدون هذه السفسطة عقليـة وحرية فكر ، وينكرون العوامل التى تتصل بما وراء الطبيعة والدين وخالق الكون .

من النقائص الأساسية للعلم أنه يوزع الأشياء فى أجزاء مختلفة ، ثم يحلل كل جزء على حدة ، حتى أنه يعتبر الانسان آلة كأن لها أجزاء مختلفـة و لا انسجام بين جزئين منه ، و ينسى العلماء المبدأ الطبعى لعلم الكيميا القائل إن عنصرين إذا ظلا مجتمعين فى حالة خاصة إلى زمن طويل ينشأ منهما مركب يختلف فى خصائصه الفردية عن العناصر الأصيلة (Parent) اختلافا كلياً . فالتحليل المنحل و السطحى للأشياء لا يقرب من الحقيقة بل يبعد منها .

ثم تنظر فى القرآن ، فالقرآن كتاب كامل لهداية البشرية ، الانسان هو موضوعه و محل خطابه ، و هو يبحث فى كل ناحية من نواحى الحياة الانسانية ، و لكنه يتناول الناحيتين الخلقية و الروحية بصفة خاصة بشئ من التفصيل ، فانه لا يقدر العقل الانسانى و الشعور الانسانى على أن يضعا القيم الخلقية و الروحية و مقاييسها الصحيحة ، و لا يستطيع الانسان بهذا الشعور و العقل الناقص أن يضع منهجاً كاملا متزناً للحياة لسعادة البشرية ، لا بد لذلك من أن يتلقى العلم من وجود أعلى مباشرة ، يقول القرآن الكريم : « و على الله قصد السبيل و منها جائر (١) .

يقوم القرآن الكريم على أساس التوحيد و إثبات خالق الكون و هما خارجان عن مجال العلم ، فان العلم لا يتقدم على اكتشاف المادة و الطاقة خطوة ، وخالق الكون ليس بمادة و لا طاقة ، يقول القرآن الكريم : « ليس كمثله شئ » (٢) .

(للبحث صلة)

---

(١) سورة النحل الآية : ٩ .

(٢) سورة الشورى الآية : ١١ .

دفاع عن الاسلام

بقلم : الأستـاذ على القاضى (قطر)

دفاع عن الاســلام :

عنوان كتاب للدكتورة لورا فيشيا فاجليرى — أستاذ اللغة العربية و تاريخ الحضارة الاسلامية فى جامعة نابلى بايطاليا .

والمسلم يسر سروراً بالغاً حين يسمع إنصافا للاسلام من أحد العلماء الغربيين، الذين درسوا الاسلام دراسة وافية وابتعدوا عن التعصب، و قالوا كلمة الحق فى زمن عزت فيه كلمة الحق، لأن الأهواء تغلبت و لأن المصالح القريبة طغت، ولأن الحق لم يعد له أنصار كثيرون يدافعون عنه .

إن بعض الغربيين يقيس الاسلام بما وصل إليه المسلمون من تأخر ، بل إن بعض الغربيين يرون أن سبب تأخر المسلمين هو الاسلام ، لكن الدكتورة فاجليرى تنظر بمنظار صحيح و ترى أن سبب تأخر المسلمين إنما هو فى ابتعادهم عن منهج الاسلام ، و لو انهم عادوا إليه لعاد إليهم مجدهم و قوتهم ، و من هنا فانها تقول فى ثقة :

(فالى الكتاب العزيز الذى لم يحرفه قط ، لا أصدقاؤه ولا أعــداؤه ، لا المثقفون ولا الأميون ، ذلك الكتاب الذى لا يبليه الزمان و الذى لا يزال إلى اليوم كعهده يوم أوحى الله به إلى الرسول الأمى البسيط آخر الأنبياء حملة الشرائع ، إلى هذا المصدر الصافى دون غيره سوف يرجع المسلمون، حتى إذا نهلوا مباشرة من معين هذا الكتاب المقدس ، فعندئذ يستعيدون قوتهم السابقة من غير ريب) .

عاطفة الاخوة :

نشأ الاســـلام مثل الينبوع الصـــافى النمير ، وسط شعب همجى يحيى . فى بلاد منعزلة جرداء بعيدة عن ملتقى الحضارة و الفكر الانسانى ، و كان ذلك الينبوع غزيراً إلى درجة جعلته يتحول وشيكا إلى جدول ، ثم إلى نهر ليفيض آخر الأمر ، فتتفرع منه آلاف القنوات تتدفق فى البـلاد . و فى تلك المواطن التى ذاق فيها القوم طعم تلك المياه الأعجوبية ، سويت المنازعات، وجمع شمل الجماعات المتناحرة ، وظهرت عاطفة جديدة ، هى : عاطفة الاخوة بين أناس تشد بعضهم إلى بعض مثل عليا مشتركة بين الأخلاق و الدين .

فتوحات سريعة لماذا ؟

إن الذين اعتنقوا الدين الاســـلامى الجديد سرعان ما اندفعوا إلى البـــلاد الأخرى ينشرون فيها الاسلام ، هداية الله إليهم ، و قد تمت الفتوحات فى سرعة عجيبة جعل المؤلفة تقول :

(و لا يزال العقل البشرى يقف ذاهـــلا دون اكتشاف القوى السرية التى مكنت جماعة من المحاربين الحفاة من الانتصار على شعوب متفوقة عليها تفوقا كبيراً فى الحضـارة و الثروة و الخبرة والقدرة على شن الحرب ، ومن أدعى الأمور إلى الدهش أن نلاحظ كيف استطاع أولئك الناس أن يحتلوا المناطق كلها ، وأن يثبتوا بعد ذلك فيها على نحو جعل حتى الحروب المتعاقبة قرناً بعد قرن عاجزة عن اخراجهم منها ، و كيف استطاعوا أن يلهبوا نفوس أتباعهم بتلك الحماسة الفائقة لمثلهم العليا ، وأن يحتفظوا بحيوية نابضة لم تعرفها الأديان الأخرى حتى بعد انقضاء عشرة قرون على وفاة محمد .

عالمية الاسلام :

و تتحدث الدكتورة لورا فاجليرى عن عالمية الاسلام وتقول : إن الآية القرآنية التى تشير إلى عالمية الاسلام بوصفه الدين الذى أنزله الله على نبيه (وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين) هى نداء مباشر للعالم كله ، و هذا دليل ساطع على أن الرسول شعر فى يقين كلى أن رسالته مقدر لها أن تعدو حدود الأمة العربية . وأن عليه أن يبلغ الكلمة الجديدة إلى شعوب تنتسب إلى أجناس مختلفة و تتكلم لغات مختلفة ، وثمة دليل آخر على هذا الشعور نفسه فى الحديث النبوى الذى يشير إلى أنه كان من عادة محمد أن يقول (بعثت إلى كل أحمر و أسود) أو أن يستعمل تعابير أخرى مماثلة ، بل إننا نجد دليلا اضافياً فى الاشارة إلى الفتوح المستقبلة وراء تخوم بلاد العرب ، و أخيراً فى الاتصالات التى بدأ محمد نفسه القيام بها مع البلدان الأجنبية .

لقد قوضت حضارتان و زعزع دينان ، فاذا بفيض جديد من حياة عارمة يتدفق فى عروق تلك الشعوب الخائرة القوى ، لقد تجلى أمام عيون العالم المندهش دين جديد بسيط سهل يخاطب القلب و العقل جميعاً ، و أقيم شكل جديد من أشكال الحكومة كان أسمى إلى حد بعيد فى خصائصه و مبادئه الا خلاقية من تلك المعروفة فى ذلك العصر ، و بدأ الذهب الذى كان مخبوءاً فى صناديق السراة ينتقل إلى أيدى الفقراء مستهلا نظاماً من التداول السليم كرة أخرى . وفى ظل من الحكومة تسيرها مثل عليا ديمقراطية أمينة وجد الرجال المثقفون البارعون الأذكياء تشجيعاً من النظام الجديد ، فاستطاعوا أن يبلغوا أسمى المناصب العامة ، و من الممكن أن نقول فى اطمئنان : إن البلاد المفتوحة عرفت عهداً من الرخاء والازدهار و شهدت غنى لم تشهده آسيا منذ قرون طويلة ، و إلى هذا فقد نعمت حياة

مطلقاً ، وأنهم مصرون على اتباع سياسة خاطئة غادرة تعين عليه أن يقاتلهم ويعاقبهم ثم تقول :

(لقد كانت الحرب دائماً وسيلة لحماية الدين الجديد و تعظيمه ، لا غاية فى ذات نفسها ، كانت دفاعاً ضرورياً ، لا عـدواناً جائراً ، و لقد عبر القرآن عن هذه الفكرة بأجلى بيان :

(و قاتلوا فى سبيل الله ، الذين يقـاتلونكم و لا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين) البقرة : ١٩ .

(و قاتلوهم ، حتى لا تكون فتنة و يكون الدين لله ، فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) البقرة : ١٩٣ .

ثم تقول : كان العرب المنتصرون مستعدين دائماً ، حتى فى أوج قوتهم و انتصارهم ، لأن يقولوا لأعدائهم : ألقوا السلاح و ادفعوا جزية يسيرة نسبغ عليكم حماية كاملة ، أو اتخذوا الاسـلام ديناً و ادخلوا فى ملتنا تتمتعوا بالحقوق نفسها التى تتمتع بها نحن .

ثم تستشهد الدكتورة ببعض الآيات القرآنية التى تبين أن لا إكراه فى الدين ، و أنه من شاء فليؤمن و من شاء فليكفر ، و تعقب على ذلك بقولها :

و كان محمد المتمسك دائماً بهذه المبادىء الالهية ، شديد التسامح ، و بخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة ، و لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين ، مصطنعاً الأناة دائماً .

الجزية :

و تتحدث الدكتورة لورا فاجليرى عن التسامح الدينى فى الاسلام و تضرب له أمثلة بالضمانات التى أعطيت إلى نصارى نجران . والتعليمات التى أصدرها الخلفاء الراشدون

لقوادهم و بالاتفاقات التى أبرمت و تقول :

بفضل هذه الاتفاقات منحت تلك الشعوب حرية الاحتفاظ بأديانها القديمة .

و عن الجزية التى يدفعها الذين لا يرتضون الاسلام ديناً تقول :

لقد كانت هذه الضريبة أخف من الضرائب التى كا‍ـ المسلمون ملزمين بدفعها إلى حكومتهم نفسها ، و مقابل ذلك ، منح أولئك الرعايا (المعروفون بأهل الذمة) حماية لا تختلف فى شئ عن تلك التى تمتعت بها الجماعة الاسلامية نفسها .

حرية المعتقد :

و تقول بعد ذلك : و كان المسلمون لا يكادون يعقدون الاتفاقات مع الشعوب ، حتى يتركوا لها حرية المعتقد . وحتى يحجموا عن إكراه أحد من أبنائها على الدخول فى الدين الجديد .

و تشير المؤلفة إشارة ذكية إلى التبشير فتقول :

الجيوش الاسلامية ما كانت تتبـــع بحشد من المبشرين الملحاحين غير المرغوب فيهم ، وما كانت تضع المبشرين فى مراكز محاطة بضروب الامتياز لكى ينشروا عقيدتهم أو يدافعوا عنها ، ليس هذا فحسب ، بل لقد فرض المسلمون فى فترة من الفترات على كل راغب فى الدخول فى الاسلام أن يسلك مسلكا لا يساعد على تيسير انتشار الاسلام ، ذلك أنهم طلبوا إلى أولئك الراغبين فى اعتناق الدين الجديد أن يمثـــلوا أمام القاضى و يعلنوا أن إسلامهم لم يكن نتيجة لأى ضغط ، وأنهم لا يهدفون من وراء ذلك إلى أى كسب دنيوى .

ثم تقول :

و الواقع أن اليهود و النصـارى لم يمنحوا حرية المعتقد الدينى فحسب ، بل عهد إليهم فى تولى المناصب الحكومية حين كانت مؤهلاتهم الشخصية من القوة بحيث تلفت انتباه الحاكمين .

رد على افتراءات :

و قد تناولت المؤلفة الرد على افتراءات أعداء الاسلام الذين نسوا أن محمداً عليه السـلام كان قبل الرسالة موضع الاجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته و طهارة حياته ، و كيف جرؤ على التبشير على الرغم من إهانة مواطنيـه ، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه حثاً موصولا ؟ و كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء و الأذكياء ، و أن يوازروه و يدخلوا فى الدين الجديد و يشدوا أنفسهم بالتالى إلى مجتمع مؤلف من كثرة من الأرقاء و الفقراء المعدمين ، إذا لم يلمسوا فى كلمته حرارة الصدق .

تهمة القسوة :

و تقول عن تهمة القسوة التى اتهم بها محمد عليه السلام : إن محمداً بوصفه رئيساً للدولة و المدافع عن حياة شعبه و حريته قد عاقب باسم العـدالة بعض الأفراد المتهمين بجرائم معينة عقاباً قاسياً ، وإن مسلكه هذا ينظر إليه فى ضوء عصره و على ضوء المجتمع الجافى المتبربر الذى عاش فيه ، أما محمد بوصفه المبشر بدين الله فكان لطيفاً و رحيماً حتى مع أعدائه الشخصيين ، لقد امتزجت فى نفسه العـدالة و الرحمة ، و هما اثنتان من أنبل الصفات التى يستطيع العقل البشرى تصورها ، لقد جعل الحرب تلك الضرورة الرهيبة فى الحياة الانسانية أقل وحشية ، و كان من دأبه أن يوصى جنوده بقوله : (لا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، و لا تغدروا و لا تعقروا نخلا و لا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة) .

قوة داخلية :

ثم وجهت سؤالا هو : كيف نفسر مواصلة الاسلام على الرغم من الحرية الدينية الممنوحة فى البلدان الاسلامية للمواطنين غير المسلمين ، ومن فقدان أيما منظمة

تبشيرية حقيقيـــة تقدمه الحثيث فى آسيا و أفريقيـــا فى وجه الانحطاط العام الذى أصاب الفكرة الدينية فى السنوات الأخيرة ؟

إن أحد لا يستطيع اليوم أن يزعم أن سيف الفاتح هو الذى يمهـــد السبيل أمام الاسلام على العكس ، فنى الأصقاع التى كانت فى يوم من الأيام دولا إسلامية تولت مقاليد الحكم حكومات جديدة تنتسب إلى أديان أخرى ، و عملت فى أوساط المسلمين طوال فترات عديدة منظمات تبشيرية قوية ، و مع ذلك فان هذه الحكومات و تلك المنظمات لم توفق إلى زحزحة الاسلام و إقصائه عن حياة الشعوب الاسلامية .

ثم تهتف قائلة :

أية قوة أعجوبية تكمن فى هذا الدين ؟

أية قوة داخلية من قوى الاقناع تنصهر به ؟

من أى غور سحيق من أغوار النفس الانسانية ينتزع نداؤه استجابة مزلزلة .

تحية إلى المؤلفة على هذه النظرة الموضوعية المنصفة فى وقت عز فيه الانصاف و قلت كلمة الحق .

نظرة على المدارس الاسلامية فى الهند

الأستاذ سلمان الحسينى الندوى

يتصل تاريخ المدارس الاسلامية فى الهند بتاريخ الشخصيات العلمية الشهيرة التى رحلت إلى الهند من بلدان العالم الاسلامى لا سيما من خراسان و ما وراء النهر، فى عهود الدول الاسلامية كالغزنوية و الغورية و غيرهما.

فيجد دارس التاريخ الاسلامى فى الهند أن هجرات العلماء الكبار إلى مختلف مناطق هذه البلاد، تركت آثارها العميقة، و بصماتها الواضحة على الطبقة المثقفة فيها، حتى لكأنها مرآة تصور مناهجهم و أساليبهم فى التربية و التعليم.

و لما أن أكثر العلماء اتجهوا صوب الهند من بلاد خراسان و ما وراء النهر التى و كانت من المراكز العلمية فى عصور الازدهار العلمى بهما و كانت أكثر العلوم انتشاراً فيها و عناية بها، علوم المنطق و الفلسفة، و الهيئة و الحساب، و ما إلى ذلك من العلوم العقلية، و لم يكن ذلك حال خراسان و ما وراء النهر فحسب بل كان العالم الاسلامى كله إذ ذاك متأثراً بالغزو اليونانى العلمى و الفلسفى، فكان الماهر فى كتب الفلسفة و المنطق اليونانى يعتبر «عالماً عصرياً» فى العالم الاسلامى زمن الدولة العباسية، و ازدهرت هذه العلوم أكثر ما ازدهرت فى البلاد العجمية التى أنجبت عقولا كبيرة، وفلاسفة كثيرين، وأخرجت مكتبة ضخمة فى العلوم العقلية.

فكان لا بد أن تتأثر المدارس الهندية الاسلامية بالاتجاهات العلمية و التعلمية السائدة فى بقية العالم الاسلامى، و أن ترى أثمارها واضحة فى الانتاج العلمى الذى

قام به علماء الهند قبل عصر الامام ولى الله الدهلوى (١١٧٤) .

و كان « ملتان » أول مركز علمى إسلامى فى الهند ، لكونها عاصمة الدولة الاسلامية الأولى ، ثم لما انتقلت العاصمة إلى لاهور فى عهد الدولة الغزنوية ، كانت لاهور مركزاً علمياً كبيراً ضم العلماء الكبار ، و المشايخ العظام و انتقلت السلطة المركزية فى عهد الغوريين إلى دلهى ، فأصبحت هى عاصمة البلاد و استمرت حتى نهاية الدولة الاسلامية فى الهند ، و لا تزال هى العاصمة ، للجمهورية الهندية . و تعرف العواصم ـ دائماً ـ باستقطاب عـــدد أكبر من أصحاب الاختصاص ، و نوابغ العلوم ، و عباقرة الفنون ، و لكن هناك عدداً من الولايات كولاية كجرات ، و مالوه ، و أوده ، و عدداً من المدن كدينة جونفور ، و لكهنؤ ، اشتهرت فى بعض أدوار التاريخ الاسلامى أكثر من عواصم الدول الاسلامية ، بكثرة علمائها و مراكزها العلمية ، و حركة التربية و التعليم ، و يرجع ذاك إلى حب بعض الولاة و الأمراء للعلم و العلماء و تقريبهم إياهم ، و اكرام وفادتهم و إقامة المدارس و المراكز العلمية و التربوية لأجلهم .

و إذا ألقينا نظرة على رحلات العلماء الأفاضل الذين توجهوا إلى الهنـــد فى عهود مختلفة و أقاموبها و درسوا و أفادوا ، نجد العلامة شمس الدين الخوارزمى و شمس الدين القوشجى ، و برهان الدين محمود البلخى (م ٦٨٧هـ) و برهان الدين البزاز و نجم الدين عبد العزيز الدمشقى و كمال الدين زاهد فى القرن السـابع ، فى عهد السلطان غيـاث الدين بلبن الذى عرف للعـلم قدره ، و ساق مبره و احسانه إليه علماء البلاد ، حتى أصبحت دلهى تضاهى قرطبة و بغداد ، فى الازدهار العلمى ، و انتشار المدارس العلمية .

ونجد الشيخ ظهير الدين البهكرى وفريد الدين الشافعى، حيد الدين مخلص ٧٦٤هـ،

و شمس الدين النحي و محي الدين الكاشانى ٧١٩هـ ، فى عهد السلطان علاء الدين الخلجي (٦٩٥ - ٧١٦هـ) . و فخر الدين الهانسوى ، و وجيه الدين الرازى . و تاج الدين مقدم فى ٤٦ عالماً من العلماء الكبار الذين قال عنه المؤرخ الأمين ضياء الدين برنى (م ٧٥٨) إنه لم يكن لهم مثيل فى بلدان العالم الاسلامى كما نجد فى عهد محمد شاه تغلق العلماء الأجلة كالشيخ معين الدين العمرانى ، والقاضى عبد المقتدر الكندى (م ٧٩١هـ) و الشيخ خواجكى ، و الشيخ أحمد التهانيسرى (م ٨٢٠) الذين تخرج عليهم شهاب الدين الدولة آبادى وحاز - بجدارة - على لقب ملك العلماء ، و استلفت إليه أنظار العالم .

كما نرى الشيخ جلال الدين الرومى فى عهـــد السلطان فيروز شاه الذى ولاه رئاسة المدرسة الملكية ، و كان فى عهده الشيخ نجم الدين السمرقندى الذى نشر علمه فى الآفاق ، و تخرج عليه الأجيال و الأفواج من الشباب .

و قدم الهند فى عهد السلطان سكندر اللودى ، عالمان جليلان كان لهما من بعد الصيت و حسن الأثر فى العلوم العقلية ما لم يكن لغيرهما ، و هما الشيخ عبد الله (م ٩٢٢هـ) ، و الشيخ عزيز الله (م ٩٣٢هـ) الذين و صلا إلى دلهى من مدينة ملتان ، و رفعا مكان العلوم الحكمية و المنطقية لتبحرهما فيها ، فنالت هذه العلوم أكثر من مكانها اللازم فى المناهج الدراسية .

و قدم عهد فى السلطان أكبر الشيخ فتح الله الشيرازى (م ٩٩٧هـ) الذى لقب فى البلاط بعضد الملك ، و طبق صيته البلاد ، و انتشر ذكره فى الآفاق ، و انتشر علم الطب ، بجهود الحكيم شمس الدين (م ٨٩ أو ٩٨٨هـ) و الحكيم على الكيلانى (م ١٠١٨هـ) ، وقام المحدث الجليل الشيخ عبد الحق الدهلوى (م ١٠٥٢) بنشر علم الحديث ، و ترويجه .

ثم ظهر فى عهد السلطان شاهجان ، والسلطان أورنك زيب (١٠٦٨ - ١١١٨هـ) العلامة مير زاهد (م١١٠١هـ) الذى أحدث ثورة فى المناهج الدراسية وترك تدقيقاته العلمية فى الفلسفة والمنطق أثراً كبيراً وعميقاً فى المنهج النظامى الذى سار عليه المدارس ، و طبق فى المناهج الدراسية فى طول البلاد وعرضها ، وقد كانت أسرة الامام الدهلوى (م ١١٧٦هـ) و القاضى مبارك (م ١١٦٢هـ) من تلامذته و خريجيه . و قد تخرج فى هذه المدرسة فطاحل العلماء ، كالشاه عبد العزيز (م ١٢٣٩هـ) و الشاه رفيع الدين (م ١٢٣٣هـ) و الشاه عبد القادر (١٢٣٠هـ) . و الشيخ عبد الحى (م ١٢٤٣هـ) و الشيخ محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦هـ) و الشيخ محمد إسحاق (م ١٢٦٢هـ) و الشيخ رشيد الدين (١٢٤٣هـ) والشيخ صدر الدين (١٢٨٥هـ) و الشيخ مملوك العلى ١٢٦٧هـ .

هذه السلسلة من نوابغ العلماء ، و عباقرة العلوم و الفنون ، لم تكن شخصيات علمية فحسب ، بل كانت مدارس علمية ، و حركات دراسية ، و مؤسسات تعليمية و تربوية ، صبغت - فى عهودها و أدوارها - المدارس و المناهج الدراسية فيها بصبغتها ، و خلفت أثراً بعيد المدى لا يزول إلا إذا حل مكانه تأثير أقوى و أظهر و أفعل .

و إذا كان هؤلآء العلماء الفطاحل فى دلهى عاصمة البلاد يحلون جيدها بالعلم و الفضل ، فكانت ولاية كجرات أيضاً تزدان بالعلامة المحدث محمد طاهر الفتنى (م ٩٨٦) و الشيخ وجيه الدين الكجراتى (م٩٩٨) و غيرهما ، من الفقهاء و المناطقة و المشايخ المربين ، و كان فى امارة جونفور ملك العلماء العلامة أبو الفتح شهاب الدين الدولة آبادى (م ٨٤٩) و مولانا الهداد ، و ملا محمود صاحب « الشمس البازغة » .

و كانت لكنو المركز الثانى بعد دلهى ، إلا أن ظهور الشيخ ملا نظام الدين السهالوى (م ١١٦١هـ) وانتشار صيته فى العلوم العقلية غطى على كثير من الشخصيات العلمية فى العاصمة نفسها ، و قد تناول الشيخ نظام الدين المنهج الدراسى بالاضافات و التعديلات ، التى خضعت لها المدارس و دور التعليم و تمسكت به باسم « المنهج النظامى » تمسكا قوياً ، لا تتجاسر على التعديل فيه و لا تقبل العدول عنه ، حتى أن قامت ندوة العلماء بلكناؤ بثورة تعليمية ، و رفعت شعار القديم النافع والجديد الصالح بقوة و إصرار ، و طبقت فى جامعتها نظاماً جـديداً ، و منهجاً جديداً ، فنقم عليها ذلك و عورضت معارضة شديدة ، إلى أن انكشفت للابصار أهمية هذا المنهج الدراسى ، و مسايرته للعصر ، و معالجته لقضاياه ، فتغيرت المواقف ، وبدأت الجامعات و المدارس الاسلامية فى الهند ، تنهج هذا النهج فى قليل أو كثير ، وفى تحفظ حيناً و حرية حيناً آخر .

و قد كان المنهج الدراسى المطبق فى عهد الشيخ ملا نظام الدين السهالوى ، و بعد اضافاته و تعديلاته ، كما يلى :

كان جل الاعتماد فيه على كتب المنطق و الفلسفة و الكلام و الفقه و أصول الفقه ، و كان نصيب التفسير والحديث ضئيلا بالنسبة إلى المقررات فى العلوم العقلية ، كما أن علوم العربيـــة ، الصرف و النحو ، كانت تدرس كعلوم نظرية ، تكثر فيها القياسات ، و تعرض فى أسلوب منطقى بحت ، لا ينشئ فى القارىء ذوق اللغة ، ولا ملكة البيان ، فكانت تدرس فى علم الصرف خمسة كتب ، هى الميزان ، والمنشعب و صرف مير ، و بنج كنج ، و الزبدة ، و الفصول الأكبرية ، و الشافية ، و فى النحو : نحو مير ، و شرح مائة عامل ، و هداية النحو ، و شرح الجامى ، و فى المنطق : الصغرى ، و الكبرى ، و ايساغوجى ، و التهذيب ، و شرح التهذيب ،

و قطبی ، و میر قطبی ، وسلم العلوم ، و فی العلوم الحكمية : الميبذى ، و صدرا . و الشمس البازغة . وفى الرياضيات : خلاصة الحساب ، و تحرير اقليدس ، و المقالة الأولى ، و تشريح الأفلاك ، و الرسالة القوشجية ، و شرح الجغميني، وفى البلاغة : مختصر المعانى ، و المطول ، و فى الفقه : شرح الوقاية ، و الهداية ، و فى أصول الفقه : نور الأنوار ، والتوضيح و التلويح ، و مسلم الثبوت ، وفى الكلام : شرح العقائد النسفية ، و شرح العقائد الجلالى و مير زاهد ، و شرح المواقف ، و فى التفسير : تفسير الجلالين ، و البيضاوى ، و فى الحديث مشكاة المصابيح .

وقد كان من مميزات هذا المنهج الدراسى انه ينشئ فى الطالب قوة التأمل ودقة النظر ، و يحوجه إلى إعمال العقل ، وتمرينه على تقليب المسائل وتوجيهها وتصريفها ، و تدريب الفكر على الاستنتاج ، و استخراج الدلائل و ترتيب المقدمات ، و ينشئ فيه ملكة قوية للتصرف فى العلوم و الاختصاص فيها إذا استخدمها حق استخدامها و لم يجمد على النصوص جمود المتزمتين .

و قد كان الامام ولى الله الدهلوى ممن قرأ هذه المقررات الدراسية ، وتخرج بها ، و لكنه بعد جولاته الاجتهادية فى العلوم ، و رحلته إلى الحجاز و اتصاله هناك بالأساتذة الشافعية و المالكية و الحنابلة و اطلاعه على آثار الامام ابن تيمية وغيره ، جاء إلى الهند بمنهج دراسى جديد ، كان نصيب الحديث الشريف فيه أوفر من نصيب العلوم الأخرى رغم بقاء تلك المقررات ، المتقدم ذكرها فى المنطق والفلسفة .

و قد كانت هناك تحت إشراف هؤلاء العلماء مدارس و مراكز علمية ، بعضها شعبية ، أو خاصة . و بعضها كان ينفق عليها الأمراء المسلمون فى ولايتهم و السلطان فى العاصمة .

و مما ينبغى أن لا يغيب عن البال أن التعليم فى هذه المدارس كان موحداً .

لم تكن هناك ثنوية فى التعليم ، فكان المتعلمون فى هذه المدارس يتجهون بعد تخرجهم إلى أى اختصاص شاؤا ، و يعنى الاختصــاص فى تلك العهود أن يتوجهوا إلى كبار العلماء الأفاضل ، فيأخذوا عليهم علماً معيناً ، و يتخرجوا عندهم ، فكان هذا المنهج يخرج السياسيين و الاقتصاديين ، و المهندسين ، والرياضيين ، إلى جنب الفقهاء و المفسرين و المحدثين ، و كانت اللغة العربية ، أو اللغة الفارسية هى لغة التدريس ، فى هذه المدارس .

وتغيرت أوضاع البلاد بعد الاحتلال الانكليزى ، و استهدف المسلمون للابادة الجسمية و العقلية و العلمية ، ولكن الله تعالى ألهم بعض عباده الصالحين ، بتأسيس المدارس الشعبية التى تقوم على تبرعات المسلمين التى يجمعونها بكد اليمين وعرق الجبين ، وتكون هذه المدارس قلاعاً حصينة للبقية الباقية من الشعب المسلم ، فأسس العالم الجليل الشيخ محمد قاسم النانوتوى (م ١٢٩٧) مدرسة عام ١٢٨٢ فى قرية ديوبند ، قبل زهاء قرن و ربع من الزمن ، و سميت دار العلوم ديوبند ، و تدرجت نحو الرقى و الاكتمال حتى أصبحت جامعة كبيرة خرجت اجيالا كثيرة من العلماء و المجاهدين الذين أسسوا مدارس و مراكز و مؤسسات و مجامع علمية ، فما تركوا مدينة و لا قرية إلا و أقاموا فيها مدررسة ، فى المسجد أو فى الزاوية ، داخل الكوخ أو تحت ظل شجرة ، كانت هذه هى الاستراتيجية الحكيمة التى استطاعت بحول الله - تعالى - و قوته ، أن تحافظ على ثغور الاسلام و تحفظ كيانه و شخصيته ، من أن تذوب فى نار الاستعمار البريطانى .

و أسس العـالم الكبير الشيخ محمد مظهر (م ١٣٠٢هـ) مدرسة أخرى ، سميت مدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور ، أصبحت على مر الأيام كتلك فى شهرتها وانجذاب الطلاب إليها ، وتخريج دفعات كبيرة مستمرة تمد الشعب بالعلم و الايمان ،

و تقوم فى صفوف المسلمين بالدعوة و الارشاد و التربية و الافادة .

و أسس العالم الفاضل الشيخ محمد على المونجيرى (م ١٣٤٦هـ) مع زملائه من العلماء الكبار الذين دعاهم التفكير لجمع شمل المسلمين ، و إزالة الفجوات الواسعة بين الطبقة القديمة و الطبقة الجديدة ، جمعية ندوة العلماء التى قامت كحركة دينية علمية و اجتماعيــة و أقامت احتفالات دينية كبيرة لايجاد روح التآلف و التآخى بين المسلمين ، كما دعت إلى تحديث العلوم ، وصياغتها الجديدة ، و التعديل فى المناهج الدراسية حسب التطورات الزمنية ، و المقتضيات العصرية ، و أنشأت عام ١٣١١هـ دار العلوم ندوة العلماء تعبيراً عن رغبتها فى التطبيق والممارسة العلمية لدعوتها النظرية ، و قد آتت هذه الدار ثمارها و عرفت بآثارها شرقاً و غرباً .

هذه كبرى مدارس المسلمين أو جامعاتهم الشعبية فى الولاية الشمالية فى الهند ، و كلمة « المدرسة » فى الهند تطلق على الابتدائية كما أنها تطلق على الجامعة ، كذلك شأنهم مع مصطلح « الجامعة » يسمون بها أحياناً مدرسة ثانوية ، أو كليــة ، و لا أعنى بوصفى هذه المدارس أنها كبرى مدارس المسلمين فى ولاية اترابرديش ، كبرحجمها و كثرة عدد طلابها ، فان هناك عدداً من المدارس قد يفوق عدد الطلاب فيها عددهم فى هذه المداس ، و لكنها جامعات لها مناهجها الخاصة ، و تأثيرها العظيم و لهـا فروع منبثة فى أرجاء البلاد ، و تنهج مسلكها فى العقــائد و النظريات و العلوم منظمات و مؤسسات و حركات .

وإن المدارس الاسلامية فى الهند مرتبطة بالشخصيات العلمية والتربوية العظيمة ، و ذلك لأن تاريخها كثيراً ما يبدأ بجهود شخص واحد من العلماء المجاهدين المثابرين و قلما توجد مدرسة إلا و تبدأ مــدرسة ابتدائية تقام فى مسجد أو جناح بيت أصحاب الخير أو فى كوخ المؤسس لهـا ، ثم تتوسع بتأثير هذا العالم بسلوكه أحد و خلقه ، و استقامته ، و تعلق قلوب الناس به ، و اعتقادهم فى اخلاصه و سموه

و نزاهته ، فاذا اثبت عالم ما من العلماء جدارته فى هذه الصفات كانت مدرسته تتسع معنى و مادة ، و يكثر فيها عدد الطلاب ، و تتوفر التبرعات ، و يقام مبنى أثر مبنى حسب الحاجات المدرسية ، إلى ان يتم بناؤ الحى المدرسى أو الجامعى . وقد يشهد المؤسس هذا التطور ، و التقدم ، فيسر بطبع الحال و يكون قطب الرحى ، تدور برأيه و مشورته الأمور ، و يكرم و يعظم ، ثم إن كان أبناؤه على شاكلة أبيهم فى الدين و الخلق والأمانة ، فلا يريد الناس إلا أن يولوه رئاسة المدرسة ، ولا يبغون به حولا ، أما إذا ثبت غير ذلك ، وأحب الناس عزله ، فتنشأ المشاكل ، وتحدث فتن و محن .

هذه قصة المدارس الاسلامية بصفة عامة فى نشوئها و ارتقائها و توارثها ، أما ماليتها فتعتمد على الأوقاف كالمزارع و البساتين ، و البيوت السكنية ، و أموال الزكاة و الصدقات التى يخرج لجمعها السفراء فى مختلف الأيام لاسيما فى رمضان ، كما ترسل هذه الأموال و غيرها من الهدايا و التبرعات ، بالبريد أيضاً ، و كثير من المدارس تفتح فرعاً دائم العمل يستقبل الحبوب و الغلات زمن الحصاد و جلود الحيوانات فى أيام الأضاحى ، أو تنظم وتفرض قدراً زهيداً من المال كنصف روبية أو أقل أو أكثر على كل فرد مسلم من أفراد القرية ، التى تقوم فيها المدرسة ، وغير ذلك من طرق التنظيم والجمع الشعبية الحرة ، و بالرغم من الجهود الصعبة التى يبذلها السفراء ، وتجاوب كثير من أفراد الشعب معهم ، لا تحصل هذه المدارس لما ليتها ما تحصل عليها مدرسة حكومية ابتدائية أو ثانوية ، فتكون رواتب المدرسين فى هذه المدارس زهيدة ، كمائتين ، أو ثلثمائة أو أربعمائة روبية فى أكثر المدارس الابتدائية و الثانوية .

و المناهج الدراسية المطبقة فى هذه المدارس المنبثة فى طول الهند وعرضها

تنقسم قسمين : قسم وهو الأكبر ، يتبع المنهج النظامى المطبق فى دار العلوم ديوبند، و مظاهر العلوم بسهارنفور ، مع تعديلات و إضافات أجريت مؤخراً ، وقسم آخر يتبع منهج ندوة العلماء الذى يركز على اللغة العربية و دراسة العلوم القرآنية ، و الحديثيـــة ، مع التعرف على الفلسفات و الأفكار المعاصرة ، و عرض الاسلام باصالته وقدمه فى أسلوب عصرى ملائم .

و توجد فى جنوب الهند مدارس تضاهى هذه المدارس فى شمال الهند ، تنهج بعضها نهج الجامعات الاسلامية فى السعودية ، لاسيما الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة ، كما أن مدارس السلفية تمزج بين منهج ندوة العلماء ، وبين عدد من مقررات الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة . و يرجع ذلك إلى وجود مدرسين و مسئولين فى هذه المدارس من خريجى الجامعة الاسلامية .

و تمتاز المدارس الاسلامية فى الهند بروح التقشف والصبر واحتمال الشدائد ، وتوقير الطلاب لأساتذتهم ومربيهم وبتجيلهم ، مع الحب المتبادل ، و الشفقة الأبوية من جانت الأساتذه و المربين ، كما أنها تمتاز بأن طلابها يصرفون جهودهم فى تحصيل العلم ناوين أن يخدموا الاسلام ويخدموا العلم ، إذ أنهم يعرفون مصيرهم بعد تخرجهم فى هذه المدارس الشعبية الخاصة ، حيث لا يقبلون فى الوظائف الحكوميـــة ، فليجدوا مكانهم فى قلوب المسلمين الذين يحترمونهم و يساعدونهم فى إقامة المؤسسات العلمية و المراكز الدينية ، و يرفعونهم بالحب و الاجلال على رؤوسهم . و ما من شك فى أن هذا الوضع مع علاته ومع ما فيـــه من مشاكل و أضرار لا يخلو عن فائدة التركيز و الانصراف إلى العلم ، ومحاولة التبريز فيه ، و التظاهر بمظهر العلماء تارة عن إخلاص وحسن نية ، و تارة للانسلاك فى صف العلماء ، و كل ذلك له ايجابياته الكثيرة ، وسلبياته العديدة .

ثم إن هذه المدارس الاسلامية لا تستطيع أن تبق ، وتأتيها مواردها ، إلا إذا بقيت محافظة على إسلاميتها ، و روحها الدينية و الدعوية ، واتصالها العلمى مع الشعب ، و التعرض لحل مشاكله ، والرد على أسئلته و استفتاءاته ، و الاستجابة لنداءاته ، و التلبية لدعواته إلى ممارسة الحياة العملية الواقعية ، فلا أبراج عاجية ، و لا عزلة علمية ، ولا كهوف فلسفية ، شأن كثير من الجامعات فى العالم الاسلامى للأسف الشديد .

هذه نظرة على المدارس الاسلامية فى الهند تاريخها ، وكيفية نشوئها وارتقائها ، و أوضاعها و خلفياتها ، و الروح السائدة فيها ، و ميزاتها ، يمكن أن ينظر من خلال مرآتها إلى الجامعات الاسلامية فى بلدان العالم الاسلامى ، فيستفاد من بعض جوانب الخير فيها ، و يحاول تسديد خللها ، وتقام جامعات مثالية فى روحها العلمية الجامعية ، وسلوكها الحركى الواقعى ، وتطبيقها الجاد المثمر ، ذلك ما يتمناه المسلمون ، وتمس إليه حاجة الشباب المسلم .

و الله المستعان وعليه فليتوكل المتوكلون .
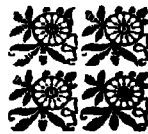
كعب بن زهير بن أبي سلمى

- ٢ -

سعيد الأعظمي

و يروى أصحاب التاريخ أن بجيراً و كعباً كليهما كانا قد خرجا بعد بعثة النبي ﷺ إليه لكى يسلما ، ثم بدا لكعب فتأخر عن الذهاب ورجع إلى أهله ، و تقدم أخوه بجير و سمع كلام رسول الله ﷺ و أسلم ، الأمر الذى لم يعجب أخاه كعباً ، فبقى على الشرك ما أراد الله أن يبقى ، و لما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة لحقه أخوه بجير و شهد معه عدة غزوات ، وأراد يستدعى أخاه كعباً إلى رسول الله ﷺ فعرض عليه أن يلحق بالنبى ﷺ . فأنكر ذلك كعب وأجابه بالأبيات التى مطلعها:

ألا أبلغا عنى بجيراً رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

فبلغ رسول الله ﷺ شعره هذا فتوعده و نذر دمه ، فكتب بجير إلى كعب يخبره بأن رسول الله ﷺ قتل رجالا ممن كانوا يؤذونه ، فان كانت لك فى نفسك حاجة فأقدم عليه فانه لا يقتل أحداً أتاه تائباً ، وإن أنت لم تفعل فانج بنفسك .

أما الرواية التى تقول : إن كعباً وأخاه بجيراً قد خرجا إلى رسول الله ﷺ حتى بلغا أبرق العزاف (١) ، فقال كعب لبجير : الق هذا الرجل و أنا مقيم لك هينا » ، فان جميع الشواهد تدل على أنها تتعلق بالخروج الأول حينما كانا قد خرجا بعد

(١) ماء لبنى أسد بن خزيمة ، وهو فى طريق من يسلك من البصرة إلى المدينة ، و فى رواية : أبرق العراق ، و هو تحريف .

بعثة النبي ﷺ إليه ثم بدا لكعب فتأخر و رجع الى أهله ، و تقدم بجير فذهب الى النبي ﷺ .

وظل كعب على الشرك حتى كانت الهجرة و تم فتح مكة ، فكتب إليه أخوه بجير و كان قد شهد حنيناً و الطائف و خيبر ، و شهد فتح مكة ، الذى أعز الله به الاسلام وأذل به الشرك والمشركين ، و بعد منصرفه من الطائف كتب بجير بن زهير بن أبي سلمى الى أخيه كعب بن زهير يخبره أن رسول الله ﷺ قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ، فان كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله ﷺ فانه لا يقتل أحداً جاء إليه تائباً ، و كان كعب قد قال الأبيات التى أهدر النبي ﷺ دمه من أجلها .

و وقع هذا الكلام فى نفس كعب بن زهير و أشفق على نفسه و خاف أن يقتل ، فصنع قصيدته التى يعتذر فيها إلى رسول الله ﷺ و يمدحه :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول　　　متيم إثرها لم يفد مكبول

يتحدث أبو الفرج الأصفهانى عن وصول كعب إلى المدينة و حضوره إلى الرسول ﷺ فيقول :

« ثم أقبل حتى أناخ راحلته ، بباب مسجد رسول الله ﷺ ، و كان مجلسه من أصحابه ، مكان المائدة من القوم ، حلقة ثم حلقة ثم حلقة و هو وسطهم ، فيقبل على هؤلاء يحدثهم ، ثم على هؤلاء ثم على هؤلاء ، فأقبل كعب حتى دخل المسجد ، فتخطى حتى جلس إلى رسول الله ﷺ ، فقال يارسول الله : الأمان ، قال . ومن أنت ؟ قال : كعب بن زهير ، قال : أنت الذى يقول ، كيف قال يا أبا بكر ! فأنشده حتى بلغ الى قوله :

سقاك أبو بكر بكأس روية　　　و أنهلك المامون منها و علكا

فقال رسول ﷺ : مامون والله ، ثم أنشده ، يعني كعباً :

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

قال عمر بن شبة : فحدثني الحزامي ، قال حدثني محمد بن فليح عن موسى بن عقبة ، و أخبرني بمثل ذلك أحمد بن الجعد ، قال حدثنا محمد إسحاق المسيبي ، قال حدثنا محمد بن فليح عن موسى بن عقبة قال : أنشدها رسول الله ﷺ في مسجده . فلما بلغ إلى قوله :

إن الرسول لسيف يستضاء به　　مهند من سيوف الله مسلول

في فتية من قريش قال قائلهم　　ببطن مكة لما أسلموا زولوا

زالوا ، فما زال أنكاس ولا كشف　　عند اللقاء ولا خور (١) معازيل

أشار رسول الله ﷺ إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير ، قال الحزامي : قال علي بن المديني : لم أسمع قط في خبر كعب بن زهير حديثاً أتم و لا أحسن من هذا ، و لا أبالي أن لا أسمع من خبره غير هذا » (٢) .

و في رواية للاصفهاني عن عمر بن شبة أن كعباً نزل برجل من جهينة ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت إن أتيتك بكعب بن زهير مسلماً أتؤمنه قال : نعم . قال : فأنا كعب بن زهير . فتواثبت الأنصار ، تقول : يارسول الله ائذن لنا فيه ، فقال : و كيف وقد أتاني مسلماً ، و كف عنه المهاجرون و لم يقولوا شيئاً . فأنشد رسول الله ﷺ قصيدته :

« بانت سعاد فقلبي اليوم متبول »

حتى انتهى إلى قوله :

(١) خور جمع أخور بمعنى الضعفاء ، و يروى ميل جمع أميل .

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ١٤٣ .

لا يقع الطعن إلا فى نحورهم و ما بهم من حياض الموت تهليل

هكذا فى رواية عمر بن شبة ، و رواية غيره « تعليل » .

فعند ذلك أومأ رسول الله ﷺ إلى الحلق حوله : أن تسمع منه ، قال و عرض بالأنصار فى قصيدته فى عدة مواضع ، منها قوله :

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا و ما مواعيدها إلا الأباطيل

و عرقوب رجل من الأوس ، فلما سمع المهاجرون بذلك قالوا : ما مدحنا من هجا الأنصار ، فأنكروا قوله ، و عوتب على ذلك فقال :

من سره كرم الحياة فلا يزل فى منقب من صالحى الأنصار(١)

وجاء فى طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى فى ترجمة كعب بن زهير عن قدومه إلى رسول الله ﷺ يقول :

« قدم كعب متنكراً حين بلغه عن النبى ﷺ ما بلغه (٢) ، فأتى أبا بكر ، فلما صلى الصبح أتى به و هو متلثم بعمامته ، فقال يارسول الله ، رجل يبايعك على الاسلام ، و بسط يده و حسر عن وجهه ، و قال : بأبى أنت و أمى يا رسول الله ، [هذا] مكان العائذ بك ، أنا كعب بن زهير ، فتجهمته الأنصار و غلظت عليه ، لما ذكر به رسول الله ، و لانت له قريش وأحبوا إسلامه و إيمانه (٣) ، فأمنه رسول الله ﷺ ، فأنشد مدحته التى يقول فيها :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

حتى انتهى إلى قوله :

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٤٣—١٤٤ .

(٢) يعنى ما أنذره به أخوه بجير فى كتابه إليه .

(٣) المراد من إيمانه هنا ، إعطاؤه الأمن .

و قال كل خليل كنت آمله ... لا ألفينك ، إنى عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلى لا أبا لكم ... فكل ما وعد الرحمن مفعول
كل ابن أنثى ـ وإن طالت سلامته ـ ... يوماً على آلة حدباء محمول
نبئت أن رسول الله أوعدنى ... و العفو عند رسول الله مامول
إن الرسول لسيف يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
فى فتية من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالو ، فما زال أنكاس ولا كشف ... يوم اللقاء و لا سود معازيل
لا يقع الطعن إلا فى نحورهم ... وما بهم عن حياض الموت تهليل

فنظر النبى ﷺ إلى من عنده من قريش أن اسمعوا ، حتى قال :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ... ضرب إذا عرد السود التنابيل

يعرض بالأنصار لغلظتهم كانت عليه ، فأنكر قريش ما قال ، وقالوا : لم تمدحنا إذ هجوتهم ، و لم يقبلوا ذلك حتى قال :

من سره كرم الحياة فلا يزل ... فى منقب من صالحى الأنصار
الباذلين نفوسهم لنبيهم ... يوم الهياج و سطوة الجبار
يتطهرون ـ كأنه نسك لهم ـ ... بدماء من علقوا من الكفار
صدموا عليا يوم بدر صدمة ... دلت لوقعتها جميع نزار

يعنى بنى على بن مسعود ، و هم بنو كنانة (١) .

فكساه النبى ﷺ بردة اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير

(١) كنانة : هم بنو على بن مسعود يعنى بنى عبد مناة بن كنانة أخو النضر بن كنانة جد قريش ، و إنما سموا عليا لأن عبد مناة بن كنانة كان له أخ لأمه هو على بن مسعود الغسانى .

قد سمى ، فهى البردة التى تلبسها الخلفاء فى العيدين ، زعم ذلك أبان (١) (٢) .

و لقد تحدث ابن هشام عن قصة حضور كعب بن زهير إلى المدينة و إنشاده مدحته للنبى ﷺ كما سبق ذكره ، و قال فى آخر كلامه عنه رواية عن ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة :

« فلما قال كعب : « إذا عرد السود التنابيل » و إنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع (٣) ، و خص المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بمدحته ، غضبت عليه الأنصار ، فقال بعد أن أسلم يمدح الأنصار ، و يذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ ، و موضعهم من اليمن .

من سره كرم الحياة فلا يزل ... فى منقب من صالحى الأنصار (٤)

ورثوا المكارم كابراً عن كابر ... إن الخيار هم بنو الأخيار

المكرهين السمهرى بأذرع ... كسوالف الهندى غير قصار (٥)

و الناظرين بأعين محمرة ... كالجمر غير كليلة الأبصار

و البائعين نفوسهم لنبيهم ... للموت يوم تعانق و كرار

---

(١) هو أبان بن عثمان البجلى .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحى ص ٨٣-٨٧ .

(٣) إشارة إلى رجل من الأنصار كان قد وثب عليه حينما قال لرسول الله ﷺ « أنا يارسول الله كعب بن زهير ، و قال ذلك الرجل الأنصارى : « يارسول الله : دعنى و عدو الله أضرب عنقه » .

(٤) المنقب : الجماعة من الخيل ، يريد به القوم على ظهور جيادهم .

(٥) السمهرى : الرمح ، و سوالف الهندى : يريد حواشى السيوف ، وقد يراد به الرماح أيضاً ، لأنها قد تنسب إلى الهند .

و القائدين (١) الناس عن أديانهم ... بالمشرفى و بالقنا الخطار (٢)
يتطهرون يرونه نسكا لهم ... بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية ... غلب الرقاب من الأسود ضوارى (٣)
و إذا حللت ليمنعوك إليهم ... أصبحت عند معاقل الأعفار (٤)
ضربوا عليا يوم بدر ضربة ... دانت لوقعتها جميع نزار (٥)
لو يعلم الأقوام علمى كله ... فيهم لصدقنى الذين أمارى (٦)
قوم إذا خوت النجوم فانهم ... للطارقين النازلين مقارى (٧)

(١) شرحها أبو ذر على أن « القائدين » «والذائدين » بمعنى المانعين والدافعين
(٢) المشرفى : السيف ، و القنا : الرماح ، جمع قناة ، و الخطار : المهتز .
(٣) دربوا : تعودوا ، و خفية : اسم مأسدة ، و غلب الرقاب : غلاظ الأعناق ، و ضوارى : متعودات الصيد و الافتراس .
(٤) المعاقل : جمع معقل ، و هو الموضع الممتنع ، و الأعفار : جمع عفر ، و هو ولد الوعل . ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعول فى قلل الجبال .
(٥) عليا : يريد على بن مسعود بن مازن الغسانى . و إليه تنسب بنو كنانة ، لأنه كفل ولد أخيه عبد مناة بن كنانة بعد وفاته . فنسبوا إليه .
(٦) أمارى : أجادل .
(٧) خوت النجوم : أى سقطت و لم تمطر فى نوئها ، و الطارقون : الذين يأتون بالليل ، و المقارى : جمع مقراة ، و هى الجفنة التى يصنع فيها الطعام للأضياف ، يريد أنهم إذا انحبس المطر ، و اشتد الزمان ، و عم القحط ، يكونون أصحاب قصاع لقرى الأضياف الذين يطرقونهم ، و ينزلون بهم .

فى الغر من غسان من جرثومة أعيت محافرها على المنقار

قال ابن هشام : و يقال إن رسول الله ﷺ قال له حين أنشده « بانت سعاد فقلبى اليوم متبول » : لو لا ذكرت الأنصار بخير ، فانهم لذلك أهل ، فقال كعب هذه الأبيات ، و هى فى قصيدة له .

قال ابن هشام : و ذكر لى عن على بن زيد بن جدعان أنه قال :

أنشد كعب بن زهير رسول الله ﷺ فى المسجد :

« بانت سعاد فقلبى اليوم متبول (١) »

و قال إبراهيم : حدثنى محمد بن الضحاك بن عثمان عن أبيه ، قال عنى كعب ابن زهير بقوله :

« فى فتيـة من قريش قال قائلهم »

عمر بن الخطاب رضى الله عنه (٢) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ١٥٧—١٥٨ .

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١٤٤ .

من أعلام الاسلام :

عمــر بن الخطــاب

بقلم : الأستاذ واصف عبد الحليم عبد الله

إنه الفاروق عمر بن الخطاب الذى أحبه الرسول ﷺ وجعله إلى جواره ، فتأثر بأخلاقيات الحبيب المصطفى ، فسار على دربه و تعاليمه و أسدى إلى الناس أخلاقه ، فنصح الأمة و كشف الغمة .

و من الأشياء الجميــلة الحلوة القوية الناصعة ما قيل إن عمر بن الخطاب كان قوياً لا يخشى فى الحق لومة لائم ، أتى رجل إلى رسول الله ﷺ من اليهود وقال للرسول ﷺ يا بنى عبد المطلب إنكم قوم مماطلون أى لاتدفعون الحقوق ، فقام عمر و أراد أن يضرب الرجل بسيفه . فخاف الرجل وجبن لو لا تدخل الرسول ، وأسلم اليهودى على يدى الرسول بعد ذلك .

عمر و خالد بن الوليد :

كتب عمر بن الخطاب أنه لم يعزل خالد بن الوليد سيف الله المســلول الذى سله على الكفار لالرشوة أو سخطة أو خيانة ، و قال لخالد يوماً « ما عزلتك عن ريبة فيك و لكن افتتن الناس بك فخشيت أن تفتــتن بالناس » . صدقت يا عمر بأبى و أمى طبت ميتاً و طبت حياً .

و لقد نذكر أن المسلمين فى يوم ما انصرفوا عن ابن مسعود فى وجود خالد ابن الوليد ، ولــكن أيضاً لا ننسى قول عمر فى هذا المضمار « إنها فتنة للتبوع و ذلة للتابع » .

إنصاف خالد لعمر و مدحه إياه :

دخل الصحابى الجليل أبو الدرداء على خالد بن الوليد فى مرضه مرض الموت، فقال له خالد : ياأبا الدرداء لئن مات لترين أموراً تنكرها ، فقال أبو الدرداء : وأنا و الله أرى ذلك ، فقال خالد : كنت وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا و حضرنى من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلى من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل و أخذت فرد نعل ، فرأيته فعـــل ذلك بغيرى من أهل السابق ومن شهد بدراً ، وكان يغلظ على و كانت غلظته على غيرى نحوا من غلظته على .

كان عمر رجلا معقد الأمل و مناط الرجال :

كان أمير المؤمنين عمر رحمه الله و جعل الجنة مثواه يأمر الأمر واضحاً جلياً ليس فيه شك ولا خلاف، ومما يقال فى هذا المجال المثل الذى نقدمه من « مروج الذهب » للمسعودى .

بعث أمير المؤمنين — عمر — إلى الكوفة عمار بن ياسر أميراً ، وعثمان ابن حنيف على الخراج، وعبد الله بن مسعود على بيت المال، وأمره أن يعلم الناس القرآن و يفقههم فى الدين، و فرض لهم فى كل يوم شاة فجعل شطرها و سواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر لعبد الله بن مسعود و عثمان بن حنيف .

إن الفاروق عمر فقد أحسن الرأى فى اختيار القادة لما يحسنون من أعمال تناط بهم فيها أكثر من غيرهم ، وكم كان عمر بصيراً حينما سلم ابن مسود بيت المال إلى ابن مسعود، و هذا هو الذى يرتل القرآن ويتلوه و يتعبث ذلك هو ابن مسعود الذى شهد له الرسول ﷺ و ضرب به المثل فى القراءة و قال إنهـا مثــل قراءة جبريل .

أصل عطلة الخميس و الجمعة فى معظم البلدان الاسلامية :

قال صاحب (أسد الغابة) فى ترجمة التميم بن خراش بتصرف « لما خرج أمير المؤمنين عمر إلى الشام وغاب عن المدينة شهراً استوحش إليه الناس أى أحسوا بشوق إلى الأمير العادل ، وخرج غلمان المكتب للقائه ، وكان عمر قد بدأ جمع الغلمان فى مكتبة ليعهدهم « عامر بن عبد الخزاعى » بالتعليم و يتقاضى رزقاً على ذلك من بيت المال ، فخرجوا مسيرة من المدينة وكان ذلك يوم الخميس و قد انقطعوا عن المكتب يومين أجازهما عمر و كان بعد ذلك عادة متبعة » ، و نعمت العادة إذا أخذها أبناؤها للصلاة و للرياضة النافعة .

كانوا يعرفون عمر :

حينما دخل معاوية الشام وجد أمه هند بنت عتبة و كذلك أبوه أبو سفيان فوجدهما يعرفون عمر ويعرفون قدره ، وغيرهم من السابقين للاسلام الذين يعرفون عمر بحسن التوجيه و صادق الخلق .

و لقد ذكر عن عمر بن الخطاب عن ابن قيم الجوزية فى الطرق الحكيمة عن الليث أن عمر بن الخطاب حرق بيت رويشد الثقفى لأنه كان يبيع الخمر و قال له : أنت فويسق و لست برويشد ، رحمك الله يا إمام المسلمين و قائد جيشهم فى الامام ضد الأعداء أعداء الدين وأعداء الله ، لعل ذكراك تجعلنا كأمة مسلمة نتمسك بصفاتك وبحسن توجيهاتك ، فقد كنت على مستوى المسئولية بما لا يدع مجالا لشك أو طريقاً لانسان ليقلل من شأنك رحمك الله و جعلك فى أعلى عليين ، وندعو الله أن تسير الأمة الاسلامية على دربك و حميد صفاتك .

دراسة موجزة عن :

المكتبات الاسلامية ودورها في الثقافة والتربية

الدكتور : محمد عبد الله المهدى البدرى
جامعة الامارات العربية المتحدة

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد و على آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين ، وبعد !

فان من أبرز الظواهر فى حياة أمتنا و من أبرز المعالم فى تاريخها : ظاهرة الكتاب ، تلك الظاهرة التى كانت بعد ظاهرة القراءة أثراً من آثار ظاهرة الوحى بالقرآن الكريم .

فمنذ تلقت هذه الأمة البدوية الأمية أول نصوص هذا الوحى الالهى مصدراً بالأمر بالقراءة فى قوله تعالى (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم) (١) .

منذ ذلك انتشرت ظاهرة القراءة بصورة عامة بين الرجال والنساء و الولدان ، وفى المسجد وفى البيت وفى كل مكان ، حتى كان يسمع للبيوت دوى كدوى النحل .

و أعقب ذلك الاقبال على تعلم الخط و الكتابة بصورة أخذت تنمو و تزداد بين الكبار والصغار بحيث انتقلت من مستوى الأفراد إلى مستوى المجموعات فافتتحت الكتاتيب ، و انقطع لها المعلمون و أوقفت عليها الأموال .

(١) سورة العلق آية : ١—٥ .

و لقد كان ذلك و ما أعقبه من توسع و انتشار و نمو و ازدهار استجابة طبية لهذا الوحى الربانى الذى ابتدأ بالأمر بالقراءة ، و نوه بشرف القلم إلى درجة القسم به فى قوله تعالى : (ن و القلم وما يسطرون) (١) . ورفع من شأن العلم و العلماء حتى جعلهم أعرف الناس بربهم فقال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (٢) ، وكرر مادة العلم عدة مئات من المرات . وسمى ذلك الوحى قرآنا و كتاباً بل أسماه « القرآن » و الكتاب » وكرر مادة « كتب » أكثر من مائتى مرة .

و لعل مما تجدر الاشارة إليه أن كلا من مادة « قرأ » ومادة « كتب » تدل على الجمع و الحفظ ، فكانت الأولى وسيلة الحفظ والجمع فى الصدور ، وكانت الثانية وسيلة التسجيل و الجمع فى السطور ، و لعله قد سبق فى علم الله و حكمته أن تكون الوسيلتان مصداقا لتحقيق و عده سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون » (٣) .

صبغت ظاهرة الوحى حياة الأمة بصبغتها ، و تلتها ظاهرة القراءة ثم ظاهرة الكتاب حين تجسد ذلك الوحى المقروء فى صورة كتاب بين دفتين ، شهده الملأ المقربون من البشر ، شهدوه مكتوباً كما شهدوه من قبل مقروءا ، لم تتغير منه شئ فى كلتا حالتيه ، فكان كما شهده الملأ المقربون من الملائكة .

ومن روح هذا الوحى المقروء المكتوب المطبق فى حياة الأمة . القائم فى واقع الناس ، برزت علوم و أحكام و قواعد تلقاها الناس علماً و تعلماً و تعليماً ثم دونت هذه العلوم والأحكام و القواعد ، فكان من هذا التدوين كتب وأسفار كلها موصولة النسب بالكتاب الأول ، بالقرآن الكريم .

(١) سورة ن آية : ١ . (٢) سورة فاطر : ٢٨ . (٣) سورة الحجر : ٩ .

أخذ الكتاب امتداده فى جوانب متعددة من حياة الناس حتى لكأنه كائن حى يعايشهم ، و يشاركهم حياتهم فأصبح وجوده فى حياة البعض تديناً و تعبداً ، و فى حياة بعض آخر تقليداً و تفاخراً ، و أصبح له فى البيوت مكان خاص كما أصبح له فى المجتمع دار بل دور خاصة ، و وجد له من بين الناس أصدقاء بل عشاق و محبون أشادوا به و تغنوا بمديحه :

لى صاحب لا أمل صحبته ... ما عرف الحقد أو درى الغضبا
إن غبت عنه يظل يخلص لى ... و أجتنى العلم منه و الأدبا
يفيد فى صمته و لولاه لم ... يبلغ أولو الفضل هذه الرتبا

هم جلساء ما تمل حديثهم ... أمينون مأمونون غيباً و مشهدا
إذا ما خلونا كان خير حديثهم ... معيناً على نفى الهموم مؤيدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... و عقلا وتأديباً و رأياً وسؤددا
فلا ريبة تخشى و لا سوء عشرة ... و لا نتقى منهم لساناً و لا يدا
فان قلت : أموات فلست بكاذب ... وإن قلت : أحياء فلست مفندا

وكان الجاحظ — يرحمه الله — فى مقدمة الذين هاموا بالكتب حباً ، وتغنوا بما فيها من علم وأدب ، لدرجة أنه مات شهيداً لهذا الحب حين سقطت على رأسه وهو نائم فقتلته .

والمتنبى أيضاً يتغنى فيقول :

أعز مكان فى الدنى سرج سابح ... و خير جليس فى الزمان كتاب

و على صعيد العرف الاجتماعى و التقليد و الافتخار أصبح للكتاب ركن فى كل دار — أى المكتبة الخاصة — وفى ذلك طرائف و نوادر منها أن أحد طلاب

العلم أراد شراء كتاب فوجد رجلا ينافسه فى شرائه و يغلى فى ثمنه فلما استوضحه عن شخصه وجده أمياً لا يقرأ و لا يكتب ، فلما سأله عن سبب منافسته فى شراء الكتاب قال : إن عنده فى مكتبة بيته مكاناً على قدر هذا الكتاب .

و على صعيد المجتمع وجدت المكتبات العامة ، و قد أخذت هذه المكتبات صورتها المتكاملة منذ العصر الأول للاسلام حيث تحدثنا الروايات أن معاوية رضوان الله عليه ـ قد أقام داراً للكتب وجعل فيها حجرات للدراسة وحجرات للراحة والمبيت ، و أخرى للترويح عن النفس من تعب الدراسة ، وعلى منوال معاوية نسج كثير من الموسرين فى عصره ومن بعد عصره .

و من هذا أصبح للكتاب حساب فى فن العمارة حيث وضعت المواصفات لبناء المكتبات ، منزلية كانت أو عامة و من هذا المواصفات ما تحدثنا به الروايات عن المكتبات القديمة .

ينقل الدكتور أحمد شلبى (١) عن O'ga Pinto فى مقال له عن المكتبات الاسلامية يقول : إن المسلمين اهتموا اهتماما عظيماً بأبنية المكتبات العامة التى كانت تعد لاستقبال الجماهير ، وقد شيد بناء خاص على طراز معين لمكتبات شيراز وقرطبة و القاهرة و ما ماثلها ، و كانت الأبنية مزودة بحجرات متعددة يربط بينها أروقة فسيحة ، وكانت الرفوف تثبت بجوار الجدران لتوضع فيها الكتب ، وبعض الأروقة كان يخصص للاطلاع ، كما كانت تخصص بعض الحجرات للنسخ ، و بعضها لحلقات الدراسة ، و انتظمت بعض المكتبات كذلك حجرات للموسيقى يلجأ إليها المطالعون للترفيه و تجديد النشاط ، و كانت جميع الحجرات مؤثثة تأثيثاً فخماً و مريحاً ، وقد فرشت أرضها بالبسط و الحصير لتلائم أذواق الشرقيين الذين كانوا يميلون إلى الجلوس على الأرض متقاطعة أرجلهم للقراءة و الكتابة .

(١) التربية الاسلامية .

وكان للأبواب والنوافذ ستائر جميلة ، أما مدخل المكتبة فقد كانت له ستارة سميكة تحول دون دخول الهواء البارد فى الشتاء إلى داخل الحجرات .

و يقول المقريزى فى خططه : إن دار الحكمة فى القاهرة لم تفتح أبوابها للجماهير إلا بعد أن فرشت و زخرفت وعلقت على جميع أبوابها و ممراتها الستور ، و أقيم قوام و خدام و فراشون و غيرهم و رسموا بخدمتها .

و كان البناء المخصص لمكتبة الفاطميين عظيماً جداً ، إذ كانت عدة الخزائن التى برسم الكتب فى سائر العلوم أربعين خزانه تتسع الواحدة منها لأن يوضع بها ١٨٠٠٠ ثمانية عشر ألف كتاب .

و فى وصف المقدسى (١) لمكتبة عضد الدولة فى شيراز يقول : و المكتبة « أزج » — أى بهوأوليوان — طويل فى صفة كبيرة فيها خزائن من كل وجه.

و قد ألصقت إلى جميع حيطان الأزج و الخزائن بيوت طولها قامة فى عرض ثلاثه أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق و الدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت ، ولكن نوع من الكتب فهارس فيها عناوين الكتب ،

و فى هذا المجال تتواتر الروايات و الأخبار ، كلها يذكر ما كان للمكتبات الاسلامية من نظام و شأن فى خدمة طلاب العلم والمعرفة ، و كان ذلك من آثار التنافس فى هذا الميدان بحيث وجد فى كل بيت مكتبة تتناسب وقدرة صاحبه ، وفى كل مجتمع أكثر من مكتبة و فى كل مدينة و فى كل عصر ، و سجل التاريخ تلك الأسماء اللامعة للمكتبات مثل : مكتبة عضد الدولة فى شيراز ، مكتبة السامانيين فى بخارى ، النظامية فى بغداد ، و المستنصرية فى بغداد ، و دار الحكمة فى القاهرة ، و مكتبة الحكم فى الأندلس ، وغيرها كثير من مكتبات الأشخاص و القصور .

(١) أحسن التقاسيم ص ٤٤٩ .

وقد قامت المكتبات الاسلامية — التى ألمحنا إلى طرف من أوضاعها — قامت برسالتها عبر التاريخ سواء فى تخريج العلماء ، و تربية الأفراد ، أو تغيير الاتجاهات الفكرية و الثقافية والحضارية وتحديد مسارها . فما من علم من أعلام الفكر و المعرفة إلا وقد تتلمذ حتى تخرج على مكتبة أو أكثر من هذه المكتبات .

هذا و قد أجمع المؤرخون — إلا من كابر — على أن مكتبات الأندلس الاسلامية و ما كان بها من مدارس و حلقات علمية كانت هى المنارات التى أضاءت لأوربا طريق النهضة الحديثة ، و ما عرف المسلمون كتمان العلم و لا حجبه عن طالبه ولا بخلوا به على أحد ، بل بذلوه للبشرية جميعاً حتى كان من طلاب الأندلس قسس و رهبان من أبناء الكنائس الأوربية .

و إذا كانت هذه دلالة التاريخ ، فان دلالة الحاضر غير ذلك . فقد تناولت أوربا الشعلة ثم سبقت أصحابها ، بل وبخلت عليهم بالكثير من نورها و علمها على عكس ما كان من أسلافنا .

و لكن منطق العصر لا يعرف الانطواء ، و لا يقبل الانزواء ، و علينا أن نلحق إلى ما وصلوا و أن نسبر غور ما صنعوا ، لا مقلدين ، فان المقلد يظل تابعاً أبداً ، و إنما محصلين و متعلمين و منافسين حتى ، نستطيع أن نكون - على الأقل — متساوين إن لم نستطع أن نكون سابقين .

و لا شك أن الحضارة الحديثة قد صبغت المكتاب بصبغتها ، فأصبح للمكتبات علم و فن يتناول كل ما يتعلق بها من بناء و تنظيم و توظيف و تزويد و تصنيف ، حتى تكون على كفاءة فى أداء رسالتها الحضارية .

و إذا كانت الوسائل و الآلات تسيرها و تحددها المقاصد و الغايات ، فاننا ولا شك فى حاجة إلى اقتباس كل ما هو من قبيل الوسائل و الآلات . لنجعلها بدورنا فى خدمة مقاصدنا و غاياتنا .

كما أنه لا شك فى أن مقاصدنا و غاياتنا من مكتباتنا تختلف بل قد تتعارض و المفهوم الحضارى الغربى ، الشئ الذى يحتم علينا ضرورة الاستقلالية و رفض التبعية حتى نستطيع تخريج الأجيال المسلمة والعلماء المسلمين عن طريق منهجية إسلامية معاصرة ذات أصالة .

نحن بحاجة إلى وسائل جذب الناشئين فى مختلف مستويات أعمارهم إلى المكتبة ، و لكننا بحاجة أيضاً إلى ما يقدم لهم من مادة صالحة تتفق وعقيدتنا و لا تتعارض مع شريعتنا ، مثل المسلسلات المصورة و المجسمة و الملونة مع رعاية كافة ما ورد فى شرعنا الحنيف من أحكام و ضوابط للتصوير و التجسيم ، إضافة إلى اختيار أنواع معينة من الطيور والحيوانات لايكون منها الكلب ولا الخنزير الذين تعتبرهما الحضارة الغربية صديقين حميمين للأطفال بل و للأسرة والبيوت أيضاً .

نحن بحاجة إلى مناشط و ندوات و حفلات تتم فى محيط المكتبة ، و يكون الكتاب ضمن برامجها أو احدى فقراتها ، تحبيباً للناشئة فى هذا الصديق ، على أن يراعى فى تلك المناشط ما وضعه شرعنا من حدود ، و فروق بين الشاب و بين الفتاة ، و هو شئ يتسرب إلينا فيه كثير المخاطر عن طريق ما تحتويه مسلسلات الكتب الأجنبية للصغار من اعتياد حياة ما يسمى بالبوى فريند أو الجيرل فريند ، أو القبلة بين الاثنين عند اللقاء أو الوداع .

نحن بحاجة إلى تزويد مكتباتنا بالوسائل السمعية و البصرية على أن تختار موادها طبقاً لمنهجية إسلامية ، و لا أظن الموجود من ذلك يفى بالقصد عما يحتم أن تتضافر على ذلك جهود مادية و معنوية لانتاج جديد يكون من وحى إسلامنا ، وافياً بما نهدف إليه فى تربية أبنائنا .

إن عقد المسابقات فى الاطلاع و التلخيص ، و الكتابة و التأليف يعتبر من الوسائل الفعالة فى تحبيب المكتبة إلى زائريها على مختلف مستوياتهم وذلك يتطلب أن

يكون فى المكتبة الأركان المناسبة لكل مستوى من مستويات أبنائنا من حيث الاعمار و من حيث الثقافات ، و من حيث الهوايات و الاهتمامات و التخصصات .

إن دخول المكتبة كمادة أساسية ضمن مواد الدراسة فى مدارسنا يعتبر من أهم الوسائل وألزمها فى التربية ، حيث تصبح عنصراً من عناصر التربية الرسمية التى تشكل ثقافات الأجيال و شخصياتهم و تؤثر فيما بعد فى انتاجهم و وظائفهم . كما تؤثر فى المجموع العام فى مستوى الأداء و الدخل القومى عامة .

ويتطلب هذا وضع المنهج المناسب والفعال لكيفية استعمال المكتبة والاستفادة منها سواء فى الزيارة الواحدة أو الزيارات المتكررة ، وأخلاقيات السلوك المكتبى ، و كيفية استخدام الكتاب و التعامل معه كصديق رقيق و احترام وجود الآخرين ، و لا يخفى ما يتطلبه ذلك أيضاً من اعداد و ايجاد أمين المكتبة و المعلم الذى يتمتع بهذا ليكون قادراً على العطاء فيه .

إن اسم المكتبة دائماً يوحى على البداهة بأنها مكان للقارئين فحسب ، فهل فكرنا فى أن يكون للأميين الذين لا يعرفون القراءة و لا الكتابة مكان فى مكتباتنا . خاصة و نحن مصابون فى عصرنا بنسبة عالية من الأمية ؟

إن ذلك قد يتحقق و لا شك عن طريق ما ألمحت إليه قبلا من ضرورة وجود الوسائل السمعية و البصرية ، و توفير المواد الجيدة لها ، هذا علاوة على ما وجد الآن من وسائل كثيرة لتعليم القراءة والكتابة ذاتيا ، فيتحقق بذلك هدفان ، تعليم القراءة و الكتابة ، و تعلم ما يكون من أخلاق أو مبادىء و أحكام معينة .

إن للقدوه والأسوة فى التربية شأن ، ولها فى ديننا كذلك نفس القدر وأكبر .

ولذا كان موظفو المكتبة من أهم العناصر التى يجب الالتفات إلى نوعيتها و حسن اختيارها وجودة إعدادها .

و لا تنس ما ألمحنا إليه قبلا من أن أمناء مكتباتنا قديماً كانوا من خيرة العلماء

و الأدباء و المرشدين . كما لا يخفى أن توقيت عمل المكتبة يجب أن يرتبط بمواقيت الصلاة ، حيث ينهض الجميع للصلاة عند سماع الأذان ، و حبذا أن تجاور المكتبة المسجد أوتكون احدى ملحقاته ، أو يلحق بينائها مصلى ، حسب الامكانيات المتوفرة .

إن الوعى المكتبي من الأهداف التربوية التى يجب الحرص على تحققها ، و لذا فان من الواجب غرس هذا الوعى لدى الناشئة ، بتشجيعهم على تكوين مكتبات خاصة لهم فى ركن من أركان بيوتهم أو حتى فى غرفهم الخاصة ، و امتداداً لذلك تشجيع هذا الوعى ليصبح عادة أو عرفاً اجتماعياً يؤدى إلى تكوين مكتبات البيوت كغرف أساسية من غرف البيت مثل غرف النوم و غرفة الطعام والجلوس وغيرها .

و من الوسائل المشجعة فى ذلك إثارة روح التنافس بين صفوف المدرسة الواحدة ، وكذلك إقامة معارض للكتاب يعرض فيها الأفراد مجموعاتهم من الكتب .

إن إقامة المعارض الدورية للكتب من أهم الوسائل المشجعة على شراء الكتاب و اقتنائه ، و إذا أحسن استغلال فترة المعرض فى عرض آخر ما ألف إلى جوار إقامة بعض الندوات و المحاضرات لالقاء الضوء على الحركة العلمية و الفكرية كان لذلك محصلة تربوية جيدة .

ومن وسائل تحويل الاهتمام إلى الكتاب أن نجعل منه هدية مناسبة فى المناسبات التى تعود الناس أن يتهادوا فيها كالافراح و الأعياد ، و النجاح فى الامتحان ، و المكافأة على السلوك الحسن لدى الناشئة و المجازاة على المعروف وغيرها .

ولا شك أن من وسائل الجذب إلى الكتاب ما تتضمنه المكتبة من وسائل الترويح الأخرى عن النفس حين تمل النفس من المطالعة وهو أمر فطن إليه أسلافنا من قبل لحققوه فى مكتباتهم ، وصدق الصحابى رضى الله عنه حين قال : «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا » و فى الأثر « روحوا النفوس ساعة بعد ساعة » .

هذا علاوة على ما يجب أن يكون عليه وضع المكتبة من حيث فخامة البناء و إناقته و نظافته ، و من حيث موقعه فى المدرسة و فى المدينة ، ومن حيث وجود الحديقة و الأشجار و الأزهار ، و من حيث وجود مطعومات و مشروبات خفيفة مما اعتاد الناس تناولها لكسر حدة الجوع و العطش والكسل .

وليس بعيداً عن المكتبات الاسلامية فى هذه الصورة المشرقة التى نرجوها لها أن تكون من خير وسائل الدعوة إلى الاسلام ، لا من حيث تربية النشء المسلم فحسب بل من حيث تحبيب الناشئة غير المسلمين من أبناء الجاليات والمواطنين غير المسلمين تحبيبهم فى الاسلام عن طريق دعوتهم إلى المكتبة و اشتراكهم مع أبنائنا المسلمين فى نشاطاتها و ملاعبها و انخراطهم فى السلوك العام لأبنائنا تحت إشراف المرشدين الواعين لرسالتهم .

و يتم ذلك عن طريق مكتبات الأحياء و المدارس و المؤسسات الاسلامية على اختلاف مستوياتها بتقديم العون أيضاً لكل دارس و لكل طالب علم ، و قد ألمحنا إلى أن ذلك كان شأن أسلافنا ، و كان سبباً لنهضة أوربا فى حضارتها الحديثة .

و ليس يخاف أن هذه الأمور التى ذكرتها و تناولتها آنفاً إنما هى على سبيل المثال لا الحصر ، و لدى غيرى كثير غيرها و أفضل منها ، وإنما هو دلوى أدليت به بين الدلاء ، و إذا التقت الدلاء على معين نضحت منه الخير الكثير ، و معين الاسلام — بحمد الله و فضله — ثر وغنى و كوثر سخى ، و إذا التقت العقول و الآراء و اجتمعت الهمم و العزائم تدفعها النوايا الطيبة و تحدوها المقاصد العليا ، حققت خيراً كثيراً .

و إننى لأدعو هنا و هناك إلى أن يتوافر على هذا الأمر كل من أراد ابتغاء وجه الله من المؤلفين المسلمين و الأغنياء المسلمين و الحكام المسلمين ، و كلهم — إن شاء الله — يبتغى وجه الله و يرجو رحمته ، كل حسب طاقته و مسئوليته ، حتى

يتوافر الكتاب الاسلامى الحاوى لأدب الاسلام عقيدة و شريعة و سلوكا ابتداء من أدب الأطفال و مسلسلاته و حتى كتب الموسوعات والأمهات ودوائر المعارف .

مواصفات الكتاب

اعتاد العاملون فى حقل المناهج و الكتب أن يذكروا للكتاب مواصفات يلتزمها كل من المؤلف و الطابع علاوة على واضع المنهج ، و يرون فى تحقق هذه المواصفات تحقيقاً لجودة الكتاب سواء من حيث الشكل و من حيث المضمون .

و تأثراً بعملى فى هذا الميدان سنوات لا أرى بأساً — بل أرى فائدة — من ذكرها هنا و لو على سبيل التذكرة .

أن تكون لغة الكتاب — مهما تكن المادة التى يعرضها ، علمية كانت أو أدبية — لغة عربية سليمة من اللحن و بعيدة عن التعقيد ، لتكون واضحة المعانى ، قريبة من الافهام ، و مناسبة للمستوى اللغوى للطالب و القارىء .

يراعى فى عرض المادة أن يقدم إطار عام مجمل للموضوع أولا ليكون ضوءاً كاشفاً إلى العناصر التفصيلية ، ثم يقدم التفصيل على هدى من هذا الضوء العام ، ثم يختم الموضوع بخلاصة مركزة لما تستهدفه هذه الدراسة .

يشترط فى الحقائق و النظريات العلمية التى يقدمها الكتاب أن تكون صحيحة فى ذاتها ، غير متعارضة مع نصوص الشرع أو روحه ، وأن يتوخى المؤلف فى عرضها أسلوباً مبسطاً ملائماً لمستوى القارئين ، مدعماً أسلوبه بأمثلة تربطه بواقع البيئة والحياة الاجتماعية ما أمكن ، و فى الاطار المدرسى يراعى الترابط بين مادة الكتاب ومواد الكتب الأخرى لتتضافر الكتب كلها على هدف واحد .

إذا كان الكتاب يمثل حلقة فى سلسلة من الكتب ، فلا بد أن يبدأ بما يربط القارىء و يذكره بما سبق ، و أن ينتهى بما يمهد لما يلحق .

لا تذكر النظريات العلمية المخالفة للفهوم الاسلامى إلا مصحوبة بالتحليل والنقد فى غير تكلف أو مغالاة بل فى موضوعية هادئة .

يجب اتخاذ أبطال القصص من الشخصيات الاسلامية ، و البعد عن القصص الخرافى أو الأسطورى ، إلا فى المرحلة التى يحتاج الطفل فيها إلى الخيال .

يصدر الكتاب بمقدمة وافية دون استطراد بحيث تتناول أمرين ، هما : موضوع الكتاب ، ثم تعريف بطريقة المولف فى علاج هذه الموضوعات ،

تبوب المادة تحت عناوين رئيسة من داخلها عناوين فرعية ،

لا تذكر النصوص دون تحقيق ، ولا الاقتباس دون إشارة إلى المصدر .

فى الماضى عبرة للحاضر و عدة للمستقبل

و إذا كانت صورة الماضى التليد تدفع الحاضر الوئيد إلى مستقبل مجيد فانى أعود لأصل أواخر كلامى بأوائله ، كما قال الأولون فى حسن رد العجز على الصدر ، فأذكر صورة موجزة عما توافرت المصادر على ذكره من مكتباتنا العامة و الخاصة (١) .

من أشهر هذه المكتبات : مكتبة الخلفاء الفاطميين فى القاهرة ، وكانت تحوز إعجاب زائرها من نفائس المصاحف و الكتب الثمينة ، و التى قال كثير من المؤرخين إنها بلغت مليونى كتاب و مصحف ، و تواضع المقريزى حين قال إنها كانت مليوناً و ستمائة ألف كتاب فقط .

مكتبة دار الحكمة بالقاهرة : أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى و افتتحت فى ١٠ من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ بعد أن فرشت وزخرفت ، و علقت على جميع أبوابها و ممراتها الستور ، وأقيم بها القوامون و المناولون و الفراشون . و قد جمع فيها من الكتب ما لم يجتمع لأحد قط من الملوك ، حتى كانت تضم أربعين خزانة احتوت احدى خزائنها على ١٨٠٠٠ ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة ، وكان الدخول إليها مباحا لجميع الناس ، فنهم من يحضر للقراءة و المطالعة ،

(١) من روائع حضارتنا للدكتور مصطفى السباعى .

و منهم من يحضر للنسخ ، و منهم من يحضر للتعلم ، و كان فيها كل ما يحتاج إليه من الحبر و المحابر و الورق و الأقلام .

مكتبة بيت الحكمة فى بغداد : أنشأها الخليفه هارون الرشيد — رضى الله عنه — و بلغت ذروة مجدها فى عصر المأمون — رضى الله عنه — و كانت أشبه بجامعة فيها كتب ، يجتمع فيها العلماء يتحاورون و يطالعون و ينسخون ، و كان فيها نساخ و مترجمون يترجمون ما كان يحصل عليه الرشيد و المأمون من الفتوحات فى أرض الروم فى أنقرة و عمورية ، و قبرص و غيرها .

و يحدثنا ابن النديم أن المأمون كانت بينه و بين ملك الروم مراسلات و قد اشترط المأمون أن ينص فى وثيقة الصلح بينهما أن يضع ملك الروم مافى خزانته من الكتب تحت يدى المترجمين الذين يرسلهم المأمون ليقوموا بترجمتها ففعل .

و لعل التاريخ لم يسجل أعظم من هذا الشرط ثمناً للصلح يحصل عليه ملك منتصر ليقدمه لأمته .

مكتبة الحكم بالأندلس : كانت غاية فى العظمة و الاتساع حتى قيل : إنها بلغت أربعمائة ألف مجلد ، و كانت لها فهارس غاية فى الدقة و النظام حتى أن الفهرس الخاص بدواوين الشعر الموجودة فيها بلغت أربعة وأربعين جزءاً ، و كان فيها الحذاق من النساخين ، و المهرة من المجلدين .

مكتبة بنى عمار فى طرابلس : كانت آية من آيات العظمة والضخامة ، وكان فيها مائة و ثمانون ناسخاً يتبادلون العمل ليلا ونهاراً حتى لا ينقطع العمل فى نسخ الكتب ، و كان بنو عمار يحرصون على تزويد مكتبتهم بكل نادر أو جديد من الكتب ، و وظفوا لذلك تجاراً مختصين فى جلب الكتب من البلدان و الأقطار . وقد ذكرها المعرى فى كتبه ، و ذكر استفادته منها ، و أعدل الأقوال أنها كانت تحوى مليون كتاب .

و تتحدث الروايات بالاعجاب عن كثير من المكتبات الخاصة ، و التى كان لها فى التاريخ ذكر يضاهى ذكر المكتبات العامة ، و قد وجد هــذا النوع من المكتبات فى مختلف بلاد العالم الاسلامى ، و ندر من العلماء أو الوجهاء من لم يكن له مكتبة ، و من هذه المكتبات .

مكتبة الفتح بن خاقان سنة ٢٤٣هـ: وكانت ذات اتساع ونظام ، وقد عهد بجمعها إلى رجل من خيرة رجال عصره علماً وأدباً ، هو على بن يحى المنجم لجمع له فيها من كتب الحكمة ما لم يجتمع فى مكتبة أحد فى عصره .

مكتبة ابن الخشاب سنة ٥٦٧ : و كان أعلم الناس بالنحو . و له دراية بالتفسير و الحديث و المنطق و الفلسفة . و كان مولعاً بالكتب إلى حد الشره ، مما حمله على أن يسلك فى الحصول عليها طرقا غير محمودة .

مكتبة جمال الدين القفطى سنة ٦٤٦هـ : و كان لا يحب من الدنيا شيئاً أكثر من الكتب ، فأوقف نفسه على جمعها ، لجمع فى مكتبتــه أنفسها و أغلاها و أندرها ، و رفض أن يتزوج حتى لا يشغله الأهل و الأولاد عنها ، و قد أوصى بها من بعده لأحد أصدقائه .

مكتبة بنى جرادة فى حلب : و كانوا أهل علم و أدب ، حتى أن أحدهم وهو أبو الحسن بن أبى جرادة سنة ٥٤٨ كتب بخطه من الكتب النفيسة ثلاث خزائن .

مكتبة الموفق بن المطران الدمشقى سنة ٥٨٧هـ : و كانت له همة عاليــة فى تحصيل الكتب ، حتى جمع منها عشرة آلاف مجلد ، و كان عنده فى المكتبة ثلاثة من النساخ منقطعين لمكتبته على نفقته

و لئن كان الفخر و الاعتزاز يعرونا و نحن نستعرض هذا الماضى المجيد فى عالم العلم و الأدب و الكتب و المكتبات ، فان سؤالا يقفز إلى الأذهان عن مصير هذه المكتبات و ما كان فيها من نفائس .

و لكن التاريخ يجيب عن هذا التساؤل حزيناً كاسف البال ، حين يذكر انا النكبات التى حلت بالعالم الاسلامى حين ضعف أهله وأترف بنوه، فغزاه الأعداء من الهمج الذين لا يقيمون وزناً لعلم ولا لحضارة . فحطموا كل هذه الصروح وخربوا الديار ، و أشعلوا فيها النار ، فذهبت هذه الكنوز من الكتب ما بين حريق و غريق ألق به فى الأنهار ، و حرمت الانسانية على يد هؤلاء من أثمن ما أنتجه عقل الانسان .

فالتتار حين دخلوا بغداد ألقوا بالكتب فى نهر دجلة حتى اصطبغ ماؤه وعبرت الخيول على أكوام الكتب كأنها التراب ،

و كذلك فعل الصليبيون فى مكتبات طرابلس و المعرة ، و عسقلان و غزة وبيت المقدس و غيرها من المدن ، حتى أن بعض المؤرخين قدر ما أتلفه الصليبيون فى طرابلس وحدها بثلاثة ملايين كتاب .

وهكذا كان فى الأندلس على يد الأسبان ، ولم يحفظوا لهذه المكتبات ماأسدته إليهم و إلى أوربا من نور وعرفان .

و لكننا لا نقف وقفة الحاقد ، بل نعترف أن المكتبات الأوربية الآن تضم كثيرا من تراثنا المنهوب ، وعلينا أن نهب من غفوتنا لنكمل مسيرة من سبقونا بالايمان

التقيت منذ سنوات بأحد الأساتذة المستشرقين الانجليز ، كنت قد راسلته من قبل أن أراه ، ولما سألته عن وجهته ، أجاب بأنه ذاهب إلى اليمن للمرة الثالثة حيث يمكث هناك فى كل مرة أكثر من شهرين ، يتتبع كما قال هو : كنوز المخطوطات العربية لتصويرها أو شرائها أو الحصول عليها بأى وسيلة ، فقلت فى نفسى : سبحان الله هلا كان من أبناء الاسلام من يقوم بمثل هذا العمل .

وبعد ! فهذه لمحة موجزة و سريعة ، آمل أن يكون فيها ما يفيد فى موضوع هذه الندوة المباركة إن شاء الله .

و على الله قصد السبيل ، وبه نستعين ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

صور و أوضاع :

حضــارة تحتضر

واضح رشيد الندوى

تتسم كتابات كثير من المعالجين للشاكل التى تعانى منها الأمة الاسلامية بنقد الغرب و الفلسفات و الأفكار ، والنظم التى تسود العالم الاسلامى اليوم ، و تعتبرها مسئولة عن وجود الاضطراب الفكرى و التمزق فى مختلف أجزاءه ، و هو اتجاه جديد و مشجع بحيث كونه فكراً شاملا يشترك فيه الاسلاميون و غير الاسلاميين ، و يدل على أن الوعى الجديد قد بدأ ينمو و يتسع ، و قد تعزز هذا الاتجاه باسلام عدد من المفكرين الغربيين و نقدهم للحضارة الغربية وأحدثهم رجاء جارودى ، و لا شك أنه موقف سلبى إذا لم يقترن بحل عملى ، ولكنه نشأ كنتيجة طبيعية لفشل النظم التى غزت العالم الاسلامى بجراء الاستعمار فى حل مشاكل الحياة ، فقد خضع المسلمون فكرياً و ثقـافياً و تعليمياً و سياسياً للفكر الغربى لأكثر من قرن فى كثير من بقاع العالم الاسلامى ، التى طبق فيها نظام الغرب الاقتصادى ، و درست فى معاهدها للتعليم ، أفكاره المادية و قبلت عقول المثقفين هــذه الأفكار ، و ساعدت الحكومات الاستعمارية من تولى الحكم من المواطنين بعد الحرية فى نشر هــذه الأفكار ، و منعت القوى الاسلامية من أن تفرض نفوذها ، بل عزلت عن الحياة ، وجعلت محصورة فى المدارس الاسلامية والمراكز الدينية ، وكل من تجرأ على نقد النظام السائد ، زج به إلى السجون ، وأطلقت الصحافة و وسائل الاعلام جميع سهامها عليه ، و شوهت سمعته ، و ألصقت به كل تهمة من الخيانة و الغدر ، و العمل لحساب الأعداء ، ومعاداة التقدم الحضارى ، ولكن رغم هذا الخضوع الكامل للفكر الغربى ،

و قبول نظام التعليم الغربي المادي ، وقبول ثقافته ، وقبول معيشته ، و تطوير الحياة حسب تخطيط الغرب ، رغم كل هذا التقليد و المحاكاة التي جرت طيلة هـــذه المدة التي شاب فيها الجيل الذي تلقى هذه الأفكار ، و قضى نحبه و خلفت أجيال جديدة نشأت كلياً في ظل قيم جديدة للحيـــاة و مقائيس جديدة ، لم يستطع العالم الاسلامي أن يكسب القوة و التقـــدم و الرخاء و الذكاء ، و الاستقلالية في الفكر و المعيشة المنشودة ، سوى ما نستطيع أن نصفه بلبس القبعة مكان الطربوش والتأنق في المعيشة ، و التظاهر كالرجل الغربي و التخلي عن الآداب الشرقية .

لقد حدث تغير و تطور بهذا المعنى ، فان الأزياء تغيرت ، و خرجت المرأة من البيت متبرجة ، وتغيرت الأخلاق ، و أساليب الكلام ، وغلبت طبيعة المحاكاة ، و تغيرت القيم و المظاهر ، ولكن هل يعتبر ذلك تقدماً حضارياً في الواقع ؟ وهل تعني الحضارة محاكاة أمة في الكلام والملبس و المأكل ، و كسب علومها أو فنونها ؟

إن الحضارة لا تعني المحاكاة و التقليد ، و إنما تعني التوسع الفكري و المدني والتهذب في السلوك ، والتقدم في الحياة بالتزام المقاييس التي تتميز بها أمة عن غيرها من الأمم و الاحتفاظ بالشخصية و التراث ، أثناء الاكتساب و الاقتباس بروح تزامل وبدون نفسية الخضوع و الاتباع ، ولا تقصير في محاولة الابداع و البحث ، و بهذا الاعتبار إن قبول العلوم والأفكار لأمة مهما بلغت في الر قي و التقدم بدون تطويرها و تعديلها ، و الاضافة إليهـا من الموارد العقلية المحلية ، لا يمكن أن يعتبر التقدم الحضاري ، لأن محاكاة حضارة لا توجد إلا في المغلوبين .

إن الذين دعوا إلى هذا التقليد في عهـــد غزو الحضارة الغربية إثر سيطرة الاستعمار ، إنمـــا عبروا عن طبيعة العبيد الذي لا يستطيع أن يفكـــر من ذهنه و عقله ، و إنما يفكر من ذهن سيده ، و تبهر عيونه أخلاق سيده ، و تصرفه في

الحياة ، أو يرغم على أن يتكلم . و يتصرف بطريق تخدم مصلحة سيده ، و قد كان من أسباب شقاء هذه الأمة أن وجد فيها مثل هذ الجيل من العبيد .

كان ذلك عصراً من عصور الخضوع العقلي للاستعمار الغربي، وقد برز الغرب فيه بقوة علمية وقد عسكرية قهرت النفوس ، ولكن من المؤسف أنه رغم اكتشاف هذه الحقيقة لاتزال هناك بقايا هذه العقول ، و إن شاخت و بلغت أرذل العمر . ففقدت تلك القوة و التأثير التي كانت تملكها في عهد سطوع شمس الغرب فتردد ذلك المنطق القديم التافه ، الذي تحمله أحياناً الصحف ، أو يسمع صداه في بعض الدوائر ، و المناقشات العلمية ، أو تضمه كتب تصدر بأقلام بقايا ذلك الجيل ما فيه استخفاف بالدين وتنويه بالغرب و حضارته و طعن في الاسلام . وتنقلها الصحف الاسلامية ، و تعبر عن سخطها و امتعاضها .

إنه في الواقع منطق غريب معزول ، بل مرزول في هذا العصر الذي فضحت فيه أوربا بفلسفتها و نظمها في عقر دارها .

في بداية عهد الاستعمار كان الكتاب ينسبون كل تخلف و اضطراب في العالم الاسلامي إلى الجهالة و الفقر و التمسك بالقيم القديمة و الالتزام بالدين و الفكر الشرقي ، وكانوا يتشدقون بتجربة الغرب في تغيير الحياة ، واحراز التقدم . ويدعون إلى محاكاته ، ولم يكن الغرب مجرباً ، فسحر هذا المنطق عقول كثير من المفتونين . وقد أتيحت لهذه الأفكار و النظم فرصة التطبيق ، و سخرت سائر الوسائل لنشرها ، فغير نظام التعليم و نفذالقانون المدني ، و طبقت سائر المناهج الغربية للحياة في الاقتصاد و الاجتماع و السياسة و المعاملات و عاشت أجيال في مراكز التربية في الغرب ، وعادت إلى بلادها متغربة كلياً ، و عاش الدين خلال هذه الفترة في قفص الاتهام في بلاد و واجه الاعدام في بلاد ، وتمتعت النظم القائمة بكل حرية

و سلطة لتغيير مجرى الحياة و نفذت خططها بدون معارضة ، و قامت فى كثير من البلدان نظم لا معارضة لها مخولة بسائر سلطات التنفيذ، بصورة إستثنائية، ولكن ماذا كسب العالم الاسلامى من هذا التطور و محاكاة الغرب فى هذه الفترة ؟ .

هل حقق الاكتفاء الذاتى فى الغذاء مثلا ، هل بدأ يصنع ما يحتاج إليه من السلع الاستهلاكية ، فضلا عن الكماليات ، و هل فتحت فيه مصانع الانتاج للمعدات الحربية ، فلا يحتاج إلى مساعدة الدول الغربية فيها ، وهل حقق الاستقلال فى نظام المواصلات ، و لا نعنى به القمر الصناعى ، و إنما نقصد به التلفونات و الاسلاك و الكابلات ، فهى أيضاً تستورد ، حتى الأفران و معدات الطباعة ، و الآلات الكاتبة ، و القرطاس الجيد ، و الكتب المدرسية فى العلوم العليا ، و الخبرة فى كل مرفق من مرافق الحياة يجرى استيرادها ، إن العالم الاسلامى وفيه الدول المتحضرة التى نبذت كل قديم ، كمصر وسوريا وتركيا، و دول متحررة ثائرة أخرى لا تزال تسير على خطى الدول الغربية ، وتستمد قوتها منها ، بل قوتها منها ، فما معنى الحضارة إذاً؟ وما هى مكاسب إقتداء الغرب و اتباع نظامه فى أعين وكلائه وعملائه فى العالم الاسلامى ؟ فان سجل قيادتهم لا يحمل إلا مآسى و مهازل و تتبير لما بناه الأولون .

إن مآسى العالم الاسلامى لن تنتهى إلا بمكافحة فكر الاقتداء بالغرب ، وعزل المروجين له عن مواقع النفوذ ، وقد حان الوقت لنفضح هؤلاء الكتاب الذين ينتمون إلى جيل العبيد فكرياً ، فقد أفسدوا كثيراً ، و هم أخطر من الغرب و قادته ، و هم أعداء الاسلام ، و أعداء العرب و أعداء بلادهم حقيقة ، و من أكثر عداوة و ظلماً ممن يحاول أن يخلق جيلا من العبيد و يعمل لحساب الأعداء ، لقد فضح الغرب فى عقر داره ، إنه يواجه اليوم مشاكله المستعصية ، فان بريطانيا التى قادت

هذه الفضيحة ، فضيحة استعباد الأمم . و استغلال العلم و القوة ، و تشويه الحقائق ، تئن تحت وطأة مسائلها بخزى و عار وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة ، و أمريكا تقع فى ورطة إثر ورطة ، وروسيا بفشلها فى الانتاج الزراعى وتطفلها على مائدة أوربا الغربية ، وخيبة فلسفتها الاشتراكية فى أهدافها والتخلص من المجاهدين فى أفغانستان الذين اقنعوها بجهادهم أن الايمان أقوى من السلاح ، وستكشف الأيام القادمة عن مزيد من مهازل الدول الأوربية المتحضرة ، وتبرز علامات احتضارها وعندئذ تتلاشى تلك الأصوات المرتجة لعبيد الحضارة الغربية ، و تتوقف تلك الأقلام .

لقد كان المؤمنون يدركون هذا المصير ، و يؤمنون بأن انتهاج هـذا الطريق لا يجدى العالم الاسلامى ، و إنمـا يزيد مسائله . و كانوا يقولون ذلك عن فراسة المؤمن و إيمانهم ، أما الذين يقولون ذلك الآن بعد هذه التجربة المريرة ، فانهم يقولون بدراسة الواقع ، وأما الذين لايزالون يرددون تلك الأفكار البالية رغم هذا الواقع المرير ، فهم من الذين لايعقلون ، و سيعلمهم الدهر الذى يؤمنون به .

لقد دخلنا مرحلة الوعى و الادراك ، و بدأنا نشعر بضلال القيـادات الفكرية والثقافية المستسلمة للغرب ولكن لايفوتنا أن الحياة سريعة الحركة ، فيجب أن ترافق هذا الشعور الذى يجد أنصاراً من الغرب نفسه مرحلة البناء من جديد على أسس فكرية وعقائدية صحيحة ، وأسس التجارب والخبرات ، فان مجرد النقد ينقض ، ولكن لا يبنى .

العمالة الأجنبية و الدعوة إلى الاسلام

كان إسلام القبائل المتخلفة و المضطهدة فى الهند حادثاً مقلقاً لزعماء الأغلبية الهندية و كان ذلك القلق و الفزع أمراً طبيعياً لهم ، و قـد شكل زعماء الحركات الهندوكية و الحكومة التى واجهت الضغط الشديد من هذه الحركات ، لجاناً للتحقيق ، و اتخذت خطوات لمنع هذه الاتجاه ، وكان لها بعض الأثر فى وقف التيار أو تخفيف

شدته ، و لكن تنقل الصحف الهندية بين فينة و أخرى أخبار اعتناق أعداد من رجال الطبقات المتخلفة الاسلام ، ما يدل على أن هذا الاتجاه يستمر . وهو بدون شك عنصر تفاؤل واستبشار لأتباع هذا الدين الحنيف الذين يحبون أن تكون كلمة الله هي العليا ، إذا كان بطيب النفس و الرضى ، بدون إكراه أو طلب نفع عاجل .

وقد حاول الباحثون عن أسباب هذا التطور الذى كان ضد استراتيجيتهم وتخطيطهم فى النظام التعليمى و الاقتصادى فى البلاد أن يقدموا أسبابا له تقنع الأغلبية فقالوا : إن السبب الرئيسى هو الاغراء المالى ، و الاغراء بالوظائف فى البلاد العربية ، إلا أن بيانات المسلمين الجدد تكشف بوضوح أنهم يسلمون بحثاً عن السعادة الحقيقية فى الحياة و الشرف ، و المعاملة الانسانية التى كانوا محرومين منها ، و أعلنوا أن كثيراً من مشاكلهم الاجتماعية حلت بمجرد دخولهم فى حظيرة الاسلام ، و أن نظرة الهنادك أنفسهم تغيرت عنهم ، فيعاملونهم خير معاملة ، لأنهم بدخولهم فى الاسلام لم يعودوا منبوذين .

إنها بركة الاسلام ، رغم أن المسلمين أنفسهم لبعدهم عن التعاليم الدينية ، لا يمثلون الاسلام الحقيقى فى حياتهم الاجتماعية ، وتوجد فيهم فوارق لتأثرهم بالبيئة ولعدم تعميم التربية الاسلامية ، فان الاسلام من أول يوم أعلن « كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

و قد كان سلوك الأولين يطابق هذا التصور كلياً ، فكان الأتقى منهم إمامهم ، و قائدهم ، و أميرهم ، و إن كان حبشياً ، وقد كان ذلك الانقلاب بمثابة انقلاب جبلة ، لأن العرب كانوا مجبولين على العصبية القومية ، و على الأنانية و النخوة ، و العصبية القبلية ، ولكن المعجزة ، معجزة تغيير الجبلة حدثت بفضل التربية النبوية ،

و بفضل هذا الانقلاب أصبحت الأمم المختلفة التى دخلت فى الاسلام أمة واحدة ، كأصابع اليد و أعضاء جسد واحد ، ليس له نظير فى التاريخ .

حمل المسلمون رسالة المساواة ، و رسالة حرية الانسان ، و خضوعه أمام رب واحد ، لا أرباب من دون الله و أن الطاعة لله و لرسوله ، و لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، و أن الخلق عيال الله ، و أثبتوا أنهم لا يريدون الملك و إنما يريدون أن تعلو كلمة الله ، وأن يدخل عباده فى السلم كافة ، بدون إكراه ولا إغراء. فانتشر الاسلام بهذه الدعوة الانسانية فى الهند وإندونيسيا، والصين ، والبلاد التى كان سكانها يعبدون الأصنام المنحوتة و يذلون رقابهم أمام بنى جلدتهم ، من الكهنة ، والحكام ، والاقطاعيين ، ورجال الطبقات العليا ، ويعيشون حياة العبيد ، وقد اتخذ بعض زعماء الأديان الأخرى لمنع هذا التدفق إلى الاسلام سياسة إبعاد أتباعهم عن المسلمين ، و منعهم من الاختلاط بهم لأن الاسلام يحمل تأثيراً تلقائياً اجتماعياً و حياة المسلم نفسها دعوة ، وتلقين تنجذب إليه القلوب ، لأنها عبارة عن النزاهة ، وسعة القلب ، و المروءة و التسامح ، والالتزام بالحقوق ، و العطف و الرحمة ، و السمو الفكرى ، و الترفع عن ملذات الحياة ، وطلب الأجر و المثوبة فى كل عمل فى خدمة الانسان ، حتى إماطة الأذى عن الطريق ، و خدمة الحيوان ، كما جاء فى الحديث الشريف فى كل كبد حرى أجر ، و الخدمة بدون غرض مادى ، أعمال و أفكار لا يوجد لها تصور فى المذاهب و الأديان ، و الفلسفات الأخرى وتستغربها العقول المادية أن يكون عمل بدون مقابل .

إن هذا السلوك فى أى شكل كان ، و بأى قدر كان فى حياة المسلم لا يزال يجذب القلوب ، فلو وجد ذلك السلوك تمثيلا كاملا فى حياة المسلم لأتى بانقلاب فى الحياة المعاصرة التى يشقى فيها الانسان ، فقد طغت المادية و الأديان المحرفة على

الانسان و جعلته عبداً للانسان ، و للعادات و الطقوس ، و التصورات ، و الأطماع و هوى النفس .

إن هناك فرصة أوسع للدعوة الاسلامية فى هذا العصر الذى يشق فيه الانسان ، وقد زالت فيه الحواجز بين مختلف البيئات و المجتمعات ، وبين الدول ، فينتقل سكان بلد إلى بلد آخر ، و يختلطون بأغلبية سكان ذلك البلد ، الذين يختلفون عنهم فى الفكر و الثقافة ، و المعيشة و منهج الحياة ، و تصورهم عن الانسان و سلوكهم معه ، فيمكن أن يجد أحد سلعته المفقودة فى بلد آخر ، و فى بيئة أخرى .

إن تصور الاسلام للانسان تصور يختلف عن سائر الأديان ، و الفلسفات الاجتماعية ، و قد بلغ هذا التصور من التحقيق و التطبيق فى التاريخ ، و الحياة الاسلامية درجة لم يبلغها تصور رجال الأديان ، والفلسفات المعاصرة الذين يتشدقون بحرية الانسان وكرامته ، فتحمل البلاد الاسلامية التى تتوجه إليها ملايين من العمال ، و العلماء و الخبراء من الدول الأخرى الذين لم يجدوا البيئة الاسلامية ، ولا فرصة لدراسة الاسلام و لتصوره الانسانى ، أمانة كبرى ، و مسئولية جسيمة فى عرض الاسلام عملياً ، وتتطرق أحياناً أخبار تفيد باعتناق بعض الخبراء والعاملين للاسلام ، ومنهم العمال الهنود وقد اعترض عليه بعض الزعماء ، والعالم يعلم أن البلاد الاسلامية لم تتخذ فى أى وقت من الأوقات سياسة التبشير التى تسلكها الدول المسيحية الاستعمارية ، ولم تتخذ وسائل الاكراه و لا الاغراء ، فان الذين يعتنقون الاسلام يعتنقونه عن رضاهم

إن الملايين الذين يعملون فى الخارج لايمكن أن يوضع عليهم حظر ، أو يمنعوا من الاختلاط بالبيئة الاسلامية ، وحيث إن الحكومة الهندية دولة علمانية فيجب عليها أن لاتنظر إلى المسألة بهذه الرؤية ، وقد أعلن بعض الزعماء المعتدلين أنهم لايعترضون على قبول دين إذا لم يكن نتيجة لاكراه ، و قد أعلن الاسلام بصراحة « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم » صدق الله العظيم .

الزعيم الاسلامى والصحافى الكبير
الأستاذ صالح العشماوى

بقلم ـ فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسنى الندوى
عميد كلية اللغة العربية وآدابها فى جامعة ندوه العلماء

توفى فى مصر الزعيم الاسلامى والصحافى الكبير الأستاذ صالح العشماوى وبذلك رزئت الأمة الاسلامية العربية فى شخصية لها كبيرة ، من شخصيات الدعوة الاسلامية والفكر الاسلامى للجيل الاسلامى العربى الحالى .

كان من أهم ميزات الأستاذ المرحوم هى الصحافة الاسلامية بل إنه كان من زعمائها وقادتها ، فقد أصدر صحيفة « الدعوة » كمنبر صحفى للدعوة الاسلامية و الفكر الاسلامى ، كان المسلمون يسمعون منه صوت الحق و كلمة الاسلام المدوية ، وقضت الصحيفة تحت إشرافه عهداً حافلا بجهود الانعاش لروح العمل و الدعوة للاسلام فى أنحاء مصر و البلدان العربية ، حتى بلغت أضواء هذه الصحيفة إلى بلدان غير عربية ومنها الهند ، وقلدتها صحف إسلامية مختلفة فى شتى البلدان ، ومنها صحيفتنا « الرائد » ، فقد تأست بأسوتها ، و قلدتها فى جوانب .

قضت صحيفة « الدعوة » مدة من الوقت كقدوة لعدد من الصحف الاسلامية العاملة لتربية الجيل الاسلامى الصاعد على حب الاسلام والعمل الدعوى له .

و كانت جهود الأستاذ المغفور له هى التى اكسبت الصحيفة هذه الميزة ، لما كان له من الكفاءة و البراعة فيها ، فقد كان يكتب بقلم مؤثر قوى يصدر منه الكلام مزداناً بالقوة و الرشاقة و البيان و كانت افتتاحياته فى الصحيفة تشهد بذلك .

لقد عاش المرحوم صالح العشماوى زمن اندلاع الثورة المصرية قبلها وبعدها ، و قد شاهد الأوضاع و الظروف التى أدت إلى هذه الثورة وكانت الثورة فى بداية أمرها سائرة فى مجال الاصلاح والتغيير الحسن فرحب بها الاخوان ومنهم المرحوم صالح العشماوى ، فقد رحب بها بافتتاحية قوية بليغة فى صحيفة الدعوة كان عنوانها « جيش باسل وشعب عظيم » فانى لا أزال أذكر وقع هذه الافتتاحية المؤثرة القوية

على نفسى و كانت الافتتاحية رمزاً لبراعة قلم كاتبها ، و بلاغته الأدبية ، فقد كانت تزدان به من أناقة اللفظ و رشاقة التعبير ، ولم يكن ذلك أمراً خاصاً بل كان قلم المرحوم يدبج بمثلها ، فى موضوعات أخرى أيضاً ، و كلها كانت تدور فى مجال اثارة النفس المصرية المسلمة لما فيه خير مصر الاسلامية والعرب المسلمين .

و دأبت صحيفة الدعوة سنداً للاسلام والمسلمين ومبعثاً لمعانى الشوكة الاسلامية و الأمل الوطيد إلى أن دخل فى تحريرها المرحوم الشهيد سيد قطب ، وكان معروفاً لدى قرائه بمقالاته المتوقدة حرارة و التهاباً فى سبيل تحرير مصر من ربقة العبودية للحضارة الغربية و الدبلوماسية الأوربية للاسلام والمسلمين ، ومقالته بعنوان « الرجل الأبيض هو العدو رقم١ ... » نموذج رائع لأسلوبه الكتابى فى هذا المجال .

ثم تولى الشهيد سيد قطب رئاسة صحيفة الاخوان المسلمون التى احتجبت بعد فترة من الزمن لأسباب سياسيـــة قاهرة و بقيت الدعوة تؤدى دورها ، فى تثقيف الناشئة المسلمة على معانى الفتوة الاسلامية . وبذلك كان لها سهم كبير فى صبغ الصحافة العربية بصبغة الاسلام الموافقة لروح العصر ومتطلبات الوضع السائد فى ذلك الحين .

وكان الأستاذ العشماوى رحمه الله بالاضافة إلى اختصاصه الصحفى ، من كبار قادة جماعة الاخوان المسلمين . كان عضواً فى مكتب الارشاد العام ، و ساعداً فى سواعد رئيس الجماعة الأول الامام حسن البنا الشهيد ، و ذلك بدرجة أن اسمه جاء من بين الأسماء التى تداول البحث فيها لاختيار المرشد العام الجديد بعد شهادة المرشد العام السابق الأول ، و كان الاخوان المسلمون ينظرون إليـــه بهذه النظرة إلى أن وقع بعض الاختلاف تحت وطأة الحوادث و انشق رأى الاخوان فى شأن عدد من قادتهم ، ولكن الأستاذ المرحوم بقى يؤدى دوره فى مجال العمل الاخوانى الاسلامى إلى أن وافته المنية فى عهد شيخوخته . و لقى ربه ، فانا لله و إنا إليـــه راجعون ، و إننا نرى فى هذا الحادث خسارة للأمة الاسلامية من جهتين ، جهة العمل الصحافى الاسلامى ، و جهة الفكرة الاسلامية .

و ندعو الله له بالمغفرة و المثوبة و لذويه بالصبر و السلوان .

صدر حديثاً :

المنهج الإسلامي السليم

السيد محمد الحسني

منشيء مجلة « البعث الاسلامي »

و رئيس تحريرها سابقاً

تقديم

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار القلم الكويت

إعلان الملكية

١- مركز النشر : دار العلوم ندوة العلماء بادشاه باغ لكهنؤ ٢- شهرية

٣- الطابع : جميل أحمد - هندى - ٢٦٥/٤٩ ساكن وكتوريه كنج لكهنؤ

٤- الناشر : جميل أحمد - هندى - ٢٦٥/٤٩ ساكن وكتوريه كنج لكهنؤ

٥- رئيس التحرير سعيد الأعظمى الندوى و واضح رشيد الندوى

هندى الجنسية ٦- مالك : ندوة العلماء لكهنؤ

أنا الموقع أدناه جميل أحمد أصدق أن التفاصيل المذكورة

أعلاه صحيحة على حد علمي   الناشر : جميل أحمد

مارس سنة ١٩٨٤م

Albaas-el-islami

NADWAT-UL-ULAMA, LUCKNOW.(INDIA)

أحاديث صريحة

مع إخواننا العرب والمسلمين

أحاديث أخوية صريحة ، ونقد مخلص هادف لواقع العرب و المسلمين ، وتذكير لهم بمركزهم الدعوى القيادى ، و واجبهم نحو أنفسهم و العالم المعاصر

محاضرات

ألقيت في الخليج العربي في مواضع و موضوعات مختلفة

ألقاها

سماحة الشيخ

أبو الحسن علي الحسني الندوي

أمين ندوة العلماء العام

في لكهنو (الهند)

الناشر :

دار عرفات (للنشر و الترجمة و التوزيع)

دارة الشيخ علم الله الحسني ـ رائے بریلی (الهند)